

اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث

كتاب يبحث عن تاريخ العراق في العصور المظلمة

المستتر ستيقن هيمسلي لونكريك
المفتش الاداري في الحكومة العراقية سابقاً

نقله الى العربية

جعفر النخياط

مدير التعليم المهني العام

(الطبعة الرابعة)

مقدمة الطبعة الرابعة

كان نشر الطبعة الاولى من هذه الترجمة ، في ١٩٤١ ، قد لقي تشجيعاً غير يسير من القراء ، فأدى ذلك الى ان تنفذ الطبعة الاولى بسرعة ، والطبعتان الثانية والثالثة اللتان ظهرتتا بعدها • واستنادا الى هذا الاقبال والتشجيع عازمت على أخراج الطبعة الرابعة بحلتها هذه ، عساها تحظى بنفس الاقبال والرواج لتعم الفائدة ويتقدم وعي العراقيين تجاه تاريخهم الحافل بالعظات والعبر •

وقد أجريت في هذه الطبعة كذلك تنقيحات عدة ، وأضفت بعض الشروح والتعليقات ، ثم أعدت كتابة عدد من الجمل والصفحات ، متوخيا الدقة في التعبير والامانة في الترجمة الى أقصى حد ممكن •

فعسى أن أكون قد وفقت في ذلك كله ، وقمت بما يحتمه علي الواجب تجاه هذا البلد الكريم الامين •

ومن الله العون والتوفيق •

بغداد في : غرة تموز ١٩٦٨

٥ ربيع الثاني ١٣٨٨

جعفر الخياط

ترجمة الكتاب الذي بعث به المؤلف

الى مترجم الكتاب بعد تسلمه نسخة من الطبعة العربية الاولى

ادارة أراضي العدو المحتلة^١

(اريتريا)

أ سمره : ٢٢ تشرين الاول ١٩٤٢

السيد جعفر الخياط

مدير التعليم الثانوي

وزارة المعارف - بغداد

لقد تسلمت ، بواسطة الكابتن هولت^٢ ، نسخة من تعريبكم الذي يشير
الاعجاب لمؤلفي عن تاريخ العراق • وأرجو أن تقبلوا شكراتي الصميمة عن
هذه الهدية التي أدخلت عليّ سروراً عظيماً • وأني أقدر غاية التقدير ما ذكرته
في مقدمتك عن « تاريخي » وعن نفسي •

وانا واثق بأن قيمة الكتاب ستزداد كثيراً ، وستكون أكثر خلوداً ، بشكله
الجديد في العربية • وان العراق لذو حظ بعثوره على مثل هذا المترجم المتمكن •
وآمل ان يستفيد من الكتاب جمهور أكبر من القراء والباحثين •

المخلص

ستيفن ه • لونجريك

أمير اللواء

(١) لقد اشترك المؤلف مع الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية -
ايضا برتبة « أمير لواء » - المترجم •

(٢) «السكرتير الشرقي» الأسبق في السفارة البريطانية ببغداد - المترجم •

Occupied Enemy Territory Administration
(Eritrea)

Asmara, 22 October, 1942.

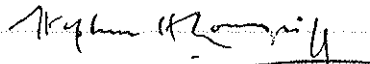
Sayyid Jafar Khayat,
Director of Secondary Education,
Ministry of Education,
Baghdad.

Dear Sir,

I have received, through Capt. Holt, a copy of your admirable translation of my work on the History of Iraq. I ask you to accept my cordial thanks for this gift, which has given me great pleasure. I appreciate highly the terms in which you speak in your Preface, both of my history and myself.

I am confident that the value of the book will become much greater and more permanent in its new form in Arabic, and Iraq is fortunate in having found for it so accomplished a translator. I hope it will bring benefit to a very wide public.

Yours faithfully,


Stephen H. Longrigg
Brigadier

مقدمة المترجم

عصفت ريح الخراب في العراق وكبا جواد العرب في نهاية العهد العباسي . فتدفقت على هذه البلاد سيول من قبائل المغول والتركمان ، ملأت الاغوار والانجاد ، واكتسحت القرى والبلاد . وظلت هذه القبائل تعيش فنكاً في الارض وفساداً في البلاد ، وتجهز بوحشتها على بغداد عاصمة الاسلام وحصنه الحصين حتى انطفأ نور الخلافة العباسية منها ، فغمرها ظلام دامس لا تستبين العين فيه الا نار الخراب التي أشعلتها يد الجور الاثيمة ، ولا يسمع فيها الا انين مدينة سارت بذكرها الركبان . واذا بهذا الانين ينقطع فيعقبه صمت الموت الرهيب ، فتدخل هذه البلاد من أدناها الى أقصاها في سبات عميق ظلت تغط فيه طوال عدد من القرون ، حتى استفاقت على صوت المدينة الحديثة وهو يدوي في الآفاق .

وقد بقيت البلاد خلال هذه العصور المظلمة نهياً بأيدي الامراء المغول والتركمان ردحا من الزمن ، تتقاذفها أطماعهم وتستعر في ميادينها حروبهم حتى قضى بعضهم على بعض ، وابتلعتهم هذه الارض الزكية كما ابتعلت الفاتحين من قبلهم . وتبع ذلك نزاع الترك والاييرانيين على بغداد الكسيرة ، وكانت تلوح للفريقين بمجدها الذاهب وعظمتها السالفة واسمها الذائع الصيت .

وقد نزلت بالبلاد خلال النزاع المحتدم بين الايرانيين والأتراك العثمانيين عليها طوال القرون الاربعة الاخيرة كوارث جسيمة ، وحدثت فيها حوادث عظيمة وعظمت بالغات ملأى بالعبء ، فلم يدون أكثرها ، وأما دون قسم منها هنا وهناك . مبغشراً متناثراً . وبقيت أحوال هذه الحقبة الطويلة مطوية في سجل الزمان وفي طي الغموض والنسيان حتى عصرنا هذا حين اتجهت الانظار من الغرب الى بلاد الشرق ، وإلى هذه البلاد خاصة ، لما فيها من ثروة ، ومركز جغرافي متمسك يلوح للطامعين من قريب ومن بعيد .

وكان من حسن حظ هذه البلاد ان ينبري للاهتمام بتاريخها رجل انكليزي فاضل اشتغل فيها عدة أعوام ، في عدد من المناصب الحكومية المهمة ، فخبير الامور فيها وسبر أغوارها وأطلع على ما خفي منها وما ظهر ، ذلك هو المستر ستيفن هيمسلي لونجريك مؤلف هذا الكتاب . وكان من الآثار الحسنة لاهتمام

المستر لونكريك بتاريخ البلاد هذه ان أتخف عالم المطبوعات بكتابه « أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث »^١ هذا ، قطعه وأتقن أخراجه فظهر أول مرة سنة ١٩٢٥ • ولقد سد بأخراجه هذا الكتاب فراغاً كبيراً في التاريخ لم يكن بوسع أحد أن يسده الا بعد الجهد الجهد والكد الطويل • لان تاريخ الحقبة الطويلة من العصور المظلمة المنحصرة بين سنة ١٥٠٠ و ١٩٠٠ للميلاد لم يسبق أن كتب بصورة جامعة شافية في العربية ولا فى اللغات الاجنبية ، ولذلك أصبح الكتاب يعد حلقة جديدة ، كانت معدومة ، لسلسلة تاريخ هذه البلاد الحافل •

ومن الغضاضة على هذه البلاد ان ينبري لكتابة تاريخها رجل أجنبي ثبتت فى سبيل أخراجه للكتاب عقبات اللغة ، وندرة المراجع ، وعقم الروايات الكثيرة ، فيخرجه بهذه الحلة القشبية • وكان من المؤسف ان يخرج مثل هذا التاريخ بلغة أجنبية ، وهو على جانب عظيم من الاهمية ، فيبقى أعواماً طويلاً من دون ان ينقل الى العربية فيطلع عليه أبناء هذه البلاد وأحفاد الذين يبحث عن تاريخ أسلافهم وأجدادهم • هذا هو الشعور الذي كان يخالجني ويملاً نفسي عند ظهور الكتاب بالانكليزية وقراءتي آياه بكل اقبال وامعان • وقد مرت السنين والاعوام وسنحت لي الفرص واذا بي مندفعاً لتحقيق ما كنت أفكر فيه • فأقدمت على ترجمة الكتاب برغم ما تصورته من متاعب ومشاق متوكلا على الله ، ثم عمدت الى طبعه بعد ان هممت بذلك مراراً عدة حتى أخرجته بهذه الحلة من الطباعة •

ويعد هذا التاريخ سجلاً حافلاً بالحوادث المروعة التي وقعت في العراق خلال عدة قرون ، قطعت طابعها عليه وأثرت فيه آثارها اليئة الظاهرة للعيان حتى الآن في شتى المناحي والمرافق • ومن يتطلع فيه ، وفي تاريخ العراق القديم وأحواله حتى السنين الاخيرة يجد ان العراق ، وهو ذو الثروة الكامنة والموقع الجغرافي المهم ، لا يعد تاريخه الا سلسلة من تاريخ تناضل الشعوب والامم القوية عليه طمعا منهم فى كبوزه وحباً لموقعه • فقد تقاتل عليه من قديم الزمان الايرانيون والرومان ، والعرب والتركمان ، وتناحر عليه الايرانيون والأتراك العثمانيون عدة قرون ، ثم طمعت فيه في العهد الاخير الامم العربية المختلفة مما لا يخفى أمره على أحد • وها ان العراق يهب اليوم لتكوين كيانه في وسط هذا

العالم المصطخب ، الذي تضارب فيه المصالح والمنافع وتستمر فيه نيران الاطماع ، وله من ماضيه القريب وغير القريب ، الحافل بالفتوح المفعم بالدسائس والمؤامرات وبالكوارث التي أنزلتها به الطبيعة ، من طاعون يتكرر حدوثه وأمراض متأصلة وغرق البلاد في فيضان الرافدين في كل عام ، ما يدل بآيضاح تام على المشاكل التي تحيط به والعقبات الثابتة في سبيل تقدمه • وكتابنا هذا صفحة ناطقة خلت في هذا السهل الواسع ، الممتد في وادي الرافدين ، وهي تبحث في هذه المشاكل بتفصيل وأسهاب وتشير الى أن هذه البلاد ، التي تقطن في أرجائها العشائر العربية والكردية ، في السهل والجبل والبطائح والاهوار ، ويجري في عروق سكان مدنها خليط من دم أقوام مختلفة ، يجب ان توضع الخطط القويمة لحكمها وترسم الرسوم الصالحة لتسيير سكان الامور فيها • على أن يعتبر بالعبر البالغة التي يزرع بها تاريخ هذه البلاد ، وتدونها كل صفحة من صفحات هذا الكتاب •

ومما يزيد في قيمة الكتاب التاريخية ان المؤلف رجل محايد لا يمت بصلة الى أية جهة يبحث فيها ، سوى ما لاحظناه فيه من الانتصار لقوميته عند البحث عن علاقات امته بالبلاد ونشوء مصالحها شيئاً فشيئاً ، ثم تعاطف ذلك مما لا يخفى أمره على الجميع • على ان هذا لا يعني أنه يغفل الحقائق التي قد يعد ذكرها تحاملاً على أمته أو بني جنسه • ولهجة المؤلف في الكتاب يستفحل فيها التهكم اللاذع ، فهو يسرد الوقائع حقائق مرة على ما فيها من صحة ومطابقة للواقع •

وقد توخيت ان تخرج ترجمة الكتاب ترجمة حرفية بقدر الامكان لتكون أقرب ما يمكن من آراء المؤلف وأفكاره • وعلى هذا فالمؤلف وحده هو المسؤول عما جاء في الكتاب ، وعليه العهدة فيه ، وما انا الا ناقل لذلك •

وهنا يدعوني الواجب الى الاشارة بالشكر العطر للمصديق الفاضل الدكتور مصطفى جواد لما تفضل به في مراجعة الكتاب ولبعض التعليقات القيمة التي علقها في الحاشية وقد أشير لها بحرفي (م • ج) مضافاً الى ذلك مساعدته في احتساب السنين بالتقويم الهجري الذي رأينا من الضروري ادراجه مع حساب السنين بالتقويم الميلادي الذي ذكره المؤلف وحده •

ولابد لي في الختام من أن أسجل ها هنا أعجابي بجلد المؤلف وتعبه وبقابلية استقصائه ، واعداده المراجع الكثيرة بشتى اللغات ، تلك القابلية التي لولاها

ما ظهر الكتاب بهذا المظهر ، وأن أنوه بالشكر له على تفضله بالموافقة على ترجمة الكتاب ، فقد رحب بذلك بكتاب خاص منه أرسل به الي •

وأني لشاعر ، أذ أخرج هذه الترجمة ، بأني قد أديت جزءاً من الواجب المحتم علي في سبيل خدمة العراق • وآمل أني وفقت للقيام بذلك ، سدد الله الخطأ ووفقنا تعالى لما فيه خير الامة والوطن •

بغداد - ٧ رجب ١٣٦٠

أول آب ١٩٤١

جعفر الخياط

مقدمة المؤلف

ان القطر الذي يكون تاريخه ، خلال القرون الاربعة الاواخر ، موضوع هذا الكتاب هو القطر الذي يتكون - مع اختلافات في التفصيل فقط - من الولايات التركية : بغداد والموصل والبصرة في شكلها الاخير . على ان اطلاق أسم العراق بهذا الشكل قد يكون موضع أخذ ورد ، لانه لم يكن يشيع استعماله بهذه الدرجة من الاهمية خلال القسم الاكبر من المدة نفسها ، كما انه كان يطلق في بعض الاوقات ليدل على قطر يختلف تمام الاختلاف عما هو عليه اليوم . غير انه ليس هناك من الاسماء ما هو أكثر انطباقاً ، ووضوحاً عند جمهور أصبح متعوداً تمام التعود عليه ، مثل الاسم الذي تحمله المملكة العراقية في يومنا هذا .

ولو وجد المؤلف تاريخاً شافياً بدرجة معقولة للبلاد في العصور الحديثة - منذ أوائل القرن السادس عشر الى نهاية القرن التاسع عشر - لما أقدم على اقتحام هذا الميدان . فلم يكتب مثل هذا التاريخ من قبل باللغة الانكليزية ، ولا باللغات الاوربية الاخرى ، سوى رسالة واحدة لا تقني بالمرام . وليس بين الكتب المطبوعة بلغات آسية الغربية ، ولا بين الكتب المخطوطة ، ما يمكن ان تسد ترجمته الفراغ الموجود في هذا الشأن . فقد حظيت المدونات القديمة عن العراق ، ومدونات القرون الوسطى عنه ، منذ القدم وما تزال تحظى بعناية الأناريين والمؤرخين التي تليق بمهد حضارة الانسان ، وبمركز يعد من أهم مراكز الامبراطوريات القديمة ، وباصتقاع مر بها كبار القادة من الاغريق والرومان ، وبمشهد مجد الاسلام ومفاخره في زمن العباسيين . لكن هذه الشهرة العريقة في القدم قد خابت خيبة لا مثيل لها في ان تستجلب نظرة من العطف الغريب النادر على التقلبات التي تلت تلك العهود والاهوال التي كابدها البلاد . فقد نفر عصر الفقر ، والفوضى والاهمال الطويل ، الذي أعقب غزو المغول للبلاد ، مؤرخي حمورابي وكوبرش ومؤرخي سلوقس وخسرو وهارون على حد سواء . ففمرت تاريخ العراق ظلمات مختلفة الدياجير منذ الساعة التي انطفأ فيها نور الخلافة الوهاج حتى القرن الحاضر . والحقيقة ان كثيراً مما له علاقة بالفترة المتقضية ما بين احتلال هولاء للبلاد وميلاد أيران الصفوية يمكن أن يوجد مدوناً في تواريخ المغول والتتر والتركان المغمورة ، لكن مؤلف هذا الكتاب

لم يتدخل فيه شيء • وإنما اقتصر في بحثه على الحقبة الأخيرة التي لم يصبها إلا نزر يسير من البحث والتقيب •

بيد أن ما يسوغ له كتابة صفحات كثيرة مثل هذه ، وهي متعبة في كثير من الأحيان ، لا ينحصر في المجد والمنافخ المتضائلة في القدم منذ مدة بصورة خاصة • وإنما ينحصر في بحثه عن تاريخ أصقاع مترامية الأطراف ، مهمة بموقعها ، مدهشة بثروتها القديمة وعظيمة بثروتها الكامنة في هذا اليوم ، وعن أحوال طبيعية واجتماعية ثابتة تستحق الدرس بكونها أساساً للتاريخ سواء أكانت فريدة في بابها أم لم تكن ، وعن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها المتأخر جداً بأرواح الألوف من أبناء بلادنا ومصائرهم ، ويعد مستقبلها اليوم مشكلة تثير أشد أنواع الاختلاف والجدل • واستناداً الى السبب الأخير هذا يتمنى المؤلف ، وهو يجازف في ذلك ، بأن يكون ظهور هذه الصفحات قد جاء في وقته ، وأن تلقى بما فيها من الحقائق التاريخية الواقعة ترحيباً عند أولئك الذين يقدرونها حق قدرها باعتبارها أساساً تستند اليه آراؤهم وأفكارهم •

ومدونات العراق التاريخية بحد ذاتها تحتوي في الوقت نفسه ، منذ أيام سليمان القانوني ، على شخصيات بارزة حرمت من مكانها الذي تستحقه في التاريخ ، ووثائق خلو من القيمة التاريخية أو الدراماتيكية ، ومواد تاريخية يمكنها أن تلقي ضوءاً على الولايات الآسيوية التابعة لامبراطورية السلطان في أوجها وانحطاطها • فعلى مؤرخ الجزيرة العربية أن يتجه الى هنا عندما يريد البحث عن ناحية من أهم نواحي القبائل البدوية وهي ناحية ظهور « المجددين »^١ الشرسين ، وعن ما جرى في بواديها ووحاتها ، وعلى مؤرخ إيران أن يتجه الى هنا كذلك حينما يريد البحث عن مشاهد النزاع الديني والامبراطوري المر الذي امتد طوال العصر بين « الرفض » و « السنة » حيث استولى أبطال شهيرين من الامبراطوريتين ، مرة وثانية ، على همدان والوديان الكردية وبغداد • وعلى مؤرخ الاكراد (الذي لم يظهر بعد) أن يتجه الى هنا أيضاً اذا ما أراد البحث عن تعامل دويلات الوديان الجنوبية مع الجهات التي كانت تتبع لها ، وعلاقاتها هي بعضها ببعض • كما يجب على مؤرخ الشركات البريطانية أن يتجه الى هنا في

(١) يقصد الوهابيين - المترجم •

الوقت نفسه للوقوف على ما يختص بأول مؤسسات متواضعة واتجارها مع البصرة ،
وبتعاظمها البطيء الذي انقلب الى سيادة ديبلوماسية واقتصادية في النهاية •

ولقد جابه المؤلف ، الذي يطمح مثل هذا الطموح ليفيد غيره من المؤلفين.
ورجال الدولة والمستشرقين ، واجبه هذا في أحوال يكتنفها شيء كثير من
الانشغال ويحيط بها طقس قاس ، وتبعد فيها عنه المكتبات والمراجع • وهو
لا يمكنه أن يأمل ستر نواقص « الطبعة الاولى » هذه عن نباهة القاريء المدقق •
على أنه شعر بأن فرصته النادرة التي تسهل له الاتصال بالمراجع الشرقية ،
وأفضلية المساعدة التي يحصل عليها من الباحثين المحليين ، واقامته الطويلة في
العراق (الضرورية لمعرفة أحوال البلاد ولغاتها والوضع الطبوغرافي فيها)
قد اضطره الى ان يحاول القيام بعمل لا يروق الا للقليل من الناس • وهو
سيرحب بالفرصة التي يظهر فيها بأقرب ما يمكن كتاب تدبجه يد مؤرخ أبرع من
يده ، ليحل محل كتابه هذا ، وعندئذ سيكون في متناول تلك اليد استقصاءات
المؤلف نفسه •

ولا يمكن ان يعترف هنا اعترافاً تاماً بالمساعدات السخية التي قدمها له
الكثيرون من الاصدقاء العراقيين في تهيئة المواد المخطوطة ، والمؤلفات التركية
النادرة ، وفي الخدمات الكتابية • على أنه ليس من اللائق ان تهمل الإشارة هنا
بالشكر الى حمدي بك بابان (من أفراد الاسرة الشهيرة الوارد ذكرها في الكتاب) ،
وبعقوب أفندي سر كيس ، ومحمود بك الشاوي ، وحسن بك في الحلة ، وداود
بك الحيدري ، والشيخ أحمد باش أعيان • وقد قدمت للمؤلف معلومات قيمة
في التاريخ الاخير لبعض المواقع الخاصة من الحاج عذار في البصرة ، والحاج
شكري بك في الحلة ، وحמיד خان في النجف ، وعبدالمجيد بك اليعقوبي في
كر كوك ، وكثيرين غيرهم • كما سهلت الاعمال الكتابية التي قام بها زاهد
أفندي ، وعبد الجبار أفندي ، ويوسف مالك ، مهمة جمع المراجع والمعلومات
نسهيلاً كبيراً •

بغداد - شباط ١٩٢٥

س • ه • ل •
(المؤلف)

الفصل الاول

العراق والفتح التركي

البلاد فى ١٥٠٠

العروق والمجتمع

ليس بين البلاد المشهورة قديماً سوى بلاد قليلة اختفت عن أنظار العالم المتأخر ، وأصبحت أكثر خمولا في ذكرها ، كالبلاد التي كانت في وادي دجلة والفرات في أوائل القرن السادس عشر . فقد اكتسحت أمجاد هذه البلاد القديمة موجات بشرية متتالية من الشرق الاقصى ، فأدت الى قيام سلالات مالكة عدة وسقوط اخرى غيرها . ولم يترك للعراق ما استجد من شؤون النهضة الحديثة في أوربة ، وعالم كولومبس الجديد ، وخطط ملوك أوربة النابيين في خلق دول جديدة من أمم متكثلة ، الا شيئاً يسيراً يمكن ان يلفت به أنظار الغرب اليه . وقليل من الناس من كان يعتبر « بابل » و « نينوى » وبغداد مواقع لها وجود في أي بلد من البلاد الحية ، وأقل من هؤلاء من كان يسمع بتبادل المراسيم الدبلوماسية نادرة الوقوع ما بين ولاية العراق وبلاطات أوربة . وكانت قصص السياح والرحالين صنيعة بالاخبار ولا تمت الى الحقيقة بصلة . ولم يهتم بالبلاد الواقعة شرقي البحر الابيض المتوسط ، بوصفها مصدراً للتحرير والتوابل والابازير المتبادلة في سورية ومصر ، أو واقعة في الطريق اليه ، سوى دول أوربة الجنوبية المهتمة بالملاحة . ومن أجل هذا كانت رحلات دياز ودوغاما البحرية قد أثارت الاهتمام بالبلاد الهندية وما جاورها . فقد مخزت أساطيل البرتغال عباب البحار الهندية قبل أن ينتهي القرن الخامس عشر ، واستعمرت في الخليج العربي قلعة هرمز العظيمة سنة ١٥٩٧ (٩١٣ هـ) . وكان تجار البندقية وجنوة يسلكون الجسر الارضي الممتد بين سواحل الابيض المتوسط والسواحل الايرانية بصورة دائمة ، على قلة

(١) توافق سنة ٩٠٦ للهجرة .

ما كانوا يفعلون ، فينزلون في خانات بغداد او « بابل » ، ويشاهدون النجف ،
ويتلبثون أيام مرورهم في الزبير •

فعلى مثل هذه التفاهة كانت مكانة العراق وأهميته في العالم قبل ان تعود به
وتجعله قبة الانظار من جديد - بمقياس متواضع - الصوفية الايرانية الآخذة
بالنمو ، وفتوحات السلطان الشرقية ، وتوسع تجارة الدول الغربية ومغامراتها •
غير ان العراق في الوقت نفسه لم يكن فيه ما يشير أطماع جيرانه • فقد
كانت البلاد على عظمة ما ضيها ، وعلى ما فيها من ثروة دفيئة ما تزال تنتظر العلم
والحكم المستير لاستثمارها ، قد تقادم فيها عهد الخراب الذي سببه الجور الميّد
فأصبحت قفراً موحشاً تسود فيها الاحكام الفوضى من القلعة الصخرية في ماردن
حتى شط العرب •

وكان المسافر اذا مر بالبلاد سالكا الطرق ، التي كونها استطرافها منذ القدم ،
يلقى اضطراب أحوال الجو ومشاق السفر الخاصة بكل قسم من البلاد • فقد
كان يمكن المسافر أن يمر من جنوبي العراق الى وسطه في نهر الفرات حتى
الحلة ، أو في الفرات والغراف^١ ودجلة الى ايوان كسرى • وأذا ما سلك المسافر
الطريق المذكورة فكان يبدأ من الجنوب بشط العرب فيمر بذلك الطريق الزاهر
نسم يخترق أهوار الحلفاء والبردي ويدفعه « ادلاؤه » على طول جداول قد غطت
جانبها النخيل في مواضع ، والصفصاف في أخرى ، وتتفرع ثم تلتقي ابداً
ودوما • واذا مر من هناك فقلما يصادف غير قطع من الارض مزروعة بالذرة أو
الشعير ، ويشاهد قطعان الجاموس وقرى المعدان المتألّفة من الخصاص « يسوت
الحصران القصية » أو بيوت الشعر التي يأوى اليها الرعاة بعد ان يدفعهم جفاف
البادية الى ضفاف الانهر • وفيما فوق البصرة كان يقع برج الدير العظيم ، وفيما
فوق القرنة الى صدر الغراف كان يشاهد نهر عترة والمنصورية وكوت المعمر وهي
أكثر المناطق سكاناً وأثبتها من بين ما يقارب ألف مجموعة من مجموعات المنازل

(١) كانت اكثر مياه دجلة تسيل في الغراف منذ أيام الساسانيين حتى
سنة ١٥٠٠ ، وكان القليل منها يسير ماراً بالعمارة الحالية فالقرنة • وفي ١٥٧٥
انقسمت مياهه بين هذين الطريقين الى قسمين متساويين ، وفي ١٦٥٠ رجعت
المياه كلها الى الطريق الشرقي • ويدعى فرع الغراف الآن شط الحي •

العشائرية المماثلة لها • أما على الغراف فلم يكن أي بلد من البلدان الحديثة موجودا سوى الحي الواقعة فيما يقرب من واسط القديمة • ولم تمصر حينذاك على دجلة العمارة والكوت والبغلة (النعمانية) والعزيرية والصيرة • وكان الفرات الاوسط يمر من العرجة والسماوة ولملوم وحسكة (الديوانية اليوم) وكثير من القرى المأهولة الواقعة بين بساتين النخيل الى الحلة • وقد كانت تقع الى الغرب ، في أرض تتعرض للفيضان في الربيع ، الرماحية والكوفة والعتبات المقدسة • أما البلاكوباس - أعني - فرع الهندية من الفرات فقد كان جافا مطموراً مهجوراً • وكانت بلدة الكفل (كما هي بلدة العزيز على دجلة) من أماكن اليهود المقدسة • ولم تكن طويريج قد مصرت بعد ، والمسيب كانت تكثر فيها الحركة لوقوعها على طريق زوار كربلا • ومن هناك بمراحل ثلاث ومن الحلة بمراحل أربع كان المسافر يصل بغداد عن طريق البر •

على مثل هذا كانت المناظر والبلدان في العراق الجنوبي • وهي وان كانت تشابه وضعها اليوم فانها كانت أكثر اختلافاً من المناطق الشمالية • فلم تكن مجاري الانهار مثلها اليوم ، وكانت الاهوار تمتد الى الشمال أكثر مما تمتد اليه اليوم وتغمر مساحة أوسع ، وكانت الفيضانات في الربيع مستفحلة بالكلية • وكان في هذه البلاد القليل من الزراعة والاقبال على تربية الحيوانات التي يقوم بها البدو • وكان الصفصاف والغرب اللذان يقل وجودهما اليوم يكسوان ضفاف الانهر حينذاك ، كما كانت مظاهر العظمة السالفة ، أقل اندثاراً •

ففيما فوق الفلوجة وسامراء الى ما وراء جبل حميرين كان مستوى الارض يرتفع وطبيعتها تبدل • فلا يبقى للاهوار والصفصاف من أثر ، ولا للمعبدان والجاموس ، ولا للانهر الطائشة التي ليس لها ضفاف ثابتة • وكان يستبدل الغرين بالحصباء والصخور ، ويتبدل الانبساط بالتعرج ، ثم تظهر علامات الثروة المعدنية في الارض • وكانت تحل عند الفلاحين القليلين هناك الدوايب المائية والمطرير العزيز محل الترع الفائضة والكرود ، كما كانت تحل في محل الخيمة والكوخ القصبي الاكواخ المبنية من الطين • وكانت قطعان أكبر من الاغنام والابل تقود رعاتها أثناء تجولها في مراعي اوسع وأقل شجراً في عشبها •

وكان الطريق الى سورية يعبر الفرات في الفلوجة ، ثم يحاذيه متجها نحو

الشمال الغربي ماراً في المراحل المعروفة في كل عصر • وفيما عدا الرمادي ، كانت قرى الفرات الاعلى مثلها اليوم اسما واتساعا وحالة ، كما بقى على حالته هواء البادية النقي والبراري الجافة المرتفعة •

وقليلاً ما كان المسافرون يطرقون دجلة فيما فوق بغداد • فمن قبتي الكاظم وأبي حنيفة الى حمام علي ، ينبوع الموصل ، لم يكن المسافر ليمر ببلدان كثيرة سوى السميكة ، الواقعة على نهر الدجيل ، وسامراء وتكريت • وكان طريق الموصل المستطرق بكثرة - الذي لم يتبدل اليوم في تخطيطه ووقفاته - يمر بوادي الخالص ثم يعبر جبل حميرين • وفي ضواحي بغداد الشمالية كان يتفرع طريقان بزاوية حادة ، يمر الشرقي منهما في خان سماء الترك أخيراً - أورطه خان - ثم يصل الى معبر دبالى في بهرز ومن بعد ذلك يحاذي بساتين قرى بعقوبة الانيثة وقلعة شهربان ، ويمر بين تلول منخفضة فيخترقها الى خانقين ومن هناك الى كردستان • وقد كان هذا طريق العباسيين القديم الى خراسان • وكانت في شرق بعقوبة قرية تقع على نهر الروز هي محطة نصف الطريق الى مندلسكن حيث يتخلى العرب الى اللر ، ويلتقي جفاف الارض المنبسطة بأنهار التلول السريعة • وكان طريق الموصل يمر بقريتي الاعظمية والخالص ثم يعبر الخالص في بلدة دلي عباس • وبعد ان يمر بالغرفة ومن فيها من البدو يميل الى اليسار فيمتد في الجبل في ثسايا وعرة ومن ثم يشرف على سهول قره تپه المتعادية^٢ • وكانت زنگباد الوقفة التالية التي يمر بها الطريق الى موقع كفري القديم ثم الى طوزخرماتو وطاووق وأخيراً الى كركوك • ومن شمال كركوك كان الطريق يخترق سلسلة منخفضة من الجبال ماراً بمجموعة آبار الزيت الخمام ومخترقاً سهلاً واسعاً الى الزاب الصغير في آلتون كوپري • وكان الطريق يمر من أراضي القمح المتحدرة الجميلة التي يمر بها اليوم الى الزاب الكبير فقوش تپه وقلعة أربيل القديمة • وكان هذا النهر يعبر من معبرين ، ومن ثم تأتي الموصل بعد مرحلة أخرى • وعلى هذا القسم من الطريق عدة قرى مسيحية ودير قديم • وكانت الموصل الباب الطبيعي للعراق الشمالي • وكان يمكن الوصول اليها من الشمال ومن الغرب بطريقين

(٢) أي المتفاوتة في العلو والخفض غير المستوية وأهل العصر يسمونها « المتوجة » وذلك خطأ •

رئيسيين • فكان احدهما يؤدي الى مدينة ماردين الواقعة فوق قمة التل من حلب عن طريق أورفة ومن ثم يمر بقرهدير الى نصيبين ويخترق السهل الى دجلة فيما تحت جزيرة ابن عمر • ويمر الطريق الآخر من مدينة ديار بكر العظيمة وقلعتها الى جزيرة ابن عمر ثم الى الموصل عن طريق زاخو والقوش •

وبمثل هذه المسالك كان يمكن المسافرين من الاناضول او سورية ان يصل الى الى سواحل الخليج • والبلاد التي كان يمر منها هي عراقية الطبيعة تماما - وهي المنطقة العليا والمنطقة السفلى للسهل الطويل الممتد بين النهرين • ولولا الضرورة القاضية بالبيان أولا عن الاراضي المتاخمة للعراق من جميع الجهات لاتقلنا بهذا الوصف الى البيان عن أحوال البلدان والعشائر التي كان يوسع المسافر ان يصادفها في طريقه المذكورة • فان البلاد المجاورة للعراق مصابة ، مهما اختلفت عنه في المظهر والمجتمع ، لايمكن أن تختلف عنه من الوجهة التاريخية • ففي قسم منها تمتد الطرق الرئيسية المؤدية اليه • وقد خضع القسم الآخر منها لتابعة حكامه أو نواهم فأبى الخضوع لهم • وكذلك كان قسم آخر من هذه البلاد المجاورة جزءاً من ولاية بغداد باستمرار • وكان جميع هؤلاء الجيران على اتصال دائم بسكانه وخاضعين بأجمعهم للتأثيرات الخارجية التي خضع لها العراق نفسه •

وكانت البادية العظيمة في غرب الفرات - وهي تختلف عن العراق جغرافيا وثقافيا على عدم وجود حاجز بينها وبينه - تقوم بدور ثلاثي بالنسبة للعراق • فانها كانت تبعد التأثيرات السورية عنه ، وتقوم بمقام المادة التي تجهزه بالقبائل العربية لتملأ أية بقعة من المراعي القابلة للاستثمار ، وتجعل الحدود الغربية من جيل لآخر مهددة وغير آمنة • فمن العبث ان تتكهن بأسماء الفروع التي لا تحصى من القبائل التي تجولت في مراعيه او غزت أصقاعه • وليست لنا حاجة تدعو للبحث عن تاريخ هذه القبائل وأحوالها السياسية لان ذلك لا يخرج عن نطاق البحث عن البداوة وأحوال الجزيرة في كل عهد • اما القبائل النائية في واحات نجد والاحساء وسواحل الخليج فسوف يكون من الممكن لنا الخوض في بحثها عندما تدعو الحاجة لذلك في صدد الكتابة عن حوات السنين المتأخرة • واما الخليج نفسه فقد سبق لنا أن أشرنا بالقول الى دخول البرتغاليين الناجح في المياه التي لم يمحز عابها غير قرصان البحرين وغواصي اللؤلؤ من سكانه ، والتجار

الساحليين من سكان عمان وموانئ البلاد العربية وفارس الصغيرة • وسوف يذكر بتفصيل أوفى استبداد البرتغاليين الطويل في هذه البحار • وفي أراضي عربستان المرزغية المنبسطة كانت قبيلة بعد أخرى من العرب زارعي الرز ومرابي الجاموس تفرض ضرائب على المواصلات النهرية وترعى حيواناتها من دون معارض على طول حدود أقلقت في الاخير الدول المعظمة في العالم • وكان حاكم هؤلاء والي الحويزة وسليل بيت عربي قديم^٣ ، تضاءلت أصوله في الأساطير • وكانت سطوته تمتد الى القرنة والشط من الغرب • وربما كان نشوء دويلته قد أعقب سقوط أتابكي القرن الرابع عشر في خوزستان • وقد عظمت شوكة هذا والي بتذبذبه الحاذق ما بين البرتغاليين والفرس وعرب البصرة ، وحافظ على سلطته بوعورة بلاده وفقرها •

وفي الغرب من منطقة الوالي وشرقها كانت القبائل وأمارات الوادي التي انسلخت من مملكة الاتابكيين المنهارة • فكانت خوزستان وديار البخاريين تكون « لوري بزرگ » القديمة أي لرستان الكبرى • وقد تجزأت هذه الآن الى حكومات عشائرية أنائف^٤ صغيرة منفصلة بعضها عن بعض ، لم تبدل علاقاتها بجيرانها والمسيطرين عليها منذ ذلك اليوم الى يومنا هذا الا في النادر • وكانت الاحوال الاعتيادية ترمي الى تجزئة المجموعات الكبيرة الى أجزاء صغيرة تتجمهر أحيانا أما لشخصية رئيس جذابة قوية ، واما لدرء خطر عام شامل • اما لرستان الصغرى الممتدة على طول الحدود العراقية الواضحة ، في جهتي الزاغروز ، فقد بقيت خاضعة للسلالة الأتابكية القديمة التابعة للملك الملوك • وكان حكمها ممتداً الى مسافة بضعة أميال في السهل الكائن في غرب تلولها ضاماً بذلك جصان وبدره من القرى التي يكثر فيها السكان اللريون حتى الآن •

والى شمال پشت كوه أي جنوب نهر سيروان (ديالى) وبعبء الطريق بين بغداد وكرمنشاه كانت تقطن جمهرات قبائل كلهوور الكردية القديمة • وعلى هذا تكون البقية الصغيرة الباقية منها اليوم في البقعة نفسها قد عاشت في مكانها منذ أقدم العصور • وتنقسم البلاد التي في شمال بلاد الكلهوور وشمال غربها الى

(٣) ربما كان ينتمي الى ربيعة بواسطة فرع « الباوية » •

(٤) الانائف جمع (الانوف) وهي الابية •

مناطق ثلاث : وهي منطقة « البلاد الحارة » بين سلسلة قره داغ والطريق الممتد بين زنكباد والزاب ، وأودية شهرزور ، وأصفاع اردلان (كردستان الايرانية الآن) • وكان يحده المنطقتين الأوليين من الشمال نهر الزاب الصغير كما كان يفصلهما عن بلاد أردلان جبال الأورمان والحدود الدولية الحديثة • وكانت تحكم هذه القطعة الكبيرة من كردستان في القرن الثاني عشر السلالة القديمة المعروفة بسلالة « بني أردلان » • وتحيط بهذا الاسم أساطير متناقضة • فمن المحتمل أن تكون هذه السلالة قد تفرعت من بيت نبيل في ديار بكر حين هاجر أحد أبناء هذا البيت الى قسم گوران من بلاد الكلهور • فأمدت سطوته بسرعة وسيطر على قبائل شهرزور والوديان التي في شرق الاورمان • فصادقه جنكيز خان على حكمه • وأخذ ابنه كالول أتاوة من أربيل نفسها • وبقيت هذه الدولة آمنة موحدة على طول عهد أميرين آخرين من الاسرة نفسها • وقد صادف في أوائل القرن الرابع عشر ان كان نهوض الجلائريين في العراق على عهد أمير ضعيف من بني اردلان ، فذلك اضطر للتخلي عن القسم الشمالي والقسم الغربي من امبراطوريته • وخاب الجلائريون في جميع المحاولات التي بذلوها في الحصول على أكثر من ذلك • وتعزى تلك الخيبة لشجاعة حسن الحاكم الاردلاني التالي ولحكيمته • واستعيد بعد ذلك في القرن الخامس عشر ، على عهد حكومة مأمون الحازمة ، القسم الشمالي من الامبراطورية فأصبح الزاب الكبير من جديد الحدود الشمالية ، وحصنت رواندوز • وليس بين جيران العراق ، في حقبتنا التاريخية هذه ، من الامارات ما يمكن مقياسه بأمارة اردلان من ناحية الحضارة أو الحكم الملكي •

ولم يكن في شهرزور حتى هذا الحين سوى عدة من قبائلها وأسرها المتأخرة • فان الزنگة والهماوند والجاف كانوا لا يزالون في ايران • كما أن مؤسسي الطرق الدينية كالشيخانية والطالبانية والجبارية لم يكونوا قد اصطبغوا بالصبغة العشائرية بعد • وان حكمة الفرمانات من تركية الذين استوطنوا أراضي زهاو والداودية لم يظهروا في الوجود إلا بعد هذا العهد بعدة أجيال • وكانت الوديان الواقعة في شرق كركوك بحوزة أخطا من طبقة الفلاحين الاكراد المتجمهرين هنا وهناك بجمهرات تفرقت منذ مدة وأصبحت منسية في قرى خاملة

الذكر لا يمكن تعيين مواقعها • وان آثار القلاع المبنية على التلال وأسماء المواقع المختلفة لتعيد اليوم ذكرى المعيشة الزاهية التي لم تخل من مدنية ، والانانية القاسية في كردستان القرون الوسطى التي لا تذكر الا قليلاً مع عدم تبديلها كثيراً في هذا اليوم • فقد كانت درنة وبنجوين ، الواقعتان على ممرات الحدود الأخيرة ، وكوي وحريز ورواندوز بين الزابيين ، وعقرة على الزاب الكبير ، كلها من الدويلات المحصنة ذوات القلاع •

وقد كان للعمادية ، فيما فوق الزاب الكبير ، تاريخ طويل حتى هذا الحين • فكانت من توابعها عقرة ودير ودهوك وزاخو أحياناً • وكانت تكون قسماً من ممتلكات أردلان من القرن الثاني عشر الى القرن الرابع عشر • وقد أعقبت هذه التابعة بتابعيتها للجلاتريين حتى انتهى أمرهم هم أيضاً • ومع عدم تحقيق المدونات القديمة لهذا المكان نستدل من السكان الباقين ومن التقاليد على وجود أسرة أرستقراطية مبعجة - أسرة الباحدينان - بدأت تحكم الاكراد الهكاريين الفلاحين في أواخر القرن الرابع عشر • ومنذ ذلك العهد حتى عهدنا هذا كان يتولى المدينة ابن " بعد آخر وبذا كانت تقاوم جيوش الآق قويونلي المعتدين ، غير انها خابت في التملص من حكم الأردلانيين •

وتقطن في شمال ممتلكات الاردلانيين (في ايران) وفي شرق رواندوز ، وعبر الحدود الحديثة جمهرة قبائل المكري • ولم تتوفق هذه الجمهرة من القبائل على اعتزازها بغراقتها في القدم لتوحيد قبائلها ولا الى انجاب بيت مالك قوي • وقد كانت تقرر باسم المكري مملكة كردية قديمة - ربما كانت في أيام السلجوقيين - غير انهم في هذا الدور لم يكن يربط بينهم الا رابط وهمي وبذا لم يملكوا أنفسهم ان وقعوا في حكم الاردلانيين • وفي زمن متأخر يصل الى حدود سنة ١٧٥٠ نجد ان هناك ذكراً في عدة مناسبات لبك من بيگات المكري ، ومع ان هذا اللقب كان ينحصر في أسرة واحدة بطبيعة الحال فلم يرد في المدونات شيء عن حقيقة حكم هذه الأسرة وتسلسلها • وقد كان مقر هذه الجمهرة العشائرية في سَوج بولاقي •

ويضاهاى المكري شهرة في صفاء عنصرهم وعراقتهم في القدم اندادهم

(٥) ان قبيلة البشدر العظيمة وأسرة سوران كانتا من المكري •

الهكاريون • فكان مد هؤلاء يعلو وينخفض في منطقة تمتد شمالاً الى بتليس ، وشرقاً الى منخفضات أرمية ، وجنوباً (شرق دجلة) لمسافة كانت تختلف بحسب حركة نفوذهم • وما تاريخهم القديم الا تاريخ فرع بارز من فروع العنصر الكردى الذي تحكمه اسرة مالكة سلجوقية • وكان أمير بتليس في القرون الوسطى أقوى الأمراء الاكراد • وقد توفّق أمراء من هذه الاسرة في أجيال متعاقبة في تكوين سلالات مستقلة في جزيرة ابن عمر وجولمرك • على أن هؤلاء لم يبق لهم نفوذ الامير الهكاري عند انتهاء القرن الخامس عشر • فقد كان لكل منهم سلالة منفصلة ، وكان يطلب كل واحد منهم معاملة خاصة من المسيطرين المتعاقبين عليهم لينشر نفوذ بيگه على أوسع ما يمكن بين القبائل وعلى القرى المحيطة به •

العروق والمجتمع

كانت سهول العراق محفوفة ، على هذه الشاكلة ، ببلاد تختلف عنها جدد الاختلاف بوجه أرضها وسكانها • فنظرة واحدة ننظرها الى العرب الخالص من بدو بادية الشام وسكان شواطئ الخليج ، والى اللر والكور في الشرق والشمال ، تؤكد لنا بایضاح سيادة اللغة الواحدة وتناسق الطبيعة في العراق الاصلي • فكانت العربية ، في الحقيقة ، ينطق بها الجميع من الموصل الى كارون • وكانت تقاليد البلاد ، في هذا الزمن ، هي التقاليد العربية ، كما كان الاسلام عامّاً تقريباً • وكان يوجد الكثير من وحدة المناظر العامة والحضارة الواحدة • وكانت الانهار تربط الشمال بالجنوب • غير ان التناسق الظاهري في الدم والديانة ووحدة المجتمع كان يضم اختلافات مفعمة بالاهمية •

فلم يكن العراق بلداً عربية من الوجهة العنصرية • فقد أضافت موجة بعد أخرى من الفتوحات ، من السومرية الى المغولية ، عناصر جديدة الى دمه • ولم تك هذه في فجر تاريخه عربية ولا سامية • وكانت قوميته العربية ذات منشأ متأخر نوعاً ما ، فحفظت هذه القومية ذكرى قسم من الفاتحين الكثرين • على انها من وجهة أخرى تمثل العنصر الذي غطى على هذه العناصر الباقية منذ زوال عظمة الخلافة • زعلى هذا لا نجد تناسقاً في الجنس ، واذا ما وجدنا جمهرة تدعي الاصل الواحد فيكون ادعاؤها هذا لا أساس له في التاريخ • على

ان البعض من القبائل غير الموطنة وقبيلاً من الأسر في المدن يمكنها وحدها أن تفاخر بهذا النقاء العنصري الذي حافظت عليه تقاليد الزواج الإسلامية .
وفيمن عدا هؤلاء كان العراقي في ذلك العصر كالعراقي في هذا العصر ، فلم يكن الا وارث شعوب عديدة .

وأكثر من هذا انه كانت توجد عدة طوائف وأقليات في عرض البلاد وطولها لم تقوَ الصبغة القومية العامة أن تسود فيها . فقد استوطن الايرانيون في الغابات المقدسة والهنود والعبيد في البصرة . وكان الصابئة - صابغة المنضة الوادعون في القرى الواقعة على النهر - متفرقين في جنوبي العراق . كما كانت الاسر الكردية والتركية قد سكنت منذ مدة طويلة في الموصل وبغداد حيث يعيش اليهود ألوفاً مكين على مزاولة الحرف التي عرف بها عنصرهم . اما النصارى فكانوا من أصول وطوائف عديدة . وقد كونوا في الموصل قسماً كبيراً من سكان المدينة وانتشرت قراهم الآهلة في الجبال المنخفضة في الشمال . وتجمعت في أنحاء كردستان مجتمعات مسيحية صغيرة حول دير من الاديرة وحافظوا على كهنتهم . واستوعب جبل سنجار ، مع الجهات الجبلية شمال شرقي الموصل ، اليزيدية الغلاظ الذين وقفوا في وجه كل انسان وكل حكومة . وكانت بقايا الهجرات القديمة من التركمان متفرقة في تلعفر ، وفي خط طويل من القرى على طريق الموصل من دلي عباس الى الزاب الكبير ، وتمركزت أكثرتهم في كركوك . وكان الاكراد من العشائر والمدن يطلون من جبالهم على منخفضات الشمال من العراق . وكان لرشت كوه منتشرين في القرى القريبة من الحدود الشرقية . وكان البدوي الاصيل ، من المغرب ، يزدي القبائل التي استوطنت الاراضي المرواة والفلاحين ويعدها عنصراً منحلطاً مختلفاً عنه .

ولا يتطرق تاريخنا هذا الى النزاع الديني - الخلاف الدائم بين الطائفتين السنية والشيعة من المسلمين - الا بقدر ما يؤثر ذلك النزاع في التاريخ . وسوف يتم البحث في هذه الناحية - الحيوية في السياسة العراقية في الداخل والخارج - في موضوع آخر بعدها كمشكلة دائمة يلاقيها حكام العراق باستمرار . وهناك تباين شديد كثيراً ما يحدث المشاكل للحكومة ، وهو التباين بين المدن والقبائل . ففي المناطق المساعدة - الفرات الاوسط ووادي الخالص

وديالى السفلى وقرى الحدود الكردية وبساتين البصرة - كانت هناك جماعات تجمع بين الطرازين من طرز المعيشة ، فقد كانت تتألف من أناس مزارعين من أصل عشائري غير منسج لكنهم ألفوا التوطن وصارت لهم مصلحة به . وفيما عدا هذا كان الفارق بين البلدة والعشيرة واضحاً فلا يتفقان الا في الندرة . وكان رجل القبيلة ينهب قافلة التاجر وحيوانات الفلاح على سواء . ولم يكن يحتاج الى شيء من منتجات البند وغلته وثمارها سوى الحبوب والتمر ، فقد كان يحصل عليها سنوياً بمبادلة إبله الصغيرة . كما كان ابن المدينة يحتقر البدوي ويخشاه ويعدّه وحشاً مخرباً . على ان مثل هذه العلاقات لم تعد في بعض الأحيان شفاعاً جماعة من سكان المدن لصديق من القبائل ، أو دعوة القوات العشائرية وجعلها عوناً في ثورة أو فتنة داخل أسوار المدينة .

وكانت المنازل النهرية نصف الدائمة في العراق الجنوبي قبائلية من جميع الوجوه الاساسية ، وكان يسيطر عليها هذا الشيخ الحاكم أو ذاك ممن يعين نفسه بنفسه . اما غير هذه فلبلدان العراقية لها مناشيء مختلفة ولكنها بسيطة . فالتناسق ، الواضح جداً ، في المسافات التي تفصل البلدان بعضها عن بعض يدل على أن أصل أكثر البلدان كانت منازل القوافل . ومنها ما كان قد نشأ في محلات عبور الانهر التي كانت على الطريق الرئيسية . ومنها ما هو ناشئ عن تجمع الناس حول قلعة في مركز عشائري ، وهذه تشير الى قيادة أحد الشيوخ المنسجيين أو سخائه . كما ان بلدانا عدة كانت قد نشأت حول مزار أو عتبة مقدسة واتسعت بتوارد الزوار اليها . وقد ساعدت الحاجة لسوق يباع فيها الصوف وثمار البستان والحبوب والجلود في عدة أماكن على تشييد الدكاكين والمنازل (مخازن الحبوب) مع جامع وحمام ومقهى . اما البلدان الكبيرة فبالإمكان أن يذكر فيها أكثر من هذا . فبصرة العصر الذي نصفه كانت مع البساتين والارض الغامرة محاطة بسور من الرهص (طين البناء) مرمم ترميماً ناقصاً . ولم يكن في ضاحيتها على شط العرب سوى قليل من البيوت . وكانت البلدة نفسها ثغراً قليل الشأن غير عاطل يضم ما يقارب عشرة آلاف دار ، كانت أغلبها أكواخاً من القصب يعيش أصحابها عيشة ذات صلة واهية بحياة المدينة . كما كان عدد من الابنية الشاخصة تواجه النهر وتبعد بمسافة ميلين عن الشط .

وبعد هذه المدة بضع سنوات ألفها رجل انكليزي^٦ (أول انكليزي يزورها تقريباً) « بلدة ذات تجارة عظيمة بالتوابل والابازير والمقايير التي تأتيها من هرمز وفيها أيضاً منشر (مخزن) كبير للقمح والرز ، وينمو فيها التمر الذي يجهز لبابل وسائر أنحاء البلاد والى هرمز وجميع أقسام الهند » •

وكانت الحلة على صيغتها في الوقت الحاضر سوقاً واسعة للعشائر ومركزاً لمبادلة منتجاتهم ومعقلاً من معاول الحكومة • اما بغداد هذا التاريخ فكانت « بلدة عظيمة بعض العظم لكنها أهلة جداً بالسكان • وفيها حركة متسعة للغرباء بوقوعها على طريق ايران وتركيا وبلاد العرب • فمنها كانت تخرج القوافل الى هذه الاماكن وغيرها » • وفيها جسر من الزوارق ، « مربوط بسلسلة عظيمة من الحديد تتحرك بسرعة في كلا جانبي النهر » يصل الجهة الشرقية بالجهة الغربية من المدينة • وقد سوّرت الجهة الشرقية وحُصّنت بطريقة خاصة وبقي الكرخ بلا سور • وكانت أبرز الابنية فيها قصر الوالي وثكناته والحمامات العامة والجوامع والاسواق المسقفة • اما بقية المدينة فكانت بيوتاً حقيرة قدرة ذات طبقة واحدة تسوّرها جدران بلا شبايك فتحجزها عن الطرق المتلوية الضيقة • وكان يجلب اليها التمر والرز من جنوبي العراق ، والصوف من العشائر المتنقلة وراء الكلا ، والخشب من كردستان ، والحبوب من الموصل • وكانت تجلب البضائع من البصرة ، وبضائع سواحل البحر الابيض المتوسط من حلب عن طريق عانة ، والبضائع الايرانية من كرمنشاه عن طريق خانقين • ولم تكن الثقافة معدومة بالرة ، وكان الامن لا بأس به داخل السور ، والحكومة متقلبة تلعب بها الاموال ، والصناعة والحرف في أحط دركاتها ، والجمل الدينية ترددها الانفواه دائماً وابدأ •

وقد اعجب الرحالون بكرركوك فوصفوها بأنها « مدينة جميلة رائعة »^٧ حيث كان النطق السائد بالتركية المفككة والكردية الشهرزورية • وكانت القاعة فيها قوية بدفعاها ومسيطره على مسالكها المبنية بالكلس في أساسها • وكانت

(٦) رالف فيتش •

(٧) راوولف •

المحلات الواقعة في شرق المنزل^٨ الواسع غير مبنية حينئذ • وكانت أربيل - المشابهة بكل وضوح لكركوك بطبيعة بنائها وغصنيتها - بعيدة عن قريبتها البلدة العربية^٩ بمقدار بعدها عن جيرانها البلدان الكردية • ويقع بالقرب منها دير للنصارى^{١٠} • وكانت الموصل ، العاصمة الطبيعية للجزيرة وقاعدة مدن كردستان الوسطى ، تمتاز بكثرة مواد البناء من كلس وحجر وأخشاب • وكانت أسوارها البارزة متداعية من الخارج لعدم اصلاحها وترميمها من الداخل • وكانت تجارة المنتجات الكردية المهمة - الجوز والزبيب والصمغ - بيد التجار الاكراد المتوطنين فيها • وكانت التجارة ناشطة غير ان الزراعة كانت مهذدة بالمحل والجراد باستمرار • وقد غطت شدة المنازعات بين الطوائف النصرانية على المنازعات المزمنة بين الاسر في الموصل •

ونحن في غنى عن الاشادة بأحوال المدن في هذا الزمن بأوفى من هذا التفصيل لعدم الحاجة اليه من جهة وعدم امكان ذلك من جهة أخرى • فلم يكن في مدن القرن السادس عشر هذه ما يبهز زائر القرن العشرين لها من حيث الميول والافكار واللغة وطبيعة البلاد • وفيما بين القبائل لم يحدث تغير كثير في الامور الجوهرية • فان الاحوال نفسها كانت تولد الاختلافات نفسها في شؤون السكان المعاشية ودرجة توطنهم واستقرارهم • وكان جل ما يهم هذه الجماعات من أمور الحياة الجمل عند ناس والغنم عند غيرهم والجاموس عند الآخرين • وكان بناء المجتمع العشائري ، بمثله العليا ومعراته ، وبشرائعه واستباحاته المقبولة ، وبتعصبه ضد القواعد والاعراف الاخرى ، وما يزال وسيكون الصعوبة العظمى التي يواجهها الحكام المتعاقبون • وان كانت تلك الصعوبة قد خف شيء منها في القرون الاربعة الاخيرة بتزايد توطن البدو فقد ثقل حملها بتسلحهم بالاسلحة النارية وسهولة حصولهم على الاهداف - سكك الحديد والتلغراف وطرق السيارات - المعرضة لعبهم في الوقت الحاضر •

ولو حاول المؤرخ تسمية حتى أعظم الجمهرات القبائلية المنتشرة في العراق

(٨) وهو « شاي » كركوك المعروف - المترجم •

(٩) لعل المؤلف يقصد مدينة الموصل - المترجم •

(١٠) لاشك انه يشير الى دير عينكاوة - المترجم •

فى سنة ١٥٠٠ لكان ذلك بلا نفع عظيم له • فالضغائن والمحالفات والغزوات وعصيان هذا أو ذاك وشخصيات الشيوخ واخلاصهم لحكام المدن أو عدوانهم عليهم قد أسدل عليها ستار النسيان الى الابد • وسوف تزحف أسماء القبائل الحديثة الى مثل هذا المآل واحداً بعد آخر • فقد كان بعضها - قشعم ودريعة والموالي - حتى فى تلك الايام فى « ديراتها » الحالية • وفى صفحات متأخرة - تتناول أحوال البلاد بعد قرنين - سوف تتكلم عن ظهور البعض من أكبر هذه القبائل لأول مرة • وليس بوسعنا الآن أن نتجاهل الاسماء والاماكن ونؤكد على التشابه العام فى القبائل التى أحاطت بالمناطق العراقية المستوطنة ، فعزلتها بعضها عن بعضها وبزتها بعددها •

الماضى القريب

على مثل هذه الحال كانت البلاد التى يتعقب هذا التاريخ مصيرها منذ فجر القرن السادس عشر حتى آخر القرن التاسع عشر • وواجب مقابلة ما حل بها من الخراب فى هذا الوقت بأيام الثروة والغنى فى عهد العباسيين يفرنا بأن نلقت الى الوراء ونلقي نظرة على مجرى التاريخ الاخير الذى سبب خراب البلاد وشللها • وسيكون بالامكان توضيح السهولة التى وقعت البلاد بسببها فريسةً بأيدي الفاتحين من الايرانيين والأتراك اذا أسرعنا بمراجعة تاريخ من تقدمهم •

فقد بزغ فجر القرن الثالث عشر فوجد بغداد ما تزال مدينة الخلفاء المقدسة ، والعراق ما يرح جنة الحبوب والبساتين كما كان فى عهد سرجون وسلوقس والرشد • ومع ان أمير المؤمنين كان فى القرون الثلاثة الاخيرة ألعبوبة بيد حرسه وحكامه ، ومع تقلص امبراطورية هارون الوسيعة واقصاها على صقع واحد ، كان الخليفة ما يزال فوق الحكم والامراء الذين كانوا يتواطأون مع امراء المغول البعيدين على جيرانهم المسلمين • وبقي ممسكاً زمام الامور ما لا يحصى من الترع والانهار والقرى الآهلة بالسكان والثروة الباذخة والثقافة ، ومسيطرأ على الصناعة فى بلاده ما بين النهرين التى سارت بذكرها الركبان • ومع تجمع القبائل التركستانية فى الشرق ، ونشوء الامارات العديدة فى شمال وغرب القياصرة المضمحلين على ضفاف البوسفور ، بعد تشتت الجيوش

السلجوقية ، بقيت دار السلام جذابة غنية مهية الجانب ، لكنها كانت خائرة .
 القوى وأقرب الى الخيال من الحقيقة لا حول ولا طول بيدها ، تنعم بعظمتها
 الخالدة . وسرعان ما عصفت بها ريح الخراب فدهمها سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ هـ)
 هولاكو حفيد جنكيز خان ، فتل عرشها وأطفأ نار الخلافة فيها حتى الابد واستباح
 غنائمها التي لا تحصى وكنوزها العظيمة ، وذبح شعراءها وتجارها وفرق طلابها
 وعلماءها وفقهاءها فاستحالت في يوم واحد من مركز السلطة الاسلامية الذي
 لا ند له الى مركز حقير من مراكز الامبراطورية الأيلخانية . وتقسم فترة القرون
 الثلاثة الواقعة بين هذه الحادثة المفجعة واستيلاء سليمان العظيم على بغداد الى
 اربعة أدوار . فقد غدت بغداد حكومة من حكومات أباطرة المغول في ايران مدة
 ثمانين سنة . وظلت لمدة سبعين سنة أخرى العاصمة الجنوبية لمملكة انفصلت
 عن الامبراطورية المذكورة على يد أحد ولاتها بعد أن خارت قواها . وفي عام
 ١٤٠١ (٨٠٤ هـ) وقعت بيد سلالة من سلالات القبائل التركمانية حتى اغتصبها
 الاقرباء المعادون . وفي سنة ١٥٠٨ (٩١٤ هـ) تشربتها مملكة الصفويين الايرانية
 التي كانت آخذة في النمو .

ولم تكن الامبراطورية الأيلخانية ، التي استولى على عرشها مدة قرن واحد
 أبناء أسرة واحدة ، محبوبة النسيج وكانت سيئة الادارة . ولم تكن مؤسسة على
 النروة ولا على الوثام بل أسست على حيوية متفوقة لابد من أن تفسح في المجال
 لأعظم منها . فقد كان المغول ممن أولع بالفتح وليس بتأسيس الامبراطوريات .
 ولم يكن لهم الاستعداد للادارة ولا المبالغة بها . ولذا طبع قوتهم العظيمة بطابع
 عدم الثبات وعدم الاستقرار . وبانت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم في
 العراق . ففي حكومات بغداد والبصرة والجزيرة - التي أصبحت وحدات
 مختلفة - تدل تعيينات الامراء المكيين على ان المناصب كانت لا تخاو من الشرف .
 وقد دل تقدم المقرئين السياسيين على الاسس الواهية لمثل هذا الحكم . كما دلت
 الاعمال الخيرية النادرة ، كفتح الجداول وتعمير المساجد ، على ان الذين تسنموا
 العرش لم يكونوا مجرد وحشين . فقد كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب
 واخلاص . فان اصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعي ، وتردده الكثير
 الى العراق كانت كلها من الامور التي تبعث الامل في الاحياء والتجديد . غير ان

هذا الامل قد ضعف وأصبح صعب التحقيق ، لان سطوة الأيلخانيين لم تتعد حدود المدن • فلم يكن تأمين الطرق ممكناً ، وقليل من كان يزرع في أرض دون أن يحصد زرعه منها الآخر • وكانت أعظم الاعمال التهديمية التي ارتكبها هولاء هو التخريب المتقن في السدود والانهار ونواظم الاسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد • وقد تعذر القيام باصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب في البلاد وفقدان روح العمل ممن بقوا أحياء من السكان القليلين بعد تلك المذابح والتخريبات الهائلة ، وهو الامر الذي أدى الى اهمال الانهار وتردي الحالة في مجاريها بتراكم الغرين وتكاثر الطمي بحيث غدت الانهر مطمورة لا تستوعب الماء الكافي ولا يمكن ضبطها عند الطغيان • ولم يعد من الممكن أن تستعاد الحالة الى سابق عهدها في البلاد حتى يومنا هذا • وقد أخذت قبيلة بعد أخرى من البدو المنتشرين في سهول نجد والجزيرة تعبر الفرات الى مراعي العراق • وكانت تعين أراضي المرعى لقبيلة دون أخرى بالحروب القبائلية التي لا تنتهي • فأصبح العراق من جبال بلاد اللر الى سنجار منطقة البلدان القليلة الصغيرة ، التي تحيط بها وتمتد ما بينها أصقاع وسبعة تسيطر عليها القبائل وترعى حيواناتها فيها •

وقد سبب موت غازان خان في سنة ١٣١٤ (٧١٤هـ) اضعاف اسرة هولاء بصورة قاضية • فذهب في تلك المسالة الاضمحلال مع وجود الرخاء القليل الذي كان يسببه توارد التجار والزوار الى بغداد • واستمرت بعد موت أبي سعيد ، آخر الملوك الاقوياء ، الذي لم يخلف ولداً ، حرب أهلية • فقد رشحت كل واحدة من الولايات الكبيرة في ايران مرشحاً للعرش أي العوبتها بيد الطامعين من رجال الحاشية • وكانت نتيجة عدة شهور من القتال ان أنجلي الميدان لاثنين من المتخاصمين • وفي خلال هذا كان والي بغداد يبعث بالجنود لمساعدة هذا الامير أو ذاك أو يؤاوي الفارين من وجه المنتصر • ولذلك كان مصيره معلقاً في القدر • وفي الاخير وقعت بغداد ، بانقسام الامبراطورية ، حصةً لحسن الجلائري وهو أمير مغولي (اسلم الآن) من ذوي المراتب العالية • وغدت في ١٣٣٩ (٧٤٠هـ) ، العاصمة الشتوية للحكومة الجلائرية •

ولم تكن هذه في أيام عظمتها من الامبراطوريات الحقيرة • فقد كانت بيد

حاكمها ولايات الجزيرة واذريجان والعراق والجبّال • وكانت تبريز عاصمته
الصفية • وكان حكام هذه السلالة الاولون عسكريين طباحين لكنهم كانوا
متدينين وغير جانفين عن الانسانية • فأعدوا لعراق شيئاً من الاحترام الذاتي
ان لم يكونوا اعدوا قليلا من الرخاء • ووطدت حكومة حسن الكبير وولده أويس ،
لاكثر من جيل واحد ، السلام والطمأنينة كما شجعت شيئاً من ممارسة الفنون •
وكان حسين ، ثالث حكام السلالة ، أضعف ممن سبقه في الحكم ولذلك فقد لاقى
المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها اعداء طامعون • فأذعن لشغب حصل
في بلاطه نفسه ولاغتصاب الملك على يد أخيه عليّ • على ان هذا لم يكن بوسعه
الوقوف ببغداد في وجه السلطان أحمد ، الأخ الباقي ، فانه أدمجها في ١٣٨٣م
(٧٨٥ هـ) بتبريز من جديد فكون حكومة واحدة ومهد لها عشر سنوات من السلم
تحت ظل ولاته •

غير ان القدر كان يخبىء أفجع الكوارث النازلة منذ أيام هولاكو • فقد
استغل قره يوسف ، حاكم مملكة القره قويونلي التركمانية في وان ، موقفه
وقوى مركزه فارتقى من كونه تابعاً من توابع الحكومة الجلائرية الى حليف
قوي من حلفائها • وكان تيمور الاعرج « تيمورلنك » آخر المغول واعظمهم ، يمر
من فتح الى فتح على رأس جيوش جرادة من الشرق • وفي سنة ١٣٩٣م
(٧٩٦ هـ) ظهر على أبواب بغداد ، فانحنى الجلائري فيها للعاصفة حتى مسرت
فأعتدل من جديد وطرده الحاكم المغولي • وفي سنة ١٤٠١ (٨٠٤ هـ) وقعت الكارثة •
فالتجأ السلطان أحمد وقره يوسف الى بلاط ييلديرم بايزيد رابع سلاطين
العثمانيين ، ووقعت بغداد بسهولة بين ذراعي تيمور • فذبح الألوف من الناس ،
وهدمت الجوامع والمدارس والمساجد • وان كانت المناظر أقل هولاً والخراب أقل شدة
في هذه المرة من الخراب الذي جرى من قبل فأزال الخلافة فانما ذلك يعزى الى
ان بغداد في ١٤٠١ لم يكن لها بمقدار ذلك الكبرياء وتلك العظمة لتحط وتهان ولم
يكن فيها من أهداف العبث والنشيع مثل ما كان فيها من قبل •

على ان موت تيمور في ١٤٠٥ (٨٠٨ هـ) سبب رجوع الجلائريين والتركمان
الى عروشهم بصدف تعد نادرة حتى في الشرق • فنظم العراق من جديد وأعيد
تحصين بغداد بأسوار بقيت واقفة بكل سلام حتى القرن التاسع عشر بعد ان

جربت بعدد غير قليل من الحصارات • غير ان تملك تبريز التي كان يحتاج اليها
الجلاتريون وتركان القره قويونلي (الخروف الاسود) على سواء كان من
الدواعي العديدة التي أدت الى التحالف أولاً ، ثم الى الحرب بين الطرفين • فأضاع
السلطان أحمد حياته وامبراطوريته بعد أن انهزم في حرب شعواء ، وبذلك خمد
الاسم الجلاتري ولم تقم له قائمة • فدخل ابن قره يوسف الى بغداد ، وبالطريقة
الخشنة المألوفة حينذاك باع حاكمياتها أو أنعم بها على من يريد وتقبل خضوع
القبائل أو تحمل عبثهم •

ولم يختلف سادة العراق الجدد عن الجلاتريين من الناحية الحضارية الا
قليلاً • غير أنهم أنعموا على الولاية المصابة بالفزع والحيرة جيلاً كان يعد من
أجيال السلام • وقد حكم الشاه محمد مدة ثلاث وعشرين سنة ، الا ان آخرته كانت
عاصفة بالهزيمة والقتل • وحكم خلفه من بعده عشرة أعوام أخرى حتى عام
١٤٤٤ • وفي السنين الاخيرة من هذه المدة أيدت الحرب التي قامت بين ورثة
قره يوسف وامبراطور ايران (الذي ادعى السيادة) تابعة القره قويونلي
الى تيمور • غير ان موت الشاه رخ في ١٤٤٧ أفسح المجال لجهان شاه بتوسيع
امبراطورية القره قويونلي من تبريز الى شط العرب ، وبخلع أية تابعة
للتيموريين من عنقه وضافة فارس وكرمان لمملكته • وبذلك أصبحت قبيلة
القره قويونلي امبراطورية غنية مترامية الاطراف بعد أن كانت قبيلة مجهولة ،
غير انها لم تكن امبراطورية مستقرة • واحتفظت بغداد بمركزها ، أي بكونها
عاصمة للعراق العربي الذي كان ولاية من الولايات العديدة الاخرى لا غير •

على ان عهد جهان شاه الذهبي هذا كان قصير الابد ، فقد كلفته حروب
الحدود مع التيموريين خسران نفوذه وأراضيه • ولم يكف القواد والتابعون
عن الثورة في ولاية بعد أخرى • وحذا ولده يربوداق ، الذي كافأه بحكم
العراق لموالاته ، حذو هؤلاء بعد بضع سنين فأعلن استقلاله • غير ان سنة من
الحصار أعادت المدينة الى جهان شاه في ١٤٦٥ • لكن امبراطوريته المتعثرة كتب
لها نفس المصير الذي آل اليه الجلاتريون على يد قره يوسف • فقد نشأ عدا
مر بين سلالة القره قويونلي وخضم آخذ بالنمو ، يشابهها في الاصل والعنصر ،
وهي حكومة الآق قويونلي (الخروف الابيض) في ديار بكر • اذ كان أوزون

حسن ، حفيد المؤسس (ضابط تركي من ضباط تيمور) ، قد ورث طموحاً وحقداً لم يستطيع قمعهما جهان شاه ولا سيده التيموري . وحصل الصدام في ١٤٦٧ فدحر جهان وقتل ، وساء حظ أبي سعيد التيموري في الحرب والسياسة . فانتشر حكم الآق قويونلي في العراق وايران . وقاومت بغداد مدة قليلة من الزمن وهي بيد حاكم من حكام القره قويونلي ، لانه دحر القائد الذي بعث به أوزون حسن . وحضر حسن بنفسه فوجد أبواباً مغلقة لم تفتح له الا بالحرب والحصار . فقتل الوند ، وعين حسن الحكام للعراق العربي والجزيرة والجبال واخفت سلالة القره قويونلي الى الابد .

ولم يؤثر هذا التبدل في العراق الا قليلا ، حيث مزقت المنازعات التي كانت تغذيها الاطماع ولايات الآق قويونلي كما مزقت ولايات القره قويونلي من قبل . فقد كان حاكم العراق وقواته في شغل مستمر بخصومات أبناء أوزون حسن وتطاحنهم في سبيل العرش . فكان الامير يذهب تلو الامير كما كانت المكاييد مع العنف تمزق بالامبراطورية المفككة الشائرة . وشغلت قوات استانبول وديار بكر وأصفهان وسياستها مع هذه الجهة أو تلك لكنه لم يكن بوسع أحد أن يؤمن السلم أو الضبط . وعندما توصل الكل الى اتفاق متقلقل في ١٤٩٩ بين أبناء العم المتحاربين قدر له أن يمزق (الى الابد) ليس بأيديهم بل بيد ملك جديد ظهر في ايران التي اعيدت اليها الحياة .

الاحتلال الايراني والتهديد التركي

لم يتأخر الصفويون^{١١} الذين تعاظمت قوتهم بسرعة عن تهديد الامبراطورية

(١١) كان جد الصفويين ، الشيخ صفي ، وهو شيعي ورع من أردبيل ، يرجع بنسبه الى الامام السابع . وكان تيمور الاعرج يقدر ابنه خاصة . وقد زاد تعبد الابناء المتعاقبين - علي وابراهيم وجنيد - ووطنيتهم في سمعة الاسرة . وطرده الشاه جهان الابن الاخير (جنيد) فاضطر للالتجاء الى اوزون حسن في ديار بكر ، وهناك زوج ابنته هايديو لابن جنيد واصبحت فيما بعد والددة الشاه اسماعيل . وعلى هذه الشاكلة صمدت الاسرة امام الايام العاصفة التي مرت عليها . وأخيرا ، رجع اسماعيل وهو شاب متعلم فجمع شتات أتباع أسرته في گيلان (١٤٩٧) . فوقعت بيده باكو وشاماخا واصبح ، بعد أن كان رجل دين ، قائدا لجيش مخلص عقدت عليه الآمال . وبذلك بدأت حملاته على مملكة الآق قويونلي .

التركمانية المنشغلة بمشاكلها والحلول في محلها • فقد قاد الشاه اسماعيل في سنة ١٤٩٩ الجيوش الى شيروان وألحقها بمملكته • وبذلك اصبح مصافحاً للوند حاكم الولايات الشمالية من مملكة الآق قويونلي • فانكسر التركماني انكساراً تاماً في واقعة نخجوان الخطيرة ، ثم نزل الفاتح على تبريز مركز العرش الذي تسنمته اسرته مدة قرنين ونصف • وفر المدحور الى ارزنجان فبغداد ثم الى ديار بكر حتى أزاله الموت عن طريق الشاه • وما مرت سنة واحدة حتى كانت ايران الغربية بأجمعها الى الخليج للصفيين ، وفي كل بلدة منها قسم من ضباطهم • وفي خلال سنتين اخريين انتشرت سطوته عظيم انتشار في آسية الصغرى • وأخذ مراد ، امبراطور الآق قويونلي المذخور الذي ما برح ممسكاً العراق بيده ، يتشبث بطلب المعونة من جميع الجهات • وفي سنة ١٥٠٧ أندحر وحلفاؤه ، وفر والتجأ لبلاط السلطان التركي • وغدا العراق تحت سلطة قريبه السلطان يعقوب شبه الاسمية • وكان بارك حاكماً في بغداد • غير ان الشاه الذي كان يعجل بنصره بعد آخر بعث لالا حسين لفتحها ، فكان له ما اراد بسهولة • وبذا خضعت بغداد في أواخر ١٥٠٨ وطويت صفحة أخرى من صفحاتها •

ولا نرى في نفسنا حاجة للتوبيه ، بعد كل هذا ، بأن العراق قد مضت عليه مدة طويلة وهو فريسة الاضطراب والفقر وعرضة للانقلابات وسفك الدماء وحكم الاجانب • واستمرت هذه الحالة فيه مدة أجيال ثمانية يعوص في كل عام منها في لجج القلاقل والاضطرابات والاستيلاء الجديد • وكان كل شهر من تلك المدة حافلاً بسقوط السلالات المختلفة والاسر المالكة العديدة • وعلى هذا المتوال كان حكام بغداد يتجددون الواحد تلو الآخر ، وما كان يخلو من عصيان جديد يقطع به اللصوص الطرق أو يقتصب به بعض رؤساء القبائل بلدة نهريّة : ولذلك لم يلق لالا حسين غير الترحيب القاتر الذي بات يتكرر بين يوم وآخر •

وبما كنا أن نرى نحن ، أحسن من الملالي والتجار في ذلك اليوم ، أن هذا الحادث كان عظيماً • فلم يكن بوسع الفاتحين منذ دخول هولاء حتى هذا العهد أن يشتوا في الحكم أو يستديموا فيه • فقد كانت تلعب بهم كلهم الضغائن

كما كان جماعة منهم من رجال القبائل التي لم تتحضر الا قليلاً • اما الامبراطورية الصفوية ، الفتية التي ما زالت في دور النمو ، فقد كانت نتاجاً ظاهراً لبعث قومي وديني عظيم • وكان هذا البعث دليلاً على خلق ايران الحديثة • فقد كان مبني على ايمان شيعي قوي مفعم بالثقافة والمدنية ، ولذلك كتب له ان يدوم تسعة أجيال • ولو لم تجتمع الصدفة توسع العثمانيين نحو الشرق ونهوض ايران القوية هذه في القرن نفسه لم يكن لنا من شك في ان العراق كان يظل ايرانياً منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا •

ولقد جاء دخول العراق في حوزة العرش الشيعي الجديد بالشاه مسرعاً لزيارة العتبات المقدسة • فوصل الى بغداد وهدم ما كان فيها من قبور أئمة السنية ، وذبح جماعة من علمائهم • فسرت على أثر ذلك شائعة في البلاد التركية بأن مذبحاً عظيماً أصابت السنة في بغداد على يد الصفويين • وعامل الشاه غير المسامحين بصرامة أكثر من هذه ، ثم زار العتبات المقدسة في الفرات ، وأصلح نهراً من الانهر فسماه باسمه « نهر الشاه » ، وشيد بناية فخمة على قبر موسى الكاظم • وبعد ان جعل ابراهيم خان حاكماً على العراق عاد الى قوچات اخرى • وبعد ان ضم الموصل الى امبراطوريته أصبح في ١٥١٠ سيد إيران والعراق الذي لا يسأل عما فعل •

وفي السنين المنحصرة بين زيارة الشاه اسماعيل للعراق ووفاته في ١٥٢٤ مر على العراق نصف جيل من السلم والهدوء • وكانت تأثيرات العتبات المقدسة القوية تؤيد الحكم الجديد • فقاطر التجار الايرانيون على بغداد ، وجذب نفوذ الصفويين الديني حتى العشائر النهرية المتمردة • وكان أحد الحكام العرب في البصرة يدفع اتاوة سنوية الى الشاه ، ثم نذب أحد الخانات ليحكم الموصل • وفي كردستان كان بإمكان ايران ان تدعي بولاء جميع الدويلات الجبلية ذات القلاع ولاء أسمى لها • وبقيت الحال على هذا المنوال حتى طرق الباب خصم جديد ومدع أعظم •

إذ كان خلع السلطان بايزيد الثاني عن العرش العثماني قد وضع حداً لجيل من الهدوء النسبي في الممتلكات العثمانية • فقد خلفه على العرش في سنة ١٥١٢ ابنه سليم ، الموهوب له بما يستدعي العجب والدهش من المواهب المتناقضة كالثقافة

والشراسة ، وبسالة الذكي مع جمود الغبي • وقد أتاح له السلم التي كانت سائدة أيام نشأته ان يدرس العالم ، وان يرثي للاسلام من الزندقة التي كانت تنال منه ، وان يسمع من باشوات الحدود أخبار العظمة الجديدة في ايران الشيعية • فأثرت مذبحة العجم للسنيين في بغداد تأثيراً أليماً في نفسه • ولما كان السلطان ما يزال غير حامل للقب الخليفة بعد ، لم تكن تركية تعد اذ ذاك حامية للدين الاسلامي الحنيف ، الا أن كثيراً من الامور كانت متوفرة لخلق الخصومة بين استانبول وتبريز • ولذلك كانت بطولة القضية السنية أول حجة يتذرع بها سليم لاعلان الحرب • ومهما كان الامر فان التصادم بين الدولتين كان لا بد منه • فان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران لم يعد من الممكن تجاهله ، ولم يكن لدولة الآق قويونلي الحاجزة أي وجود • وباتت الدويلات الكردية ، والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى ، والاقليات المسيحية في أرمنية ، كلها من ممتلكات الشام بحسب ادعاء الايرانيين ، فأعلن ساسة استانبول ان ايران قد خرقت الحدود العثمانية بضمها العراق وكردستان وأرمنية زيادةً على انها آوت أخيراً اخوة سليم الفارين نفسه • وكانت عند هذا السلطان الشاب أطماع تناسب معرفته العالم • فخلد الأشهر الاولى من حكمه بالذبح المتقن لجميع الشيعة أينما وجدوا • ومن ثم تدوولت فاتحة الرسائل الخشنة بينه وبين البلاط الايراني حسب الامر المعتاد • فلم يشر ذلك شيئاً ، وكان لا بد من القاء التبعة لاعلان الحرب على الترك • وبعد اعدادات واستعدادات محكمة بدأ سليم بحملته •

وقد أدت الحرب العنيفة التي وقعت في چالديران بالقرب من أرمنية الى انتصار سليم ونكوص الشام مجروحاً من ساحة القتال • فدخلت القوات الحربية التركية الى تبريز ، غير ان المرض الذي كان متفشياً والاحكام الفوضى السائدة منعاهم من التمسك بها • فأثرت هذه الحملة في حال الاكراد تأثيراً بيناً • فلقد خفت بتليس وأردلان والعمادية وجزيرة ابن عمر والتوابع الصغيرة لكل منها للتعاقد مع سيد مقل • ومع ان امتلاك الاتراك لكردستان الوسطى وشمال العراق - النتيجة الاسمية لغزوة سليم الكبيرة - لم يتضمن أكثر من توزيع الخلع والفرمانات وقبول الطاعة والهدايا فان الحكم الايراني هناك كان قد انتهى أمره • فنصب الحكم الاتراك في ديار بكر وماردين والموصل ووضعت حامية ومسالح

قوية في منطقة وان • وفيما عدا ذلك فإن انتقال الحكم الحقيقي ، والوحدات المنظمة ، والاخلاص الثابت ، وغير ذلك من مظاهر الاحتلال والحكم كانت كلها مفقودة • فقد سمعت القبائل المختلفة في الجزيرة الشمالية بالقدامين الجدد الى الموصل والرقّة ، وفقدت الموصل الخان ففازت بالبasha • وصار في امكان الامارات الكردية يومئذ ان توازن بين الحضارة الايرانية والعقيدة السنية ، وتراوغ متملقة أو زائفة دولتين عظيمتين بدلا من واحدة • وقد حاول الشاه طهماسب ان ينعم بلقب « خليفة الخلفاء » على حاكمه في بغداد فلم يفلح • وكثرت الرسائل من بغداد الى البوسفور حينما كان الخان في تلك اللحظة محافظاً على نفوذه في العراق الاوسط بعض الحفاظ •

وكان آخر دور من أدوار الاحتلال الايراني ، وأحسنها تدويناً ، دور اغتصاب ذي الفقار الملك ، ذلك الذي لم تعرف بوضوح مقدمات تقلده زمام الحكم في بغداد ولا كيفية حدوثه • ومن المحتمل انه كان ينتسب الى أسرة لرية على الحدود ، وانه كان قد حصل على معاضدة الجمهور من قبائل كلهور القوية • فقد حدث أن سار الخان من بغداد^{١٢} قاصداً جبال الحدود ليلتحق بالشاه • وفي أول ممر هناك هاجمه ذو الفقار ليلاً فذبحه ، ثم سار مسرعاً الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ، حتى سقطت في يده القوية التي لم تكن غير مرحب بها • ثم اضطلع بسلطات الحكم كلها • وهكذا أضاعت ايران بغداد بضربة مفاجئة وأصبح ذو الفقار سيد العراق الاوسط غير المنازع • غير ان هذا الوقت لم يكن ملائماً للحكام الصغار في مواقع معرضة للخطر مثل هذه • فأمر الناس بكل حكمة ، بأن ينطقوا بالتابعة للسلطان في صلواتهم وينقشوها على نقودهم • ووصلت الى استانبول الرسائل مسترحمة السلطان في قبول التابع الجديد وحمايته •

أما طهماسب ، الذي كان ما يزال في السادسة عشرة من عمره ، ولو كان قد تقلد الحكم منذ ست سنوات ، فقد سمع بخبر انسلاخ العراق وأزعجه ذلك كثيراً • وفي سنة ١٥٣٠ سار على طريق كرمشاه الى بغداد ، فلم تجده هجمات

(١٢) اتبعنا هنا رواية غولشن ، غير انها ملأى بالمشاكل • أما المراجع التركية (فردي وبشاوي) التي يتبعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر ص ٢٠٤) فانها تعد ذا الفقار والياً اعتيادياً من قبل طهماسب •

العديدة شيئاً ، فقد كان ذو الفقار جلدأ في الدفاع كما كان مقداماً في الاستيلاء • ولكن الخيانة نجحت في مقام خاب فيه سلاح الصفويين • فقد أغرى الشاه أخوي المعتصب به وحقق امكان اغتياله ، فمات ذو الفقار وهو يدافع أعداءه عن نفسه بكل جرأة في بيته الخاص • وبذلك انتهى أمد حكمه القصير وانتهت معه تابعة استانبول • ثم أجزل الشاه الاخوين المكافآت ، وسلم حكومة بغداد الى محمد خان وهو من ولاية تكة في الاناضول • وعين الشاه أيضاً الضباط المنخلصين لحاكميات كركوك والحلة ومنديلي والجزائر والرماحية ورجع هو الى قزوین • على ان النهاية كانت باليد • فان السلطان لم ينس عرائض المدينة الذائعة الصيت التي استرحمته لبلوغ حمايته • وبذا كان السلطان القانوني وسيد عصره العظيم قد بدأ بمسيره اليها •

السلطان سليمان ١٣

ذعر البلاط الايراني في شتاء ١٥٢٥ عند سماعه بالاستعدادات الحربية الواسعة النطاق التي كانت تجري في استانبول • وكان السلطان قد استعمل عبارات الوعيد في أخريات رسائله التي بعث بها لتهنئة الشاه طهماسب الصبي يومذاك • فاتصل المشاورون الصفويون بملك هنغارية وامبراطورها ليعاونهم على العدو المشترك • فرد سليمان على ذلك باعدام نفوس الاسرى الايرانيين الذين كانوا معتقلين في غاليلولي حينذاك • فبات في حكم المقرر عنده توجيه حملة قوية على ايران ، غير ان السلاح التركي قد حوّل ضد هنغارية بدلاً من ذلك • وبقي العراق ، كما رأينا ، أيرانيا في حكمه (عدا دور ذي الفقار) مدة تسع سنين أخرى •

على ان وصول الصولة التركية الى اوج عزتها العدائية واتساع الشقة في

(١٣) المراجع : ان « نشرة » السلطان سليمان تعدادهم مرجع لحركاته • أما باقي حملاته في ١٥٣٣ و ١٥٣٤ فقد جمعها الفون هامر (المجلد الخامس ، الكتاب الثامن عشر • ص ٢٠٢) من جلالزاده وپشاوي وفردى • ولا بأس بما كتبه نولز (ص ٦٤٩ - ٥٣ طبعة سنة ١٦٠٣) • وأخذت المعلومات في شؤون بغداد الداخلية من گولشن وهو المنبع الوحيد كما يقول هوار (حاشية ص ٣٨) • وأما المصادر الايرانية التي يرجع اليها مالكولم وسايكس فهي عقيمة ، كما ان الحوادث ذكرت مختصرة في المراجع العراقية القليلة الاهمية •

الخلاف بين الشيعة والسنة ، وبقاء التوسعات الشرقية التي قام بها سليم غير كاملة ، كانت كلها تدل على أن الحرب المزمعة على ايران يمكن تأجيلها لا تركها . أما الاسباب المباشرة فحوادث الحدود كانت تكفل خلقها . وكان خان بتليس قد آثر اطاعته للايرانيين على اطاعته للترك ، حينما كان اولاماه بك ، المذبذب بين الامبراطوريتين ، يقبل في هذا الحين الايدي في استانبول . فعين بگلربكي لحسنكيف^{١٤} . الا أن حكام الولايات التركية المجاورة الذين أمروا بنصبه خابوا في الدخول عنوة الى الولاية أمام جيش شريف البتليسي . والى هذه الاهانة التي لحقت بالقوات العثمانية يمكننا أن نضيف تضرع سنة بغداد طالبين انقاذ أنفسهم . فكان من السهل الحصول على فتاوى تحل الحرب وتدعو لقتل الشيعة المارقين من دون تفريق .

وفي أوائل خريف ١٥٣٣ سار ابراهيم باشا الصدر الاعظم الى بتليس . وما ان وصل حتى وجد ان المهمة التي نجاء من أجلها قد قضيت . فقد توفي شريف بك ، فعين ابن اولاماه حاكماً . ثم رجع الوزير الى حلب ، ومن هناك قوض خيام معسكره في نيسان ١٥٣٤ . وبعد ان عبر الفرات في بيره جك وصل الى ديار بكر في ١٤ أيار حيث تريت ستة أسابيع . وبعث اليه وان مع كثير من القلاع الكردية الاخرى على الحدود بالمفاتيح . وفي أوائل تموز ترك ابراهيم باشا ديار بكر ، وسار السلطان من اسكداري في نفس اليوم . وقد دخل الوزير الى تبريز من دون صعوبة ولا سفك دماء . وثبتت الفتح الحملات على الاصقاع الجبلية من أذربيجان . وفي أواخر أيلول التحقت قوات السلطان بقوات الوزير . وقد خلد السلطان مكوثه القصير في تبريز ببذل العطايا بسخاء ، وتقبل الخانات والبهكات الوافدين بعرض الطاعة بحفلة عامة .

وكانت بغداد الهدف التالي . فقد بدأ بالسير اليها في أحوال أيام الخريف الاول . ومر السلطان بميانة الى زنجان ثم السليمانية . وهنا وافته الأنباء تفيد ان القوات الايرانية التي كان يتوقع هجومها قد انسحبت ، وان كثيراً من اتباعها مستعدة للنكوص . فأصبحت المسافة بين الجيش وهذان خالية من عدو . غير ان برد تشرين الثاني وأمطاره ، والممرات غير المطروقة في المئة ميل الاخيرة من

(١٤) الظاهر ان حسنكيف هي المعروفة في كتب التاريخ بحصن كيفا «م.ج.» .

الجبل ، جعلت مرور الجيش صعباً باهظ النفقات • فقد جرفت الجداول الفائضة
قسماً من المدفعية ، وتركزت مئات من الحيوانات ، ثم قل اللحم وخشنت الطباع
حتى أهين الضباط الكبار • وأُحرقت عربات المدافع فدفنت المدافع نفسها لئلا
يستفيد منها العدو • وأخيراً أطل السلطان من بعيد على التلول اللرية ومن ورائها
سهول العراق فارتاح لذلك عظيم ارتياح •

أما بغداد فكان يسودها الانقسام • فان اولاماه بك الذي تركه السلطان
في الشمال كان قد بعث الى محمد خان « التكلي » برسائل الاغراء والخداع
طالباً منه بها أن يستجيب لداعي عنصريته ، ولولاء جديد صحيح ، وان يخشى
من بأس السلطان • لكن الخان أجابه بلهجة مهينة وأعد العدة للدفاع • وكان
« قوي الجنان بعزمه هذا بعد أن وصلت اليه رسالة من الشاه طهمااسب ، غير أن
عزيمته قد ضعفت بانسحاب الشاه واقترب السلطان • فصمم على الهزيمة ولكن
الى ايران • فتظاهر بوصول دعوة اليه من الشاه وجمع ضباطه فعرض عليهم
الخطة • فرفض التكيون ، وهم أنصاره الحقيقيون ، مطلبه وتمردوا • الا أن
الخان بقي مؤملاً استعادة ايران بقوة قبيلة اخرى • وهنا وصل رسول من
الشاه يحمل اليه أوامر تدعوه للعمل نفسه • فقويت في البلد اشاعة وصول المدد
الملكي ووصول الشاه نفسه الى خاتقين • فاجتمع التكيون من جديد ورفضوا ثاية
مغادرة المدينة • فأوعز محمد خان للمنادين بأن ينادوا ان على الذين يحبسون
سيدهم أن يتبعوا الخان وعلى الذين يفضلون البقاء لتحصن غير مشر أن يتأخروا •
فتبعته سعمائة أسرة • أما سواد الشعب فلم يعبأ الا قليلاً بكل خان أو سلطان
يذهب أو يأتي • وعندما نوشد التكيون لآخر مرة بأن يتركوا المدينة خلعوا من
أعناقهم طاعة خاتنهم المحتضر ونظموا صفوفهم فاستولوا على المدرسة المستنصرية
القديمة وجعلوها قاعدة لهم وحصناً •

وعندئذ رمى الخان آخر قوس في كنانته ، بأن جمع رؤساءهم وصرح لهم
بعدوله عن نياته الاولى وبأنه عزم على أن يرحب بالاتراك ويدعوهم ، فكان الجميع
من الموافقين والمتشوقين • فغادر الرؤساء المدينة حاملين المفاتيح هدية لسليمان ،
وبقي أتباعهم وراءهم من دون قواد • وبذلك نجحت مكيدة محمد خان تمام
النجاح • فجمع أمتعه وأثاث بيته بسهولة وعبر الى الضفة اليمنى من دجلة ،

ثم وصل الى الاراضي الايرانية بعد التفاف طويل نحو الجنوب..
وقد وصلت انباء فراره من المدينة التي بقيت من غير مدافع الى السلطان.
وهو على بعد عدة مراحل من بغداد * فأرسل الصدر الاعظم قبله ، فدخل من
دون مقاومة وأغلق الابواب منعاً للنهب الذي قد يحدث ثم أرسل يدعو سيده *
وقد خيم الجيش المنهوك في شمال المدينة ، ثم دخل سليمان القانوني الى بغداد
بأبهة وسهولة * وبهذا دخل دار السلام خليفة جديد بعد انتظار طويل *

واضطرته الحاجة الى أن يريح قواته حتى الربيع ، ان لم نقل انه فعل ذلك
لتنظيم الولايات الجديدة ، والى أن يبقى عدة شهور في العراق * فأعلن الحاق
البلاد الدائم بممالك العرش بصورة رسمية * وعرض له الطاعة جميع الوجهاء
ورؤساء القبائل ، ثم أعم بالمكافآت الجزيلة والترفيعات على ضباط الجيش
المنتصر * وعرف أعيان بغداد عن كتب أبهة بلاط السلطان التامة مدة شهور
عديدة * فقد كان مقره في المعسكر خارج المدينة ، وكانت الرسوم فيه رسوم
مخيم لا بلاط * وصار في إمكان البغداديين القلقين وغيرهم من المستطلعين
الوافدين من جميع أصقاع العراق وأطرافه الجبلية أن يقدروا ثروة سادتهم
الجدد وآلهم العسكرية التي لا تقهر من الدانوب الى شط العرب * كما رأوا
في إعدام عدد من أعداء الصدر الاعظم مقدان الوسواس والجشع اللذين لم يخل
منهما سليمان نفسه *

ومما لا شك فيه ان مثقفي بغداد لم يدخروا وسعاً في إفهام ضيوفهم بما كان
لمدينتهم من تاريخ حقيقي مجيد * وان الآثار التي كانت أقل اندثاراً من الآن ،
وضفاف القني ، والأبنية العظيمة المتهمة ، والخزف المتناثر الدال على مدن
عظيمة ، لا بد من أنها قد أثر منظرها في نفس السلطان وغيره وذكرتهم بأنهم كانوا
يقفون بين أطلال مدينة عظيمة * وقد تنبأت الألسنة التملقة بأن السلطان سوف
يعيد الأمجاد الماضية الى سابق عهدها ويتفوق فيها * وكان الضرب على وتيرة
الدين أشد وقعاً من ذلك في النفوس ، لا سيما وان قيام سليم الأول بنقل لعبة
الخلافة من القاهرة الى استانبول لم يكن قد مر عليها الا مدة ثلاثين سنة * والحقيقة ان
بعث مدينة أسلافه الروحيين وبلادهم بعثاً جديداً كان قد أحدث في قلبه هزة عنيفة
فلبى داعي الشعور الديني تلبية طيبة ، واتقدت على عهده شعلة الاسلام

انتقاداً لأمعاً • ولما كان السابقون له من الصفويين على جانب عظيم من السلطة الدينية كان عليه أن لا يكون أقل منهم في هذا الشأن • فزار باجلال حقيقي ضريح عبدالقادر الكيلاني وقبة موسى الكاظم ومحمد التقي^{١٥} • وأمر باكمال بناء الجامع الكبير الذي بدأ به الشاه اسماعيل ، ثم اوقف مقاطعات مغلّة للمقاصد الدينية ، الشيعية والسنية على السواء • ولم يشغله من الواجبات الدينية أمر أكثر من التعرف على موقع قبر أبي حنيفة واعادة بناء ضريحه ، وهو مؤسس أحد المذاهب السنية الاربعة • وكان الفاتحون من الشيعة قد هدموا القبة والضريح ودنسوا الرفات نفسه • غير ان القيم (الكيلدار) القديم اهتدى باعجوبة لمعرفة الجسم المقدس محفوظاً بصورة كاملة • وقد صانته القدرة الالهية من الايدي الشيعية غير المؤمنة • فبنى السلطان في ذلك الموقع قبة فخمة أصبحت مزاراً سنياً عظيماً على مدى العصور •

وكانت عنايته الثانية أن يزور العتبات المقدسة في الفرات الاوسط ، وان يفعل هناك أكثر مما فعله الزائر الصفوي في العهد الاخير • فوجد مدينة كربلاء المقدسة حائرة في حائرها بين المحل والطغيان • اذ كان الفرات الفائض في الربيع يغمر الوهاد التي حول البلدة بأجمعها من دون أن تسلم منه العتبات نفسها • وعند هبوط النهر كانت عشرات الالوف من الزوار يعتمدون على الري من آبار قدرة شحيحة • فرفع مستوى « روف السليمانية » - وهي سدة ما تزال نافعة - لوقاية البلدة من الفيضان • ثم وسع التربة المعروفة بالحسينية وزاد في عمقها لكي تأتي بالماء باستمرار ، ولأجل أن تجعل الاراضي النخالية المغيرة حولها بساتين وحقول قمح • وصارت هذه التربة تنساب في أرض كان الجميع يظنونها أعلى من النهر الأصلي • فاستبشر الجميع للمعجزة واقتسم الحسين الشهيد والسلطان التركي جميع الثناء والاعجاب • وبعد أن زار سليمان قبر الامام علي في النجف قل راجعاً الى بغداد •

(١٥) لا شك ان المؤلف يقصد بهذا الاسم الامام محمداً الجواد لانه لقب بالنقي

أيضاً - المترجم

فقارب مكوثه الانتهاء • وعندئذ خف الشيخ العربي^{١٦} الذي كان يحكم البصرة حتى تلك الايام فبعث ولده راشداً يحمل المفاتيح ورسائل الخضوع الى السلطان • فالحقت البصرة ، على هذه الشاكلة ، بالمتسلكات العثمانية بسهولة وأصبحت درجتها اسماً ايالة ، وعين راشد نفسه حاكماً فيها • وأوصي بأن يتلقى الاوامر من الباشا في بغداد ، وان يكون الشرع قانونه في الحكومة ، وان يذكر اسم سيده الجديد في النقود والصلوات العامة • وجاءت وفود مشابهة بالطاعة من منطقة الجزائر ، والغراف ، ومن جبال اللر وأهوار الحوزة ، ومن القطيف والبحرين^{١٧} البعدين أيضاً • فأرسلت الحاميات الى أشهر البلدان في الولايات ، وكانت تعرف حينذاك بمراكز السنجق بگي • ومنحت هذه الدرجة ودرجة المقاطعات التي تدانها ، كل منها بحسب قابليتها الاقطاعية ، الى الجنود الذين أظهروا كفاية في الحملة الاخيرة^{١٨} • وكذلك أمر السلطان بوضع خارطة للولاية الجديدة ، ولجباية ضرائبها الزراعية بصورة معتدلة •

ثم تهيأت وحدات الجيش لمسير الرجوع الطويل وقوضت خيامها • وقد جعل سليمان باشا حاكم ديار بكر السابق أول والٍ عثماني في بغداد ، وترك معه الفأ من حملة البنادق الخفيفة ومثلهم من حملة البنادق الثقيلة^{١٩} • فغادر السلطان

(١٦) ان اوقات وتواريخ تسلم حكام البصرة هؤلاء الحكم مدرجة في التقويم وفي باش أعيان وفي گولشن • وقد وفقنا في هذا الكتاب بين الثلاثة •

(١٧) ويضيف تولز (ص ٦٥٣ من الطبعة المشار اليها آنفاً) ان السفراء وفدوا عليه من هرمز البعيدة ، مدينة علي مصب الفرات (كذا) في الخليج الفارسي •

(١٨) سوف نرى في غير هذا المجال ان نظام الاقطاع هذا ، الذي أدخله السلطان سليمان في مثل هذه الاصقاع من العراق التي تمكن من ضبطها (الفون هامر ص ٢٢٠) ، لم يستقم كما استقام في ولايات اخرى • وقد قسمت بحسب قانون نامه سليمان سناجق بغداد السبعة وهي : الحلة وزنكباد والجزائر والرماحية وجنقولة وقره داغ وسنجق آخر الى وحدات اقطاعية ، وبقيت الاحد عشر سنجقاً الاخرى في الايالة غير مقسمة •

(١٩) لا يمكن التوصل لمعرفة قوة الحامية الحقيقية ، التي كان من المؤكد ان تضم الانكشاريين والسباهيين النظاميين والمدفعية ، من مرجعنا المختصر عن هذا البحث وهو « فردي » •

سليمان بغداد سالكاً طريق الخالص وساقالتونان • ولم نر في المدونات الباقية شيئاً عن حوادث هذه الرحلة الطويلة الى مراغة وتبريز • وكانت الموصل خارج خط المسير • على ان ذلك لم يمنع من منح الوحدات الاقطاعية^{٢٠} في ايلاتها والانعام بحكومتها على رجلٍ مجرب من الرعايا وهو السيد أحمد من أهل جزيرة ابن عمر •



(٢٠) ويذكر اوليا أفندي ان هذه كانت ستاً وستين زعامة والفاً وأربع تيمارات • وبالنظر لتقسيماته كانت الموصل تضم ثلاثة سناجق فقط •

القرن السادس عشر

آمال العراق ومخاوفه في زمن الحكم التركي

كانت هناك أسباب تدعو الى التفاؤل في ان يبرهن الحكم الجديد في العالم العربي ، الذي دخل به العراق وبقية البلاد بقليل من الجهد في حوزة التوسع العثماني العظيم ، على كونه نعمة وبركة . فقد مرت قرون على هذه البلاد كانت محرومة خلالها من نعم الحكم الامبراطوري . لأن الحكومات المحلية كانت جائرة في وقت قوتها ، وكان لابد من أن يرحب الناس بالسلطان منقذاً ومحرراً . ومع هذا فقد ظهرت للوجود في آسية الغربية امبراطورية عظيمة اخرى ، ولم يعد بوسع الضعيف ، والمتحزب المشاكس أن يؤمل في حكومة أبوية حازمة الا عن طريق الاندماج بها . وبفضل استتارة العاهل العظيم الذي شمل برعايته ملوك أوربة تأسس نظام اداري أحسن ، وأصلحت القوانين ، ثم منحت حقوق جديدة للناس . كما أصبحت الضرائب معتدلة معدولاً فيها . وعوملت الاقليات غير المسلمة بتسامح وقليل من التعصب . وجيء بالقوات اللازمة لحفظ الأمن والنظام من بين الانكشاريين المشهورين الذين كانوا ما يزالون يعدون أقوى هيئة عسكرية في العالم . وكان انتشار الأسر الكثيرة التي يجري في عروقها الدم التركي في الولايات الجديدة من الأمور التي تضمن الولاء والاخلاص فيها . يضاف الى ذلك ان تقلد سليم المخيف لأقدس المناصب في الاسلام قد أكد للعالم السني أجمع بأنه لا يمكنه أن يتوجه لغير استانبول ما دام سكانه متمسكين بدينهم .

فيمثل هذا كان يمكن للناطق باسم الولايات العربية المحتلة حديثاً أن يعلن لنفسه الوضع الجديد فيها . بيد أنه كانت هناك عوامل على مثل ما ذكرناه من الفعالية والنشاط في الطرف المقابل ، وأسباب تشابه تلك وجهة ، تبين لنا لم

(١) أي تسلمه الخلافة من الخليفة العباسي الذي كان في مصر - المترجم

أصبحت الآمال التي عقدت على الانضمام الى الامبراطورية العثمانية شيئاً مخيئاً • وليست بنا حاجة الى التأكيد على أن مجرد فكرة الامتلاك التركي تقضي على المحكومين بالحكم الأناني المتحيز • فقد وجدت الامبراطورية وكان لابد لها من التوسع أكثر فأكثر من أجل أن يحصل السلطان على مجد أعظم ، ونشر الديانة الحققة ، وملء الخزينة ، واستقرار الحال في الوحدات الاقطاعية ، وتجنيد القوات الاقطاعية اللازمة • ولم يكن يخطر على بال القانوني نفسه - ولا على بال ولائه الطامعين - ان الحكم يجب أن يكون في مصلحة الشعب المحكوم ، وان الوزراء يجب أن يكونوا وزراء حقيقيين •

فبدت في سيف عظمة الامبراطورية ومجدها الشامخ ، في منتصف القرن السادس عشر ، أول علامات خريفها • اذ كان سوء الاستعمال ، الذي قضى على الدولة التركية أخيراً ، معروفاً حتى في هذا الدور • وكان الترفيع بغير هدى لخصي من الخصيان أو لأحد المقربين يعرض بغداد أو القاهرة لان يحكمها حاكم "يعد إمكان لياقة انتصب به ضرباً من السخرية • فجعلت الفرص العديدة للاثراء الذاتي في الباشويات النائية الحكم فيها من المشاريع التجارية • وكانت سلطة جباية الضرائب ، أي حكومة الولاية ، لا تسلم الا الى أعلى المترايدين • ولذلك كانت الهدايا الثمينة الضرورية للاحتفاظ بالكراسي الوثيرة لا تدفع الا من عرق جباه المحكومين الذين لا يكابدون سوء الاستعمال حسب بل يدفعون المال لشراء الحكم السيئ أيضاً • وبالنظر لبعدها عن استانبول كان تعدي الحكام وجورهم يبقى مستوراً ، كما كان ايصال أخباره أصعب من الكشف عنه • وعلى هذا ما كان الولاء لينمو بسرعة في شعب لم ير من بأس السلطان الا حواشيه ، ولم يشعر الا بوطء موظفيه الخشن • وكان هؤلاء الموظفون أنفسهم يعدون إبعادهم الى العراق أو فلسطين من الواجب المكروه أو الفرصة المؤاتية • ولم يكن يكن بين السكان وحكامهم الجدد ما يجمعهم في صعيد واحد • فقد كشف الاختلاط بينهم عن أعظم الاختلافات في العقلية • فالعرب بماضيهم الطويل بحياة البداوة وعدم صبرهم وثباتهم ما برحوا أقوى الشعوب الخاضعة شكيمة • كما كانت الشخصية التركية - غير المدركة وغير المرنة - أبعد ما تكون عن تقدير أهوائهم أو فهمها • وكان مجرد مظهر الاغوات من الترك ، وأخلاقهم ولغتهم ،

بدو غريباً أجنبياً في عيون العرب وآذانهم .

وقد كانت هذه الشكوك والمخاوف تنطبق بحذافيرها على العراق ، وكان يعظم تأثيرها بسبب الاحوال الداخلية في الولاية . فقد كان شمالي العراق وكردستان سنين وكانت بغداد منقسمة ، بينما كانت المناطق الوسطى والجنوبية منه شيعية قحّة وجلّة من نيات الخليفة الحديث . وكان يشع من العتبات المقدسة نموذج قوي الوقع ذو حالين : معادٍ للسلطان وودي للشاه . ولذلك كان العراق مسرحاً طبيعياً لنزعات هذين الخصمين كما أثبتت القرون الثلاثة من بعد . وكان أمل الوثام الديني أو الحدود الهادئة ضعيفاً . وكانت الاحوال في الولاية نفسها على هذه الشاكلة . فجبوه الحكام الحديثون بأقليم قاس غير مألوف وبمشاكل السهول الفاحلة والأهوار التي لا مسالك فيها ، وبطرق للمواصلات طويلة غير مخفورة . أما البلدان فكانت تطلب القليل وتنفر بسهولة كما كانت مترددة وغير موالية . وكانت القبائل تعتبر مشكلة الحكومة التي لم تحل ، ولما تحل حتى اليوم . فانها كانت تنتشر في طول البلاد وعرضها وهي قوية بعددها ، تتحرك دوماً ولا تنلب بتراجعها ، لا تصبر على الضيم بطبيعتها وتقاليدها ، شيخية بحكمها وتابعة لنظام البادية الذي لا يتفق مع أي قانون كان . ولذلك لم تهدأ هذه القبائل في ظل الباشوات ، ولم تتخل عن حريتها المطلقة التي أمسكت بموجبها زمام تسعة أعشار البلاد التي يدعي بحكمها آل عثمان في هذا الدور .

داخلية العراق في سنة ١٥٣٤ - ٢١٦٢٠

هناك أسباب تستدعي أن تعتبر الأدوار الاولى من أدوار الحكم التركي في العراق أكثرها أهمية . اذ كانت الامبراطورية قد بلغت أوجها ، ولم يكن لها في ولاياتها ماضٍ تحيا به بل كان لها من السمعة ما يؤهلها لذلك . وأصبح لها في العراق مجال جديد تقيس به مقدرتها على الحكم . غير انه من المؤسف ان

(٢) ان مصادر هذا البحث شحيحة . وقد اعتمدنا على ما كتبه گلشن وباش أعيان في اضطرابات البصرة وعدة من الحقائق الاخرى . واعتمدنا على ما كتبه الفون هامر (الكتاب السابع ص ٢١٩ - ٢٢٠) في حوادث جيغالا . أما الرحالون الذين رجعنا لكتاباتهم بصورة خاصة فهم راولف وسيدي علي وفيتش مع رفقائه وبالبلي وتكسيرا (تيشيرا) .

لم تتوفر المصادر الكافية التي يمكن أن يستمد منها ما يساعد على إثبات صورة حقيقية لنجاحها أو خيبتها • والمعلومات القليلة المتوفرة التي ستسرد ربما لا تفيد التاريخ إذا ما غيرت النسب فأكدت على ما لا يستحق التأكيد من الحوادث • على أن أحسن الأدلة عندنا وأكثرها خطراً الاحوال الثابتة في العراق والاستنتاجات المستمدة من تاريخ تركية آنثذ • فالأخبار البسيطة التي دونها الرحالون لا تساعد المؤرخ الا قليلاً ، والتقاليد التي يمكن أن يستدل منها على بعض الأمور لم يبق منها بعد خسران بغداد واستعادتها فيما بعد الا شيء يسير •

فقد كان الوضع العام في الاصقاع العراقية هو وضع الممتلكات النائية من ممتلكات السلطان • فمصطلحات الحكومة التركية وتشكيلاتها بقيت سائدة ولم تبدل • وكانت الجرائم يجمعها الجند ويحكم فيها القاضي المعين من استانبول • وكان الذين يجذبون استسلام العراق الى الحكم التركي بالكلية الطبقة البوروقراطية الجديدة ، والحاميات ، وملتزمو الاقطاع ، وقسم من رجال الدين • وكانت على الضد من هؤلاء القبائل والشيعية والتأثيرات الفارسية والاطماع المحلية التي كان يرونها ضعف الحكومة أو عدم وجودها ، ثم خصائص البلاد نفسها •

وكانت مزية هذا العصر البارزة الخصومات^٣ التي كانت تكاد لا تنقطع بين الامبراطورية وايران ، ذلك الامر الذي أثر تأثيراً سيئاً في الجمهور والحاميات العراقية الى حد كان من الصعب تقديره • فقد أثرت بالتأكيد في توارد الزوار الى العتبات المقدسة ، وتبادل التجارة مع أصفهان وتبريز • كما استدعى ذلك دعوة الانكشاريين وملتزمي الاقطاع أحياناً للمشاركة في عمل الجيوش الامبراطورية في الشمال • وبدى بجمع الجبوب وحيوانات النقل • ومن

(٣) ان هذه الاحوال مدونة بأسهاب في التاريخ التركي والايراني العام • وتعرف مراحلها الرئيسية بصلح ١٥٥٥ الذي استقام مدة عشرين عاماً ، وبهذنة عقدت في ١٥٧٨ فنقضت بسرعة ، وبصلح آخر في ١٥٩٠ وطال أمده حتى ١٦٠٣ • وأعقبت ذلك خصومات جديدة دامت حتى ١٦١٨ • وكانت الاطماع والاحقاد والحجج موجودة لدى الطرفين أبداً • وكان العثمانيون حتى نهاية القرن هم المعتدون ، ومن بعد ذلك انتقل الاعتداء الى الصفويين • وقد أثر تعاقب الحكام الضعفاء في تركية وحلول عهد عباس العظيم في ايران تأثيراً بيناً في رجوح كفة النجاح •

الحوادث المعروفة في العراق عن هذه السنين الفزع من خطر يهدد أسوار المدينة، وانقلاب الامراء الاكراد المذبذبين ، والوليمة الملكية المولة لسفير ايراني مر في طريقه الى البوسفور . وان كانت حروب القرن السادس عشر ، عند مقارنتها بالحروب الايرانية العظيمة التي نشبت في القرن الثامن عشر ، لم تستوجب دعوة باشوات العراق ووحداته التيمارية ليسهموا فيها اسهاماً رئيساً فان بعض الادوار المهمة منها كان يشير في البغداديين شيئاً أكثر من الاهتمام الفاتر . ففي سنة ١٥٨٦ تقاطر على المدينة خمسة آلاف من التركمان اللاجئين الفارين من وجه حمزة مرزة الباسل . وبعد ذلك بقليل وقعت حرب عوان بالقرب منها بين فرهاد باشا القائد التركي العام وقوة ايرانية جبارة بقيادة قواد كبار . وتذكر هذه الرسائل المضحكة المتبادلة بين القواد وبالغنائم الغنية بالغلمان والجواري التي مهد النصر للبasha أن يتخف سيدة بها . وفي ١٦٠٤ شن الرئيس الايراني الله ويردي خان غزوة مفاجئة أسر فيها ثلاثمائة أسير خارج أسوار بغداد نفسها ونشر الذعر في داخلها . ثم حوصرت المدينة حصاراً جزئياً في السنة التالية . وفي سنة ١٦١٦ نهبت مندلي قوات^٥ ايرانية ، غير ان باشا بغداد استعادها بشدة وسرعة . وسيدكر عن التأثير الذي أحدثته هذه الاحوال في الدويلات الكردية الشيء الكثير في صفحات متأخرة . وتشأ الميزات الاخرى لهذه الحقبة عن الخطر الايراني من جهة ، وعن الاحوال الداخلية في العراق نفسه من جهة أخرى . فقد جلب له موقعة كولاية على الحدود فائدة وضع الحاميات الكبيرة لتؤثر تأثيرها في البلدان والقبائل ، كما عوده ذلك أن ينظر دوماً لمنع حمايته البعيد . ومن جهة أخرى كان السلطان يرى بغداد عزيزة عليه لعظم اسمها ووضعتها المتقلقل . أما في الداخل فقد كان طابع هذا العصر وكل عصر يليه قلق البدو والقبائل نصف المتوطنة وعدم احتمالها الاذعان لاية حكومة من الحكومات . وفي هذه الايام المبكرة ، على الاخص ، كان سخط القبائل على حكامها شيئاً

(٤) ان مالكولم وسايكس يجعلان جميع العراق يخضع لايران في ١٦٠٥ بعد انهزام سيكالا في موقعة ارمية . وهذا حقاً غير صحيح .

(٥) ديلاقاله (الرسالة الاولى لسنة ١٦١٧) .

مألوفاً ، بينما كانت هناك في المدن والبلدان الصغيرة حالات وحوادث كافية يستدل منها على وجود حكومات ضمن حكومات ، وعلى ان الحكم الامبراطوري كان غير معمول به في مكان ويشاركة الرؤساء المحليون في مكان آخر . وبينما كانت الموصل وبغداد تمشي فيهما الامور بصورة اعتيادية بكونهما مركزي ايالة فان ولايتي البصرة وشهرزور المنفصلتين قد صيتتا لاياً بلأى^٦ من الانفصال التام عن الامبراطورية .

ولا نعلم من خلف سليمان باشا الوالي الاول في بغداد . على ان الحاكم في سنة ١٥٤٦م (٩٥٣هـ) كان أياس باشا . وقد وقع على عاتقه واجب^٧ أتعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر ، ألا وهو واجب اخضاع البصرة وقبائلها المتمردة . فان الحكومة التي قلدها السلطان سليمان راشد المغامس في جنوبي العراق لم تستقم الا عشر سنوات . وكانت علاقته خلالها بزملائه الشماليين باشوات بغداد المتبدلين دوماً علاقة تمشية حال من دون أن يأخذ أو يعطي شيئاً . غير ان الاتصال حصل بالتدريج . فان التعرف على حكم السلطان انتج الاستخفاف به . ولذلك كان الهاربون من أواسط العراق يجدون في الميناء ترحيباً ومأوى ، وكان طلب الباشا لهم قد ذهب عبثاً . فأمر السلطان النائي بتجريد حملة على البصرة والحاقها بالامبراطورية بصورة جدية . وفي ١٥٤٦ ترك أياس باشا بغداد على رأس حملة كبيرة . وسارت أرتال الجيش على طريق دجلة^٨ بينما كانت ثلاثمائة سفينة شراعية تنقل الذخائر والمؤن . وتقدم حاكم البصرة شمالاً حتى منطقة^٩ الجزائر ولكنه رجع مدحوراً تماماً . فدخل أياس البصرة وأعلن الغاء الضرائب التي كان يجمعها الحاكم العربي وأحل مكانها الضرائب التي يأمر بها الشرع . فأتى الناس على أعماله الخيرية الحكيمة

(٦) لاياً بلأى هو المراد بقول العامة من الكتاب « بالكاد » قال الشاعر :

فلاياً بلأى ما حملنا غلامنا على ظهر محبوبك شديد مراكله

(٧) هذا ما ذكره باش أعيان ، الا أن گولشن يذكر أن المسير كان على طريق

الفرات كما يشير الى زيارة الجيش للنجف .

(٨) ان رواية گولشن تقول بأن راشداً بقي في البصرة لاجل أن يفر منها

بسهولة اذا خسر الحرب في حين ان الذي ذهب لمقاومة أياس هو شيخ قشعم

فأنهزم وذبح .

ثناءً حسنًا وتضرع الجميع بالدعاء للخليفة • ثم بقي أياس في البصرة حاكمًا عليها ٩ •

غير ان العمل بقي متوراً • فقد قطعت قبائل أهوار البصرة جميع الطرق المؤدية للبلدة • وبالنظر لأن باشا البصرة لم يشارك في الحملة التي جردت بعد هذا فمن المحتمل انه كان قد أضاع مركزه • فلقد صدرت أوامر السلطان القاضية بتأديب الثائرين الى علي باشا تمرد ، رئيس انكشاريي بغداد (وربما كان حاكمها) • وأخذ مكانه في بغداد محمد باشا بلطجي ، ميرميران سيواس ، الذي جلب معه جماعةً صغيرةً لحمايته • وبعد أن أكمل علي باشا استعداداته سار فتوقف في الغراف وانضم اليه هناك علي بك ، وكان سنجق بكّي لتلك المنطقة • فنزل الجيش الموحد الى الفرات نفسه ، ثم حوصرت المدينة ، وقد كانت مقر عليان رئيس الثوار • وفتحت المدينة بعد هجوم دام ثلاثة أيام فكسرت حماسة القبائل ، وفر عليان مع أتباعه متفرقين • غير ان هؤلاء لم يتركوا المقاومة وانما استمروا على الغزو وقطع الطرق • وأقام علي باشا الاستحكامات القوية لضبط المواصلات المائية • وفي آخر الامر كملت عملية التهذئة ، اسمياً وموقتاً ، ورجع الى بغداد •

وعندما زار البصرة الاميرال المؤلف الشهير سيدي علي في ربيع سنة ١٥٥٤م (٩٦٢هـ) وجد حكومة اعتيادية في المدينة • الا ان الاسطول كان به حاجة للإصلاح ، فأعطيت له خمس عشرة سفينة قديمة مضعضة • وكانت العلاقات مع هرمز حسنة بحيث مكنته من محاولة تجهيزها ، بغير نجاح ، من هناك • وتأزر مع حاكم البصرة مصطفى^{١٠} باشا بخمس من هذه السفن على الاعداء المحاربين في أنهر عربستان^{١١} • وكان بين جنود حامية البصرة انكشاريون من

(٩) يذكر تقويم البصرة في ص ٦٢ ان «الوزير أياس باشا» كان والياً في ٩٥٢

لهجرة • وهذه الرواية تجمع بين روايتي گولشن وباش أعيان •

(١٠) لا يوجد هذا الاسم في قائمة الولاة المدرجة في تقويم البصرة • غير أن القائمة غير كاملة حسب الظاهر لان الاسماء مأخوذة من ذكر بعض الحوادث في تاريخ باش أعيان •

(١١) يذكر سيدي علي « جزيرة حويزة » وربما تكون هذه جزيرة بيد هؤلاء

مصر • وقد سبب تقلب هؤلاء فشل الحملة عن الظفر مع خسران مائة رجل • وكان والي البصرة يعيش في الفترات الهادئة بأبهة مبنية على واردات كمرگه (مأصره) ^{١٢} الاكيدة الغزيرة • على ان حكمه ، من جهة أخرى ، لم يتعد خندق المدينة الا قليلاً • وكانت الحاجة ماسة لكثير من القلاع النهرية الساحلية لتتحافظ على حركة الشحن من عبث لصوص الحويزة ، ولأن سكان الاهوار في دجلة والفرات الجنوبيين لم يظهر منهم ما كان يدل على امكان التعاقد معهم بصورة دائمة • • • • • ومنهم من كان الترك لا يستطيعون اخضاعهم لانهم كانوا متحصنين في جزر تقع وسط الفرات وليس يوسع الترك أخذها منهم • ولذا كانوا كلهم لصوصاً ليس لهم مسكن معين • • • • • ^{١٣} • وقد عورض حاكم البصرة ، أكثر من زملائه الحاكمين في أماكن أخرى ، بشيء من الشعور القومي في معرض مقاومة الحكومات حسب العادة • ولم يعارض التجار أية حكومة تستطيع توطيد الأمن ، الا أن رعايا المدينة مع بعض الطبقات الدينية كانوا يعارضون الانتراك ويعدونهم من الاجانب • وقد بذلت المحاولات للتوافق ، ومنح قوم منهم الامتيازات كما استعملت العقوبات المؤثرة • غير ان التأثيرات المحلية هذه ، كما سيذكر فيما بعد ، قضت في الاخير على الحكومة التركية بكما لها بعد حياة مرتعشة قصيرة •

وفي هذه الايام كان أمر انفصال شهرزور واسترجاعها سائراً في طريق مختلفة • اذ كانت الحكومة قابضة على كركوك وأربيل وآلتون كوپري بحزم وقوة • والحقيقة ان حكم السلطان هنا كان مرغوباً فيه أكثر من أي منطقة اخرى في العراق • ولم تكن المعارضة موجودة ، والحكومة اسمية متقلقلة ، الا في المناطق الشمالية والشرقية من الولاية فقط • وسوف يذكر شيء أكثر عن هذا ، بالنسبة لما يختص منه بالدولة الاردلانية المجاورة ، عند البحث عن جيران العراق والبلاد المصاحبة له •

ولابد لنا هنا من تدوين بعض الحقائق البسيطة التي بقيت غير مذكورة عن

الاعداء ، الا اذا كان يقصد بالجزيرة معنى آخر • واذا كان الامر كذلك فكيف تتعاون السفن اذن ؟

(١٢) الكمرک عند العرب هو « المأصر » •

(١٣) هذا ما يذكره رالف فيتچ (في هورتن رايلي ص ٥٣) •

حكام بغداد في هذه السنين • وفي صفحة متأخرة سوف نذكر طرد علي باشا
تمرد واحلال بلطجي محمد مكانه ، وكذلك انتداب باشا حلب لواجبات الحدود
الكردية • فمن المحتمل ان الذي خلف درويش علي ، موطن النظام في البصرة
سنة ١٥٦٧م (٩٧٥هـ) ، كان مراد باشا الذي عينه سليم الثاني^{١٤} من قبل • وقد
خلد اسم مراد باشا بالمنارة الفخمة المشيدة في المرادية المؤرخة ب ٩٧٨ للهجرة •
وكان راولف قد شهد الباشا في ١٥٧٥م (٩٨٣هـ) ، ولم يذكر اسمه ، وهو
الذي استهدها هدايا • وبعد سنتين أو ثلاث أخذ المنصب رجل مشهور في زمانه ،
وهو الوندزاده علي باشا • فأصابت العتبات المقدسة لكلا الطائفتين أعماله الخيرية •
فانه جدد بناء قبة الحسين العظيمة في كربلا وصحن عبدالقادر الكيلاني في بغداد •
وأشاد في أيامه بعدل الحكومة وحكمتها • وكتب المؤرخون في حملاته على جيران
الولاية المقلقين لها ، وكانت واحدة منها على حكومة الحويزة المجاورة
لولايتها^{١٥} •

وقد ذكرت حملة فرهاد باشا العظيم بالقرب من بغداد حوالي ١٥٨٩م
(٩٩٨هـ) • ولم يكن هو من حكام بغداد • غير ان المنصب كانت تشغله يومذاك ،
شخصية من أعظم شخصيات العصر ، وهو جيجالزاده المعروف في أوربة باسم
«سيگالا»^{١٦} • ولا يمكننا تدوين سيرته الروماتيكية هنا ، إلا أن المناصب الرفيعة
التي تسنمها من قبل في طول الامبراطورية وعرضها تدلنا على أهمية ولاية بغداد
التي عين هو حاكماً لها • فقد عرفت أيام تقلده الحكم باصلاحاته المهمة • فهو
الذي نبه أولي الامر في استانبول الى الأخطار التي كان يتعرض لها الحجاج عند

(١٤) يجب أن ينسب الى هذا الزمن الحادثة المبهمة التي جمعها راولف
من أحاديث الدواوين الغامضة وهي غزوة شنها الفرس على بغداد فوقع ابن الشاه
أسيراً فيها ثم استنقذ بالفدية • وقد يشير هذا الحادث لبعض قلائل الحكومة
بسبب اللر أو الكرد •

(١٥) ان رسالة تركية تدعى « هنر نامه » لنيازي مما لم يعثر عليها المؤلف
تبحث عن هذه الحملة في سنة ٩٩٢ الهجرية (١٥٨٤ الميلادية) لكن خلاصتها
موجودة باسم « ظفر نامه » •

(١٦) يرجع في أخبار حاكميته في بغداد الى كتاب الفون هامر ، الجزء السابع
ص ٢١٩ و ٤٠٩ والجزء الثامن ص ٣٨ •

اختراقهم البوادي العربية بلا انتظام . فاقترح تنظيم حملات مسلحة مؤيدة للرافق قوافل الحجاج الخارجة من بغداد ودمشق بقيادة حكام المدينتين . وصادف في أيامه أن قل الماء في عتبات الفرات الشيعية وتركها الزوار من أجل ذلك ، لان الجدول الخيري الذي حفره من تقدمه من الولاة قد طمرته كثرة التلّثن^{١٧} فيه فاستحال من أجل ذلك جريان الماء فيه . فحاول جيفالزاده احياء الانهر وارجاع الماء والزوار الى هذه العتبات . فلم تستصوب مشاريعه لكنها تدل على روح محسنة وعقل راجح . وكونت حملاته في ايران الجنوبية قسماً من النزاع الذي كان قائماً آنذاك فانتهى بصلح سنة ١٥٩٠ م (٩٩٩ هـ) . وقد ساعده نزاع أخوة حدث من أجل حكومة مدينة دسفل على أن يتدخل بصورة حاسمة ، فوقعت بقبضة يده دسفل والقلاع المجاورة لها ودحرت قوات الاقطاع الايرانية . وبقيت سطوته نافذة ردحاً من الزمن في داخل بلاد البخاريين .

وتولى الباشوية في بداية السنوات العشر الاخيرة من هذا القرن سنان باشا جيفالزاده^{١٨} فأغناها بتشييد خان^{١٩} للمسافرين وبنيات أخرى عرفت باسمه مدة طويلة . ولهذا أمتد الوقت الذي كان يقترن فيه اسم جيفالزاده العظيم ببغداد ، على ان ذلك سيجدد فيما بعد . وقد خلدت البنيات أيضاً عهد باشا آخر حكم في هذا الزمن وهو حسن باشا . وكان حاكم بغداد في السنة الاخيرة من القرن رجل يدعى دلي حسين . وهو مذكور عرضاً بأنه أخو التأثير المشهور عبدالحليم قره

(١٧) التلّثن على وزن شبر هو الطين الذي يبقى في الجدول والمسيل والنهر ثم يجف فيتشقق حتى ييبس فيصير صلصلاً .

(١٨) يجب لا يلتبس اسمه باسم « فاتح اليمن » . ثم ان گولشن لا يذكر باشوية جيفالزاده نفسه ، ولم يعلم بأن سنان الكبير كان باشا الموصل في ١٥٩٤م (١٠٠٣ هـ) .

(١٩) هو المعروف قبل سنوات باسم (خان جغان) وقد جعل أسواقاً للصاغة والبزازين وكانت على بابه كتابة تاريخ بنائه واسم سنان باشا المذكور . والتاريخ هو (٩٩٩ هـ) وذكره ياسين العمري في الدر المكنون في حوادث سنة ١٠١٣ هـ (م ج) . أما اليوم فقد أصبحت الاسواق جميعها للبزازين - المترجم

يازجي الذي أفرعت ثورته في آسية الصغرى الامبراطورية العثمانية • اما مقدار مشاركة دلي حسين في الامر وتوريطة جيوش العراق وتفريطه في مصالحه فذلك شيء مشكوك فيه • ولم يكن سكان الولايات العراقية الا من المتطلعين على بعد الى ثورات الاخ المخضر ، على وجه الاحتمال •

وقد حل القرن الجديد من دون حادث يستحق ان يذكر • وكان الحاكم حينئذ وزير حسن باشا^{٢٠} الذي حفر لحماية الكرخ خندقاً عميقاً عريضاً وأنشاء باشورة « سداً ترابياً » ثم زينه ببضع بنايات • ولا يمكننا أن نعلم بالضبط الباشوات الذين جاءوا من بعده • وفي بداية ١٦٠٤ (١٠١٣هـ) منح المنصب قائم مقام استانبول السابق قاسم باشا • ولم يجاوز هذا ينبي شهر حتى انضم الى قوات الثوار ، ولم يصل الى بغداد مطلقاً^{٢١} • فجاء مكانه مصطفى باشا صارقجي فكانت مدة بقاءه فيها قصيرة • وفي خريف ١٦٠٤م وصل الى العراق موكب حكومي مؤلف من خمسة عشر « قبوجياً » ومعه الخلعة والفرمان ، والسيف والسلسلة الذهبية الدالة على تعيين خصي چركسي يدعى يوسف باشا • وفي عهده حدث هياج مهم في كربلا قتلت فيه الحامية التركية ونهب اموالها الاهلون^{٢٢} •

وأهم الحوادث المدونة في تاريخ هذا الزمن والتابعة لتاريخ ترقية العام سلسلة القلاقل الداخلية الواسعة النطاق التي جهز لاستئصالها الصدر الاعظم مراد باشا جيوشه بعد صلح سيتفاتورك • ففي ١٦٠٧م (١٠١٦هـ) أستأثر بالسلطة العليا في المدينة رجل يدعى محمد بن أحمد الطويل أحد الرؤساء الانكشاريين في حامية بغداد في ظروف ما تزال غامضة^{٢٣} • فأرسلت الدولة

(٢٠) كتاب تكسيرا ص ٦١ من الطبعة المشار اليها ففيها ذكر باسم

Acem Baxa

(٢١) يذكر گولشن انه بقي في پروسة وفيها قتل •

(٢٢) تكسيرا ص ٥٣ من الطبعة المشار اليها •

(٢٣) مذكورة بايجاز في « غاية المرام » وتقويم بغداد وباش أعيان وبصورة مفصلة فيما كتبه الفون هامر (المجلد ٦ ص ١٣) وأكثر تفصيلاً في گولشن • وهناك تناقض غير جوهرى في المرجعين الاخيرين • كذلك توجد عدة اشارات الى الحادث فيما كتبه ديلاقاله •

بالتفصيلات المقتضية لاختضاعه الى نصوح باشا الصدر الاعظم في السابق وحاكم
 ديار بكر يومئذ • فسار قاصداً الجنوب في ١٦٠٨ م (١٠١٧ هـ) مع ٤٠٠٠٠
 مقاتل • وفي أول معركة انهزم نصوح باشا بسبب خيانة جيشه اياه ، وذبح والي
 ياشا الذي كان بصحبته • قتلت ذلك هدنة شائنة اعترف بها رسمياً بمحمد
 كباشا في بغداد • ومع سقوطه بعد أيام قليلة صريعاً بخنجر أحد أعدائه كان
 توليه الحكم يقتضى أن يخلفه أخوه الاصغر مصطفى • غير ان مثل هذه الوراثة
 لم يستسغها أحد • وكان محمود بن جيفالزاده الكبير في المشتى في أورفه
 حينئذ • فمهدت له علاقات أسرته بالعراق ، وولاء ابي ريشة وأسرة سوران
 الكردية ، وقبيلة قشعم وغيرها من القبائل العراقية ، الامور التي أدت الى تعيينه
 حاكماً في بغداد • وطلب منه أن يمدها الى حوزة الامبراطورية التي ازدرتها •
 فجرد من الموصل حملة غير مقاتلة بارساله الرسائل السرية الى ملازمي
 الانكشاريين ورؤسائهم في بغداد ينشدهم فيها قلب الحكم ، فعملت الرسائل
 عملاً حسناً وأثرت التأثير اللازم • فحوصر مصطفى في القلعة ، وأخبر محمود
 فخف لها بأقصى سرعته حتى وصل الى بغداد في منتصف صيف ١٦٠٩ م
 (١٠١٨ هـ) • غير ان المدافعين^{٢٤} وكانوا المتفوقين قاوموا محموداً بشدة وأظهروا
 ولاءً غير منتظر لقائدهم • وبعد أسابيع من الشدة والاهوال وصل الطرفان الى
 توافق ما • فقد وافق مصطفى على تسليم الحكومة الى ابن جيفالزاده ، وتسلم
 هو نفسه سنجق الحلة الفني • فأعيد السلم والطاعة الى نصابهما • وقد قدر
 لمحمود جيفالزاده أن يكون حاكماً في بغداد مرتين ، وهو يذكر بأسم البلدة
 المسماة المحمودية التي أسسها على بعد مرحلة من جنوب بغداد • وكانت مدة
 حكمه هذه قصيرة • وفي ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) أهدت بغداد الى علي باشا
 قاضي زاده ومن بعده الى غيره ممن لم يدون سوى أسمائهم أو ألقابهم كديلاوير
 ومصطفى وحافظ أحمد ، وسوف نذكر الشيء الكثير من أخبار الاخير فيما
 بعد •

(٢٤) ان كولشن يغالي بتقدير هؤلاء بمقدار ٢٠٠٠٠ بين فارس وراجل ،
 لأن القلعة لا يمكن أن تسع نصف هذا العدد •

وتبدأ أخبار الموصل^{٢٥} بالالف الثانية من الهجرة فقط • فنستدل من الاصطلاحات التي يذكرها احد الاوربيين في الموصل على أن باشا «قره حيت» (قره عييد^{٢٦} ، ديار بكر) كان نفوذه في الموصل نفوذ جار قوي يفوق نفوذ بغداد • ولو صح الامر لكان اتجاه ايالة الموصل في القرن السادس عشر مختلفاً عنه في الثامن عشر لان طمحات الحاكم فيها كانت تتجه شمالاً لا الى الجنوب نحو زميل قوي هو بمقام السيد له تقريباً • ويذكر من بين الاخبار زلزال شديد ، حدث في اذربايجان في ١٥٧٢ م (٩٨٠ هـ) ، فسرى تأثيره جنوباً حتى الموصل • وفي السنة نفسها ملاً كسوف شمسي السماء بالنجوم في رابعة النهار • كما يذكر ان المحل العظيم الذي حل في العراق الاوسط من ١٥٧٤ م (٩٨٢ هـ) الى ١٥٧٦ م - بأن مر ثلاثون شهراً بلا مطر - قد أحدث حركة في المواصلات النهرية بين بغداد والموصل لنقل الحنطة • وأول باشا يذكر هو أمير حسين والثاني يياله باشا • ولم يذكر عن هذين سوى مدة حكمهما بالضبط • وفي ١٥٣٩ م (٩٤٦ هـ) تولى حكومة الموصل^{٢٧} لمدة عشرة أشهر سنان باشا • وقد جاء بعدهم موظفون لم يحفظ عنهم أي تفصيل • وكانت مدة حكم كل منهم أشهراً قليلة ، عدا حسين باشا ، المعين في ١٥٩٤ م (١٠٠٣ هـ) فقد حكم مدة ثلاث سنوات تقريباً • وفي ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) ، اعطيت الولاية الى حسن باشا حاكم العمادية • ولا غرو في ان السلطان سليمان كان يقدر الاسرة البهدينانية كثيراً ، ولم تكن نزاعاتهم الداخلية الا من فعل فرهاد باشا • وان كانت الموصل

(٢٥) المراجع : تقويم الموصل الذي يحوي قائمة بأسماء الولاة ثم « المعلومات التاريخية » • ويذكر حسن توفيق صاحب « المعلومات التاريخية » ان « منهل » الاولياء » يشير الى انه لا ذكر للباشوات قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة •

(٢٦) قد تكون لهذه الكلمة علاقة بكلمة آمد وهو اسم ديار بكر القديم -

المترجم •

(٢٧) ان الوصف المدرج في تقويم الموصل يطابق وصف سنان باشا الكبير ، ويسكت المؤرخون الاتراك عن ذكره • اما التقويم فبعد ان يذكر انه هو فاتح اليمن ينكر ذلك في الحاشية • على ان الوصف والتعبير يجب أن يقبلوا بصورة عامة •

قد أعطيت في ١٥٥٣م (٩٦١ هـ) الى أمير الجزيرة فلم يكن ما يمنع من أن تعطى الى بك العمادية في سنة ١٦٠٠م • فبقي في منصبه أربع سنوات تقريباً • ولا يعرف عن جاء بعده سوى اسمائهم • وكان من الجائز لموظف ما أن يرجع لنفس الباشوية مرة ثانية أو ثالثة • وفي الاخبار ما يدل على تنقل الموظفين بين الولايات العراقية وتشكيلاتها التابعة لها • فلقد عين في ١٦١٧م (١٠٠٢ - ٧ هـ) معجد باشا ، الذي تولى متسلمية البصرة ، والياً للموصل وبعد سنوات ثلاث انعم بالمنصب ، وربما كان أول مرة ، على مرشح محلي • فقد كانت الاسرة العمرية المعروفة قد جيء بها في هذه المدة نعل قدسيته تهديء الزلازل المتجع الذي هز المدينة • على أن بكر باشا لم يكن عسرياً • وقد عين في ١٦٢٠م (١٣٠٠ هـ) وبقي سنة واحدة ثم نقل لباشويات اخرى • ثم رجع بعد خمس سنوات عندما كان الايرانيون قد دخلوا بغداد • ويدل تعيين أحمد باشا شقيق أحد موظفي بغداد في ١٦٢٣م (١٠٣٣ هـ) على أن استانبول كانت ملزمة في تفصيل أعيان الولاية نفسها •

الاطراف

هذه هي الحقائق الشحيحة الباقية من اخبار الدور الاول للحكم التركي في العراق الأصلي • ومن المناسب للموضوع البحث ، على حدة ، عن تاريخ توابعه المنزلة وجيرانه الاقربين •

فمن جهة البادية ، غربي الفرات وجنوبي غربه ، كانت قبائل نجد بواحاتها مازال شديدة الاختلاف وخاملة بحيث لم يكن بوسعها اطلاق المراكز العراقية ، وذلك قبل التجديد الديني العظيم الذي حدث في القرن الثامن عشر • وكان التعرض الوحيد الذي يحتمل حدوثه لا يخرج عن كونه غزوات متعادة في المراعي الربعية • وكان بنو خالد في الاحساء (لم يكونوا من القبائل العراقية يوماً ما) قد عظم شأنهم في بلادهم^{٢٨} • وبدأوا يتحرشون في بعض المواسم

(٢٨) ان الواضح في سجلات الحكومة على عهد سليمان هو ان استانبول كانت تدعي بتابعة الاحساء لها (كما ادعت بالحشة) • ويذكر أوليا افندي أنه لم يكن هناك أقطاع وبينما كان الحكم يعينون في السابق بصفة بگلر بگی صبحوا الآن يحكمون من دون سلطة أو تخويل ، لكنهم كانوا يرسلون الهدايا الى حاكم

بأبعد الخيام التابعة لقبائل الفرات • غير ان قوات البادية التي يهمنها أمرها أكثر من هذا كانت لا تخرج عن كونها حلفين بدويين يمر من مناطقيهما المسافرون من الخليج الى حلب بعدة مراحل من طريقهم • فكان المير ناصر - أعني - ناصر بن مهنا في ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) « ملك » القسم الجنوبي المتسد من النجف الى الفلوجة • وكانت بلدة النجف ، ذات العصية الدينية الدائمة التي أفقرها انقطاع الخيرات عنها منذ موت الشاه طهماسب ، معترفة بسلطة حاكم البادية هذا • وكانت كربلا ، وهي أوسع وأكثر حركة وليست بأقل من اختها تعصباً مركز « ديرته » • وكان يلاقي المسافرين من بغداد الى الفلوجة ، على بضعة أميال من العاصمة ، وكلاؤه الذين يقبضون الاتاوة « الخاوة » له • وقد اعترف ناصر ، وهو أحد أفراد سلالة من الشيوخ - موالي أو عنزة - بسيطرة في ذلك العهد ، بولائه للسلطان • ومن المحتمل ان شيئاً من الهدايا التي كانت يرسل بها بين حين وآخر للبasha يذكره بهذا العبد المتواضع • غير أن أتوقراطيته في البادية ، وجمعه للخاوة ، والشدائد التي كان يصادفها المسافرون المارون من ديرته ، وأرهابه للزوار ، كانت تقص لنا قصة أخرى • وكانت الحاميات التركية الصغيرة تقيم بحسب العادة في العتبات المقدسة غير أن مكثهم هناك لم يكن الا بسماع من الشيخ • وفي ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) كانت عاقبة الحامية في كربلا - كما قيل - وخيمة^{٢٩} •

والى شمال منطقة ناصر وغربها كانت سطوة ابي ريشة المشهور سائدة^{٣٠} • وربما كانت بين المنطقتين اراضٍ وعرة خالية واسعة • وكان هذا الاسم ورائياً يطلق على أعظم شيخ ، من جمهرة القبائل • وكانت عانة قاعدة حكمه ، كما كانت ديرته ممتدة من هيت الى بيره جك وأطراف منطقة العشائر السورية • وكانت

بغداد • وان كان شيخا القطيف والبحرين قد بعثا برسائل يرجبان فيها بالسلطان سنة ١٥٣٤ فان ذلك كان أبعد ما يكون عن الخضوع الحقيقي • وبالاختصار نقول انه قد احتفظ بأدعاء غير حقيقي بالاحساء وغير مستند على شيء ، على الطريقة التركية ، ومن دون ان تدعمه التواريخ •

(٢٩) تكسيرا (طبعة سنكلير وفيروستن) ص ٥٣ •

(٣٠) وقد ذكر ذلك جميع السياح تقريباً، فانظر تكسيرا أيضا (حاشية ص ٨٤)

للحصول على مراجع فيه • وما كتبه راولف مهم أيضاً •

طبية ومسكنة له • فأصبح أبو ريشة بذلك اسماً مخيفاً لباشوات ديار بكر وبغداد وحلب • وقد وجدت سلالاته قبل القوات العثمانية في سورية والعراق • فوجد التركي - الجاهل لسياسة البادية - فيه عدواً لا يغلب وخصماً مغروراً قلماً كان يخضع • وفي ١٥٧٤ م (٩٨٢ هـ) كان « ملك بلاد العرب » هذا قد تعرض مراراً لموظفي السلطان • ولما كان قد نصب ابنه في حصن نهري ساحلي في غالاتز^{٣١} قبض عليه جند الدولة وأرسل به الى استانبول فقطع فيها رأسه • على ان هذا لم يخضع من شوكره ولم يعدل به عما تعودته من الغزو وجمع الخاوة • وقدم اليه قنصل البندقية في حلب الهدايا مرة • كما أن المسافرين والسياح كانوا يعدونه ملكاً • وقد اعترف الاتراك بأمارته في عانة فأدخلوه في ضمن طبقتهم البوروقراطية كسنجق بگي^{٣٢} لمنطقته • وكانت الرسوم الكمركية المجبسة في مراكزه تشاركه الخزينة التركية فيها اسماً ، كما ان القوة الحقيقية التي كان في امكانها أن تفكك بالمسافرين أو تحميمهم كانت قوته وحدها • ولقد تقرر باتفاق عقد قبيل ١٥٧٥ م (٩٨٣ هـ) أن يدفع له السلطان سنوياً ٦٠٠٠ دوكية وأن يعترف بحكمه الوراثي • وفي سني القرن الاول كان الامير المالك أحمد (أو حميد) ، وكان أبناء أخيه الثائرون يمعنون في عبثهم الذي اعتادوه بالامن تهاوناً بسطوته •

وكانت قوافل الجمال تستغرق في رحلتها بين بغداد وحلب خمسين يوماً ، وبين البصرة أو الزبير وحلب سبعين يوماً ، وكانت الاحوال العامة في سفر البادية هي الاحوال السائدة في كل عصر • وكان من الممكن للبضائع أن تصل بغداد واحدة بعد أخرى بقليل من الخطر اذا حصل اتفاق خاص مع البدو في البادية • فقد كان كل رئيس لعشرين من الابل دليلاً متحكماً وحداً كمركياً سياراً • وكان دفع الرسوم المقتضاة لبدوي ما وعرضها على آخر أو عدم القيام بهذين

(٣١) الظاهر ان هذه الكلمة هي اسم محل محرف نقله المؤلف من كتابات السياح الاوربيين الذين كثيراً ما كانوا يحرفون الاسماء العربية في كتاباتهم ويجهلون لفظها الصحيح - المترجم •

(٣٢) يقابل هذا بمعاملتهم لامراء جزيرة العرب بعد قرون ، فقد اعطوا السنجق حكام نجد والكويت في القرن التاسع عشر كما انعموا بلقب قائم المقام على ابن هذال •

الامرين أحياناً من نظم الطريق السهلة الغالية • وقد تمكن الاتراك بالحملاات
حيناً ، وبالأقناع والمراعاة ، وبحفر الآبار في البادية من عمل شيء لفتح الطريق •
غير أن هذا الواجب ظل صعباً عليهم مدة أربعة قرون ، كما كانت السلطات
التركية في المراكز النائية شبيهة بالعرب طمعاً ونهباً • وكان التجار النصارى على
الاخص ، الذين كانت عدة منهم يتاجرون بين سورية وايران وهرمز حتى الهند ،
عرضة « لكثير من الضرائب الجائرة ••• والخسران والتلف » وربما كانوا
يعتقلون بسهولة متهمين بالتجسس •

وقد ذكر في صفحات سابقة استيلاء البرتغاليين على الخليج في أواخر القرن
الخامس عشر وتأسيس دي البوكرك في ١٥٠٧م (٩١٣هـ) لقلعة هرمز • وفيما
عدا هذه القلعة (التي استردها بسهولة في ١٥١٥ ، بعد ان أُجبر على تركها)
خلف وراءه خطاً من نقاط المتاجرة على سواحل الخليج • فلم يكن الاسياد
البرتغاليون يخشون شيئاً من سكان تلك السواحل • وانما كانت المعارضة الضعيفة
النادرة تدل فقط على وجود استياء عميق من جراء تدخل البرتغاليين وخشوتهم •
غير ان خصماً خطيراً كان على أبواب الزمان • فقد استولى سليم
المخيف في ١٥٢٠م (٩٢٧هـ) على مصر واليمن وأخذ الترك يجدون لانفسهم
طريقاً في البحر • وفي ١٥٢٩م (٩٣٥هـ) دخل أسطول تركي الخليج فلم
يقابل بمقابلة ودية ، لأن حاكم ذلك الثغر اتفق مع البرتغاليين بأن سمح لهم في
مقابل معوتهم له على خصومه من القبائل • وقد زار ضابط بحري برتغالي البصرة
ونوغل شمالاً في الانهر • نأى الحاكم العربي حسب المعتاد القيام بتنفيذ مساومته ،
وأحرق البرتغاليون عدة من القرى القصية ثم انسحبوا • وفي ١٥٣٨م (٩٤٥هـ)
غزا الساحل الهندي اسطول تركي كبير من مصر • وفي ١٥٥٠م (٩٥٧هـ)
طردت القطيف حاكمها واستنجدت بالاتراك الذين كانوا في البصرة لحمايتها من
البرتغاليين • فاحتل مراد بك القطيف غير ان أهل القطيف أخرجوه بعد ذلك
وتعقبوه الى شط العرب • فجازاهم الترك على ذلك بأن غزوا مسقط وقسم
وهددوا هرمز • فقطع رأس قائد هذه الحركة يير بك في استانبول • ولم يستطع
خلفه مراد بك ان ينجز شيئاً • وقد دحر قائد بعده يدعى علي جلبي في موقعة
سنة ١٥٥٣م (٩٦١هـ) ، على أن التهديدات بقيت موجهة نحو المراكز

البرتغالية • وفي ١٥٥٩ م (٩٦٧ هـ) رسا اسطول تركي ، حاملا الانكشاريين ، في البحرين التي كان يحكمها يومئذ شيخ تابع لهرمز • فسعود الحاكم المحلي بقوة ايرانية وساعده البرتغاليون ثانيه من هرمز • فاستسلم الاتراك بشروط مهينة • وفي ١٥٨١ م (٩٨٩ هـ) استولى الضابط البحري التركي علي بك على مسقط غير أنه لم يثبت فيها • وعلى هذه الشاكلة ، كانت مياه الخليج غير مفيدة لحكام البصرة التي لم يقم القبطان باشا فيها بقتال المعتدين على ما يظهر •

وكان الجار العربي الآخر للعراق والي الحوزة القوي • ولم تكن سفارته التي بعثها للسلطان سليمان بالخضوع الا مجاملات احتياطية في تلك الايام • وقد ظلت علاقاته بسيدته الايراني ، مدة القرن ، تتذبذب بين العبودية والاستخفاف وبين دفع الاتاوة وابتزاز المال • وتمادى أتباعه البرمائيون في اللصوصية والقرصنة في شط العرب من دون أن يعاؤا بالقبطان باشا أو بالبرتغاليين • فصار المسافرون في شط العرب يلزمون بالتحرز الشديد تجاه هذه الوقاحة • فيقول أحدهم ٣٣ : « أرسينا في قلعة كانت في حكم الاتراك ... • • • • • وعندهم قلاع كثيرة غيرها لأجل أن يحموا أرضهم وسفنههم هناك من هجمات العرب » • ولم يكن والي ذلك العهد مبارك ابن مطلب ، أقل انفعالا من جيرانه الترك • فقد تركت أراضي النهرية بوراً وضعف الأمل لادعائه بحكم البصرة نفسها رغم اصرار العرب على ذلك • على انه كان ما يزال ينتظر الدور الذي سيلعب فيه بشؤونها •

وشهد القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر توثيقاً في علاقات باشوات العراق بالنواحي الكردية واللية الواقعة في حكمهم • ففي جزيرة ابن عمر لم تطل أيام البيت الحاكم العظيمة أكثر من عمر السيد احمد الذي عهدت اليه الموصل نفسها • وحكم ابنه بسلام وطمأنينة • غير أن النزاعات العائلية التي حدثت على عهد المير ابراهيم ، الذي جاء بعده ، قد أدت حسب المعتاد لفرار الخصوم الى القوات المعادية • فقد فر أحدهم الى فرهاد باشا في وان لينجده • والتجأ الآخرون الى طهماسب شاه • فتدخل الشاه وقبض على المير فذبجه • غير أن حكم الجزيرة وتابعتها كوركيل كان ما يزال منتظراً توطيده بالفرمانات التركية لان وقوعها على الطريق العام أبقاها في ضمن النفوذ العثماني • على أن الأسرة

المحاكمة الحاكمة كان يندر التدخل في شؤونها طالما كانت تلتزم بحدودها • وقد نسي أمر خضوعها لبليس منذ أمد بعيد •

وكانت دويلة العمادية تمزقها الاختلافات والفتن على الشاكلة نفسها • اذ كان حسن ، اميرها البحديني ، قد خضع للشاه الناهض بصورة مبكرة ونال حظوة عالية منه ، ففقدى بهذه المناورة على البقية الباقية من الاعتماد على الاردلايين • وب نفس الطريقة حافظ البحدينان على وضعهم بانضمامهم للسلطان سليم عند أول ظهوره • واستطاع الامير التالي ، حسين ، أن يقوم بخدمة خاصة للسلطان سليمان • فحافظت الدويلة بذلك مدة من الزمن على مقام الايالة • غير أن وفاة حسين زوجها في غمرات الحرب الاهلية • فلقد فرَّ بيرم أحد الولدين ، قهاد بيرم ، الى الشاه طالباً النجدة • واذا ذاك طردت قبائل المزوري قهاداً ونصبت مكانه ابن عمه سليمان • فتدخل يومذاك أمير الهكاريين زينب بك وتوسط لدى الشاه في أن يسرح بيرم • اما قهاد فقد فر الى استانبول ونال عطف الصدر الاعظم فأصدر له فرماناً بحكومة العمادية • وفي الوقت نفسه نصب بيرم بك في زاخو وسليمان في العمادية • فوصل قهاد والفرمان بيده الى دهوك فشغل نفسه بازالة أعدائه عن طريقه • غير أن سليمان تمكن من القبض عليه وتشتيت أتباعه بقوة من المزوري • فخفف بيرم من زاخو الى دهوك وشيع سليمان الى القصر ، في العمادية ، وفيها تسلم الحكومة • وفر ابناء قهاد - سيدي خان وآخر - الى استانبول ، فتولى مراد الثالث قضيتهما • فاعطيت العمادية الى سيدي خان وخول فرهاد باشا الاتصال بباشوات بغداد وكركوك وأمراء كردستان التابعين ليساعدوه في نصبه • وفي ١٥٨٥ م (٩٩٣ - ٩٤ هـ) تمكن فرهاد باشا من تسليم العمادية الى سيدي خان وذلك بتحريك عدو على آخر ، وبالفساد والرشوة ، وبمحاكمة مصطنعة بين يدي قاض للشرع • فحكمها سيدي عدة سنين •

وقد أوردنا هذه الحوادث ، على عدم أهميتها ، من اخبار ذلك الزمن لاجل أن تتمكن من توضيح أهم مزايا التاريخ الكردي بصورة مبسرة • تلك المزايا التي تنطبع بالمنازعات التي لا تنتهي بين الاخوة على عروشهم الحقيرة ، وبالتجاهل السريع الى القبائل والأتراك والايرائين • ولو توفرت المواد التاريخية وساعد المجال لامكنا ، بدون شك منا ، سرد القصة نفسها ، مع تغيير في الاسماء والاماكن ،

فيما يختص بزأخو ودهوك وعقرة ورائية وحرير وغيرها • ففي كل وادٍ وفي كل قرية جبلية كانت نيران نفس الانقسام تشتعل بالاطماع الانانية ذاتها وتشب بالوقود عينه من الدس والعنف • وكان الدور التركي في هذا النزاع دور المنعم بالفرمانات أحياناً والمتقبل للخضوع الاسمي والمساءة العسكرية • وحتى هذه كان بوسع السيكات الاقوياء أن يتمتعوا عنها اذا ما حافظوا على ما كان يقتضيه الحال من الموقف • فلم يكن هذا من الحكومة بشيء ، غير أن التجربة الحديثة تجد من الصعب النزاع على منطقة وعرة اجنية ليس للسلطان منها فائدة بمثل هذا المستمسك الضعيف • وكانت الخطة التركية العامة المتخذة حيسال الدويلات الكردية خطة السكوت عن الاخطاء وقطف ثمار الامبراطورية اذا أئنت من دون جهد • وهي خطة كان على أي حكومة أن تتبعها ان كانت بمثل هذا الحال • وكان في امكانها أن تنجح أكثر من هذا لو كان يدعمها من الخبرة وحسن النية أكثر مما كان يدعمها من قبل ، ولو درس الالباء والتذبذب الكرديان ، وفيما لو لم تكن هناك امبراطورية معادية تحاول باستمرار أن تستعيد متبوعيتها •

وأكثر ما يتضح تصادم الاتراك والاييرانيين في تعطشهم للممتلكات (بالنسبة لما يختص بهذه الصفحات) في أودية الشهر يزور • فان ما يقف في وجه المطالبات والادعاءات التركية هنا لا ينطوي في استقلال الامراء المحليين ، ولكن في المطالبات والادعاءات المقابلة التي تدعيها الاسرة المالكة في أردلان • فقد كان نفوذ الاردلانيين في شهرزور مضاعف القوة ، وكانوا يدعون السيطرة عليه قبل أن يظهر الترك والصفويون • وكان الامير الاردلاني تابعاً موالياً لتبريز منذ قيام اسماعيل شاه الا في فترة سليم المخيف القصيرة • إذ كان هذا الامير يدعي بعائدية كردستان الجنوبية الشرقية يومئذٍ له ولسيده • فقد عمت سطوته الجنوب والغرب الى الحدود من دون أن يصدها شيء ، وسيطر على بلاد شهرزور فالزاب الصغير والاورمان والشهر بازار وقره داغ ، وحتى « البلاد الحارة » كان يشملها نفوذ مأمون المبهم • وكان هذا الوضع لا يتفق مع ادعاءات العثمانيين ووجود الحماية الانكشارية في كركوك ، ومع الحاجة لضبط الطرق المؤدية الى الشرق • ولذلك كان التصادم المحلي مع موظفي الاردلانيين ونفوذهم لابد منه • وكان والي أردلان بنظر السلطان سليمان جاراً قوياً غنياً ومثلاً سيئاً لدويلتي العمادية

بوتليس الأليفتين • ومن أجل هذا جرد لحرب مأمون في ١٥٣٨م (٩٤٥هـ)
 قوة بقيادة حسين باشا تضم كثيراً من بگات الاكراد وفي ضمنهم عدد من بگات
 البحدينان • وكان مقصد هذه الحملة الاستيلاء التام على شهرزور ان لم يكن ذلك
 على مريوان وسنة أيضاً • فقاوم مأمون^{٣٤} مقاومة شريفة • وتراجع أخيراً الى
 « قلعه ي ظلم » فثلا ذلك التحصن • ولما وجد مأمون انه قد أضاع كل شيء فر
 الى استانبول ، فاعتقل فيها وعد أسيراً • فحرب الاتراك ما وجدوه وانسحبوا •
 وهنا جدد سرخاب ، عم الهارب ، موالاته للشاه وفر من بقي من الاسرة الى
 تركية • وعندئذ سرح مأمون واقطع الحلة الغنية ثم أرسل لمرافقة جيوش السلطان
 المحاربة لاعادته •

وفي غضون ذلك بعث علي باشا حاكم بغداد رسوله الى العاصمة ، فاستغرب
 الجواب الذي ورد اليه • اذ تضمن عزله وترفع محمد بلطجي ، الذي ذكر
 قبلاً ، وكليلاً لحاكم بغداد في ١٥٤٩م (٩٥٦هـ) • على ان حملة شهرزور لم
 تعهد اليه بل عهدت الى عثمان باشا في حلب فبعث لقيادة المشاة النظاميين والجيوش
 الاقطاعية من عدة أيلات • فساق بلطجي محمد ، المنصب في سراي بغداد تلك
 الايام ، جيشاً كبيراً جُهِز جيداً بالمدفعية ليلتحق بقائد حلب • وجهاز الرؤساء
 الاكراد المواليون قوات لمساعدة الباشا في الاحاطة بقلعة سرخاب • فخابت مدافع
 عثمان باشا في إحداث فجوة • وكانت قوته قليلة بالنسبة لما يقتضيه الحصار
 الكامل • فمات من التعب والخيبة وتشتت قواته^{٣٥} • وهنا يختلف مرجعنا اختلافاً

(٣٤) يختلف گولشن خلفا مع الشرفنامه في (١) جعله مأمون مجرد رهينة
 (١٥٣٥ ؟) أخذها السلطان سليمان من أبيه ليؤمن ولاء شهرزور • وبعد ان
 اشتغل مأمون في الوظائف التركية سكن في الحلة وفي (٢) حصر البحث في
 سنة ١٥٥٢ - ١٥٥٤ وفي البحث عن « حصارات » شهرزور من وجهة نظر بغداد
 فقط ، ولم يذكر اردلان قطعاً ، و (٣) في قوله بأن الشهرزور الحقت بالامبراطورية
 العثمانية بعد ١٥٥٤ • أما البحث في هذا الكتاب فقد استمد غالباً من الشرفنامه
 ومن گولشن في حالة عدم وجود التناقض •

(٣٥) هذا ما يذكره گولشن في حملة عثمان باشا • وتتفق معه الشرفنامه
 فيما يختص بالقائد التركي وبالنتيجة غير الموفقة • على انها تضيف بأن القلعة

تماماً • فيمحو المؤرخ التركي خيبة عثمان بحملة موفقة تليها تماماً ، ويجعل شهرزور ولاية تركية على طول النصف الثاني من القرن • وفي روايته هذه خول محمد بلطجي في استعادة شهرزور • فسار تاركاً وراءه سهيل بك ، حاكم سنجق الرماحية ، قائم مقاماً في بغداد • وقد كانت أول حملة جردها البلطجي حملة ديبلوماسية ، فأملت الشروط وفتحت أبواب القلعة على مصراعيها وترك سرخاب البلدة بأمان • وبذا أعيدت شهرزور لامبراطورية الخلفاء • فوضع الحرس الكافي مع والي بك المعين حاكماً • وبهذا اعترف بالايالة التي انتظمت أول مرة سنة ١٥٥٤ م (٩٦٢ هـ) في ضمن الممتلكات التركية بمعاهدة ١٥٩٠ م (٩٩٦ هـ) •

أما رواية أردلان فلا يذكر مثل هذا ، فإن سرخاب - على ما روى - يحفظ لنفسه أردلان ، بعد ان ينقذه سيده من ايران ، مدة طويلة كان أثناءها موضع الثقة الغالية للبلاد^{٣٦} الصفوي • وكان خضوع شهرزور لتركية ، في هذه الرواية ، بادارة حاكم اردلاني متأخر يدعى تيمور • وذلك انه لما تحقق ضعف حكام ايران نقل ولاءه الى استانبول وحصل على الفرمان والخلة من مراد الثالث • ومنذ ذلك الحين اعترفت مملكته بأجمعها بسيادة الخليفة في حين ان كانت أودية حرير وبازيان وشهرزور تدار أمورها مباشرة من ادارة كركوك • وبذا أخذت شهرزور مكانها بكونها ولاية^{٣٧} تركية في العقد الثامن من القرن ان لم يكن ذلك من قبل ، وظلت اردلان من ممتلكات السلطان ذات المقام العالي • وقد كانت هناك منطقة "تمتد لعدة أميال حوالي كركوك يدير امورها منذ البداية السنجق بگي المولى على ذلك المكان •

وما حل عام ١٦٠٠ (١٠٠٩ هـ) حتى تبدلت الرياح من جديد • فقد حاول خليفة تيمور الاستقلال ، غير انه خضع مكان ذلك للشاه عباس • وفي ١٦٠٥ م

المحاصرة هي قلعة الظلم وان الحصار قد سبقته حرب وانه دام مدة سنتين • وأزيل الحصار بعد ذلك بقوات بعثها طهماسب بقيادة حسين بك ، ومات محمد بك الامير الاردلاني الهارب في اليوم الذي مات فيه عثمان باشا •

(٣٦) أرسل ابنه بهرام حاكماً لرواندوز فأسس فيها سلالة ثبتت مدة قرون ثلاثة •

(٣٧) ربما لم تكن ايالة الا بعد ذلك في عهد سليمان القانوني •

(١٠١٤ هـ) اعتلى عرش الحكومة الملكية في « سنة »^{٣٨} خان أحمد خان بكونه ملكاً من الملوك التابعين ليران • واستخدمه في الوقت^{٣٩} سيده لمضايقه القبائل الكردية التي تميل الى تركية • وكانت أول أعمال أحمد غزو جمهرة قبائل المكري والبلباس وتأديبها • وفي السنين التالية لتلك أخذ رواندوز والعمادية ووضع ضباطه فيها وفي **كوي** وحرير • غير ان زوال حكم السلالات المحلية كانت مدته قصيرة • وكانت العشرون السنة الاولى من سني حكم خان أحمد خان مجداً اردلانياً عظيماً وحظاً موفقاً • فقد كان يتمتع بثقة الشاه عباس المستدامة وبذا استعاد تقريباً ممتلكات اردلان القديمة • وكان ، بكل تأكيد ، مصدر خوف وحسد للباشوات في الموصل وبغداد • وينفي المؤرخون الترك والعراقيون بسكوتهم استيلاءه الناجح على الاراضي العثمانية • على ان الحقيقة هي ان الوسائط ، التي تفرق بموجبها بين الغزو والتملك ، مفقودة • فربما لم يكن خان أحمد خان قد سلب من السلطان اراض كانت تدار أمورها رأساً من ادارة كركوك ، وانما كان يعبت بتابعيه الدويلات المذبذبة نصف المستقلة ويبادل الفرمانات بالهدايا امراء كانت موالاتهم لا قيمة لها على كل حال • وكثير من هؤلاء كان يحتفظ - ولا نشك في ذلك - بكتب السلطان والشاه معاً •

وكانت السنون الاخيرة من القرن السادس عشر في لرستان سني ثورة أدت لسقوط الاتابكيين • فقد كان الاتابكيون في فارس و**لرستان** الكبيرة « بزرك » قد تخلوا عن الحكم منذ مدة للخانات المحليين • وفي ١٥٨٥ م (٩٩٣ - ٤ هـ) كان آخر الاتابكيين في لرستان الصغرى ما يزال حاكماً • وكان هذا شاه ويردي خان الذي هاجمه تيمور خان الاردلاني في تلك السنة • غير ان هذه السلالة لم تقو على أن تعيش امام حكم الشاه عباس الصارم ورغبته الخاصة بتأمين الاتباع المخلصين على حدوده الغربية • فخلع الاتابكي في السنين الاخيرة من القرن ونصب مكانه **حسين خان** وهو رجل ذو شخصية عظيمة ، ويعد أبرز الرؤساء **اللرين** • فاكسبته اعماله في الحرب والامور السلمية لقب « بزرك » أي العظيم والكبير •

(٣٨) بكسر السين •

(٣٩) أي وقت اعتلائه العرش •

لقد اشير من قبل الى مشاكل العراق الخاصة من حيث الحكم وعلاقته بالقبائل والاديان ووضع الحدود • ثم سوئل بأي الآمال والشكوك كان يمكن أن ينظر الى سادته الحديثين • أما وقد قيل ما أمكن قوله في القرون الثلاثة الاولى التي مرت على الحكم التركي فيجب محاولة ايجاد جواب عن هذا السؤال : أي نوع من الحكم سوف يأتي به الاتراك يا ترى ؟

كانت الحياة في بغداد آمنة غير ضنك مع فقدان ملطفات الحياة التي نعرفها اليوم من مرافق الانس والمدارس وتنسيق الشوارع والمستشفيات • ولم تفقد أعظم المدن في التاريخ أحوالها الصحية بمرة • فقد كانت الشوارع الضيقة المظلمة بمقام نصف الإحتياطات المتخذة للاحتماء من شدة القىظ • وكان السكان المواطنون في العراق يعتزون في جميع الادوار بمدنهم وقراهم ، ويودون الاختلاط الاجتماعي المؤنس الساذج • ولم تكن البلديات التي على أحدث الانماط قد وجدت بعد ، غير انه كان يوجد في كل مكان مجلس غير رسمي مؤلف من السكان البارزين • وكان يمثل الطب السادة الذين كان دواؤهم الوحيد القرآن ، والحلاقون المستعدون بمواسيهم ومباضعهم ، والفألون الايرانيون الذين يصفون للمرضى الاعشاب أحياناً • وكانت الترية يتلقاها الطلاب تحت أقدام الملالي في مدارس الجوامع التي أسسها السلطان ، والتي عانت ما عانت في سبيل البقاء • وكانت واجبات الشرطة على عاتق الحامية الانكشارية التي يساعدها الحراس الخاصون ممن يعينهم التجار • وكان القاضي ، وهو الوحيد للامور الجنائية والشرعية ، لا ينظر في حكمه الا الى القانون الشرعي أعني الفقه • فلم يكن عجباً ان يكون التفسخ والحالة هذه عاماً • غير ان ما نسمعه من الرحالين^٤ من وجود الشرطة الشهاء الشفقاء يدلنا بلا شك على وجود النادر من القضاة العقلاء النزهاء • فقد كان اتجاه الخدمات العامة ، في مثل هذه الأمور ، يتوقف الى أقصى حد ممكن على شخصية الباشا المتولي في كل وقت من الاوقات •

وعلى هذا كان الحكم في المدن سلفياً (محافظاً) ان لم يكن تهقريباً (رجعياً) • وكان الضغط الديني هنا أقل منه في أي مكان آخر في تركية ، وان

كان قد وجد شيء من الارهاب والاعتصاب فلم يكن ذلك مختصاً ببغداد ولا بذلك العصر • وكان اليهود والنصارى يدفعون جزية معتدلة للمتزم الضرائب • أما المسلمون فكانت ضريبتهم تؤخذ من الكمارك والدخوليات التجارية والرخص ومن حاصلات التمور والاعنام ثم من المكوس ورسوم السوق على الوزن والبيع • ولم يكن الباشا اقتصادياً ولا كانت الضريبة على أية قاعدة من القواعد سوى قاعدة الحد الاعلى العاجل من الغلة •

وليس عندنا الا القليل من البراهين الدالة على وجود الحكومة بين القبائل • على ان تمرد القبائل البصرية مما نجده مدوناً يدل على أحوال تشابه الاحوال السائدة في القرون المتأخرة • وربما كان ذلك أكثر شدة لان الذي كان يحاول ضبطها كان غريباً • وكان المسافرون من سورية يدفعون من الرسوم الى شيوخ القبائل المسيطرة أكثر مما كانوا يدفعونه للحكومة وهم على علم بأن الشكوى كانت شيئاً لا تحمد عقباه • وكان عطف الباشا أو الاغا هنا وهناك - بالخلعة أو منح الالتزام أو المعونة بحرب قبائلية - يقصده بعض الشيوخ في الديرات النائية • ولم تكن الوعود ولا التمنيات تكلف شيئاً حتى نحو من هو بعيد في السهل أو الهور • غير انه كان من الخطل البحث عن الطاعة النظامية والخضوع بولاء •

وكانت الحاميات العسكرية في هذا القرن تختلف باختلاف سير العلاقات مع ايران • فقد كان التوقيع على ميثاق الصلح في ١٥٥٥م (٩٦٣هـ) وفي ١٥٩٠م (٩٩٩هـ) يتلوه تسريح الجنود المستأجرة ، ورجوع سرحدات الانكشاريين أو السباهيين الى استانبول ، وصرف الجيوش الاقطاعية الى مكانها • أما في سني السلم فلم يكن أحد من الباشوات ينفق ما في خزينته في اصلاح الحصون • الا ان القوات المسلحة كانت المعين الناعش للحكومة في جميع الاوقات • ولأجل فرض شيء من السلطة وقمع الحركات العشائرية كانت الحاميات ضرورية لكل بلدة • وكانت البلدان بأجمعها مهما كان حجمها بها حاجة الى سورٍ طيني قوي فيه أبراج مثقبة • وكان عند كل من حكام المدن العواصم الاربع ثلة من المرافقين الشخصيين المسلحين وكتيبة أو أكثر من الحرس المجند محلياً والمسلح بالبنادق التي كانت موجودة يومذاك • وكان هؤلاء دائمين ويتقاضون الاجور ، غير انهم

كانوا من الجيش المحلي ولا ينتمون الى الجيوش الامبراطورية^{٤١} . وكان يكثّر من هذه الحاجة اليها رؤساء التيمار^{٤٢} . ولأجل تجريد حملة ما كان يجند الجند المأجور مؤقتاً من العرب المدنيين والاكرد القرويين . وكان على ملتمي الاقطاع المتجمعين في سنجقهم ان يقدموا المساعدة المفروضة عليهم . على أن قوام كل هذه التشكيلات كان جيش السلطان الذي كان يدير أموره ضباط السلطان نفسه لا ضباط الباشوات . وكان المدفعيون الامبراطوريون هم الذين يعتصمون بأكبر الحصون فيزيدونها قوة كما كان المشاة الامبراطوريون - الانكشاريون - موجودين في كل سنجق . وكان هؤلاء بنظر العراقيين أقوياء بتدريهم وأسلحتهم ومكروهم من جراء جورهم ونزاعهم . وكان واجبهم في الولاية أن يدعموا الحكومة . فقد كانوا هم الشرطة في البلد والرسل الرسميين وجباة الضرائب حين تدعو الحاجة للقوة والاخافة ، زيادة على كونهم الجيش الموجود في كل مكان . ولم يجرب الاختصاص المفيد في العمل ، على أنه لم يكن قد حان بعد في ذلك العهد اليوم الذي يمكن أن يعيش فيه الانكشاري بأي مكان وجد وعلى أية حالة كانت مع كونه ما يزال منخرطاً في سلوكه . ومن المحتمل انه كان في بغداد ، في هذا الوقت ، ألف أو الفان منهم ، وفي مركز الايالات الاخرى نصف هذا العدد . وكان يزداد عددهم أو يبدلون أحياناً بالوحدات التي هي أقل منهم منزلة كالصكبانين وغيرهم . وكانت الجيوش الامبراطورية تقاضى كالمحلية أجورها من خزينة الباشا ولكن بأسعار امبراطورية .

(٤١) ان الأسس العامة للقوات العسكرية التركية تميز بين الجيوش الامبراطورية والمحلية . فالاولى وهي ال (قيو قولي) كانت وحدة مركزية تعار او تعين مؤقتاً في الولايات . وكانت هذه من الانكشاريين ومن هم أحط منهم من الصكبانين والبستانجين وغيرهم ممن ضم الى الانكشاريين مؤخراً . ومن النظاميين (لا الاقطاعيين) كالسباهيين والطوبجية والجييهجية والسقائين . أما الجيوش البلدية فقد كانت تضم الحرس الشخصي والجنود المأجورة والوحدات العشائرية لأحد الباشوات ، ثم القوات الاقطاعية أيضاً من الوجهة العملية مع أن صبغة هذه امبراطورية في الحقيقة .

(٤٢) راجع قائمة الكلمات الغريبة في آخر الكتاب - المترجم .

وكما كانت الحكومة الامبراطورية ملكية أوتوقراطية متمتعة بالتأييد الديني . كانت الحكومة في كل ولاية حكومة مطلقة • وكان في الولايات النائية على الاخص قليل مما يمنع الباشوات الحاكمين من « الحكم حسب ارادتهم وأهوانهم » كما يقول أحد السياح • ولا غرو في ذلك فاذا فقد المبدأ الحكومي الحقيقي الرحيم ، واذا انعدمت الرغبة في حكم شعب خاضع بمصلحته ، فان روادع الحكم الجائر لاجل الغنى الشخصي تكون قليلة • وقد كان في الامكان أن يستعمل تأييد المراجع الدينية سبباً لمعاملة الاجانب معاملة قاسية • وكان الباشا مسوقاً بدافع نفقائه الباهظة لديوانه الى الضغط على الشعب عامة بطريقة جائرة • على أن هذا لا يعني انعدام الوازع البتة • فقد كان وجود القاضي المعين سنوياً ، الراجع الى العاصمة بعد انقضاء المدة ، شاهداً دائماً بأساليب الباشا وطريقته في الحكم • وكان الدفتردارية ، على نفس الشاكلة ، يعينون من استانبول واليها يبعثون بحساباتهم ، الا انهم من حيث العمل كانوا يجدون أنفسهم مدفوعين لمساندة الباشا الذي تكون حياتهم بيديه • ولم تكن استغاثة جماعة من التابعين أنفسهم بالسلطان غير مجهولة • على ان الديوان كان يستشار أحياناً ولا يستخف به تماماً • فتشير المصادر التاريخية الى أن موظفاً دائماً في بغداد وحلب كان يبعثه السلطان نفسه ليشرف على مصالح التجار ، كما انه كان في امكان تجار البصرة أن ينصفوا باستعداد الوكيل البرتغالي في العاصمة على ظلمهم • وأخيراً فقد كانت حالة الانكشاريين نصف المستقلين تحدد تصرفات الباشا الذي لم يجدوا ما يبعثهم على مجاملته • وكان أقوى هذه الروادع كافة الحد الأقصى الذي كان يصل اليه تحمل الشعب • ولم يكن هذا بعيد على بلاد ملأى من القبائل الشرسة الشابة عن الطوق • وكذلك لم يكن بوسع أي باشا كان أن يقف تجاه ثورة عامة وقفة المقاوم •

وكان تعيين الباشا يتجدد نظرياً في كل سنة ، لكن حقيقة الأمر من الناحية العملية هي أن الموظفين الكبار كان لا يمكن تبديلهم لان قسماً منهم كانوا موالين ومفידين وقسماً آخر كانوا يشترون المناصب لمدة أطول من المعينة • وكان السبب الاخير هو الاعتبار السائد في مثل هذا الشأن • فان تعيين بگلربگی لحكومة كبيرة - القاهرة أو بغداد أو تبريز - كان أمراً مشرفاً وعظيماً الفائدة • وكان يحدث في كثير من الاحايين ان السلطان لا يقوى على مقاومة المرشح الذي يدفع

مبلغاً جسيماً من الواردات سلفاً • وبذا كان الانتقال سهلاً من هذه الى الرشوة الصريحة ، وكان تأثيرها في حكومة الأيالة المتكونة عن ذلك لا يختلف عن تأثير الرشوة نفسها • فكان هم الباشا الجديد ، خلال مدة تزيد على الثلاثة قرون ، ان يقسم الاراضي في ولايته الى العدد المعتاد من المقاطعات القابلة للزراعة فيؤجرها أعلى المزايد • ولم يكن الفرق واضحاً بين الحكام والزارعين ، حتى أنهم أحياناً كانوا يجمعون بين المهنتين • فكان هذا السنجق بگي أو ذاك ، وذلك الاغا أو الضابط ، يأتي بمائة من انكشاريته الى الحلة مثلاً ويؤجر أراضيها وضرائبها ثم يستعمل قوته في أجبار الناس على الدفع أو يضمن الضرائب الى الجبابة القاسين •

والواقع ان الادارة في الولاية كانت في دور انتقال بين أصلها بكونها مجموعة اقطاعية ، ومصيرها الاخير بأنها حكومة اعتيادية • فقد كانت علاقات الحاكم بسيد السultan من حيث جمع القوات تحت لوائه كعلاقة البگربگي القديم • فهو يدعو السناجق التابعة له وتدعو السناجق نفسها الزعماء ورؤساء التيمار وهؤلاء يدعون أغوات البلدان الصغيرة والشيوخ المطيعين • غير ان الباشا في هذا العهد كان أكثر من رئيس للجيوش الاقطاعية المؤجرة • فقد كان جانياً لواردات السultan أيضاً ، وسادن العتبات المقدسة وأوقافها ، وسيد القصر وجماعة الوزراء ، ورئيس مجلس • وهو المسؤول عن جميع الاعمال ، حتى الطيففة منها ، التي تقوم بها حكومته الملكية والعسكرية • وكان يعيش من أول دخوله المهيب الى حين تبديله أو تحويله عيشة الامير المستقل •

الفصل الثالث

الصوباشي والسلطان مراد

بكر الصوباشي

ان كان قد 'قدر للعراق أن يقع في هذا العهد ، بعد مرور سبع وثمانين سنة على فتح سليمان القانوني له ، فريسةً للانفصال السلمي من جهة وللخيانة المنتهية باحتلال فارسي ثانٍ من جهة اخرى فان سبب ذلك يجب أن يُبحث عنه في الولاية نفسها فقط . فان بعده ومشاكله الخاصة به توضح لنا قسماً كبيراً من الاسباب . كما ان ضعف الامبراطورية العام لم يكن أقل تأثيراً في تمهيد الامر لذلك الوضع . لان التوقيع على معاهدة الصلح في ١٦١٩م (١٠٢٩هـ) مع ايران لم يعقبه سلم في تركية . وكان السلطان مراد الرابع في تلك الايام ما يزال طفلاً ، بينما كان أسلافه الضعفاء قد سمحوا للفوضوية أن تجمع قواها من كل جهة .

« وكان التأثير أباطة سيد آسية الصغرى وطاغيها . وكانت القبائل اللبنانية في عصيان علني . وكان حكام مصر وسائر الولايات مترددين في ولائهم . وأصبحت حاكميات البربر في حكم المستقلة وظهرت أساطيل القوزاق السلاية حتى في البوسفور وعانت نهياً في ما جاور العاصمة نفسها . وفي القسطنطينية نفسها كانت خزانة بيت المال فارغة ، ودار الصناعة معطلة ، والعملية النقدية لا رواج لها ، والمخازن خاوية ، والسكان جوعاً والجيش مشتتاً »^١ .

وفي بغداد ، الزاوية النائية من امبراطورية في مثل هذا الذهول ، كان اغتصاب

(١) ما كتبه كريسسي ص ٢٤٦ .

الصوباشي للحكم ممهداً لتسليم العراق الى الشاه مدة نصف جيل^٢ . ومن أجل
هذا وحده تعتبر هذه الحادثة ، التي ظل الناس يتذكرونها على مدى الأيام ،
حادثة مهمة . أما في تاريخ البشرية نفسها فان قصتها قيمة بأن يحجز لها مكان
بين قصص الخيانة والغدر الخالدة .

كان بكر من انكشاريي بغداد فأوصله الترفيع الى درجة صوباشي^٣ ، أو

(٢) ان الدور الذي قام به الصوباشي هو أشهر الادوار في تاريخ العراق
الحديث . وأخباره بكل تفصيل في ما كتبه غولشن وفي المراجع التي استعان بها
الفون هامر (الكتاب التاسع صفحة ٥) وهذان المرجعان مستقل أحدهما عن الآخر
ويختلفان كثيراً في التفصيل . راجع أيضاً كتاب « رحلة الشرق » لمؤلفه ر.ب.
فيليب ص ٨٧-٨٨ . وفيما يخص ايران راجع « تاريخي أعلاي آرايي عباسي »
لمؤلفه اسكندر بك تركمان .

(٣) ان هذا اللقب مهما كان أصله أو معناه الذي يؤدي معنى « موظف ري
أو محافظ على ماء » فقد أصبح على ذلك العهد لقباً من القاب الشرطة . انظر
ما كتبه الاب انستاس حاشية (ص ١٧٩) ، وما كتبه تكسيرا (ص ١٠٣) ،
وما كتبه هوار في حاشية ص ٤٨ (المؤلف) . قال مصطفى جواد : صوباشي
تحريف سباشي الكلمة التركية القديمة . قال الخوارزمي في كتابه « مفاتيح
العلوم » : « سباشي هو صاحب الجيش » .

وكان هذا الاصطلاح اللقبى لرئيس الجيش في عهد البويهيين أيضاً قال ابن
الاسير في حوادث سنة ٤٠٨ هـ من الكامل :

« وفيها توفي الحاجب أبو طاهر سباشي المشطب وكان كثير المعروف »
وذكره الصفدي في « الوافي بالوفيات » فقال :

« سباشي التركي أبو طاهر الحاجب الملقب بالسعيد ذي الفضيلتين مولى
شرف الدولة أبي الفراس بن عضد الدولة أبي شجاع الديلمي . . . كان كثير
الصدقة متفقداً للفقراء ، قال محب الدين ابن النجار : حتى ان أهل بغداد الى يومنا
اذا رأوا على أحد ثوباً جديداً قالوا ، رحم الله السعيد ، كان يكسو المساكين وهو
الذي بنى قنطرة الخندق . . . وسد بئق الخالص وحفر ذنابة دجيل وساق منها
الماء الى مقابر قریش (الكاظمية الآن) وعمل المشهد بكرخ زادويه قرب واسط
وحفر المصانع (خزانات الماء) عنده وفي طريقه وله آثار بطريق مكة . . . وتوفي سنة
٤٠٨ ثمان وأربعمائة » .

ملازم في الشرطة • ثم صار رئيساً في سريته ، وصار له من بعد ذلك مقام ممتاز في الحماية • وقد اجتمعت ثروته ومحالفاته بطموحه الذي لم يكن يعرف الرحمة ففظم شأنه كثيراً • فكان الف ومثلاً عزاب^٤ طوع اشارته • وفي ١٦١٩م (١٠٢٩هـ) تعالت سلطته فتفوقت على سلطة الحاكم الضعيف يوسف باشا فأصبح ملك بغداد غير المتوج الذي يوحى بالاخلاص أو بالكراهية ، والمعرض لدسائس الحساد • ودفعت به شؤونه في ١٦٢١م (١٠٣١هـ) مع قوة من العزاين والانكشاريين الى منطقة الفرات الاسفل • في حين ان كان موظفو بغداد يرقبون حركته الى هناك برؤوس منغضة ، وكان لهم متسع من الوقت يتأملون به أطباعه وجوره وحالهم من ورائه • وكان رأس المتذمرين خصم له قديم هو محمد قنبر • وكان في امكان قنبر أن يعتمد على تأييد قوي في كراهية هذا القرط « الحديث النعمة » • ولذلك دعي الضباط وأشراف المدينة الى اجتماع سري اتفق الجميع فيه على خلع الصوباشي • فنقلت أخبار هذا الائتمار الى كهنته عمر والى ابنه محمد • فلم يكن بوسع عمر أن يعترف بما كان يكنه من ولاء للصوباشي ، فتظاهر بأن يعرض قضية عزله على الباشا • على ان هذه

وللمحقق يعقوب سركيس كلمة أيضا نشرها في مجلة الشهباء الحلبية رد بها قول من قال أن السباشي هو رئيس مزودي المدينة ماء « وابن انها وظيفة انضباطية كوظيفة مدير البوليس (كذا) معتمدا على دائرة المعارف الاسلامية والدكتور والتر الذي طبع كتابه سنة ١٨٦١ وغيرها ، وذكر ان أهل الحلة اليوم يسمون الوكيل في البستان « شوباصي » • وهي عندي تحريف « سوباعي » أي رئيس البستان لا من أصل « صوباشي » •

(٤) هذه ثلة من الجند وكلت اليها مخازن البارود أصلا ، لكنها هذا تدل على قسم من الجيش المستأجر الخفيف الاسلحة والحركات •

(٥) ان الدور الذي قام به ابنه محمد مشكوك فيه • وتذكر الروايات التي اعتمد عليها الفون هامر انه شريك في المؤامرة ثم قائد للهجوم الذي شن على يوسف باشا في قلعته • غير ان كولشن يعتقد موالياً لابيه • وهذه هي الرواية التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب • ومن المحتمل ان ما كتبه الفون هامر كان مستنداً الى خيانة محمد الاخيرة •

الاعترافات الظاهرية لم ترجع على المتآمرين ، فقد كانوا يشعرون بأن عمر هو يد الصوباشي اليمنى ويجب أن يكون أول من يقضون عليهم • فلأزم قبر بنفسه يوسف باشا وأفهمه بأحزاب بغداد ، وبأن عمر مع أتباعه الكثيرين يجب أن يحسبوا من حزب بكر ، وإن أطماع بكر لا يمكن أن تقف عند الباشوية بل تتجاوزها • فأغرى يوسف باشا به ، غير أنه حاول بكل سخافته أن يغفم عمر بأن يدر عليه شتى الانعامات • فأضاع الوقت الثمين ، وجمع حزب الصوباشي أتباعه بقيادة عمر ومحمد ، ثم أغلقوا الابواب وحاصروا الشوارع واستولوا على أبنية ذات مواقع تعبوية • وكابدت قطع جيش الباشوية المخلص ، المتجمعة في الميدان والقلعة ، خسائر فادحة • وأدى خروج رجال الباشا هاجمين الى نشوب معركة حامية في الشارع انتهت بانتصار الثائرين • فشدد نكير الحصار على القلعة •

واذ ذاك رجع قبر الى تدبير آخر • فأرسل بصحبة رسول سري مسرع كتاباً لابنه السدي كان في الحملة مع بكر ، وطلب اليه فيه ان يقتل بكرأ • غير ان الكتاب وقع بيد الصوباشي وكانت حملته على العشائر قد انتهت بالنصر • فسار مذعوراً الى بغداد ، وعبر دجلة تحت وابل شديد من نار القلعة التي ضعفت فيها آمال المحاصرين بالتدريج ، ثم تلاشى رجاؤهم بالكلية عندما قتلت رصاصة طائشة يوسف باشا •

فاستسلم قبر لخصمه القديم بعد أن وعد بسلامة نفسه • ولم تبق جيوش بكر المتدفقة الى داخل القلعة شيئاً ولم تذر • وفر قليل من جند الحامية الى الشوارع وإلى البادية ووقع الكثير منهم في الاسر • وأبدى بكر لقبر وابنيه منتهى الكراهية والانتقام القاسي • فقد قيدوا بالسلاسل ووضعوا في زورق مملوء من الكبريت والقار ثم أحرقوا فماتوا أشنع مية • وبذلك شفى بكر غليله بقتل أعدائه برؤية العين وسمع الاذن حتى غطست آخر ذرة من الرماد في دجلة • ولاقى سائر الاسرى مثل ذلك من سوء المصير • فرددت السنة الناس يومذاك اسم هولاءكو وتيمور • وكان بين الضحايا البشرية مفتي بغداد الموقر • وغدا الصوباشي سيد بغداد غير المنازع واعتمد على خزائن السراي •

على ان هذه لم تكن النهاية ، فان استانبول لم تسمع بهذه الوقائع • وفي غضون هذا ابرز بكر فرماناً مزوراً وأعلن تعيينه للباشوية • وراسل في الوقت

نفسه حافظ أحمد باشا ، بگلربیگی دیار بکر ، والسلطان نفسه • وقد ذكر بكتبه هذه انه أنقذ بغداد من الانشقاق والغنف وخلص الامبراطورية من الخائن يوسف باشا ، وطلب حاكمية بغداد مكافأة له • وبينما كان رسله ما يزلون مجدين في السير نزلت على المدينة ضربات قوية • فقد سبب الخوف هروب كثير من الفلاحين الى البادية ، وشحت الامطار ، فحلت المجاعة • وتقاطرت من نجد الالوف الجائعة مما زاد في شدة وطأة المجاعة المميتة في أواسط العراق • وتلا نهب مخازن الذخيرة كل أنواع المنكر ، ولم يخل الحال من أكل الناس اللحم البشري • وبعد أسابيع مفعمة بالتعاسة انفرجت الازمة • فقد تزودت بغداد الطعام من القطعان الواردة من ايران وما حمل على الاكلاك المشحونة من الموصل •

ووصل في ذلك الوقت رسل الصوباشي الى ديوان السلطان • ولم ترج تدابير الصوباشي على الصدر الاعظم المير حسين ، فأنعم بحاكمية بغداد على سليمان باشا • ثم أرسل رجلاً يدعى علي آغا بوظيفة متسلم ليتسلم بغداد ويحفظها حتى وصول الحاكم الجديد ، وبعث بالوامر الى حافظ أحمد في ديار بكر ليساند سليمان باشا بجيوشه • فوصل علي آغا الى بغداد ، غير ان الصوباشي لم يتورع عن قتله •

ووصل في تلك الايام سليمان باشا الى ديار بكر حيث كان حافظ أحمد قد جمع باشوات الموصل وشهرزور ومرعش وسيواس • وكانت قوته مؤلفة من عشرين الف مقاتل • وانظمت اليه قطعات البگات من الاكراد • وفي مجلس حربي عقد بعد ذاك في ديار بكر شرح ضباطه أوجه الخطر في الحملة • فاستدل حافظ أحمد على فساد تلك التحذيرات وأمر بالمسير • ثم تريت الجيش في الموصل ، فاستعرضت فيها القوات الكردية • ووصلت قطعات العمادية وسيواس ، وانتظر طويلاً وصول قطعات أورفه ومرعش • وبدأ الجيش في الموصل يعاني وطأة المرض • وبلغ حافظ أحمد ان الناس في استانبول بدأوا يتهايمسون بأنه نكص عن بغداد خوفاً من المتمرد أو ارتشاءً بذهبه • فلم يسعه - والحالة هذه - أن يتأخر أكثر مما تأخر • فتحرك الى كركوك ، ومن هناك بعث قبله جيشاً مع سليمان باشا وبستان باشا وبصحبتهما رؤساء آل سوران الشرفاء • وبعد وقفة في

بهرز وصل هؤلاء الى سور بغداد وخيموا في شمال المدينة بالقرب من
الاعظمية^٧ .

أما الصوباشي فقد بقي داخل السور في أول الامر ، ثم هجم هجمة مفاجئة
على محاصريه ففرقهم وأزاحهم الى معسكر أبعد من الاول . وانتهت معركة
عنيفة وقعت في اليوم الثاني بانتصار الثائر . ثم انسحب الى داخل السور ،
وجمعت قوات السلطان شملها فخيمت بالقرب من ديالى . وبعد أيام قلائل انضم
اليها حافظ أحمد وقسم كبير من الاتباع الاقطاعيين الذين كان فيهم جميع
الحكام الوراثيين للدويلات الكردية . وكبس السردار بهجومه حالاً ، وبخدعة
مدبرة استدرجت حامية المدينة الى الفضاء . ثم دام القتال بين الجيشين مدة
يوم وليلة تخلصت بعدها الحامية راجعة الى داخل السور بعد ان تركت وراءها
في الميدان أربعة آلاف بين قتل وجريح . وحرص الرؤساء الاكراد قائدهم على
متابعة الهجوم الى الداخل حيث امتلأت المدينة من البكاء والويل . غير انه
رفض هذه المشورة الصائبة ورجع الى معسكره . وأظهر صرامة حكمه للمدينة
التي حكم فيها مدة من قبل بذبح الاسرى ذبحاً طائشاً وبقطع رؤوس الموتى .
وأضاف الى اشمئزازه الشعب الحاصل بين أتباعه غير النظامين فأزاله بسخائه بعد
شق النفس .

وكانت المفاوضات قد جرت من قبل بين القواد من الطرفين . فلم يقنع بكر
من شروط الصلح بغير الباشوية ، ذلك الامر الذي لم يدر في خلد أحد . ثم قل
الطعام في بغداد وضعفت الحامية . فالتجأ الصوباشي لدوره الرفيع في الخيانة ،
بأن بعث رسلاً الى ايران يحملون مفاتيح المدينة الى الشاه عباس ، فقبولوا
بزائد السرور . ثم أرسل الشاه بالوامر المستعجلة الى حكام كردستان وأردلان
وأفشار التابعين له بالانضواء تحت لواء صفى قلي خان حاكم همذان . فكون
منهم جيشاً سار به بسرعة فوصل الحدود ، ولم يدخر أي وسع في اغتنام
الفرصة ، التي نزلت من السماء ولم تكن في الحسبان ، لاستعادة العراق وعتباته
المقدسة .

(٧) وفيما يختص بالحركات التالية ترجح رواية الفون هامر (المبنية على
روايتي نعيما ويشاوي) على رواية گولشن التي تتضمن أشكالاً طوبوغرافية
وقائعية .

و بينما كان أول جيش إيراني على مقربةٍ من شهربان بقيادة قرچني خان ،
ورسول الايرانيين قد وصل بغداد واستقبل فيها ، اتصل الصوباشي بقائد
القوات المحاصرة وطلب اليه الاتفاق على دفع العدو عن بغداد وهو العدو المشترك .
فتكرر ارسال المتفاوضين بينهما الا انه لم يكن بوسع حافظ أن يعترف بهذا المقتصب
كبغلربگي على بغداد ، كما لم يقنع هو بأقل من ذلك . فتأيد الخطر الايراني
حينما كانت الجيوش المحصورة في الداخل قد نهكت قواها وتقرحت أقدامها .
ثم وصل رسول من قرچني الى المعسكر التركي معلنا ان « بغداد قد أصبحت
ايرانية . فهل للبشا أن ينسحب من جوارها ليدوم السلم بين الامتين ؟ » فرد
عليه السردار يقول « ان هذه ليست بأرض ايرانية ونحن نقوم بواجب تأديب
ثائر من الثوار » . فعاد الايراني الى سيده مردداً كلمات الوعيد .

وكان لابد من ايجاد حل للوضع المعقد لتقاطر جيوش الشاه الواردة من
الشرق . فعقد المجلس واستقرت الآراء على منح بكر الباشوية . ونظم بعد
ذلك حافظ أحمد - السياسي التركي الصميم - فرمانات بمعنى مخالف ، وهي
تسمية بكر حاكماً للركة . غير أن حامل هذه الوثائق الى الصوباشي قوبل بهياج
ونكير ، واستطاع بعد لاي أن يهرب ليخبر مرسله بالرفض الشديد . وبقي
السردار على امتناعه من الاجابة الى الامر الاخير لولا انه وصلت اليه أنباء لم
تطل له فرصة الرفض . فقد جاء جاسوس أو هارب بأنباء مفادها ان بكرأ أخذ
يسك النقود باسم الايرانيين . فانجلت خيائته وصارت واضحة للعيان ، على ان
الوضع لم يكن أقل حرجاً من ذلك . اذ بات من الواجب أن تصد جيوش الشاه .
فقلد خائن رذل باشوية بغداد العظمى .

الاحتلال الايراني الثاني

كانت بعثة صفي قلي ما تزال في بغداد . ولما كانت توجس خيفة من العدو
المرابط في الخارج أصرت على حصول جواب نهائي من الصوباشي . فما كان
منه ، بعد أن حصل على الفرمان بيده ، الا ان أملى رسالة ملأى بالاغراق في
التحقير والتهكم . فوصلت الى صفي قلي الذي قرأها باندھاش وغضب . ثم
أرسلها الخان الى الشاه الذي دعا قواته من كل ولاية لتوافيه على الحدود .
وفي هذه الاثناء كان الصوباشي يصب الايرانيين منكسين الى أسفل من أسوار

بغداد بقسوة متناهية • أما حافظ أحمد فقد قفل راجعاً الى الموصل •

وظهر قرچني خان أمام الاسوار فطلب الاستسلام • غير أن بگراً أجاب بكل طلاوة ورقة بأنه مستعد لدفع نفقات الحملة الايرانية ليس إلا وليس من الممكن تسليم بغداد • فوصل الشاه الى بغداد والموسم الحار لسنة ١٦٢٣م (١٠٣٣هـ) كان قد بدأ منذ حين • فوجد ان جيش الحامية قد اندحر بشدة عند أول اشبناك • ولم تجد الرسائل اليائسة التي بعث بها الصوباشي الى دياربكر واستانبول آذاناً صاغية • وأخذت المجاعة شكلاً مروعاً في المدينة • فقد أكل الناس لحم الكلاب والاطفال وجثث الموتى • فضغط الحصار بشدة وامتلاً النجو بدوي الالغام المتفجرة •

وبدأ الشهر الثالث للحصار • وكان الهاربون من المدينة الى المعسكر الايراني يتسللون ليلة بعد ليلة ، وكان من جملةهم أقارب الصوباشي نفسه • وبواسطة هؤلاء فتح محمد ابنه ، الذي كان دفاع القلعة منطاً به ، مفاوضات سرية مع الشاه • فوعد بولاية بغداد جزاء للخيانة الدنيئة التي كان يفكر فيها • وفي الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثاني لسنة ١٦٢٣م فتح الأبواب فدخلت منها الى المدينة الالوف من الجنود الايرانية^٨ • وما حل فجر تلك الليلة

(٨) قوله « وفي الليلة الثامنة والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٦٢٣م فتح الابواب فدخلت منها الى المدينة الالوف من الجيوش الايرانية » نقول فيه ان ياسين ابن خيرالله العمري قال في الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون : « وكان باكير قد ترك بالقلعة ولده محمد بك فلما رأى الغلبة أرسل للشاه عباس يطلب الامان لنفسه ويسلمه القلعة فأمنه وفتح محمد باب القلعة ليلاً وأدخل عسكر الشاه اثنين اثنين حتى امتلأت القلعة ولما أصبح الصباح دقت طبول الشاه بالقلعة فأيس المسلمون من الحياة ودخل الشاه عباس بغداد ووضع السيف في المسلمين وقتل الخبيث باكير وأخاه علي أغا القاضي والنائب السيد محمد وقتل من أهل بغداد ما يزيد على أربعين ألف نفس ثم نادى الشاه بالامان وجمع كتب أهل السنة والقاها في الدجلة حتى مشى عليها الناس ثم أمر بهدم قبة الامام الاعظم وقبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني وملك بغداد ٠٠٠ » •

فقول ياسين العمري « أدخلهم اثنين اثنين » يستوجب أن يكون ضيقاً وقد

حتى كان كل سطح وكل منارة ترتفع فيها أصوات الطبول الإيرانية • فنودي
بالشاه ، ووعد بالامان وازيل الرعب ، وفتحت الاسواق •

وان كان أحد يستحق الموت الشنيع فانما هو الصوباشي نفسه • فما ان
جىء به مكبلاً بين يدي الشاه حتى رأى ابنه محمداً جالساً بانتصاب الى جنب
الشاه فأنصت الى تقريره وتأنيبه • ولم تترك أية وسيلة وأي نوع من القسوة في
تعذيبه وقتله في وقت كان محمد ابنه يرى ذلك رأي العين ويساعد في تنفيذه •
ولم يكن الامان الذي وعدت به المدينة الا خدعة • فقد طلب جميع الاسلحة
وقبض على جميع الجنود وآلاف من السكان السنين ، واستعمل التعذيب للاغنياء •
وضحى مئات أو الوف من الناس بأنفسهم في سبيل عقيدتهم • ثم بيع الوف من
الناس والاطفال كالعبيد فاختفوا في ايران الى الابد • وتمكن من يعد على الاصابع
من السنة ذوي الهمة من الفرار والالتجاء الى تركية • وكانت كراهية الشاه
الدينية تزداد كلما ارتوت • وقد صرفت فكره ، عن نياته الوحشية بعدم ابقاء أي
سني حياً ، التماسات قيم « كليدار » مشهد كربلا • فقد حصل السيد من دون
صعوبة على حفظ حياة الشيعة في بغداد • وعند تقديم قائمة بهم أدخل في عدادهم

أوضح حقيقة الادخال المؤرخ البغدادي أحمد ابن عبدالله البغدادي في تاريخه
« عيون أخبار الاعيان ممن مضى في سالف العصور والازمان » فقال : « فقام بكر
باشا بحفظ القلعة أحسن قيام لكن ابنه درويش محمد بعث خبراً الى الشاه
عباس : اني اسلمك البلاد ان انعمت بها علي • فوعده الشاه بذلك ففتح له « باب
السر » التي في جانب الشط فدخل منها نحو عشرة آلاف شخص وضربوا البوق
وقت السحر فلما تمكنوا من البلاد مسكوا بكر باشا وقتلوه أشر قتلة وقتلوا
القاضي نوري أفندي وقتلوا من أهل السنة والجماعة خلقاً كثيراً ولقد رأيت جمعاً
غفيراً ممن أدرك هذه الواقعة وكانوا يقولون : ما سلمها درويش محمد للبلاد طمعاً
فيها ، بل لما رأى من القحط والغلاء حيث أكلت الناس الكلاب • ثم ان الشاه أخذ
درويش محمد الى العجم وعين له مرسوماً يعيش به فيقي هناك الى أن هلك »
فالدخول كان من باب الشط السري ولا تزال آثاره باقية • « م.ج. » •

(٩) يعتمد نعيما في تاريخه على روايات هؤلاء • وكان بينهم الشاعر نظمي
والد مرتضى مؤلف كتاب گلشنی خلفا (هوار ، المقدمة ص ١ ، ص ٥٨) •

كثير من السنة^{١٠} • وسبب النضال الاخير خراباً في الأبنية ، فأصبحت المدارس اصطبلات وغدت البيوت خرائب ، وهدم مشهد أبو خنيفة ومشهد عبدالقادر الكيلاني •

فساد السلم تدريجياً واستت الحكومة ودب ديب الحياة في أسواق بغداد وطرقها الضيقة • وبعد أن زار الشاه العتبات المقدسة رجع الى ايران • وترك صفي قلي^{١١} حاكماً على بغداد • وتقاطر التجار من همدان وتبريز • وقد مهدت لهم في الحال شيعتهم وجنسياتهم الايرانية ، ومعرفتهم المنتجات الايرانية بالسيطرة على معظم التجارة • وبذا استعادت التأثيرات الايرانية صولتها ، التي لم تفقدها بالكلية من قبل ، في الفن المعماري وفي بعض الصناعات • بينما ائتمنت العتبات المقدسة الشاه على نفسها لدرجة لم تتوصل اليها من قبل • وقبلت البلدان الحاميات الايرانية ، وتملقت قبائل البادية للقادمين الجديدين وغزتهم كما كانت تفعل بمن تقدمهم في الحكم • وأظهر مطلق ، أبو ريشة هذا الوقت ، شعوراً ما زال يميل ولاءً الى الترك • وكان لهذا التعلق قيمة كامنة لو عادوا ، كما كان التعلق المذكور عذراً يتعلل به عند الاستخفاف بمن جاء بعدهم • أما ناصر المهنّا فقد رحب بالاييرانيين وعدهم منقذين • على انه كان حاول بعد سنتين طردهم

(١٠) لكن هذه الاريحية لم تنقذ حياته من فتك الباشا التركي وتعصبه بعد ذلك فقد جاء في المجلد الرابع من (تاريخ العراق بين احتلالين) قوله :

•• نقيب سادات بغداد السيد دراج كان سادن حضرة الامام الحسين وكان من الاعيان المشهورين ، وهو صاحب قوة ومكنة ، فلما استولى شاه العجم (الشاه عباس) على بغداد أحسن الظن به واعتقد فيه الاعتقاد الجميل ، فرعاه وأكرمه • فكان في مقام الخدمة • يفكر في العواقب ، فلم يغفل أمر العثمانيين • وكان في ذلك الحين أراد الشاه أن يقتل أهل السنة قتلاً عاماً ، فتوسط السيد دراج فقال سأختار محبي آل علي ، وما عداهم فاقتلهم • وبهذه الوسيلة أنقذ خلقاً كثيراً من القتل ••• وهذا العمل المشكور كله لم يمنع من قتله بعلقة أنه كان شيعياً معروفاً بتشيعه ، فلم يتحمل شهرته ومكانته بل اتخذ ذلك وسيلة للقضاء عليه ، واستولى على أمواله الوافرة •• انتهى (الض ٢٤٠) • وكان هذا الوالي يدعى درويش محمد باشا - المترجم •

(١١) هكذا يقول غولشن ، أما نعيماً فيذكر اسم صاري خان •

من كربلا • ووضعت الحاميات في السماوة وحسكة والحلة والعبات المقدسة • وطردت حامية عانة على يد أبي ريشة • ولم يكن الخانات أقل تشدداً من الباشوات^{١٢} في الضرائب • كما كانت حاميتهم أقل انتظاماً ، وعليها الصبغة الأجنبية نفسها • وأعطى الإيرانيون خلال نصف الجيل الذي حكموا فيه كثيراً من الأراضي على سبيل الهبة وعدة من الامتيازات الاجتماعية ، فألغوا بعدهم السلطان مراد •

وسورع بأرسال قرچني وقاسم خان الى أيلة الموصل وأيلة شهرزور الشماليين • ولما لم يجد بستان باشا في كركوك أملاً في المقاومة الناجحة تراجع الى الموصل وما وراءها • وبعد ان دافع عن الموصل قليلاً قبلت قاسم خان حاكماً عليها • وتحرك هذا الى ديار بكر غير انه لم يفلح بأخذها لا بالهجوم ولا بالحيل • وهناك ارتد المد ، اذ بعث حافظ أحمد الالباني الشجاع أحمد الصغير لاسترجاع الموصل • فترجع الخان على عجل قبل أن يتقدم خصمه ، وبذا أصبحت الموصل عوداً على بدء ملك السلطان • وعين سلمان ، ابن أخي الالباني ، حاكماً في الموصل^{١٣} • وبقيت كركوك أكثر من تلك المدة بشهور ترزح تحت حكمه كان بغيضاً لسكانها من الترك والاكراد •

حافظ أحمد^{١٤}

لم يكسب احتلال بغداد الإيرانيين الفخر ولا الثروة ، لان حقبتهم لم تعرف بأعمال التحسين ولا العمران • وحافظ انعدام الامن في أواسط العراق وفي

(١٢) راجع ما كتبه فيليب ص ٣٣ • يظهر ان هذا القسيس الكرمليني الافرنسي هو الاوربي الوحيد الذي كتب في أخبار العراق في هذه السنين •
(١٣) ان تاريخ هذا التعيين في تقويم الموصل هو ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) وربما كان ذلك بتأخر سنة واحدة •

(١٤) المراجع : يستقي الفون هامر (الكتاب الحادي عشر) من نعيما ومن تواريخ ثلاثة خاصة بحملة بغداد كتب اثنين منها عبدالعزيز قره جلبي زاده وكتب الثالث نوري • وما كتبه كولشن مفصل ومهم • ويستقي باشا أعيان من كولشن • ثم راجع ما كتبه ثيقتو « رحلة الى سواحل البحر المتوسط » (١٦٤٥) ص ٥٦٩ — ٧٠ ، وتافيرنيه ص ٨٤ — ٨٥ ، وبويه — لغوز ٣٢٣ — ٢٥ ، وفيليب ص ٣٨ و ٨٨ و ٥٢٨ — ٢٩ وغيرها من المراجع •

البادية على مستواه الاعتيادي • وبينما كانت الجيوش التركية متمسكة بكر كوك والموصل ، وثابتة لعدة سنين حوالي سور بغداد ، كان صفى قلى خان يقل اقتداره في ضبط كل شيء سوى العاصمة وطريق الزوار الى العتبات المقدسة •

وكان طموح البلاط العثماني ملحاً فى استعادة بغداد منذ اللحظة التي اُضيعت فيها • وقد عهد بتحقيق ذلك في ١٦٢٥م (١٠٣٥هـ) الى حافظ أحمد الذي تولى الصدارة العظمى فى السنة المنسلخة • وبعد حملة لوثت بالخيبة والشغب وبعدم الروية ترك الواجب • ولم يصادف خسرو باشا في خريف ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ) نجاحاً أحسن • وبقيت الحالة على ما كانت عليه حتى قبض الله لبغداد ان فتحتها بادشاه مخيف بعد أن سار بنفسه الى العراق مع خيرة القوات الامبراطورية •

وبقي حافظ أحمد مدة طويلة في ديار بكر ولم ينفك عنها منذ تعيينه فيها ، حتى ان براءة الصدارة العظمى التي تقلدها وصلت اليه وهو في ولايته هذه • وفى أيار ١٦٢٥م نصب مخيم جيشه خارج ديار بكر ، فدل ذلك على عزمه في السير الى بغداد • وضربت الضربة الاولى من بعد ذلك عند ارساله جركس حسن المناوشة الايرانيين في كركوك حيث هزمت قوة صغيرة من الجركس العشرة آلاف من الايرانيين واحتلت كركوك • وبذلك ظهرت أودية شهرزور من قوات الشاه ان لم نقل من نفوذه أيضاً • وتولى بستان باشا ثانية حكومة الولاية •

وقضى جيش الوزير الرئيس الصيف في المعسكر حيث وردت أنباء تفيد ان جند حامية بغداد رخص لهم زيارة النجف بمناسبة احدى الزيارات الكبرى ، فطلت المدينة مفتقرة الى معظم المدافعين عنها • وبناء على هذه الاخبار ارسل الياس باشا ، بگكربگي الاناضول ، مع قوة خفيفة ليقطع طريق ما بين بغداد وكربلا بغية منع المدافعين عن الرجوع ، ففشلت المحاولة ، غير انه مما لا شك فيه ان ذلك العمل أضاف الى ضعف ثبات الايرانيين في الفرات وطرده حاميتهم مدة من الزمن • وفى هذه الاثناء عقد مجلس حربي فى معسكر ديار بكر فلم يسر فيه تفاؤل الوزير الا قليلاً • فقد صرح قائلاً : « ان مفاتيح بغداد بيدي » ، حينما كان جنوده الحذرون مترددين في الثقة بالموسم الذي ستجري فيه الحملة ، وبخفة المدافع التركية ، وبقوة الحامية في بغداد • غير ان المسير قد بدأ • وعلم

ففي كركوك ان امدادات قوية قد أفلحت في الدخول الى بغداد بقيادة الرئيسين
الاييرانيين صاري خان ومير فتاح • واذ ذاك بعث القائد الايراني نفسه رسالة
يناشد فيها الوزير التركي ، بلهجة تهكمية ، ان يؤخر احتلاله بمقدار الايام
القليل التي سيستغرقها الشاه نفسه للوصول الى ميدان الحرب فكانت هذه
الحاسمة • اذ اعيد باشا الموصل ليجمع الذخيرة فيحملها على الاكلاك الى الجنوب •
وترك بستان في كركوك وسار الجيش الرئيس في الطريق المعروف الذي يمر
بزنگباد وبهرز الى أسوار بغداد وهو غير مستند الى مدفعية كافية ، ولا مجهز
بالذخيرة اللازمة ، ولا مدبر بالقيادة والذكاء •

وبينا كان رتل من الجيش يقوده مراد باشا يكتسح البلاد جنوبا الى الفرات
أخذ حافظ أحمد مواقع حصاره • وفي مدة اثني عشر يوماً كانت الخنادق
والطواحي والمنارييس كاملة بأجمعها • فحشدت الخنادق بقطعان كارمان وروم
ايلي والاناؤول وسيواس ومرعش ، وصف باشا حلب جناحه على دجلة في حين
ان ضغط على المدينة خسرو باشا بحصاره حتى قارب الباب الشرقي • وجد في
الحصار مدة شهرين • فانفجر خمسون لغماً فيما وراء السور • غير ان الجيوش
الايرانية المتحشدة لم تبرح مكانها في أبراج السور • وكانت في الليل الالوف
من المشاعل تتجتاح الظلام ، بينما كان الحراس اليقظون يوالون أغانيهم كل في
مرقبته ولذا لم يجد المهاجمون مجالاً للاستفادة من مدفيعتهم القليلة ولا من
جدوع النخل التي كانت ترمى بغية عبور الخندق المحيط بالسور • وكانت
تحرص الاراضي الخالية الواقعة في داخل السور الشرقي دورية الخيالة
الايرانية • وفي اليوم الثاني والسبعين شن هجوم جريء استبسل فيه الابطال
وحصل الخسران الفادح من دون جدوى • ووصلت في اليوم التالي أنباء جيش
مسعف ، بعث به الشاه اختلّف في تقديره فكان بين ستة آلاف وثمانين الف
مقاتل • وقد قطع في شهر بان الطريق على فريق مؤلف من ثلاثة آلاف تركي
ذهب للرعي والعلف • فعقد مجلس حربي ثانية ، وعرضت بايضاح للبحث قضية
الرجوع • فلم يرق ذلك الانكشاريين ، وتقرر تجديد الحصار •

وكان الملل يزداد من عدم تبدل الحال كما ضعفت الآمال وقلت القوة
الروحية • وحاول طيار محمد ازاحة زينل خان (قائد جيش النجدة) عن

معسكره على ضفة ديالى حيث كان نصب جسراً من الزوارق فلم يفلح • ولم يكن مراد باشا أكثر حظاً في القتال من زميله • وأخذ الضغط في الانحلال • فتسنى لجلبي علي ، بن قاسم خان الذي سلم الموصل الى كوجك أحمد من قبل ، بأن يشق طريقاً له ما بين الخطوط التركية الى داخل بغداد • ومن الأعراس الأخرى الدالة على خور العزيمة والتجرد من القوة الروحية قصة عمر باشا ، ضابط إعاشة الجيش ، الذي ترددت الأشاعات عنه في أنهاء المعسكر بأنه باع الذخائر من العدو • ولم تتحسن تلك الروحية حينما نظم اندافعون في الداخل تظاهرات صاخبة ابتهاجاً بما سمعوه عن قرب قدوم الشاه • الا ان دقيقة بعثت على الارتياح مرت عندما وصلت قافلة ايرانية تحمل المال والعقاد الى المعسكر العثماني خطأ لانها ضلت الطريق •

وحدث بعد مرور ستة أشهر على الحصار في صبيحة أحد أيام الصيف لسنة ١٦٢٦م (١٠٣٦هـ)^{١٥} عندما كان حافظ أحمد مع هيئة أركان حربه يتمرنون على لعبة الجريد كعادتهم ان علا الغبار في الأفق • وبعد دقائق قليلة ركب رسول من الشاه ومعه رسالة الى الباشا • وعند وصوله قرأها الباشا وكان ما يزال راكباً والرمح بيده • ثم استمر اللعب ومن بعد ذلك اعيد الرسول بمهمته يحمل رسالة شفوية يقول فيها « اقدم لتسلم الجواب بعد أن تضع الحرب أوزارها » فاعدت القوة وتهيأت للحرب ، على انه لم ينتج شيء من أول اصطدام بين الجيشين سوى مكابدة اتلاف^{١٦} قليلة وأخذ بعض الاسرى • وفي الوقت وصلت عن طريق الماء أكلالك الذخيرة المشحونة من الشمال • ثم بدأ الايرانيون ، الدين قطعوا جميع المسالك في الضفة الشمالية ، يهددون معسكر الباشا ويضيقون عليه الخناق لشل حركته بازعاج جماعات من الجند كانت ترعى الحيوانات وتوردها الماء وسلبهم باستمرار • وقطع طريق عمر باشا الذي كان ارسل الى الشمال لجمع حيوانات نقل ، ثم وقمت قافلة غنية بأيدي الايرانيين الذين كانوا

(١٥) أخطأ الفون هامر (الكتاب السابع ص ٧٢-٧٤) بذكر تاريخ هذا الحادث وتاريخ الحرب الثالثة من وصول المشاة ١٦ كانون الاول ١٦٢٧ و ٢٧ أيار ١٦٢٧ على التعاقب لانه يخالف بذلك گولشن والمراجع الايرانية ثم انه يناقض بذلك روايته نفسها •

(١٦) الاتلاف جمع تلف كأطراب ومفردها طرب وأوجاع ومفردها وجع •

قد استولوا على رأس جسر الفلوجة أيضاً •

وفي غضون ذلك تبذلت الرسائل بين القيادة الشاهية وقيادة الوالي • وقد طلب الشاه في احداها فصل بغداد عن السلطنة العثمانية رسمياً ليكون منها ولاية لولي عهد ايران • وفي اخرى أنب الترك على فقدانهم الحماية في الحرب والديبلوماسية معاً ، والا أعلنت الحرب أو عقد الصلح • فأخذ الباشا قلمه وكتب : « ان الصقر اذا عقب الحمامة لا يعبأ بالزراغ ولا بالغراب ، وان نباح ابن آوى لا يقلق الاسد » • ف وقعت حرب ثانية بالقرب من أسوار المدينة ولم تنتج شيئاً أكثر من سفك الدماء • وخابت محاولة حرق أبواب بغداد الخشبية •

وهناك أصبح الاتراك في غمرة من اليأس • والواقع ان الحالة كانت في داخل المدينة مضطربة أيضاً ، فقد جرد كل شيء حتى النخيل عن سفعها وحيل دون وصول قوافل المؤن عن طريق النهر أو البر • على ان هذه الغنائم اليسيرة ما كانت لتتخذ جيوش الباشا من جوعها • فقد كانت قد أحاطت بها من جميع الجهات قسوات الشاه التي صارت حولها كطوق منيع بعدده وروحيته وعدته • وتفشى مرض الروح والجسد معا بين طهرانيتها • فاشتبك الطرفان بحرب عظيمة ثالثة في أواخر أيار ١٦٢٦م • فهجم الايرانيون من جهات ثلاث في وقت واحد • وكان هذا الاشتباك أعنف اشتباكات الحملة بأجمعها • إذ هجم باندفاع أعلى القواد مرتبة من كلا الفريقين على رأس قواتهم • واستوحى الايرانيون الثبات من علمهم ومن وجود الشاه بين طهرانيتهم كما استوحى الاتراك ذلك من شخصيات باشواتهم البارزة وتقاليد كتابتهم المعروفة • فكرر مراد وألياس وخسرو مرة بعد أخرى وعبأوا قطعاتهم ، ولم يظهر حافظ أحمد أقل من هؤلاء بسالة ، فأخذ المعسكر وايدت خلال الموقعة « عصبة مقدسة » عن آخرها متألفة من الف وخمسمائة ايراني بعد ان أبلت بلاء حسناً لا يصدق • ثم ارتد الفريقان تاركين في حومة الوغى جثث القتلى مكدسة بعضها فوق بعض •

وبعد مضي اسبوعين اقترح الشاه عوداً على بدء الدخول في مفاوضات • فبعث حافظ أحمد رئيس مرافقيه وجماعة من الضباط الآخرين الى المعسكر الايراني ثم عادوا مع سفير الشاه فجدد الايراني ادعاءه ببغداد ، وفي جلسة متأخرة جاسوها قبل إبقاء بغداد للترك اذا اعطي التجف مكانها • فكان جواب

الوزير ان كل حبر من النجف يعادل عنده الف انسان ، وما بغداد الا حماتها • ولم يجد بحث التوافق نفعاً في تقريب وجهات النظر • على أن تحمل الترك كان قد بلغ منتهاه ، فاندلعت نيران الشعب وأدى ذلك لقلع خيمة الوزير الاكبر • وعلى مشهد من السفير الايراني جعل الباشا نفسه سجيناً في قبة أبي حنيفة • وبعد ساعات من الفوضى اعيد شيء يشبه الضبط الى نصابه • ثم نصبت خيمة جديدة وجيء بالوزير اليها • فسألهم « ماذا تعنون بذلك ؟ » ثم صاح « أين أبطالنا الذين يفتحون بغداد أو يموتون دون ذلك ؟ » • غير ان صوته غرق في لجة الاصوات المطالبة بالكوص • ولم يبق بوسع الانكشاريين اليائسين أن ينصتوا للاوامر ولا للاقناع ، فترك أمر ادامة الحصار •

واستطاعت القوة التركية ، لاهمال العدو ، أن تتم مسيرها للرجوع في اليوم الاول من دون تعرض الايرانيين لها • وفي الوقفة الثانية ركب فصيل من الايرانيين في طلب سفيرهم وكان احتفظ به الوزير فسلم اليه • وفي الليلة الثالثة هاجمت القوات الايرانية المؤخرة فردت بعد شق الانفس • وكان الرجوع عن طريق يحاذي دجلة ، وهو طريق لا يطرق إلا قليلا • ولم يكن من الممكن وجود المؤونة فيه لتشتري أو تغتصب • ولذا فقد أبقى القوة في قيد الحياة شيء من المشحونات المغتصبة من النهر فقط • وغدا القوات يباع في المعسكر السيار بأسعار باهظة من رجل لآخر • ثم قتل حيوانات النقل واكلت • ولم يكن من الممكن أن يحاذي سير القوة نهر دجلة المتعرج دائماً ، فسبب ذلك اضافة العطش الى التعب والجوع • فساد حكم الغوغاء حتى عبّر الزاب الصغير ، وهناك أمكن الحصول على بعض الازواد من الحبوب • وفي الاخير وصل الجيش الى الموصل ، والى الرخاء النسبي • فاعطيت حكومتها قره بكر وعهدت الحامية الى جركس حسن •

فترة وخيبة ثانية

توجه حافظ أحمد الى مقره الشتوي في حلب • ثم قبلت وفادته الى استانبول وكافأه سيده بخلة الشرف جزاء له على اخلاصه • غير ان الجوع كان متسماً عند خصومه وحساده بحيث ان مثل ذلك التقدير والاستقبال الحافل كان لا يمكن أن يحصل ما لم تتوفر له جميع قوى السلطنة وكل ما يمكن أن يوجد من الالفه

القديمة بين السلطان ووزيره • فحرك ذلك ساكنهم وكادوا له فعزل من الوزارة ،
إلا أنه لطف بالأنعام عليه بتزويجه من أخت السلطان نفسه •
وقد شغلت خلفه خليل باشا الاضطرابات الداخلية فحالت دون زحفه الى
بغداد • وفي أوائل ١٦٢٨م (١٠٣٨هـ) وصل سفير إيراني الى استانبول رسمياً
ليطلب بغداد بغية نصب ولي العهد الإيراني فيها ، وليطلب عقد معاهدة للصالح •
فلم تنتج تلك السفارة شيئاً • وفي ١٦٢٨م أيضاً حل مكان خليل في الصدارة
العظمى خسرو باشا ، البشناقي الصارم الذي كان نشاطه المتأجج قد رفعه من
مصاف الجنود الأغمار الى هذه المرتبة • ثم تقضت سنة كاملة قبل أن يتحرك
الجيش الى الشرق من معسكره في اسكداري •

وعلى هذا تمتعت بغداد وأواسط العراق بستتين من السلم • وكانت فلول
جيش حافظ أحمد المتراجعة قد تركت من الذخائر ما أمكن نهبه على مهل • ثم
زرع خلال هذه المدة زرعان وحصدا • واستمر صفي قلي على حكمه الطويل في
بغداد • واستعادت حاميات البلدان الفراتية ، بينما كانت القبائل متمسكة بهيت وما
فوقها • وكان نفوذ الخان من الفلوجة الى عرجة في حالة مد وجزر ، وكان قليل
من الضبط يسود في أنحاء دجلة الواقعة في جنوب ديارى • وكانت البصرة لعدة سنين
خلت حكومة^{١٧} مستقلة لا تعبأ بمصاير الامبراطوريات في شمال الاهوار الا
قليلاً • ولم يسد في كردستان الجنوبية نفوذ أحد بل كان يتنازعها النفوذ التركي
والاردلاني ، وتعمل فيها دسائس البگات الذين كانوا يجاملون الفريقين ولا
يخدمون أحدهما على الحقيقة • أما الموصل فقد كانت فيها حامية النظاميين
الاتراك • وكان باشا كركوك قد تخلى عن مكانه لخان إيراني من جراء ضغط
الجيوش الإيرانية في الجنوب وحاكم أردلان المقدام في الشرق •
وقد كانت هذه شهوراً من الانتظار المقلق لروبعة أخرى كانت تتوقعها •

مقتضيات الحال • فقد أحزن نعي الشاه عباس في أوائل سنة ١٦٢٩م (١٠٣٩هـ)
الخان في بغداد وأفرح المعسكرين في اسكداري • وبالغ حفيده وخليفته
الشاه صمي في سفك الدماء بغير مراعاة للعمر ولا المزايا ولا الخدمة ، فكان ذلك
مدعاة لخراب بلاده واضعاف شأن أسرته • وكان الشاه عباس قد حكم مدة اثنتين

وأربعين سنة ، وتوفي بعدها في السبعين من عمره • ولو لم تعاجله المنون ، وحكم مدة عشر سنين أخرى ، لكانت قضية بغداد لا تحل الا بنضال عنيف بعد ذلك بين بطلين مغوارين • وبذا تخلص التاريخ من مشهد النضال العنيف الذي كان لابد من أن يقع بين أعظم الملوك من الفرس ومراد الرابع ذي النباهة القاسية •

وبدا خسرو باشا يزحفه في أيار ١٦٢٩م • فعُرف طريق آق شهر وقونية الى حلب بصرامة القائد وشدة بأسه • وقد أمر عند عبوره الفرات في بيردجك بصنع الشخاتير^{١٨} الكبيرة لنقل التجهيزات الى الفلوجة • وجرت وقفة في ديار بكر فاضيفت فيها الى جيوشه أول قطعات البكات الاكراد • ثم انضمت الى الجيش بعد ذلك في الموصل مدفعيته التي كانت آلاف من الثيران قد سجنها على طريق آخر •

وكان الموسم^{١٩} خارق المساواة • فقد جعلت الامطار والفيضانات من أواسط العراق بلاداً لا يمكن أن تسير فيها وسائل النقل • وتراكم الثلج بعمق عدة أقدام حول ديار بكر ، ولم يشهد شيوخ البلد على طول أيام حياتهم مثل أمطار هذه السنة شدة في الموصل • فلم يدر - والحالة هذه - التقدم الى بغداد في خلد أحد • على انه أجريت الترتيبات اللازمة في هذه الاثناء للتجهيزات واعدت الاكلاك للنقل • وزحف الجيش الى الشرق والجنوب عابراً الزاب الكبير • ثم عقد مجلس حربي فيما يقرب من أربيل وكان حاكمها الايراني قد فرمغ زميله حاكم كركوك الى بغداد • وقد حضر المجلس الحربي جميع قواد الجيش النظامي التركي ورؤساء التيمار والجنود المستأجرة وعدد من البكات الاكراد وعدة من شيوخ العرب من سكان سقي دجلة • فتبين ان الحملة الى الجنوب كانت غير ممكنة نظراً لحالة الطرق الموحلة من جهة ولوجود الضغط الاردلاني المعادي من الخلف • فقرر أن توجه أول حملة على التابعين الايرانيين في بلاد شهرزور وما وراءها^{٢٠} •

(١٨) وهي الشخاتير المنبسطة القعر المعروفة على طول العصور ولا تزال

تستخدم من بيردجك الى المسيب •

(١٩) منتصف شتاء ١٦٩٢ - ٣٠م •

(٢٠) ان المرجعين اللذين يذكران هذه الحملة هما نعيما والحاج خليفة •

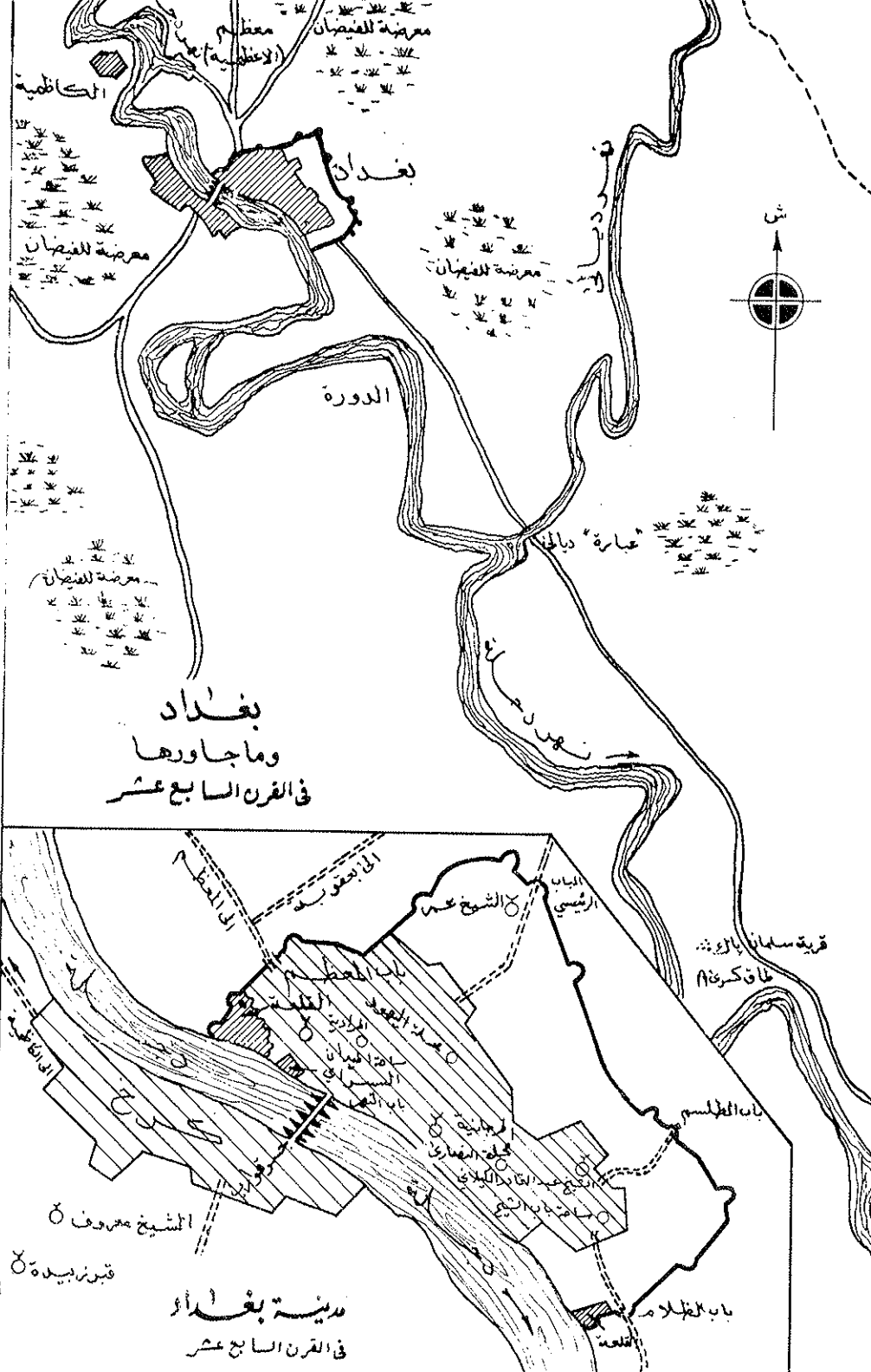
لكنهما لم يصفيا بايضاح الطرق ولا أحوالها ولا موقف الاكراد من الحملة مع ان الحاج خليفة نفسه كان بصحبة الجيش •

• وكان خان أحمد خان الاردلاني حينئذ ما يزال عبداً مخلصاً للشاه^{٢١} .
 فقد أظهر جدارة في حملات العراق على عهد الشاه عباس الكبير • على انه
 كان بين أقاربه كثير ممن يمالئون امبراطورية السنة • ولم يضع هؤلاء وقتاً
 فتقدموا الى الصدر الاعظم بهداياهم • وعندما توجه الجيش من كركوك نحو
 الشرق حضر كثير من بكات مملكة اردلان وعشرون من خانات كردستان غيرهم
 لتقيل يدي الوزير • وما تقدمت القوة التركية الى المسالك العالية حتى توقفت
 في گولنبر^{٢٢} وفيها عقد مجلس مهم، بحث فيه قضية تجديد الحصن القديم الواقع
 على الحدود الذي كان سليمان القانوني قد بناه فهدد الشاه عباس من بعده •
 فنلت العاطفة وقضت بضرورة تجديده فتكامل بناؤه بعد عمل استغرق سبعة
 أسابيع • على أن هذا العمل كان من دون فائدة وفي غير أوانه ، لان مثل هذه
 الحصون الجبلية المنعزلة في هذه البلاد الوعرة لا يمكنها أن تؤمن حدود
 السلطان •

وبعد أن أضع الوزير هذا المقدار من الوقت بحث بطليعة جيشه على بلاد
 اردلان ، وكان أول هدف له قلعة مهربان المنيعه ، فسقطت في أيدي الجيش
 ووضعت فيها الحامية • وبينما كان الجيش الرئيس متريثاً في شهرزور كان زينل
 خان القائد العام للجيش الايراني وخان أحمد الاردلاني قد تحركا بسرعة من
 همدان مع جيش مؤلف من أربعين الف مقاتل ، وبعد أن صدفا عن سماع المشورة
 الصائبة القاضية بالسير رأساً الى شهرزور (فيقطعان بذلك الاتراك عن قاعدتهم)
 بدأ بالحرب فيما يقرب من مهربان ، فجرى نضال طويل وحشي • وقد وصلت
 الامدادات من خسرو في أخرج الاوقات ، فراجع زينل خان بعد أن بلغت
 خسائره من الرجال عدة آلاف • وكان ينتظره الموت العاجل في معسكر الشاه

(٢١) يقول المؤرخون الاتراك ان (١) خسرو كان يعتبره عدواً له و(٢) انه قدم الخضوع
 مع أخيه السني للاتراك حينما عبروا الزاب الصغير و(٣) انه فر من قصره في حسن آباد
 عند وصول الترك • ان هذه المتناقضات لا يمكن أن يعتمد عليها • غير انه من
 المؤكد ان خان أحمد أخذ يعادي الشاه لانه سمل عيني ولده في عهد متأخر من هذا
 الدور •

(٢٢) وهي المسماة اليوم خورمال - المترجم •



جزاء له عن فشله • فتولى القيادة بعده رستم خان ، وتحرك الشاه في جهة أصفهان •

أما خسرو باشا ، فبعد ان أكمل بناء قلعته وأخمد فتنة كانت قد نشبت أقام مهرجاناً عظيماً للانتصار في مهربان • ثم توغل في أردلان ، فنهب حصن خان أحمد في حسن آباد نهباً فاحشاً • ولم ينح الفارون والمتأخرون من قسوة هذا القائد العثماني • وبعد السير في بلاد غنية أهلة بالسكان وصل الجيش الى همدان في حزيران ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ) • ولا يدخل في تاريخ العراق وصف التخریب الشنيع الفظيع ، الذي أصاب هذه المدينة العظيمة • وبعد أن قضى الجيش ستة أيام دموية نارية توجه الى درگزير عن طريق قزوین ، فوصل اليهما وخربهما • وبقي بين هذه البلدة وقزوین المقصودة عشر مراحل لا ماء فيها • غير ان آراء أخرى سادت في مجلس عقد هناك وتقرر الرأي على أن بغداد هي المقصودة أولاً وآخرأ • أما قزوین وأردبیل وان كانتا غنيتين ومغريتين بالنهب لما فيهما فانهما كانتا بعيدتين عن الطريق الذي أوصى به الپادشاه^{٢٣} • وكان الصیف قد حل وتقدمت أيامه ، وكان العراق في مثل هذا الوقت من الممكن تحمله • فولى الجيش شطره نحو الغرب •

ولم يعرف من أخبار هذا الزحف الطويل الامد الى الحدود العراقية حادث يستحق الذكر سوى مناوشات موقفة جرت مع الخانات الليريين • وما وصل الوزير الى سهول ديالى الوسطى حتى وجد أن النجدات كانت تنتظره من الموصل مع المدفعية التي كانت خير عون مرحب به • ولذلك استغرق سير الجيش الى بغداد وتحصنه في مواقع الحصار شهراً واحداً • وبدأ الهجوم في تشرين الثاني •

وقد قدر للهجوم ان يحبط ، ولا يجدينا نفعاً ان نكرر وصف كل وجه مشكوك فيه من أوجه الحصار • فقد كانت نيران المدافع غير منقطعة من الفريقين وتسكنت المدفعية التركية مع الالغام التي انفجرت تحت أبراج السور من إحداث نلم وثقوب مخطرة ، الا انه لم يكن الدخول من احدها الى المدينة ممكناً • وكانت

(٢٣) ويذهب گولشن الى أبعد من هذا ويقول بأن أمراً ملكياً وصل الى الوزير في درگزير «درگوزين» يأمره فيه بالتوجه الى بغداد •

المشاعل تضيء السور في الليل كله • ولا غرو في ذلك فقد قدم عهد صفي قلبي
وحذق أساليب الدفاع ، وكان بمعيته أمير جمال وأمير فتاح من حكام أصفهان
القديمين • فقدم خسرو باشا ، بطيش خال من التروي ، معسكره قريباً من
السور بحيث أصبح غير بعيدٍ من نيران المقاتلة •

وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٠م استنفد معظم عتاد الجيش التركي • وغدا
الوضع بحيث ان حملةً تقتصر على مجرد الاحتكاك والتنافس لا بد من أن تكون
في مصلحة المحاصرين في الداخل • وبعد أن رأى خسرو باشا ان السور في
كثير من المواقع قد هدم حتى وجه الارض أمر بهجوم عام • وفي اليوم الاربعين
من بدء الحصار حاولت طليعة مؤلفة من خمسمائة مقاتل ان تتجتاح الخندق من
أحد الاماكن وان تعبره على ممر من تراب الطابوق المتجمع من السور المهذوم •
فما احتشد فوقه أكثر الرجال حتى انهيار من تحتهم فساخ بهم الممر فغاروا
وأمرتهم أسلحة النيران حاصبا من السور ، فمات معظمهم وبينهم أعلى ضباط
الجيش رتبة • ولم يفلت أحد من حرس خسرو الذي كانت تبقية شجاعته
الجنونية في الامام دائماً •

وبعد مضي خمسة أيام قرر مجلس حربي كامل النصاب أن ينسحب
الجيش • وكان التراجع من بغداد منتظماً بحيث كانت جميع المدافع والذخائر
بحالة جيدة • فوصل الجيش الى الموصل في أوائل أيام ١٦٣١ ، ولبت هناك
اسبوعاً • وبينما كان الوزير هناك استولى خان أحمد خان الاردلاني على ما كان
مستولياً عليه من قبل في كورة شهرزور • وقد فر خمسة من باشوات الاتراك على
عجل الى الموصل • وهناك قوبلوا بالبشاشة والهدايا ثم أخذوا الى حجرة ثانية كان
ينتظرهم فيها السياف ، فلم يبق على أحد منهم •

وكان الوزير قد بعث ، قبل أن يبدأ بالانسحاب ، رتلاً من جيشه لفتح
الحلة • وهذه الفكرة وان كانت عديمة الفائدة وسبباً للتطويح والاسراف - كما
كانت قضية تشييد الحصن في گولغنبر من قبل - فانها كانت ترمي لتأمين قاعدة
للجيش في حملته المزمعة الثانية على بغداد^{٢٤} • فاحتل خليل باشا حاكم ديار بكر

(٢٤) يقول نعيما ان رتلا قويا قاعدته الموصل وقائده باشا طرابلس غزا
سقي الفرات الاوسط في أوائل ربيع ١٦٣٠ حينما كان خسرو في شهرزور ، فهددت

الحلة بعشرين ألفاً من الانكشاريين وغيرهم • فأعدت البلدة للدفاع الذي كانت بها أمس الحاجة اليه ، إلا ان رستم خان بعد ان أتم عمله في كردستان ورجعت المياه الى مجاريها هناك أصبح بوسعه معالجة قضية الحلة • فتوجه اليها وخيم بالقرب منها ، ثم بدأت المناوشات الاولى فكانت تدل على خسارته • فأنتهت ابناء ذلك الى الشاء صفي ، فخفف الى الموقعة مسرعاً^{٢٥} • فصمدت الحلة للحصار مدة أربعة أشهر تقريباً • ورأى خليل باشا بعد ذلك ان قوى غير متعادلة مثل هذه لا يمكنها أن تتحمل النضال • فركب وحده في ليلة ظلماء واخترق خطوط الايرانيين والسيف بيده ونجا بنفسه • فاستسلمت قواته بشروط واستتبع ذلك النهب والقتل فدما ليلة واحدة حتى مطلع الفجر ، وذلك حين نادى المنادون باعلان الهدنة • ثم رسمت الخطة لتشييد قلعة جديدة وانجز بناؤها بكلفة باهظة • وبعد ذلك رجع الشاء الى بلاده بعد أن زار العتبات المقدسة ، واعيد وضع الحاميات في الفلوجة وغيرها •

وكان آخر جهد بذله خسرو باشا في الموصل ارساله حملة صغيرة من الخيالة لتأديب مطلق أبي ريشة • إذ لم يكن أمير البادية العظيم هذا مكنتاً بالنزيب بين المصالح الايرانية والتركية ، بل كان ينهب الفريقين أيضاً ويناولهما من دون أن يخدم أحداً منهما • فخلع واعطيت الامارة سعد بن فياض من الاسرة نفسها واختص بكر باشا بحكومة الموصل التي وضعت إذ ذاك تحت الاشراف العام لباشا ديار بكر طيار محمد • ثم رمم سورها ، وجيء بالبنايين والعمال من ديار بكر وأورفه خاصة له • وقضى خسرو الشتاء في ماردين • وقبل أن تهدأ زوابع حملة الوزير على العراق أضاعت بغداد حاكمها^{٢٦}

المدن المقدسة وهددت الحاميات الايرانية الصغيرة التي كان يساندها ناصر المهنا • ان غزوة بعيدة منفصلة كهذه ترينا تعبئة تستدعي الاستغراب ولم يشتر اليها في گولشن •

(٢٥) هكذا ذكر في گولشن ، الا أن الرواة الاتراك لا يذكرون هذا ، والظاهر ان مجيء الشاء من أصفهان لحملة على الحلة أمر مشكوك فيه •
(٢٦) تافيرييه (ص ٨٤) يذكر رواية لطيفة لكنها غير تاريخية في انتحار صفي قلبي متأثراً من تعيين حاكم آخر مكانه •

الحديث المطَّرب • وكان صفي قلبي ، اشتعصب العساف بنظر أعدائه ، قد خدم سيدد خدمة جليلة • وقد اعتمد الشاء صفي في تعيين خلف له على علم النجوم لا على فطنة البشر • وذلك بأن قرأ طوالع كثير من رجال دولته ، فاستقر الرأي في الآخر على تعيين بكتاش خان الارمني وكان شرساً عنيداً ، وشجاعاً مقدرأ • ودامت ولايته على بغداد بدوام سلطنة دولته عليها • فحكم خلال الخمس عشرة سنة التي حكم فيها الايرانيون العراق حاكمان فقط • وكانا يقابلان في الثبات والقبالية باشوات السلطان الذين لم يحكموا طويلاً • وفي عام ١٦٣٥ هـم العراق الطاعون فأهلك منه جماعات عظيمة •

السلطان مراد ١٦٣٨

وفي خلال الحوادث الاخيرة كان السلطان مراد قد بلغ أشده • وكان قد قضى صباه في جو مغمم بالدسائس والفتن ، وبكل ما من شأنه تفسيح الدولة والقضاء عليها • وقد كان تذوقه المبكر للحكم الفعال تذوقاً يتصف بالنعف والاذلال • إذ تمرد السباهيون في السراي نفسه وطلبوا المحارب القديم حافظ أحمد • فلم ير السلطان بداً من تسليمه والتضحية به • ومنذ ذلك اليوم تسلم مراد زمام حكمه فبرهن على أنه شديد الكفاءة والقبالية والثقافة والصرامة ، وانه انعيد الحقيقي للصحة والحياة في جسم امبراطوريته • على انه كان أيضاً مغروراً لا قيصة للحياة عنده ، وسفاكاً يقتل من شعبه عشرات الالوف بمرة • وسرعان ما اضفت الى مثل هذا الطبع والاستعداد عادات الدعارة وادمان المسكر • بيد انه « ... مع جميع ما اقترفه من سوء قد أنقذ بلاده • فلم يتساهل في أية جريمة نير جرائمه • وتوقف بسيطرته عنسف المستبدين المحليين في مختلف الانحاء • وكان ذلك أكثر المصائب شراً ... • وكان أسوأ العسف الذي قام به هذا الطاغية وحده أهون شراً على الامبراطورية من الفوضىوية العسكرية التي قضى عليها • فأعيد النظام ورجعت التابعة الى نفوذه الحديدي • وحينئذ استتب النظام في المعسكرات وحكم بسوجب العدالة الناتجة في المحاكم • ثم جيت الواردات بانصاف الرعية وجرى أمرها بكل عفة » ٢٧ •

وبينما كانت امبراطورية عثمان تُش وتزدهر تحت وطأة الحكم المفيد المرعب لم يعد بوسعها أن تحتل بقاء بغداد خارجة من حكمها • غير ان الحال قد قضت أن تتصرم أعوام سبعة ما بين خيبة خسرو وظفر السلطان النهائي • ففي ١٦٣٣ ركب مراد بنفسه وجول في الاقسام القريبة من ولاياته الاسيوية • وبعد سنتين سار من اسكداري الى أريوان فاسترد تلك القلعة العظيمة من الشاه • وأثبت نفسه بذلك انه قائد بالفطرة للجيوش في أثناء العمل ومفتش لا يرحم موظفي ولاياته اذا قصرُوا •

وفي التاسع من مارت ١٦٣٨ 'رفع لواء السلطان في اسكداري ثانية' • وفي الثامن من أيار كانت قد أكملت جميع الاستعدادات وعيى كل موظف ومذخر ورتب حق الترتيب ثم قوض الجيش خيامه ذاهباً للزحف الى بغداد • وقد قسم الطريق الى مئة وعشر مراحل • وكانت تأويب كل نهار وتعريس كل ليلة يجريان بدقة حسب الترتيبات والخطة المرسومة • وكانت عدة أماكن للنزول قد عدل عنها مراعاة للاحوال العارضية التي كانت تتطلب التآدييات أو الاصلاحات أو أفعال الاحسان • وفي حلب ، منتصف الطريق ، استراح الجيش ستة عشر يوماً • وهناك شهد الرحالة الافرنسي تأخيريه عرضاً مهيباً للجيش • ووجه من بيردجك بالاحمال الثقيلة من الذخيرة على الماء ليلقاها مراد في أواسط العراق^{٢٨} • وقد توفي بيرم باشا ، الصدر الاعظم ، في دولاب فتولى بعده طيار محمد • وأوقف الجيش في ديار بكر ستة أيام حظى الوزير الاعظم الجديد خلالها بالمشول بين يدي سيده بعظيم أبهة • ومن هنا ارسلت قطعات جيش الطليعة والنفاض الى الموصل • وقد كانت مؤلفة من قطعات حلب وطرابلس وقائدها درويش باشا ومن هجانة البادية التابعين لابي ريشة • وكان ينتظر السلطان في الموصل "سفير" من الهند ومعه هدايا غريبة • وانزلت مدفعية الجيش في الاكلاك في دجلة واحدرت الى الجنوب بعد أن بقي مع جمهرة الجيش عشرون مدفعاً • ثم كوفئت الجنود بأجزال العطايا لهم • وقد نقح نظام المسير لقرب الدخول في بلاد معادية • فجعل باشا مرعش على المؤخرة وتولى باشا ديار بكر أمر الطليعة ووكّل الى باشا حلب أمر المدافع • وسار الجيش بحسب جدول الاوقات الموضوع في أول الامر

(٢٨) تأخيريه ص ٥٩ •

فعبّر الزاينين : الأكبر والأصغر فدخل كركوك واجتازها فصار وانحدر من جبل حميرين الى الخالص ، ثم سار فخيّم حول بغداد وذلك في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٦٣٨م .

وقد كانت هذه آخر زيارة يقوم بها سلطان^{٢٩} من آل عثمان الى العراق ، كما كان عمله آخر مأثرة من مآثر آخر الملوك المحاربين العظماء في الاسرة . وكان التقدم العظيم الذي حصل في ممتلكاته وأتمه مراد في هذا الزمن قد طبع الامبراطورية بطابع لم يسمح حتى يومنا هذا . فلم يزل اسم السلطان مراد معروفاً ومرعياً لدى الفلاحين والقبائل وفي كثير من أساطير الرعاع ، مع انه نسي كثير من ملوك جاءوا من بعده فحكموا أكثر مما حكم . وقد انتهى الحصار القصير الالامد الذي بدأ في هذا العهد بالانتصار ، بعد أن خابت خطط حصارات ثلاثة ، وأمن مستقبل العراق في القرون التالية .

نصبت خيمة السلطان على مرتفع قليل يطل على دجلة فيما يقرب من تربة أبي خنيفة التي أقسم السلطان أن لا يدخلها حتى يجعل الظفر منه رجلاً يليق بتقديس تربة الامام . وقد قضيت أولى ساعات الوصول في تنظيم وضع القوة ، وفي اختلاط السلطان بالجنود وإثارة حماسة الضباط بالخطب الرائعة . ووزعت ذخائر الحصار كما أخذ كل رزقه وعينت الواجبات . فكان المعسكر وقوات السلطان الخاصة به في موضع يقابل القلعة والجهة الشمالية الغربية من السور . ووضع أغا الانكشاريين مع البغلربكي للروم أيلي في الجهة الشمالية الشرقية أي فيما يقابل الباب الابيض الذي طالما عرف أخيراً بباب الطلسم^{٣٠} . وربط شرقاً فيما يقابل باب الظلمات في الطرف الجنوبي الشرقي القبطان باشا وقائدان عامان من فواد الانكشاريين ثم باشا الاناضول وباشا سيواس . أما المحاصرون داخل السور فقد كانوا بكتاش خان وخلف خان ومير فتاح . ولم تتأخر المدافع

(٢٩) يرجع كريسي زيادة على المراجع المذكورة الى كتابات هلم Hulme أما الفون هامر (الجزء التاسع ص ٣٣١) فيرجع الى رحلات دولوار (باريس ١٦٥٤) .

(٣٠) باب الطلسم كان في الجهة الجنوبية الشرقية فلعله أراد الباب الوسطاني « م . ج . » .

الموزعة بين قواد كل جبهة عن اطلاق النار ، واذ ذاك ربكت المدافعين ربكاً عظيماً بنارها غير المنظورة قوة ارسلت لتعبر النهر فتقصف القلعة من الجانب الايمن .

وكان السلطان بين رجاله لا يفارقهم في كل خندق ومترس . وكان يراقب كل وجه من أوجه الحصار من برج اقيم أمام خيمته . وكان يؤاسي الجرحى ويهدي اليهم الهدايا . وكانت خطبه المتوالية تشجع الضباط الذين كان كل منهم يخاف سيده أكثر من خوفه جميع جيوش ايران الف مرة . وكانت تدابير الحصار واعلاف الحيوانات وتوزيع الارزاق والاستخبارات تنال كلها القسط الاوفر من عنايته الخاصة . وقد شجعت روحية حب الانتصار وتعظيم هذا القائد المخيف الجنود الذين كانوا يشيدون المشيدات الترابية في غبار غير منقطع ، ودفعت هؤلاء الاعمار الى أقرب ما يمكن من الخندق المحيط بالسور . وكان الرمان المجلوب من بساتين شهريان والمؤن العظيمة التي جيء بها على ابل أبي ريشة التي يقدر عددها بعشرة آلاف بعير تشدد منهم العزائم . أما الايرانيون فقد قويت معنويتهم بالاخبار التي تؤذن بقدوم الشاه . فانه كان قد وصل في الحقيقة الى خانتين مع قوة ضئيلة قوامها ١٢٠٠٠ مقاتل ، وكان يتحرى الطريق في سيره مخافة أن تصيبه كارثة تقضي عليه بين حين وآخر وهو يتقدم نحو بغداد . ففصل السلطان عن الجيش باشا طرابلس وباشا حلب مع المقاتلة غير النظاميين من البادية وبعثهم للقاء الشاه الذي كان في طريقه . فراجع الشاه ووصلت اذ ذاك الى معسكر مراد مدافع جديدة على الماء في دجلة .

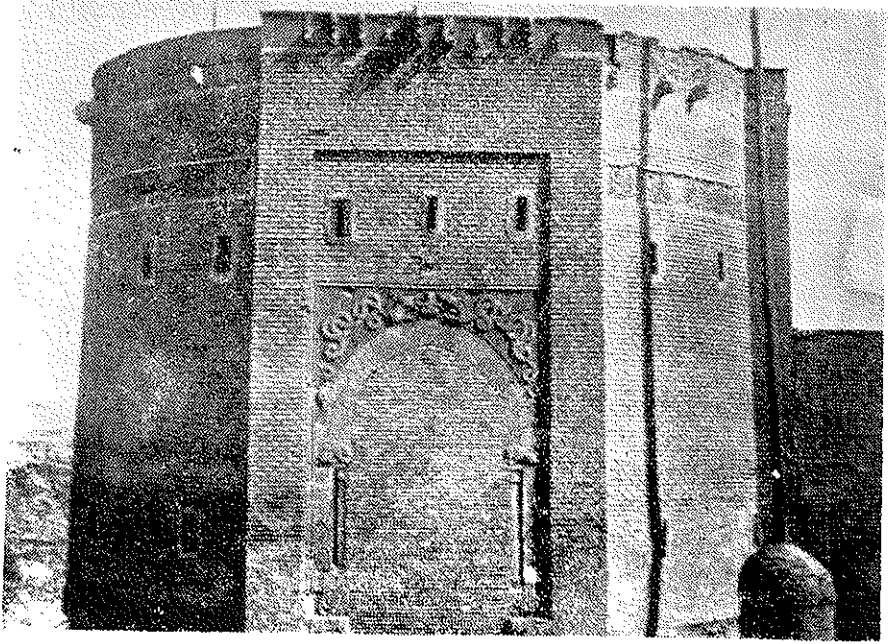
وكان برج الباب الابيض أول برج خضع لمدفعية الصدر الاعظم . ثم دكت أبراج أخرى في تلك الجهة من السور حتى وجه الارض بسرعة . وأحدث فجوة عرضها عدة ياردات كشفت عن داخل المدينة ، غير ان الارض كانت مملوءة من الخنادق والحواجز وهو الامر الذي أخر القيام بالهجوم المزمع العام . فواصل تهديم الاسوار بقصف كل البطاريات لها حتى امتلاً بالتدريج ذلك الخندق الواسع من انقاض الابراج المتهدمة وبأكياس الرمل التي كان يلقيها جنود مقدمة المهاجمين .

واقتربت النهاية ، فشن هجوم عنيف في اليوم الثالث والعشرين من كانون

الأول • قصد ، إلا ان السلطان رأى الخندق قد امتلأ ولم يبق ما يحول دون الهجوم العام ، وأنب وزيره على تأخيرته • فأجاب طيار محمد بكلمات تتم عن روحية الولاء الحققة قائلاً « ان يشأ الله ان تؤخذ بغداد لكم فسيتم ذلك بسهولة مع تقديم حياة عبدكم طيار لخدمتكم » • فأمر بالاستعداد للهجوم في اليوم التالي لذلك ، وما تبين فجره حتى شن الهجوم • وكانت فجوة طويلة مفتوحة بين أيدي المهاجمين في وسط الجهة الشرقية من السور • فهجم الصدر الاعظم تبعه خيرة الجيش التركي فأردى بجسامه المسلول أول من صادفه من الإيرانيين ، واستمر على الهجوم حتى أصابته كرة مدفعية فأردته قتيلًا في الحال • فحمل الى سيده فكان حزنه عليه صميمًا ومرأ • وعندئذ تسلم خاتم الصدارة العظمى مصطفى بانسا ، وفي اللحظة التالية حل محل طيار في قيادة الهجوم • فوقع عن يمينه وعن شماله رجال الحاشية والضباط الكبار • وضغط بالهجوم حتى استولى على الفجوة وبدأت المدينة مكشوفة من ورائها •

وتقبل السلطان مراد في يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٣٨ (المصادف لليوم الاربعين من الحصار وهو اليوم الذي تقضت فيه مائة سنة على فتوح سليمان القانوني جزيرة رودس) خضوع المدينة العظيمة التي في حدود امبراطوريته وانوطن القديم لعظمة الاسلام ، وغاية النضال الذي دام خمس عشرة سنة بعظيم المرارة والخسارة • فبعث بكتاش خان رسله لعقد شروط الاستسلام وأوفد السلطان الضباط الكبار الى بغداد ليقادوا الخان الى حضرته • فاقيد بين سباطين من الحرس الاشداء مصطفىين من خيمة الصدر الاعظم الى الديوان الذي جلس فيه مراد بكل ما له من مظاهر العظمة والابهة • فقبل بكتاش خان ما بين يدي السلطان وطلب العفو عن مقاومته الطويلة • فلم تعدم روح القوة من نفس السلطان • فعفا عنه بسهولة وأنعم عليه بالهدايا الثمينة على أن يسلم المدينة في الحال • فكتب بكتاش الى ضباطه ليتروا مواقع الدفاع والمدينة على الفور ، ولكل منهم أن يذهب حيثما شاء • وحذر الوزير من وجود بعض الالغام التي لم تزال مدفونة مخشياً انفجارها •

على ان الهدنة التي قصد بها تحقيق الفتح من دون سفك الدماء قد اُخل بها بسبب جهل البقية من الحامية الايرانية وولائهم الشديد • فدخل الجنود الاتراك



باب « الطلسم »

وقد بنيت ففتحها بأمر من السلطان مراد الرابع

ولكن اطلاق النار لم يخمد • وسادت الفوضى في باب الظلمات حيث تقاطر الايرانيون الى الخارج زرافاتا زرافات • وكان يطلق النار على غير هدى من أعلى السور المقهورون الحقد^{٣١} • فبعث هذا على مقابلة الشر بالشر • ولذلك لم يمنع التأمين العام الذي أزمع عليه السلطان مع كل المجهود الذي جهده الوزير انتشار العسف والنهب بسرعة • وأزهقت في معارك الشوارع أرواح عديدة لكبار الضباط على مرأى من الوزير • وكان غير قليل من الجند الاتراك يلتهبون بالانتقام ، هذا الاخ • وذاك لابن مفقود • ورفض مير فتاح والضباط الذين كانوا معه الجلاء والاذعان • ونصبت المدافع على آخر مترس من متاريسها حتى ذبح عشرون الفاً من الحامية فهذأت في الاخير المدينة وهي مضرجة بالدماء ومخضبة بها وبذا أصبحت في حكم الصدر الاعظم^{٣٢} •

اعلن العفو والامان بأمر من السلطان لجميع السكان المدنيين • وعقد مراد ديوان ظفره في جامع الاعظمية ثم بعث رسله الى أوربة • ومات بكتاش خان فجأة بالسسم • وأسندت حكومة المدينة الى حسن باشا (كوجوك - الصغير) • ووضعت حامية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي^{٣٤} بقيادة بكتاش أغا • ورسم للمفتي

(٣١) الحقد جمع حقود •

(٣٢) لم يكن من السهل لتحقيق التام يومئذ أن يميظ اللثام عن مجرى الحادث والقاء التبعة على مسبب معارك الشوارع هذه والمجزرة البشرية بعد الاستسلام • والرواة الذين شهدوا الحادث بأعينهم مجمعون على نبات مراد السلمية • غير أن أزمة الحملة تبعها اختلال النظام عند الفريقين وكانت العوامل للعسف والفوضى كثيرة مثل اشتداد وطيس الحرب والكرهية العنصرية والمذهب وحب النهب وضيق الطرق في بغداد ونفسية الجماهير وموقفها في اراقة الدماء • أما گولشن فيؤكد ان السبب كان استمرار مير فتاح على المقاومة في غير محلها •

(٣٣) هذه هي الحادثة التي يؤكد بها تأثير نبيه • أما نوري والفون هامر (التاسع ص ٣٤) فيعزوان هذا الموت بالسسم الى زوجة الخان ، ويعزو لها گولشن للانتحار •

(٣٤) ان الوصف الاتم الذي يصفه گولشن هذا نصه : « وجند جنداً محلياً نظامياً يكفي للدفاع عن الولاية والى لحامية المدينة جيشاً يتألف من سبعين فصيلاً تقريباً انتقاه من بين السباهيين النظاميين وانكشاريي العاصمة ومن مدفعيي

يحيى ان يعيد بناء قبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ووقوف لها أوقاف كثيرة ، معظمها من أملاك الشيعة ، لتتفق على ادامتها • وأدى فيضان فجائي في دجلة الى تدفق الماء في الخنادق خارج السور ، وبذا انمحت آثار حصارات أربعة • وبقي مراد ناصباً ديوانه حيث نصبه من قبل في ضاحية المدينة الشمالية مدة ستة أسابيع ، وجدد فيه جامعها الكبير •

على أن حادثة مفاجئة حدثت فجددت المشاهد الدموية ، في المعسكر وفي المدينة ، بعد ان استعادت حيويتها وتراءى للجميع انتهاء تلك المشاهد • فقد احترق مخزن البارود في بغداد وانفجر فجأة • فسبب أضراراً وضياح نفوس كثيرة وكان بين الموتى من ذلك الحادث والخسائر الحادثة منه ما أصيب به الاتراك خاصة • فأمر مراد بذبح جميع الايرانيين^{٣٥} أينما وجدوا وكان الكثير منهم قد التجأ الى المعسكر العثماني • فقتل الجميع وكان بين المقتولين ثلاثمائة زائر كانوا قد عبروا في تلك الايام لزيارة الكاظمين • وجيء بألف من الاسرى التاعسين بين يدي السلطان ، فأمر بقطع رؤوسهم فقطعت حالا • ولم يترك أي إيراني حياً لا في المعسكر ولا في حواليه ولا في المدينة نفسها • ومن المحتمل ان هذه المذبحة لم يفرق فيها جيداً بين العرب والفرس لان عدد المقتولين كان عظيماً يقدر بثلاثين ألفاً حسبما كتبه مؤرخو الباب العالي • وبهذا روت هذه المذبحة الاخيرة ، مع ذبح عدة من رؤساء المدينة مشكوك في أمرهم ، عطش السلطان الفاتح للدماء •

وترك السلطان مراد بغداد في السابع عشر من شباط ١٦٣٩ قاصداً الى تبريز • وخرج مع جيشه من باب الطلسم وأمر بإغلاقه فبنت فتحته • وبقي على حاله حتى القرن العشرين ولم يشرفه بالمرور منه أي سلطان آخر •

الجيبه چيه » وان التفريق بين الجند الامبراطوري لحماية المدينة والجند المحلي للاشتغال في الخارج مهم •

(٣٥) ان ما ذكره كريسي (ص ٢٥٦) في خبر « مذبحة في سكان المدينة » يقودنا الى غير الحقيقة • فان أكثر المراجع الاصلية تنص على أن أوامر الذبح كانت موجهة نحو الايرانيين مع أن غيرهم ربما كان قد تضرر بها •

الفصل الرابع القرن السابع عشر

خصائص التاريخ العراقي فى ١٦٣٩ - ١٧٠٤

ظل اسم بغداد قبله الانظار فى السياسة الامبراطورية منذ أن اغتصبها الصوباشي حتى استعادها السلطان مراد بتوفيقٍ عظيم . ثم عادت فحمل ذكرها وأصبح تاريخها ، فى القرون التى يبحث فيها هذا التاريخ ، ظاهر التشابه فى حوادثه ووقائعه . وفى كل مائة سنة كانت الوقائع العظيمة والحوادث الجسام ، التى كانت تجري فى النضال الواقع بين السلطان والشاه ، تعيند العراق الى الظهور فوق مسرح السياسة التركية . وقد حنت بعد استيلاء السلطان سليمان القانوني الاول فى ١٥٣٤ ، فترة سبعين سنة من الزمن يسودها الخمول والهدوء . ومنذ ١٦٣٩ الى زمن تحارب الايرانيين والأفغان والأفشار تقضت فترة أخرى طولها ثمانون سنة ، كان تاريخ العراق خلالها ساكناً ليس فيه ما يستحق الذكر . وممرت مدة ، بين آخر الحروب مع نادر شاه ونهاية القرن التاسع عشر ، والعراق لا يخرج من عزلته التاريخية فيحتل الموقع الاول فى الامبراطورية الا فى الربع الثاني من القرن حين اتجهت الانظار لاصلاحه كما أصلحت بقية أنحاء الامبراطورية . اما اولو الشخصيات البارزة الذين كانوا يشيرون الى أهم الادوار من هذه القصة فهم السلطان سليمان والصوباشي ومراد الرابع ونادر شاه وأحمد باشا وداود باشا وعلي رضا .

رأينا فى آخر ما ذكرنا ، ان بغداد قد احتلت ثانية . وفى أثناء المدة التى استغرقها الحملة كانت كل عين فى تركة وآلاف من العيون فى أوربة كلها ترمق من بعيد جيش السلطان متجهاً الى العراق . وبعد هذه المسيرة التاريخية بأربعين يوماً أحرز السلطان انتصاراً ميبناً . فرجع بعده الى عاصمة ملكه فاستقبلته استقبالاً رائعاً يشير الى ظفره العظيم . وقد ظل الصدر الاعظم فى بغداد بضعة

أسابيع بعده ليشرف على ترميم السور والابنية الحكومية ، ثم تبع السلطان الى العاصمة وترك البلاد وشأنها • ومنذ ذلك الحين حتى ستين سنة بقي تاريخ العراق لا يلمع بحوادث جسام ولا بشخصيات تاريخية شهيرة • ونحن لا يمكننا ان نبحث عن تاريخ هذه المدة الا بذكر بعض تفصيلات تاريخية فى سيرة حكام بغداد ، وفى تمرد القبائل وهجرتها ، وفى انفصال البصرة • غير ان عدم وجود خصم قوي أو عدم ظهور متمرد جبار يستدير الى نفسه الانظار فى هذا الدور جعل المدونات التاريخية شحيحة بتفصيل الاحوال •

وفى امكان المؤرخ العام ان يدرك ان هذا الدور لم يكن الا دوراً خاملاً أدى الى تثبيت تقاليد سوء الحكم التركي فى العراق • فأن اطراد الامور فى ديوان الباشا ، وشكل الحكومة وأسماءها ، والجيش المحلي والامبراطوري ، والطبقة البوروقراطية التركية القليلة الخاملة بتفكيرها وثقافتها التي كانت تمسك سكان الامور من أجلها وبواسطتها أصبحت كلها فى العراق شيئاً اعتيادياً بحيث لم يبق من يفكر فى نوع آخر من أنواع الحكم ، وذلك لبقاء مثل هذه الظواهر ثابتة غير متبدلة مدة سنين عديدة • وكانت هذه المدة هي التي مهدت للحكم التركي ان يمد جذوره ، وهو المؤيد بالتصديق الديني المدعوم بالسلفية المتأصلة • وكانت الحكومة الامبراطورية يومئذ تعتبر الولايات العراقية ممتلكات بعيدة غير مشمرة قد تكون فى بعض الاحيان منبعاً للانباء المزعجة • حتى ان فخر امتلاك بغداد قد صيره مرء الزمن شيئاً تافهاً ، لا سيما انه لم يكن هناك أي خطر ايراني • ولم تكن مشاكل الولاية الخاصة مجهولة عند أحد وهذه العصيانات المتكررة فى جنوبي العراق تذكر الناس بها • على أن عراق هذا العصر ، مع أحواله هذه بأجمعها ، أصبح أسهل حكماً من مصر وسورية ونصف ولايات آسية الصغرى • حتى انه لم يكن مقلقاً بقدر العاصمة نفسها التي كانت تتمخض بالغمف والشغب • ولم تفتأ باشويات العراق ومحاكمه العدلية تحكم بحسب المنفعة أو المحسوبية أو الرشوة •

وكان المقيم فى العراق يرى الاجيال يتلو بعضها بعضاً من غير خطة معينة للحكم ، لان مثله العليا لم يكن لها وجود • وكان الذي يؤيد الحكم الاخلاص الطنان للدين والدولة الذي كانت تستقي منه الحكومة سلطتها ، ولم تكن تدانيه فى الاهمية الثقافة ولا حسن النية ولا الخبرة فى الحكم • يرى ذلك كما كان

يرى الجوامع تؤسس من دون ان يرى فتح طرق ولا تأسيس مدارس ولا تشييد المستشفيات • وكان يرى كذلك ان الضرائب تزداد أو تعدل بلا قانون عام تجبى بموجبه • وكان يرى أيضا تعيين القضاة والضباط من دون أن يرى من يهيمن عليهم أو يراقبهم في أعمالهم • وكانت تحل مشكلة بعد أخرى من مشكلات العشائر بالعنف الشديد أو الاستسلام الناشئ عن الضعف • ولذلك لم يكن هناك من يجروء على درس مشكلة العراق الاساسية وهي مشكلة ادخال العشائر في حظيرة الدولة • وكانت هذه وامور كثيرة غيرها مثل نزاع الموظفين الكبار الذين يستندون الى القوة العسكرية ، والاصلاحات المالية والاجتماعية التي لم يقصد بها الا طبقة خاصة ، وشخصيات الحكام المختلفة المعينين بتأثير المؤثرات النفعية في استابول ، كلها من الظواهر التي كانت غير خافية على رعايا السلطان في العراق •

هذا وستقتصر فصول متأخرة من كتابنا على البحث في حكم العراق الطويل الذي حكمت به العراق أسرة انفصلت بحكمها تقريبا عن الامبراطورية نفسها • ونحن نعجب كيف لم يؤد سير الاحوال حسبما ذكر وما يأتي — من استبداد محمد الاحمد وبكر وعصيانهما في بلاد نائية متفككة — الى الانفصال التام أو العصيان • غير أن شيئا آخر غير الاحوال العامة المؤاتية في امكانه ان يؤدي الى نتيجة ما في التاريخ • فقد تكون الفرص مؤاتية على حقارتها أو تفاقتها ، ولا بد لاولي الشخصيات من اغتنامها دائما • فالابراج المائلة تبقى طويلا قبل سقوطها ، ويظل المريض يعارض من أجل الحياة ويقاوم الاوجاع قبل أن يموت • بمثل هذه العبر والاقوال المأثورة يمكننا تفسير ارتباط هذه البلاد بالامبراطورية مدة طويلة في عصر كانت فيه هذه الامبراطورية واهنة ضعيفة مضطربة نائية عن العراق موطن السكان الاجانب عنها الذين لا يقر لهم قرار ولا يخضعون لحكومة ، وكأنهم قد أجمعوا على منابذة تركية •

الخارطة القبائلية في القرن السابع عشر

حاولنا في صفحات مقدمة من الكتاب ان نراجع بايجاز جغرافية العراق في أيام الصفويين الاولى ، فبحثنا فيها بصورة عامة عن أحوال القبائل • على أن ذلك البحث لم يتوغل بالتفصيل الى الاسماء والامكنة • وفي الفترة الواقعة ما بين ذلك القرن ونهاية القرن السابع عشر حدث عدد عظيم من التبدلات في ديار القبائل

وتجمعها أو تفرعها وفي تشتتها واندماجها مما أدى لتعديل الخارطة القبائلية • فكم من فقير أو مجازف قد التفوا حول سيد أو حول صبي من أبناء الرؤساء فكونوا قبيلة تسمى باسمه • وربما زادت في عدد خيام هذه القبيلة والاحوال أو الحرب أو عقد الصلح أو قوة الشخصية أو كل هذه العوامل فأدت لتوسع القبيلة وانقسامها الى أقسام ينتمي كل منها الى ولد أو أخ من أبناء المؤسس الاول أو أخوته • وقد تتدخل الاساطير لتؤكد الاصل أو تقوم الفتن والاحقاد فتولد عداوات ومحالفات جديدة • وكانت المراعي الجديدة والمجاري المتغيرة وضغط المجاورين كلها من العوامل المؤدية الى النزوح والهجرة التي لم تكن عواقبها لتستقر وتكمل • ولذلك فقد يجري في موضع حلف يضم عناصر مختلفة من الهور والبادية والاراضي المزروعة ، وقد يفرق في موضع آخر انفصال طويل ، أو تصادم الشخصيات ، بين الفروع التي تمت الى أصل واحد أو اسم واحد • وقد تحمل اسم قحطان العظيم أو تميم جماعة من الرعاة ، أو قد تتكون قبيلة قوامها عشرة آلاف خيمة من وحدة كانت تتألف بالامس من قبائل عدة • وما كانت تمر سنة دون أن يتعدل خلالها انتشار القبائل أو تجمعها ، على انه مع ذلك كله كانت القبائل كلها غير مختلفة في جوهرها ومصالحها وعقليتها ، وكانت مدينتها وسياستها وقواتها واحدة ثابتة • وهذا هو الذي يسمح للمؤرخ ان يتغاضى عن الخوض في البحث عن مثل هذه التبدلات العديدة فضلاً عن سماح فقدان المصادر له • وما أشبه جسم القبائل بالجسم الحي الذي يبني أبداً ويهدم دوماً • وليس بوسعنا الا أن ندرس أمثال تلك العملية معينين الاسم والتاريخ للقليل من الخلايا التي لا حصر لها •

رأينا قبلاً كيف كان نفوذ ولاية الحوزة مطلقاً لا منازع له • الا ان قوة جديدة غيرها ظهرت للوجود في أواخر هذا القرن • فقد كان بنو كعب^١ من قبائل عربستان السفلى^٢ التي تزرع الرز وتربي الحيوانات • ومن المحتمل ان يكون ظهور هذه القبيلة قد سبقه تبدل في ديرتها ، وليس في الامكان الجزم بأن

(١) راجع لتاريخ بني كعب ما كتبه نيبور (الرحلة ، والتفصيل) ،

وكتابات راولينسن ، وكتاب لايارد (ولاية خوزستان) •

(٢) عربستان عند القدماء من وصاف البلدان « خوزستان » م ج • • •

موطنها الاول كان في شرق شط العرب أو غربه^٣ أو ان تابعيتها الاصلية كانت ايرانية أو تركية • على ان أقدم مقر لها عقيب ظهورها كان في قبان • وكان ضعف الوالي وظهور شخصية قوية في بني كعب قد أديا الى سرعة التوسع في نفوذهم • بينما كان الفريقان موجودين جنباً الى جنب عدة سنين •

وشهد الفرات الاسفل في أوائل القرن تكون اتحاد قبائلي قوي • فكانت القبائل السائدة في الغراف الجنوبي ، وهو النهر الرئيسي جنوبي السماوة ، وحوالي بحيرة الحمار ، بنو مالك والاجود وبنو سعيد • وكان مع هؤلاء وتحت سيطرتهم مئة من الفروع من الجمالة ومربي الجاموس • على ان هذه الجمهرة كلها لم يكن لها اسم عام ولا رابطة معنوية تربط بين أجزائها سوى تشابه الحال بين الجميع وقرب بعضهم من بعض • فنشأ عن قدوم شريف من أشراف مكة ملتجئاً من الحجاز ، وعن تحكيمه في النزاع الذي كان محتدماً بين الأجود وبني مالك ، وعن قتله فيما بعد وفرار بني مالك بابنه وهو طفل الى البادية ، وعن رجوعهم به بعد ان شب وكبر واصبح رئيسهم للقضاء على خصومهم ، من تاريخ كهذا بل اسطورة مثل هذه^٤ ظهرت اسرة آل شيب المالكة التي قدر لها ان تحكم مدة قرنين جمهرة القبائل المتحدة الآن المسماة بـ « المتفك » الاسم الشهير • وبوسع القبائل الاخرى في العراق ان تباهي هذه القبائل بأصل أنقى او بتمسك أشد في نظم البادية ، الا انها لا يمكنها ان تدانها في رهبتها لحكامها ، ولا في خضوعها لحكومة واحدة نشأت من بينها مدة طويلة ، وفي اشتهاها في العالم •

وفي السنين المتوسطة من القرن حدث جَيْشَان عشائري عظيم في الجزيرة الواقعة في غرب الفرات وهو هجرة القبائل التي يمكننا ان نذكرها بايجاز ، مع ان هجرتها جرت بصورة تدريجية واستغرقت مدة طويلة • فكانت أحوال البادية كأحوالها في جميع العصور • غير ان الذي يعرف حياة البادية اليسوم ويعلم ان الرئيس

(٣) قال القلقشندي في « نهاية الارب في معرفة أنساب العرب » ص ٣٢٩ ما صورته « بنو كعب بطن من عامر بن صعصعة والى بني كعب هذا العدد والعدة » فهذا يدل على أن موطنها كان في غربي شط العرب « م • ج » •

(٤) جمعت من المعلومات المحلية الماثورة ومن « مرآة الزوراء » •

الذي يبلغ عدد خيام اتباعه الالف لا يملك السجاد ، ويجلس على أرخص
الحصر ، وليس عنده من الوسائل سوى رحال الابل ، قد يعجب اذا قرأ ما كتبه
الرحالة تأثيريه من وصف البذخ الذي كان عند عدة من القبائل في هذا العهد •
وكان يلقب كل من رؤساء البادية الشهيرين بلقب الامير أو السلطان • وكانت
« السكجاوات المغطاء بقماش قرمزي مزركشة حواشيه بالحريز » والخدم
والخصيان ، « والعدد العظيم من الخيول الجميلة المسرجة بأحسن السروج » ،
ثم « الخيام المصنوعة من القماش القرمزي الغليظ المزين بالقياطين الغالية
الزاهية » ، كلها تدل على مقدار الثروة يومئذ بالنسبة لمقارها بين القبائل في
العهود المتأخرة • وكان الامراء العرب في الفرات الشمالي قد استوطنوا في
امكنتهم منذ أيام سليمان القانوني • وكانت في هذا الحين عانة ودير الزور
تابعين لهم • على ان أهم حادث في هذا القرن كان هجرة شمر • فلا يخفى ان
تاريخ العالم العربي هو تاريخ موجات بشرية متتالية تحركت من قلب الجزيرة ،
وان هذه الموجات هي السبب في وجود القبائل العربية في العراق • وعلى هذه
الشاكلة جرت هجرة قسم كبير من شمر في ١٦٤٠م (١٠٥٠ هـ) من نجد الى
الشمال ، وكان قائدهم الشيخ فارس •

وكان من السهل عليهم في أثناء هجرتهم ان يهددوا الحاميات القليلة في
البلدان الفراتية فيطلبوا المال منها • وقد خربت تدمر ، واخضعت القبائل
الصغيرة بسهولة • ثم استمرت الحرب مع الموالي الاقوياء مدة عشرين سنة •
وغدا المستولون سادة في المراعي الخصبة • ويروى في هذا الحادث ان المدافعين
عن أنفسهم - وهم الموالي - قد اترفوا أعظم عار في عرف البادية ألا وهو قتلهم
رسل أعدائهم الشمريين في خيمة الضيوف نفسها • فاتهى أمر الموالي ، بأن
تراجعوا الى الحدود السورية ، ولم يعودوا من القبائل السائدة • اما غزوة التي
لم تكن في بادئ الامر أشد من غيرها وقوفاً لمضادة الدم الجديد المتدفق من نجد
فقد استعادت عزتها وجمعت قواها فحفظت موقعها وهي تشن الغارات المراقبة على
العدو مدة قرن تقريباً • وقد وفقت في النتيجة للظفر ، ودفعت شمر عبر الفرات
الى الجزيرة • وما تزال الاساطير تروى في خيم الضيوف مخلدة الفتح الشمري
العظيم •

وكانت القبائل في سقي دجلة الوسطى والجنوبية تتحرك على الشاكلة
تفسيها الى مواطنها الحالية • وفي هذا القرن ورد في الروايات تأسيس قبيلة
البو محمد التي أسسها زائر جاء من ديرة أخرى • وفي هذا العصر أيضا ، أو
في حدوده ، تخصص حافظ - وهو حفيد لام الاصغر - وبراك سيده من سلالة
الحويزة (وهم بطن من ربيعة) فأسس قبيلة بني لام في أراضيها الحالية التي
احتقرت الزراعة فيها ، وخاصمت جيرانها اللريين ، ثم حصرت ديرة ربيعة في
مفرق الغراف عن دجلة •

وكان آخر مثال يدل على نمو القبائل وتبدل عالمها في هذا العصر تأسيس
سلالة كردية • وهذا التأسيس يفوق قابلية القبيلة الواحدة ، ويتعدى بنفوذه
حدود السهول العراقية • فقد سبق ان ذكرنا شيئا عن أسرة البيكات السورانيين
القديمة النبيلة في كردستان الجنوبية ، حيث كانت تنتسب هذه الاسرة الى
جمهرة قبائل المكزي قليلا ، الا انها كانت تمت بالصلة القريبة الى قبيلة بشدر •
وكانت بلادها في الاودية الواقعة الى شمالي كوي سنجق وشرقها • اما صلة
الاسم « بابان » بسوران وبشدر فغير واضحة • غير ان الواضح هو ان رجلا
اسمه احمد الفقيه (فقي أحمد) ظهر في أوائل القرن السابع عشر في بلاد البشدر
فحمل اسم بابان لاسرته ، وأورثه سلالته من بعده • وقد جمع حوله في أيام حياته أتباعا
كانوا ينهضون باظهاره حق الاظهار بين جيرانه • وقد ساعدت ابنه ماوند دعاواه
المختلفة في شرف أصله ، ومهدت له شخصيته ونجاحه توسيع نفوذه على
شهر بازار والاصقاع المجاورة • على ان المؤسس الحقيقي لمآثر أسرة بابان
ال عظيمة هو سليمان بك بن ماوند • فما حل النصف الثاني من القرن حتى كان
هو صاحب الشخصية البارزة الوحيدة في شهرزور • وكانت فرصة وجود والي
أردلان الضعيف المنهمك في اللذات قد مهدت توسيع حكمه • اذ استولى
سليمان بك (الذي شحذت أطماعه قصص طيش سنه وتفسخها ، وكان وهو في
أوديته النائية لا يعبأ بالسلطان ولا بالشاه) على أردلان في ١٦٩٤م (١١٠٦هـ)
واحلت عدة مناطق ، وقتل اثنين من الحكام المحليين • على ان قوة ، قيل انها
تعد ٤٠٠٠ مقاتل ، أرسلها الشاه في السنة الثانية لمساعدة الامير الاردلاني
تمكنت من دحره بعد ان خسرته ألوفاً من رجاله بين قتيل وأسير • فالتجأ

سليمان بك^٥ الى استانبول وفيها قبول بحفاوة بالغة ، واعطي سنجق بابان الذي ضم رسمياً الى پاشوية كركوك . وكان مقره الخاص في قرية قرهچولان . وقد جاء في أساطير أيامه حادثة تعرض جرت في أحمد كلوان واشتهرت طويلاً فيما بعد ، لان اثني عشر رجلاً - بحسبها - من أتباع البابانيين قضاوا على قوة من الايرانيين تبلغ عدتها آلافاً .

ووقع قسم كبير من ولايته بعد وفاته في أيدي الزنگة والقبائل الاخرى وترك قسم منها لابنائهم . فتنازع فيها هؤلاء وآل النزاع الى ان يتولى بكر بك بعد تيمور خان . على ان ذلك لم يحدث قبل ان تؤدي مشاحنات الابناء الى حلول سنوات شعر الجميع خلالها بصرامة الحكم التركي الذي جاء به باشا شهرزور . ثم تلاشى النفوذ التركي هذا ، فظهر بكر وأصبح نفوذ آل بابان سائداً بين ديالى (سيروان) والزاب الصغير ، في جميع البلاد الهضابية الكائنة في شرق كفري - آلتون كوپري . وبذا صار بوسع البك الباباني أن يضاهي حكام أردلان ، وان يرحب بقبيلة الجاف ويحميها معتبراً أياها قبيلة تابعة له عندما هاجرت من جوارنرود الى منطقته . وقد نمت هذه الدولة ، التي كان يتولاها البك الحاكم ، بازدياد ما كان عنده من قوة ومنعة ، لاسيما وقد كانت هناك بطبيعة الحال علائم تدل على ما كان يتصف به أحفاده من حضارة متفوقة الى جانب الاخلاص الملمهم وقوته النادرة .

(٥) ذكرت عدة من المدونات التاريخية ان اندحار سليمان بك (أي « بابا سليمان ») كان بتأثير القوات التركية والایرانية معاً . وذكرت مدونات أخرى ان الاتراك اكتفوا بارسال « ايلچي » للامير الكردي يلح عليه بلزوم التعجيل في عقد الصلح مع الايرانيين قبل أن يستفحل أمرهم فيتوغلوا في الاراضي العثمانية .

وربما كان تعديده الى داخل ايران قد حدث بعد ذلك في سنة ١٦٩٤ م ، وكان اندحاره على أيدي الايرانيين سنة ١٦٩٥ م (١١٠٧ هـ) . ومن المحتمل ان حملات الترك عليه كانت بعد هذا الحين أي في ١٦٩٨ م و ١٦٩٩ م وكان سببها بلا شك خوف الاتراك من استفحال أمره وعدم احترام جيرانه الترك . فعين والي بغداد « سر عسكر » وأخذ معه باشا ديار بكر وحلب .

وان مجرى هذه الحوادث غير واضح غير ان نجومه الاول وتحديه لايران وتأديبها له ، واعتراف الاتراك به ، وظهور نفوذه بعد ذلك ، واضح تماماً .

كان الهم الأول لحسن باشا الصغير ، عند تعيينه حاكماً لبغداد بعد سقوطها في يد مراد ، ان يرمم العتبات والابنية الحكومية ، وان يجتذب الى بغداد السكان الذين التجأوا فزعاً الى القبائل ، وان يعتني ببساتين القصر ومرافق الانس فيه . وكان الباشا ألباني الأصل مشهوراً بالشجاعة . غير ان الصدر الاعظم قره مصطفى ، عندما ترك بغداد في أوائل مايس ، كان يرى فيه غير الشخصية القاسية التي تحتاج اليها مثل هذه الولاية . فحل محله في الحكم درويش محمد ، فلم يستحسن اندفاعه ولا قوته حتى في الامور التي استحسن فيها الطمأنينة الناشئة عن تأديباته العاجلة . وكان هذا الرجل عجيباً في طوله وقامته ، كما كان شارباً العظيمان متدلين الى ما يقارب المحزم . وكان اشباعه لرغبته في الترف باختلاس الاموال أقل من اشباعه لها بالمضاربة في بيع الحبوب والحيوانات بمقياس واسع ، وكان منصبه كحاكم يساعده في الحصول على أرباح طائلة بهذه الطريقة . وقد حدث في أيامه الاولى ان قام منها شيخ الخزاعل في منطقة السماوة فنشسر الفوضوية في كل فيج الى ما وراء الجزائر وذلك بسلطة الشاه التي كان يدعي بها . فبعث له درويش محمد كهيته علي أغا ، ففرق جموعه من الثائرين معه بسهولة وقتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم بعث الى بغداد بستمائة رأس من رؤوسهم . ونحن غير مخطئين اذا تصورنا ان حوادث مثل هذه كانت عديدة خلال السنوات الثلاث التي قضاها درويش محمد في الباشوية ، وان الامن كان مستتباً أحسن الاستتباب نسبياً .

وتلاه في الحكم حسن باشا نفسه فحكم مرة ثانية ، وهو المتوثب المتحمس والمحبوب الرحيم . فحكم سنتين لم تضطرب البلاد خلالهما ولم يحدث فيهما ما يستحق الذكر ، سوى زيارة امام قلي ملك تركستان لبغداد وهو في طريقه الى الحج في مكة . وقد عززت مراكز الدفاع في قلعة بغداد بأبراج أكثر منعة . وأعقب حسن الصغير حكام لا يعرف عنهم شيء الا نبذ عن صفاتهم وسجايهم .

(٦) راجعنا في سبعة أثمان معلوماتنا في هذا البحث غولشن ، ومن النقاط ما راجعنا فيه كتاب تافيرييه واوليا أفندي وغودينهيو وثيفنو (الرابع طبعة ١٧٢٧ م) وسور دوفال ، وذكرت مراجع البصرة على حدة .

فقد حكم حسين باشا ، وهو رفيق السلطان مراد المرح المسمى « المجنون » لشذوذ طباعه ، مدة خمسة أشهر . فكان يعرفه من جاء من بعده بأنه مشيد^٧ جامع قمرية ، كما عرفه معاصروه بجولاته المليية متكرراً في الشوارع والازقة ، ومتجسساً على كل عابث ومخالف ليعاقبه هو بنفسه . وبذا انتشر الرعب في الخارج ، ولكنه كان رعباً مؤدياً الى سلامة الاسواق والجوامع المكتظة . وكان خلفه محمد أغا رابط الجأش من أغوات الانكشاريين ، فحكم سنة واحدة . وقوبل تحمس خلفه موسى باشا ، المعين في ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) والذي حكم سنة واحدة ، وعدله بالثناء الحسن والاستحسان . وسوف نبحت عن تاريخ الصدام الذي جرى له مع أمير البصرة فيما بعد .

وكان ابراهيم باشا ، المعين في خريف ١٦٤٦ م (١٠٥٦ هـ) ، جذاباً بصباه وشكله الا انه كان مغروراً عنيداً ، فسببت له سجاياه هذه الفتن والقلابل . إذ دب الخلاف بينه وبين أغوات الحامية ، وقربت الأزمة عندما انتشر نبأ وفاة صالح باشا الصدر الاعظم الذي كان يستند اليه باشا بغداد هذا . فلم يصدق ابراهيم بالاشاعة ، غير انه صالح الانكشاريين وواصل سيرته الهادئة . وظهر على حين غرة وكيل خلفه ، أي متسلم أو مندوب موسى باشا السمين^٨ . غير ان وحدات الجيش المحلي تجاهلت هذا العزل وأيدت الباشا الذي سجلهم في الخدمة ودفع لهم الارزاق . ورجح الانكشاريون الامبراطوريون ان يتبعوا نيات سيدهم السلطان ويمنعوا وقوع النزاع بين الخصمين في بغداد . فالتقوا في الميدان . وارسل ابراهيم ، وقد طلبوا حضوره ، نائباً عنه غير انهم أصروا على وجوب حضوره بنفسه . فأذعن الابله الاخرق لهم وأجاب طلبهم ، فأحاطوا به واعتقلوه . الا أن القوات المحلية بقيت تأبى الاعتراف بخضه ، وبقي الحال معقداً ثلاثة أشهر يتخللها عراك في الشوارع وفوضوية متشعبة . فوصلت أخبار هذه الاحوال الى الباب العالي ، فكانت حجة مقربة لناوئي ابراهيم الاقوياء للقضاء

(٧) الصحيح انه مجدد بنائه لان هذا الجامع بل المسجد كان من مباني الدولة العباسية في أوائل القرن السابع للهجرة « م . ج » .

(٨) استقيت القصة التالية من كولشن ، ويؤيدها بصورة عامة الفون هامر (الكتاب العاشر ص ١٤٠) .

عليه فأوفد رسول سلطاني الى بغداد يحمل حكم الاعداء * فأعدم ابراهيم *
 ووضع نائب في منصبه حتى يعمل الباشا الحديث * وكان موسى باشا ، وهو من
 خصيان البلاط الامناء ، قد اشتهر بالبدانة المفرطة * ولما كان غير قادر على الحركة
 وعرضة لمزاج حاد أحاط نفسه بأحط أنواع المشاورين * وكان يحكم بالاعداء
 - على ما جاء في المعلومات نصف الصحيحة - على اناس زعم انهم اعوان ابراهيم *
 كما أخرج جمعاً غفيراً من المدينة * وهرب الكثيرون ، من مجرم وبريء ، الى
 منفى وبيل في ايران مخافة أن يصيهم غضب الحاكم العصبي السمين * واتخذت
 الخطوات في الفترة نفسها لزيادة الحماية في بغداد ، لأنها لم تبرهن على كفاءتها
 في المنازعات التي حصلت أخيراً ، لا من حيث النوعية ولا العدد * فتسلم
 باشوات ثلاثة من الولايات المجاورة الاوامر ببعث قسم من قواتهم للعراق * ومما
 بقي طويلاً في ذاكرات الناس في بغداد بهذا العهد سفارة محمد قلي سفير الشام
 الذي قدم في ١٦٤٨ م (١٠٥٨ هـ) ومعه عدة فيلة هدية من سيده الى السلطان *
 ثم عزل الباشا السمين في الايام الاولى من سنة ١٦٤٩ م (١٠٥٦ هـ) عندما
 تسلم خصمه القديم مراد باشا منصب الصدارة العظمى *

وتولى الباشوية من بعده لسنة واحدة أحمد باشا وكان ورعاً محبوباً *
 يلقب « الملاك » * فقد جاء الى بغداد من ديار بكر ، وتركها بعدئذ ليصبح صدرأ
 أعظم * وصار بوسعه أن يقوم وهو في منصبه الاخير بالخدمات الجلى للعراق *
 فقد علم ، عندما كان حاكماً في الولاية ، خطأ طريقة الضرائب وسوء الاستعمال
 في تطبيقها * فأمر وهو الصدر الأعظم بوجوب تطبيق طريقة الجباية المقطوعة
 « الضمان » ، واعطاء الضرائب بالمعاملة والالتزام * وكانت النتيجة الاولى لذلك
 ازدياد الواردات فاستفادت الخزينة الامبراطورية منها فوائد عظيمة * غير ان
 جمع هذه الواردات - على عكس ما توخاه الوزير من رحمة - أدى الى ظلم
 أشد مما قبله كان ينزله في الناس مؤون من الجباة العاسفين الذين كان واجباً
 على السلطة الملكية تأييدهم * وقد حكم بغداد لاقل من سنة واحدة مالك احمد
 (١٦٤٩) وكان كاتبه المدعو غني محمد حقوقياً وحاسباً ذائع الصيت *

وقصر أمد حكم أرسلان باشا الحازم الممتد ستة أشهر بوفاته بداء المغص *
 فدفن تحت القبة في تربة أبي حنيفة * ثم تلاه في الحكم شاطر حسين باشا ،

فكان شبيهاً بمالك أحمد شخصية وسلوكاً • وقد جلبت له عنايته بالأمور الدينية وبالاعمال الخيرية احترام الجميع ، وكانت شخصيته المؤنسة حديث الناس في الاندية • فمات في الباشوية وهو في ريعان شبابه ، ودفن في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني • وكان العرف ، في كل حادثة تتضمن موتاً فجائياً ، ان ينتخب « متسلم » من ديوان الباشوية ليقوم باعباء الحكومة حتى يصل الخلف الحديث بعد شهرين أو ثلاثة • وعين في صيف ١٦٥١ م (١٠٦١ هـ) قره مصطفى باشا • فقدّر له ان يتقلد الباشوية ثلاث مرات لما كان يتصف به من جاذبية شخصية وتواضع وثقافة وذكاء • فألغى خلال تقلده الباشوية للمرة الاولى - وقد دامت سنتين - التدابير المالية السيئة التي أمر باتباعها مالك أحمد •

وكان مرتضى باشا شخصية بارزة من شخصيات هذا القرن • فقد عين لبغداد في ١٦٥٣ م (١٠٦٣ هـ) بعد ان حكم ولاية دمشق وولاية ارضروم • وكان منبع شخصيته خياله الحي • فكان طوال مسدة حكمه صديق الفقراء والجهال بتحمل مفرط وعطف حي ، لكن مزاجه العنيف في أوقات أخرى لم يسلم منه البشر ولا الحيوان • وكان يشبع ولعه بالبذخ والتجمل النزق ، غير المضحوب بالاتزان والوازع الاخلاقي ، باقامة الاحتفالات الدينية ، وتوزيع العطايا بصورة جذابة للنفوس ، وبعرض الوان مخزية من الفحشاء • الا أن أمن الولاية كان مستتباً • فقد أضاع في أيامه الموظفون الكبار حياتهم لادنى شك يشك فيهم أو أقل ربة يرتابها بهم ، وكان يعقب أقل تلويح بالفتنة بطش وتمثيل • وكان يحدث في عهده من جهة أخرى ان كل رجل من قبائل البادية كان بوسعه أن يدخل القصر من بين الحراس النيام فيقلق راحة الباشا بقصة مهيجة لخطأ طفيف ، فيجد منه اهتمام الاب الشفيق • ونرجى البحث عن حملته على البصرة وتوفقه فيها بعض التوفيق الى صفحات غير هذه • وبعد عودته منها وجد الفوضىّة قد ضربت أطنابها في المدينة وفي جميع أواسط العراق • وكان في نيته ان يجدد الحملة على البصرة ، غير ان الباب العالي لم يؤيده في ذلك فبقي في بغداد يقضي أيامه مفعمة بالكآبة والغم • وبعد سنتين نحي عن

(٩) يذكر غولشن ان حكمه انتهى في ١٨ تموز ١٦٥٥ م (١٤ رمضان ١٠٦٥ هـ) • غير ان اوليا أفندي (ص ٣٩٢ من الجزء الرابع الطبعة ١٣١٤) وصل بغداد في ربيع الاول ١٠٦٦ فوجد مرتضى باشا فيها •

وكان محمد باشا الأبيض ، الذي حكم بغداد سنة وأربعة أشهر ، مقداماً رياضياً ، لكنه كان عيلاً في صحته . وأتاحت له فتنه وقعت بين الجيوش المحلية ان يلقي درساً مفيداً في الطاعة . فقد استدرج بخدعة الخيث الفاسق رأس الفتنة الذي قاد هؤلاء الى الحضور بين يدي الباشا ، فلم يبق رأسه على مقيله دقيقة واحدة كاملة . غير ان أحلافه اجتمعوا للانتقام له والثأر به . ففكر الباشا ، وهو الباشا الابله ، ان يفرقهم بظهوره بمظهر غير الخائف . فخرج يوم الجمعة على حصان له ومر في الشوارع الى الجامع ، ثم وصل الى الفضوة التي كان المتمردون مجتمعين فيها . فرماه الاوغاد الذين كانوا كامنين في المقاهي بالحجارة ورموا حاشيته معه . فقتل جنديان من اللاوند ، وقمعت الفتنة بسهولة . وعلى هذا نال الباشا بشجاعته الصريحة لقب « آق » أي أبيض . وهناك حادث آخر يذكر عن هذا العهد نفسه فيدل بايضاح على حالة الموظفين الاتراك ، وهو قدوم آغا حديث من أغوات الانكشاريين الى بغداد ووصول خطاب من الباب العالي بعده يأمر باعدامه . فنفذ الحكم في الحال ، واعد الآغا السابق .

وهنا يمكننا ان نقطع البحث عن الباشوات المتعاقبين لننظر نظرات أخرى الى عاصمة ولايتهم . فان عدد الاوربيين الذين مروا ببغداد قد كثر ، وترك قليل منهم مذكراته لزيارته هذه . فقد وجد مسافرون افرنسيون فيها سنة ١٦٤٩ م و ١٦٥٢ م و ١٦٧١ م و ١٦٩٥ م ، كما وجد النديم التركي اوليا أفندي سنة ١٦٦٦ وجزويني برتغالي في ١٦٦٣ . ولم ينعدم وجود جماعة من الافاقين « المشردين » الاوربيين بين الاغوات أنفسهم . وجيء الى اسقفية بابل الكاثوليكية الافرنسية المؤسسة في ١٦٤٨ م بالرهبان ، وكان أيضا واحد أو اثنان من تجار الولايات الايطالية يقيمون في بغداد ويترددان الى البصرة وحلب . وغدت مراكز دفاع المدينة في سني القرن الوسطى هذه بحالة خراب مألوفة في زمن السلم . كما صارت المدافع ، الصغيرة والقديمة ، على كثرتها غير مخيفة . وبقي الجانب

الايمن غير محصن • وكانت الحامية في القلعة ، كما وصفها سائح^١ لبق :

« متألفة من ثلاثمائة انكشاري وقائدهم الاغا • ويحكم المدينة باشا يكون غالباً ذا درجة وزير • وداره على جهة النهر ، ولها منظر جميل • وفي تصرفه في أي وقت كان ستمائة أو سبعمائة خيال • وهناك أيضا أغا يقود ستمائة أو سبعمائة سباهي • وعندهم ما عدا هذه صنف من الخيالة يسمى « جنكولي » أي رجال الشجاعة يقودهم أغوان اثنان • وفي المدينة والبلدان المجاورة بحسب العادة ثلاثة آلاف من هؤلاء • وتعهدهم مفاتيح أبواب المدينة وباب الجسر الى أغا آخر في امرته مائتان من الانكشاريين • وهناك أيضا ستمائة من الرجال الذين لهم اغا خاص بهم ، وحوالي الستين مدفعا كان يترأسهم في ذلك الوقت (١٦٥٢ م) (١٠٦٣ هـ) ففي مختص كان يدعى السنيور ميكائيل ، وكان يعد تركيا على كونه مولوداً في كاندي • وكان قد وضع نفسه في خدمة السنيور الكبير عندما ذهب لحصار بغداد في سنة ١٦٣٨ م (١٠٤٨ هـ) « • • • • اما حكومة بغداد المدنية فليس فيها غير قاض يقضي كل الامور ويتوكل حتى عن المفتي ، مع دفتر دار يتسلم واردات السنيور الكبير • ويوجد فيها خمسة جوامع اثنان منها حسنا العمارة مزدانان بالقباب المغطاة بالآجر^١ المصقول بشتى ألوانه • وهناك أيضاً عشرة خانات كلها غير عامرة الا ان اثنين منها كانا أحسن من سائرهما • والمدينة من حيث الحكم العام غير عامرة خالية من مظاهر الجمال عدا الاسواق المسقفة بالطوق ، ولولا ذلك ما أمكن التجار أن يتحملوا الحرارة • وهذه يجب ان ترش أيضاً ثلاث مرات أو أربعاً في اليوم ، ويؤجر لذلك جماعات من الفقراء تدفع لهم الاجرة من الحساب العام • والمدينة ملأى بالتجارة ، وأقل من امتلائها منها في عهد ملك ايران ، لأن الترك عندما تسلموها قتلوا كثيراً من أغنياء التجار • ومع هذا ففي المدينة مجتمع عظيم لناس من جميع الجهات ، ولا أدري هل ذلك من أجل التجارة أو للتدين • وفيما عدا هذا أنه على كل من يرغب في الحج الى مكة على طريق البر أن يمر ببغداد ففيها يجبر كل حاج على دفع أربعة قروش الى الباشا • وكان هذا من أهم أسباب الاصطدام مع الشاه • على ان معظم المسافرين

(١٠) تأثيرنييه ص ٨٤ من الطبعة المشار اليها آنفاً •

(١١) لعله أراد الكاشي « م • ج » •

والتجار كانوا لا يعندين عليهم الا قليلا ، كما ان منهم من كان يشي على أساليب رجال الكمرك المتقنة •

وقد عاش النصارى واليهود في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان منه في الولايات الاخرى • فان بغداد كانت عالمية (والمذاهب الاسلامية نفسها مفترقة جداً) الى حد انها لا تشجع شيوع التعصب • يضاف الى ذلك ان هذه الاقليات كانت تسلك سلوكاً حسناً ، كما كان الناس قد الفوهم نظراً لطول اقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم بباقي السكان • الا انه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم كما كان الامر في دمشق والقاهرة • فربما كان من المحذور عليهم أن يمتلكوا الرقيق الابيض أو يركبوا الخيل ، لأن حصتهم من هذه الاصناف كانت العبيد والزواج والحميز • على ان التحقير الاعظم ، الذى كان يقضي بعدم الركوب مطلقاً أو بالنزول عند مرور سيد من السادة ، كان لا يؤتى الا قليلا •

وكانت الطوائف النصرانية هي نفسها كما وجدت فيما بعد • فقد كان للنسطوريين كنيسة خاصة بهم وكانت « الأخويات » الدينية ممثلة بالكبوشيين والكرملين • ولم يتدخل الاتراك فى تردهم الى الكنيسة ولا في أقامتهم للشعائر النصرانية بأكثر من فرض رسم للدخول عند ذهابهم لكنائسهم ، أو أن يتدخلوا مضطرين في شراء أطفالهم عبيداً أرقاء عندما كانت نفقات مأتم كبير تفقر عائلة ما لهذا الحد من الافقار • على ان أثقل حمل كان يثقل كاهلهم – ويشترك في ذلك في الحقيقة القس مع المسلم العامي والزائر الإيراني مع الراعي أو الحمال – هو التجاؤم الى استعطاف الحكام العابثين الجهال الذين كانوا يلتهبون بحب المال وبالتعصب الديني تجاه الاقليات الضعيفة الغنية •

وجاء بعد محمد الابيض محمد باشا الخاصكي في أواخر ١٦٥٦م (١٦٠٧ هـ) بعد أن تولى حكومة مصر وحكومة دمشق • ولم يغط سخاؤه بلاهته الصبوية^{١٢} التي كانت تظهر فيه في تصريف الامور ، ولا الاساليب البالية وحب الابهة • وعلى هذا سرعان ما انحل أمر الضبط بين الجيوش المحلية وتسربت الخمرة والنساء الى الثكنات العسكرية • وشبت في خريف ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ثورة

(١٢) الصبوية منسوبة الى « الصبي » •

عشائرية في منطقة الجزائر. فاقضى ذلك ارسال رتل من الجيش للتأديب • غير ان الفتنة نشبت بين أفراد قبل الوصول الى الجهة التي اتجه اليها ، فهب الجنود القدماء لقمعها واعادة الضبط بين الافراد فلم يفلحوا في مسعاهم وماتوا شهداء واجبههم • فترك أمر الحملة وتشتت الجيش ورجع الى بغداد • اما خاصكي محمد فقد أزعجته أنباء ذلك ، ودعا كبار الاغوات من انكشاريين الذين كان جل تعويله عليهم • فقرروا أن يسدوا أبواب المدينة في وجه الفلول الراجعة حتى يسلموا اليهم رؤوس الفتنة • فأغلقت الابواب ثلاثة أيام وخيم المتمردون في أثنائها في الخارج وما كادت الخطة تنجح حتى حدث ما نقضها من أساسها • فقد هيج المتدمرون من الانكشاريين أنفسهم خلسة في ليلة ظلماء جميع أحلافهم ، وأعدوا قوتهم فكانوا على استعداد عند الفجر فاقنحهم السراي وطلب الثوار ثلاثة من الموظفين الكبار في مقابل انسحابهم • فقبض على أحد هؤلاء السيئي الطوابع واعدم في أول يوم جرت فيه معارك الشوارع • وصرخوا مطالبين بدم الثاني ، وهو رجل بريء تماماً ، في اليوم الثاني • فلم يستطع الباشا تسليمه ولا حمايته ، فطلب اليهم أن يفتشوا عنه بأنفسهم • فوجد وذبح في الوقت الذي تعالى فيه صوت المؤذنين من كل مأذنة يدعون فيه الناس للصلاة • أما الفريسة البشرية الثالثة المأمول افتراسها فقد فر من بغداد والتجأ الى العشائر ، فهب الرعاع بيته مع بيوت كثيرة أخرى •

إلا أن الشدة قد انتهت واستطاع كبار الانكشاريين ، الذين خابوا في الحيلولة دون حدوث التمرد أولاً ، تهدئة الثورة في هذه المرة • وكان الباشا قد فر الى خارج المدينة • كما كانت مطالب العصاة الاولى قد وقعت بأيديهم • فتجههم لهم الرأي العام • ونظم أغوات الانكشاريين استعراضاً للقوة ، فرجع الكل الى مراكزهم وكونوا وحدات مخلصة • أما الجيش المحلي ، الذي أصبح الآن متسوقاً للانضمام الى الانكشاريين في العرض فقد رفض وطرد أفراد من ساحة العرض • وأما الباشا في الخارج فقد خف الى بغداد عند سماعه بتحسين الحال من الكاظمية ، وكتب بلهجة شديدة الى الانكشاريين الذين أصبحوا الآن من المخلصين بتسليم كبار المحرضين • فسلموهم أخيراً فأعدم أكثرهم اعداماً مستحقاً وعوقب الآخرون بقطع الرواتب وبحرمانهم الامتيازات • فانتهى بذلك دور تعس

بعد أن دام أربعين يوماً •

وكانت حاكمية خاصكي محمد تذكر بحوادث أخرى أقل أهمية من حوادث سوء الحكم • فقد مرت من بغداد قافلة حسين آغا سفير السلطان الى البلاط المغولي في الهند • وشيع رسول إيراني ، بعثه الشاه عباس الثاني مع هدايا نفيسة الى استانبول ، عند مروره بالعراق • وعاد اسماعيل آغا بعد ان رد الزيارة الى أصفهان بسفارة ملكية ، ثم مات في بغداد • وعرفت سنة ١٦٥٦ م (١٠٦٧ هـ) بالفيضانات • فانتشرت المياه كالبحر في سهول العراق ، وخربت ضفاف الجداول القليلة وملاؤها بالغرين والتفن ، ثم جرفت منازل القصب والطين بأجمعها • كما تصدع سور المدينة تصدعاً عظيماً عندما امتلأ الخندق المحيط به ماء وتسرب الماء الى أسسه • فلم يدخر الباشا في ذلك مالا ولا جهداً • فعزى الفضل اليه مدة طويلة من بعده في اصلاح ابراج السور وانشاء المسالك المتقنة على طول الطريق الموحلة • ولأجل ترميم مواقع الدفاع في بغداد - وقد دل التاريخ العاصف على عدم امكان بقائها من دونها بالنسبة للمدن الاخرى - أصدرت أوامر السلطان الى باشوات الموصل وديار بكر وكركوك بارسال القطعات • فبقيت مخيمات هؤلاء تحيط بالمدينة حتى أمروا بالرجوع على وجه السرعة لمحاربة وزير الاناضول السارق اباطة حسن • وكان خاصكي محمد ، وهو المتدين من الطراز القديم ، قد بعث بالذهب الى المدينة لتحسين حالة القبة ، ثم أضاف منارة الى مشهد النجف ، وقبول ببناء أعظم عندما هدم كنيسة نصارى ليشيد في موقعها جامعاً^{١٣} • وانتهى حكمه الممتد لثلاث سنين في منتصف صيف ١٦٥٩ م (١٠٧٠ هـ) • وتلاه مرتضى باشا الذي تسلم حاكمية بغداد ثانية •

وكان مرتضى ، منذ أن ترك بغداد ، قد أبلى بلاء حسناً في قتال الثائر أباطة حسن • أما الآن فقد قدر بغداد بتفضيله الخدمة فيها عوداً على بدء على خدمته في ديار بكر ، وقبل حكومتها على شروط معلومة وهي : إعادة حفر الدجيل الذي تراكم فيه الغرين ، وجمع الواردات الرئيسية لخزانة الدولة ، والارسال

(١٣) يعني بذلك « جامع الخاصكي » المعروف اليوم ببغداد ولا نشك في أن ارض الجامع هذا كانت من دار الامامة العباسية ومباعدة الخلافة الهاشمية - بحسب علم الخطط - والقديم على قدمه « م • ج » •

بمأتي كيس من الذهب سنوياً الى استانبول مع كمية من البارود • فبادر وهو في مخيم سلفه خارج بغداد ، الى فحص حسابات الايالة • وأعلن دين الحكومة الباقي في ذمة محمد خاصكي فكان ستمائة كيس ، فصادقت استانبول على المبلغ • غير ان تضرعات المديون خفضت ذلك الى خمسمائة كيس ، لكن مناوئة الصدر الاعظم محمد كوبريلي له حالت دون التماذي في التنزيل • وبعد أن دفع شيئاً من الحساب أولم له خلفه وليمة ملكية • ثم انصرف مرتضى للقيام بواجبه الثاني وهو تطهير الدجيل • فأنجزه بالعمل المنظم خلال ثلاثة أشهر • وتلت ذلك اصلاحات مالية مهمة • فقد شطبت بعض الهبات الحكومية المقطوعة والقيت العائدات شبه الرسمية التي كان يتقاضاها موظفو المالية علاوة على رواتبهم • وبعد ذلك اجريت الترتيبات الثابتة لتلافي مسؤولية بغداد الجديدة نحو العرش ، وهي دفع الجراية السنوية الى الخزانة الامبراطورية مع مقدار من البارود • غير انه لم يجمع من الديون المعلقة الا القليل ، لان تفسيراً بارعاً للتقويم أظهر عدم وجود كثير من الدين^{١٤} • وأمن الباشا على مركزه هو بالهدايا الوفيرة للسلطان في استانبول •

وكان حكم هذا الوالي الشاذ محموداً لتوطيده دعائم الامن باخماده العاجل للحركات القبائلية ، وبطوافه الليلي في انحاء عاصمته بين حين وآخر • على أن هذا الحكم كان ممقوتاً بسبب التشدد الذي كان يقوم به جباة الضرائب ، والفقر العام الناشئ من ارتفاع الاسعار ، والتفسخ الاخلاقي الذي كانت أعماله هو خير مشجع له • وقد فاقت ثروته ومظهره كل شيء يتذكره الاحياء • فان عدد حرسه الخاص وعددهم كان يذكر الشعب الساذج بجيوش الفاتحين الشهيرين • وبقي مأثوراً ادعائوه بعلم الغيب ، والحوادث التي كانت تؤيد ذلك ، وظلت تتناقله الافواه مدة طويلة • وبعد سنين ثلاث نقل في ١٦٦٢ م (١٠٧٣ هـ) الى كريت • ومن المحتمل ان ذلك كان سبباً في تأثره نفسياً ، ففكر في ان ولايته الصغيرة الجديدة كانت بمثابة فتح يصطادونه به ، ففر ملتجئاً الى الاكراد الجبلين • ولكن

(١٤) يقول گولشن ان ذلك تم عن طريق الفرق بين التقويم القمري الاسلامي والتقويم الشمسي الروماني - اليوناني ، أما كيفية تدبير ذلك فليست معروفة عند المؤلف •

صادفه التوقيف بدلاً من أن يجد هناك ملجأً يحمي به • وبأوامر من السلطان
 سجنه والي ديار بكر ثم نفذ حكم الاعدام فيه ، ففضى بعد ان كان الحاكم المهيب •
 وانتقي خلفه على بغداد انتقاءً جيداً ، فقد كان جندياً محترماً^{١٥} خدم فيها
 مدة جيل وهو رئيس من رؤساء الجيش الانكشاري • وقد تضاعفت قيمة حكومته
 الحازمة الهادئة بعد الاضطراب الذي كان سائداً على عهد مرتضى • ووجد منه
 المفكرون والمنتقمون فتوراً وابتعاداً • لكن الفلاحين وعامة الشعب استحسنوا منه
 الغاء للرسوم البغيضة ورفع امتيازات الموظفين • ومع اعتداله وثباته في الحكم ،
 وهو رجل مسن ، كان هو نفسه من مدمني الخمرة ، وعرضة لاستشطات نفسية
 وحشية • وقد حكم ما يقارب الستين ، وكان الفرق بيناً من جميع الوجوه بينه
 وبين خلفه وهو شاب شرس عديم البصيرة • فقد بقي عقلاء بغداد مدة ستة أشهر
 ينفضون رؤوسهم بسبب مشاوريه ولهو وجشعه الذي لا رحمة فيه • وفي
 الاخير أزال الموت مصطفى باشا بدء المغص غير مأسوف عليه ، ودفن في صحن
 الشيخ عبدالقادر •

ثم جاء قره مصطفى باشا لهذا المنصب ثانية ، بعد ان قضى دهرأ كانت سيرته
 فيه سيرة المجازف الذي يصيه التقدير والخسران ، وتناوب عليه الهزيمة
 والرفعة ، وهذا هو الامر الذي أوصله الى منصبه هذا في العراق الذي سيحكم
 فيه مرة ثالثة أيضاً • وتردد ذكرى السنين المتأخرة ، من باشويته في هذه المرة ،
 الافراح المسرف فيها المقامة في يوم ختان ابنه • وجاءت الستان اللتان تقلد
 خلالها ابراهيم باشا الطويل زمام الحكم بحملة أخرى على البصرة سوف يذكر
 الكثير منها في بحث آخر ، وانتهت بتعيين قره مصطفى مرة ثالثة • وفي هذا
 العهد أيضاً تملأ أخبار القلاقل في جنوبي العراق التاريخ الذي لا يحفظ غيرها
 من الاخبار على طول العهد الممتد أربع سنين • ثم مات في البصرة بعد سنة •
 وكان الحاكم الذي جاء بعده ، حسين ، قد تورط في المشكلات الناشئة عن العداء
 المنعصي بين كبير ملازميه وكبير المزمي قره مصطفى • وهذه وحدها مع أعمال
 خيرية وتحسينات يسيرة أخرى ، قد سجلت في اخبار عهده • فان عدة جوامع
 وسوقاً واحدة بنيت أو رمت بايعاز منه • ثم أصلحت التخريبات التي سببها

الفيضان في الاعظمية بأشرافه وبالمبالغ المرسل بها من استانبول • وقد تقلد
الپاشوية من ١٦٧١ م (١٨٠٢ هـ) الى ١٦٧٤ م (١٠٨٥ هـ) •

وكان سقوطه لحد ما نتيجة الاخطاء التي ارتكبها الموظفون السدين كان
يعتمد عليهم اعتماداً أعمى ، والرعب الخاطيء الذي دب في استانبول خاصة •
فقد تفتت شائعة بصورة مفاجئة - قد يكون سببها اعتداءات اللر على الحدود
التركية - هي أن خطراً جديداً أصبح يهدد بغداد • وكان ذلك كافياً لتجديد
الفوضوية في حمايات العراق ، وحافراً لاولي الامر في أوربة للتعجيل بإيفاد
أغا مجرب من أغوات الانكشاريين يدعى عبدالرحمن باشا • فأعاد هذا الاداري
الفطن المعتدل النظام بين جيوشه ، ورد على التخويف الايراني باصلاح نقاط
الدفاع • ثم ملئت مخازن الحبوب والسلاح ملأً جديداً ، وأعيدت الثقة ، وأعقب
الوالي هذه باصلاحات في جهاز الضرائب وبضربات نظامية أنزلها بأسوأ الحكام
المحلين • ومن الاشغال العامة التي قام بها اعادة بناء قبة الشيخ معروف الكرخي
والاستمرار في الاشتغال بسدة الفيضان العظيمة التي بدى بها قبله • غير انه مع
الكلف الباهظة ومشاق عمل السخرة لم تدم السدة من بعده • وحل محله في
الحكم بعد انقضاء عشرين شهراً قبالان مصطفى باشا ، فكانت حكومته أشبه
بحكومة سلفه نزاهة وحكمة واحساناً • واستطاع الحاكم الحديث أن يصمد
بجدارة لهياج آخر قام به الانكشاريون المتعسفون الذين بدأوا يسيئون استعمال
قوتهم من دون خجل في كل ولاية من الامبراطورية • ومما دل على تدين قبالان
الفطن انشاء رصيف باهظ الكلف في الاعظمية ، وترميمات اجراها في قبة محمد
القدوري^{١٦} ، وزيارته لكر بلا •

وكان عمر باشا الذي تلاه في الحكم قد حكم من قبل في ولايتين هما مصر
وديار بكر ، ودام حكمه في بغداد أربع سنوات تقريباً • وتذكر الاخلاف من
بعده مختلف المشاريع التي قام بها وهي التحسينات التي أدخلها في تربة أبي
حنيفة وقبر أبي يوسف ، وجعل مدرسة ملحقة بجامع قمريه ، ثم بناء خان للقوافل
ومخفر في خان أزداد • وفي آخر سنة لحكمه في بغداد شبت فتنة أخرى بين

(١٦) الظاهر انه « احمد القدوري » الفقيه الحنفي المشهور في عهد بني
العباس وقد دفن بالجانب الغربي من بغداد - كما في الوفيات - « م . ج » •

الانكشاريين كان يقودهم فيها أناس وصلوا حديثاً من استانبول ، ودبرت حملة ناجحة على **بني لام** . وفي ١٦٨١ م (١٠٩٢ هـ) نقل من ارضروم الى بغداد ابراهيم باشا ، وهو آغا عسكري قديم . فأثني على همته ثناءً حسناً في قمع عصيان حدث في حاميته ، وفي تأديب شرطة المدينة المتفسخة الجائرة . وكانت خدماته العمرانية العامة انشاء رصيف وجامع وسكة يدوية على جسر الزوارق . وبعد ثلاثة أعوام ونصف رجع عمر باشا الى المنصب ثانية فاستقام فيه ثلاث سنين . وتولاه أحمد باشا سنة واحدة ، ثم تلا ذلك رجوع عمر مرة ثالثة . وبذا تصل بنا الاخبار (التي أصبحت شحيحة في مرجعنا) الى سنة ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) .

وأثقلت حكم حسن باشا^{١٧} الهادئ المجاعة الشديدة التي كانت ممسكة بخرق أواسط العراق عند توليه الحكم . اذ ملئت أرتة بغداد بجثث الموتى . وقصد رجال القبائل من الكرد والعرب تجار المدينة للحصول منهم على الخبز بعد ان خابوا في الحصول عليه من حقولهم هم أنفسهم . وتبع المجاعة الطاعون حسب المعتاد ، فقضى على آلاف كثيرة . وتعاونت الفاجعتان وسارتا في سيرهما حتى اضعفتا بغداد وأفقرتاها . ولم يكن فزع الباشا من فراغ الخزانة بأقل من فزعه من أنباء كردستان السيئة . فقد جار مير سليمان^{١٨} ومير حسن ، الرئيسان الكرديان ، في شهرزور على رعاياهما الحقيقيين بحيث اضطر ديلاوير في كركوك أن يتدخل في الامر . فأفقدته الحملة حياته من دون أن ينجز شيئاً . وعندئذ خطت ولاية شهرزور خطوة ذات أهمية في توجيه نداء الى الباشا في بغداد استرحم فيها ارسال حاكم لهم . فأوفد متسلم ، وكانت هذه المرة الاولى التي تغرف بها كركوك أو الموصل بسلطة بغداد معتبرة اياها أكبر من ولاية جازة نديدة ، ثم تنحى حسن باشا عن الحكم برغبة منه في ذلك ، غير ان قضايا نشأت عن حساباته أدت الى اعتقاله في القلعة . ومات خلفه احمد بزركان مريضاً بعد

(١٧) يعد نيبور (الرحلة ص ٢٥٣) في قائمته لاسماء الاشوات حسن باشا هذا نفس حسن باشا الذي حكم في ١٧٠٤م (١١١٦ هـ) (أو كما يقول ١٧٠٢) ويقبل ذلك منه اوليقييه (ص ٣٤١) . غير أن هذا يجب أن يرفض تماماً بالنظر لمعلوماتنا الحقيقية في سيرة حسن باشا الاول .

(١٨) من الصعب أن يكون هذا غير سليمان بك بابان .

أشهر قلائل ، فاعتم سكان بغداد الفرصة وسرحوا حسن باشا الذي كان ما يزال معتقلاً • فترك الباب العالي هذا الحادث يمر من دون تعقيب ، لكن الولاية اعطيت الى أحمد كهية عمر باشا الوالي الاسبق • فمات في أوائل ١٦٩٤ م (١١٠٦ هـ) •

واضطر خلفه ، وهو حاج وسمي لسابقه ، أن يهتم لتفاقم الحالة في المنتفك بقيادة مانع • وقد أفرز أمر البحث عن هذه القلاقل وغيرها مما يختص بأواسط العراق في فصل مستقل • وأبدى علي باشا المعين في ١٦٩٦ م (١١٠٨ هـ) صرامة في معالجة قضايا القبائل الكبيرة الاخرى • فقد قضى على شرذمة من شمر كانت تغزو غير الفرات بالقرب من الفلوجة ، وبعث شيخ الموالي بمهمة تأديبية أخرى ، وانتقم هو نفسه من زبيد وبني لام • وفي ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ) عين لبغداد اسماعيل باشا حاكم مصر السابق • فكانت ، لسوء الحظ ، قابليته للحكم الحر العادل ممزوجة بمزاج اندفاعي حاد • وكان قد تقلد من قبل مناصب عالية مثل أغا الانكشاريين ، وحاكم الروم ايلي ، ونائب الصدر الاعظم • وقد تبع فتنة نشبت في حامية كربلا نهب المدينة المقدسة ، الامر الذي حدا الشاه ، من حيث انه بطل الشيعة ، أن يعجل بأخبار استانبول بالامر • فنقل اسماعيل الى وان بعد شهرين من حكمه • غير انه أدرك ان تحويله هذا كان يهدد سلامته فأدهش الجميع بفراره الى ايران وفيها مات سنة ١٧٠٠ م (١١١٢ هـ) • وكان حاكم بغداد الحديث ، دلتان مصطفى ، صربياً عنيفاً مستبداً ، وأمياً لكنه كان مندفعاً • فرفع بعد حملته على البصرة وأصبح صداراً أعظم خلفاً لحسن كوپرلي العظيم • ولم يذكر ما يستحق الذكر عن حكم خلفيه في بغداد : يوسف باشا وعلي باشا •

وفي السنة الخامسة من القرن ١٩ الجديد عين حسن باشا لايالة بغداد • وبذلك يكون قد حكم قبله في سراي بغداد منذ احتلال السلطان مراد سبعة وثلاثون

(١٩) هذا ما يذكره كولشن « اما نيبور (ص ٢٥٣) فيذكر ذلك في سنة ١١١٤ الهجرية (١٧٠٢ م) جاعلا مدة ٢١ سنة تنتهي في نهاية ١٧٢٣ • ويتبعه بهذه الفون هامر (الكتاب ١٤ ص ٧٦) وكذلك أوليقييه • اما صاحب حديقة الوزراء فيذكر السنة ١١١٧ الهجرية أى بتأخير سنة واحدة ، غير ان كولشن أهم المراجع •

باشا في مدة خمس وستين سنة • ولم ترنا هذه الفترة في العراق الاوسط الا القليل من الشخصيات اللامعة او الحوادث التي تسترعي انتباه العالم • فأن نظرة واحدة تنظر الى شمالي العراق وشمال شرقيه لا تدلنا على أكثر من ذلك ، لان المدونات التاريخية شحيحة في اخبار هذا العهد • الا ان الحالة في المناطق التي هي أكثر انبساطاً وحرارة ، الواقعة في شمال الخليج ، كانت تتمخض بتاريخ حافل بالاطماع والخيانة وأخذ الثار •

العراق الشمالي ٢٠

كانت باشويتا الموصل وشهرزور (وعاصمتها كركوك) على طول هذه المدة مستقلتين عن الباشا في بغداد ، الا عندما كانت تصدر الاوامر السلطانية بالتعاون والتأزر • كما كان نفوذ ديار بكر على الموصل ، الذي لم تؤيده بعض الأدلة في القرن السادس عشر ، قد زال • وكان تدخل بغداد في شؤون كركوك محصوراً في حادثة واحدة وقعت في ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) • فقد حدث مرة واحدة - ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) - ان كان باشا واحد يمسك زمام الحكومتين في العراق الشمالي • وتدل العلاقات الاخيرة فيما بين الولايات العراقية على ان موقف كل منها كان يتطور تطوراً مستمراً ، خاصة في ظهور الشخصيات الفذة بين الحكام الذين كان ينتشر نفوذهم بحسب شخصياتهم وفعاليتهم • اما الاسس العسكرية في الادارة فكانت تقضي بأن كل وزير أو بگربگي كان بوسعه قيادة أي ميرميران أو أي سنجق بجواره • وكان مجرد حكم الولاية دليلاً على أن ذلك بمقام مكافأة لخدمته المرتضاة ولذلك كان يتحتم على الولايات وسكانها احترامه واثراؤه ، ثم ترضيه وترضيه البادشاه معاً •

ومع هذا فينما كانت الوحدات الكبرى منحلة على هذه الشاكلة كانت الوحدات الصغرى في طور التبلور • فكلما كان استقرار القبائل في أماكنها الحالية يزداد شيئاً فشيئاً بالتدريج ، عن طريق الهجرة والتوطن ، والنهموس والسقوط ، وتتضح القيمة الادارية للحدود الطبيعية ، كانت الأيالات تتجزء الى وحدات يعهد بكل منها الى مسلم ، اوسنجق بگي ، أو ضابط بحيث يزداد شبهها

(٢٠) المراجع : تقويم الموصل ، تافيرنييه ، أوليا أفندي ، سليمان الصايغ •

شيئاً فشيئاً بوحدات القرن التاسع عشر • وبذلك أصبحت حدود البقاع القبلية المعروفة منذ القدم ، او المقاطعات الوراثية ، أو الوديان الطبيعية ، أو الحدود الفاصلة بين الأنهر ، حدوداً للنواحي والاقضية المقبلة • وصار يعترف بها حتى في تلك الايام ملتزم الاقطاع وأغا الحامية ، والدفردار مع ضامني الضرائب التابعين له •

وكانت الاصفاع التي تشتمل عليها الايالتان تضم مناطق تحكمها الحكومة نفسها ، وحكومات كردية محلية في المدن ، وقبائل تحكم بنفوذ ضئيل • ولم يبق لنا شيء من السجلات مما يدلنا على تاريخ الاقسام المسكونة والمحكومة من ولاية شهرزور • على ان مدينة كركوك الجميلة لم تتبدل كثيراً في القرنين الاخيرين ، كما لم يتبدل خط القرى التركمانية الممتد على طوال الطريق الاعظم ، ولا القرى العديدة التي يقوم سكانها بالزراعة الدائمة « الديم » • وكان النفوذ التركي يتغلغل في الاماكن التي يكثر فيها الدم التركي ، وتنتشر فيها اللغة التركية والمذهب التركي أكثر مما كان يتغلغل في سهول العرب وجبال الاكراد • ولم يبق من المدونات شيء في أخبار الباشوات المتعاقبين ولا عن حوادثهم وأيامهم •

وكانت الانطباعات النفسية في الزائرين الاوربيين القليلين عن حال الموصل سيئة • فقد كانت عناصرها المختلفة والعداوات من الاسباب الثابتة لايقاد نار الفتنة واثارة المنازعات المرة في المدينة • ولم يتبدل سورها وبنياتها الحكيمة ، ولا شوارعها القذرة منذ أن أُنذرت البلاد غزوة السلطان سليم بالفتح التركي • وبقيت التجارة تتناول المنتجات الكردية المصدرة الى حلب وديار بكر ، واللوح والقمح الذي كان يؤتى به جنوباً الى بغداد على دجلة ، كما كانت تتناول بيع المأكولات وملابس القبائل العربية المجاورة لدرجة ما • أما القماش الموصل « الموسلين » المشتهرة صناعته في الموصل فقد اوشكت حياكته فيها أن تنقطع • وكان المسافرين يلتجئون الى خانين غير عامرين • وكانت فيها أدبوع طوائف نصرانية تختلط وتتنازع بعضها مع بعض • وظلت جماعة من الاخوان الكبوشيين في بناية تطل على النهر حتى أخرجهم منها الباشا لعله من العلل • اما الجانب الآخر ، الموصل بالاول بجسر من الزوارق ، فكان يوجد فيه جامع النبي يونس كعبة الزوار القاصدين اليه • وكانت تتألف الحامية في ١٦٤٤ • (١٠٥٤هـ) من الانكشاريين والخيالة الاقطاعيين ، ويبلغ مجموعها كلها ٣٠٠٠ رجل •

ومن السهل تصور المشاكل الرئيسة التي كانت تواجهها حكومة الموصل - يزيدو سنجار الساخون ، وجماعات الاكراد الغازية من سفوح الجبال ، والجراد ، والمحل ، والبدو غير المتبدلين - لكن المدونات التاريخية أبخل من أن توجد بما يفضي الى البحث المستمر عنها . فلا يمكن أن يعرف الا الشيء القليل من أحوال الباشوات الذين حكم منهم ثمانية وأربعون في الفترة المنحصرة بين ١٦٣٨ م (١٠٤٨ هـ) ونهاية القرن . فقد كان عدد منهم من الوزراء ، كما كان اكثرهم ممن هم برتبة ميرميان وهي أدنى من الوزارة . وان قسما منهم كانوا قد نقلوا اليها من ايلات أخرى مثل وان وقارص والبصرة وبغداد وديار بكر . ويظهر ان منزلة ايالة الموصل كانت مشرفة ، وكان بوسع الباشا الذي يحكم فيها أن يقود قوة لمساعدة زميله في جنوبي العراق . واعتلى المنصب فيها مرشحون من الاسر الموصلية في بعض الاحيان ، وذلك مثل محمد امين بن بكر باشا المذكور من قبل . فقد امسك بزمام الايالة لبضعة أشهر في وقت كانت فيه بغداد خاضعة للحكم الايراني . وكذلك كان زيني باشا في ١٦٧٤ م (١٠٩٥ هـ) الذي حفظ التاريخ من تقلبات أطواره وخشوته عدة اسطورات . وتقرن باسم كل من الباشوات الآخرين حادثة واحدة على الاكثر ، كالاسر الطويل الذي قضاه مصطفى باشا « الاسير » في أوربة ، وصرامة علي باشا (والي بغداد فيما بعد) مع عصابات اللصوص ، والنزاع المر الحادث بين ابراهيم باشا وزعيم العمرين يومئذ وما أدى اليه الأمر من موت الاثنين . وكان هؤلاء الولاة الثلاثة قد تولوا الحكم في ١٦٩١ م (١١٠٣ هـ) و ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) و ١٧١٢ م (١١٢٤ هـ) . وجاء في الاخبار من حوادث السنة الاخيرة ثورة رشوان زاده خليل باشا ، الذي جمع قوة من الاوباش وادخل الرعب في المدينة والطرق . فأمر والي الرقة ، طوپال يوسف باشا ، بأن يعيد الامر الى نصابه . فزحف الى الموصل واشتبك مع الثائر فذبحه ، ولأجل ان يسبغ رونقاً خاصاً على مهمته قطع رأسه فبعث به الى استانبول .

وفي البلاد الجبلية الواقعة في شمال الاصقاع الداخلة في حكم الأيالتين وشرقيها كان صلح ١٦٣٩ م (١٠٤٩ هـ) قد آل أخيراً الى انقسام الاكراد بين السلطين الشيعة والسنية . فظلت قبائل الكلهور وأردلان تتجه بصورة أكيدة

الى ايران • وانقسم المكيون فوقت شهرزور في ضمن الممتلكات التركية • وترك أمر عدد من المراكز - ساقز وزهاو ودرنه - لتتنازع عليها الاجيال المقبلة • وكانت هجرة القبائل التي كانت ما تزال يومئذ في طور البداوة ، والغزو المتبادل بين الاعداء على جهتي الحدود مما يجعل الحدود شيئاً مجهولاً • ولم تضع السلطان أية فرصة في الحصول على نفوذ في شؤون جارتها ، كما لم يتردد المتعادون في ضمن الولايات والقبائل الكردية في تقديم المساعدات الممكنة للجهة التي كانوا يطمعون فيها • على ان القرن السابع عشر بوجه عام قد شهد رسوخ النفوذ التركي في تلك الجهة من كردستان التي يعود البحث عنها لتاريخ العراق •

والى أبعد من هذا شمالاً ، كانت العمادية والجزيرة قد حافظتا على وضعهما في الاستقلال غير الكلي • ولم تكن الجزيرة في الحقيقة ، وهي بلدة صغيرة غير عامرة ، الا سوقاً مهمة يلتقي فيها التجار ، ومرحلة من مراحل الطريق العام ، وموقعاً لجسر من الزوارق • ولم يعترف البك فيها بأية سلطة عالية تسيطر عليه سوى تابعيته التركية • اما العمادية فقد صانها موقعها الطبيعي الدفاعي وبعدها عن الطريق العظمى من التدخل التركي • وكان بوسع البك فيها في ١٦٦٠ م (١٠٧١ هـ) ان يجمع ثمانية آلاف الى عشرة آلاف من الخيالة ، ومن الرجال قوة أعظم من أية قوة يمكن أن تجمعها بلاد مجاورة لها • وكان من شروط تابعيته أن يقوم بخدمة عسكرية عند الطلب • وعلى هذا شاركت قواته في ١٧٠١ م (١١١٣ هـ) قوات الموصل وديار بكر في اخماد العصيان الذي حدث في جنوبي العراق ، وكان الرئيس يومئذ ربّاد باشا • وكانت رتبة الميرميران^{٢١} تمنح أحياناً ، ان لم يكن اعتيادياً ، الامير الحاكم في العمادية ، كما منحت في الاخير الى البابانيين •

وكان لكوي استقلال مشابه في حكم بيكاتها السورانيين • اما البلدان الصغيرة مثل زاخو ودهوك وعقرة ورائية فقد كانت تبذل شيئاً من الطاعة لبيكات جيرانها الذين هم أكبر منها • وكانت رابطتهم الحكيمة هذه تتضمن المساعدة

العسكرية^{٢٢}، وتأدية بعض الجراية أي حقوق الارض ، ووجوب تقديم قضايا المنازعات للبت فيها • على ان فعالية هذه الواجبات كانت تتوقف على شخصيات الساعة ، وفرص الحصول على استقلال أوسع ، وأمل المساعدة في هذا الشأن من الجيران الترك أو الاكراد •

وكانت أيام الغز لخان احمد خان ، فيما وراء الحدود في أردلان ، قد انتهت بعد وفاة الشاه عباس • لان الشاه صفي اضطره الى الارتقاء في أحضان الترك على أثر معاملة قاسية عومل بها في معرض اصرار الشاه على الفتك بأحسن مؤازريه • فقابلته السلطان عثمان بترحيب عظيم ، ويظهر انه استوطن الموصل^{٢٢} • فأخذ مكانه في أردلان سليمان خان المنتسب للعائلة نفسها ، وذو الزلفى لدى البلاط الايراني • وقد ذكر تحرش أردلان الآخر بممتلكات السلطان، في السنين الأخيرة من القرن ، في معرض البحث عن نهوض البابانيين •



(٢٢) تقول الرواية الاردلانية انه « حكم » الموصل وكركوك وشهرزور

سبع سنوات •

الفصل الخامس

أمير البصرة

أسرة أفراسياب

لم يذكر اسم البصرة في هذه الصفحات الا قليلاً منذ بحثنا عن جدها العائر في القرن السادس عشر • فقد رأينا زوال حكم تابع قبائلي فيها وحلول باشا أيلة في محله ، وحيرة هذا الباشا بدوره تجاه العصيان الذي كان سائداً في البر والنهر خارج أبواب مدينته ، مع تبرم الناس في داخلها من حكومته الأجنبية • ورأينا في مناسبات غير هذه سيطرة البرتغاليين على ما وراء مصب شط العرب من اليم ، ومحاولة الأتراك الجريئة لاحتلال رايتهم محل الراية البرتغالية • وفي القرن السابع عشر نرى ان تاريخ البصرة تظهر فيه تلك الظاهرة نفسها ولكن بترتيب مخالف • وسنرى كيف وقعت البصرة نفسها موقف المتفرج في حين ان تنازعت السلطات الأجنبية النفوذ في الخليج • فتحل من جديد حكومة تركية من الطراز الاعتيادي محل أسرة محلية في الحكم • فيجد الحكام الترك عوداً على بدء ان مهمتهم في الحكم شاقة وأصعب من ان يستطيعوا حل مشكلتها • ومن حقنا ان نسأل كيف تمكنت البصرة ان تقف معترلة ، وهي في منطقة لم تنفصل رسمياً عن الامبراطورية ، في أثناء النزاع التركي الايراني على امتلاك بغداد مدة خمسين سنة ؟

شهدت السنوات الاولى من القرن السابع عشر ضبط الباشوات الأتراك لحكومة البصرة يتضاءل شيئاً فشيئاً • فكان عصيان محمد الاحمد الطويل في

(١) المراجع تافيرنييه ، « زاد المسافر » للشيخ فتح الله الكبكي ، مالكولم ، بيتروديلاقال • أما بحث الخليج فالمراجع فيه كالسابقة •

بغداد قد قرب العصيان في البصرة من أذهان الناس فيها • إذ كان فيها النبلاء العريقو الانساب ورؤساء القبائل الاشداء وفي نفوسهم أطماع كثيرة واحترام قليل لموظفي السلطان • وفيما يقارب منتصف السنوات العشر الثانية من القرن تولى الحكومة رجل من سكان البلد يسمى أفراسياب • فقد دُوّن في السجلات ان الباشا الذي كان يحكم يومذاك وافق على ترك البلدة وشأنها بسلام بعد ان اضطرته لذلك غزوات القبائل المستمرة واشتباكها مع الحامية اشتباكاً دائماً • وبلغ الامر في الاخير الى أن السكان العرب في البصرة لم يستطيعوا بعد ما مضى احتمال وجود الحامية الاجنبية في القلعة •

« وكما ان الحامية كانت تركية وسكان البلد من العرب الذين لا يتحملون الاستعباد كان هؤلاء السكان في نزاع وكان النزاع كثيراً ما يؤدي الى الاصطدام مع الترك • فيخف اذ ذاك عرب البادية لاسعاف السكان ، فيحاصرون الباشا في الحصن • ولم تهدأ الحالة في الاخير ولم يتفق الفريقان على شيء • ومل الباشا - واسمه « ايود »^٢ - من الغزوات والتأديبات فعزم على بيع حكومته الى أحد أغنياء المدينة بأربعين ألف قرش • وتمت الصفقة ، وجهر ذلك الغني المشتري اجناداً لتهدة الناس • وسمي هذا الرجل العظيم باسم افراسياب باشا » •

وقد تمكن « أن يخلع النير التركي عن بلده ويلقب نفسه امير البصرة • اما الباشا الذي باع حكومته فقد شق ساعة وصوله الى القسطنطينية » ، وليس في هذا الوصف^٣ ما لا يحتمل وقوعه • ويشرح قيام افراسياب مصدر آخر^٤ ، ولكن باختلاف في التفصيل فقط • فكان افراسياب على هذه الرواية^٥ :

« كاتباً للجند المحافظ في البصرة فاتفق رأي أهل البصرة على هجر الحاكم الرومي وكان اسمه علي باشا فقلت مداخلة وعجز عن ارزاق الجند المحافظين

(٢) هكذا ورد في النص الاجنبي Aiud - المترجم

(٣) تاقيرنييه

(٤) زاد المسافر

(٥) اقتبسنا النص الاصلي بجمله من كتاب زاد المسافر ص ١٧ من طبعة مطبعة الفرات ببغداد سنة ١٩٢٤ - المترجم

معه فباع البصرة من افراسياب المذكور بثمانية أكياس رومية والكيس ثلاثة آلاف
محمدية على أن لا يقطع الخطبة من اسم السلطان » •

على ان المعلومات التي تصف حال أفراسياب بأحسن من هذا غير واضحة •
فإن علاقته بالسلطان والوزير في بغداد ، وماهية قواته من حيث كونها تركية
أو محلية ، ومعاضدته أو مناوئته كلها غير أكيدة • فقد قيل^٦ ان أباه كان من
دم سلجوقي قديم ، وان امه كانت امرأة عربية من الدير^٧ • وكانت قدرته على
جمع القوة تدل على مؤازرة القبائل له ، لان مجازفة تقلد المنصب وتحمل
المسؤولية بهذه الصفة لم يكن بوسع أحد أن يتحملها ان لم يكن من رجال
القبائل الاقوياء • كما ان أخذه لقب الباشا ، أو الانعام به عليه من حكومة كانت
تشوق الى الابقاء على ولائه مما يدل على حال أقل من الاستقلال • ولا شك
في انه كان يصرح في رسائله الى استانبول بولائه للخليفة ، الذي لا بد من انه
كان يتساهل بانفصال البصرة الجزئي عن الدولة على عهد افراسياب الوالد بمثل
ما اعترف بالابن وبعث له بالفرمان والخلة مؤخراً • ومن المؤكد ان افراسياب
وحكومته لم يدفعوا الجراية ولم يبذلا الطاعة لبغداد ولا لاستانبول • ولذلك لم
تكن البصرة في حوزة الحكم التركي ، لكنها ما كانت خارجة عن منطقة نفوذه •
وعرفت حكومة افراسياب بالامن والقناعة •

وقد استطاع افراسياب أن يوسع حكمه ويوطد دعائم النظام في خارج
المدينة وضواحيها ، حتى شمل ذلك قبان والدورق وغيرهما من جزر شط العرب
ومواقعه • وفيما عدا ذلك كانت علاقاته الخارجية تنحصر في أمور ثلاثة • فقد
استنجد به والي الحويزة التابع لایران ، منصور بن مطلب ، طالباً مؤازرته
ومعاضدته في التخلص من ولائه للشاه • وأظهرت قبائل البادية والاهوار ،
حتى لحاكم محلي مثله ، أكثر المشاكل التي كانت تسببها لمن كان قبله ولمن
جاء بعد • اما في الخليج فقد تميزت السنين الاخيرة من حكمه بوقوع حوادث

(٦) زاد المسافر

(٧) وهذا نص زاد المسافر : « وذكر عبد علي بن رحمة الحويزي في كتابه
« قطر الغمام » انه من آل سلجوق ملوك الروم وأن أهل الدير اخوال
لافراسياب - المترجم

اذ كانت منزلة البرتغاليين المتأثرة قد أخذت بالتدهور منذ سنة ١٥٨٠ (٩٨٨ هـ) حيث قدر للبرتغال نفسها أن تكون هدفاً لحكومة الاسبان المتعصبة الطامعة مدة ستين سنة • وبغضتهم الى الناس في كل جهة من جهات الخليج قسوتهم وخشونة طباعهم • ولما أخذ وصول الامداد الى حامياتهم يقل شيئاً فشيئاً صار بوسع البحارة من الايرانيين والعرب أن يقوموا ثانية برحلاتهم ، وتجراًوا على اغلاق موانئهم وكلاءاتهم^٨ بوجه « الدوم » • وفي هذه الاثناء بدأت عيون أوربية أخرى تنظر نحو الشرق • اذ كانت انكلترا قد أرسلت أيلدرد ونيوبري وفيتش ، قبل واقعة الارمادا ، ليرتادوا طريق الفرات ويدرسوا وضعه ، ثم شكلت بعد ذلك في ١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) شركة الهند الشرقية اول مرة • كما كان الهولنديون قد دخلوا المياه الهندية ، لا الايرانية ، في السنين الاخيرة من القرن • وعلى هذا شهدت العشرون السنة الاولى من القرن السابع عشر البرتغاليين وقد دب الوهن والضعف الى حالتهم المسيطرة • ولم يذعن ملك ايران القوي مطلقاً لاحتلالهم موانئ ولا لجورهم على رعاياه • وفي ١٦٠٢ م (١٠١١ هـ) أخرجتهم قواته من البحرية ، وفي ١٦٠٨ (١٠١٧ هـ) تمكن من الضغط بشدة على قلعة هرمز العظيمة • وبعد ذلك بأربع سنين احتل البرتغاليون بندر عباس^٩ ، وهي محطة أسسها الشاه لتضاهي هرمز وتزاحمها • غير ان القوات الايرانية طهرت المكان في ١٦١٤ م (١٠٢٣ هـ) من البرتغاليين فلم يسترجعوه من بعد •

على ان الضربة القاضية على سطوتهم في هذا المكان لم تكن لتأتيهم من الخصوم المحليين ، بل كانت من اوربة • فقد وقعت حادثة في ١٦١٦ م (١٠٢٦ هـ) قدر لها ان تضعف نفوذ هرمز أكثر مما كانت تضعفه العراقل التي كان يضعها الايرانيون أو العمانيون • فقد رست الباخرة « جيمس » التابعة لشركة الهند الشرقية في جشك ، حيث جاءت الشركة في هذه المرة ، بعد ان اصبحت ثابتة

(٨) الكلاء على وزن شداد مرفأ السفر ومنه كلاء البصرة وهو العشار

الحالي •

(٩) المعروفة لدى الاوربيين طوال القرن باسم غومبرون • Gombroon

المركز في سورا وملتصدة بالشاه عن طريق السفارات ، تجرب جدها في التجارة بالحرير . فأدى مجيء هذه البعثة الى الخليج الى حصول نتائج مهمة . فقد صدر فرمان مملوء بالجمل الملائمة مكافأة لجهود المستر أدورد كونوك رئيس الشركة الذي لم يكن له سند . ثم وصلت الى جشك في أواخر ١٦١٧ م باخرة ثانية للشركة . واستمرت المفاوضات مع الشاه ، فحصل شيء من النجاح بتعيين حصّة من المتاجرة بالحرير الى السفن البريطانية ، وتبادل المراسلات المنظمة بين ملكي انكلترا وايران ، وبرواج الطرق والاساليب الانكليزية وتقدمها على البرتغالية . وعلى هذا اخذت السفن الانكليزية تتوارد بكثرة على جشك من عام ١٦١٨ م (١٠٢٨ هـ) الى ١٦٢٠ م (١٠٣٠ هـ) .

واذ ذاك قضي على هرمز بالاضمحلال . فقد كان الشاه في أوج قوته . وكان العداء التجاري مثيراً للاضطدام الدائم بينه وبين البرتغاليين ، وغدا أمر هرمز منه كشوكة قديمة في جنبه . غير انه كان يعوزه وجود اسطول . وكانت الشركة راغبة في تجهيزه اليه بشروط وضعت بتحرز . ثم حسمت قضايا امتيازات سابقة ولاحقة في اجتماع عقد بين وكيل الشركة وحاكم فارس . وفي كانون الثاني ١٦٢٢ م (١٠٣٢ هـ) احتل الاسطول الانكليزي حصن قشم البرتغالي المنيع ، وبدىء بالهجوم على هرمز في أوائل شباط . فاحتلت قوة ايرانية البلدة بسهولة وبدأت بمحاصرة الحصن ونسفه بالالغام . غير ان الدفاع كان عظيماً ، مع ان قوات الشاه كانت ضعيفة خائفة . واغرقت في الميناء البواخر البرتغالية واحدة بعد أخرى ، وكانت بواخر الشركة تنزل الى الجزيرة جماعات المدد للقوة المحاصرة . ومع امتداد الحصار الى نيسان لم تكن نتيجة الا واحدة . فقد سلم البرتغاليون بشروط ، وتخلوا عن البلدة فنقلوا الى مسقط . وتخطف غنائم الحصن ، خلافاً للشروط المتفق عليها ، أول القادمين من الحلفاء غير الصميين .

وقد تحمل البرتغاليون بهذه ضربة ساحقة ولكنها ليست مميتة اماتة تامة . فحصل الانكليز على سوق أكثر ملائمة من جشك ، وحظوا برعاية الشاه الذي سمح لهم بالنزول في بندر عباس من دون أن يحصنوها . غير انهم سرعان ما علموا انهم لا يمكنهم أن يحصلوا من الايرانيين على العدل ولا على التعويض .

ولم يجدوا أنفسهم قادرين على عدم الاجابة الى طلبات الشاه باستتجاد الاسطول
لمكافحة بقايا البرتغاليين والاثراك في البصرة • الا ان هذه المحن كانت شيئاً طفيفاً
بالنسبة لظهور قوة أوربية جديدة ، تحت ستار الحلف مضادة العدو المشترك •
إذ كان الهولنديون ، في ذلك العهد ، قد نفذوا من المحيط الهندي الى هذه
البحار الضيقة • فحطوا في بندر عباس في الوقت الذي حط فيه الانكليز ، وبنوا
هناك معملًا شامخاً ، وضموا سفنهم الى سفن الشركة لتعمل معاً في مضادة
البرتغاليين • وكان البرتغاليون في هذه الايام وهم ثابتون في مسقط أقوىاء بحيث
كان بوسعهم أن يشنوا غزوات قرصنية ، بقيادة اميرال ذي جسارة خارقة • فجرت
مصادمات في شباط ١٦٢٥ (١٠٣٥ هـ) في مياه بندر عباس كابدت فيها القوات
الثلاث الهولندية والانكليزية والبرتغالية خسرات فادحة • وعقد في السنة
نفسها صلح بين البرتغال وأيران تنازل فيه البرتغاليون عن جميع مطالبهم في
منازلهم القديمة في الاراضي الايرانية •

اما افراسياب في البصرة ، فقد كانت علاقات البرتغاليين به ضعيفة حتى سقوط
هرمز • ومنذ هذا الحادث كثر اتصالهم بالبصرة ، وكانت الحماية التي يقوم بها
حاكمها لهم سبباً في امتعاض الشاه منه • ومما يذكر هنا ان البصرة لم تهددها
الجيوش الايرانية التي ظهرت بغداد من الصوباشي ، كما لم يهددها قرچني خان
من بعد ذلك • لانها لم تكن تضم بين جدرانها عتبة شيعة ، ولا أرضاً قابلة للزرع •
الا ان تابعيتها للسلطان وحمايتها للتجارة البرتغالية كان يجب أن يوفقا عند ذلك
الحد الذي بلغاه • فأصدر الشاه في ١٦٢٤ م أوامره الى خان شيراز امام قلبي خان
بمعالجة هذا الازعاج الذي نقض حركة بندر عباس التجارية جهاراً • فطلب الى
افراسياب أن يتخلى عن تابعيته التركية ويتقبل التابعة الايرانية • وان يسك النقود
باسم الشاه ، ويذكر اسمه في الصلاة (وذلك خير دليل للولاء) ويتخذ الازياء
الفارسية في الملبس • ويكون في مقابل ذلك والياً وراثياً لا يقدم شيئاً من الجراية ،
وله ملء ما تسع الصلاحية المحنية •

فرفض ذلك افراسياب وكان يدعمه البرتغاليون • فسيق اليه جيش من
شيراز عن طريق شستر • وفي قبان ، تابعة البصرة ، قصفت البواخر البرتغالية
الجيش المهاجم فصدته وفي الفترة التي تبعت هذه الموقعة توفي افراسياب فخلفه

فأخبر استانبول بتوليته الحكم ، وأعلن ولاءه لها ، ثم طلب المعونة • الا ان أمهله للمعونة كان ضعيفاً لان الايرانيين كانوا قد قطعوا طريق دجله والفرات • ولكنه وصلت اليه قوة غير منتظرة تتألف من خمسة آلاف من اتباع والي الحوزة الفارين من امام قلبي • وما حل مارت ١٦٢٥ م (١٠٣٥ هـ) حتى كانت البصرة تنتظر هجوم الخان وهي عالمة بزحفه من الحوزة • وكانت قوة علي باشا صغيرة حديثة • فأغار البرتغاليون للباشا خمس سفن مسلحة بعد ان دفع لهم ما أرادوا • ثم أعلن التجنيد العام في المدينة ، وكانت قد تعالت أصوات الوطنية فيها • وجند أسراف البلد القوات المتطوعة فمشت الى معسكر الباشا وفي عدادها الصابئة المسلمون • أيضاً ، وقسمت القوة البحرية ، فرافقت ثلاث سفن منها علي باشا الى القرنة حيث كان من المتوقع ان يحاول الايرانيون العبور ، وانحدرت اثنتان الى الجنوب لوقف أي تقدم قد يحدث من تلك الجهة • غير ان مخاوف هذه الحملة القصيرة والاستعدادات لها انتهت بصدفة غريبة • فقد انسحبت القوة الايرانية فجأة تاركة كل شيء حتى آلات المعسكر من دون أن تطلق طلقة واحدة • ومن المحتمل ان يكون سبب الانسحاب حدوث اضطراب في شيراز أو ورود أمر من أصفهان • فانقذت البصرة على كل حال • وبعد أيام قلائل (مايس ١٦٢٥ م) وصل الى علي باشا من استانبول على طريق البادية ، الفرمان مع الخلعة والسيف • وبذلك ثبته انتصاره وشهرته في حكومته • فأعيد بناء مراكز الدفاع في القرنة وهي المركز الطبيعي لطليعة الجيش • وفي ١٦٢٩ م (١٠٣٩ هـ) حاول امام قلبي محاولة أخرى • فلم يبق من الممكن في هذه المرة توقع المعجزة التي أنقذت المدينة من قبل • ولذلك اضطر علي باشا لطلب المساعدة من قبائله ، ثم استعملت في الدفاع خدعة رأى التاريخ تكرارها عدة مرات من بعد • فقد كسرت السدة التي تحفظ المدينة من الغرق ، وغمرت بالماء البطاح المنبسطة اميالا عديدة حولها • وفي الوقت

(١٠) يذكر الشيخ فتح الله ان حكومة علي باشا استمرت ٤٥ سنة ابتداء من ١٦٠٣م غير انه من المؤكد ان افراسياب عاش حتى سنة ١٦٢٤ • ومن المحتمل ان علياً كان يقوم بمهام الدولة في حياة والده حتى مات • ولم يتول افراسياب نفسه حكومة البصرة الا حوالي ١٦١٢ •

نفسه سمع الايرانيون ، وهم ضعيفون في المواصلات المائية وممتحنون بهذه الاحوال الغريبة ، بوفاة الشاه عباس فانسحبوا . فترك علي باشا حراً في تسيير سكان حكومته الحرة الرحيمة . وكانت القبائل الشديدة البأس في منطقة الجزائر ، التي لم تكن خاضعة للحكم التركي منذ مدة طويلة ، قد عقدت حلفاً كانت البصرة وبغداد عاجزتين عن عمل شيء مضاد له كائناً ما كان . كما كانت قبائل الفرات الاسفل ودجلة السفلى ، الشرسة الطباع المزدرية للموت ، مكونة دولة في داخل دولة ، حتى ان أفراسياب كان يتحاشى اثاره العدا على شجاعتهم العنيفة ومناعتهم العظيمة . غير ان علي باشا ، في هذا الحين ، أخذ على عاتقه الواجب . فزحف بجيشه طولاً وعرضاً مخترقاً الاهوار الموحشة وبذلك « خضد شوكة سكانها الذين صار خضوعهم منذ ذاك الحين مضرباً للأمثال » . وأخذت كوت معمر من حكومة بغداد . وأصبح بلاط علي باشا يقايس ببلاط هارون الرشيد نفسه . فازدهرت الفنون والعلوم برعايته ، ووجد المعلمون ملجأً وملاذاً عنده ، كما أدى الاقتصاد الحكيم والعدل المصون الى سكينه لم يكن يتوقعها الا القليل من الناس . وكان أديب ذلك الزمان والمكان الشاعر الشهير الشيخ عبدعلي الرحمة .

وفي غضون ذلك كان قد حدث تبدل في الحويزة حيث كانت دسائس منصور غير خافية على ساداته الايرانيين . فكان أمام قلمي ، عند سيره من شيراز للانضمام الى الشاه في بغداد سنة ١٦٢٣ م ، قد طلب خاصة مؤازرة القوات الحويزية ، وبقي ينتظرها ، فلم يأت شيء منها . وكان الشاه قد طلب حضور الوالي الى أصفهان مرات عديدة فلم يكن ذلك الطلب إلا مردوداً . وفي الاخير اتضح عدم إطاعته ، بعد ان لم تخفه رسائله الملأى بالخضوع . وعلى هذا عرج امام

(١١) هذا ما يقوله فتح الله الكعبي . ولا يعرف شيء عن هذا المثل ، كما ان اخلادهم للسكينة لم يدم طويلاً .

(١٢) نذكر فيما يلي نص رواية الشيخ فتح الله بجملته : « وكانت أيام علي باشا شبيهة بأيام هارون الرشيد من بني العباس في الرفاهية وطلب العلم والآداب والشعر وأمن السبل فهابته الملوك وانقادت له . وفتحت في أيامه الجزائر بعده أن عجز عنها عسكر السلطان . وفتح كوت معمر من يدي حاكم بغداد وقد مدحه الشيخ عبد علي بقصيدة . . . » - المترجم

فلي ، خلال زحفه الى البصرة في مارت ١٦٢٥ م ، على الحويزة لطرده منها •
فهرب مع كثير من أتباعه الى البصرة ، فنصب الخان ابن أخيه محمد بن مبارك •
ولقته بولائه لم يترك امام قلي حامية في الحويزة • فرحب علي باشا بمنصور في
البصرة واختصه بأقرب الاراضي من موطنه القديمة •

الخليج في ١٦٢٢ م (١٠٣٢ هـ) - ١٧٠٠ م (١١١٢ هـ)

ظلت السطوة البحرية في الخليج العربي مدة أجيال ثلاثة ، بعد سقوط
هرمز ، منقسمة ، مريبة ، ومفعمة بالروح العدائية • وكانت الاطراف المعنية في
هذا الشأن الهولانديين والانكليز والبرتغاليين وعرب عمان • ولم تكن تخرج فيه
الى عرض البحر أية سفينة تركية ، كما لم يكن للايرانيين أي نوع من البحرية •
ونساعدنا مراجعنا في تاريخ هذا الدور على أن تتعقب أوجه
الحياة في الخليج بتفصيل كثير • غير انه لا يمكننا هنا أن نحاول شيئاً من ذلك أكثر
من استخلاص أخبار التسابق بين هؤلاء المتزاحمين لما بقي من القرن •

فقد كانت جهود البرتغاليين منذ ١٦٣٠ م (١٠٤٠ هـ) منحصرة في تثبيت
أقدامهم في عمان ، وفي محاولة استرجاع مركزهم في هرمز • وقد نجحوا في
تثبيتها في عمان مدة عشرين سنة تقريباً ، لكنهم خابوا في الحصول على أمنتهم
في هرمز • فلم تردعهم معاهدتهم التي عقدوها مع الايرانيين في ١٦٢٥ م
(١٣٠٥ هـ) ، ولم تردع الايرانيين أيضاً ، عن تعقيب غاياتهم وأطماعهم • وفي
١٦٣٢ م (١٠٤٢ هـ) طلب ضباط الشاه بالحاف المساعدة البريطانية ليهجموا على
مسقط • على ان ذلك لم يجر ، ورد البرتغاليون على تلك المحاولات بالتمادي في
التحصين • وكانت مسقط والشحر من مواقعهم الموقرة الوحيدة ، عدا ما كان لهم
في البصرة من محطة - وكانوا يرمقونها بعد سقوط هرمز - ومركز في كونك •
وتضائل شأن رايتهم فأصبحت غير محترمة بل مكروهة أبداً • وفي ١٦٤٣ م
(١٠٥٣ هـ) اسلموا الشحر لقوة عمانية • وفي ١٦٥٠ م (١٠٦٠ - ١٠٦١ هـ)
عقدت مسقط نفسها شروط الاستسلام • وكانت كونك تحتضر كما كانت البصرة
- التي كانت دائماً مركزاً نائياً أكثر منها قاعدة - بعيدة وغير مسندة ولم تكن ،
على كل حال ، تعني التجارة الايرانية فيللاً • وكانت المصالح البرتغالية تنحصر
بعد ١٦٥٠ م في كونك وفي رحلات اسطول گوا نصف القرصية • وكانت علاقات
البرتغاليين بالايرانيين علاقات متنافرة بقدر ما يقتضيه جشع الموظفين الايرانيين وعدم

اخلاصهم • اما علاقاتهم بالساحلين وقرصان عمان فقد كانت لا تخرج عن كونها صراعاً وكفاحاً • أما الانكليز فقد عقدوا معهم صلحاً رسمياً في الحقيقة سنة ١٦٣٤ م (١٠٤٤ هـ) ، وتأيد ذلك الصلح في گوا سنة ١٦٣٦ م (١٠٤٦ هـ) • غير ان عداؤهم للهولنديين ، والدسائس المتقابلة بينهم ، في البصرة بقي كما كان في السابق • وكانوا يعتقدون ان غزوات القرصان العرب كانت بتحريض من البريطانيين ان لم تكن بقيادتهم هم أنفسهم • وتمكنوا من اثبات ذلك في ١٦٨٩ م (١١٠١ هـ) عندما سلبت معملهم في كونك سفينة بريطانية خاصة • وبمثل هذه الحقارة قضت نجحها قوة البرتغاليين البحرية في الخليج غير مأسوف عليها •

ومن الممكن الاطلاع بامعان على تصرفات الشركة في تلك المنطقة من سجلاتها الغزيرة • على انا هنا لا نعبأ بذكر تجارة الشركة في غير العراق • فقد حافظت على معملها في بندر عباس وعلى فرعين له في شيراز وأصفهان • وكانت الوفيات بين مستخدميها عالية • وكانت تردد القوافل بين الخليج وسورة ، ولو كان ذلك بمقدار قليل • وكانت الصعوبات التي تلاقيها الشركة في أثناء اشتغالها مؤدية - ولا ريب - الى تقليل سيطرتها وأرباحها^{١٣} • وكان جمع كل تومان ، من نصف واردات كمارك بندر عباس المتفق عليها ، يستدعي مشقة وعناء ، وكان لابد من بقاء المبالغ الجسيمة متأخرة في هذه العملية • وكانت الامتيازات والحقوق المكتسبة هناك بها حاجة الى أن يجدها كل شاه حديث • وكان طلب التحرير في انكلترة مختلفاً ، كما كان تجهيزه في ايران يتأثر بمقدار الكميات المصدرة على طريق تبريز أو الموصل •

وقد أظهر الهولنديون مهارة في التجارة أكثر من مهارة البرتغاليين بأساليب

(١٣) كانت الاختلافات واضحة بين التجار البريطانيين ومعروفة في العالم • وفي العقد الخامس من القرن قاوم احتكار شركة الهند الشرقية التجار المتفرقون من الانكليز • وقد ألفوا جمعية لم تتورع من تحريض الشاه على الشركة ، ولا عن منافستها بالمزايدة في بندر عباس ، على ان الاتحاد قد ساد بينهم في ١٦٤٩ م • وأقلق المجازفون من التجار الشركة عودا على بدء من ١٦٥٤ الى ١٦٥٧ م حتى أمر كرومويل بايقافهم عند حدهم • وفي السنين الاخيرة من القرن تشكلت شركة جديدة عملت على اكتساب جميع امتيازاتها الاولى • وبعد نزاع مر في الهند والوطن ادمجتا احدهما بالآخرى في ١٧٠٠ •

ليست محمودة ولكنها غير عيفة • فقد هاجموا السوق الايرانية بكل سلاح اقتصادي يتضمن الرشوة والدعاية والمضاربة المغرية • وجازفوا بتحمل أوائل الخسائر في سبيل المنافع المتوقعة التي كانوا يأملون الحصول عليها • وكانت ارسالاتهم بمقدار أوسع وسفنهم أحسن من السفن البريطانية وأوسع منها • وكانت في بندر عباس ، والحالة هذه ، أسباب غير منقطعة للاضطدام • فأصبحت الحالة خطرة بحيث بعث الوكيل البريطاني في ١٦٤٥ (١٠٥٥ هـ) ببضائعه الى البصرة في وقت اجتاحت فيه الهولنديون قشما وحصلوا من الشاه امتيازات جديدة • وفي السنين التي تلت ذلك باتت تجارتهم أكثر توسعاً • واستولت قوافلهم المرسلة الى البصرة على تجارة الايراد والجلب الى شط العرب ، وقد أدى طرد البرتغاليين في ١٦٥٠ م (١٠٦٠ هـ) من مسقط لزيادة نفوذهم • وبقيت حالة الهولنديين في تعال مطرد حتى نهاية السنوات العشر من العقد التاسع من هذا القرن حين طراً بعض الهبوط على نفوذهم التجاري وظهر الفلاح في جانب البريطانيين •

وسارع البرتغاليون بعد ١٦٢٢ م الى تأسيس بعة برتغالية في البصرة (أهم ما يهمنا في هذا التاريخ) ، والى مساعدة الباشا في دفاعه وصده الهجمات الايرانية • وكان أول ظهور التجارة الانكليزية هناك وصول سفينة صغيرة بحمولة قليلة في ١٦٣٥ م (١٤٠٥ هـ) لما كانت الخصومة البرتغالية تسمح بالمبيعات بصورة معتدلة • على ان هذا التزاحم أصبح بعد مرور خمس سنوات شيئاً كثيراً بالنسبة الى مجازفتهم الثانية • فقد وصل اسطول برتغالي من مسقط ، فأنزل حمولته وملأ منها الاسواق قبل وصول احدى سفن الشركة البريطانية تماماً • وفي ١٦٤٣ م (١٠٥٣ هـ) أسس معمل ثابت صغير ، ونجح مدة وجيزة انتهت بوصول أيدي الهولنديين الطويلة الى الشط • فقد نقل في ١٦٤٥ م ، كما لوحظ سابقاً ، وكيل الشركة بضائعه المخزونة في غومبرون الى البصرة ، وفي أواخر السنة نفسها ، حينما كانت الحرب التجارية معلنة ، تبين أن اسطولاً هولندياً مؤلفاً من ثماني سفن ، انزل حمولته في الميناء^{١٤} فتدهورت السوق البريطانية في يوم واحد ، ووهنت التجارة • واذ ذاك أهينت الشركة ، التي كانت قد تحررت من تدخل البرتغاليين ، لاستهانة مزاحيمها التجار بها ، ثم تغلب عليها الهولنديون فباعوا

(١٤) ضاحية البصرة المطلة على النهر في رأس نهر العشار

متاجرهم بأقل من أسعار تلك الشركة • وفي ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) أغلق الباشا ممسليها بعد أن بلغته قصص مؤذية بأفلاسها • غير أن عدة من السفن بقيت تتردد إلى البلد قادمة من بندر عباس وسوراة ، ولكن المعمل لم يعد تأسيسه في هذا القرن • ولم يتضح لنا في التاريخ بقاء الهولنديين في البصرة باستمرار خلال هذه السنين ، ولا مقدار محاولتهم لنشر التجارة في العراق •

وكانت الامتيازات الشهيرة قد امضيت في استانبول عام ١٦٦١ م (١٠٧٢ هـ)، فقدر لها أن تنجح وان يصادق أصحابها عليها بعد أربع عشرة سنة • وبذا عينت الضريبة الكمركية على البضائع الانكليزية فأصبحت ثلاثة بالمائة • غير أن وصول الوزراء والاياليتين والانفاقات المدونة كانت تقتضي سفرة تستغرق نصف سنة من ضفاف البوسفور إلى الخليج • وحلت نهاية القرن فلم تقطف ثمرة تلك الامتيازات في تحديد الضرائب الكمركية ولا في العلائق الأخرى • ولذلك كان التجار الأجانب مضطرين يوماً بعد يوم ، عن طريق الهدايا أو التملق أو أية طريقة أخرى تنفعهم نفعاً آتياً ، إلى الاتفاق مع الحكام المتعطين إلى الذهب والاعتبار ، السريعي التهيج والتضليل - العتاة الطامعين أو المشفقين تبعاً لما يتمخض به اليوم من حظ أو طالع •

سقوط أسرة أفراسياب^{١٥}

كوفيء علي باشا ، أمير البصرة منذ ١٦٢٤ م (١٠٣٤ هـ) ، على مقاومته للخطر الإيراني مرتين بحكم مزدهر دام مدة خمسة وعشرين عاماً • فكانت منزلته بالنسبة للسلطان مختلفة التقدير • فقد كان يعد نفسه أميراً مستقلاً ، قائماً بالاعتراف الرسمي الذي كان يأتيه من الخليفة الاسطوري البعيد • وكان يأمل التجار الانكليز في البصرة أن يحتموا بالراية التركية • في حين أن المسافرين بطريق البر إلى هناك يعتبرون أنفسهم مارين بأرض تركية • وقد رضي الانراك بهذه الحال حقيقة ، كما رضوا بها في كردستان من قبل • ومع أن البصرة بحالها هذه لم تفدهم شيئاً فانها لم تكن تكلفهم شيئاً أيضاً ، أو برهنت على قابليتها للدفاع عن نفسها • وكان ما تستند إليه أسرة أفراسياب محلياً ضئيلاً بالنسبة لتحقيق

(١٥) المراجع : تافيرنييه ، زاد المسافر ، بولي لگوز، غودينهو ، سورسيور دوفال ، ثيفنو ، وتفصيل كثير في گولشن ، فون هامر (الجزء العاشر) • والظاهر أن الوصف في كتابات باشا أعيان وفي غاية المرام مستقى من گولشن •

استمرار الحكم • فقد كانت قوتها العائلية التي تستند اليها قليلة ، ولم يكن لها تقاليد النبلاء نصف المقدسة • بل كانت حكومتها حكومة صدفة تمكنت من تسيير الامور الاعتيادية للبصرة وتجارها مدة نصف قرن ، وتحقيق السلم بشرفا للسلطان •

ولم يساعد^{١٦} أمير البصرة الجيوش التركية في كفاحها خارج بغداد حقبة من الزمن • ولم يشارك في جملة السلطان مراد الاخيرة أيضاً ، على أن السلطان لم يفكر في ورود المعونة منه • وقد راجت اشاعة في البصرة - التي مر منها امبراطور المغول - حاصلها ان الامطار الهائلة في منتصف الشتاء هي التي انقذت البصرة من جيوش مراد • على ان ما نرجحه نحن هو ان شروطاً خفيفة للتابعة كانت قد عرضت فقبلت • ذلك لان البصرة النائية المغرية للشاء ، كانت بها حاجة لمعاملة رقيقة ان كانت النية متجهة الى عدم تكرار الحوادث المماثلة لخيانة الصوباشي وانفصاله المعلوم^{١٧} •

وعلى هذا المتوال استمر حكم علي باشا من دون خصم له ولا سؤال عنه طوال مدة الاحتلال الايراني لبغداد ، ولمدة اثني عشر عاماً بعدها • على ان ذلك لم يكن ليخلو من وجود اصطدام مع الباشا المجاور • فقد وصلت منذ ١٦٤٠ م (١٠٥٠ هـ) عريضة لبغداد من سكان عرجة ، وهي بلدة كانت تحت يد أمير من عرب البادية ثم أخذها أمير البصرة ، على حدود امارة البصرة طالين فيها الانضمام لباشوية بغداد • ففكر درويش محمد في ان تلك البلدة تستحق أن ترسل لها قوة تضمها ، فكان ذلك ، ووضعت فيها حامية بأمرة حاكم تابع له • وفي ١٦٤٥ م (١٠٥٥ هـ) أخذ علي باشا قلعة على الحدود تدعى قلعة زكية^{١٨} • فبعث اليها

(١٦) يذكر غولشن ، في بحثه عن حصار حافظ احمد لبغداد ، ان مدفع حصار ضخيم كان قد أمر الوزير بصنعه في البصرة • وهذا يطابق ما ذكره نعيما ان قوات بقيادة قره بكر كانت قد ارسلت شمالا للنجدة (حاشية ص ٦٣) • ولا يوجد أي شيء آخر مما يدل على المساعدة •

(١٧) يذكر بولي لگوز في ١٦٤٩ ان هذا كان مفتاح السياسة التركية مع أسرة افراسياب (ك ٢ ص ٢٩٧) •

(١٨) هذا ما يذكره زاد المسافر ، اما غولشن فيدعوها قلعة دكة

موسى باشا الصغير حملة منظمة ، مع مدافع ووسائل نقل نهريّة ، فرقت حامية البصرة واحتلت الموقع وغيره من المواقع فيما وراء الحدود^{١٩} .

وكان تولي حسين باشا البصرة بعد وفاة والده في ١٦٥٠ (١٠٦٠-١٠٦١ هـ) مدعاةً لتعقد علاقات البصرة . لان حسين باشا لم يكن له مثل الكياسة التي كانت تحجب والده ، لكنه ورث شخصيته القوية وطموحه عنه . فسبب له غفه ، وجوره في بعض الاحيان ، وجود كثير من الاعداء . وتساهله على التجار الاجانب والافقيات النصرانية الضعيفة نفر أبناء بلاده . ثم ازدري باشا بغداد وبدأ بجمع « الكودة » عن أغنام القبائل المعترف بتابعيتها لبغداد وجاموسها ، كما ابقى موظفيه في أوسع قراها . وفيما يلي وصف وصفه تافيرنيه لحالة السلم التي كانت سائدة قبل حملاته التي قضت بها أطماعه :

« تحالف أمير البصرة^{٢٠} مع عدة أمم غربية بحيث أصبح يرحب بكل من يأتي اليه . وكان في البلدة من الامن والحرية ما يجعل التجوال في شوارعها غير مخطر طوال الليل . وكان الهولانديون يأتون الى هناك بالتوابل كل سنة ، كما كان الانكليز يأخذون الفلفل وشيئاً آخر من التوابل . اما البرتغاليون فلم تكن لهم تجارة قط . وكان الهنود يأتون بالاقمشة والنيل وسائر أنواع البضائع . والخلاصة كان في البصرة تجار من جميع البلاد . فمن استانبول وأزمير وحلب ودمشق والقاهرة وجميع انحاء تركيا كان التجار يتواردون لاشتراء البضائع المستجلبه من الهند فيحملونها على الابل التي كانوا يشترونها من البلد نفسه أيضاً ، اذ يأتي بها العرب من البادية لبيعها . اما من كان يقصد البصرة من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وبلاد آشور فكانوا يبعثون بضائعهم على ماء دجلة ، لكن ذلك كان يطوقهم نفقات ويكلفهم مصاعب . وكانت رسوم الكسرك في البصرة بمقدار خمسة بالمائة . وكان في الامكان التسامح بصورة عامة من الكسرك أو من الامير نفسه بحيث لا تتعدى الرسوم

(١٩) يقول هوار : ان حصن «قصر تابع» الحصين بجانب البصرة قد أخطأ كولشن بترجمته ب « بعد طرفه قصر نام قلعه » ، أى أن كلمة «قصر» فقط هي الاسم الحقيقي .

(٢٠) هكذا كان يكتبها السائح - المترجم

أربعة بالمائة • وكان امير البصرة حسن التدبير ، حاذقاً بحيث كان يوفر ثلاثة ملايين ليرا في السنة • وكانت أهم موارد ماله أربعة أشياء : النقود والخيول والابل والنخيل • اما النخيل فكان مصدر القسم الاعظم من ثروته » •

وكانت ضريبة التمر « ثلاثة أرباع اللارين أي تسعين سنتاً فرنسياً » • وكانت الفائدة من الدراهم تحصل عن طريق تبديل « ريبالات » جميع التجار الغرباء في البصرة بـ « لارينات » فيستفيد من ذلك بمقدار ثمانية في المائة •

وكانت تجبى رسوم الكمرك البرية على الحدود ، وفي القرنة عن طريق النهر ، وكذلك في الميناء • وكان الذي يمارس الاحكام العدلية قاض لا يعين من استانبول بل يعينه الباشا نفسه • وقد كانت في البصرة أقليات نصرانية • فقد بقي دير الكرملين الايطاليين ، وتركت بيعة البرتغاليين « اوستن فريزر » عند انقطاع التجار البرتغاليين عن البلد • وعين رئيس الكرملين في ١٦٧٩ م (١٠٩٠ هـ) قنصلاً فرنسياً على كونه غير فرنسي الجنسية •

وحكم حسين باشا في هذه الاحوال المؤاتية مدة أربع سنوات جاءت له بعدها بالمشكلات والقتال الخارجية أفعاله التوسعية في الداخل • فقد أساء معاملته أحمد بك وفتحجي بك ، اخوي والده علي باشا ، ففرا الى استانبول وحصلوا هناك فرمانين بتعيينهما لسنجقيين من سناجق ايالة البصرة^{٢١} • فتسلحا بهذين فرمانين ورجعا الى البصرة وفيها قابلهما بكل تأدب رسمي ابن أخيهما • على انهما سمعا بعزمه على اغتيالهما فدافعا عن أنفسهما دفاعاً مجيداً حتى اكتفى بنفيهما الى الهند • فأبحرا اليهما ، الا أنهما نزلا في القطيف على أحد معارفهما القدماء محمد باشا ميرميران الاحساء^{٢٢} • فكتب المنفيان من هذا الملتجأ الى الباشا في بغداد يصفان حالهما الحرجة ، وهذا الازدراء للباشا •

(٢١) ان عجز السلطان عن مثل هذا التعيين لم يكن شيئاً مهماً في استانبول التي كان أولو الامر فيها لا يرغبون في الاعتراف بانفصال البصرة • ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٧) ان أحد العمين قد عين باشا للبصرة وعين الآخر باشا للقطيف والاحساء •

(٢٢) كانت تعد بلاد الاحساء في هذا الزمن تابعة لامارة البصرة لكن ذلك كان اسماً فقط •

فبادر مرتضى باشا ، وكان والي بغداد منذ ١٦٥٣ م (١٠٦٤ هـ) لدعوتهما بالحضور عنده . ولما حضرا لم يكن كلامهما في مصلحة ابن أخيهما بطبيعة الحال بل على الضد من ذلك ، فكانت الفرصة سانحة لمرتضى . فجمع جيشه وبعثه جاعلاً عليه الكمية رمضان اغا قائداً ، ثم تبعه من بعد ذلك بنفسه وانضم الى القوة في عرجة . فسقطت القلعتان القريبتان - الجولوجية^{٢٣} وعقارة - بسهولة . وناصرت القبائل الجيش الذي جاء ينقذها من حاكم قسوي كان يحكمها . فاعتمد في الثقليات والتجهيزات والادلة والجواسيس وحسن النية على قبائل الجزائر . وسقطت القرنة من دون ان تضرب . وفر حسين باشا الى ملتجأ في عربستان^{٢٤} . فدخل مرتضى البصرة وجعل أحمد حاكماً فيها .

وعلى هذه الشاكلة أعاد زحف موفق حقاً البصرة الى الامبراطورية بعد شبه انفصال دام مدة نصف قرن . وقبل ابن^{٢٥} من ابناء افراسياب المنصب فبقي العوبة بيد الباشا في بغداد . ولاح ان ايام امير البصرة قد أخذت في الافول . لكن الحقيقة هي ان حسين باشا كان من حظه أن يحكم اربع عشرة سنة أخرى ، وذلك بفضل شخصيته النافذة ونقاط ضعف مرتضى الكثيرة . فقد تقبل مرتضى ، بعد ان أصبح سيد المدينة ، هدايا الاشراف الثمينة الدالة على الزلفى ولم يكتف بها . فأمر بالتضييق في حراسة أموال الاسرة المالكة وبإبائاتها في قائمة . فكان ذلك بمقام أول مرحلة للنهب الذي لم يستبق أحداً من أغنياء البصرة حتى خزائن الحكومة . ثم جرى اعدام البارزين من الاشراف بعد ان صودرت أموالهم . وبذلك انغمرت البصرة في لجة من الحزن والخوف بعد ان فرحت باستقبال المنقذ . فهبت المدينة والعشائر معاً من هدوئها وولائها وهاجمت نائرة لاعداء أحمد وفتحني الفجائي . وثارت قبائل الجزائر فهاجمت القرنة ، فمجل مرتضى بارسال امدد الى هناك من البصرة . وكانت المناوشات غير المنظمة التي وقعت في الاهوار وبساتين النخيل تدل على ثبات القبائل أكثر من ثبات جيش الباشا . وكابدت أفواج بغداد أفدح الخسرانات . فبدأ الارتداد التدريجي ، وتراجعت سرية بعد أخرى الى بغداد ، ووجد مرتضى باشا نفسه غير قادر على

(٢٣) قد تكون الصليبية - المترجم

(٢٤) يقول صاحب زاد المسافر انه التجأ الى بهبهان - المترجم .

حفظ موقفه في البصرة • فتركها فجأة صفر الدين^{٢٥} ، وانضم بقسم من جيشه في عرجة ، ثم وصل الى بغداد بعد مروره في مناطق العشائر التي أصبحت معادية عاتية • وعندئذ عاد حسين باشا الى حكومته في الحال فاستقبل استقبالاً تجددت فيه حرارة الولاء في نفوس أتباعه الذين كانوا قد عرفوا قدره بعد ان جربوا غيره • فتابع حكماً رحيماً ومنوراً بصورة عامة ، كثير العطف للتعلم ، وحكماً بالخضوع الاسمي للسلطان^{٢٦} ، ولكنه كان ملوثاً بأخلاقه السمجة وطمعه الجشع • وقد وصف مسافر جزويتي برتغالي^{٢٧} البصرة في ١٦٦٣م (١٠٧٤هـ) بأنها « أعظم سوق تجارية في هذه البحار » واعجب « ببيوتها الجميلة خارج البلد ، وبجناينها وبساتينها ، وبسهولها الزاهرة التي كانت تسقى بعدد كبير من الترغ » •

غير ان تصادماً قاضياً آخر مع الامبراطورية المسيطرة كان ضرورياً لا يحتمل تأخيره عدة سنين • وكانت الفرصة المؤدية لذلك التصادم اطماع حسين باشا ومنافسته لزملائه انصاف المستقلين في الخليج • فقد كان نصب نائباً عنه في القطيف من قبل • وبادر الآن (١٦٦٣ - ٤ م) بارسال قوة قبيلية - بني خالد ورئيسهم الامير براك - لاحتلال الاحساء • فلم يجد براك صعوبة في تسلّم الحكومة من محمد باشا ، غير انه رأى من المناسب ان يحفظ الاحساء لنفسه بدل ان يرجع • وبحملة بحرية سريعة احتل حسين الولاية الثانوية التي كان يطمع فيها ، مع ان محمد باشا هرب الى استانبول^{٢٨} • فاجتمع تجبر حسين

(٢٥) يقول گولشن انه ترك غنائمه وفر وحده ، ويذكر الفون هامر (ص ٣٧٧) انه اخرج من البصرة ، ويذكر ثيفنو (ص ٥٦٨) انه ترك بعد ثورة عامة مع اكثر ما تمكن من حملة •

(٢٦) يذكر زاد المسافر ما نصه : « ثم انه ارسل هدية الى السلطان واشترى تاج الوزارة » - المترجم (٢٧) غودينهو

(٢٧) ان هذه القصة موجودة في جميع المراجع ، ويذكر صاحب زاد المسافر ، وگولشن ان الفظائع التي ارتكبها رجال حسين في الاحساء هيجت غضب السلطان • (المؤلف) • وهاك نص رواية زاد المسافر : « ثم وجه عسكراً الى الاحساء ففتحها • • • وكان فتحها عنوة بالسيف وقتلوا منها خلقاً كثيراً واستباحوا بها فروجا واموالا • وكان هذا الفتح هو السبب في غضب السلطان عليه لان حاكم الاحساء المعروف بمحمد باشا بن علي باشا انهزم الى السلطان وشكى حسين باشا • • • » - المترجم •

الى قصص العنف المروية عن الاحساء فأثار الغضب الملكي . فاعتمد على ابراهيم « الطويل » ، باشا بغداد الحالي المحترم في استانبول ، فكانت جميع الأحوال مناسبة لايقاف البصرة عند حدها . وأنصت الى محمد باشا بكل انتباه ، ثم اصدرت الاوامر بأعادته الى منصبه . فعهد هذا الواجب الى ابراهيم الذي اخبر بأن يجمع جيشاً من نواحيه ومن قطعات ديار بكر وحلب والموصل والركة وشهرزور فيسير به لعقاب آل أفراسياب . فتحشد الجيش في الحلة ، وكانت أول خطوة خطاها الباشا هي ان يتوجه بخطاب رسمي الى حسين يدعوه فيه الى الاستخذاء والاسترضاء . فكان الجواب عن ذلك جواب رجل سليط .

ولقد اُنذر امير البصرة بهذا اُنذاراً طويلاً . اذ كان قد قوى التحصينات في عاصمته ، وفي القرنة ، وانشأ ستاراً عسكرياً في الكمية ، وكان منذ أشهر خلت يخرج السكان العاجزين عن القتال كلهم من البصرة . فأثارت هذه العملية مقاومةً تغلب عليها تهديداته وشراسته ، وتضمنت مناظر ومآسٍ تتشقق لها القلوب . فقد كان ضباطه ، المالك والاحرار ، لا يرحمون مسناً ولا ضعيفاً في الاخراج . وفي المناطق المحيطة بالمدينة ، اتخذت خطوات مماثلة لتحرير البلاد من كل ما يستفيد منه العدو ، وتجعل من الصعب على الباشا الطويل الوصول اليها .

وبدأت قسوات السلطان بزحفها الى البصرة في تشرين الثاني ١٦٦٥ م (١٠٧٦ هـ) . ومع أن رايات باشوات سبعة وما يقارب العشرين من البگات التابعين كانت ترفرف في الفضاء فإن الترتيبات والتحضيرات المقتضاة كانت قد اتملت . والا لما تمكنت مراكز دفاع حسين أن تصمد في وجهه مدفعية المحاصرين . لكن ابراهيم الطويل ، المتطرف في الثقة بنفسه ، اتخذ بالمشورة السيئة وصار يتوقع استسلاماً عاجلاً بحيث ظلت عيونه تنزو الى الطريق كل يوم بانتظار تلك الرسل في طريقهم اليه . فبلغ الجيش الرماحية ولم يصل اليه شرط من الشروط التي ظن انها ستعرض عليه ، ثم تجوهل اذار أخير وجه به الى حسين . فدخل الجيش ولاية البصرة وخيم في المنصورية . وهنا بدأت بمقاومته قوة من قوات حسين غير النظامية مع عدة قبائل ، لكنه شتها من دون جهد وسار في طريقه ، ثم نصب جسر لعبور النهر في المنصورية ، فعب عليه

الجيش متوجهاً الى القرنة حيث كان حسين يدير امور الدفاع بنفسه • فتناولت الايام الى أشهر ولكن القلعة بقيت صامدة للهجوم •

وفي غياب حسين عن البصرة أضاعت له القتن عاصمته بصورة وقتية • فقد وجد ابراهيم باشا الوسائل لتوهمين اخلاص البصريين الأقوياء وولائهم • وحدث في أواخر حصار القرنة ان اضطر حسين من قلة الارزاق (او دفعته مطامحه المحيرة) لاغتصاب سفن مشحونة بالموثون من شط العرب • ولم يعسد الى أصحابها الا قشور سفن مهشمة فارغة • فسارع هؤلاء بدافع الغيظ للانضمام الى الناقمين • واجتمعوا فبعثوا بكتاب الى الباشا الطويل في خطوطه الحربية في القرنة يخبرونه بأن البصرة أصبحت في فوضوية من الحكم والاضطراب ، ورجوه ان يرسل حاكماً عنه لينقذ الميناء من سيدهم • فأرسل سولاق حسين مندوباً عنه • غير ان الشيوخ والتجار كونوا حينئذ سلطة موحدة وفضلوا أن يحتفظوا هم أنفسهم بالحكم على أن يسلموا المدينة الى غريب لا سند له • وفي كلتا الحالتين اضاع حسين المدينة •

فعرض عليه معتمده القديم ، محمد بن بوداق ، ان ينظم حركة معاكسة لهم على شريطة ان يجهزه حسين بما يقتضي لذلك • فكان جوابه له ان يمضي في الامر ، ووعد بامداده بالراحة من العرب • فجمع محمد أتباعه المخلصين له ، وان كانوا اقلاء ، وهاجم البنايات التي كانت تشغلها الحكومة الموقته • وجرى بين الفريقين نضال انتهى بانكساره وموته ، وتسنى بذلك لسيادة البصرة الوقتين أن يطوفوا قرحين في شوارعها الهادئة المضرجة بالدماء • غير انهم سهوا عن أسير الاحتياطات ، وهو تركهم الابواب مفتحة • فدخلت منها الى المدينة القوة التي بعثها حسين للمدد ، وتمكنت في بضع ساعات من تغيير الحال ، فانحلت حكومة أشراف المدينة • ونهبت جماعة منهم ، كما اعدم اثنان واجبر الآخرون على الاستتار أو الهروب • واعترفت البصرة ، على قدر التماسك الذي تمكن مواطنوها المشتتون الفزعون من ابدائه ، بحكم أميرها عوداً على بدء •

ثم تطاولت أيام الحصار في القرنة ، وصد حلفاء حاكم البصرة من القبائل حلفاء ابراهيم باشا عنهم • ولم يتوصل الانكشاريون الواصلون مدداً من بغداد لتحسين الحال الحرجة • اذ لم تفك المقاومة ، ولم تنفع هجمات القوة الهاجمة

المتفوقة في العدة ولا اغراءاتها • بل حوصر المحاصرون هم أنفسهم محاصرة نصفية من جانب المصائب المنتشرة المؤلفة من عشائر الاهوار الذين ظلوا يزعمون الخطوط الحربية بلا هوادة • فقلت التجهيزات وأدت أشهر الخيبة الى هبوط القوة الروحية • وفي الاخير ، فإوض باشا ديار بكر الامير ، من دون أن يشاور القائد العام ، فنظمت الشروط بسهولة • وكان مفادها ان تبقى حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها ، على أن تنتقل من حسين الى ابنه أفراسياب ، وعلى أن ينسحب حسين نفسه الى مكة • وان يرفع الى السلطان الاعتذارات الرسمية ، ويعاد محمد باشا الى الاحساء ، وترجع الغنائم الى السكان ، وتدفع جناية التابعة في الحال ثم مساهمة الى الخزينة الامبراطورية • وقد أرضى هذا الاعتراف التام بضعف الاتراك حسيماً حق الارضاء • فرضي ابراهيم باشا بالمفاوضات ، وأعيد محمد الى الاحساء ، وتراجعت جيوش ابراهيم وزملائه •

عاقبة حسين باشا

لقد نجا حسين باشا النجاة الثانية بفضل دوائه ومثانة سياسته • ورجع الى البصرة في حكم ابنه الصغير بالاسم ، أو لتولية الامارة بصورة عملية مرة ثالثة • على ان التسوية الاخيرة هذه لم يكن ثمة ما يدل على انها ستصبح تسوية دائمة • فقد كانت ما تزال هناك نواة قوية للمعارضة : لأن تقاليد هذه الحكومة المستقلة قد تحملت صدمات غنيمة مدة نصف قرن ، وظل اخلاصه وطاعته لاستانبول شيئاً مشكوكاً فيه •

ثم ارسل يحيى أغا - وزير حسين وقريبه - الى أدرنة مع الكتب والاكياس • فلقني فيها وفداً من البصرة على غير اتفاق • وكان ذهابه الى هناك لمصلحة حسين ، اما وفادتهم فكانت غايتها افهام البادشاه بجوره وعتوه • غير أنه تبعت ذلك اللقاء محادثات خاصة ، واذ ذاك كانت الخيانة وليدة الاطماع أيضاً • فقبل يحيى معروضات الوفد البصري على أن يكون هو المرشح للولاية • فهيج السلطان بتجسيم خطر حسين في نظره ، وبالوعد بارسال جناية اكبر من جانيته • وعلى هذا وصلت الاوامر الى قره مصطفى باشا - الذي كان يحكم بغداد يومئذ مرة ثالثة - بالقضاء على أسرة أفراسياب ، وبنصب يحيى • فأعطي قيادة قوات شبيهة بالقوات المذكورة من قبل ، وانضمت الى معسكره الجيوش من ديار بكر وشهرزور والموصل والركة وكثير من القوات الاقطاعية • وقد بعث طليعة الجيش مع الامتعة

والمدفعية الثقيلة على دجلة الى الجنوب ، ثم ترك قره مصطفى بغداد مع جيشه الرئيس فى الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٦٦٧م (١٠٧٨هـ) • وتخللت سيره البطيء وقفة للزيارة في النجف ، ووقفة أخرى في عرجة • وانضمت اليه في كوت المعمر ثلة قوية من المتفكيين ^{٢٩} •

وكانت القرنة أول هدف للجيش ، فكان عليه أن يعبر ما لا يحصى من الجداول قبل أن يصل اليها • وفى دار بني أسد ^{٣٠} اصطدم الجيش وثلة مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل من أتباع حسين المدججين بالسلاح ، فكسرت شر كسرة وكابدت خسائر فادحة بعد قتال دام عدة ساعات • ففرق رجال القبائل بمشاحيفهم بين آجام البردي العالية في الهور • وشيد قره مصطفى منارة من رؤوس قتلى العدو تشديداً لعزم رجاله • ثم استؤنف الزحف الصعب ، وفى أواخر كانون الاول من ١٦٦٨م (١٠٧٩هـ) أصبح الجيش محيطة بقلعة القرنة ، فرتب ترتيبات الحصار ^{٣١} •

وقد تلقى حسين باشا أنباء هذه الخيانة ، وهذا الخطر الذي بات يهدد عرشه ، بكثير من التهيج والغضب • فصب جامات غضبه من دون رادع على رعاياه المذبذبين ، وعقب في المدينة جماعة من المشبوهين ولم يسلم من ذلك أحد حتى سكان البصرة المحترمون والحرم والمصونات • وبعث بنسائه وعياله الى ملتجأ في عربستان ، ثم خرب قصره ^{٣٢} • وبعد أن اتخذ جميع الاحتياطات رمى بنفسه في قلعة القرنة المنيعه ، التي كان قد حصنها من قبل •

غير أن مقاومته الناجحة في الحملة الاخيرة لم يكن من الممكن أن تتكرر • فبدأ الحصار سريعاً في شباط وطال مدة شهر ، وقد نفذ هذه المرة بحذق أوفر وفطنة أكثر • وكانت أحسن مدفعية الحصار يدير أمرها مدفعيون جاؤوا من

(٢٩) كان المتفكيون مع حسين في الحملة السابقة

(٣٠) المظنون ان ذلك كان في المحل الحالي للعشيرة المذكورة حول الجبايش •

(٣١) ان رواية گولشن لاختبار هذه الواقعة هي رواية شاهد عيان

(٣٢) ويضيف كاريه (ص ١١٣) قائلاً انه عرض حكم البصرة على

الاييرانيين (وربما كان عرضه اياها على والي الحويزة) طلباً لمساعدتهم له ، فرفض طلبه •

استانبول • وقربت المدافع من القلعة شيئاً فشيئاً ، فأفزعت نازها الفجائية المدافعين •
وقد أحاط اذ ذاك باشا ديار بكر مع ثلة من الجيش بجهة من جهات القلعة لم
تكن سهلة المنال من قبل • فكان الخطران شيئاً حاسماً • اذ فر حسين باشا ليلاً الى
المكان الذي أعده لتراجعه في بلاد الحويزة • وانتقض الدفاع ، فهرب الجند
والقبائل الذين كانوا في الحامية كل على رسله وبقدر ما يستطيع ، فمنهم من التجأ
الى الاهوار ومنهم من قصد الالتحاق بحسين في مكان آخر • ففتحت القلعة
واحتلت ، ثم أعلن فيها العفو عن البائسين الباقين من الحامية • ودخل بعد ذلك
الجيش الامبراطوري البصرة من دون مقاومة ، بل صادف أحسن ترحيب ، مع
ان بعض شاهدي العيان^{٣٣} يذكرون التأديبات القاسية التي أنزلت بالمدينة جزاء
لها على خيانتها الطويلة • ثم رفع يحيى الى الباشوية ، وعوهد بأوثق العهود وابقى
في الحامية الف وخمسائة انكشاري ، وسجل ثلاثة آلاف من الجنود المرتزقة •
ورممت القلعة مع خزانة الاسلحة وأعيدتا كما كانتا ، وكذلك نصبت ماكنة الايالة
الرسمية • وبذلك نبذت البصرة امتيازاتها الخاصة وتخلصت من الاخطار التي
كانت تهددها فدخلت في حظيرة الادارة الامبراطورية •

وعلى هذا قدر لحسين أن لا يعود لبلاده مطلقاً ، وحاول بلا جدوى في
شيراز أن يقنع الشاه بشد أمره •

« ومن بعد ذلك سافر الى الهند مع ابنه علي بك ، الى بلدة « اوجين »
وهناك وكل اليه ملك البلاد ادارة مقاطعة ما • ومن ثم وقعا معاً في حومة الوغى
دفاعاً عن الملك وحفظاً لمصالحه ، ولكن بعد أن لحقت بهما نساء اسرتهما من
الدورق التي مايزال نسلهما يقيمون فيها »^{٣٤} •

وهكذا اختفت عن العرش وعن البلاد امارة بيت أفراسياب •

جيل من التقلبات

مايزال أمام البصرة ، التي استرجعت للسلطان على هذه الشاكلة ، جيل من
الجد العائر • فقد قدر لها أن تخضع ايضاً لمستبد محلي • اذ كُتب لها أن ينهكها

(٣٣) الشيخ فتح الله الكعبي

(٣٤) ذكر الخبر مينيون نقلاً عن الشيخ فتح الله ، غير ان قسماً من هذا

يكاد يشبه الاساطير •

الطاعون فتقع فريسة بيد معتصب من العشائر يسلمها ، بعد أن يحكمها ردحاً من الزمن ، الى تابع من تابعي ايران • وتبقى على تلك الحال حتى يطلع فجر القرن الجديد فتقع ايضاً بيد باشا يعين لها على جاري العسادة • وكانت الحكومة التي سمحت بهذا الانفصال المتكرر ، ولم تحسن استعمال رأس الجسر هذا المؤدي الى الطريق البري بين سورية وبلاد الهند ، غير مغنية يومئذ بمناضلة ايران ولا باستبداد حكامها في بغداد • على اننا اذا ما أردنا ايضاح تساهلها في هذه الامور فيجب علينا أن لا ننظر الى أبعد من المشكلات الاصلية : كوعودة المسالك وبعد المسافات ، وشراسة السكان من العشائر ، ومستوى الضبط المنحط ، وسوء الادارة المزمن ، مع الانحطاط العام الذي طرأ على الامبراطورية اذ ذاك •

فقد كان انضمام البصرة ينطوي على قيود لم تستطع اطماع يحيى الشخصية احتمالها • حيث كان بوسعه أن يحتمل وطأة الجيوش الامبراطورية ، والقاضي الذي يعين من استانبول ، لكنه سرعان ما اصطدم بشدة مع الدفتردار • واتتهى النزاع ، المؤلف بين كبار الموظفين ، بتجبر يحيى العلني • فأمر المحاسب بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه وامتنع عن دفع رواتب الانكشاريين • فثاروا ، وفر يحيى الى خارج البلد • وتبين أول وهلة ان الموظفين الامبراطوريين قد افلحوا ، ولكن ذلك كان شيئاً وقتياً • فقد باغت يحيى المدينة بعد أن عجل بجمع جيش من الجنود الاجيرة وأفراد العشائر ، وأحكم اثاره الشعور على الاتراك بين القبائل ، وطرده آخر جندي من جنود السلطان ، وآخر كاتب من الكتبة ثم تسلم الحكومة بسطة مطلقة •

وتبع ذلك تسابق في الاستيلاء على القرنة • اذ سبق ان استولى عليها الانكشاريون الذين أمدهم باشا بغداد على عجل بسريات من الجنود النظامية وبقطعات اكراد بجلان وتركمان اليبات • فوصلت هذه القوة الى القرنة وأنقذت المعتصمين بها ، الذين خاب المجهود العظيم ليحيى في محاولته زحزحتهم عن مواقعهم • فرجع شذاذ جيش يحيى وانتقم لخيئته من سكان البصرة البائسين • وكان السلطان في غضون ذلك قد عين حاكماً حديثاً للبصرة ، وهو مصطفى باشا رئيس الحجاب ، وطلب من سميّه في بغداد أن ينصبه فيعيد المياه الى مجاريها • وعيئت الجيوش من الأيالات المجاورة مرة أخرى • وبينما كانت هذه الجيوش

تنتظر برد الخريف سار المصطفیان معاً بعدة سرايا من الجنود الاجيرة في أحز
أيام تموز • فكانت في ذلك الكفاية ، فقد فر يحيى وأبحر الى الهند^{٣٥} • وبذلك
اختفى عن المسرح خائن عظيم آخر • فرجعت قطعات الأيالات الاخرى الى أهلها •
ثم تقدم قره مصطفى الى البصرة ونصب سمي في الحكومة وترك له ما يحتاج اليه
من الجيش والمال •

غير أن رئيس الحجاب ، غدير المجرب بالحكومة ، الملزم بواجب جمع
الواردات في ولاية تفسخت فيها القوة الروحية وتعدت عدم الدفع ، استقال من
منصبه • فطلب الى والي بغداد أن يزور الميناء ثانية من غير أن يضع ولايته
الحالية • فوصل الى شط العرب في ١٦٧٠م (١٠٨١هـ) ، وتوجه وكلاؤه لكل
سنجق وكل دبرة قبيلة لتدقيق النظر في حسابات الايالة جمعاء • وبعد أن ختمت
السجلات بختمه ترك نسخة منها في خزانة البصرة وأرسل أخرى الى استانبول •
وبهذا اضيفت البصرة الى بغداد كمستلمية ، وسرعان ما عين لها قره مصطفى
نفسه ، وعين مكانه في بغداد (كما رأينا آنفاً) حسين باشا • وكان تعيين قره
مصطفى للبصرة كأيالة مستقلة ، فمات فيها سنة ١٦٧٢م (١٠٨٣هـ) •

وتلت ذلك عشرون سنة من الحكم الاعتيادي • فتعاقبت فيها الباشوات واحد
بعد آخر في فترات طول كل منها سنة أو أكثر^{٣٦} • وحدث ثلاث مرات أن تقلد
وال واحد الولاية مرتين • وعين عبدالرحمن باشا ، الذي كان في بغداد سنة
١٦٧٥م (١٠٨٦هـ) للبصرة في ١٦٨٢م (١٠٩٣ - ٤هـ) ، فحيت الحكومة
للناس ثقافته وديانته وحسن نياته وعززتها • وبعد سنة تعيين في مكانه رجل
مناقض له في شخصيته ، يدعى حسين باشا • لكن تذرمت الناس من جشع القادم
الجديد وأطماعه أدت الى أن تعمد استانبول الى اعادة عبدالرحمن الى منصبه
السابق من جديد • وكان خلفه دفترداراً سابقاً في بغداد رفع في هذه المناسبة الى
رتبة الوزارة •

وفي ١٦٩٠م (١١٠٢هـ) تفشى في البصرة طاعون وبيل أخدم فيها الحياة

(٣٥) راجع كاريه في سيرته في الاخير (ص ١٢٥) ، غير ان باش اعيان
يذكر انه مات فجأة أول فراره من البصرة •
(٣٦) اسمائهم وتواريخهم في تقويم البصرة •

وأخلى شوارعها المكنتزة • فقد كان الناس يموتون بمقدار خمسمائة في اليوم • وتكدست الجثث في الأزقة وبقيت غير مدقونة • وعانت الولايات من وطأته جميع الطبقات ، غنيها وفقيرها ، حتى الحماية الأجنبية فيها • فاعتنت القبائل في خارج المدينة هذه الفرصة ، مع أنها لم تكن أقل تائراً به ^{٣٧} • فجمعت قبائل المتفك والجزائر ثلاثة آلاف خيال تحدث بهم الحكومة وأشرفت على المدينة • لكن أحمد باشا لم يكن بوسعه إلا جمع خمسمائة مقاتل قابل بهم القبائل الغازية وقاومها ، في حرب طويلة في موقعة الدير ، فأفنوا إلا القليل منهم ، وكان الباشا نفسه بين الموتى • ولم يبق بين أسواق البصرة والعرب الفائزين شيء • غير أن الساعة انجبت رجلاً • فجمع حسن آغا الكهية جميع السكان القادرين على القتال • وجعل والياً بالاجماع ، فنظم مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع رجل واحد من القبائل الدخول إلى البلد • وقتل هو أيضاً ، فانتخب في مكانه رجل يدعى حسين جمال • وهكذا استقامت الحكومة التركية في البصرة سنة أخرى •

بيد أن سطوة المتفككين برآسة مانع بن مغاسن قد عظم شأنها في تلك الأيام • وأخذت شكلاً يهدد البصرة ويعد خطراً إلى حد ما بالنسبة لبغداد • فسقط الميناء بيد مانع في ١٦٩٤م (١١٠٦هـ) • ولم يحصل في هذه المرة مصادقة ملكية على الاغتصاب • وفي السنة نفسها توجه من بغداد جيش منتقم يقوده خليل شقيق أحمد باشا الوالي • وجيء بالجند حسب المعتاد من كركوك والموصل ، فاشتبكت الحملة ^{٣٨} مع الجيش القبائلي في منطقة الجزائر • وهناك خذلت وتفرق

(٣٧) ان مراجعنا لآخبار ١٦٩٤ - ١٧٠٠ م هو ما كتبه بايجاز السكاكتن (الكسندر هاملتون (ص ٨٢) • وهو يذكر ان احتلال الايرانيين للبصرة كان قبل تفشي الطاعون ويجعل تفشي الطاعون في سنة ١٦٩١ م • وهذا ما قاله : (فشا) في ١٦٩١ الطاعون بشدة بحيث مات ثمانون ألفاً من الناس ، وفر من بقي منهم إلى خارج البلد فبقيت البلدة مدة سنوات ثلاث بعد الطاعون بلقاعاً تسكنها الوحوش الضارية التي اخرجها من البلدة في الاخير العرب الشرسون المجاورون) •

(٣٨) يذكر الفون هامر (ص ٣٩٦) وينحو نحوه هوار (ص ١٣٧) آخبار وسائط النقل النهرية المنشأة بأمر السلطان مصطفى الثاني ، ومهمة حسين باشا في الرقة بالمسير إلى البصرة • غير ان الظاهر ان حسيناً مات ولم يتحقق شيء • الحملة النهرية •

الجيش ، ونزع رجال القبائل الخشن بدلات الانكشاريين • وأعقب مانع انتصاره هذا باقتراح شروط للمهدنة ، فأعفي من كل شيء بشرط أن يعد الدولة بالولاء في المستقبل • وأصبح خليل والياً^{٣٩} • غير أن مانعاً لم يكن قادراً على امساك نفسه في التهام هذه الفريسة الهينة ، فطرده ثانية واتخذته البلدة والقبائل والياً • ولم يدر بخلد أي باشا غريب أن يأمل نفوذاً شاملاً مثل نفوذه • فقد امتلك قسماً من عربستان ، وكان مسيطراً على ما بين دجلة وعربستان من سهول وأهوار ، وأطاعته بدره وجصان ومندلي • وقد غطت سطوته يومئذ على سطوة الحويزة ، أما على الفرات فقد استولى على العرجة والسماوة والرماحية •

ويكتنف الغموض الاحوال المحيطة بانتقال منطقة البصرة الى أحضان نفوذ الحويزة • ففي ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) بلغ عداؤهما حده الاعلى • ودحر فرج والي الحويزة في موقعة ما رئيساً كبيراً من رؤساء المنتفك • وقدم أشرف البصرة ، الذين ملوا من تقلبات الحكم العشائري ، عريضة الى بغداد طلبوا فيها ارسال وال أصولي اليهم • وكان حسن باشا ، المرشح للمنصب ، في بغداد فتحقق بواسطة وكلاء خاصين الموقف المناسب في الميناء ، ثم تحرك اليه • فاحتلت القرنة ، غير انه لسبب من الاسباب خاب في التقدم الى البصرة ، ففشلت الحملة • وهنا وجد الباشا في بغداد طريقة سهلة لحل المشكل • فقد وصل اليه رسل فرج الله خان يطلبون رخصته في اخراج مانع من البصرة ، فصودق على الفكرة على كل حال • فطارد الخان القوات المنتفكية من البلدة واحتل القلعة فيها ثم احتل قلعة القرنة • غير انه (على عكس اتفاه مع بغداد) أرسل بالمفاتيح الى الشاه • فبادر انشاء حسين ، المعتلي حديثاً على العرش ، بارسالها مع الهدايا الفاخرة الى السلطان ، فتوبت تلك الوفادة بكل تقدير ، وأرسل وفد جليل في مقابل ذلك الى أصفهان •

وقد استمر حكم الحويزة في البصرة عدة شهور • وظل التجار المحليون يذكرون هذه الفترة بكل خير^{٤٠} • اما العلاقة السياسية بشيخ المنتفك فقد كانت

(٣٩) لكنه غير مدرج في قائمة الولاة •

(٤٠) يقول الكابتن هاملتون (ص ٨٢) « وبقيت البصرة عدة سنين بيد الايرانيين الذين شجعوا التجارة فيها ، فانجذب كثير من التجار الاجانب للنزول فيها وخاصة من سورة في الهند » •

علاقة نزاع وحسد تتخللها فترات من التحالف • وظهرت في الأشهر الأولى من القرن الجديد عناصر جديدة للفوضوية بحدوث فيضانات عظيمة في الفرات الجنوبي • فعزلت البلدان ، وجرفت القبائل عن منازلها • وهب الكثير من الرؤساء ليستريحوا ما يمكن استراحه في هذه الكارثة • فاستولى أحدهم وهو ابن عباس ، لعله كان من الخزاعل ، على الرماحية وحسكة وضواحي النجف • وأمسك مانع النهر من السماوة الى القرنة • أما شمالاً ، فقد حاصر سلمان الحلة وأفرع عباس بني عمير بلاد الجزائر ونهبها • وزادت في الطين بلة الخلافات الناشئة بين خانات الجوزية • فدعا الاتراك ثانية فرج الله ، الذي كان في حرب مع المنتفك ، غير أن الشاه عزله بعد ذلك فصالح مانعاً ، وجاء بعده في البصرة داود خان •

ولم يبق السلطان جاهلاً بالأحوال في جنوبي العراق ، وبكونها أصبحت اسوأ مما كانت عليه في عهد حسين ويحيى • وبات اخراج الايرانيين وتآديب القبائل من الواجبات المستعجلة • فعهد بهذا الواجب الشاق الى دلتبان مصطفى باشا حاكم بغداد الحديث ، العنيف الصارم • فجمعت القوة اللازمة وانضمت القطعات الكردية الى قوات التيمار الاقطاعية المرسلة من نصف أيلات تركية الشرقية • ثم أنشئ أسطول من وسائل النقل النهرية في بيره جك وعهدت قيادته الى علي باشا الحاكم المرشح للبصرة • وأرسلت المدفعية الثقيلة على طريق النهر في دجلة الى الجنوب ، ثم سار الجيش ببطء ماراً بالحلة وحسكة الى الرماحية •

ولم يشهد العراق الجنوبي قوة عظيمة مثل هذه منذ جيل • فخفف الرؤساء الذين كانوا لصوصاً بالامس لتقيل أيدي دلتبان ، متذرعين لذلك بمخلف الذرائع • ثم جرى الاشتباك مع جمهرة من القبائل كانت ما تزال معادية في جنوبي الرماحية في أواخر كانون الاول ١٧٠١م (١١١٣هـ) فدحرت تماماً • وقد كونت رؤوس ألف من العصاة المقطوعة هرماً كالح اللون ، وبقيت رابضة أشلائهم ظاهرة للعيان^{٤١} بعد أربعين سنة •

وسمع مخيم مانع ، الذي كان قد التجأ اليه فرج الله ، يعظم الجيش الزاحف وقساوته ففرع كل الفرع • وعهد الى شيخ أدنى رتبة بأجراء المفاوضات بالخضوع

(٤١) أوتر (ص ٢٠٠) ، سستيني (ص ٢٣٥) •

السلمي ، وانتهى القتال • وسار مع الجيش الادلاء الخاضعون الى القرنة التي لم
تقاوم • وسلم فرج الله نفسه ، ثم أعفي مانع أو أهمل • كما تخلى خان البصرة
عن التفكير في المقاومة وهرب • ورحب وفد من رجال الدين والشريعة بدلتبان
في البصرة التي كان قد أنهكها الطاعون والفوضوية وتبدل السادة ، ثم تولى
الأيالة في أوائل مارت علي باشا • فانقضت بذلك عشرة أعوام من الكفاح والضنك
على ما يبدو •



الفصل السادس

حروب العمالة^١

حسن باشا

يدخل تاريخ بغداد في دور جديد منذ تعيين حسن باشا في باشويتها عام ١٧٠٤م (١١٦٠هـ) • ومما يبعث على الارتياح أن نلتفت بالبحث الى حاكم حديث. يمكننا أن نسهب في وصف شخصيته واعماله مدة تزيد على عشرين سنة ، بعد باشوات القرن الاخير الذين لا نعرف عنهم الا القليل • فما من حاكم ، ممن تناول هذا التاريخ ، أشغل مثله منصب الحاكمية مدة طويلة بمرة واحدة الا سليمان الكبير • ولم يكن الذكر المشرف الذي يستحقه في تاريخ العراق مستنداً الى مجرد حكمه الطويل القوي غير المنازع ، ولا الى اصلاحاته وتدينه والامن النسبي الذي نشر لواءه في البلاد ، بقدر ما كان يستند الى احتلاله الموفق للبلاد الايرانية ، وتأسيسه لسلالة من السلالات الحاكمة • فقد قدر للباشوية أن تنتقل الى ابنه اولاً ، ولاختانه^٢ على بناته بعد ذلك ، ممن كانت سيادة الحكم

(١) المراجع لحوادث ١٧٠٤ م (١١٦٠ هـ) - ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) . هي : « حديقة الوزراء » وهي أقدم مرجع محلي ، وقد اعتمد عليه رسول حاوي افندي في كتابه « دوحة الوزراء » وكذلك سليمان بك في « حروب الايرانيين » • وتقل قيمة غولشن في البحث عما يتعدى ١٧٠ من التاريخ • اما شؤون الموصل فأغلب المراجع ثانوية « كالتقويم » و « تاريخ الموصل » لسليمان الصائغ وأوراق وشروح في الكتب • ويرجع القون هامر في بحثه عن هذه المدة الى ما كتبه راشد حتى سنة ١٧٢١ م وجلي زاده ل ١٧٢٢ - ٢٨ وصبحي من بعد ذلك حتى ١٧٤٤م وعزني ل ١٧٤٤ - ٥٠ • وكتب من الايرانيين مرزا مهدي « جهان كوشه » نادر « بصورة مفصلة • وليس ما كتبه هانوي مهما ، ويرجع اليه الاب كروسنكي ، وكذلك رجعنا الى مالكولم وولسن وسايكس • ومن أهم الرحالة الذين كتبوا لهذه المدة هاملتون واوتر •

(٢) الاختان هنا جمع ختن على وزن قلم بمعنى « زوج البنت » •

المملوكي قد توطدت بشخصيتهم وثبتت على عهدهم بحيث لم يعرف العراق خلال قرن واحد حكاماً من عنصر آخر غير عنصرهم • فلم يكن مضمار الباشوية المبتدئ من حسن باشا المنتهي بدادود باشا سوى مضمار سلالي ينحصر أولاً في سلالته ثم في عبيده ، أي مماليكه • وكان تعيين حسن باشا بالنسبة الى استانبول آخر تعيين تمكن من تنفيذه السلطان طوال مائة وثلاثين سنة • لانه هو وابنه ، وهما خادما الخليفة المخيفان في ولايتهما ، كانا قد رسما خط الانشقاق الواضح عن الامبراطورية •

وكان مصطفى بك ، والد حسن سباهيا في جيش مراد الرابع • وثقف الابن ، المولود في أوربة في حدود ١٦٥٧ م (١٠٦٨ هـ) ، بثقافة مدارس السراي • فأعجب به الصدر الاعظم ، وبانت عليه منذ الصغر شجاعته في العمل • وفي ١٦٨٣ م (١٠٩٥ هـ) بدأ بسيرته الرسمية في وظائف القصر • ثم رفع الى مرتبة وزير في ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) فتولى اىالة قونية وحلب واورقة ، وترك في كل منهما آثار العمل العظيم المفيد • وفي ١٧٠٢ م (١١١٤ هـ) عين حاكماً لديار بكر ، ثم خلف علي باشا في بغداد سنة ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) •

ويعد تاريخ باشويته نموذجاً للعناية الشاملة التي كان يقوم بها وال من ولاية بغداد • فلم تذلل حملاته العشائرية الاصقاع البعيدة التي تفصل القبائل غير المذعنة للحكومة ، ولا نكوصها بعد تأديبها بنجاح فحسب ، بل ذلت أيضاً التأثيرات الخارجية التي كانت قد أخذت من قبل شكلاً معقداً غير محلول • فقد كان **لبنى لام** علاقات غير منقطعة من حلف أو حرب مع القوة المجاورة في الحوزة • وكانت الجهتان تغري الجاف والبلباس وغيرهم من قبائل الحدود الكردية والايرانية بالوعد أو ترهيبهم بالوعيد • وكان يقلق قبائل الفرات نصف المتوطنة اخوانهم بدو البادية كذلك • ومن أجل هذا سنستعرض حملاته العشائرية استعراضاً سريعاً قبل ان نلتفت الى أمور أخرى أكثر دقة من أمور الحكم •

فقد عرفت سنته الاولى بتأديبه الصارم للصوص في نواحي الزاب الصغير • وانتهت حملة في الموصل بموقعة حامية جرت فيما يقرب من خان النقطة ، وتلا ذلك توطن القبيلة الثابتة • وسمح الوقت في السنة نفسها لأول حملة

تأديبة جردت على بني لام • وكانت أكبر حملات ١٧٠٥ م (١١١٧ هـ) موجهة على سلمان ، رئيس الخزاعل ، الذي انضمت اليه بعض جماعات من شمر وعنزة ، فنهب قرى بغداد وهدد الحلة • ولم يكن جيش هذا جيشاً قبيلاً هيناً ، لأن شيئاً من الادارة كان موجوداً فيه فأدى لسرعة توسعه • فسار الباشا الى لقائه ماراً بالحلة الى حسكة ، ففرقت قواته وطلب العفو • ولما طلب استسلامه بنفسه فر الى خيام مانع شيخ المنتفك •

وفي ١٧٠٦ م (١١١٨ هـ) استدعى حال شمر العقاب • فعبر الباشا الفرات من جنوب الفلوجة ، وبعد تعقيب شديد انزل بها خسرات فادحة وسلب ائمتتها • وجردت الحملة التالية على قبائل الفرات الاوسط كالحميد والسعدة والرافع ، وقد سبقت هذه الحملة تلبية لتذمر شبيب شيخ قشعم ، وبمساعدة قطعات قبائلية كبيرة • فانتهت الحركات بخضوع العدو • وتلت ذلك حملة على زيد فطلبوا العفو ساعة وصول الباشا واسلموا اليه رؤوس العصيان • غير انهم سرعان ما استأنفوا الاخلال بالامن لما قفل الباشا راجعاً عنهم •

لكن أهم وقائع ١٧٠٦ م - التي وصلت أخبارها بأول رسالة تسلمها الصدر الاعظم الحديث في استانبول^٣ - كانت ثورة مغامس المانع والمنتفكين • وكانت الاسباب المباشرة للثورة أمور تتعلق بحقوق الارض في جزر الفرات ، ونزاعات لسبب الضرائب ، والمنح التي كانت تطالب بها القبائل • وقبل أن يتولى خليل باشا منصبه في البصرة في ١٧٠٥ م تنازع نائبه مع رؤساء المنتفك • فقابل خليل وكهنته قوات القبائل أربع مرات وتغلب عليهم ، ثم عزل الثائر واعترف بالشيخ ناصر شيخاً رسمياً • غير ان مغامساً جمع الاكثرين حوله وشن هجوماً مفاجئاً ناجحاً على خليل • فارتدت بذلك ولاية البصرة بأجمعها الى ما يقرب من أسوار المدينة في أحضان فوضوية جديدة • فاستنجد خليل ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى ، ببغداد • وأمر السلطان كالمعتاد بجمع القوة من الباشوات المجاورين - في كوتاهية وديار بكر وكر كوك والموصل - مع الخيالة من البكات الاكراد •

وفي الاسابيع الاخيرة من سنة ١٧٠٨ احتشد جيش عرمرم في بغداد •

(٣) علي باشا كوري (الفون هامر المجلد الثالث عشر ، ص ١٧٤) ،

تولى الوظيفة في اليوم السادس من شهر مايس ١٧٠٦ م •

وتقدم بعد ذلك الى الحلة ومنها الى العرجة ، ومن هناك الى البصرة من دون أن يلقي مقاومة خطيرة • فقد جرى اشتباك خفيف مع العدو فكانت بينهم موقعة غير حاسمة • اذ انسحب مغاس واختبأ ، وانسحبت قواته الى منازلها العاصمة • فعين حسن باشا سميّاً له حاكماً في البصرة ورجع شمالاً على طريق بلاد الجزائر فأخذ الرماحية ثم غزا داخل ولاية بغداد بمساعدة من **عزرة** • فأعد حسن باشا جيشاً في الحلة ، وفي الحركات التي تلت ذلك عبث رجال القبائل الخفاف بالجيوش النظامية • وكان مغاس يتبعد دائماً عن لقاء الجيش حتى اختفى من غير ان يترك أثراً ، وبقي الحال غير محلول • على ان حسن باشا قد اعطي آيالة البصرة رسمياً باقتراح منه على الارجح ، وكان يحكم عنه فيها متسلم • فدل هذا الحدث على مرحلة مهمة من مراحل الحكم الذي سيتطور بعد هذا •

وفي ١٧١٥ م (١١٢٧ - ٨ هـ) والسنة التي تليها أخذت الحملات التأديبية الباشا من أعالي ولايته الى أسفلها ، والى خارجها أيضاً • فعلم البلباس ، وهم أكراد جليون غلاظ في شرق أربيل ، درساً في الخضوع • وكان بكر بك ، ابن سليمان بك بابان أو ابن أخيه ، قد أثار حسد أصحاب السلطة في كركوك • وفي هذه المرة أزيح عن موقعه ثم اعتقل واعدم • وبذلك رجعت المناطق البابانية الى حوزة النفوذ التركي ، وبقيت كذلك حتى ظهور خيانة باشا في ١٧٢٠ م (١١٣٣ هـ) • وتعد في الحقيقة ، حركات حسن في آيالة شهرزور مهمة ، لانها تتضمن عملية امتصاص وادماج كما كانت حركاته في البصرة من قبل • ثم أعيد النظام الى نصابه في حرير بعد أن أدى اختلاف وقع بين الاسرة السورانية الى سفك الدماء • كما ابيد مكنم لليزيدية اللصوص من سنجار بحملة أفقدت الباشا كهيته وكثيراً من الرجال • وفي السنة نفسها طلب **بنو لام** ، الذين استولت عليهم قوات عظيمة ل**عبدالله خان** والى الحويزة ، مساعدة الجيش التركي • وفي ١٧١٧ م (١١٣٠ هـ) استولى أكراد ايران على منطقة بجلان فأسرع حسن الى المرقع ، ولكن أوقفه عن تعقبه للمعتدين خوفاً من تخطي الحدود الى أراضي الشاه • وفي ١٧١٨ م احتاج الامر لحملة أخرى تجرد على **بنى لام** ، لان شيخهم الذي سجن بعد عزله من قبل ، فر من السجن والتجأ الى الحويزة • وعند تقدم جيش بغداد اعتذر عبدالله خان من ايواء الملتجئ وقدم الترضية باكرامه جميع

الضباط بسخاء • غير ان القلاقل استمرت بين القبيلة وتولى شيخ بعد آخر ، حتى اضطر عبدالله خان نفسه فى ١٧١٩م لمؤازرة بغداد فى الامر • وكانت السنة نفسها مفجعة بتفشي الطاعون الذى فتك ذريعاً بالناس فى أزقة العاصمة المكتظة •

وليس فى الامكان معرفة شخصيات كل مجموعة من القبائل فى هذا الاوان ، ولا الاحوال المختصة بها • ولذلك كان مجرد عد الحروب القبائية يعد مملاً • قليل الفائدة • على ان الحياة الحقيقية فى البلاد ما كانت تخرج عن هذا الوصف ، ولا توجد الا أخبار من هذا النمط • وبمنظارها هذا ينبغي ان ننظر الى الحروب الاجنبية والحوادث التاريخية الحادثة فى هذا الزمن • فقد كانت النتيجة المباشرة لهذه الحملات العديدة الارتفاع الظاهر فى مستوى الطاعة للحكومة من سنجار الى الفاو • ووجد لأول مرة استمرار الضبط ، فسادت العدالة الخشنة ، وتوفرت الصرامة التى كان يعمل عليها الناس عند الحاجة • وهكذا نالت « الدولة » ، التى كانت القبائل تتجاهلها وتزدرىها فى العادة ، احتراماً مؤقتاً ان لم نقل حباً قليلاً • وربط الباشا - وهو حاج عابد - الديانة بالحكومة بتأسيس الجوامع ومنح الاراضي والاموال للاغراض الدينية • ولهذا عرف حتى اليوم بأبي الخيرات أي المحسن • وكان يعنى كذلك بأمر الزيارة لعبات الطوائف جمعاء • وقد برهن على تساهله فى هذا الشأن فسمح فى ١٧٢١م (١١٣٤هـ) بتأسيس دار للبعثة التبشيرية الكرمية • كما أثبت ترميمه للخانات عنايته بالزوار والمسافرين • وضاعف العمل فى شق الجداول رغبةً منه فى اسكان العشائر • وزاد على ذلك ان أنفق مالاً كثيراً على تعمير الجسور فى آلتون كوپري وغيرها ، وصرف عليها مبالغ عظيمة لم تكن تستغني عنها جيوب الباشوات الآخرين • ولم تتحقق علاقاته الحسنة باستانبول الا بأرسال الواردات الى العاصمة بصورة منتظمة • فكوفىء على ذلك ، كما مر بنا ، بالحق البصرة بأمرته ، وبسيادة غير مدونة على شهرزور ، وبضم ماردين ، وهي حكومة « الويووضة » المستقلة الى باشوية بغداد • على أن هذه التغيرات المهمة كانت تغيرات شخصية تختص بحسن باشا وحده ، ولاشك أنها كان يقصد بها أن تكون غير دائمة •

وكانت زوجته عائشة خانم ، وهي بنت رجل من رجال حاشية مراد الرابع يسمى مصطفى ، قد دفنت سنة ١٧١٧م (١١٣٠هـ) فى تربة زبيدة زوجة هارون

الرشيد • واستخدم أخاه علي بك مدة طويلة من الزمن في عدة وظائف غير كبيرة • وكانت فاطمة إحدى بناته قد تزوجها عبدالرحمن باشا (حاكم كركوك في ١٧٢٢م) (١١٣٥هـ) ، كما تزوج صفية ابنته الاخرى قـره مصطفى باشا طرابزون • اما أحمد ، ابنه الوحيد ، فسوف يذكر عنه هذا التاريخ الشيء الكثير • فقد ولد في حدود ١٦٨٥م (١٠٩٧هـ) في جفلكه بالقرب من استانبول ، ورافق والده في مختلف الوظائف التي أسندت اليه • ولذلك أهمل تثقيفه ، غير ان ذكاءه وشخصيته وقابليته الرياضية قد جعلت من سيرته شيئاً خطيراً • فبعد ان عاش في بغداد إحدى عشرة سنة عين باشا لشهرزور في ١٧١٥م (١١٢٨هـ) ، ثم نقل الى قونية ، وأخيراً (ربما في ١٧٢١م) الى البصرة •

(٤) وكانت خديجة خانم ابنة صفية خانم ولىة أمر مؤلف حديقة الوزراء بصورة من الصور •

(٥) ان كتاب « غاية المرام » يجعل أورفة اول ولاية عين فيها ، ويسجل قصته مع والي الموصل ، الذي كان الحصول على عفوه أسهل من الحصول على عفو والده في بغداد • وكان الحاج مصطفى باشا (بطل القصة) باشا الموصل منذ ١٧٢٠م (١١٣٣هـ) • ولذا وجب أن يكون تعيين احمد للبصرة قد حدث بعد هذه المدة • ويعتمد على ما كتبه هاملتون في اخبار البصرة لسنة ١٧٢١م • وهو يذكر الكثير عن سوء الحكم الذي لا يمكن أن يكون قد حدث على أيام احمد باشا هذا • فقد كان باشا البصرة يومئذ رجلاً قد تزوج امرأة من أسرة السلطان ، وكان هذا طماعاً جشعاً • ولما لم يجد معه كل شيء نفعاً رأس المفتي خمسين ألفاً من سكان المدينة فمضى اليه وخيموا على شط العرب ، وقطعت الارزاق عن البلد • وتبودلت بين المفتي والباشا لغة الشرع ولغة الدولة بشدة ، حتى أذعن الباشا الى التفاهم • فطلب الهائجون أن لا يرجعوا ما لم يسلم اليهم عدة من الموظفين الذين كان يتخذهم آلات بيده في سوء الحكم • فسلموا وعفا عنهم المفتي ما عدا واحداً • والقصص الاخرى التي يذكرها هاملتون تختص بالقضاء على جماعة من الانكشاريين جامعي الضرائب وخلاعة الآباء الكرملين • ومن المحتمل جداً ان تعيين احمد باشا جاء بعد هذا الحادث •

قال مصطفى جواد : ان مؤلف غاية المرام هو المصيب فقد ذكر ياسين بن خير الله الخطيب العمري في حوادث سنة ١١٣٤هـ (١٧٢١م) من كتابه « الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون » ما نصه : « وفيها ولي مدينة أورفة أحمد باشا بن حسن باشا والي بغداد وهذا أول منصب وليه » وقال في حوادث سنة

وبلغت حوادث حكم حسن باشا الطويل الامد أوجها في خريف ١٧٢٣ م (١١٢٦هـ) ، وفي ذلك يتعدى جرياتها من العراق الى ايران . ومنذ هذا العهد تستغرق تاريخ العراق لعشرين سنة حملات على ايران كان يقودها ابن الباشا . وهنا نتجه بالبحث التاريخي نحو الحوادث الواقعة في امبراطورية الشاه المؤدية لاعلان الحرب .

الحملات الاولى ٦ : سني ضد سني

كان قد بدأ صلح طويل بين الشاه والسلطان بالمعاهدة التي أمضاها في العراق قره مصطفى ، الصدر الأعظم للسلطان مراد الرابع ، في العشرين من شهر مايس ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) ، فبقيت ايران مدة أجيال ثلاثة هادئة ثمرية لامة . وكان الفجور والترف المتفشيان في البلاط مما يدل على الرفاهية الآمنة ، كما كان الفن والعمران مما يزين الثقافة والتقى . فسلم الشاه صفي الى عباس الثاني ، وهذا الى سليمان ، وهذا الى حسين ، جلال العرش الصفوي ونقاط ضعفه المميتة .

ولم يكن سقوطه ناشئاً عن جوع الاتراك للتملك ، وحقدهم الديني ، ولا عن جشع العاهل الروسي الذي كان يتربص الفرص في الشمال النسائي .

١١٣٥ : « وفيها عزل من اورفة أحمد باشا بن حسن باشا وقدم الى الموصل . . . ورحل الى بغداد . . . ونزل بالدجيل . . . فأقام هناك خمسة عشر يوماً . . . » وقال في سنة ١٣٣٦هـ : « سار بالعساكر والي بغداد الوزير حسن باشا وتوجه الى بلاد العجم ونزل على مدينة كرمانشاه وحاصرها ونهب رساتيقها ثم فتحها وتمرض ومات فأخفى موته كتحذاه محمد كاهية وارسل الى البصرة يستدعي ولده القصور والليث المظفر احمد باشا فقدم على خيل البريد وتولى أمر قيادة الجيش . . . » .

فهذا يدل على أن أحمد باشا تولى البصرة بعد ولايته لاورفة ، وبذلك تتضح مشكلة تاريخية حلها مؤلف التاريخ هذا .

(٦) الرواية المذكورة هنا في تاريخ الحملات الايرانية - التركية في ١٧٢٢م (١١٣٥ هـ) - ٤٥ هي من وجهة النظر العراقية تماما . وقد جرت حركات الحملات في قسم واحد من جبهة تمتد من الخليج الى بحر قزوين .

وانما ثل ذلك العرش على يد فاتح وحشي جاء من بلاد الافغان الجبلية • فقد كان محمود خان بن ويس من قبيلة الغلزاي قد استولى على كرمان في ١٧٢٠م (١١٣٣هـ) فروّع ايران وألقى الرعب فيها • وبعد شهور قليلة عصف العاصفة •

فقد ترك محمود قندهار في أوائل أيام ١٧٢٢ • وسار بجيشه ماراً بكرمان ويزد فوصل الى گولنباد ، وهي من أصفهان على اثني عشر ميلاً • وتدل الحرب المشؤومة التي وقعت هنا بایضاح تام على حيوية الافغانيين المتفوقة • فحوصرت أصفهان وجوعت حتى استسلمت • وتخلّى الشاه حسين عن عرش ايران الى خان الغلزاي ، وبقي هو في أسر رُفّه فيه عنه • وهكذا سلم الخلف العاشر للشاه اسماعيل امبراطورية ايران الى الفاتحين البرابرة • فأصبح السلطان والباشا بازاء شاه أفغاني سني • بينما ظهر مدع صفوي للعرش ، هو طهماسب بن حسين ، بعد أن فر حسين نفسه الى الشمال ليجمع حوله الاتباع • فأوحت الاسابيع الاولى من الحكم الافغاني الآمال الجسام ، غير ان شراسة محمود تغلبت في أواخر ١٧٢٣م على الرأفة التي كانت السياسة تتطلب منه أظهارها من قبل • فقد كشف اسرافه في الفتك منذ هذا الوقت حتى تاريخ موته في ١٧٢٥م عن كونه رجلاً مجنوناً •

وكانت معاهدة پاساروفيتز في أوربة ، التي حررت الاتراك من كثير من المسؤوليات ، قد جعلتهم قادرين على مداقة أعدائهم أو فرائسهم الحساب في الحدود الشرقية • وقد أثار الصفويون المتقلقلون والافغانيون المحتلون الحرص والخوف في استانبول ، غير ان هذا الشعور لم يستتب في الحال • فبقيت السفارات^٧ السلمية المفخمة لمدة ما تأتي بالزيارات بين بلاط الشاه حسين وبلاط السلطان أحمد الثالث ، فيرقبها البغداديون بعيون محدقة • ووصلت أنباء خطر مير محمود الأخيرة الى استانبول بيد أسرع الرسل الذين بعثهم حسن باشا قبل سقوط أصفهان • لكنه تسلم في مقابل ذلك أوامر تقضي باعداد مراكز دفاعه على الوجه الاكمل من دون أن يحتاج اليها فنظف خندق بغداد وأصلح ، ورمم السور المتداعي وألح وكلاؤه في التردد بين أصفهان وبغداد ، مع انه كان يبعث بكتب التهئة الى الفاتح الافغاني

(٧) ترك دوري افندي وصفا لسفارته حين مر ببغداد مرتين • اما سفارة مرتضى قلي فيمكن أن يراجع لاخبارها ما كتبه الفون هامر (ج ١٤ ص ٧٩) •

بطلاقة تهكمية • لكن محمود كان يرد عليه بالتأكيد على عقيدته السنية وابداء الاحترام للخليفة الحقيقي • فلم يكن هناك أي لون آخر من الدبلوماسية يخجل الوزراء الذين كانوا يضمرون العداء في استانبول أكثر من هذا •

ولا يسمح المكان في هذه الصفحات للبحث في المناظرات والديبلوماسية – الايرانية والروسية والافغانية والتركية – التي جرت في ١٧٢٢ – ٢٣ • فقد احتلت القوات العثمانية وجيوش بطرس الاكبر بلاد الكرج وداغستان في وقت واحد ، وذلك قبل سقوط أفصهان • وكان السفراء يذهبون ويرجعون بين باشوات الحدود واستانبول ، وبين موسكو والولايات القزوئية • ثم أعلن الاتراك الحرب في أوائل ١٧٢٣ على جارهم المتدهور ، وأثاروا الحماسة والشراسة في جنودهم بقتاوى رجالهم الدينيين الفظيعة • ووافق الروس في خريف تلك السنة على نصب طهمااسب الصفوي في العرش في مقابل أخذهم نصف مملكته • وكانت الدولتان – السنية والنصرانية – قد تحالفتا على الصداقة الدائمة والحلف قبل ثلاثة أعوام وأخذتا الآن تحكمان ذلك بتجزئة ايران على اتفاق بينهما •

وتبع وصول الانباء الى العراق عن اعلان الحرب على ايران وصول الاوامر بجمع القوات من كل باشوية حتى أرضروم • فطاعت الحامية والجيوش الاقطاعية في الموصل الأوامر ، غير أن حسن باشا وابنه في البصرة فكرا في شيء آخر • وطلبا من سيدهما ان يعلم ان أواسط العراق ان لم تكن لقمة سهلة للأفغاني فهي أحسن القواعد التي يمكن اتخاذها لمهاجمته • فوصلت جواباً عن ذلك الاوامر باحتلال ايران عن طريق كرمنشاه ، وعهدت القيادة الى حسن باشا • وقد توج هذا التعيين سيرته ، وهو في السبعين من عمره الذي تعود خلال العشرين سنة الأخيرة منه ان ينظر نحو الشرق على الدوام^٩ • وبعد ان انضم اليه صهره

(٨) هانوي ص ١٧ • ان اوجه حال الاتراك عند اغتصاب الافغان العرش يومئذ ثلاثة وهي : الخوف من ظهور فاتح حديث يهدد العراق والامبراطورية ، وأمل في الحصول على فرصة يستفاد منها فوائده عند شيوع الفوضى الداخلية في ايران ، والانزعاج من ان سادة ايران الحديثين اصبحوا من السنة •

(٩) تؤكد المراجع العراقية ان مخاوف حسن من ايران منذ ١٧٠٤ ربما كان سببها التصريحات الشيعية غير الحصيفة التي كان يتفوه بها سادة ايران •

عبدالرحمن مع قوة كركوك سار بكل أبهة في طريق ايران ماراً بخانقين مع مدافعه وألويته وقواته التي قضى سنين عديدة في تحسينها • ولقيه بگات القبائل الكردية ودويلات المدن مع قطعاتهم • فوصل جيشه كرمشاه ، وسلم اليه الحاكم الايراني عبدالباقي خان مفاتيح المدينة من دون مقاومة له • فاحتلت المدينة وأصبحت منذ تلك الساعة من ولايات السلطان •

وهكذا أضاف حسن ايالة الى الامبراطورية • وقد اتيح له أن يضيف اليها ايالة اخرى فيما بعد ، وينال شرف فتح ايالة ثالثة • وكان والي أردلان علي قلي خازن^{١٠} قد كاتب بغداد من قبل فأداه خلع سيده الى أن يطالب الاتراك بأسناده • على ان الجواسيس أخبروا حسناً بأن مخابرات جرت بين سنة والافغاني أيضاً ، ومعنى ذلك ان حيلة مزدوجة كانت قد احتيلت في وقت واحد • فبعث خانة پاشا بابان لاحتلال اردلان • واستسلم علي قلي مع معظم أتباعه ، فأصبحت أردلان من ممتلكات السلطان • وجردت حملة أخرى لقتال والي كردستان علي مردان خان الذي تعهد بتأييد طهماسب ورفض الاذعان للحكم التركي • فاستولى عبدالرحمن پاشا مع علي بك ، شقيق القائد العام ، على منطقته ودحره دحرأً شديداً ، وفر ، غير انه استسلم بعد ذلك للمعاملة السخية •

وقضي شتاء ١٧٢٣م في كرمشاه • لكن حسن پاشا توفي^{١١} قبل حلول الربيع ، نظراً لتعبه وتقدمه في السن • فأبنة الجيش بأجمعه ثم ارسل بجثته الى بغداد فدفنت في جامع أبي خنيفة • وقد كانت الحاجة شديدة لخلف له ، وكان پاشا مع أسرته يشغلون مكانةً فوق الجميع • فاسترحت الرسل المستعجلة الواصلة الى استانبول تعيين أحمد پاشا ، فصودقوا على ذلك • وبعد أن أقام مراسيم الغزاء سار الى كرمشاه ، واسترجع بدهائه وسخائه أتباعه المذبذبين وجيشه المتنازع • ولم يكن بوسعه أن يعير الاهمية اللازمة التقارير التي كانت ترد اليه في وصف الفوضوية التي ضربت أطناها في العراق •

وفي ربيع ١٧٢٤م (١١٣٧ هـ) سارت قواته الى همدان • وركب الرسلية

(١٠) يجعل جلبلي زاده الاسم عباس قلي ، وتختلف روايته عن هذه العلاقات قليلاً عما نذكره هنا •

(١١) وأنعم عليه بسبب وفاته هذه بلقب «فاتح همدان» •

قبل الجيش يطلبون تسليمها • فكان كثير من السكان يفضلون الحاكم التركي على الأفغان ، ورأى الكل المعاملة الطيبة التي لقيها أهالي كرمشاه عند الفتح • فكتب الحاكم الإيراني الى أصفهان مستأذناً بالاستسلام ، لكنه لم يحصل على جواب • وبدأ الحصار^{١٢} التركي • وكانت المدينة قد خزنت كثيراً من التجهيزات الحربية ، كما كانت محصنة باتقان فدفع عنها ببسالة • وجد الجيش في حفر الأنفاق ، إلا أنه أصيب بانفجار الألغام • فالت البسالة الإيرانية الثناء الحسن من الناس حتى ثناء العدو • فقد أحدثت ثلاث فجوات في السور جرى منها الهجوم فدام القتال في الشوارع ثلاثة أيام بلياليها • وحل عيد الأضحى فكانت ضحايا النفوس التي أزهقت في هذه المجزرة البشرية • ثم انتهى القتال بهدنة كان من شروطها أن تصبح مدينة همدان وولايتها للدولة العثمانية يحكمها قره مصطفى باشا^{١٣} ، وإن يذكر في الصلاة العامة اسم الخليفة^{١٤} • على أن عدة أرتال من الجيش ، كان يقودها الكثير من رؤساء الجيش والتابعين له ، تمادت في حركاتها لأن المعارضة لم تكن لتخمد بعد • فهزم الله ويردي خان بعد أن أحرز شيئاً من الانتصار • وأذاقه والي مرعش خسراناً عظيماً • ثم صد أبراهيم وخانه باشا هجوماً آخر • سنه لطيف مرزا الصفوي ، فأسر لطيف هذا وتشت قواته •

واستمر أشرف خان الأفغاني ، خلف محمود ، يرسل وفوده الى السلطان لتحتج بكل أنفته على هذه الحرب المستعرة بين السني والسني • فكانت حجة الأفغاني قوية بهذه ، كما كان الرأي العام في تركيا مجمعاً على التأييد • وعرض أحمد باشا ، كغيره من كبار الموظفين ، على استانبول أمر دعاية خطيرة من هذا النمط كانت تبث في جيشه • ومن أجل هذا كانت جيوشه مع جيوش زملائه في الشمال النائي تتدنّى قوتها الروحية وتقل طاعتها ساعة بعد ساعة • وفي هذا

(١٢) دوحة الوزراء ، حروب الإيرانيين ، چلبی زاده •

(١٣) كان قد جيء به الى شهرزور من طرابزون بعدما حول عبدالرحمن من كركوك الى البصرة في أواخر ١٧٢٣ م ، وحل مكانه في شهرزور عثمان باشا دفتردار بغداد •

(١٤) لبست استانبول حلة قشبية بالافراح عند وصول انباء الانتصار • وكتب الخليفة بيده كتاب شكر الى أحمد باشا •

العهد ، أواخر ١٧٢٥م (١١٣٨هـ) ، توجه قواده الى فتح لرستان^{١٥} السهل .
ففر الوالي اللري بعد دفاع غير مجد ، وقبلت قبائل الزاغروز^{١٦} الرئيسة تابعة
الخليفة بالاسم وغمرت ممثله بالهدايا . وفي خلال الشتاء توغل رتل من الجيش
كان يقوده والي الموصل جنوباً في بلاد البختياريين . وبعد أن كان على ثلاثة
أيام من أصفهان ناوش هناك أفغان الحامية السنين القتال ، وعلم بأن اللريين^{١٧}
من ورائه كانوا قد عبروا الحدود العراقية للتأزر مع بني لام وزبيد ، فانسحب
بقواته المضضعة الى همدان^{١٨} .

وفي صيف ١٧٢٦م (١١٣٩ هـ) حملت شؤون مستعجلة أحمد باشا على
العودة الى العراق ، وذلك بعد ان تلاشت العداوات وتوارد رسل أشرف على
المعسكر ، وبعد ان وردت الى الشرق أنباء المناوشات والفتاوى في العاصمة .
ثم حل الخريف فجاء بأكثر الحملات طمعاً وأقلها نجاحاً . فقد كانت الخطة
التركية اغراق شوكوهم الدينية بالظفر . ومن أجل هذا وصلت الى أحمد باشا
نجدات عظيمة مؤيدة تعيينه سر عسكر لها . وعبئت مرافق تركية الشقية باتمها من
ديار بكر الى همدان فالبصرة ، وهيأت لقيادته^{١٩} . فكانت جيوشه المجهزة
على أحدث نظم العصر لا تقل بعدها عن مائة الف رجل ، مع انه كانت جيوش
أشرف تعد بمقدار خمس هذا العدد . وكان يضم الجيش الافغاني قليلا من
المحاربين القندهاريين الذين كانت ذخائرهم غير كافية ومدفيعتهم خفيفة . على
انهم كانوا متفوقين ب ذخيرة الدبلوماسية فقط . فما تقدم جيش أحمد باشا من
همدان متجهاً الى عاصمة ايران حتى توجه اشرف الى مكان هو من أصفهان على
اثنى عشر ميلاً . وفي العشرين من تشرين الثاني كان الترك قد تركوا همدان
بمسافة ثمانين ميلاً ، كما كانت مسافة اثنى عشر ميلاً فقط تحجز بين الجيش

(١٥) ومن المحتمل ان أحمد باشا نفسه وقد رجع الى العراق في أواخر
١٧٢٤م كان مشغولاً بتأديب العشائر هناك . وقد أخطأ چلبي زاده بذكره
كينونة أحمد باشا مع الجيش حيال تبريز في صيف ١٧٢٥م .

(١٦) يذكر ذلك بالتفصيل هانويي (ص ٢٣٢)

(١٧) يشير الفون هامر (ج ١٤ ص ١٣٥ ، ج ١٥ ص ١٥٠) مرتين الى ان
سر عسكر همدان كان عارف أحمد باشا أو عارف باشا فقط ، ولم يكن هذا
الشخص مع جيش همدان قط .

الجب والجيش الضعيف • واذ ذاك بعث أحمد قوة خفيفة امامه لتجز العدو الى الحرب فطوقت بالحصار وقطعت عن الجيش الرئيس قبل ان يخف لاسعافها • وكان هجوم اشرف بسلاح أمض ، فقد اندس وكلاؤه بين البيكات الاكراد فافسدوهم بعودهم بالترفيح والهدايا وبالملك والامارة • وتناقلت الايدي منشوراته الكتابية المنطوية على استنكار الحرب بين الاخوان من السنة • وكانت الرشوة قد جعلت في اماكنها المناسبة • وفي الاخير حضر بحضور الباشا أربعة علماء محترمين • وبينما كانوا يقرعون الحجة بالحجة تعالت الاصوات بالأذان تدعوا الناس الى الصلاة • فنهض الشيوخ الافغانيون بصمت وأخذوا يصلون في وسط أعدائهم ، فكان لذلك وقع عظيم في النفوس • ولما رجع الشيوخ الى معسكرهما ترك قسم كبير من الاكراد معهم •

وكان هم الباشا الوحيد أن يبدأ الحرب تواء • وكان جناح الجيش الايمن يقوده أحد البانين ، وجناحه الايسر يقوده محمد باشا واثنان من الكوبريلين • وكان اشرف يقود جيشه وهو على ظهر فيل • فتقدم الجيش التركي مع بزوغ الشمس بعد ان آذنت بذلك عشر اطلاقات من المدفع • واذ ذاك ظهرت نتيجة الدعاية الافغانية بأشد مظاهرها • فلم يهجم الا الجناح الايمن لجيش الباشا فصد في كل هجمة هجمها ، ولم يشتبك جيشه مع العدو مطلقا • فأمر بالتراجع العام بعد الظهر ، بعد ان ترك في الميدان اثني عشر الف قتيل • وزاد عدد التاركين والمتمردين والمهدين على هذا العدد • فقد ترك الجيش الاكراد بأجمعهم تقريباً ، وانتشروا راجعين لمواطنهم • وتراجع احمد نفسه الى كرمشاه تاركاً امتعته الثقيلة • اما اشرف فقد « رافق الجيش التركي حتى باب المدينة » • وهناك سرح بكل دهاء وعقل الاسرى الاتراك مع جميع لوازمهم من دون ان يطلب اليه ذلك •

وأردف الافغاني هذه الافضلية الروحية والمادية بمعروضات صلح سرية • لان الحرب كانت منذ البداية حرباً جموحاً لا حاجة لها • بيد ان وجود حزب حربي في استانبول ، ورغبة أحمد في أن ينتقم لنفسه ويتلافى خسارته ، حالاً دون انعقاد الصلح • فوصلت قطعات حديثة الى بغداد ، وكان قد تراجع اليها أحمد من كرمشاه ، وزاد في عدد الانكشاريين والمتطوعين المتوافرين لديه الجنود الواصلون من وحدات التيمار الاقطاعية • وفي أواخر ١٧٢٧م •

(١١٤٠ هـ) صار بوسعه ان يستعرض جيشاً حديثاً يبلغ عدده ستين ألفاً • غير ان استعادته لكرمنشاه في أيلول وتقدمه منها نحو همدان لم يكونا نحو حرب وانما كان ذلك فاتحة السلم • فقد وصلت اليه أوامر سلطانية تقضي بفتح باب المفاوضات ، ووصل الدبلوماسيون من استانبول لمساعدته • وقبل أن تضرب أية ضربة كانت عشرة أيام من المداولة والمفاوضة كافية لوضع شروط الصلح والتوقيع عليها • فقضت بأن تكون همدان وكرمنشاه وأردلان ولرستان من حصة السلطان • واعترف بكون أشرف ملكاً على ايران خاضعاً لسيادة الخليفة الروحية • ورجع أحمد باشا الى الاحوال المضطربة في ولايته ، بعد ان بقيت الحاميات التركية في الممتلكات الجديدة • وأما أشرف فقد عجل بالرجوع لتهدئة العواصف التي لم يكن بوسعه التغلب عليها •

نادر قلي وحصار بغداد

كان الافغان قد ظفروا بالتاج بفضل سرعتهم وحيويتهم القبائلية ، وباضمحلال الصفويين • ولأجل المحافظة عليه كانوا بحاجة الى ايران لا قابلية لها في توليد الخصوم ، والى الاتصال بقواعدهم التي يستمدون منها قوة الرجال في أفغانستان • فلم يتوفر لهم هذان الامران • واقتربت النهاية ، بعد أقل من عشر سنوات مرت على اغتصاب الحكم ، على يد آخر فاتح آسيوي عظيم عرفه العالم •

ولد نادر قلي في خراسان سنة ١٦٨٨ م (١١٠٠ هـ) من اسرة « لم تكن نابهة ولا حقيرة »^{١٨} وكانت تنتمي الى قبيلة الافشار • فقضى صباه المغمم بالمجازفة راعياً وقاطع طريق ، ثم ضابطاً في الجيش غير النظامي • وكان قبل ان ينضم الى طهماسب قد بلغ مكانة رفيعة في عشيرته ، فصار له كثير من الاتباع المخلصين • وفي ١٧٢٧ م (١١٤٠ هـ) كان وراء خمسة آلاف محارب من الافشار والكرد لنصرة المدعي بالعرش الصفوي في فرح آباد • فلما عهد اليه أمر استرجاع خراسان نجح نجاحاً باهراً ، ثم حصل في عدة أسابيع على القيادة العامة لجيوش طهماسب قلي خان ، ووقع على عاتقه واجب عظيم هو واجب انقاذ بلاده من الافغان

المفتصين • فقهر هؤلاء قهراً شديداً مرتين في سنة ١٧٢٩ م (١١٤٢ هـ)^{١٩} • واستعبدت أصفهان ، وكان موقفهم الأخير فيما يقرب من شيراز • وهناك تشبثوا بالكلية ، وقبض على أشرف فذبح ، وتلاشت بذلك أسرة الغلزاي من إيران حتى الأبد • فاعيد الصفوي للعرش ومن ورائه الأفشاري الطامع من دون رحمة • وأردف طهمااسب توليه العرش بإيفاد سفير الى استانبول يطلب إعادة الولايات الغربية • وعلى ضفاف البوسفور هناك كان الوزير العظيم يفاض الوفد الإيراني يوماً بعد يوم • وفي بغداد كانت الأنباء التي تردّها من الشرق والغرب تؤذّن بدنو الحرب •

وكان نادر في إيران لا يرغب في تجنب الحرب ولا يتصور أمكان ضرب الصفح عنها • وفي ربيع ١٧٣٠ م (١١٤٣ هـ) اشتبكت جيوشه مع الجيوش التركية المستندة الى همذان بسرعة • واضطر عثمان باشا أن يتقهقر الى الحصن حيث انضمت قواته الى قوات تيمور باشا وان • « فقتل نادر قلبي الباشوين ، واستولى على مدفيعتهما مع غنائم جسيمة ، ثم دخل مدينة همذان من دون أن يلقي مقاومة واستقبله الاهلون بفرح منهم عظيم ••• »^{٢٠} وعندئذ انسحبت الحامية التركية الى كرمشاه بعد ان خسرت امتعتها ، ثم عبرت الحدود القديمة من هناك الى زهاو وخانقين •

ووصل الى أحمد باشا ، وقد بوغت بهذه الصدمة الفجائية ، في الوقت نفسه تقريباً بآ إعلان السلطان أحمد الثالث للحرب فوجد نفسه سرعسكر مرة ثانية^{٢١} • وبعد ان جعل زهاو قاعدته ومركز احتشاد قواته تقدم الى كرمشاه فاستعادها من دون حرب • كما رجعت على نفس الشاكلة أردلان الى حوزة الولاء التركي • وكان نادر يومئذ بعيداً عن هذه البلاد في خراسان^{٢٢} فوقع

(١٩) يستحيل علينا تصديق ما ذكره جهان كوشا وجونز بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة حاكم همذان كان في نصرة الافغان •
(٢٠) جونز الصفحة ٣٢ •

(٢١) ان الفون هامر (ج ١٤ ص ٢٥٣) وهو مستند الى أخبار صبحي في هذا البحث يذكر ان علي باشا حكيم زاده كان سرعسكر الجيش • ولا تؤيد المراجع العراقية ولا الإيرانية هذا الخبر ، كما لا يتفق ذلك مع روايته في ص ٢٥١ •
(٢٢) ان ما يذكره صبحي ويستند اليه الفون هامر (ص ٢٥٤) انه كان حاضراً مع الشاه غير صحيح •



نادر شاه

واجب مقاومة الجيش الغازي على طهاسب الضعيف الحسود • فخفض مسرعاً الى أريوان في الجنوب ليلقي الخطر • وكان أحمد باشا مخيماً قرب همدان ، فتراسل قواد الفريقين مراسلات رنانة غير مجدية • ووقعت الحرب في كوريجان، وهي من همدان على مسيرة يوم واحد ، في السادس عشر من ايلول ١٧٣١ م (١١٤٤ هـ) • فاضاع الشاه نصف جيشه باجمعه ، بينما كانت خسائر الترك لا تزيد على الف رجل ، وتركت جميع المدفعية الايرانية وجميع الاصقاع التي استردها نادر قلبي من قبل • وكان حاكم تبريز وحاكم شيراز الشريفان بين القتلى • ثم احتلت همدان من دون عنف فعهد الى بيك العمادية وويوضه ماردین قيادة الارتال المسرعة لجمع الذخائر المتروكة والاسرى المتفرقين ولتثبيت الحكومة التركية • وعندئذ لم يحاول طهاسب محاولة أخرى للمقاومة ، كما لم يحاول أحمد التقدم • ووصلت لاحمد باشا رسالة شكر وتقدير من السلطان الجديد محمود الاول •

غير ان أزمات التنازل عن العرش والفتنة والخلع ، التي مرت بها عاصمة الامبراطورية في أواخر تلك الايام ، حدث الصدر الاعظم على ان يعجل بالصلح قبل أن يهدد نادر شاه الدولة بساعده القوي تهديداً ثانياً • ووصلت تعليمات ذلك الى أحمد باشا في مخيمه بهمدان في خريف ١٧٣١ م • وكان نادر قلبي ، الذي كان وحده يأبى الصلح ، غير حاضر لمعاكسته • فاستغرقت الاشهر الاخيرة من سنة ١٧٣١م والايام الاولى من سنة ١٧٣٢م المفاوضات في همدان • وفي اليوم العاشر من كانون الثاني امضيت المعاهدة • فكانت المطالبات العثمانية معتدلة • فقد بقيت تبريز وأردلان وكرمنشاه وهمدان والجويزة كلها في حوزة امبراطورية الشاه • وصودق على دبلوماسية باشا بغداد هذه بعد ان توقفت بديوان حافل في العاصمة ، وانسحب هو الى حدود مراد الرابع القديمة •

وان كان بوسع أحد ان يأمل ان معاهدة كهذه سوف تحدد اطماع الافشاري ، فان ذلك الامل كان قصير الامد • لانه لم يكن الا في بدء عمله •

« ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا نطالب بحق لا نزاع فيه في زيارة قبور الائمة علي والحسين والمهدي وموسى • ونطالب بجميع الايرانيين الذين اسروا في الحرب الاخيرة • • نحن سائرون حالاً على رأس جيشنا المظفر

لتنسجم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح في ظل أسوارها » •

بمثل هذه اللهجة خاطب نادر أحمد باشا في الوقت الذي كان فيه الصيف قد انتهى وقدم خريف ١٧٣٢ م • وقد وقع الكتاب بصفته الوصي الجديد على العرش بروح الفاتح الحققة • فقد انتهى أمد طهماسب ، لان اندحارات حملة ١٧٣١ م ، وضياح همدان ، وعقد معاهدة حقيرة ، كلها أعطت نادراً الفرصة لذلك • فقتض عهد الصلح لاسباب دينية وسياسية • وانذر السلطان بتهديد جاف مقتضب ورد فيه انه يحاربه ان لم تعد الولايات الايرانية الباقية في الحال • ثم خلع طهماسب عن العرش ، وجعل الصبي عباس ميرزا شاهاً لايران ، على ان يكون الوصي عليه نادر نفسه • وبذلك اصبحت بينه وبين العرش الايراني خطوة واحدة في امكانه أن يخطوها متى شاء •

اما أحمد باشا فقد احتل ممرات الحدود في درنة ومندلي وبدرة ، وعزز حامياته في زهاو وقصر شيرين • هذا زيادة على اصلاحه مراكز الدفاع ومخازن الحبوب بكل عناية • كما اُخبرت استانبول بسرعة دنو الخطر • وتحشد أتباع نادر قلبي وأشراف مملكته وقواته في همدان ، فكانت قوتهم تتألف من مئة ألف مقاتل • فسار بهذه القوات الى كرمنشاه^{٢٣} ، وبعد ان ترك مدافعه الثقيلة وأمتعته في ماهي دشت تقدم مسرعاً طاوياً الخبره الى نقطة زهاو • فدهمها متدراً ظلام الليل ، فصارت في يده عند الصباح • ثم سار من هناك بجميع قوته فعبّر الحدود الى العراق لعلمه باستعداد أحمد في بغداد • وبما انه لم يكن يتوقع حصول مقاومة شديدة في شمال العراق فصل قسماً من جيشه فبعثه لتدبير أمر كركوك والموصل ، ولقطع اتصالهما ببغداد • فتقدم هذا الجيش ومر بطوز خرماطو وعاث مفسداً بقرى كركوك^{٢٤} ، غير انه خاب في محاولته فتح القلعة • وصد الحاج حسين باشا الجليلي بسهولة قوة صغيرة بعثت لاستكشاف أمر الموصل ، فانضمت

(٢٣) أعيدت كرمنشاه الى ايران بموجب معاهدة ١٧٣٢م غير ان هانويي (ج ٢ ص ٧٦) يذكر انها كانت لا تزال تركية ويشرح اخبار حصارها وتسليمها ، ومن المحتمل ان الاتراك لم يكونوا قد سلموها حتى ذاك التاريخ •

(٢٤) لقد أخطأ صبحي في بحثه عن احتلال أربيل ، لان روايته لخبار الحركات تدل على جهلة بطوبوغرافية البلاد •

تلك القوة الى الجيش الرئيس في الجنوب •

وعبر نادر قلي ديابي من بهرز في أول اسبوع من كانون الثاني ١٧٣٣ •
فجرت له مناوشات طفيفة مزقت فيها قوة تركية ضعيفة شر ممزق • كما اندحر
اندحاراً تاماً قسم " استطلاعي قوي من الجيش كان قد بعث لتعرف حقيقة
العدو وقائده باشا كوي الذي قتل في المعركة ، وتلا ذلك تطويق بغداد التام •
وكان عشرة آلاف ايراني قد عبروا من قبل الى الجانب الايمن لدجلة من شمال
المدينة ليستولوا على ضواحي العاصمة الغربية ، وليقطعوا طريق قوافل الجنوب
الواصلة من الحلة والجنوب • وأُرسلت على هذه القوة ، التي لم يعرف مصيرها
بالضبط ، قوة من جنود ديار بكر وحلب^{٢٥} • وبينما كان نادر يحتل في الجانب
الايسر مواقع الحصار كان أحمد باشا يحاول متmadياً منع عبور العجم الى الجانب
الايمن • وفي العشرين من كانون الثاني احبط حملة البنادق الخفيفة الذين كان
يقودهم الباشا اول محاولة جرت للعبور • فتمكن في أثناء الليل قسم من
الايرانيين من العبور ، الا انهم ردوا عند انبلاج الصباح • وألح نادر على قطع
النخيل وجد في قتل الجبال من خواصها قصد استعمالها في انشاء جسر للعبور ،
ولاجل ان يهيء الوقت الكافي لذلك عرض معروضات الصلح • (وهذه انتهت
الى استانبول ، وأدت بعد نقاش طويل لارسال طوپال عثمان) • وقد أنهى
المهندس الاوربي الذي أُسند اليه انشاء الجسر على بعد عدة اميال من شمالي
بغداد مهمته • فعبرت عليه قوة يقودها نادر ، كما عبرت قوة أخرى بالزوارق
فتألف من ذلك رتل قوي زحف الى الكرخ • وتمكنت جماعة من كشافة جيش
أحمد باشا أن تنجو بنفسها بعد لأي لتخبر سيدها بالامر • فصار من المنتظر ان
ترتفع الاسعار في بغداد لانقطاع قوافل الفرات عنها • وأرسل الباشا قوة متألّفة
من ثلاثين الف مقاتل الى الجانب الايمن يقودها نسيه ووالي أورفه • فكانت
للمدافعين الارجية بمدفيعتهم التي لم ينقل مثلها نادر الى مقره هذا • وجدت بعد
ذلك مناوشات تلتها حرب عنيفة • فرجحت كفة الاتراك مدة من الزمن حتي
خاف الوصي على حياته ، الا ان نجدات ايرانية عبرت بسرعة مفعمة بالجرأة

(٢٥) وهذه رجعت الى بغداد بناء على طلب أحمد باشا لها أثناء الصيف ، اذا
كنا نثق برواية صبحي •

فغيرت الحال • وانسحبت القوة التركية الى المدينة بعد ان كابدت خسراً •
واذ ذاك أمر أحمد باشا بالانسحاب العام الى الجانب الايسر • فحضر نادر لاحتلال
رأس الجسر في جانب الكرخ • وبعد ان تمتع بالتسهيلات المتوفرة في البلد
بعث قسماً من ضباطه للاستيلاء على المدن الفراتية ، ولتأدية التحية للعبات المقدسة •
واحتفل بعيد النيروز « رأس السنة الايراني » - ١٩ مارت ١٧٣٣ م (١١٤٦هـ) -
بأفراح عظيمة في المعسكر • ووصل شيخ الحوزة وشيخ بني لام ليقدموا واجبات
الاحترام لنادر • فاستقبلا بلطف وبشاشة وأمرأ بمهاجمة البصرة ، الا انهما
رجعا الى أوطانهما فتجاهلا ما أُمرا به من التعليمات •

وقد أصبحت بغداد مطوقة من جميع جهاتها ، وظل الباشا محصوراً في
داخل السور يخشى كثيراً من السكان الايرانيين ان ينتصروا للعدو انتصاراً
لا شك فيه • حتى ان شائعة راجت تؤذن بأن وجوه المدينة كانوا قد استفسدوا
بذهب نادر • ومر الربيع ثم انسلك الصيف بعده فخفت همسات الانقاذ الذي
كان مأمولاً من الخارج • اضاف الى ذلك ان الحامية كانت قليلة العدد فلا
تستطيع القيام بهجوم فجائي الى الخارج ، وكثيرة بالنسبة للارزاق المحدودة
المقدار • وقد جعل ضعف الايرانيين في المدفعية الاستيلاء صعباً بالهجوم وسهلاً
عن طريق الحصار الطويل • وكان مع أحمد باشا صهره وكهنته سليمان باشا
ونسبه قره مصطفى وغيرهما من الباشوات ذوي الرتب العالية ، لكن عيب القيادة
الذي كان على عاتقه لم يشاركه فيه أحد من هؤلاء • وكان يبين للناظر من أسوار
بغداد ما يشابه المدينة من الابنية المقامة في خطوط المهاجمين • فان كثيراً من
الضباط الايرانيين كانت ترافقهم عوائلهم فبنوا لها دوراً متقنة البناء • وكان سوق
المعسكر ملآن من السلع الرخيصة بأسعارها ، وكانت مقايضة هذه الحال بالمجاعة
المتزايدة في الداخل مما يؤثر تأثيراً سيئاً في نفوس المحاصرين • كما كانت
آمالهم تزداد خيبةً بالنجيدات التي كانوا يشاهدونها كل يوم تدخل في معسكر
نادر ، وهي نجيدات لم تكن في الحقيقة الا من أرتال الجيش الاصلي التي كان
يعيشها نادر ، على سبيل الخدعة ، لترهب حراس السور في الليل • وعلى هذا لم
يكن مستغرباً ان يتسلل قسم من السكان اليائسين الى الخارج زحفاً من الباب أو
رمياً بأنفسهم من أعلى السور •

وكان نشاط الباشا قد استخدم كله ، ليس في الحرب بل في سبيل ادامة المقاومة • فكان يبعث رسلاً مخادعة فيأتون من الخارج الى بغداد بأخبار سارة مكذوبة تنبئ بقرب وصول النجدة • وقد عجب وفد من العلماء الايرانيين ' ادخلوا بغداد لمحااجة علمائها حين رأوا الكثير من الخبز معروضاً للبيع بأسعار يستدل منها على رفاهية بعيدة عن الضنك • ولم يكن ذلك سوى تدبير مخصوص دبره الباشا ، بأن جمع كل الخبز الموجود في بغداد وعرضه بهذه الصورة ليخدع العدو • ولما ارسل نادر حملاً من الرقي على سبيل الاستخفاف بجوع السكان بعث اليه أحمد بهدية نفيسة من أفخر الخبز • على ان هذه المداعبات ومعروضات الصلح ، أو التراضي غير المقصود ، لم تكن لتخفف من ويلات المجاعة^{٢٦} المظيعة التي أشبّت أطفالها ، ولم تبتعد كثيراً دنو أجل الانقاذ الذي أصبح على قاب قوسين أو أدنى في منتصف الصيف •

وحل تموز فأوشكت الآمال أن تفنى • فبقي الباشا وحده رابط الجأش قوي العزم • غير انه هو أيضاً كان متردداً بين الامل لوصل جيوش طوبال عثمان التي تأخرت طويلاً ، والقنوط من وصولها • ولو كان هذا القائد العظيم قد تأخر عدة أيام أخرى من ميقات وصوله أو كان ضعيفاً عند الوصول ، أو كانت بغداد تنظر في محتتها هذه الى قائد أول شخصية وشهرة من أحمد باشا ، أو كان نادر قد أظهر في هذه الحملة فطنة تناسب ما أبداه في فتوحاته الاخرى ، لكان تاريخ بغداد والعراق وتركبة قد سلك حقاً مسالك اخرى • فلم يكتب لاية مدينة مهددة أن تغلت من عدوها كما كتب لبغداد ، كما لم يكن وصول أي منجذ في الوقت المناسب للانجاد مثل وصول طوبال عثمان •

المنفذ الأعرج

لم تظهر على مسرح العراق الحديث شخصية أكثر رومانتيكية من شخصية عثمان باشا الأعرج • فقد ولد في اليونان ، وتثقف في « سراغليو » باستانبول ، وترفع بسرعة الى أعلى المناصب حتى أصبح في الاخير قائداً عاماً في اليونان ،

(٢٦) يقول جوزيف أمين (ص ٥) ان المسيحيين كانوا يعيشون عيشاً حسناً بذخيرة الطعام التي ادخروها بحكمتهم ، مع انه كانت الاكثرية المسلمة تأكل الكلاب وأدنى من ذلك •

ثم والي الروم ايلي • وكانت الجروح الممضة قد شوهته فبان كأنه مسن ، وقد أثر أحد هذه الجروح في رجله فصار يلقي صعوبة في المشي عليها ، ولذلك لقب بـ « طوپال » أي الاعرج • وكان يتحلى فوق الشجاعة والخدمة باخلاص ، بسجاياء نادرة • فكان سخياً شريفاً غير مطعون عليه رقيقاً متواضعاً • فلم يكن له أعداء ، بل كان كل جندي صديقاً له • وقد حدث ، بعد تقاعده عن منصب الصدارة العظمى توأ ، ان شاع الخطر المحدق ببغداد في استانبول • فعين سر عسكر في آسية ليرد الخطر • وخوّل السلطة التامة في جمع القوات واستخدام الموارد المختلفة في الايالات الشرقية • فزحف بجيش كبير^{٢٧} • واستغرق مسيره نصف سنة تقريباً • وربما دل تأخره عن ميقات الوصول على جهله بحرج الموقف في بغداد • وقد وصل الى الموصل في أوائل حزيران ، ثم تسلم في كركوك كتاباً بعث به اليه نادر بلهجة الازدراء الصلف • فقد تمنى له الوصي رحلة سريعة نحو حتفه ، وهدده بالقبض عليه كما يقبض على « الطفل في مهده » تعريضاً له بالعاهة التي كانت تضطره للركوب في محفة • وكانت تبين على طول البلاد التي مر بها الى بغداد آثار السيف والنار التي أضرمها العدو عند مجيئه • وتأخر جيشه في عبور الزابيين • وقبض قرب كركوك على جاسوسين أو منهزمين ، وبعد أن استحلفهما للاخلاص بعثهما الى أحمد باشا مع كتاب يذكر فيه التريث ، والانتظار الطويل قبل وصول النجدة • فنفذ الإيرانيان ما كان يقصده القائد بعينه وهو ايصال الكتاب الى نادر قلبي قصد أيهامه بتأخر وقت وصول الجيش •

وسلك في سيره من جنوب كركوك طريق العظيم • وعند وصوله الى دجلة وافاه كتاب من نادر قلبي يطلب فيه أن يختار موقعاً لمسكره وان يستعد للقتال • فاحتبس الرسل والجواسيس من الإيرانيين ، ثم سرحهم في الاخير لينقلوا الى سيدهم أخباراً غير حقيقية دبر أمرها خديعة • وكانت برودة عثمان وحكمته وطول اناته مما يبعث الثقة ، في وقت كانت سداجته توجب النقد • وقد بقي مطلعاً على كل شيء بواسطة جواسيسه ودوريات الجند التي كان يرسلها للتعرض الخفيف • فرجعوا اليه في السابع عشر من تموز وأخبروه بأن نادراً كان قد

(٢٧) ان القوات التي كان قد تألف منها الجيش المذكورة بالتفصيل فيما كتبه صبحي (الفون هامر ج ١٤ ص ٢٨٦) • ولم تتعد القوة مائة الف ، كما ان المعلوم انها وصلت الموصل وعدتها ثمانون الف مقاتل •

ترك معسكره في بغداد وتقدم عشر مراحل الى الشمال • وعلى هذا كان يحتمل وقوع الحرب في اليوم التاسع عشر من الشهر • فدعى طوپال ضباطه وأبلغهم آخر تعليماته المفصلة • فوقف الجيش في اليوم الثامن عشر مع ان الايرانيين كانوا يكدحون مشياً نحو الشمال للقائه •

نهض طوپال من نومه الهادئ في ليلة الحرب وطلب من أطبائه جرعة تزيد في قوته في يوم الايام هذا ، ثم صلى كعادته • وقد وصفه طبيبه بما يأتي :

« وبعد أن انتهى من صلاته امتطى صهوة جواده ، بعد ان لم يكن يركب من قبل طوال مدة سير الجيش لانه كان يحمل في محفة منذ أن ترك ديار بكر • ولا يمكن أن أعزو القوة التي أظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية والنار التي كانت تتأجج بين أضلاعه ••••• وقد رأيت أنه ركباً كأنه فتى يافع وبسده السيف ، فكانت سيماء تبعث في الناظرين الحماسة والنشاط ، وعيناه متألفتين حين يصدر أوامره بخفة تعجب وفكر يقط • »

وبدأت الحرب مع طليعة الجيش التركي في الساعة الثامنة من صباح اليوم التاسع عشر^{٢٨} وكان الضبط متساوياً عند الفريقين ، ولم تدع أساليب الحرب يومئذ وانسباط ساحة القتال سبيلاً لاتخاذ الخدعة إلا فيما ندر • أما عدد الجيوش فقد بان فيه شيء من الرجحان بجانب الاتراك • فاصطدم الفريقان ، وارتدت خيالة الاتراك فقط أمام جيش الايرانيين الرئيس المؤلف من خمسين ألف مقاتل بقيادة نادر نفسه • غير ان مشاة الاتراك كانوا من وراء الخيالة المتقهقرة كالبنيان المرصوص • فقد وقع ثلاثمائة رأس من الايرانيين أمام السر عسكر ، ولاح ان الظفر كان بين يديه • إلا ان ارتداد الفين من أكراد جيشه عكس عليه الحال فصعد مد الايرانيين وأخذت المدافع من بولات باشا وابراهيم باشا ، وأحدثت قسراً ثغرة في خط الاتراك بجانب دجلة • فدعا طوپال عثمان جيش احتياطيه المؤلف من عشرين ألف بعد ان طوى كشحا عن مشاوريه الذين أشاروا عليه بالرجوع ، فاستعادت الارض والمدافع التي خسرها من قبل • وبذا طغى مد

(٢٨) ان التفاصيل العسكرية الاخرى موجودة في هانوي (ج ٢ ص ٨٦) ، وفي نيكوديم (فون هامر ج ١٤ ص ٥٢٢) ، وهاتان الروايتان تتفقان بصورة عامة فقط •

الأتراك بقوة مرة ثانية ، وتقدم الانكشاريون من قلب الجيش على طول خطهم •
ولم يعد بوسع نادر أن يجمع رجاله بعد ان كلفه تعرضه من دون وجل للمخاطرة
فقد حامل لوائه وقرسين من تحته • وبعد تسع ساعات من حرب دامية سجال
غربت الشمس على الايرانيين وهم مندحرون مترجعون متفرقون ، فأحرز الباشا
الاعرج نصراً ميباً •

وملأت ساحة الحرب الواسعة جثث آلاف القتلى والجرحى من العدو •
وكانت الغنائم تشتمل على جميع المدفعية الايرانية بحجومها المختلفة ، وجميع
خيامهم وأمتعتهم ، وجميع مؤوتهم بما فيها الثمار الطازجة والحلويات ، وكذلك
أعلامهم وآلاتهم الموسيقية وكراعهم (حيوانات النقل) • وبهذا اغتنت قوات
الباشا المنهكة الفرحة • أما الباشا نفسه فقد بكى ، في مجلس عام يضم قواده
وضباطه ، من فرحه وتعبه الممض ، شاكراً كل قائد على المجهود الذى بذله وحامداً
لله على الانتصار^{٢٩} • وقد خسر الايرانيون ثلاثين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير •
وكانت خسرات الأتراك أقل من ذلك بقليل • وقضى يومان في تنظيف ساحة
الحرب ودفن الموتى ونقل الجرحى الى الموصل • وقد وجد بين الجرحى
اليرانيين حمو نادر قلي وابن أخيه ، فعوملا بالحسنى ثم ارسلوا الى الوصي •
وارسلت رسائل الظفر من محل الواقعة الى السلطان ، وإلى بغداد ، وإلى كثير
من حكومات الامبراطورية • وجاء جماعة من الهاريين بأبناء مفادها عبور نادر
الى ايران من الحدود •

وفي ساعة الانتصار أمر أحمد باشا بهجوم مفاجئ الى الخارج من أبواب
بغداد ، فجرى ذلك وانقض الأتراك على القوة - المؤلفة من ثمانية آلاف - التي
تركها نادر لتديم الحصار ، فأيدت عن آخرها ولم يسلم منها انسان • وفي الثاني
والعشرين من تموز وصل دفتردار بغداد الى طوپال عثمان بكتاب التهنة • وفي
مساء الثالث والعشرين ، عندما بان الجيش المنقذ من أعالي السور ، ركب أحمد
باشا الى المعسكر • فكان اللقاء قصيراً رسمياً على صبغته الدراماتيكية في تاريخ
العراق • وقابل في اليوم التالي طوپال عثمان الزيارة بالمثل ، ولما كان يستهجن
المراسيم بعد انتصار كان سببه قوة خارقة ركب من دون حاشية ولا أبهة ، فدخل

المدينة التي كان أخذ منها الجوع مأخذه ، وقتك بها المرض ودوتى فيها صوت الموت . فانه لم يصل الطعام اليها على اكتظاظها منذ كانون الثاني حتى أواخر تموز ، وقد مات من الجوع ما يزيد على المئة ألف أنسان . فرميت جثث الالوف منهم في النهر ، وبقيت جثث الباقيين تملأ الهواء بعدواها فجاءت بالمرض أثر المجاعة . وقد بلغ الوهن والضعف بمن عاش من السكان الذين شهدوا دخول أشرف رجل في عصره - وكان مؤثراً في تواضعه - حداً لم يستطيعوا معه أن يتذوقوا النجاة والرفاه المقبل^{٣٠} . ثم رجع الباشا الاعرج الى معسكره الواقع على بعد عشرة أميال من شمال بغداد ، واستراح ثمانية أيام .

والى هذا الحد كانت حملته مقترنة بالنجاح التام المستحق . وقد جعله انقاذ بغداد بيوم واحد ، وهو الشهر المحترم ، معبود العراق الناجي من الكرب واستانبول على حد سواء . وقد كان من مصلحته أن يموت بعد هذا الظفر ميتة نيلسون ، لان الاندحار والموت ، على العكس مما كان يأمله ، كانا ينتظرانه في الاراضي العراقية نفسها . فقد انجز مهمته ، فأنفذ بغداد حقيقة . لان نادر شاه لن يكون بوسعه فتحها على تخييمه حيال أسوارها مرتين فيما بعد .

وبينما كانت بغداد تتماثل يومياً الى الشفاء انسحب عثمان الى الشمال . وقد قل جيشه (برغم قتلته من قبل ووصول حده الى خمسين الفاً) شيئاً فشيئاً بتسريحه الجيوش الاجيرة الى ولاياتها العربية والكردية . ولم يكن بوسعه أن يقيت حتى البقية الباقية من الجيش النازلة قرب بغداد . وقد طلب في كنبه الى استانبول جميع أنواع النجدة والتجهيزات ، غير ان انباء انتصاره قوبلت في العاصمة بأفراح بالغة . وانهالت عليه الالقاب والتفويضات الا أن العدد والتجهيزات التي طلبها لم يبق منها شيء ، ولم يعف من القيادة بحسب ما كان يرغب فيه . فخيم في كر كوك خائفاً وجلاً ، غير مجهز . أما أحمد باشا (الذي كان من المأمول أن يتخلى له عن الجيش) فقد توقع مثل طويال ان الوصي لا محالة معيد الكرة . فرمم سور المدينة وأصلح الخندق والقلعة ، ثم ملأ مخازنه من الحبوب التي

(٣٠) يصف نيكوديم ذلك بقوله « ... وصل الفاتح العظيم ، ذو البأس الشديد طويال عثمان مع جيشه المنتصر الى بلد الامام الاعظم ، فتوافد عليه الاهلون من جميع الطبقات شبيهاً وشباناً يقبلون أقدامه ويمسحون عنها الغبار » .

جمعها من فضلات الحصار السابق •

وكان استرداد نادر لقواه دالا على عظمتهم بوضوح^{٣١} • فقد وقف بعد تركه العراق في همدان ليعيد تنظيم جيشه ويزيد عليه ، فتقاطرت القطعات من كل ولاية إيرانية • وما مرت أسابيع قلائل حتى أصبح المتشردون القليلون جيشاً قوياً دبت فيه الحياة • فسار الى كرمشاه ، وكانت وجهته الاولى جيش عثمان لا بغداد • لانه ليس من الممكن ان ينجح أي حصار كان وفي ساحات الحركات جيش يقطع على الهاجمين اتصالهم بقاعدتهم ، وعلى هذا سار بجيشه شطر كركوك •

وما زالت طلبات عثمان لجند حديث وغدد جديدة غير مجاب اليها • على انه نجح في جمع قطعات صغيرة لا من استانبول بل من الولايات المجاورة كسورية والموصل وديار بكر ، ومن شيوخ العرب • وكانت الشائعات الواصلة الى معسكره بالقرب من كركوك لم تبخس قوات الوصي المنتظرة حقها من حيث العظمة ، ولم تستهن بعددها • فأرسل پولات پاشا مع ستة آلاف مقاتل ليقف في الحدود فيصد العدو ، الا انه فشل في مهمته وتركها وانسحب • اما الحركات التالية لذلك فكانت غامضة الامر • وانما المعروف ان طوپال عثمان حصن معسكره من جهة ، ومن جهة أخرى كان يبعث بالقطعات الصغيرة من جيشه لتناوش العدو القتال لانه أخذ يتقرب شيئاً فشيئاً ، فقال بذلك نجاحاً بين بين • وفي الاخير كان سهل ليلان ، الممتد من كركوك جنوباً وشرقاً بين الجبال النواطة الى نهر طاووق ، ساحة قتال في الحرب الاخيرة • وفي السادس والعشرين من تشرين الاول ١٨٣٣ م (١١٤١ هـ) كان الجيشان قد تصافا وجهاً لوجه للحرب • وكان جيش نادر الجديد على مثل ما كان عليه جيشه المدحور قبل ثلاثة أشهر من العظمة ، وأكثر استعداداً منه ، اما هو فقد أضعاف في هذه المرة ثقته المفرطة بنفسه ، لكن طوپال عثمان كان على أسوأ حال • فقد قل جيشه عما كان عليه من قبلي ، مع استراحته ، عدة آلاف ، وكانت حركاته المدافع للابقاء على

(٣١) ان أحسن المراجع للحملة التالية هو هانويي (ج ٢ ص ٩٣ - ١٠٠) • ولا تستحق أخبار جهان كوشا التصديق ، كما ان صبحي لا يذكر منها الا القليل • ولا تضيف المراجع العراقية الا بعض النقاط •

جيشه لا لانقاذ مدينة عظيمة • فدحر الجيش التركي اندحاراً تاماً في الحرب التي وقعت ، ولم ينج من الجند الا القليل • ولم يكن بوسع ذلك البابا الاعرج أن يجمع جنده ، مع ما اوتي من حذق وبسالة • واضطر هو نفسه أن يترك محفته فيمتطي جواده ثم يختر منه قتيلًا • قتلاشي جيشه وانعدم • ووقعت في يد الايرانيين جميع الامتعة والمدفعية ووسائل النقل ، واسر الكثير من جيش البابا • وجيء بجثة طوپال عثمان الى محضر الوصي « الذي وقف صامتاً مدة من الزمن وهو يتأملها بخشوع تام » قبل ان يعث بها محروسة الى بغداد •

وان بين هاتين الشخصيتين المتناقضتين ما يدعو للمقايسة • فقد كانا يتفان في خدمتهما لبلادهما فقط ، وكان أحدهما قد تبدل حب الناس اليه لقساوته المتعاطمة وجشعه المكروه ، كما كان الآخر سخياً رقيقاً جداً • وكان أحدهما يقود رجاله بكبرياء « جسمه متناسب ، ومظهره الانيق ، وصوته المدوي ، وشجاعته الفائقة مع عزمه وذاكرته المدهشة وحيويته الغزيرة » ٣٢ مع ان الثاني كان رؤوفاً غير صارم ، ومتقدماً في السن ، لا يستطيع الركوب الا بصعوبة يجدها • وكان نادر ظاهر التفوق بنباهته وقوة مفاجاته وطموحه ، كما كان عثمان باشا متفوقاً باخلاصه لبلاده ولمثله العليا بالروحانية المثل •

وقد أحدثت أبناء الهزيمة العظيمة رعباً متساوي المقادير في استانبول وبغداد • وكان الهياج عظيماً في العاصمة الى حد ان وضع فيها حرس اضافي منعاً لشوب الثورة • وكان رجال الديوان الامائل يفضلون أي صلح كان على متابعة الحرب بازاء قائد نصف ساحر ، بينما كان الآخرون يلحون في نجدات أخرى ، فصوت على المال والرجال ، ثم عين عبدالله كوپريلي سرعسكر في آسية ، وأمر حكام الولايات بالانضمام اليه •

اما بغداد فلم تكن لتتوقع شيئاً ، فجددت التحصن ولها أضعف الآمال في النجدة • ورفض أحمد باشا ان يسمح لجماعات المنهزمين من جيش عثمان المتشتت بالدخول الى المدينة ، لان قوته الدفاعية كانت كافية وكان في البلدة كثير ممن « يأكل ولا ينفع » • وقد سمح الجميع من رغب في ترك المدينة أن يتركها ، وبعث هو بعائلته الى البصرة • ولم يتأخر في انجاز التدابير لدفع ما كان يخشاه

من الامور • وقد تقدم العدو المنتظر عن طريق الخالص الى بغداد وأقبل على ترميم بنايات الحصار المحكمة • وكان قد بعث من قره تبه قبل وصوله قوة عبر دجلة لتحقيق خضوع المناطق الفراتية وتجهيزاتها • ولم يخش الايرانيون في هذه المرة قدوم جيش منقذ من الشمال ، ولم تزعجهم حرارة الصيف التي لم يألفوها • على أن الامل الوحيد للمحصورين في الداخل كان في قائدهم وتدابيره التي اتخذها • غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن • فقد حدث ما لم يكن في الحسبان • لأن نادر قلي ، وهو اللامع الجذاب ، كان قد أطال الغياب عن بلاد لم تخضع الا بعد لأي ولن تهدأ وفيها الاتباع الطامعون • فوافته الانباء نبأ ثورة خطيرة شبت نيرانها في فارس لمصلحة الصفويين • ولذلك لم يكن بوسع أن يستغني عن الاسابيع التي كان يحتاج اليها لاختضاع بغداد • فكان الصلح لدى الباشا نجدةً نزلت من السماء • فتبذلت الكتب بينهما ، وكانت الشروط تلك التي كان يرجع اليها المتبارزون الكادحون من الترك والاييرانيين في كل فرصة • وهي لا تخرج عن اعتبار حدود السلطان مراد والتسريح العام للأسرى • فعقد الصلح وسرح الاسرى ثم تهادى القائدان الهدايا • وارسل أصل المعاهدة الى استانبول للتصديق عليها • وبعد أن زار نادر قلي العتبات المقدسة رجع لتدبير شؤونه المستعجلة في ايران •

نهاية النزاع

أيد الرسل الذين جاءوا بالمعاهدة الى استانبول أنفسهم انسحاب جيش نادر قلي التام من العراق • وكان يومئذ عبدالله كويريلي على رأس جيش قوي في أرمينية ، كما كان اسمه يوحي الثقة الى النفوس عندما تعالت أصوات الاستئثار للبطل الصريع لدى وصول جثة طويال عثمان الى استانبول • فتغلب رأي الحرب في ديوان السياسة • وتركت المعاهدة ، المقودة في وقت الضيق ، جانباً وانتعشت الآمال عند ابتعاد الخطر • فأبقيت القوات التركية في الشمال على مرابطها في شرقي الحدود • ثم نقل أحمد باشا من بغداد ، فدل ذلك على عدم اعتبار المعاهدة التي عقدها • فسلم حاكمية أورفة^{٣٣} متقبلاً أوامر سيده لاسباب معقدة • وشهدت سنة ١٧٣٤م (١١٤٧هـ) بعد قضاء نادر على الثورة التي رجس

(٣٣) كان تحويله الى حلب في أول الامر ثم نقل الى أورفة بطلب منه •

من أجلها عن بغداد ، هجماته الجديدة الموقعة على قلاع الحدود التي كانت ما تزال بأيدي الترك . فقد حوصرت تفليس وأريوان وكنجه . وفي حزيران ١٧٣٥م كان المسرح مهياً ليلتقي فيه بموقعة حاسمة نادر والسر عسكر التركي الذي عززت قواته بكثرة ، وكان مستريحاً منذ مدة . فوقعت بينهما معركة مخيفة في بغاوند ، بالقرب من قارص ، أضاع فيها عبدالله كوبريلي حياته وجيشه بأجمعه تقريباً . ثم احتل نادر المدن التي كان قد حاصرها من قبل وتوجه لفتح داغستان وبلاد الكرج السهل عليه .

واذ ذاك ندم أولو الامر في الباب العالي لرفضهم معاهدة كانون الاول ١٧٣٣م . فعين أحمد باشا ، الذي كان حينئذ في أورقة ، سر عسكر برتبة ممتازة في آسية وخول المفاوضات من أجل الصلح . فتحرك الى ارضروم ، وسار السفراء فوق العادة بين الفريقين . لكن نادر اشتط بمطالبه في هذه المرة ، وطلب الدية زيادة على معاهدة بغداد السابقة . فلم يتوصل الفريقان الى نتيجة ما مدة أشهر عديدة . ورأى نادر أن يترك أمر علاقاته بتركية ، فأكمل استعادة الولايات القزوينية من روسية فقلد وسام « شرف ايران » في الحادي عشر من شهر مارت ١٧٣٦م (١١٤٩هـ) . وأوضح في الاحتفال الذي أقيم لذلك اصلاحاته المهمة التي نوه بها من قبل في كتاباته الى البلاط التركي . فأعلن تمسك الشيعة بالعقائد الدينية الاصلية وانضمامهم اليها باسم المذهب الخامس ، وهو المذهب الجعفري . وقد كان يرمي بهذا الى تسهيل معاملاته مع تركية وايجاد أهمية لعائلته السنية ، ثم توحيد العناصر التركمانية والكردية والافغانية التي في جيشه ليعادل بهم العناصر الشيعية التي فيه وما زالت مقيمة على ميلها الى الصفويين . فحيا السلطان بارتياح ظفر الديانة الحقبة . ثم أمر أحمد باشا في هذه المرة بأن يعجل في عقد المعاهدة . واستمر البحث ، فكانت مطالب الشاه النهائية تنحصر في تعيين أمير إيراني خاص بالحج ، وتسريح الاسرى ، والاعتراف بالمذهب الجعفري الجديد باعتباره مذهباً أصلياً . فبحثت في ثماني جلسات رسمية من جلسات الديوان الملكي النقاط الدينية والدبلوماسية . وفي النتيجة عقدت معاهدة تحتوي على الجمل الضروري . على أن تكون فيها الحدود تلك التي عينت في ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) ، وعلى أن يعترف باسلام الايرانيين الصحيح .

وهكذا انتهت لفترة ما الحرب الناهكة المييدة التي أضرمها الشره التركي والارتباك الإيراني في ١٧٢٣م (١١٣٦هـ) ، وتوقفت بصلح قصير الامد في ١٧٢٧م ، فجددها معيد العظمة الإيرانية في ١٧٣٠م ، ثم هدأت بضعف آخر الصفويين في ١٧٣٢م . فقد حث الإيرانيون بتلك المعاهدة فشنوا حرباً ضروساً حتى الايام الاخيرة من سنة ١٧٣٣ ، وسرعان ما أبطل السلطان الصلح الذي عقد في تلك الايام . وفي النهاية ، عقد في السابع عشر من تشرين الاول ١٧٣٦م صلح كان الأمل قوياً بدوامه . فأزيل الخلاف الديني وأعيدت الحدود الى خطوطها التقليدية ، ونال نادر مكافأة أطماعه المتعاطمة . ثم توجه الآن من ظفر الى آخر في الهند ، بينما رجع بطل بغداد الى الحكومة التي رحبت به بعد سنتين^{٣٤} قضيتها في الحكم الضعيف .

وكان السبب في تجدد الحرب ، التي لا تريدها تركية ولا تحتاجها ايران ، يعود الى اصرار الشاه الجموح على شروط كان من المستحيل على تركية أن تقبلها - وقد كان ذلك اصراراً يدفع المرء الى الشك في وجود خلل عقلي ناشئ عن طموح اشبع بأكثر مما يجب واقترب بالقسوة الجنونية والجشع اللذين عرف بهما الشاه في سني حياته الاخيرة . فقد بعث الى السلطان من قندهار في ١٧٣٨م (١١٥١هـ) بكتب أريد بها بوضوح أن يبقى باب العداوات مفتوحاً على مصراعيه في المستقبل . فطلب ديار بكر وأرمينية والحق على أن يتخلى السلطان عن حلفه مع المغول في الهند وان يهد ما اصلح من سور بغداد ، فلم يجبه السلطان . وفي ١٧٤١م (١١٥٤هـ) ذهبت سفارة إيرانية طالبة الاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري . فرفض الطلب وأعلن مروق الجعفرين وكونهم مباحين لآبناء السنة . واذ ذاك التقى الرسل من الترك والإيرانيين على الحدود ، ثم عززت الحاميات في بغداد وأضرروم . فرددت الألسن من أقاصي تركية الى أذانيها أطماع الشاه وولاء أحمد باشا الغامض في بغداد ، الذي ما كان هو ولا غيره راغباً في حرب أخرى وتحصن جديد .

(٣٤) حكم في هذه المدة الحاج اسماعيل باشا فنجح قليلا مدة سنة واحدة .
ثم خلفه محمود باشا الاعرج سنة ١٧٣٥م فوجدت في أيامه القبائل الحرة
الحاميات المتمردة مجالا واسعا للعبث .

وقبل اعلان الحرب في تموز ، عبرت الجيوش الایرانية الحدود العراقية في مندلي وشهرزور وأفزعت بغداد بالخطر الداهم لها . فبذل أحمد باشا جميع مجهوده في تموين عاصمته وترميم سورها وحصونها وسد ثغرات الحصار من جهة ، وسایر الوكلاء السريين الذين أوفدهم العدو من جهة أخرى . وبينما كان الزرع أخضر عالياً في المروج في ربيع ١٧٤٣م وصل رسل الشاه الى بغداد . على أن احترام الشاه وتقديره لاحمد جعلاه يرغب في استمالته بدلاً من تهديده مباشرة . فكانت رسالة الشاه اليه كما يأتي : « لست راغباً في ضررك ولا في انزال الضرر ببغداد ، انما أنا أنزع السلطان ، فسلم أليّ ولايتك وسوف لا تندم على ذلك » . فشرح الباشا حاله هذه للسلطان ، وأطال في جلساته ومفاوضاته للسفراء الایرانيين حتى حصدت الجيوب من المزارع . ورد في الاخير بجواب مبهم كان فحواه « خذ الموصل أسلم اليك بغداد » . لكن الوقت لم يسمح بالضرب على هذه النعمة .

ومع هذا فإن أعظم الضربات المنتظرة وقعت في شمالي العراق لا في أواسطه . فقد تقاطرت القوات الى كركوك على طريق شهرزور وحاصرت حصونها . وفر ضباط الحامية الكبار الى الموصل وما وراءها عندما اخبروا بكثرة عدد القوات الایرانية البالغ عدد المقاتلين فيها ٣٠٠٠٠ مقاتل ، وتبعتهم القوات النظامية . فغمر جيش الشاه الريف وعاث فساداً فيه ، واعتصمت شراذم التركمان والكلدانيين من سكان المدينة بقلعتها العالية ، وحوصروا فيها مدة أسابيع ثلاثة . ثم استسلموا بشرط أن يؤمنوا على أرواحهم وأموالهم . على ان المدينة كانت قد رُوت أشد الترويع ، فقتل خمسمائة من المدافعين عنها ثم زحف الجيش الایراني فحصر الزاب الصغير واحتل أربيل ، ومن هناك سار الى هدفه الثاني : مدينة الجليلين .

وكانت الموصل على أتم استعداد . فقد أعد لها الحاج حسين وسميه المحافظ عدة الدفاع اعداداً روحياً ومادياً . فكانت الخنادق العميقة مهيأة وكان قسم من السور قد بني بحجارة جديدة وسدت الثلم والثغرات فيه . ثم أعدت أخضر الاستعدادات فعينت المراكز للمدافعين ، وملئت المخازن من الجيوب . وتفاطر

سكان القرى الى المدينة^{٣٥} . وكانت الموسيقى العسكرية ودورات الباشا بين كراة^{٣٦} الخندق وبناء السور المشتغلين باستمرار تلهمي الجميع وتجبب اليهم العمل . فتضافرت بذلك مجهودات الجميع من الجليليين الى الشحاذين . ورفض بكل اباء ممكن وفد ايراني ، قدم طالباً الاذعان بالطاعة للشاه ، وهنا كان الفصل الحامي قد انتهى .

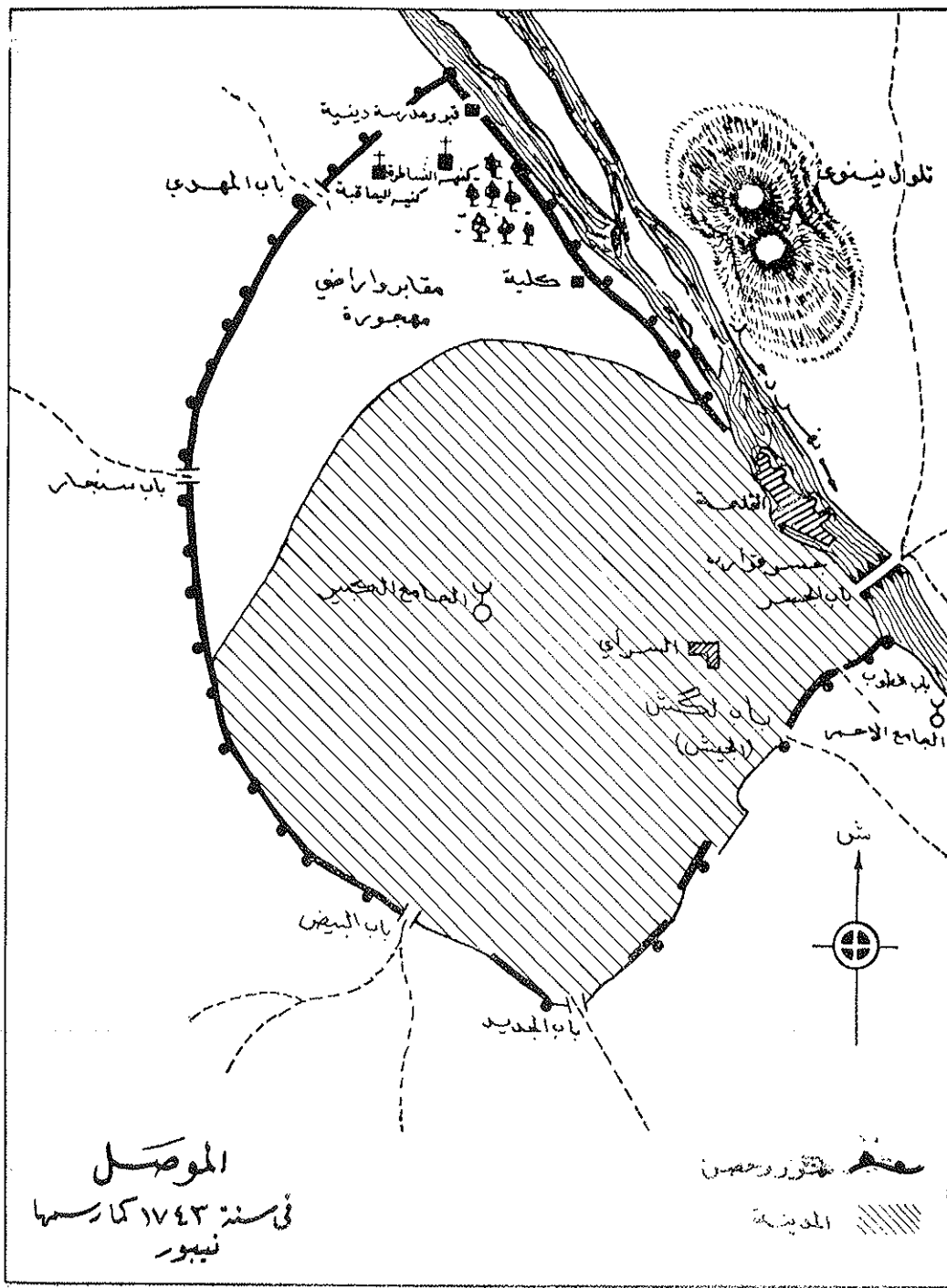
وقد شوهذ العدو على بعد ثلاثة أميال في الايام الاخيرة من أيلول ١٧٤٣ م (١١٥٦ هـ) . فدوت الاصوات الداعية للاستعداد ، ثم عرضت ثلة قوية من الخيالة المعدة لهجوم فجائي الى الخارج . فخفت وعبرت الى الجانب الثاني من المدينة فهاجمت ، بشجاعة عظيمة ، جناح الجيش الايراني المزدهم ، ووقع الكثيرون من أفرادها عند الهجوم . ثم فرقوا واحيط بهم ، غير ان رئيسهم أبدى شجاعة خارقة فانتشل رجاله ورجعوا تحت وابل من رصاص الايرانيين ، فعبروا ثانية ودخلوا داخل السور . واذاك سدت الابواب واتخذت أسباب الدفاع بحذافيرها .

وظل نادر شاه مخيماً في يارمجة خمسة أيام ، ثم عبر وطوق المدينة بجيشه . وبعد استطلاع الحال عزم على الهجوم من اثني عشر مركزاً في وقت واحد ، أعني - على جميع الابراج التي في سور المدينة . وشيد من التراب في كل مركز من مراكز الهجوم اماكن تحتمي بها مدفعيته . وفي أوائل تشرين الاول بدأ قصف شديد من مائتي مدفع على المدينة . وتنصف وطنية المؤرخين المجليين بوصفها أهوال الاطلاق الناري ، فتقول أن الشظايا المتطايرة كانت تظلم السماء في النهار وتثيرها في الليل كما تثيرها الشهب . واُزهقت الانفس عسراً والاموال بشدة ، الا ان ذلك لم يؤثر في العزائم والقوى المعنوية . وكان الحاج مع ابنه : مراد وأمين ، يخفون بلا مبالاة الى مواقع الخطر بالليل والنهار .

فقرب نادر ، وكان بقي مقره في يارمجة ، الى المدينة . وانزعج من مقاومتها فأمر بمضاعفة المجهودات فكانت النتيجة ان حدثت فجوة في السور ، فلم تضبطها الحامية الا بعد لأي . وبينما كانت المجهودات العظيمة تبذل في سد

(٣٥) المراجع لحصار الموصل : تقويم الموصل ، وكتابات صبحي في فون هامر (ج ١٥ ص ٧١) وغيرها .

(٣٦) الكراة جمع كار للذى يكرى المجاري .



الموصل

في سنة ١٧٤٣ كما رسمها
نيبور

مختار وحصن

المدينة

الفجوة هذه وجمع القوة اليها بانت أولى علامات الفزع ، وصار مصير المدينة في ميزان القدر • ولم يحسن الحال الا وصول الباشا بنفسه • فتمكن بجسارته وحيويته التي لا تنضب ان ينفخ روحاً جديدة في النفوس الهلعة ثم سدت الفجوة • على ان كارثة ثانية حلت بعد ذلك ولم تتحسن الحال فيها الا بشق الانفس • فقد حفر المشاة من الايرانيين أنفاقاً عميقة تسربوا فيها الى السور • ثم انفجرت أربعة ألغام عظيمة ، فضمضت الثلاثة الاولى منها السور وتركته مصدعاً ، اما الرابع فقد سبب سقوط قطعة كبيرة منه مهشمة على الارض • وعزز هجوم ايراني عاجل بقوة عظيمة من الورا • فكان الهجوم قد أحكم تدبيره ، وقرب به الفوز • واذ ذاك أيضاً يضيق المجال ويتعلق مصير المدينة بخيط واه ، ثم تنجلي الازمة فتتجسج الحامية في الدفاع بأن تنصب أوابل^{٣٧} القذائف على المهاجمين الذين فشلوا في توسيع الثغرة المحدثه في السور • ثم اضرمت النار بالقرب من الابواب الخشبية فردتها الريح على مضمريها • وطاحت رؤوس المشتغلين في السلاالم التي انشبت في السور على أخوانهم في أسفله • وعلى هذا المنوال استمرت معركة حامية الوطيس دامت عدة ساعات وبذلت فيها المجهودات الجريئة من الفريقين • وفي الاخير أصلحت الثغرة التي تكدست فيها أشلاء الموتى والصرعى ثم سدت سداً محكمًا •

وعندئذ أيقن نادر بأن المدافعين لن يأبوا القبول بشروط خفيفة • فلم تنجح سفارته الاولى اليهم ، وجاءت الثانية الى الباشا بشروط خفيفة مغرية بحيث لم يتمكن من ردها • فتبذل المتديبون ، وأهديت الى الشاه أجمل المهار العربية رداً على هداياه الثمينة • فلهجت اللسان بالثناء الحسن على الحاج البطل • وانتهت الحملة ، التي انقلبت الى حملة من المجاملة والسخاء ، برحيل الجيش الايراني • وكما جرى لمدافعي أيليوم من قبل ، تدفق المدافعون عن الموصل من الابواب الى الخارج وحفروا القبور لموتاهم وكانوا خلقاً كثيراً ، ثم ابتهلوا بالشكر لربهم الرحيم •

وبينما كانت الموصل تحافظ على كيانها ببسالة على هذه الشاكلة ، شوهدت

الجيش المعادية في الجنوب • إذ كانت قوة إيرانية قد هدّدت البصرة^{٣٨} لترجع عنها بعد ثلاثة أشهر من الحصار الفاتر • وكان أربعون ألفاً من جيش العدو يعيشون فساداً في السواد حوالي بغداد ، فعملوا الحملات العديدة التي جردت لتأديب القبائل ، في الوقت الذي كانت قوة نادر الرئيسية في الموصل • وكان أول تأثير لذلك ارتفاع الاسعار في بغداد ، واشتد هذا الارتفاع وضوحاً عندما قطع الشتاء في الشمال طريق شحن الجنوب الى الجنوب • وقد استقامت هذه الاحوال المزعجة الى ان خاب حصار الموصل • وهنا رد نادر جيشه الرئيس الى كركوك وفيها بقي مخيماً •

وكان الباب العالي قد عين أحمد باشا من قبل سر عسكر مع اثنين آخرين لقيادة الحرب • الا ان نادراً رفض أن يفاوض غيره ، فحولته البعثة التي بعثها السلطان السلطة التامة في المفاوضات ، وكان معها عند قدومها اليه هدية من المال وخلعة سلطانية • وكانت المحادثات قد بدىء بها من قبل ، ومع ان مدار الحديث كان أمر الاسرى وضرائب الزيارة وحالة الحويزة كان الخلاف الرئيس خلافاً دينياً • وقد ترك نادر جيشه وتوجه بنفسه جنوباً الى المعظم^{٣٩} ، ومن هناك قصد زيارة العتبات المقدسة • ولم تشر المناقشات الطويلة مع العلماء في النجف شيئاً • وفي الاخير اضطر الشاه ، وقد اتبته لاستفحال السخط والفتنة في بلاده ، وللإستعدادات التركية في الشمال ، الى عبور الحدود والرجوع من دون أن يضرب ضربةً ما أو يوقع على شيء من العهود • وقد مر بسنه بعد ان ترك بعض قواته في كركوك ، فهاجمه الاتراك ودحر بشدة بالقرب من الموقع السابق • ولا يعود أمر البحث عن الحملات الاخرى والمناقشات الدبلوماسية التي

(٣٨) بريسى ص ٢٤ مقطع ٥٧ واوتر القسم الثاني ص ٣٨٠ • يذكر الاول ان عدد الجيش كان ١٢ر٠٠٠ ، ويذكر الثاني انه كان ٣٠ر٠٠٠ من الايرانيين • (٣٩) يبحث صاحب جهان كوشا عن تفصيلات المركب الفخم الذي وضعه أحمد باشا لخدمة نادر ، وعن الهدايا المتهاذلة بينهما •

(٤٠) الفون هامر (ج ١٥ ص ٧١ والحاشية) • ان هذه الموقعة ، التي أهمل ذكرها هانووي وجهان كوشا ، لا يمكن أن تكون عظيمة بقدر ما يجعلها الفون هامر ، كما يستبعد حضور أحمد باشا لها مع مائة الف مقاتل على ما يذكر •

دامت سنتين كاملتين بعد ذلك الى تاريخ العراق • لان مد الحرب بدأ يعنو من العراق ويتجه الى الشمال • فقد التحم الاتراك والايраниون في ساحات القتال السنوية في أرمينية وأذربايجان ، حيث كانت جيوش تركية قوية ثلاثة تقف في وجه جيوش ايرانية ثلاثة • وتلا حصار الايرانيين لقارص انتصار مين قضي في صيف ١٧٤٥ م (١١٥٨ هـ) على يحيى باشا • فأعقب الشاه هذا الانتصار بشروط صلح لا تطاق • فقد طلب الاعتراف بالمذهب الجعفري ، وتسليم وان وكرديستان والعراق بأجمعه وفي ضمنه العتبات المقدسة • ثم تنازل عن قسم منها في مداوات أخرى جرت في أوائل ١٧٤٦ م ، لكنه أصر على مطالبته بكر بلا والنجف • ولم تصل بشائر الصلح ، المعقود مع الشاه في معسكره بالقرب من قزوین ، الى استانبول حتى شهر ايلول • وقد أهملت فيه المطالبات الدينية ضمناً ، واعترف بالحدود التقليدية ، واتفق على تبادل السفراء •

ومن المحتمل ان يكون الموت وحده هو الذي حفظ الامبراطوريتين من انشقاق قاض آخر متأث عن نقض هذه المعاهدة فيما بعد • على ان هذه المعاهدة قوبلت في جميع أنحاء تركية ، وفي بغداد خاصة ، بالحمد والثناء • وعهد الى أحمد باجراء ما يقضيه تبادل السفراء • وكان الرسول الذي انتخبه السلطان قيصريه لي أحمد باشا أحد رجال الحاشية ومن الدبلوماسيين المعروفين • وكانت الوفود من الفريقين هذه المرة تفوق في عددها وهداياها الوفود المتبادلة من قبل • على ان حاشية السفير الفخمة وموكبه المؤلف من ستة آلاف خيال ما تركت بغداد وعبرت الحدود الى أردلان حتى سمعت نبأ اغتيال الشاه • فقد لاقت ببربريته (العطشى الى الدماء المبدلة عبادة الشعب له نفوراً منه وفزعاً) حتفها الذي سلمت منه منذ مدة طويلة في الثالث والعشرين من شهر حزيران ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) • فعاد قيصريه لي أحمد على طريق سنه وقره چولان الى بغداد • وترك وراءه ايران مقبلة على دور تخبطت فيه بالفتن والقتال الداخلية من دون أن تكون لها مدة جيل كامل القدرة الكافية لازعاج الامبراطورية العثمانية •

العراق في زمن الحرب ١٧٢٢م (١١٣٥ هـ) - ١٧٤٧م

كانت مدة ربع قرن قد تقضت بين حملة حسن باشا الاولى على ايران ووفاة نادر شاه • وان البحث عن ذلك الجيل الحافل بالحوادث ليقى مبتوراً ان لم

نذكر فيه شيئاً عن أحوال العراق في الداخل ، وعن الباشا العظيم الذي كان يحكم العراق حينذاك .

ومع ان العراق كان ساحة حرب وهدية عظمت للفائز في ذلك النضال الطويل فانه لم يكن « أمة مسلحة » . كما لم يكن من الوجهة الدينية مشايخاً بالكلية لاحد الفريقين المتحاربين ، ولم يكن مهتماً من الناحية العنصرية بالنزاع بين الترك والآريين^١ ، علاوة على انه لم يكن يتحسس بكليته بالولاء لحكامه يومذاك . على أن حركات الجيوش الاجنبية الظاهرة للعيان ، وجشع الدوريات ، والفظاعات ، والمجالس ، والخدع الحربية المشاهدة والمنقولة أخبارها ، كانت كلها من الامور التي ألقت دروساً بليغة عليه . اذ تحرك جيشٌ وبطل قومي للذب عنه . ولم ير العراق نفسه على ضوء التبعية العثمانية في وقت من الاوقات ، منذ زحف السلطان مراد عليه ، مثل ما رأى نفسه به في هذا الدور . فالى جانب العمليات الحربية ، كان بعض الاعتزاز المدني فيه يمكن أن يشهد مرور السفارات البهية الفخمة في ذهابها والاياب . وكان الباشا نفسه ، وهو ذو الشخصية البارزة في العراق والمعروفة في تركية ، سلسلة قوية تربط بين الشعور المحلي والشعور الامبراطوري . كما كان استقرار الموظفين الاتراك المتزايد ، وازدياد التجنيد الامبراطوري محلياً ، والاختلاط الحاصل بالتزاوج - كل هذه كانت تعمل على وحدة المصالح . ولم يكن مثل هذا النجاح ، الذي حصل عليه السلطان في عراق أيام الحرب ، يعني ان العراق قد دخل في حوزة المواطنة الحقة واكتسب حقوقها . كما لم يكن ينطوي على ازدياد التوثق في التبعية بين الولاية والامبراطورية . وأقل حتى من ذلك ما كان يولده ذلك النجاح من تقبل لحكم السلطان والخضوع له . والواقع ان أهوال الحرب ومصائبها المعروفة - كالمجاعة والطاعون والتخريبات - بينما كان من الممكن لها أن تنفخ في الناس شيئاً من روح الالتفاف حول الحكومة والتعلق بها ، فان عوامل داخلية أخرى كانت تعمل غير ذلك بالكلية وتذكر الجميع على كل حال بدرجة الوهن الذي كان ينطوي عليه التسلط التركي وضآلة النجاح الحاصل مع مقدار تقلقله . فكانت القبائل ، التي هي أبعد ما يكون عن الالتفاف حول راية السلطان ، ترى في الخطر الذي

(٤١) يقصد بذلك الايرانيين - المترجم .

تعرض له الامبراطورية فرصة للعبث والازدراء لها • وقد تكون سلسلة التمردات القبائلية والتأديبات المملة المرسله عليها عديمة الاهمية بالنسبة للاجيال المتأخرة ، الا انها تدل بوضوح على تاريخ العراق حينذاك وعلى الواجبات الشاقة الملقاة على عاتق حكامه • وفي تلك السنين كان الاعتداء الخارجي ، الذي يوحد سكان المدن ويجمعهم حول حكامهم ، يهيئ للقبائل فرصة أحسن تمتنع فيها عن دفع الضرائب ، ويغزو بعضها بعضاً ، وتهاجم الحكومة المنشغلة أو تتجاهلها •

بعد عدة أسابيع من زحف حسن باشا على كرمشاه عمت الفوضى في أواسط العراق • وبرزت الاطماع المنشودة بين القبائل الطليقة ، وكان من الطبيعي أن تتكون « حكومة عشائرية » من المدن المقدسة الى ديار بكر • على ان هذه الفوضوية قد ازيلت بزيارة عاجلة للعراق قام بها أحمد باشا من الجبهة في ١٧٢٤ م • فعوقب بنو جميل بشدة ، ثم صفح عنهم صفحاً حكيماً • وكذلك أدب بنو لام وطوردوا من دجلة الى الشامية • ثم شنت شمل القبائل المتجمعة في الفرات الاوسط بواسطة فرقة قوية من الجيش تحركت بسرعة من قاعدتها في الحلة • فعين الشيوخ الموالون وحددت « الديرات » وعادت الحاميات الى البلدان المختلفة • وفي أوائل ١٧٢٦ م كانت الحالة في دجلة الوسطى تندر بالخطر • اذ انضمت القوات اللرية الى بني لام فأخذوا يعيشون بالبلاد سلباً ونهباً حتى سور بغداد • وكان باشا البصرة - زوج فاطمة خانم - مشغولاً بتعقب القبائل المنتفكية • فاستطاع تهدئتهم بصورة وقتية • الا ان سليمان باشا (الكهية^{٤٢}) اذ ذاك وهو صهر أحمد في المستقبل) أنزل بهم ضربات قوية في ١٧٢٩ م عندما قام بحركات موفقة واسعة النطاق كان تأثيرها محموداً •

وكان لظهور نادر قلي في الاراضي العراقية وحصار بغداد الطويل ، الذي قام به ، أثر سيء في حكومة البلاد • وما زال خطر ذلك حتى أدبت شمر بعدما تحالفت مع الايرانيين فجهزتهم بالادلاء ، وقد قامت بتأديبهم فرقة من الجيش سريعة الحركة في ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) • وفي السنة التالية شنت ابو حمدان

(٤٢) ان سلف سليمان في منصب الكهية كان محمد باشا ، وهو زوج خديجة ابنة أخت أحمد • والظاهر انه خلف عبدالرحمن باشا في حاكمية البصرة •

(قبيلة قوية في جنوب الموصل الغربي) فأضاعت أميرها • ثم هوجم الزبيد في جنوب بغداد في سنين متعاقبة ، وكان ذلك قبل نقل أحمد باشا من الولاية وبعده • وعند عودته كانت حاجته لتأديب بني لام - مناصري الايرانيين العلنيين الاقوياء بتحالفهم مع اللرين - قد قادتة الى ديرتهم • وقد عرفت هذه الحملة بالنجدات التي جاء القبطان بها من البصرة على طريق النهر ، وبالمبارزات الفردية الهوميرية التي قام بها أحمد باشا^{٤٣} • وعند رجوعه من هناك ترك وراءه قوة خاصة لجمع الواردات ، وقد ساعدها هو عند زيارته للمنطقة ثانية في ١٧٣٩ م عندما كان قادماً للصيد • وفي الاشهر نفسها أدبت ريعة بعدما كانت متمتعة عن دفع الواردات مدة طويلة من الزمن ، وزادت في الطين بلة بقتلها أغا ذا رتبة عالية • فأُسفرت النتيجة ، التي لا تختلف عن نتائج مثل هذه الحملات ، عن اندحارها ودفع التعويضات الثقيلة الى الكهية •

وقد كتب شاهد عيان افرنسي^{٤٤} في البصرة « ان المنتفكين وبني لام كانوا يسببون كثيراً من الاتعاب للبasha » • وبقيت قبائل المتفك هادئة نوعاً ما منذ عام ١٧٢٩م حتى ظهور زعيمها العظيم سعدون^{٤٥} • وقد عثرنا على اسمه في التواريخ أول مرة في ١٧٣٨ - ٣٩ م عند حضوره اجتماعاً للشيوخ عقد بدعوة من الكهية في حسكة • فسلم كل من الشيوخ هدية ولطفوا بالحديث ، عدا سعدون الذي اوقف وأخذ مخفوراً الى قلعة بغداد جزاء لطموحه العدائي الذي كان يرمي لـ « سلطنة العرب » • وعين مكانه أحد أقربائه المدعو منيخر • ثم سرح سعدون بعد ذلك ورجع لمشيخته بعد ان أخذت منه التعهدات الشديدة • وفي أوائل ١٧٤١ م (١١٥٤ هـ) قام المنتفكيون من جديد فأحاطوا بالبصرة وافزعوا أهلها ثم حاصروا البلدان الاخرى ونهبوا القرى من القرنة الى النجف • فاستطاع يحيى آغا ، متسلم البصرة ، أن يحافظ على المدينة حتى انقذها في نيسان أحمد باشا بعد ان رجع بسرعة من حملة كان قد جردها على كردستان • وبدلاً من ان يقاتل

(٤٣) دوحة الوزراء سنة ١٥٠ هـ •

(٤٤) أوتر وهو المرجع المهم عن العراق الجنوبي في هذا الزمن •

(٤٥) ابن محمد المانع ومؤسس اسرة السعدون من آل شبيب •

سعدون^{٤٦} عقدت شروط معه ، فكان ذلك مشجعاً له على العصيان بدلاً من أن يكون زاجراً له . فحاصر البصرة بحيث لم يستطع أحد الخروج من سورها بسلام . ولم يسلم حتى وكلاء الشركات الانكليزية والافرنسية من طلبات مخجلة وتهديدات بالعنف . فبعث سليمان باشا بجيش للتأديب ، وعندما وجدهم هاربين الى البادية النائية دفعته رغبته في انتقام شخصي له بتعقيبهم بمسيرات سريعة . فذكر سعدون ثم قبض عليه وقطع رأسه ، فكان حادث قتل آغا مملوك لهذا الشيخ الباسل بدم بارد يذكر طويلاً فيما بعد . على ان تأثيره الحسن لم يدم أكثر من خمس سنوات . اذ قامت قبائل المتفك في ١٧٤٧ م من جديد فكسرت السدود واغرقت سور البصرة فأفزعت الاهالي أهوال الطاعون والغرق والاشتغال بـ (السخرة) . وما كانت الامور في الفرات الاوسط أحسن حالاً . فقد ادبت في ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) فرقة من الجيش قبيلة قشعم ، وفي ١٧٣٨ م سار الكهية فمر بهذه المنطقة من جديد . وشغلا هو وسيدته في السنة التي تلتها بأمور الشامية والبادية الغربية . وكانت الفوضوية قد ضربت أطابها في ١٧٤١ في ضواحي كربلا والحلة ، فأعاد الامن الى نصابه سليمان باشا ، وكان قد أصبح حذقاً بهذه الحملات .

على أن تاريخ العراق الداخلي في هذه السنين كان يتضمن أموراً أكثر أهمية من هذه الحوادث ، ومئات مما يشابهها من حوادث العصيان والتأديب . فقد ثبتت في الجنوب أمة أوربية جذور علاقاتها التجارية الى أمد طويل . ونشأت في كردستان سلالة بين الاودية فأصبحت قوية منيعة . واستطاعت أسرة واحدة في الموصل ان تبز غيرها من الاسر فتمسك النباشوية بيدها ملكاً لها مدة قرن واحد .

(٤٦) ان هذه وغيرها من المناورات المريبة في العراق الجنوبي أدت الى حكم عام (حسب رأي أوتر) بأن أحمد كان يستخدم سعدوناً لاثارة القلاقل قصد الاجل ان يثبت للسلطان ضرورة بقائه في الحكم . ويؤكد اوتر وهانوي انه لم تجر حرب في هذه الموقعة ، لكن صاحب « دوحة الوزراء » (سنة ١١٥٠ هـ) يذكر عن حرب في الاهوار انتهت بعفو الباشا عن سعدون بعد ان بعث له ولده الاصغر للمفاوضة في المعسكر .

فكان وكلاء شركة الهند الشرقية قد زاروا البصرة من جديد في أوائل
العشرة الثالثة من القرن ، وفتح معملها محلاً دائماً له فيها . وكانت مشاكلها
- زيادة على أوهام موظفيها ووفاة كثير منهم - ناشئة عن جشع الحكومة المحلية
وتمصّبها ، تلك الحكومة التي كانت غايتها الوحيدة الحصول على ربح مباشر من
الاجانب أولاً وآخراً . فقد فرضت في ١٧٢٧ ضريبة مغيظة على خدام الشركة
الاييرانيين . وفي ١٧٢٨ م اوقف مترجم الشركة بدون سبب مبرر . وكان الحكم
المتعاقبون يعطون الأوامر متى شاؤوا ، وكذلك كانت تطلب الهدايا
والديون وتفرض الامتيازات وتبدل الضرائب الكمركية لادنى حادث . وعندما
هدد الايرانيون البصرة في ١٧٣٥ م^{٤٧} - من دون نتيجة - لم يستطع
وكيل الشركة التزام جانب الحياد الا بشق الانفس . وقد تكررت هذه الحال
في حصار البصرة عام ١٧٤٣ م . واضطر الوكيل في كثير من الازمات التي كانت
تحدث في رصيف الميناء الى استعطاف أحمد باشا في بغداد ليحول دون جشع
المسلم الجنوبي ، فكان استعطافه عبثاً في كثير من الاحيان . اما المعمل الهولاندي
فقد استقام حتى سنة ١٧٥٢ م (١١٦٦ هـ) .

وحدثت في الموصل قبل وقوع الحرب (وفي الحقيقة كان ذلك اعتيادياً)
فتن داخلية عنيفة . وكانت هذه تدور في ١٧٢٥ م حول شخصية المفتي الشهير
علي أفندي العمري . وكان سبب هذا التصادم حسد الوالي له ، لانه كان
يتمتع بنفوذ خاص به في المدينة . فاستشرى النزاع وانتشرت أحاديث التلب
والهجاء ، ثم تطورت الى مشاجرات ومصادمات . وبعد سنة أشهر ، كثرت
خلالها السرقات وحوادث القتل ، اعيد السلم الى نصابه فقلته نكبات الوباء وهجمات
الجراد . وظهر من بين هذه الاحوال المحزنة شخص يحمل اسماً شهيراً . فقد
حدث في أواخر القرن السابع عشر ان استخدم في بيت الباشا مسيحي^{٤٨} من
الموصل اسمه عبدالجليل . وتتبع المعجبون به من بعده نسب الاسرة الجليلية
فوجدوها تتصل بأسرة حاكمة قديمة جاءت من ديار بكر الى الموصل في حدود

(٤٧) لم يعرف ذلك الا من رسائل وكيل الشركة الى غومبرون .

(٤٨) سليمان الصائغ (ص ٢٧٣) . أنه يهمل وحده الاشارة الى ديانتها ،

وقد شوهد قبر عبدالجليل في الكنيسة مدة طويلة من الزمن .

١٦٠٠ م (١٠٠٩ هـ) • وكانت سجايا عبدالجليل العالية ومواجهه ظاهرة من دون انقطاع في نسله من بعده • وكان ابناءؤه في الوقت نفسه يتمتعون - كالعادة - بنفس الثقافة التي كانت عند مستخدمه • فعظم شأن جماعة منهم ، ان لم نقل كلهم ، ونشأوا على الاسلام • وقد برز اسماعيل ، وهو أكبرهم ، بسرعة ، فاندمجت له الثروة والشهرة بالتقابلات التي عرفت لدى الجميع • وفي ١٧٢٦ م تقلد پاشوية الموصل وقد تقدم في السن ، وكانت مدة حكمه القصيرة معروفة بالاصلاحات المختلفة وبنشاطه في الحرب • فتأصلت بذلك جذور الاسرة الجليلية بعد ان لم يقف بوجهها أي خصم مدة تزيد على القرن • وتسلم الحاج حسين باشا ، أكثر الجليليين شهرة پاشوية الموصل في ١٧٣٠ م تلك الپاشوية التي اتيح له أن يتسمنها ثمانى مرات •

وتلى تعاظم نفوذ الاسرة البابانية ظهور شخصيتين شهيرتين في أوقات سهل فيها نمو المآثر بسرعة • فقد تولى خانة باشا ، بن بكر بك ، الحكومة في قرهچولان في ١٧٢١ م • وعند احتلال اردلان نصب هو لحكمها ، وبقي أخوه خالد باشا وراءه ليصادق على توليه في سنجق بابان • وكان نفوذ الاسرة حينذاك يمتد من كركوك الى همدان ، ويختلف باختلاف قوتها • ويظهر ان حكم خانة في أردلان استمر سنوات ، ثم تولاه من بعده أبنه ، وكان يذكر الاثنان بكونهما من الحكام العادلين العقلاء • على ان تقدم نادر قلي في ١٧٣٠ م قد انتهى سطوتهم في ايران • وحكم حكام غيرهم في شهرزور عندما احتلها الايرانيون (١٧٣٠ ، ١٧٣٣ ، ١٧٤٣ م) • وبالرغم من ان حكم هؤلاء الحكام الاجانب لم يكن طويلاً بحيث يقطع استمرار الحكم الباباني ، فان نشوء البابانيين الميالين الى ايران قد بدأ في مثل هذا الوقت • وغدا الشاه وأتباعه على الحدود ملجأً للمدعين بالحكومة البابانية ومظنة أمل لهم • وقد قبل نادر نفسه أول هؤلاء المدعين وهو سليم باشا ، فنصبه في قرهچولان في ١٧٤٣ م • وبقيت ولاية ايرانية سنة واحدة • ولذلك فليس من العجيب ان نرى أحمد باشا في بغداد يساعد ، في آخر حملاته ، في اقضاء المرشح الايراني منهم خلال النزاعات الحاصلة بين سليم وسليمان باشا بن خالد •

وفي هذه السنين ازداد تصادم البابانيين وجيرانهم الشماليين في رواندوز ،

تلك الامارة الصغير التي مدت سيطرتها في ١٦٠٠م الى ما وراء فتحها الشهيرة في سهل حرير • وحافظ بگات سوران في كوي على استقلالهم الى سنة ١٧٣٠م حين أصبحت على عهد خالد باشا الطويل من توابع البابانيين • وفي نفس المدة نظمت العلاقات بين بك العمادية والأتراك • فقد حافظت اسرة الباحدينان ، التي كان يقدرها السلطان مراد كثيراً ، على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة • غير أن أحوالاً غير مدونة أخبارها حدثت في هذه السنين فحدث أحمد باشا على أن يوفد كهنته فيحاصر العمادية ويأخذها ، فيعقد معها شروطاً بعد تأديب عنيف • ومنذ ذلك الحين كان يرسل اليها من بغداد سنوياً بالفرمان وبخلة الحاكمية • وكان أعظم حاكم من حكام العمادية بهرام باشا ، الامير الذي يحدثنا التاريخ كثيراً عن مآثر ذريته •

هذا وقد ذكر شيء كثير عن الحاكم^{٤٩} الذي حكم العراق خلال هذه المدة الطويلة الحافلة بالتجارب والتبدلات والقلقل • اما هنا فنقول انه لم يكن عظيماً بتفوق ، على أن توارىخ حياة من كان أقل منه شأنًا تستوعب مجلدات تملأ عدة رفوف • فكان يعتبره رعاياه اولاً ابناً لوالد شهير فعال وحاكماً ضرورياً للبلاد مدى الحياة • وقد عبر اعداؤه عن عظمتهم المخطرة بتبديل لقبه بلقب « يادشاه » • وما كانت حاشيته مع خدمه وحراسه لتسدل على شيء أقل من ذلك ، لهذا استطاع أن يحافظ على أبهة العثمانيين في المراسيم والاحتفالات عند مقابلته للدبلوماسيين الايرانيين • وبالرغم من أنه كان أمياً فقد كان يتذوق سماع الشعر • كما كان ذكياً ، متساهلاً رحيماً بالرغم من حسده وكبريائه وسرعة تهيجه أحياناً • ولم يدون عنه أي عمل من الاعمال الهمجية ، وانما دوت عنه أعمال صفح ورحمة كثيرة • فكان بوسعه أن يتآخى مع الصياد أو الفقيه أو التاجر الانكليزي • وكانت أعمال الخير والاحسان التي قام بها لا تقل كثيراً عما قام به أبوه المسمى « أبا الخيرات » ، هذا ان كانت أعماله تلك لا تصل الى ما وصل اليه تبذير نادر في النجف • وكان يعد أول رياضي في البلاد لبراعته في ركوب الخيل والصيد ورمي المجريد • وكان سخاؤه نادراً في الباشوات ومعروفاً في بلاد يمدح فيها

(٤٩) المقصود هو أحمد باشا بطبيعة الحال - المترجم •

السخاء أكثر مما يعمل به، ومقنعاً في البداية التي يعد الكرم فيها أحسن الفضائل^{٥٠} . وقد أثبت أحمد باشا في تصرفه ، خلال سلطته المطلقة في الولاية الوسيعة ، على مؤهلاته التي قلما كانت تتوفر في الحكام الشرقيين . اذ كان صارماً من دون فتك ، متروياً من غير ضعف . وكان يطلب من جيشه الامبراطوري ، المخيف لاسلافه الياشوات ، الضبط والنظام كما كان يحافظ على سيادته بخلق قوة محلية فادية ، وبضربات شاطرة سريعة عند الشغب والفتنة . على انه كان أعظم عدو للعسك ولکن من دون طمع . ولم تصل أطماعه حد المبالغة بالرغم من حبه للشهرة والظفر وتعوده الحكم .

ولم يكن منزهاً عن الخطأ في علاقاته مع استانبول . فما كان يرسل من بغداد بالاموال الى العاصمة الا قليلاً ، ، أو ما كان يرسل بها البتة . وكن يرفض أحياناً مرشحي السلطان للوظائف . ولذلك ما كان يروق اولي الامر في الباب العالي اعترافهم بعدم امكان تبديله . وكان علي حاكم زاده ، خصمه اللدود الصدر الاعظم مرتين ، واحداً من حزب كبير في استانبول كان يعتقد ان أحمد باشا كان يتعدى بموقفه هذا حدود أحد الرعية التابعين . وكان يشاركهم في هذا من في العراق وايران أيضاً . فقد رويت فيما يختص به قصص عن وفود سلطانية كانت ترسل الى بغداد^{٥١} فتختفي عن الانظار . ويقول بعض المطلعين ان الحروب والفتن العشائرية التي لم تنقطع في جنوبي العراق لم تكن الا من صنع يده ، وكانت بمقام حيلة مدبرة للاحتفاظ بأيالة البصرة^{٥٢} . وقد ذهب مناوئوه بعيداً في الظن فتصوروا انه لم يكن يرغب في الانفصال عن الامبراطورية حسب بل كان يتواطأ مع ايران ليصبح تابعاً لها أيضاً . غير انه ، والحق يقال ، كان بإمكانه الحصول على أكبر اماراة لو أراد تبديل الولاء والطاعة للسلطان ، وهو والي بغداد وبطل

(٥٠) ان هذا السخاء مبني على أمور أخرى تجب الاحاطة بها (أوتر ج ٢ ص ١٨٥) وهانوي (ج ٢ ص ٢٣٤) . فقد كان المال الذي يصرف بسخاء من أموال الدولة ، وكان يجمع أيضاً من الغرامات المفروضة على القبائل ومما يستوفي (كما يقال) من اليهود وغيرهم من التجار .

(٥١) راجع أوتر على الاخص (ص ٢٦٠) وكذلك هانوي (ص ٣٣٠) .

(٥٢) أوتر (ص ١٤٤ - ٤٧ ، ١٨٣) .

الحروب والتحصينات والحصارات الشهيرة من البلقان الى الهند ، والرجل الذي كان بوسعه في أي وقت من الاوقات أن يسلم كل شيء الى الشاه من ماردين حتى الخليج . وكذلك كان يروى ، عن علاقاته الشخصية بالشاه وعن اعجاب نادر العظيم بيسالته واقدامه ، عدد من القصص .

وقد كرس أحمد باشا حياته الطويلة للدفاع عن ولايته وصد ايران عنها ، ولذلك لم يقدم على أي عمل عام من شأنه أن يبعث الريبة في النفوس . على ان هذه الريبة كانت موجودة بشكل أمل عذب في ايران ، وبشكل خوف وخشية في استانبول . ومن الممكن تصور ان الباشا ربما كان يفضل أن يبدل تابعيته على أن ينقرض أو يمحق . ولم يكن الذين راموا هتكه وفضيحته على حق في تلقيه بلقب « نظام الملك » - خائن شهير اشتهر في حملة نادر على الهند - لان الحقائق المدونة لا تثبت ذلك . كما انه برهن على طاعته للسلطان عندما نقل من بغداد في

١٧٣٦ م .

وقد حذا حذو أبيه في داخل العراق ، فاشتغل في توحيد البلاد . فكان أقرباؤه في زمن ما يديرون أمور البصرة والموصل وكركوك . وكانت البصرة تابعة له مباشرة في كل شيء ، فاضطر الباب العالي الى المصادقة على هذا الترتيب بعد محاولة عكس ذلك مراراً . غير ان الموصل لم تكن راجعة له ، وانما ورث عن أبيه ماردين وحكم العمادية وكرديستان الوسطى مباشرة ، ووطد دعائم الامن في سنجار . ففضاءلت أيلة الموصل أمام نفوذه هذا ، وقلما كانت ترد رغائبه . الا انه لم يعط كركوك الا قليلاً من الاستقلال . وكان تقلده القيادة العسكرية العليا مراراً ولمدة طويلة من الزمن مما سبب ان ينظر هؤلاء الى بغداد في أوامرهم وان يهدموا مبدأ المساواة القديم بين الولايات الاربع .

وتوفر لديه متسع من الوقت ، عند مغادرة نادر للعراق في المرة الاخيرة ، ليعيد شيئاً من النظام ويتذوق طعم الراحة وقلة العناء ، وليتهيأ للسنين الهادئة . على ان شيئاً من ذلك لم يكن . فقد سلم في حروبه مع الأفغان والصفويين والافشار ، وتوفرت للعراق ثلاثون سنة انعدم خلالها تخوفه من الشرق . وقام بالواجب الملقى على عاتقه ، ولم تطل سيرته الطويلة أكثر من سيرة خصمه العظيم نادر شاه الا بمقدار ستين يوماً . فقد توفي في حملته على سليم بابان ، فنقلت جثته الى بغداد حيث دفن الى جانب والده تحت قبة أبي حنيفة .

الفصل السابع

المماليك^١

أبو ليلة

أظهر موت أحمد باشا الفجائي وضعاً في سراي بغداد لم يشير اليه هذا التاريخ حتى الآن الا قليلا . فقد أصبحت الفرصة مؤاتية للسلطان محمود ومشاوريه - بعد ان مات نادر شاه وشغلت ايران عن التهديد - بأن يعيدوا التوازن بين الولايات في العراق ، فيفصلوا ماردین والبصرة وينصبوا فيهما وفي بغداد الموظفين المواليين من العاصمة . فكان وقع هذه العزمة الجديدة في العراق شيئاً محتملاً ، اذا لم يكن غريباً ، لانه لم يتذكر فيه الايام التي مرت قبل ان يتولى والد أحمد باشا الحكومة الا المتقدمون بالسن في أيام حياتهم الاخيرة لكنها كانت بالنسبة الى الاقلية البوروقراطية من المماليك أمراً لم يكن بالحسبان . اذ لم يخلف أحمد باشا أبناً ولا حفيداً . غير انه كان قد ملأ قصره بالمماليك ذوي العيون السود والبشرة البيضاء ممن كان يضع جل اعتماده عليهم . وكانت اسرته لهم هي السيد والوالد وهي من جاء بهم الى الوجود .

وكان المماليك القوقاسيون قد عرفوا منذ أقدم العصور في تركية . اذ كانوا قد أسسوا في مصر الاسرة الشهيرة التي أزالها سليم الثاني عن الحكم واستعادت عزتها على عهد خلفائه من بعده . وقد ظهوروا في مختلف الازمنة في سرايات استانبول والمدن الصغيرة الاخرى . اما في ايران فقد كان منهم من ارتقى المناصب

(١) المراجع عن ١٧٤٧ - ٧٤ : ان أهم المراجع المحلية في الدرجة الاولى « دوحة الوزراء » وما كتبه ثابت في التركية . وأهمية « غاية المرام » تأتي في الدرجة الثانية . والكتاب الاول استند اليه جودة باشا فيما كتبه عن هذه الفترة في العراق كما استند اليه ثابت أيضاً . وكذلك ما كتبه واصف افندي وهو المؤرخ الرسمي عن المدة ١٧٥٢ - ٧٤ بعد عزي ، ورجع اليه الفون هامر فيما كتبه (ج ١٥ ، ١٦) وكذلك هوار (١٤٨ - ٥٤) . أما مراجع الموصل فكما سبق ذكره . وأهم السياح الذين كتبوا هم أيفز ونيبور وبارسنز . ونيبور أحسن من كتب عن العراق في جميع الادوار من السياح .

الرفيعة بالرغم عن عدم أسلامه في بعض الاحيان • وكانوا عنصرياً من سكان منطقة تفليس التابعة لبلاد الكرج • على ان قسماً من الانسال القوقاسية الاخرى والعشائر الهمجية القريبة - اللاظ والاباطة وغيرهم - في موطنهم الاصلي كانت قد انضمت اليهم • وكان جميع هؤلاء من الفروع الفعالة القوية ، لا الغنية المسالمة ، المتشعبة من الاقوام القوقاسية • وقد برهنوا جميعهم فيما بعد على قابليتهم في الاضطلاع بالشؤون الجسام • لكن معظمهم تلوث بالردائل التي منعت تكاثرهم في بلادهم الجديدة ، وقطعت دوام السلالة التي أسسوها في العراق •

ولما كان حسن باشا قد نشأ في بلاد العثمانيين وألم بدرجات الموظفين التي لا عد لها ، من الاحرار والممالك ، فقد تمكن في أثناء حكمه الطويل في بغداد من اتقان الحياة في قصره على ذلك النمط • اذ وجد عند مجيئه الموظفين ، العاملين والخاصين ، الاعتياديين الذين تربطهم الروابط الواهية • ثم وجد بلا شك قسماً من العبيد المحركس والزنوج • فبدأ يؤسس بالتدريج درجات متتالية من الخدم مرتبين على شكل جماعات ، فكان منهم الخواص وأمناء الصندوق ورجال المخزن • ولذلك كان بإمكان شاب من هؤلاء أن يصبح ، بعد ترفيعه من صنف لآخر أو من درجة لاخرى ، شخصية من شخصيات السراي • ولما كان بهؤلاء حاجة لتدريب خاص ، كما كان يجري في العاصمة وكما تدرب حسن نفسه ، فقد دبر تجنيد الابناء وجمعهم في مختلف الجماعات والدرجات • فأخذ جماعة منهم من أبناء الموظفين الاتراك في العراق وغيرهم من أبناء العراقيين المعروفين ، الا أن أكثرتهم كانت تؤخذ من الممالك القوقاسيين الذين كانوا يزدادون بسرعة بدافع هذا الطلب الجديد لهم •

واستمر اتقان ال « ايج دائره سي » أي الديوان الداخلي بالتدريج • وكان شراء الكرج واستخدامهم أمرين غير محصورين بالباشا وحده • على أن تدريبهم الخاص ومزايا تعليمهم وتثقيفهم قد جعلت منهم موظفين مدنيين يمتازون على الاتراك والعراقيين الاعتياديين بكثير • وكان الكثيرون منهم أبناء أمهات مقدمات جميلات ، لان أسواق تفليس كان يمكن ان يشتري منها الرقيق الابيض بجنسيه • فتكاثروا بالتدريج لكن أقلية صغيرة منهم كانوا من تولد ببغداد • وقد نمت ، في خدمة الباشا وخدمة ضباطه ، صلة قرابة وعلاقات تناسب العبيد والمعتقين على

الاخص • ولذلك كانوا يرتقون من الخدمة البيئية عند سادتهم الامثال الى مجالي الحرية - أي الى حيث يساوون الغير بسرعة ، ويتفوقون على الجميع عدا سيدهم القديم • « فلم يكن من المستبعد عليهم أن يزوجوا بناتهم عبيدهم الذين كانوا يعينون أحياناً حكماً في مختلف الاماكن • على أن شيئاً واحداً كان يطلبه السيد منهم ، وهو الوقوف بحضرته عند حضور أناس مجلسه »^٢ •

وكان بإمكان الاوربي أن يفسر لدرجة ما استثار أكثرية من الممالك بالحكم ، أو قيام فئة فادية من أجرائهم بانقلاب ما • الا انه كان من المستغرب جداً له أن يرى الممالك المستجلبين من الخارج يتسلمون السلطة المطلقة في الولاية على مشهد من السكان وبموافقتهم تقريباً • أما في نظر التركي فان أهمية النسب كانت أقل من أهميته في أي بلاد من البلاد الاخرى ، فلم يكن النبل ولا المنصب وراثيين • ولذلك فقد ارتقى الكثيرون من أحط دركات الخمول الى أرفع المراتب • اذ كان جميع المسلمين (الذين دخل الممالك في زمرتهم بسرعة) منساوين بين يدي السلطان • وكان الرق ، في الوقت نفسه ، بين العراقيين يعني معنى مختلفاً عما نعرفه نحن • فقد كانت أحوال الرق في جميع العالم العربي ، وفي جميع الادوار ، يسودها التساهل وقد يحسد الارقاء على حظوتهم • وفي الاماكن التي ما يزال نظام الرق معمولاً به اليوم يعتمد على العبد أكثر مما يعتمد على الحر ، وقد يكون العبد أكثر تأثيراً من غيره • ولما كان هو جزءاً من سيده فانه يعد لسانه المعبر عنه ، وموضع أسراره •

وكان بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالتربية مملوك يدعى سليمان آغا • وقد حصل هذا المملوك على حريته بخدماته الجلي لابن سيده العظيم ، وبشجاعته التي أظهرها في الحصار • ثم تزوج عاذلة خانم (البنت الكبرى لاحمد) سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) ، وغدا كهيةً للولاية سنين عديدة يتمتع بشهرة واسعة ما بعدها الا شهرة الباشا • وقد حبت قسوته ، التي أخضع بها القبائل ، شخصيته لسكان بغداد الذين كانوا يرجون بالاستقرار • ولما مات سيده في ١٧٤٧ م كانت درجته باشا وميرميران ، بعد ان كان ساعد سيده

(٢) أيثرز في ١٧٥٨ • وهو يقول ايضاً « حدث ان ارتقى مملوك « عبد » لأحد صانعي الازرار بالبصرة فأصبح حاكماً عليها ، وبقي المملوك الحاكم متمسكاً بتلك التقاليد لسيده القديم » •

الايمن مدة خمسة عشر عاماً • وعلى هذا كانت تدل القرائن بأجمعها على انه سيكون الخليفة المصطفى بعد سيده •

غير ان السلطان محمود ومشاوريه في استانبول كانوا على علم من هذا التخليف المقصود ، كما كانت وفاة أحمد باشا ينتظرها الكثيرون • فقد كانت لكثير من الناس بمقام أخبار سارة لانها كانت فرصة حان فيها رجوع العراق الى الخضوع التام ، لا سيما وقد كانت الامبراطورية العثمانية في أوروپة تتمتع بهدوء طويل بدأ منذ عقدت معاهدة بلغراد في ١٧٣٩ م • ولذلك صدرت الفرمانات بتعيين والي ديار بكر ، الصدر الاعظم السابق ، الحاج أحمد باشا والياً على بغداد ، وبتعيين قيصريهلي احمد (الذي كان ما يزال منتظراً في بغداد) الى البصرة • ولما لم يكن من المناسب تخطي سليمان باشا ولا غرض النظر عنه فقد طيب خاطره بتعيينه لايالة آطنة ، فرحل اليها وعيونه ترنو الى بغداد •

وتولى باشا بغداد الحديث منصبه في أحوال لا تبشر بالنجاح • فقد كانت جبهة الممالك المتراصة ، وجماهير الشعب في بغداد ، تمنى تعيين سليمان • ثم أجل القيصريهلي سفره الى البصرة • ووجد الحاج أحمد عند سفره لتأديب العشائر في الجنوب شعباً فاتراً ونظاماً منحللاً وخزينة خاوية على عروشها • فبادر بفرض ضرائب جديدة للحصول على واردات للخزينة ، الا ان ذلك كان سبباً لاعلان العصيان بين العشائر التي وجدت ان أمد إخلالها الى السكينة قد طال ، وان دور الخضوع قد انتهى • وأخذ الانكشاريون يضجون مطابئين بأجورهم بصلافة ، فرفضت معاذير الباشا وبدأ الصخب واطلاق النار في الشوارع • فخضع لم طالباً أمهاله مدة ستين يوماً ليحير بتدبير المال اللازم ، فلم يتوفق لذلك وأعلنت الفتنة عن نفسها • ولم تجد تحفظاته نفعا ، فهوجم السراي ونهب بعد ان عمت الضجة والصخب واضطر للفرار الى الجانب الايمن • فأعلن الانكشاريون خلعه • وبينما كان الجميع ينتظرون أوامر السلطان في هذا الشأن تولى رجب باشا الولاية بالوكالة •

وأذن اولو الامر في الباب العالي لطرده مرشحهم من ولاية بغداد ، فنقلوه الى أيشيل التي نقل متسلمها الى الموصل ثم نقل الحاج حسين الجليلي باشا من الموصل الى البصرة ، كما نقل القيصريهلي من البصرة الى بغداد • وبعث السلطان

بشيء من المال لدفع رواتب الانكشاريين في بغداد ، بعد ان جمعه من استانبول ومن أملاك أحمد باشا^٣ . فهدأت العاصفة في بغداد لكن الحاكم الحديث ، الديبلوماسي البلاطي ، لم يكن بوسع ان يعمل شيئاً تجاه معردي القلعة . وفي نهاية ١٧٤٨ م (١١٦١ - ١١٦٢ هـ) أظهر استياءه^٤ منهم بعزل تريياكي باشا ، الضابط الانكشاري القديم ، وعين في مكانه شخصاً آخر ، وبذلك أعاد شيئاً من النظام خلال الاشهر القليلة التي حكم فيها .

وهنا كان الوضع مشابهاً تماماً للوضع الذي حصل ما بين تحويل أحمد باشا في ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) ورجوعه بعد سنتين . فقد حاول الحكام المتعاقبون ، الذين كانوا يجهلون الشؤون المحلية ولم يظهروا كفاية بعد اولئك الحكام الشهيرين ، مدة من الزمن ان يبعدوا المصير القهري الذي وقع فيه العراق ، وفي أحضان السلالة التي تأصلت جذورها هناك . وعلى هذا حاول حكام أربعة تثبيت حكومة السلطان في المدة الواقعة بين وفاة أحمد باشا وتولي صهره الحاكمة فلم يفلحوا بذلك . وعلى الشاكلة نفسها خاب اسماعيل وطويال محمد منذ ١٧٣٦ الى ١٧٣٨ . وكان سليمان باشا وهو في آتنة يلح مطالباً بالعراق ، وكانت مطالبته تزيد تأييداً بخية من حكم في مكانه من بعده . وقد ورطت مكابده في العراق الباشوات وأخرجت موقفهم . ولذلك أضطر القيصريهلي ، قبل نقله ، لقطع رأس كهنته بتهمة التآمر مع سليمان . اما سليمان فقد التزم بدفع بعض ديون الحكومة من ماله الخاص ، وبتهدئة عشائر المنتفك وكعب المتمردة ان عهدت اليه ابالسة البصرة . فقبلت معروضاته ورفع الى درجة وزير ، ثم ترك آتنة فوصل الى بغداد ودفع ما التزم به من الدين . الا ان العداوة بين سليمان وتريياكي ظهرت في الحال ، وتمكن سليمان قبل أن يترك بغداد ويتوجه جنوباً الى البصرة من أن يلم

(٣) بعث مصطفى بك أحد رجال الحاشية في الباب العالي الى بغداد كالعادة لمصادرة ممتلكات أحمد باشا .

(٤) يذكر الفون هامر (ج ١٥ ص ١٤٧) ان « مجرد شيوع ترشيح القيصريهلي لبغداد دفع أمير العرب ، والد زوجة احمد باشا ، الى مهاجمة بغداد ومحاصرتها بالنظر لعدم ترشيح سليمان لها » . ويستبان من هذه الرواية أن أحمد باشا كان قد تزوج امرأة من القبائل .

شعث أتباعه وأنصاره القدماء في بغداد بصورة شبه عليية •

فتبينت في الحال لدى الباب العالي مزاياه الممتازة • إذ اخضع القبائل بحملات سريعة عرف بها ، وقادها الى الطاعة التي لم تعرف منذ أن ترك العراق الى آتنة • فدانت له قبائل المنتفك وقبائل بني لام وعشائر الحويزه وعربستان ، وقضى على عصابات بني كعب في منطقة الشط • ثم أوفد الرسل المسرعة بالظفر من البصرة الى البوسفور • الا ان بشارت الظفر هذه سرعان ما ارسل في مقابلها من بغداد باخبار مفادها ان سليمان باشا انما توقع لذلك تواطؤاً مع القبائل العاصية هناك • ولما كان أولو الامر لم تغرب عن بالسهم بعد أيام حسين ويحيى أرسل بالاوامر الى پاشوات سيواس وديار بكر والموصل وحلب والرقه ومرعش وماردين للسير الى ايقاف الثائر عند حده • غير ان سليمان لم يقنط بل أكد براءته وألح على الباب العالي بذلك • فأوقف سير الجيش المؤدب ، ثم ارسل رسول ملكي لتدقيق النظر في الامر • فما وصل الرسول حتى برأ ساحة سليمان ، ولم ينتج هذا الا نتيجة واحدة • فقد صمم تريكاي على مقاومة دخول عدوه سليمان الى بغداد بكل ما أوتي من قوة • فتحرك سليمان من البصرة نحو الشمال حتى وصل الى حسكة حيث وجد معاضدة بالمال والرجال من علي آغا الذي سيذكر عنه أكثر من هذا فيما بعد • وسار تريكاي الى الحلة مع أربعة عشر ألف رجل ، فدهمه سليمان بثمانمائة مقاتل • ولم تسفك في هذا الهجوم الدماء إلا قليلاً لان انكشاريي بغداد انقلبوا بالجملة مع سليمان ففر تريكاي وحده الى بغداد التي وجد أبوابها موصدة في وجهه • وبذلك دخل الكرجي المعترك المدينة التي بالغت بالترحيب به • وأصبحت بغداد والبصرة مع ماردين وجميع ممتلكات أحمد باشا تحت أمرته لوحده •

وقد استقام في هذا المنصب العظيم مدة اثنتي عشرة سنة • وكان منذ أول يوم توليه هذا المنصب معروفاً لدى الجميع ، ومهيب الجانب • ولذلك لم تحدث الفتن أيام حكمته إلا قليلاً • وكان في معظم حملاته السريعة الحاسمة (وكان تخفيه في الليل وخروجه قد جلب له اسم ابو « ليلة »)^٥ هو المعتدي • ولم

(٥) يذكر صاحب دوحه الوزراء انه كان يسمى أيضاً « أبو سمرة »
و « دواس الليل » وسمع نيبور انه كان يسمى « سليمان الاسد » •

يتهاون بأيّ تعدٍ قبيلي كان يحدث ، ولم يعرف عنه انه فشل في القضاء على مثل هذه التعديّات ، بل كان يخرج فيعود غانماً مظفراً من كل حملة سرّيمة يجردها . ولا غرو فقد ألف هذه الصعاب وتعودها منذ ان كان كهية يقود الحملة تلو الاخرى طوال المدة التي بين سنة ١٧٣٣ م (١١٤٦ هـ) و ١٧٤٧ م (١١٦٠ هـ) . ولم تخل أيام باشويته من حملات كهذه في كل بقعة من بقاع ولايته . حتى اننا يمكن أن نقول ان الحكم التركي في العراق كان في عهده على أحسن ما كان عليه من التدبير ، والاغنامية القاسية ، والاطلاع التام على الامور ، والتنفيذ الحازم ، والحصول على النتائج المحدودة المباشرة . على ان ذلك كان مصطبغاً بالمكر لا بالحكمة . فكانت تعوزه المثل العليا ، ولم تكن تسيطر عليه الا بعض مبادئ الاسلام والانسانية . كما انه كان فاقداً لنظم الحكومات ونظرياتها الاساسية ، ومشوباً بكثير من الطيش وسوء الاستعمال والاجفاف . على ان حاله هذه لم تؤثر في سطوته وتلقّي الناس له باعجاب واستحسان عند القضاء على المشاكل العديدة من غير بعد نظر . ومن وراء هذا كله كان سليمان « أبو نيلة » الحاكم القوي ، الناجح المهيمن على ولاية مترامية الاطراف صعبة المراس . ولم يعكر صفو مملكته ظهور أي عدو كان .

وكان البعض يعيرونه بسيرته الخاصة المطبوعة بحقارة عنصريته ، ولذلك كان هدفاً لنظرات العطف من جهة والسخرية من جهة أخرى . لان حياته البتية ما كانت الا « حكماً في ضمن حكم » ، وكان له بسبب ذلك المرتبة الثانية في بيته الخاص به . فقد كانت سلطة زوجته عادلة خانم أخص الاحاديث في بيوت بغداد . وكانت هي تستقبل في بيتها الزائرين من الجنسين ، ثم وسعت تدخلها فأوصلته لشؤون الدولة ، وأسست جمعية منظمة لاتباعها المقربين الذين كانوا يعرفون بشارات حريرية خاصة بهم . يضاف الى ذلك أنها كانت صارمة في امور اسبقيتها الشخصية . فقد ذكر في غير هذا المقام مشاركتها في قتل سليم بابان ، وعداوتها المرة لعلي باشا خلف زوجها . كما يعتقد ان قتل زوج اختها عائشة بريئاً كان بتحريض منها .

اما استانبول فقد كانت علاقات ابي ليلة حسنة بها على ما يظهر . إذ كانت ترد في كل سنة مواكب « القپوچين » حاملة فرمانات الحاكمة التي كان يبعث بها السلاطين ، واحدا بعد آخر ، مضطرين لانهم عجزوا عن الاهتداء لغيره في

هذا المنصب • وفي سنة ١٧٥٢م (١١٦٦ هـ) أهدى اليه سيده هدية من أنواع الفرو الفاخر لنجاحه في حملة سنجار ، وارسل كذلك بهدايا أخرى لكثير من رؤساء القبائل من أتباعه • والواقع هو انه قد برهن في كثير من واجباته على انه من الولاة غير المخلصين • كما كان غير قابل للتبديل ولا التحويل • ولم يبعث بالواردات لسيدته ، وانما كانت نفقاته السنوية على الجيش والتحصين والحكومة بصورة عامة تزيد على واردات الحكومة من الضرائب • وكانت تشيع حسب العادة قصص عديدة عن مكاييد السلطان له • فكان يهمس بأن رسلاً متعاقبين كانوا يتوجهون من استانبول مأمورين بقطع رأسه غير ان رؤوسهم كانت تقطع بدله •

وقد ازداد على عهد ابي ليلة استخدام الكرج المعتقين في الوظائف المهمة ، وبدأ سيل الممالك يتدفق بزيادة من تفلّيس في بلاد الكرج الى بغداد ، لان حاكمها كان منهم • ثم احكمت ماكنة تثقيفهم وتدريبهم ، فكان مائتا صبي^٦ محررين للتدريب المنتظم • وكان المدرسون من مختلف الدرجات يقومون بتعليم القراءة والكتابة والفروسية والسباحة • وكان الشاب المتخرج في هذه المدرسة يصبح من المرشحين لوظيفة من وظائف الـ « كيديكلي » ومن ثم يجوز له أن يكون من أغوات الحاشية • ولم يكتف أبو ليلة بتشكيل قوة صغيرة يعمد عليها من الممالك المدرّبين ، بل أكثر من استخدامهم في وظائف الحكومة فكان منهم الكتبة والحجاة وقواد الحاميات كما كانوا في حاشيته أيضا • فأدى ذلك ليس لحرمان الاتراك حسب بل لحرمان الاسرة الكبيرة في بغداد حصتها المهمة في شؤون الحكومة أيضا • وليس من الممكن ان يذكر ما ولده ذلك الحال من التذمر والسخط في دواوين البغداديين ، لكن ذلك ولد شعوراً ظهر علانية بعد ثمانين سنة في مضادة الممالك •

وقد اضطر سليمان ، عند أول توليه الحكومة في بغداد ، ان يترك البصرة للقبطان • وكان يؤمل ان هذا الضابط سيقاوم تعيين غيره في مكانه بعد ذلك ،

(٦) ان نقطتين متعلقتين بالموضوع غير واضحتين للمؤلف ، الاولى : أكان هناك مدرسة واحدة أم عدة مدارس ؟ ، والثانية : هل كان هذا التعليم مختصاً بالممالك ؟ فمن المحتمل أن أقلية صغيرة من الترك والعرب كانوا يشاركونهم فيه •

الا ان المخاوف لم تتحقق ، فنصب بسلام متسلم في أوائل ١٧٥٠ م (١١٦٤ هـ) . وبعد سنة جازف هذا المتسلم (أو القبطان) باعلانه استقلال البصرة وضمن لنفسه ما وعد به من تأييد جماعة من رؤساء المنتفك ، ثم حصّن ضواحي المناوي • وكانت في هذا الزمن معظم قوة أبي ليلة في كردستان وعندما رجعت أرسلت الكهية مع ثلة من الجيش الى البصرة • ولما كان المنتفكيون ما يزالون يذكرون بطش أبي ليلة بهم قبل سنة اختفت قواتهم بمجرد ظهور القوة ورجعت الى منازلها • فرحف الكهية على البصرة ، وأعطى مصطفى باشا مجالاً واحداً للتوبة ، ثم طارده من المدينة واستولى على اسطوله النهري بأجمعه • فالتجأ العاصي الى بوشهر • وعهدت البصرة الى ابراهيم باشا ، وانتهى أمر العصيان الجنوبي غير المثمر •

وبقيت قبائل دجلة هادئة منذ تأديبها في ١٧٤٧ • كما ظلت قبائل المنتفك التي كان يرأسها عبدالله - أخو سعدون - تحت اليد • ولم يبق الا بنو كعب ، الذين لم يعاقبوا من قبل ، يقلقون ويهددون • فقد بقي ولاؤهم للإيرانيين أو الانراك مبهماً ، ولم يدفعوا الجراية للفريقين كما لم يحترموهما • وفي العشرة السادسة من هذا القرن كان رئيسهم الشيخ سليمان شيخاً نشطاً ذا فكر ثاقب • وقد بدأ ينشئ اسطولاً في حدود سنة ١٧٥٧م (١١٧١ هـ) ، فأصبح ذلك الاسطول في ١٧٦٠م يضاوي السفن التركية البالية التي لا تتحرك • وبلغ عدوانه وسلطته في ١٧٦١م (١١٧٥ هـ) حداً استدعى معه التأديب العاجل • فأمر أبو ليلة متسلمه في البصرة بالهجوم • فبدأت الحركات ولكن من غير ان يضغظ فيها ، وبذلك اشترى الشيخ صلحاً سهلاً •

وكان نفوذ الميناء على حسكة ضئيلاً ، ومحتقراً في بعض الاحيان ، الا انه على كل حال كان أكثر من لاشيء • فقد أنتج نفوذ أبي ليلة القوي ، ووجود أغا حازم فوق العادة في الحسكة ، شيئاً يشبه الحكومة في منطقة الفرات خلال تلك السنين أي حكماً واهياً صورياً لدرجة غير يسيرة ، لكنه أحسن بكثير من الازدراء والمقت اللذين كانت تبديهما قبائل الاهوار في العادة لحكم سلطانها • فكانت البلدان الصغيرة والقرى القصية تدير شؤونها بالطرق المألوفة من جمع « الخوة » وأخذ الثار والخضوع العام للعرف العشائري الذي تأصلت جذوره

الطليقة الحرة في البادية والاهوار على مدى العصور • وكان الشيوخ مرتبطين في الحكم بأقرب آغا ومسؤولين بين يديه عن سلوك قبائلهم تجاه الموظفين والعابرين للبلاد ، وكانوا هم الذين يجبون الضرائب و « الكودة » في ضمن ديارهم • وكان هذا الشكل الحكومي يعتمد على قوة الحكومة في توطيد دعائم الامن والنظام وتعقيب العابثين بضربات شديدة عاجلة • كما كان أبو ليلة في بغداد مستعدا لمثل هذا على الدوام •

والحق ان عدم احتياج الحكومة لتجريد حملات بنطاق واسع على القبائل ، الا في الندرة ، طوال الاثني عشرة سنة من حكم ابي ليلة كان فضله راجعاً اليه • وسوف نرى في مقام غير هذا كيف جردت حملات مهمة على كردستان وسنجار في السنتين الاولى والثالثة من عهده ، وكيف سحقت في أوائل ١٧٥٦م (١١٧٠هـ) فئة من شمر تصدت للغزو فكان سحقها شيئاً يذكر في مدى سنين طويلة ، وتلته مجاعة^٧ مبيدة في تلك السنة • وكانت وطأة المجاعة على أشد ما يكون في اراضي « الديم » من بلاد آشور • فقد خاب الزراع في ديار بكر والموصل في حصد زروعهم ليس مرة واحدة حسب بل مرتين • وامتدت مخالب المجاعة جنوباً فكادت تصل الى بغداد ، فقاطرت الى الجنوب الاف من الجياع يحملون معهم البؤس والفاقة والجرائم • ثم أمر اثنا عشر ألف ايراني من المقيمين ببغداد بأن يتركوها قبل ان يشتد القحط بيد ان هذا الامر لم ينفذ لانتفاء الحاجة لذلك وانتهاء الازمة • فأصبحت الموصل واهنة القوى لكنها منتعشة بعض الانتعاش في ١٧٥٧م (١١٧١هـ) • وكانت ديار بكر ما تزال تعاني أشد حالات النزع •

علي وعمر

توفي في الرابع عشر من أيار ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) سليمان أبو ليلة عن عمر يناهز الثماني والستين سنة ، ولم يترك ما يتضح منه تعيين خلف له • وعاش بعده ضباط سبعة كان قد نصب كل منهم في وقت ما في منصب الكمية • وكان أحد هؤلاء عمر آغا زوج عائشة خانم ، وكان الآخر علي آغا (فارسي المولد) الذي ساعد مساعدة جليلة في تعيين أبي ليلة للباشوية من قبل وتولى سناجق عديدة

(٧) ايقر ص ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٢٩ •

منها سنجق البصرة بعد ذلك • فسلمت الولاية مؤقتاً الى الدفتر دار عثمان العمري بصفته قائم مقام ريثما ترد أوامر السلطان بالتعيين ، ومن بين تلك الاوامر تعيين أمين باشا الجليلي (الذي كان في كركوك) محافظاً لبغداد • وما كاد يصل الى العاصمة حتى وصل الفرمان بتعيين علي آغا للولايات الموحد وبترفيعه لرتبة وزير ، وربما كان تعيين علي بتأثير الصدر الاعظم راغب باشا أو ببذل المال • فترك الباشا الجديد البصرة وخيم قريباً من الحلة ينتظر وصول فرمانه ، ثم دخل بغداد متولياً عليها • ورجع أمين الى كركوك • وقد صودرت املاك الدفتردار ، الذي لم يطفغ تدينه على نقاط ضعف مهنته ، كما صودرت أملاك أبي لیسلة ، وجبس الدفتردار نفسه •

وبدأ الحكم الذي تسلمه باستحقاق ، ان لم نقل اشتراه ، كما كان يبدأ به غيره حسب المعتاد • فقد أعدم أكثر الانكشاريين شراً وأقصى كثيراً غيرهم • وفي ١٧٦٢م (١١٧٦هـ) حدث هياج عسكري اضطره ان يترك بغداد فيخيم في الجانب الايمن من دجلة • غير ان الثائرين تنازعوا بينهم ، وبعد أيام قلائل تمكن من الدخول الى المدينة ثانية ، ومن اعادة النظام الى نصابه • وقد كان بالرغم من شخصيته القوية لا يملك الخصال التي يستوجبها منصبه • فما زالت عادلة خان موجوده في بغداد ، ولم يكن بوسعها ان تتحمل الحكومة التي يرأسها خادم آخر من خدام أبيها الا بشرط ان يشاورها في كل شيء • لكن علي باشا وقد عرفه الخاتم صبياً من أصل فارسي مجهول تصدق والدها عليه فرباه ، فُشل في اتباع هذه الطريقة • وعلى هذا دفعها سخطها المقعم بالحسد الى ان تكثر من الكيد له ، ذلك الكيد الذي كان الباشا معرضاً له على كل حال • على ان سخاءه وظرفه قد حياه للناس ، لكنهما لم يمكناه من الوقوف امام سيل الفوضوية الجارف الذي أخذ يجرف في طريقه كل شيء حتى وصل الى القبائل والحاميات معاً ، ولا في وجه مؤامرات الناقمين عليه شخصياً والدعاية الماكرة التي كانت تبث عن ايرانيته التي لا تجعله الا شيعياً خائناً •

وعلى هذا كانت مدة حكمه القصيرة ملأى بالحوادث • فقد ذكرت حملته الكبيرة الاولى على البابانيين في مقام غير هذا • وفي خريف ١٧٦٣م (١١٧٧هـ) استولى على منطقة بني لام فاحضعهم واستوفى منهم غرامة جسيمة • وعند زيارته للبصرة ، وكان يعرف مشاكلها عندما كان متسلماً فيها ، وجد ان بني كعب الذين

كان يرأسهم الشيخ سليمان ما برحوا مستقلين ، ومستمرين على السلب والنهب •
فطلب من المقيم البريطاني ، في مقابل مساعدته عند السلطان ببعض الامتيازات ،
ان يسعفه بمعونة سفن الشركة له لضرب الاسطول الكعبي • فكانت مصالح
الشركة نفسها هي التي اقنعت المقيم بارسال سفينتين ، وعندئذ اذعن الشيخ
مفضلاً الصلح على متابعة القتال ، بعد أن أقرعه تقرب جيش الباشا منه •

وفي ربيع ١٧٦٤م (١١٧٨ هـ) جردت الحملة على الخزاغل حيث كان
(كما في دجلة) الهدوء الطويل الذي وطد دعائمه أبو ليلة قد انتهى • فلم ينجز
علي باشا في هذه الحملة شيئاً ، حتى انه (كما قيل) دحر أيضاً • فوصلت أهازيج
النصر التي كانت ترددها قبائل الاهوار الى بغداد • وسرعان ما أشاع الكهيات
المعادون الدساسون و « الام - الملكة » عادلة ان قوات الباشا الايراني الاصل ،
القاسية على الاكراد السنيين ، كانت قليلة ورحيمة تجاه الخزاغل الشيعة • فهمس
المرجفون باسم الصوباشي ، ومات على حين غرة ضابط كبير • فنطقت الخاتم
بكلمة « السم » وأضافت الى ذلك قولها « أنه لن يكتفى بحياة شخص واحد » ،
فزاد الخوف الخصومة وتعال نيرانها التي لم تستطع اخمادها الهدايا الكثيرة
التي بذلها الباشا ، ثم تسربت روح الفتنة الى الخارج ، وكان رأس الناقمين عمر
باشا • وبعد ان أخذوا القلعة بيدهم أخذوا يقصفون السراي بالقنابل • على ان
حذق علي ولطفه انالاه نصراً موقتاً • وسرعان ما اتبع الامان والتفاهم اللذين
اعلنهما بمعاينة رؤساء الانكشاريين عقاباً صارماً • فكلفه هذا الخطأ تجدد
الثورة واشتدادها ثم انتشارها ، وقد أقسم الكهيات يمين الاخلاص لعمر • ثم
استحكم كل شارع ونصب كل مدفع في غرف القصر وحجره • ولما أيقن الباشا
بأنه قد اضاع كل شيء انسل من مقره متكرراً • غير ان جاسوساً من الجواسيس
ظفر به ، فسحب الى السجن وفيه أعدم ، وهو الشجاع السخي المذهب الذي
ذهب ضحية للحسد والضغائن الشخصية •

وبينما كان الجند والاهالي راجعين الى بيوتهم في المدينة التي خلدت الى
السكينة انعقد ديوان كبير لانتخاب الخلف • فكانت مؤهلات عمر والاحوال
المحيطة به هي الحاسمة • فقد كان قائد الثورة الناجحة وزوج ابنة سيد المخاصمين
أجمع • فدبج الديوان كتابا الى السلطان محشواً بالاكاذيب الملفقة عن الباشا

الأخير ، يسترحمون فيه تعيين عمر • فلم يجد السلطان مصطفى الثالث بدأ من مصادقتهم على ذلك ، وتولى عمر باشا الحكومة في ربيع ١٧٦٤م (١١٧٨هـ) •

ومرت بين تعيين عمر باشا وارتقاء سليمان العظيم حقبة ستة عشر عاماً •

فكانت هذه المدة متألفة من : سنوات عشر من الحكم الضعيف السلمي الذي لم تحدث خلاله غير الحروب القبلية وتضائل النفوذ الحكومي ، ومن خمس سنوات كان يسود فيها النضال بين حكام بغداد المعرضين للاستبدال بسرعة الذين لم ينفعوا بشيء ، بينما كانت البصرة تعاني حصاراً طويلاً تلاه احتلال أجنبي • ومن سنة التحرر من الحكم الايراني والحكم الداخلي السيء معاً ، بينما كان الباشا العظيم في طريقه من الاسر الى تسلم الحكم في البلاد • وكانت منزلة الجراكسة المتقين من أخص خصائص الحكومة في بغداد بعد أن زاد عددهم واستتب الاستقرار العام بنفوذهم • وقد بلغ تكاثر هؤلاء الممالك درجة أصبحوا معها يستخدمون حتى في الوحدات الحكومية التي لم تكن قد أصبحت تابعة لبغداد رأساً بعد ، ولذلك ما كانت العيون تنتظر الى غير الباشا المملوك في بغداد • وخابت محاولة السلطان في أقصاء هذه السلالة كما خابت من قبل ، فقادت أعظم الممالك قاطبة الى منصب حسن باشا •

وقد حكم عمر عشر سنوات كانت سلطته خلالها تأخذ بالتضاؤل • فأخذ على عاتقه في أول سني حكمه واجب تهدئة القبائل • ولما كان شيخ الخزاعل متمادياً في مناوأة الحكومة جرد عمر باشا أولى حملاته عليه • فدمرت للموم وهي المنزل الرئيس وعين شيخ رشحته الحكومة ، ثم أعدم عدد من الرؤساء • وفر الشيخ حمود ثم ظهر ثانية وأعيد للمشيخة ، بعد أن أعطى العهود التي لا قيمة لها بتحسين الحال • وكان تدبير أمر بني كعب أصعب من ذلك • فقد تآزرت في الحركات عليهم المجهودات البريطانية والايرانية أيضاً • وفي ١٧٦٥م (١١٧٩هـ) دبر الوصي على عرش ايران ، كريم خان ، حملة مشتركة عليهم • الا ان القوات التركية تأخرت عن اللحاق بالميدان في الوقت المضروب فتمكن الشيخ من النجاة والخلود الى السكينة مؤقتاً • وقاد بعد ذلك متسلم البصرة رتلا مستقلاً من الجيش في الجانب الايمن من النهر • على ان الهجوم كان قد بدأ من جانب الشيخ سليمان ، وكان قد استولى على ثلاث سفن من سفن القبطان ، ثم

اشترى الصفح عنه في الحاضر والمستقبل بمبلغ زهيد • لكن شيخ كعب لم يكن وحشياً ساذجاً ، فقد التفت الى الفريق الثالث الذي لم يشملته التفاهم هذا مع الترك • فاستولى على سفن بريطانية ثلاث واحتفظ بها بعد أن سرح ضباطها • وعندئذ ارسلت حكومة بومبي ، وقد أغاظها الحادث كثيراً ، اسطولاً مؤلفاً من ست سفن ، وكان ذلك في كانون الثاني من سنة ١٧٦٦م • ثم وصل من بغداد في الصيف محمود آغا ، كهية عمر باشا ، مع قوة من الجيش • فكانت أول حركات الحملة المشتركة مفاجئة • فقد أحرقت سفينتان بريطانيتان وتسع سفن تركية ، ثم صد هجوم من البر • ورجعت في الاخير قوات الفريقين بعد أن تسلمت من كريم خان كتاباً ينشدها فيه أن تسحب من الاراضي الايرانية • ولم يثار لهذا الهجوم الكهبي على السفن ، في الأوان ولا فيما بعد ، لكن الضغينة تلاشت بالتدريج •

وفيما عدا الحملة نصف الجدية التي وجهت على عبدالله في المنتفك سنة ١٧٦٩م (١١٨٣م) - لاسباب اعتيادية ، ولكن تفصيلاتها ونتائجها غامضة - لم يدون شيء عن حملات أخرى قام بها عمر باشا في جنوبي العراق • غير أن نفوذ حكومته كان يقل تدريجياً • اذ فقد حتى قدرته على عزل الشيوخ الرسميين وخلقتهم ممن كان أسلافه يحكمون العشائر بواسطتهم ، وكذلك قلت قيمة فرائمه شيئاً فثميناً • وغدت الحكومة لا تأثير لها بالكلية من القرنة الى حسكة من جهة الفرات والى منطقة زبيد من جهة دجلة • وغدا الدس ، الحقيقي أو عن الشبهة ، موجهاً على الباشا • وفي عام حملة المنتفك اوقف عبدالله بك الشاوي^١ فجأة ثم

(٨) ان الذي ذكره ياسين العمري في « الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون » لحوادث سنة ١١٨٣ من تاريخ العراق هو قوله :
 « وفيها عصت عرب البصرة : بنو لام والخزاعل فسار اليهم بالعساكر والى بغداد الوزير عمر باشا وحاربهم وقتل منهم جماعة ونهب أموالهم وأغنامهم وجمالهم وعاد » •

وقال في اخبار الشاويين :
 « وفيها غضب والى بغداد الوزير عمر باشا على الامير عبدالله بك الشاوي وقتله ، ثم قتل ولده سلطان باشا وأقام ولده الاكبر الحاج سليمان مقام أبيه ، وكان المترجم من الاجواد الجياد له صدقات وداره محل الضيوف » « م • ج » •

شنق ، وهو من اسرة مشيخة العبيد الكبيرة ومن وجوه بغداد حينئذ فُجِعَ جمع ولدائه سليمان وسلطان قوة من العصاة ثم قطعاً كل طريق تؤدي الى المدينة • فساق عمر باشا قوة من البصرة الى الدجيل عليهم فقطعت مسافة عشرين مرحلة في ثمانية أيام • فشتت معركة قصيرة شمل العصاة ، وفر سليمان • اما سلطان فقد قبض عليه وقتل في محضر من الباشا ، وكذلك قتل غيره • كما أقصي آغا الانكشاريين الى كركوك وشنق • وزيادة على الفتنة والشغب ، ظهر نفوذ جديد في ديوان الباشا ببغداد فأدى ، لدرجة ما ، الى انحلال الامور في أيامه الاخيرة • فقد استطاع رجل من أصل فارسي حقير ، يدعى محمد العجمي (عجم محمد) أن يستحوذ بالكلية على الباشا الضعيف • فكان يستخدم جميع فنون « القيادة » ويصرف نفس سيده بأخس العواطف ، وبذلك تمكن من الدخول الى أجل المجالس ، والحلقات • فعدا نفوذه ممتازاً عند عمر •

فيمثل هذا الضعف وبمثل هذه الخيبة في الحكم كان المملوك المعتقد عمر • وبينما كانت الحكومة على عهده في أواسط العراق وجنوبه آخذة بالانحطاط والتدني شيئاً فشيئاً كانت الموصل والولايات الكردية تكون تاريخها الخاص الذي طالما عرفت به • فقد كان الدفاع المجيد الذي دافعت به الموصل عن نفسها من أخص الحوادث التي عرف بها عهد خامس باشوية تقلدها الحاج حسين الجليلي • وفي ١٧٤٧م (١١٦٠هـ) نقل منها ثم رجع اليها ثانية بعد سنة • وكان خلفه التالي محمد الترياكبي ، الذي عين اخيراً ببغداد ، وطرده منها أبو ليلة • وفي عام ١٧٤٩م رجع الحاج حسين للمرة السابعة • ومما يذكر هنا ان الحملة التي جردها أبو ليلة سنة ١٧٥٠م على بلاد الاكراد ساعدته فيها قوات الموصل وعاضدته في القيام بأعبائها • وبعد سنين ثلاث استدعت غزوات اليزيديين وعنفهم في جبل سنجار تجريد حملة واسعة النطاق عليهم • فقد جاء ابو ليلة بقوة عظيمة الى الموصل ، وعاضده في حملته هذه أمين باشا بن الحاج حسين بتخبرته واخلاصه •

وعين امين باشا بتأثير أبي ليلة لحاكمية الموصل ومن ثم عين الى كركوك • وفي ١٧٥٨م (١١٧٣هـ) تعين الحاج حسين^٩ في الموصل من جديد حيث تبين

(٩) قول المؤلف « وفي ١٧٥٨ تعين الحاج حسين في الموصل من جديد »

ان عدة سرقات ناجحة جريئة كانت تدل على ضعف حكم ، وقلة موارد ، الباشوات الذين حكموا في الفترات الواقعة بين حكم الجليليين • وأصبحت حتى المدينة ، التي فرقت بين سكانها الأحقاد والانقسامات العنيفة حسب المعتاد، غير آمنة • فرجع الحاج المحارب القديم ليعيد النظام الى نصابه والسلطة الى محلها • الا انه ما بدأ بإدارة دولا ب الحكم في عدة شهور حتى عاجلته المنون في مدينته • وبالرغم من عدم خلوه من الاخطاء - كحب المال وعدم التيقظ في الحكومة - فقد كثر لدرجة كبرى من نفوذ اسرته ، وهو يذكر الآن في الموصل بكل خير وبأنه بطل الدفاع •

وتولى على باشوية الموصل عدد من الحكام - ليس كلهم من الجليليين - حكم كل منهم بضعة شهور • وفي تعيينهم هذا لم يكن وكلاؤهم في استنبول أقوى نفوذاً في رغباتهم من رغبات الباشا في بغداد • والواقع هو أن تقاسم النفوذ في شمالي العراق بين حكام بغداد والموصل كان مختلفاً وعلى غير انتظام • على انه كانت منزلة الباشا الجليلي في داخل المدينة (وكانت الحكومة في داخلها فقط فعالة تماماً) تنافس منزلة زميله في بغداد • وقد حدثت في عهد مصطفى باشا شاهسوانزاده^١ سنة ١٧٦٠م (١١٧٤هـ) اضطرابات عنيفة • وانقسم الجليليون

فيه خطأ في التاريخ لأن سنة ١٧٥٨م تقابل ١١٧٢هـ مع ان ياسين بن خير الله العمري الموصل في ذكر في الدر المكنون في حوادث سنة ١١٧٢ ما صورته : « سنة الف ومائة واثنين وسبعين ولي مدينة الموصل امين باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي الموصل » • وذلك بعد قوله في حوادث سنة ١١٧١ :

« وفيها ولي حلب الوزير الحاج حسين باشا الجليلي الموصل ٠٠٠ ثم عزل ٠٠٠ وولي الموصل ٠٠٠ ودخلها ٠٠ وتمرض ومات ومدة اقامته بالموصل سبعون يوماً • وتسلم البلد امين باشا واخرج عمه وأولاد عمه من السجن وصادر امراء الينكيجرية وأطلقهم » « م • ج » •

(١٠) ان قول المؤلف « عهد مصطفى شاهسوانزاده في ١٧٦٠م » غير مستقيم فقد ذكر ياسين العمري في حوادث سنة ١١٧٤هـ ما نصه : « سنة الف ومائة واربع وسبعين ولي الموصل الوزير سليمان باشا الجانكي ٠٠٠ ثم عزل عن الموصل ٠٠ ووجهت الموصل للوزير مصطفى باشا شاهسوار اوغلو وتسلم له البلد فتاح بك الجليلي الى أن قدم اليها » •

وقال في سنة ١١٧٥ :

بين معاد له ومناصر ، ثم تطورت الحال فانقلبت الدسائس الى عصيان علني وحل محل الاهانات اطلاق النار . فكانت تدوي في شوارع الموصل الطلقات والقنابل اليدوية مدة أربعة أيام ، وانقطعت صلاة الجمعة في الجوامع ثلاث جمع . وما انفرجت الحال الا عند عودة أمين باشا للمرة السادسة .

وكان المتسلم في ماردين - أي الويووضة ان كان لا يزال يدعى كذلك^{١١} - عرضة في بلدته الجبلية الى فتن ليست أقل عنفاً من فتن الموصل ، والى الاحوال السياسية بين قبائل طي والملي في السهل والجبل ، والى البغضاء العنصرية بين العرب والكرد والتركمان ، والى المشاكسات الدينية بين أتباعه المسيحيين . وكانت هذه الولاية الثانوية ، التي لا تدخل شؤونها التاريخية غير المدونة الا قليلا في ضمن هذا التاريخ ، مازال معتمدة على بغداد لكونها من بقايا البناء الامبراطوري الذي شيده حسن باشا من قبل . وكانت نصيين وديره تابعين لها ، كما كانت الرقة وديار بكر من الولايات ذات الشأن المجاورة لها .

وحافظت الاسرتان النيبتان الحاكمتان في حسنكيف « حصن كيفا » والجزيرة على حكومتيهما بعزلة واستمرار محليين . فكانت علاقتهما بحكومة السلطان كعلاقة العمادية وقره چولان ، ولكن بمقياس أصغر . فقد استمر حكم

« وفيها وقعت فتنة في الموصل بين المدن (محلة بالموصل) وأهل باب العراق ثلاثة ايام واتفق الوالي مصطفى باشا وفتح بك مع المدن فضعف اهل باب العراق وهربوا وانظفت الفتنة » .

فهو مصطفى باشا شاهسوار اوغلو لا شاهسوانزاده ، نعم يجوز أن يقال « شاهسوار زاده » .

اما « القنابر اليدوية » فغريبة لأن الذي ذكره ياسين العمري قوله « وامتدت الفتنة اربعين يوما وأمر مصطفى باشا بضرب القنبر والمدافع وتعطلت الجمع ثلاث مرات ٠٠٠ » « م . ج » .

(١١) نعم كان يسمى كذلك قبل ياسين العمري في حوادث سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) : « وفيها ارسل والي بغداد عمر باشا الامير الحاج سليمان باشا ويوضة ماردين الى الموصل وجعل يسوق بعض الرعية الى شهرزور وبغداد » وذكر ويوضة ماردين في حوادث سنة ١١٨٥ ايضاً .

بهرام باشا الطويل الهاديء في حنكف حتى سنة ١٧٦٩م (١١٨٣م هـ) • اما في الجزيرة فسعدونا التاريخ الباباني الى أن نبحت من جديد - لأننا لم نبحت عنه منذ وفاة نادر - عن جار العراق من الشرق •

باباني وايراني

كان قتل الشاه الافشاري قد زج ايران في أحضان سنين عديدة من الفوضوية • فقد تقايل من أجل العرش خصوم عديدون • وتلت تتويج أحدهم ثورة في الحال ، وظفر عن طريق الفتك والقتل ، ثم اندحار بالمكر والخديعة • وليس من شأن هذا التاريخ أن يخوض في البحث عن مختلف أنواع الاطماع والبربرية التي كانت عند هؤلاء الامراء والقواد • لكننا نقول ان عدد المتنازعين قد قل حتى بقي منهم في الاخير رئيس من التركمان الفاجاريين ، وقائد افغاني من قواد نادر ، ورجل من قبيلة الزند يدعى كريم خان • فوقعت الفريسة أخيراً بيد كريم خان ذي الاصل الوضع والشخصية المحبوبة • وكان هذا قد دحر مرات عديدة خلال النزاع الطويل على العرش ، وفاز في النهاية بحسن طالع وشخصيته المحبوبة ، فغدا في ١٧٥٧م (١١٧١هـ) الحاكم الذي لا ينازع • وقد نصب في العرش شاه اسمي من الصفويين اسمه اسماعيل كألوبة بيد الوصي • واستمر كريم خان يمارس السلطان والنفوذ بكونه وصياً على العرش مدة عشرين سنة جاعلاً شيراز عاصمة للدولة • والحق ان هذا الوصي كان بمقام ملك ينشد السلم ويرغب في اسعاد شعبه ، ولم يفكر في مباشرة الحرب مع العراق حتى السنين الاخيرة من عهده • ولذلك لم تحدث أية مشكلة مع ايران على طول أيام أبي ليله في الهاشوية • بل كان الامر على العكس من ذلك ، لأن الخان كان يتحف المماليك بين حين وآخر بهدايا فاخرة • وفي السنين الاولى من عهد عمر جرى تآزر ، غير مثمر ، مع الايرانيين في تأديب القرصان من بني كعب كما مر سابقاً •

غير أن أسباب الاحتكاك والتصادم كانت تعمل في طبي الخفاء • فقد أثارت ، مند سنين خلت ، حفظة الشيعة الايرانيين المعاملات القاسية التي كان يعامل بها زوار القببات المقدسة في الفرات • وسمح في درنه الواقعة على الحدود لنبك - وهو تابع عثماني - ان يجمع « الخسوة » الجائرة ، وكانت في القببات نفسها أخطار السفر قد وصلت اوجها بالتعدييات المزعجة والتكاليف الجشعة التي كانت

تفرض على الزوار • فاحتج الوصي أولاً ، ثم هدد ، فلم يرد عمر باشا على ذلك بشيء • وقد حاولت حكومة شيراز استعادة مائة أسرة إيرانية كانت تقيم في البصرة الى ايران فلم تفلح في المحاولة • وزاد في الجفاء عدم اكتراث الاتراك بالجواب على المطالب والاحتجاجات • ثم زاد في الطين بلة انحراف التجارة عن ميناء بوشهر وميناء بندر عباس الى البصرة • وأحس الوصي ، في الوقت نفسه ، بوجود تدمير في جيشه لا يعالج الا بالخدمة الفعلية التي انشئ الجيش من أجلها • هذا زيادة على الحنين الى كربلا والنجف اللتين كانت ذكرياتهما لا تغرب عن بال كل شيعي • يضاف الى ذلك كله ان قرهچولان كانت مسرحاً مناسباً للاتراك والایرانیين يمثلون عليه أدوارهم متى شاؤا فيبعثون أسباب الحرب من مكنمها •

وكان سليم ، المرشح الإيراني للحكومة البابانية ، قد استعاد حكومته من سليمان باشا (بابان) عام ١٧٤٩ م (١١٦٣ هـ) ، وحفظها بالرغم من حملة أحمد باشا الاخيرة المنتهية بموته ، وبقي مدة عامين يهزأ بحكومة بغداد ويغزو كثيراً من الاصقاع العراقية • فمضى اليه ابو ليلة بنفسه في ١٧٥٠ م ، والتقت القوات التركية والكردية على بعد اربع مراحل من شمال بغداد ، وانتهى الصدام بفرار سليم باشا وتفرق أتباعه • فتسلم سليمان باشا بابان حكومة سليم ، وبقيت في حكمه زهاء أربعة عشر عاماً تخللتها بعض الفترات • وكان سليمان هذا من عظماء أسرته ، وحينما أصبح تابعاً لبغداد صار جيشه الاقطاعي تحت تصرف الباشا فيها ورهن أشارته في الطاعة • وظل يتمتع بتأييد دائم من جانب أبي ليلة الذي أنقذه من أشد أعدائه في ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) • اما سليم باشا فلم يصفح عنه ، ولم تنس موالاته العلنية للایرانیين ، ولا غزواته وسرقاته ، ولا مراوغاته • ولشفاء غليل عادلة خاتم ، وما كان يدور في خلدتها من روح الانتقام ، قدمت له الشروط المغرية وطلب اليه بلطف وبشاشة الحضور الى بغداد ، حيث كان ينتظره الموت المسروع والخيانة المزرية • وعندئذ لم يبق من ينازع سليمان في قره چولان ويهدده إلا محمد باشا بن خانه باشا الذي تمكن من الاستئثار بالحكومة في ١٧٦٠ م • فدحره على نهر النارين جيش أرسل لقتاله من بغداد ، وأخيراً اعدمه سليمان • وتسلم أحمد ، أخو سليمان ، الحكومة مرتين مدة شهور قليلة ، غير انه خاب في التمسك بها •

وقد أزلت وفاة أبي ليلة الضغط الذي كان يجبر الحاكم الباباني على الاخلاص الى السكينة ، فاتتهى أمر الطاعة لبغداد ، وبدأت الغزوات • وكان انذار علي باشا له أولاً شيئاً بلا فائدة • ثم جرد عليه حملة فصار الباباني للقائهما وبمعيته ستة آلاف فارس مع مدافع وثمانية آلاف من المشاة • فوقعت الحرب بالقرب من كفري ، وانتهت بفرار سليمان باشا مع ثمانين من اتباعه من ساحة الحرب الى ايران • فاستعاد من هناك حكومته بمساعدة جيوش كرمشاه • على ان هذه الثقلبات لم تحرمه النجاح في حكمه • فقد وسع نفوذ البابانيين الى ما وراء ديالى جنوباً ، ولم يسمح لحكومة رواندوز أن تتمتع بالسلم • وكانت رانية وزهاو تابعتين له ، اما كوي فقد كانت من محمياته بالرغم من بقاء الاسرة المالكة فيها حينئذ • وبينما كان منهمكا في الاستيلاء على أردلان في ١٨٦٣ م (١١٧٧ هـ) كسرت قوات الوالي شر كسرة • الا أنه تمكن في السنة التالية من نيل عطف كريم خان عليه في شيراز ، فأعيد لحكومة سنه • وبعد عام من ذلك التاريخ اغيل ، فخلفه في أردلان ابنه علي بوساطة الوصي في ايران ، ثم عين أخوه محمد باشا في قره چولان بالوساطة نفسها •

لكن المنازعات العنيفة بين الاخوة في شهرزور بقيت مستمرة • فقد كان أولاد خانه باشا الثلاثة ، محمد وأحمد ومحمود ، يجمع كل منهم أتباعه ليحارب من أجل اماره كوي وامارة قره چولان • وكانت صلة هذه المطاحنات بالعلاقات العامة بين ايران والعراق تزداد تقرباً ووضوحاً كل سنة • وفي ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) تمكن محمد باشا ، بعد هدوء العاصفة البابانية ، من القبض على أخيه أحمد (وكان يحكم في كوي اوانئذ) ثم طرد محموداً ففر ملتجئاً الى بغداد • وتماذى في حيله وحذقه في اثارة حكومة العراق • وأخيراً اوفد عمر باشا كهنته لنصب محمود في حكومة قره چولان • فكانت مهمته سهلة ، لان محموداً فر الى سنه واطلق محمود لنصب أخيه أحمد • وكانت هذه الحوادث للوصي الايراني المترقب في شيراز - الذي كان يوجه الانذارات الى عمر باشا^{١٢} ، ويرهب البصرة بموقفه - فرصة سانحة ينفذ فيها ما يريد • فأرسل جيش عدده أربعة عشر الف مقاتل من الايرانيين بقيادة علي مردان الى كردستان وعبر الحدود لاعادة محمد باشا ، الذي كان مع الجيش ، الى مكانه • فوهنت جيوش الكهية ،

وقوات الباباني الحاكم أوائل ، امام القوات الايرانية في بادىء الامر ، إلا أنها جمعت سملها نائية فهاجمت العدو ومزقته شر ممزق • فطردت قوات الشاه من شهرزور ، وأخذ على مرادن أسيراً الى بغداد فردده عمر پاشا الى سيده الشاه بأدب عظيم • وهكذا بدأت الحرب مع الايرانيين من دون أن تعلن رسمياً •

الانسان ذئب يفترس اخاه الانسان

ما كانت الحرب لتصيب من الولايات التركية هذه المرة غير العراق ، ولم تجر هذه الحرب في العراق الا في ميدانين من ميادين القتال هما ميدان أودية شهرزور وميدان مدينة البصرة ، وسيترك البحث عن محنة الميناء لصفحات متأخرة • وبينما كان الميناء يئن من آلام الحصار والاحتلال كانت بغداد تنوء بخمس سنين من الفوضى والتعاسة •

فقد رأينا ان سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) قد حلت على عمر پاشا وهو مصادف سرايا خالياً ، وخزانة أكثر خلواً^{١٣} ، وجيوشاً قليلة لا يعتمد عليها^{١٤} ، وأملاً خائباً كان يعلقه بمساعدة السلطان له ، وجاراً ايرانياً يلح في احداث الاشتباك الحربي • وأصبح نفسه منحطاً في شخصيته فعاش في شبه عزلة • ثم رويت القصص في اعتماده على أسوأ المشاورين وعن اعتراف مبتذل بأنواع الجميل • وكان كل يوم يأتي بالضرعات من البصرة المهددة ، وبأنواع الاحاديث عن تعديت الايرانيين في شهرزور وتدخلهم بخلع هذا الباباني أو ذاك عن العرش ، حتى قيل ان كركوك كانت في خطر أيضاً • وفي مثل هذه الاحوال - والتحذيرات اللافتة قبل عاصفة ما كان يأمل أن يتغلب عليها - تقاعس عمر عن انجساد البصرة^{١٥} فأستحق اللوم على ذلك من شط العرب والبوسفور على حد سواء •

(١٣) ومع هذا هبطت الاسعار مرة ثانية في ١٧٧٤ - پارسنز ،

الص ١٢٩ •

(١٤) كان الخور العام في العزائم الذي سببه الطاعون قد حل بعده الارتباك والفوضى « فقد اعدم في أشهر حزيران وتموز وآب أربعة ضباط و ٢٧ جندياً من الفيلق الانكشاري » • پارسنز الص ١٣٣-٣٤ •

(١٥) الحق انه نجح في ارسال ٢٠٠ انكشاري ، ولم تصل القطعات المطلوبة من بكات الاكراد • كما ان قوة سارت بقيادة الكهية وصلت بطريقها للمجنوب الى الخزاعل وجليحة فقط • ولا نرى موجبا لما يذكره پارسنز بحق عمر پاشا وخيبته في اسعاف البصرة بقوله ان فشله ذاك « كان غير وارد وغير مغتفر » •

وفي ١٧٧٥ م ، - أعني - بعد معاهدة قينارجي المذلة وبعد ثلاثة أشهر من انتهاء حصار البصرة ، استطاع السلطان أن يوجه نظره نحو الشرق . فقد أدرك الجميع في استانبول ضرورة تخليص العراق من المماليك ، كما فكروا في ان ابعاد عمر قد يهدىء الحالة في كردستان وفي البصرة من دون أن تضرب أية ضربة . فعين مصطفى باشا الاسيخانجي ، والي الرقة ، لقيادة حملة الى العراق . فكان بصحبته والي شهرزور سليمان الجليلي^{١٦} ووالي ديار بكر أوزون عبدالله باشا « الطويل » . وصدرت بعد ذلك الفرمانات الملكية بتعين مصطفى لبغداد وتحويل عمر الى ديار بكر .

وقد وصل القواد الثلاثة الى بغداد على أحسن حال فنصبوا معسكراتهم منفصلة بعضها عن بعض خارج المدينة . ثم سار مصطفى الى بغداد وقدم فرماين ، فامتل عمر الامر . فافرج الخزانة هو وخدمه ، وترك المدينة فخيم في الجانب الايمن منها^{١٧} . ولم تكن لديه أية قوة ، كما لم يكن مستاء من نقله المشرف هذا . على ان المرجفين لم يتقاعسوا عن اثارة الخوف والطمع في خلفه . وبينما كان عمر منهمكاً بنقل خزائن بيته ، من دون أن يعارضه معارض ، أمر الاسيخانجي بهجوم فجائي على مخيم عمر وهو أعزل . فركب والي الخائب (عمر) للفرار ، الا ان حصانه كبا به في الظلام فوقع وكسرت رقبة فارسه^{١٨} . فهرب مؤيدو عمر من بغداد ، ثم رجع سليمان الجليلي الى كركوك . وقد

(١٦) ابن امين باشا وقد مات فجأة .

(١٧) قال ياسين العمري : « وفيها (١١٨٩) عزل من بغداد عمر باشا فخرج الى البر ونصب خيامه خارج السور » وهذا يدل على انه كان خيم في الجانب الايسر . « م . ج » .

(١٨) قال ياسين العمري : « فأظهروا الفرمان بقتل عمر باشا ووافقهم عليه كتخده الحاج سليمان الخائن وصاح به : الى أين تهرب والسلطان أمرنا بقتلك ؟ وكان عمر باشا شجاعاً فكر على كتخده وقتله ، فجاء بعض امراء مصطفى باشا الاسيخانجي وقتل عمر باشا ونهبت خيله وخيامه وقطع رأسه وأرسلوه الى الدولة وبقيت جثته على الارض يومين ثم دفنوه في بغداد ثم دفنوا الحاج سليمان وكان ظلوماً » . « م . ج » .

أردف الاسيياخجي استصفاء ثروة عمر بالتضييق على أغنياء البلد • وكان عجم محمد ، قوآد عمر ، موضع اعتماد الوالي الحديث أيضاً • ومرت مدة لم تبين فيها علائم الاستعداد للسير الى البصرة • وكتب الى استابول بأن البصرة أصبحت تابعة له ، وقد لاذ الايرانيون بالفرار منها • اما الممالك ، الذين أدركوا نيات الوالي الحديث وعلموا بالتعليمات التي تزودها ، فقد تسللوا تدريجاً من بغداد والتفوا حول الكهية السابق عبدالله اغا وقد أخذت تزداد قواته الثائرة يوماً بعد يوم حتى استولت على القرى وأصبحت تحاصر بغداد تقريباً • فكانت محاولات الاسيياخجي الضعيفة في اخماد هذا العصيان غير مجدية • فأخبر السلطان بتمرد عبدالله وتجبره ، غير ان الوزراء في استابول كانوا ينتظرون أخباراً تختلف كثيراً عن هذه • فبدلاً من أن يقوم وكيلهم المنتقى بانقاذ البصرة ومطاردة الممالك أصبح يعيش عيشة لهو وقصف مضاهياً بذلك الممالك أنفسهم • فوقع اختيار اولي الامر في استابول على والي كوتاهية عدي باشا ليخلفه وليحقق ما يبتغون • فوصل الى بغداد والفرمان بيده • ولم يبد مصطفى اية مقاومة ، بل هرب الى الموصل ومنها الى ديار بكر حيث كان ينتظره القبوجي الذي أخذ رأسه بيده الى استابول بعد بضع ساعات •

وحكم عدي باشا مدة اسبوع واحد ، لان عبدالله باشا قد تعاضم أمره فأصبح مسيطراً على أواسط العراق جميعها • ولم يعدم انصاراً في استابول بالرغم من كونه ثائراً ومملوكاً • وكانت البصرة قد سقطت أيضاً ، فأذعن السلطان للضرورة الماسة من جديد ، وصادر فرمانه بالانعام ببغداد على عبدالله باشا • وما كاد يتولى حكومته التي كانت تنتظرها الايام البيض حتى صدر تعيين جديد لشمالى العراق • فقد أدمجت ايالة كركوك وايالة الموصل احدهما بالآخرى وعين لهما حسن باشا حاكم ماردين وكهية ابي ليلة السابق • فتولى الحكم ووجد الحالة في شهرزور بانحطاط مؤسف • لان اندحار علي مردان في ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) كان قد أثر في الايرانيين فحفزهم للانتقام له بالتعديات العامة في مناطق البلبانيين وغيرها من أقطار الحدود • فقامت درنة وبيجلان أهوال هذه التعديات والنحور من الايرانيين • ثم اكتسحت شهرزور واعيد محمد باشا بابان ، حليف الايرانيين ، الى منصبه وهددت كركوك ، ثم استولى خانات الحدود على

بدرة ومندلي • وفي الحملة التي جردها في هذا العهد المذكور حسن باشا ، بأمر من السلطان^{١٩} ، اعتمد على الاخوين البابانيين (محمد في قره جولان واحمد في كوي) بالرغم من انهما كانا قد بدلا تابعيتهما مراراً عديدة قبل ذلك • فاستقرت الآراء على أن يسير أحمد الى كرمنشاه بطريق زهاو ، وان يسير محمد من قره جولان على سنه • فدخل الاخير الى ايران وقضى على قوة اردلانية وجعلها تكابد خسائر جسيمة ثم نهب بانه • وفي موقعة ثانية اندحر والي سنة خسرو خان مضرجاً بالدماء بعد كفاح طويل هرب منه الى جباله واعتصم بها بعد شق الانفس •

وكوفئت هذه الانتصارات بتشكرات السلطان وهداياه • واذا ذاك أصبح محمد باشا مرتبطاً بالأتراك • اما أخوه ، المحافظ على سياسة أسرته ، فقد رجع الى مكانه القديم تحت حماية ايران والتحق بالجيش الحديث العرمم الذي بعنه كريم خان لمواصلة قتال الأتراك بقيادة كلب علي اللري • فتهقهر محمد ، وعجل حسن باشا بطلب النجدة من بغداد • وبذلك نصبت القوات الايرانية الداخلة الى شهرزور أحمد علي عرش آل بابان • وهنا حافظ على وضعه ضد الجهود الفائقة التي ظل يبذلها أخوه للقضاء عليه ، بمساعدة غير مجدية من باشا كوي وحاكم كركوك • حتى اختار لحظة انتصار مناسبة خاطب فيها حسناً بكتاب متواضع يعتذر فيه ويكفر عن خطيئاته ، وعند ذاك ضمن مصادقة الأتراك والبابانيين على تولية باشوية بابان • ومع جميع ما كان عند حسن باشا من حيوية ونيات حسنة فانه لم يتمكن من أنجاز شيء •

وأكثر منه خيبة كان عبدالله باشا في بغداد • فقد فارقه نشاطه الذي كان يتدفق فيه أثناء الثورة عندما تولى الحكم • وكانت سياسته الوحيدة ترسيخ هيمنة الماليك ، كما كانت لذائذه الفريدة ان يباهي بأبهة منصبه وسطوته وان

(١٩) لقد أعقب اعلان الحرب الرسمي على استانبول تعيين عبدالله وحسن في منصبيهما • فأمر كلاهما بأن لا يدخر وسعاً ولا جهداً في اخراج الايرانيين من العراق • ويورد جودت (ج ١ من المجلد ٢ ، الص ٤٣) التفصيلات التامة عن الجيش اللجب الذي صدرت الاوامر بتشكيله وجمعه لهذا الغرض ، لكن هذا الجيش لم يجمع منه شيء على ما يبدو •

يبتز أموال الموسرين • فأضيفت قبائح شهواته الى اعتلال صحته • وعلى هذا لم تبعث النجدة الى شهرزور في ساعة الحاجة اليها • وكان أنكى من ذلك كله نسيان الواجب الاول الذي القي على عاتقه ، وهو واجب انقاذ البصرة •

وقد وجد غيظ استانبول منفذاً له بتعيين سليم سري أحد رجال الحاشية الامائل الذي كان يلج في طلب التعيين • فقد عرض سليم نفسه للخدمة في العراق ، ووعد ان يأتي بمفاتيح البصرة • اما أهالي بغداد ، الذين سئمو حكم الحكام الضعفاء الذين لا يرتجى منهم نفع ، فقد تلقوا نبأ قدوم شخصية وجيهة من الباب العالي بكل سرورهم • الا ان الآمال المعسولة التي علقت على قدومه سرعان ما تلاشت • فقد كان مولعاً باللهو ، فأصبح ألوبة بيد عجم محمد وبلغت سطوة القواد الإيراني على عهده الذروة • وكان هذا الاخير قد استولى على الباشوات بالتعاقب وفاز بالاتباع ، وتمكن من جمع ثروة وفيرة عندما كان أميناً للصندوق على عهد عبدالله باشا • وعلى هذا كان يطمح أولاً لمنصب الكهية (الذي كان بيد اسماعيل آغا اواثد) ، ومن بعد ذلك كان يرى نفسه سيد الباشوية نفسها • وقد اشيع منذ مدة خلت انه كان قد كاتب شيراز سراً ، وبالنظر للوعود التي حصلت منه أخذ الوصي على عرش ايران يجهز جيشاً يسير به الى بغداد • على ان اسماعيل الكهية عمل ما كان بوسعه أن يعمل لاجتياز القوات العراقية ، لكن عبدالله وسليم لم يكونا ليستسيغا الحرب • فبعثا بدلاً من ذلك رسولا الى العاصمة الإيرانية ، وهو محمد بك الشاوي • فتوجه الرسول وقوبل بترحيب ودي هناك ، الا ان التخلي عن البصرة كان منوطاً بشروط ثقيلة • وقد أنكر كريم خان تهديده لبغداد مدعيًا بأن جيشه كان قد وجه للتأديب عشائر الحدود المقلقة • فرجع محمد بك الشاوي الى بغداد مع مندوب إيراني يحمل كتاباً الى الباشا • وما وصلا الى الحدود حتى سمعا بوفاة عبدالله بداء الحبس •

وقد أدى هذا الحادث في أوائل شتاء ١٧٧٧ م (١١٩١ هـ) الى تطور الخداع والدسائس الخفية الى منازعات علنية عنيفة • فانتخب سليم أفندي قائممقام ريشما يصل تعيين جديد من استانبول ، غير ان أوامره لم يُعَبَأ بها • وكان آخر ما فعله عبدالله قبل وفاته عزل اسماعيل آغا عن منصب الكهية وتعيين عجم محمد في مكانه • وعندئذ التففت الأحزاب والفئات حول الكهية المعزول

والكهية الحديث ، ثم تلا ذلك عراك علني في الشوارع بين الفريقين • وقد انقسم الانكشاريون الى فريقين ، وتبعت الجيوش المحلية من كان يدفع لها مالا أكثر من الثاني • ثم سعى الفريقان لاجتذاب الرعا ، كل الى جانبه • وانضم المالك الى اسماعيل بصورة عامة ، غير ان عجم محمد استطاع ان يفسد عليه كثيراً منهم كما انه ازداد قوة بمعاونة سليم أفندي العلنية له • وبعد صراع دام عدة أيام وأدى لاحوال لا تطاق عين سليم أفندي سليمان الشاوي ليقضي على الفوضوية عنوة ، وليرجع النظام الى نصابه ، فتمكن سليمان من ذلك لاحترام الفريقين له • بيد ان الحال سرعان ما انقلب ولم يدم الهدوء • فانحاز سليمان الشاوي نفسه الى اسماعيل آغا ، واستطاع عجم محمد أن يحافظ على التوازن ، في مقابل هذه الفعلة من سليمان ، بمساعدة أحمد آغا الخليل وهو رئيس عصاة متألفة من العصاة وقطاع الطرق والجنود الاجيرة غير النظامية • وكان مع أحمد الخليل وعجم محمد أكثرية اللاوند أيضاً • كما استطاع اسماعيل من جهة أخرى أن يستفيد من رجال قبيلة عقيل الخفيفين المتأهين بتأثير الشاوي ، فاستمرت هذه الحرب الاهلية خمسة أشهر كان الجميع ينتظرون خلالها من ينتخبه السلطان لهم • وقد كان يسعى للباشوية الشاغرة في هذا العهد الفريقان المتنازعان ، وحسن باشا في كركوك • وكانت في غضون ذلك الشوارع مستحكمة والاطلاقات تطاير والاصطدام العنيف يحدث كل يوم • وكانت في خارج المدينة من الجانب الايمن مخيمات عقيل ، واجتمع في الجانب الايسر الشذاذ من أتباع أحمد الخليل • وعلى هذا لم يبق شارع من شوارع المدينة آمناً ، ولم تراع الحرمات ، فانقطع السير في الطرق • وأخيراً وصل فرمان في نيسان ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) بتعيين حسن باشا ، فخدمت العواصف واستعد اسماعيل آغا والشاوي لاستقبال الحاكم صاحب السلطة • واذا كان حسن باشا متأخراً في الوصول بسبب نزاع الاخوين البابائيين حكم ذلك النيل العربي في مكانه ببغداد •

ودخل حسن باشا دخولاً رسمياً الى بغداد في اليوم الرابع من أيار ١٧٧٨ م ، ففتحت الدكاكين واتعشت الاسواق من كسادها وتبدلت الزيارات • وعرض أحمد الخليل طاعته فعين لوظيفة شرفية • اما عجم محمد فقد انحنى خاضعاً في أول الامر ، ثم أهين في القلعة وقد بقي معتصماً فيها بشورة علنية •

وبعد أسبوع واحد فر ليلاً من حصن القلعة ولحق بقوته في الخارج ، ثم تبعه أحمد الخليل ، الخائن من جديد ، الذي سنحه لقب الباشا .

وقدر لحسن أن يحكم ستين من الحكم المضطرب التاعس . فقد كانت نفقات ديوانه الزاهر وحرسه الخاص تستدعي الجور في فرض الرسوم على اليهود والنصارى ، وكانت المدينة هادئة ، إلا أن الريف في الخارج كان يعج بالفوضوية المستفحلة . فلم تكن قوات عجم محمد وحليفه العاصية لتستأصل شأفتها . وكان أول عمل عمله حسن عند توليه المنصب تجنيد العبيد أتباع الشاوي ، وتوحيد انكشاريه الخواص مع اللاوند ، وأغراء أتباع العدو بالانفصاض عنه . على أن أحمد الخليل قهر رتلين من جنود الباشا عند أول اشتباكه معهم . وعندئذ أرسل بخبر إلى أحمد باشا بابان - وكان ما يزال ثابتاً على حكم قره چولان بالرغم من جميع محاولات أخيه وباشا سوران في كوي لعزله - يأمره بأن يسرع في النجدة إلى بغداد . فسار أحمد أمثالاً لذلك ، لكنه مات قبل أن يصل بغداد . فخلفه بمهمته محمود أخوه الأصغر وقاد جيش البابانيين للالتحاق بعثمان الكهية . فتمكن حسن باشا من القضاء على ألف من الرعاع العاصين وأسر بضع مئات غيرهم بقوة المدد هذه . فلم يبق لعجم محمد وأتباعه شأن يذكر ، ولم يعد من المزارحين للباشوية . إلا أنه وأتباعه تهادوا في قطع الطرق والاخلال بالامن ، مرة بالقرب من سور بغداد وأخرى في جبال لرستان . أما سليم أفندي الذي سُم الشغب والفتنة فقد ترك البلاد إلى استانبول حيث كان انوت ينتظره .

وهكذا انقضى صيف عام ١٧٧٨ م وشتاؤه . على أن مركز حسن باشا كان يزداد تقلقاً يوماً بعد آخر . فلم يعاد الامن إلى نصابه في أواسط العراق ، وكانت القوة التي يستند إليها مختلطة مشكوكاً في أمرها ، وظهر الخصوم في الميدان . فقد نشأ حزب جديد وأخذ يتسع ويلتف حول الكهية السابق اسماعيل أغا . وفي آذار ١٧٧٩ م بعث حسن نعمان أغا ليحكم البصرة وقد تخلى عنها الإيرانيون فجأة . واضطر في تشرين الأول أن يترك بغداد لشدة المظاهرات انقائمة عليه . ثم فر إلى الموصل وفيها أخبر بتحويله إلى ديار بكر التي توفي فيها .

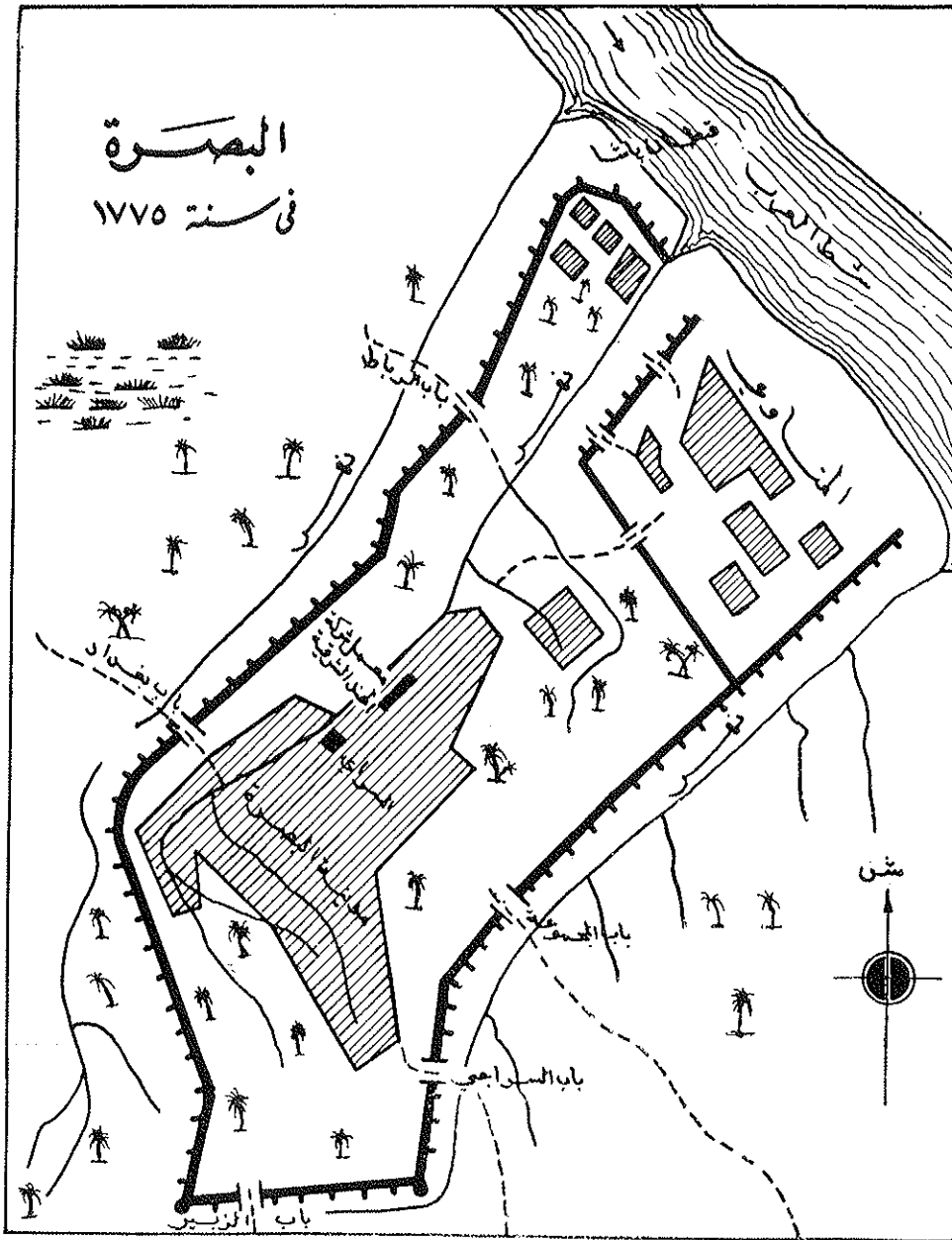
وكان السلطان قد عزم - رافضاً عرائض اسماعيل واحتجاجات حسن - على إعادة توحيد الايالات الثلاث ، شهرزور وبغداد والبصرة ، إلى حكم قوي

مؤثر لا بد من أن يُقبل وهو حكم بطل البصرة الذي كان أوانثد قد سرح من
الاسر • وبينما كان ممالك بغداد قد جعلوا اسماعيل قائم مقام فيها طلب السلطان
من سليمان الجليلي - المرسل ثانية الى الجنوب عند الازمات - ان يتسلم المدينة
ويكون محافظاً فيها • فاستبدل البابا الموصلي اسماعيل هذا بالشاوي النيل وجعله
قائم مقام • وبات جميع الطبقات ، وهي بين منفعل وفرح أو متحمس للقتال ،
تنتظر حاكمها الجديد • وكانت الغريزة الصادقة تؤذن بان عهداً طويلاً على
وشك أن يبدأ •



البصرة

في سنة ١٧٧٥



الفصل الثامن

سليمان الكبير

حصار البصرة ١ واحتلالها

لم يكن بين المماليك المعتقين ، الذين تذكرهم عهود طفولتهم بحاشية حسن باشا وحصار بغداد العظيم الذي كانوا في وقته صغاراً ، بحيث لم يستطيعوا المشاركة فيه ، أمثل في منظره الجميل وظرفه الاجتماعي وأدبه الجم من سليمان آغا . فقد تأيدت في عهد أبي ليلة مواهبه التي كان يتوسمها فيه الجميع . فقال الخطوة والترفع في عهد الباشوات المتعاقبين من بني جنسه ، حتى عين في ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) لأعظم منصب في الباشوية (عدا منصب الكهية) وهو متسلمية البصرة . ثم نقل بعد ذلك بثلاث سنين وأعيد في سنة ١٧٧١ م (١١٨٥ هـ) فكانت عودته بشرى للبصريين الذين كابدوا من عسف المتسلمين بعده ، عبدالرحمن والحاج سليمان ويوسف ، شيئاً كثيراً .

وبقيت الاحوال هادئة في الميناء بصورة عامة منذ ان أخذ أبو ليلة الثورة فصارت حابطة في سنة ١٧٥١ م (١١٦٥ هـ) . وقد كان السكان والتجار الاجانب قانعين بالامن في داخل المدينة بعد ان كان فقدان الامن في الطرق البرية أجمع ، وشيوع القرصنة في الشط ، معدودين من الامور الطبيعية . على ان التذمر من الجباية القاسية والعدل المهان وأخذ الهدايا كرهاً كلها كانت لا يخلو مسن ذكرها كتاب عن ذلك العصر . وكذلك كانت حتى هذه الاحوال ، وان قلت إزعاجا في عهد بعض الباشوات دون غيرهم ، عرضة للاستئناف في ديوان بغداد . ثم أصبحت التجارة رابحة سنة بعد أخرى . فكان للوكيل

(١) المراجع : اوليفيه (ج ٤ ص ٣٤٣) ، يوسف امين (ص ٤٥٠) پارسنز (ص ١٥٤ - ٦٢) ، كيير (ص ٢٢٢) ، ايرون (ص ٣٧٩) ، والمراجع العراقية لبقية العهد .

الافرنسي - وهو قس في بادىء الامر وعلماني فيما بعد - محل ثابت في البصرة من بعد ١٧٥٥ م (١١٦٩ هـ) ، ورحل البرتغاليون عنها نهائياً . ثم انتقل الهولنديون الى جزيرة خرق سنة ١٧٥٢ م . وكان عدد من الايطاليين يترددون الى الميناء ويقضون مآربهم التجارية ، وصار بوسع الارمني واليهودي ان يعامل هناك الفارسي والهندي . واشتغل العرب اليمانيون بجلب القهوة من اليمن والرجوع الى بلادهم مستبضعين تمراً . وكانت شركة الهند الشرقية تستجلب من الخارج اللوازم المعدنية والاقمشة الصوفية فتستبدل بها الحرير الايراني والنقود . وقد قوي شأن مثلها ، فرفع من رتبة مقيم الى رتبة وكيل في ١٧٦٣ م ، وعين قنصلاً لدولته فأصبحت له صبة قنصلية أيضاً . فكان هذا حادثاً يذكر بالنسبة لما حصل عليه الوكيل الافرنسي من قبل . على ان الدرجة التي حصل عليها الوكيل الانكليزي لم تكن من باب الطمع السياسي ، بل كان ذلك تعزيزاً لمركزه في مؤازرة رئيس العمل والدفع لجور الاغوات ، ومزاحمة منه للطامع الافرنسي هناك . وقد تلا ذلك تعيين وكيل آخر بالدرجة نفسها ولتمقصد عنه ، في بغداد بصورة شبه دائمة . فتولى هذا المنصب سنة ١٧٥٥ م رجل أرمني ، ثم أشغله بعد عشر سنين شخص انكليزي .

وقد كان رواج الحركة التجارية في البصرة واستقرار الامور فيها من جملة الاسباب المؤدية لتوتر العلاقات بين الباشا في بغداد والوصي في ايران . ولو كانت هذه هي الاسباب الوحيدة لكان من الممكن أن يقتنع بها كريم خان ، لان قليلاً من الرخاء بقي بعد حدوث الطاعون المروع في ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) . فقد كانت بقية هذا الوباء حسب وصف وكيل الشركة عند عودته في تشرين الاول من بومبي ، وكان قد التجأ اليها مع معمله في نيسان ، حامية قليلة العدد وأبنية معطلة ، وجرائم متزايدة وركوداً في التجارة ، وقليلاً من السكان الضعاف الذين تخطاهم المرض .

وما خفت وطأة الطاعون وزال شره حتى أخذ خطر الاحتلال ينمو ويتجسم . فقد شاعت الاخبار بتوقع هجوم ايراني على البصرة ، ولم يعدل الوكيل عن رأيه في افراغ خزائنه على وجه السرعة الا بوعود التسلم وبراعته في الاقتاع . وتمادى بنو كعب ، الذين لم تكن سفنهم مفيدة للفريقين ، في تبيان

خيانتهم المفعمة بالتذبذب • فبعد ان وعدوا الاتراك بالعدول عن محالفة الايرانيين والتخلي عنهم عادوا فأسروا سفينة تركية ، فأنقذتها منهم سفينة بريطانية ، ثم استعادوا رجالهم من البصرة متهددين • فانقضت بمثل هذا الجو المنبذ بالخوف سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) •

وفي منتصف الشتاء ، أظهرت غزوات العصابات من بني كعب بوضوح الضعف المفصوح للبلدة • وعند حلول السنة الجديدة تجددت اشاعات الخطر الداهم ، فبدىء بعقد اجتماعات يومية يجتمع فيها سليمان آغا والقبطان واشراف البلد والوكيل تداركاً لما قد يقع من الحوادث • وقد كان في الحامية أوانثد خمسة عشر الف مقاتل ، الا ان الجنود الاجيرة الجديدة وقوة القبائل لم تكن تبلغ عشر هذا المقدار • وكان معظم المدافع غير قابل للاستعمال ، وكان السور متداعياً والاستخبارات مقتصرة على الخبرين الاعتياديين • وقد بقيت احتجاجات الانكليز غير مسموعة حتى انقلبت المخاوف الى أخطار محدقة ، وعندئذ ذهب اتسليم لاعداد العدة بكل شدة ونفخ روح الدفاع • فجمعت الذخيرة من المؤن والعتاد واحضرت للحاجة ، ثم رمم السور ووزعت الواجبات • وقد كتب شاهد عيان أجنبي انه « لم يكن المسلم شجاعاً جداً حسب بل كان فعلاً ومنفذاً • فقد كان طول يومه ممتطياً صهوة جواده وعاملاً على الاستعداد للطوارئ • فكان مشغولاً في مراقبة ترميم السور وعربات المدافع وفي نصب المدفعية • • • » • وكان الجميع يلومون الباشا في بغداد على تأخره في ارسال النجدة •

وفي السادس عشر من آذار وصل الى شط العرب ، بالقرب من مصب نهر السويب ، العدو الذي طالما توقع وصوله البصريون • فتخلت قوات المنتفك ، وكانت قد جعلت على الضفة اليمنى من النهر في جنوب القرنة لمقاومة العدو ومنعه من العبور ، عن واجبها الذي نيط بها وتراجعت من غير انتظام • وتقدم الايرانيون بذلك من دون أن يلقوا مقاومة الى الضفة الغربية • وقد وصلت في انوقت الى السلطات التركية والانكليزية كتب من صادق خان ، شقيق الوصي الايراني ، طالباً فيها ايفاد مندوبين اليه للبحث عن فرض دية مناسبة ، فلم يجب بشئ • وبعد اسبوع وصل وفد من الخان يخبر بوجود دفع مبلغ من المال قدره اكنان من الروبيات في مقابل سلامة البصرة ، فلم يرد اليه ثانية أي جواب كان •

وفي خلال هذه المدة وصلت الى الجيش الايراني سفن من اسطول بني كعب على الشط فالتحقت به ، وبذلك اتاحت له التسهيلات التي كان بأمر الحاجة اليها . وللقوف في طريقها وصدها جمع الباشا عدداً من الزوارق الكبيرة ، وربط بعضها ببعض بالسلاسل ، وحصرها في صدر نهر العشار . ثم ازدادت ثقة المدافعين التي أرسخها هذا الصنع في نفوسهم عند وصول قوة مؤلفة من مائتي انكشاري ارسلوا من بغداد ، وعند اخبار النجدة لهم بخبر نجدة ثانية مرسله بعدها في الطريق . هذا عدا ما حدث من رجوع قسم من شيوخ المنتفك للانجاد كالشيخ ثامر ، وقد ابقى في البصرة ، والشيخ عبدالله وقد اضطلع بحماية الزبير . وفي السادس عشر من نيسان جعل الايرانيون معسكرهم على بعد ثلاثة أميال من شمال العشار ، واثبت دورياتهم حول المدينة . وهاجموا بعد ثلاثة أيام القسم الشمالي من البصرة في ليلة حالكة الظلام . وقد جربوا مدة ساعتين ان يتسلقوا الدور ولكن النجاح لم يكن حليفهم البتة . وابلى البصريون (ولا سيما المنتفكين أتباع ثامر) بلاءً حسناً في الذب عن المدينة ، خاصة وكانوا يسمعون هلاهل^٢ نسائهم وصرخاتهن داعيات لهم بالتشجيع . وضبط القبطان بكل قواه صدر النهر ، فخاب الهجوم ، وما طلع النهار حتى شوهدت رؤوس الايرانيين معلقة على أبواب السور . وقد كان رجال البلد على الاطلاق مشاركين في الدفاع ، وكانت المدفعية مؤلفة من الارمني والزنجي والانكشاري والعربي على حد سواء . حتى ان بعض الرهبان الكرملين كانوا في ضمن قوات سليمان آغا هذه . على ان روح الدفاع والعنصر الفعال فيه كان المسلم الذي لم يركن الى الراحة طول مدة الدفاع .

غير ان الهجوم الليلي كبد الحامية شتتين . فقد فرت القبائل المتفكية من الزبير ، وانسحب الوكيل البريطاني مع حاشيته مبدئياً بذلك أقل ما يمكن من الرفعة وسمو النفس^٣ . وكان عملهم ذاك مخجلاً وغير لائق ، لانهم زاغوا عن

(٢) الهلاهل جمع هلهلة وهي جمع مصدر هلهل الصوت أي رددته ترديداً ورجعه ترجيعاً .
(٣) لقد أخطأ اوليقييه بذكره ان جلاء البريطانيين كان قبل الحصار .
وقد بقي وكيل الشركة الافرنسية مع بعض الطليان الذين كانوا بحمايته ، في البصرة حتى النهاية .

خطة الحياذ التي كان يجب عليهم اتباعها بحق • فبمجرد ظهور الجيش الإيراني سارت سفينة بريطانية إلى الشمال فالتصفت بصديق خان • هذا مع العلم بأن الوكيل ورجاله كانوا بصحبة المسلم من قبل على الدوام ، يركبون معه فيطوفون حول السور ، ويتداولون وأياه ، ولا يألون جهداً في التحذير أو المشورة ، بالإضافة إلى ان موظفي الشركة حاولوا من دون جدوى منع الاسطول الكعبي من الانضمام إلى الإيرانيين ، وأبدوا المساعدة الجلى في انشاء الحاجز الذي وضع في صدر العشار ، ثم طاردوا الاسطول الإيراني الصاعد من بوشهر إلى شط العرب في اليوم الذي سبق ليلة الهجوم • وبعد ظهور الشركة بهذا المظهر واتخاذها هذا الموقف الجني أصبح اتصال الانكليز الذين كانوا في السفينة الانكليزية التي اتصلت سراً بالإيرانيين يعد نهاية مؤسفة • وقد تعرضوا في توجههم إلى شمال شط العرب إلى قصف مدفعي شديد من سفن الإيرانيين •

ولم يهين ارتداد اسطول الشركة للإيرانيين السيطرة التامة على النهر • فقد حاولت مجموعة السفن التي وضعت في الشط دون المواصلة بين شمال الشط وجنوبه ، وكان للقبطان عدد من السفن التي كانت قادرة على مشاغلة سفن الاسطول الكعبي بمقدار عددها هي • وكان لدى الانكليز في بوشهر قوة لا يستهان بها عندما كانوا يفاوضون كريم خان • وبعد أربعة أشهر حصل اتفاق بين المسلم وامام عمان • اذ كان كريم قد طلب قبل سنة معاونة الاتراك له على الامام المذكور ، فلم يمتنوه بما أراد • ولاجل ان يظهر امام عمان امتنانه من ذلك سارع في مساعدتهم ووعد بدفع الجراية لهم • فأمسكت سفنه الاجيرة عمان الشط وضبطته طول صيف ١٧٧٥ م (١١٨٩ هـ) ، فتسنى بذلك امداد البصرة بالتجهيزات •

(٤) بارسنز (ص ١٨٦) • ان تصرف الوكيل ، المستر مور ، في هذا الموقف كان ، بلا شك ، عرضة للانتقاد بوجه عام •

(٥) كان الارمني المجازف ، جوزيف امين ، يقود السفينة « سكسيس » (بارسنز ص ٤٥١) •

(٦) كان بين سفن الاسطول في بوشهر السفينة «سي هورس» التي كان فيها نلسون ضابط صف بحرياً • ويظهر من هذا انه كان زار البصرة مرة •

هذا ما يوضح بعض الايضاح المقاومة الطويلة التي كان بوسع المدينة ان تبديها . والحق ان حصار العدو لها لم يكن كاملاً قط . كما ان طريقة الدفاع الشائعة ، المتضمنة كسر السدود واحاطة الماء على البلد ، لم تستخدم الا في نيسان ١٧٧٥ م . وقد مكنت مؤازرة جماعات من المتنفذ وبني خالد ، في خارج المدينة ، القوافل من الوصول الى المدينة المحاصرة بالرغم من تحالف المهاجمين من الخزاعل واستفادتهم منها في مقابل ذلك . على ان الضيق داخل المدينة كان آخذاً بالاستعداد ، ولم يقف سليمان آغا بوجه الحصار طويلاً ويثبت امام العدو حتى نهاية شتاء ١٧٥٥ م الا بشق الانفس . وما بكر الربيع حتى كانت الطبقات الفقيرة على آخر دركات اليأس . فقد باعوا كل ما يملكون للحصول على قوتهم ، ولم يكن هناك أي عمل يشتغلون به ويتقاضون اجوره . فيأس الجميع من أمل المساعدة التي كانوا يتوقعونها من بغداد . وبقي صادق خان ، مرابطاً ينتظر الاستسلام بكل صبره^٧ ولما تلحق مدفعيته بالسور اقليلاً من الضرر .

وفي منتصف نيسان ١٧٧٦ م لم يبق في قوس الصبر منزع . فقد استهلكت الذخائر والمؤن ونفدت الحيوية في داخل المدينة المحصورة . وكان يبدو لهم ان المقاومة أصبحت من غير جدوى ، وانها كانت مؤدية لهلاك المئات من نفوس الجائعين . وقيل ان الآغا تسلم كتاباً من بغداد يشار عليه فيه بأن يستسلم لعدوه ، فتلاه على أعيان البلد المجتمعين ثم اضطر ان يرمي آخر قوس من كنانته . فأوفد الى مخيم الخان من يبحث معه في شروط الاستسلام . فدخل بنتيجة ذلك الايرانيون بكل انتظام الى البصرة يقودهم علي نقوي وعلي محمد خان في صباح اليوم الثاني . ولم يسمع حصول أي عنف ولا فوضوية عند الدخول ، الا أن بعض الحوادث الطفيفة^٨ قد وقعت حقيقة . وبعد اسبوع كامل دخل أخو الوصي الى البصرة دخولاً رسمياً . فوضعت في البلد حامية مؤلفة من ستة آلا جندي ، ثم ارسل بالمتسلم مع جماعة من أعيان البلد مأسورين باعتقال جميل الى شيراز .

(٧) ان اوليقييه (ص ٣٤٧) يلوم صادقاً عن تأجيل الهجوم الذي اعتمد به على مشورة المنجم . وكان يدير مدفعيته اناس أوربيون .
(٨) وهذا يعني عدم اعتباره كتاب « مطالع السعود » وكتاب « دوحة الوزراء » عن الفظائع المرتكبة على الطريقة المألوفة .

وكانت الدلائل الاولى تدل على اعتدال الحكم الجديد ، فعجلت الشركة بالرجوع الى معملها • غير ان الايام السود كانت ما تزال في طي الزمن ، لان الايرانيين لم يكتفوا بالفتح الذي تم على يدهم ولم يكونوا على استعداد لنبد أساليبهم الخاصة بهم • فقد جاء جمعهم لمبلغ عظيم من المال على سبيل الغرامة بالتأتاج المتوقعة ، اذ التزم الاغنياء بجمع المال مع انه لم يدفع ذلك المال في الحقيقة الا الفقراء • فعم الجور وسوء الاستعمال وتعاظما ، وكثر الناس الذين كانوا يعدون الوكيل حامياً لهم • وبذلك تنوسيت الاعمال المؤسفة التي قامت بها الشركة من قبل لجبر المغنم لها • اما صادق خان فقد احتفظ بالحاكمية وأظهر من التساهل والروحية الطيبة ما يليق بأخ للوصي مثله • غير ان الحكم كان بيد محمد خان الشرس الذي لا ينفع في الغالب خلال غيات صادق الطويلة عن الحكم •

وقد عانى سكان البصرة أوانثد تفشي الطاعون المروع والخدمة العسكرية الصارمة ، وأهوال المجاعة ، واحتلال الجند الاجنبي للبيوت • ولو لم يكونوا منحطي القوى وخائري العزائم لحدثت ثورة عامة تقضي على الحكم الايراني • وعلى هذا لم يبق في نفوس أهل البصرة الا بصيص أمل كان معلقاً بالقبائل المجاورة • لان الحاكم الايراني لم يكن يحوزته سوى المدينة نفسها وعدة من البساتين المجاورة • وكان المتفكيون في هذه الاثناء يقفون بالمرصاد لضعف أو وهن يستغلونه في الايرانيين • اما الخزاعل فقد كانوا يجلبون فرمانات الخان ولا يخضعون لها قليلاً • ولم يتأثر ابو محمد ولا بنو لام بحصار البصرة أو باحتلالها • وقد انسحب بنو خالد الى واحاتهم معنيين نحو الجنوب •

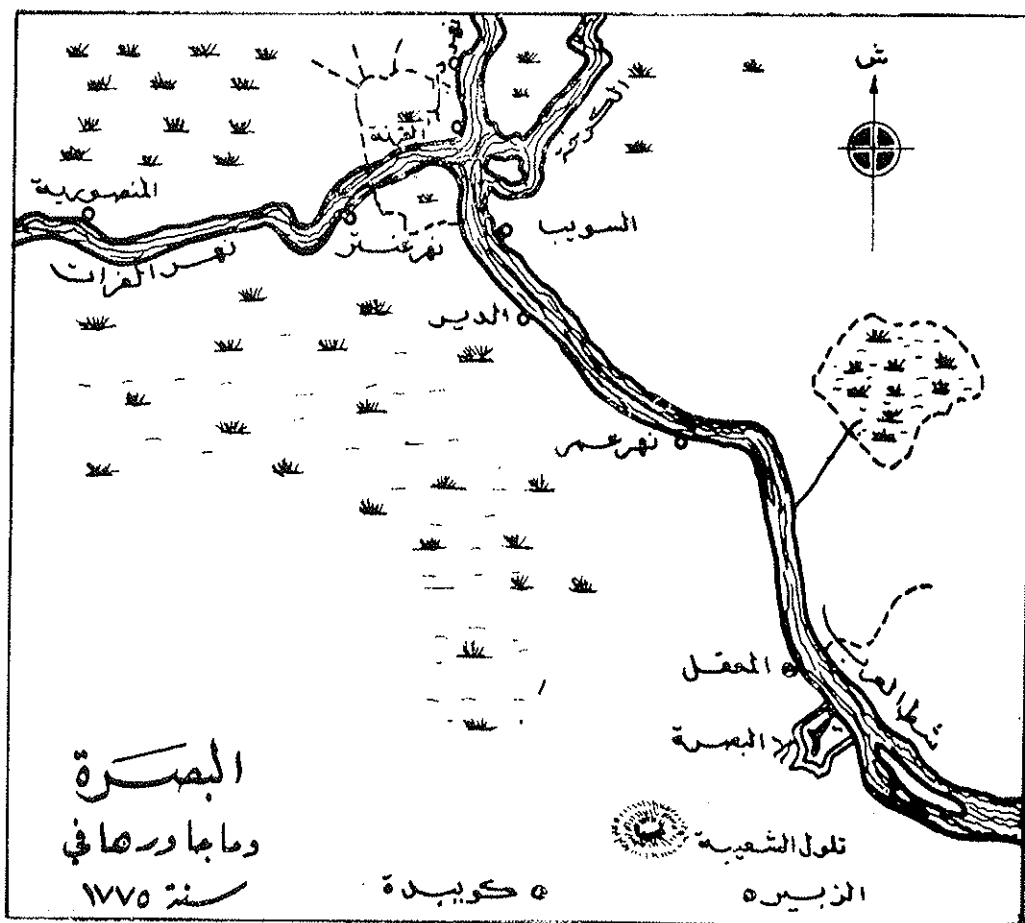
اما الزبير فقد حافظت على حرية متقلقلة لبضعة أشهر • وفي أوائل ١٧٧٨م (١١٩٢ هـ) سئم علي محمد من حوادث الاغتصاب السهلة ومن السرقات المتكاثرة التي كانت تجري فيها ، فشن على البلد أجمع غارة هوجاء خلوا من الرحمة^٩ • وحدث خلال المذبحة السهلة التي جرت في سكان البلد العزل عن الدفاع ان قتل جماعة من أتباع الشيخ المتفكي • وقد تعزى لهذا الحادث كراهية المتفكيين الشديدة لليرانيين (مع حزازات أخرى غير مثبتة) • وتشير بعض المصادر الى موقعة قوبل فيها السخاء القبلي بخيانة فظيعة • وقد أدى بغض

الشيخ ثامر للايرانيين ومقته لهم ، وليس ولاؤه للعثمانيين ، الى أقدامه على تدبير الخطط وحكها لتحرير البصرة ، فكان الاصطدام الاخير بينهم بلغ مبلغاً لا يستهان^{١٠} به . فقد توغل الايرانيون عدة أميال في بلاد المنتفك . وكانت قوة علي محمد متألفة من ستة آلاف فارس ، ومن مقدار ذلك من المشاة مع ثمانية عشر زورقا نهريا تحمل المدافع . وقد ترك محمد حسين خان محافظا في البصرة مع الفتي بندقية واعتصم الشيخ في الفضيلة وهي من العرجة على عدة اميال . واستطاع المتفكيون تدبير حيلة تراجعوا فيها عن العدو فكانوا يعقبونهم بصورة متتالية حتى دخلوا في الفخ وهم لا يعلمون . فأصبح الايرانيون في فسحة من الارض المنبسطة قد اكتنف جانبها عاقول^{١١} لنهر الفرات واحاط بها من الجانب الثالث هور منيع غير مخترق . اما الجهة الرابعة التي دخل منها الايرانيون معقبين عدوهم المنهزم فقد كمن فيها قسم من قوات ثامر ، وما انتهوا من تعقيبهم الا وقد وجدوا أنفسهم في أرض مرزغة تجافى عنها العرب . وبعد ان انتشلوا أنفسهم من هذه التهلكة ، وكابدوا المصاعب والخسائر فيها ، توجهوا الى طريق الخلاص فوجدوه مسدوداً دونهم . فهلك المئات منهم عندما حاولوا الفرار سباحة ، وقتلت مئات أخرى كان بينها علي محمد نفسه . واستمرت المذبحة فيهم حتى أفنوا عن آخرهم ، ولم ينج من الجيش بأجمعه سوى ثلاثة أنفار فروا راجعين الى البصرة . وقد استغرق تنظيف ميدان المعركة بعد ذلك عدة اسابيع . وظلت عظام القتلى ، وكانوا كثيراً ، تشير الى هذه الموقعة الرهيبة مدة جيل واحد .

وعندئذ عززت حامية البصرة عاجلاً من شيراز ، ولكنها لم تعزز الى النحد الذي كانت عليه من قبل . وفتح صادق خان باب المفاوضات مع المتفكيين من جديد ، ودعاهم الى الاذعان بشرف للنير الايراني . فرفضت معروضاته وكان في ضمنها جمل دينية منطبعة بالطابع الشيعي . وكان ثامر في هذه الاثناء يخبر بالتمام عن

(١٠) ان هذه الحادثة مستقاة من مطالع السعود ، لكنها مذكورة في دوحة الوزراء بصورة مختصرة ، وقد نقلها جودت باشا عنها . راجع ايضاً ماكتبه كيپر . ولقد تجاهلنا في سردها تجاهلاً جزئياً الكثير من الاخبار المتناقضة ، ووفقنا بين غيرها .

(١١) العاقول منعطف الوادي والنهر .



شؤون البصرة التي قل سكانها حتى أصبحت وكأنها قرية كبيرة لا غير • وقد خمدت فيها الحياة التجارية ، فأدى ذلك لسد معمل الشركة الانكليزية • وكانت اشاعات النجدة من بغداد والصلح المعقود مع ايران من منافع الامل الوحيدة • وفي أيلول ١٧٧٦ م (١١٩٠ هـ) وصلت أخبار مفيدة بأن مبالغ جسيمة وصلت بغداد لتدير حرب مع ايران • وفي الربيع التالي كان الجميع يتوقعون وصول جيش منقذ من الشمال في كل يوم ، وبعد سنة قيل ان وقدأ وصل الى شيراز • وعلى هذا الحال تطاول احتلال الايرانيين للبصرة فبلغت مدته أربع سنوات كان الاحتلال خلالها باهظ الكلف وشيئاً غير مشرف للوصي ، ومهيناً للتراث ان لم يك مهدياً لهم ، ومشؤوماً على سكان البصرة •

وفي أوائل ١٧٧٩ م (١١٩٣ هـ) عاد صادق خان من زيارة أخيه في شيراز ، فشرع في بناء حصن منيع على الضفة اليسرى من الشط مقابل العشار • ولم يك هذا الا ظلاً لحادث متظر • فقد شيد هذا الحصن لاختفاء اسعابه ان قضى أخوه نجبه ، لأنه كان ينزاع الموت في شيراز ، ووجبت عودته هو نفسه بجميع قواته الى ايران • وفي منتصف آذار وافته الانباء التي كان يتوقعها ، فبان شبح النزاع على العرش متمثلاً امامه وبذلك لم يقو صادق خان على التأخر في البصرة • فدعى أعيان البلد واستأمنهم على حكومة المدينة الوقتية ، ثم وعدهم بتسريح سليمان آغا وكان قد أخذ أسيراً الى شيراز - كما مر ذكره - فقبل البصريون المرعوبون الحال الجديد من دون اضطراب في وقت كان الايرانيون فيه يجلبون عن البر والنهر من دون أن يلقوا نظرة الى وراء ، وغير ملوين على شئ •

تبوء الباشا الكبير : الرجل والزمن ١٢

كان سليمان آغا قد قضى أربع سنوات في ايران • وكان خلال تلك المدة

(١٢) ان المدة الواقعة بين ١٧٨٠م (١١٩٤هـ) و ١٨٠٢ (١٢١٧هـ) والفترة التي حلت بعدها وانتهت بسنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) موفاة الحق في البحث • وأهم مواردها « دوحة الوزراء » ثم « مطالع السعود » ثم كتابات ثابت أفندي • ويتعرض كتاب « مرآة الزوراء » لهذه المدة عرضاً ، ويشتمل « غاية المرام » على ناحية خاصة من تاريخ هذا الزمن • ويلخص جودة باشا ما هو مذكور في

قد سمح له بأن يكون على اتصال مستمر مع البصرة بواسطة اصدقائه ، والخوجة يعقوب الصراف اليهودي الذى لم يكن يستغني عنه ، وأحمد آغا خادمه الخاص المترفع . وقد جعلت له بناهته وحكمته أصدقاء كثيرين في شيراز ، فتألف على الاخص مع زكي خان ، أخي كريم خان لأحد والديه ، الذي يرجع اليه الفضل في عودة سليمان (لا الى صادق) الى حكومة البصرة . اما صادق خان ، أحد المدعين الصرحاء بعرش ايران ، فقد تخلى عنه أتباعه وفر ينشد النجاة .

وتوجه الآغا مع زملائه الاسرى راجعاً الى الحويزة حيث وقف متأملاً بما يخبىء له القدر . اذ كان عدوه الشيخ ثامر مستولياً على المدينة ، وكانت بغداد قد بعثت قبل ذلك نعمان آغا متسلماً بالرغم من طلبات البصرة الملحة بتعيين أغاهم المحارب القديم الذى بعثوا يستعجلونه بالعودة كذلك . فطلب من نعمان تسليم الحكومة له ، غير انه لم يكن بوسعه ان يتقدم لتسليمها ما دامت قوات المنتفك مهيمنة على البصرة ، فرفض التسليم ذلك . وانحلت العقدة بموت ثامر في حرب بين القبيلة ، وبوقوع الشيخة من بعده الى ثويني العبد الله صديق سليمان (اوانثد) ، فطلب الى الآغا ان يدخل المدينة . ووصل في الوقت عينه الفرمان بتعيينه للولاية جميعها برتبة ميرميران . وفي الاسابيع القلائل التي بقي فيها عادت الحياة الى الطرق والاسواق في البلد وقد خيم فيها الفقر . على ان فكره كان متجهاً الى ناحية أخرى . فقد أصبح يشعر بأنه الرجل الاول في العراق ، ولم يضع أية فرصة كانت في افهام السلطان بذلك . وكان ساعده القوي في مشروعه هذا الوكيل البريطاني المستر لاتوش^{١٣} المحبوب . فعاضد الوكيل مرشحه لانه كان صديقه ودائه في الوقت نفسه ، زيادة على انه كان وسيطه الخاص في تحويل المبالغ العظيمة الى استانبول . ولذلك لم يكن بوسع البادشاه ان يصم أذنيه

دوحة الوزراء ، واهم الرحالين الذين كتبوا عن هذه الفترة سيستيني (١٧٨١) وفرانكلين (١٧٨٧) وهاول (١٧٨٨) واوليقييه (١٧٩٦) وجاكسن (١٧٩٧) وميرزا أبو طالب (١٧٠٢) . وما كتبه ريج عن البابانيين لا يثمن .

(١٣) ان الدور الذي قامت به الديبلوماسية البريطانية في تحصيل هذا المنصب لسليمان باشا كان شيئاً معروفاً بالتصام في ذلك الزمن . بريجز « الوهابية » (ص ١٨٧) سيستيني (١٦١) ، اروين (٣٣٩) .

عن هذه التوسلات ، وقد تذكر تتابع الخية التي منيت بها حكومة بغداد ، فأذعن للضرورة الماسة بتعيين مملوك آخر . وانعمت الوزارة مع حكم الولايات الثلاث على المرشح السخي الذي تمكن استرجاعها وحده .

وبعد ان عهد سليمان آغا بمتسلمية البصرة الى القبطان ، غادرها في ربيع ١٨٩٠م بقوة جسيمة من المتفكيين يقودها ثويني ، وقطعة من جيش الزبير . وكان اسماعيل آغا قد توجه جنوبا الى عرجة ليرحب به . فقاطع سليمان مجاملاته في الحال بقطع رأسه . ثم قتل ثلاثة من « أمناء الصندوق » كانوا في حاشية اسماعيل آغا ، وعومل الموظفون الصغار بالحسنى . وتوجه بعد ذلك الى كربلا فزار فيها الضريح المقدس وصرف ثويني الى موطنه . وقد استقبله سليمان الشاوي في الرحلة استقبالا رسميا ، واقامت في جسر المسعودي^{١٤} مأدبة رسمية ، حضرها جميع الاعيان والوجهاء ورجال الدين ، ابتهاجا بقدم الباشا الحديث . وبعد ان خيم خارج بغداد مدة يومين سار توأ لقتال عجم محمد وأتباعه من العصاة مخترقا بذلك بغداد . فعبّر دياالى وفاز بعد ذلك بظفر مبین ، فقد تشتت شمل المتمردين وقتل أحمد الخليل ، ثم فر الايراني المفقوت الى لرستان . ولم يتسلم الباشا المملوك عاصمته رسميا الا في تموز ١٧٨٠م حين هدأت مملكته .

ولا يعد سليمان باشا الكبير في عداد ابطال التاريخ ، فلم يكن فاتحاً ولا مقنناً ، ولم يقرن اسمه بأى حادث عالمي خطير ، ولا بحكم امبراطورية عظيمة . وكان يتحلى بصفات معجبة ، لكنها لم تكن من الصفات التي يندر وجودها في الرجال . ولم يتفوق على مستوى العصر والبلاد ثقافة وتهذيبا . ومع ذلك كله فإن لقبه لم يكن في غير محله . فلم يتسن لباشا غيره في بغداد ، مدة ثلاثة قرون ونصف ، ان لا يلقب الا بكلمة « الكبير » . والذي يقنع أكثر من المبالغات الشرقية في الاطراء والمديح في هذا الشأن ما كتبه أحد الانكليز^{١٥} وكان متصلا به في عدة مناسبات خلال سنين عديدة :

« وربما كان سليمان أحسن نموذج وجد لباشا تركي . فقد ولد

(١٤) جسر المسعودي هو جسر الخر الكائن اليوم بقرب منطقة الحارثية .

— المترجم —

(١٥) هارفورد جونز ص (١٩٠ - ١٩١)

مملوكاً ، فكان على جانب عظيم من جمال الرجال - وكان في قوامه ووجهه من المعاني المؤثرة والمنظر الخلاب للالباب ما يبعث في النفس الهيبة - ولا سيما عندما كان يلبس اللباس التركي المألوف . وكان بارعاً بجميع الحركات العسكرية والرياضية براعة المتخصصين . كما كان مخلصاً في عمله متحمساً في القيام بواجباته الدينية بالرغم من تساهله أكثر ما يمكن ان يتساهل به على من يدفعه ايمانه الى عدهم كفاراً . وكان متقناً في أموره مقتصداً في نفقته الخاصة بحيث كان يتهم بالبخل . اما ديوانه فقد كان زاهراً ، وكان بيته وما فيه كأنه بيت أعظم السلاطين . وقد نال في أوائل أيام سيرته تقديرات كثيرة ومساعدات جمّة من الانكليز ، فظل معترفاً بها آخر لحظة من حياته .

ويذكر الكاتب نفسه أمثلة طريفة على ظرفه وخفة روحه . وقد وصفه أحدهم^{١٦} بأنه « رجل ظريف ، ذو سيماء مبهجة مفرحة ، ويعد شجاعاً حقاً » . وكتب عنه كاتب نقاده^{١٧} وصل في سني حكمه الاخيرة ، فوصف حكومته التي تقايس بكل وضوح بحكومات من سبقه في الحكم قائلاً^{١٨} :

« انه كان يتعهد الطبقات الفقيرة من الشعب بالرعاية ويلاحظ الموظفين الكبار لئلا يرتكبوا بينهم ما لا يتفق والعدالة ، أو ما يعد من الاعمال الجائرة . ولم يصبر على القلاقل التي كانت تسببها القبائل في الملاحة على النهرين . وقد كان يشجع التجارة ويحميها بجميع الوسائل . . . اما شجاعته فيقدرها الجميع حق قدرها ، وكانت معرفته بشتى الفنون الحربية مما يزيد في قدره كثيراً . وقد حجب نفسه للناس بالسلم الذي وطده والامن الذي مهده ، حتى أصبحت لحكومته هبة كبيرة . وقد أظهر في جميع الاحوال والعهود شتى ضروب الجسارة والنشاط . فكنت تراه معنياً باستمرار بكل صغيرة وكبيرة من أمور الادارة ، سامعاً بنفسه شكايات البائسين فيعطيههم حقهم ويحكم لهم بالعدل . . . » .

وبدخوله الى بغداد يبدأ العصر الذهبي لحكومة المماليك في العراق . فقد كانت ظاهرة وقوع السلطة المطلقة بأيدي المماليك المعتقين المجلوبين من الخارج

(١٦) سبيستيني (ص ١٦٣)

(١٧) اوليقييه (ج ٤ ص ٣٥٠ - ٣٥٢)

(١٨) ترجم عن النص الافرنسي المدرج في الكتاب - المترجم .

تزداد وضوحاً ، وتتقرب من الحقيقة طوال مدة تزيد على ثلاثين سنة • ثم قدر لحكم العراق أن يقع لمدة خمسين سنة أخرى بيد الباشوات المتتبعين لهذا الدم الاجنبي وحدهم ، والسلطان في حال يضطره على السكوت على ذلك • وليس في التاريخ ما يشير الى ظهور أي خصم كان على طول العهد الطويل الذي حكم فيه سليمان باشا • اما المنازعات التي تلت وفاته فقد كانت في الغالب منازعات بين المماليك المتخاصمين • ولم تسنح الفرصة لزوال آخر الحكام المماليك من بعد الا بمصادفة انتعاش العالم اثر وقوع الثورة الفرنسية ، وسريان الروح الغربية في الاتراك الى حد ما ، ووجود سلطان مصلح ، وتدني الحالة في العراق بسبب ضربات القدر الخارقة له •

اما مصر المماليك ، فقد حكم فيها الجراكسة قبل زوال ملكهم نهائياً زهاء قرن واحد وليس للراية التركية عليهم الا ظلها وللحاكم التركي الذي يبعث كل سنة من استانبول الا اسمه • واما العراق فقد كان الحاكم المملوك فيه هو الباشا العثماني بنفسه ، الذي يعين ويصادقه على تعيينه الباشا كل سنة • وعلى هذا فقد كان يحكم باسم السلطان ، وان كانت قائدة السلطان من حكمه ضئيلة وكان بين موظفيه وقواته أتراك من استانبول • على ان الحكومة المركزية لم تنقطع عن محاولتها لتعيين الحكام من الخارج الا عند تبوء سليمان الكبير • فكان ظهور ابي ليله وتعالى شأنه شيئاً مقحماً عليها • وقد صمد للجهود التي كانت تبذل في تنحيته حتى تغلب عليها • ولم ينح عمر باشا لانه كان رئيساً للمماليك بتاتاً • لكن المشاكل الخاصة التي تطبع الحكم في العراق ، ووجود المماليك الاقوياء ، وانشغال الحكومة المركزية بنضال طويل غيف ختم بالخسران في أوربة ، كل أولئك أدى في الأخير الى استتباب حكم السلالة المحلية حتى تبدل كل شيء بظهور قوات جديدة في الخارج والداخل •

ومن الاهمية بمكان ان تعرف العلاقات الشاذة التي كانت حيثندين حكومات العراق المتعاقبة والامبراطورية • فقد كانت أعم ظاهرة في هذا الدور ، من أدوار الانحطاط العثماني ، العصيان التام • فيذكر التاريخ التركي ان نفوذ السلطات « كان لا يعترف به الا بعد لأي ، ولو اسماً ، في كثير من أحسن ولايات الامبراطورية التي يدعي السلطان نفسه بتابعيتها له » • ثم يستأنف التاريخ التركي

يُوصف بلاد العرب الوهاية ومصر الممالك بمثل مايلي :-

« وفي سورية ما كان الدروز ومتاولة لبنان والبلاد الجبلية من فلسطين
الاقبال مستقلة لا سلطة لاي حكومة عليها • وكذلك الحال في البلاد التي في
شمال اليسونان • اما سكان الجبل الاسود والهرسك ومولدافيا ووالاكيا
فانهم كانوا قد رجعوا لحوزة النفوذ التركي ، الا ان ذلك لم يكن الا شيئاً ظاهراً
لانهم في الحقيقة كانوا خاضعين للنفوذ الروسى • • هذا وكثيراً ما كان الباشوات
في مختلف أنحاء الامبراطورية يشقون عصا الطاعة ويتمردون على السلطان
فيحاربون جيوشه • ومن هؤلاء أحمد باشا الجزائر الذي اعتصم في عكا فأبى دفع
الاتاة للسلطان وقتل رسول السلطان اليه • وعلى هذا المنوال نهج باشوات
طرابزون واخالزيك • وقام في ودين بصوان أوغلو الشهير وناوأ السلطان وقواته
بضع سنوات كأنه خصم أجنبي مستقل • فهذا قليل من كثير من حوادث العصيان
واشهر العديدة التي عرفت في هذا العهد^{١٩} » •

ومن بين أوجه الانشقاق والثورة العديدة هذه عن الدولة ، كان انشقاق
العراق أكثرها استدعاءً للاتباء • فلم ينبذ الباشوات الممالك فيه ولاءهم للسلطان
في أي وقتٍ من الاوقات • إذ كانت التابعة الصادقة له تتجلى باكملها في الدعاء
أثناء الصلاة ، وعند سك النقود ، وتقديم التقارير الدائمة ، وارسال الهدايا في
بعض الاحيان ، ودفع الأتاوى في القليل النادر ، وفي مظاهر الحياة العامة
جميعها • كما كانوا يضاهون ، بأحسن وجه ، أي حاكم من الحكام الذين كانوا
يشتركون حكم الولاية من استانبول ، في توطيد الأمن الذي كانت تسير فيه
القوات الامبراطورية جنباً الى جنب مع جيوش الحرس الباشوية من الكرج •
وكان هم هؤلاء الممالك حماية البلاد من الايرانيين والوهايين ،
وتحاشى الحرب مع الجيران بقدر المستطاع ، ثم تجنب شن الحرب
على الجيران في داخل الامبراطورية^{٢٠} • ولم يكونوا ليقصروا عن الارسال بالمال

(١٩) كريسبي (ص ٤٤٧ - ٤٨) ، راجع أيضاً ما كتبه لين بول في

« اللورد ستراقتفورد دي ريدكليف » (١٨٩٠) الص ١٩٩ •

(٢٠) ان نيبور (ج ٢ ص ٢٥٨) يذكر مثلاً من باشوية أبي ليلة ،

لا توجد اشارة اليه في أي موضع آخر ، وهو « • • انه قصد دمشق مرة
وغزاها • • » •

لتفسير الحروب التي كانت تشنها الدولة في مختلف الاوقات والاماكن^{٢١} . غير انهم مهما كانوا يظهرون من الحب والحماسة لدولتهم ، وللامبراطورية التي كانوا تبعاً لها ، فقد كان كل ذلك في سبيل توطيد مراكزهم واجتذاب القلوب الى أنفسهم لانهم كانوا دخلاء . فأن أكثرهم كانوا قد ولدوا نصارى ، ولم يكن أي أحد منهم تركيا . وكانت سلطتهم تستند الى أخوة عنصرية تجمع أهل البلد الواحد في بلاد غريبة كانوا يقعون فيها عبيداً لو لم يتسن لهم حكمها . وفي نصف القرن التالي كانت سلطة الباشا المملوك المستندة الى المؤسسة الملكية العسكرية الوحيدة في البلاد ، تضاهي سلطة الملك المستقل . وبذلك أصبحت سلالة نصف وراثية ، غير تركية ولم تساعد في ايصالها لهذا الحد الحكومة التركية ، متأصلة الجذور الى حد بقي السلطان معه مدة خمسين سنة لا يعد العراق الا جارا متحرماً . وهكذا كان يظهر الحال للمقيمين في استانبول^{٢٢} . على ان الفرمان شبه المقدس كان يتنافس عليه المماليك المتخاصمون بصورة جدية بقدر ما كان يديه السلطان من عدم الاهتمام في الانعام به على هؤلاء الاجانب الفقير المولد المغتصبين الذين لم يرههم قط . وكان هذا العجز الفعلي ، الذي كان يبدو من السلطان في الهيمنة على ممتلكاته ، يزداد امتعاضه منه كلما كانت روحية الاصلاح في أوربة تتسع ويتعاطم شأنها ، وكلما كانت تمر الحقبة بعد الاخرى من دون أن تستعاد بغداد خلالها الى الحظيرة . ومع هذا لم يكن انحراف العراق عن الامبراطورية انحرافاً تاماً ولم يشعر أحد بدوامه ، كما لم ينفك مطلقاً عن كونه ملطفاً بكل اعتبار خارجي . لان كثيراً من الولايات الاقرب منه كانت قد ذهبت لابعد مما ذهب اليه هو من الانشقاق المخطر والخيانة السيئة .

القبائل والانباغ ١٧٨٠ - ١٨٠٢ م

كان سليمان باشا قد نيف على الستين من عمره عندما تقلد زمام الحاكمية في بغداد . وكان امامه حينذاك عهد من الحكم يناهز الاثنين والعشرين عاماً . ولم يبد فيه الوهن الذي يقعد عن العمل الا عندما قارب عهده الانتهاء . ومع هذا

(٢١) وأبرز مثل على ذلك ، كما يقول بريجز (ص ١٩١) ما كان يبعثه بيوك سليمان نفسه ، فقد حول ما لا يقل عن نصف مليون پاون استرليني الى يوسف باشا الصدر الاعظم خلال حملته في مصر ضد الفرنسيين .

(٢٢) ايتون (ص ٢٧٠) .

فان من يحكم فى بلاد تمتد من منطقة الاكراد المليون فيما وراء ماردين شمالا الى نهر كارون فى الجنوب ، تلك البلاد التى أضعفها الطاعون الفتاك أخيراً والحروب الداخلية ودخول الجيوش الاجنبية ، المشحونة على الدوام بأنواع الانقسام والاضطراب ، لا بد له من أن ينهي مدة حكمه فيها وقد أعياه التعب ونهكته الحوادث الجسم بالرغم من مدى قوته وبأسه • وقد قدر للحاكم الشيخ ان يشهد اغتصاب الحكم وفعل الدسائس المخطرة فى البصرة ، وان يكون له حليف بمقام العدو فى شهرزور ، وان يجد الاتحاد العشائرى العظيم فى الفرات الاوسط قد تعاضمت قوته التى لم تكن بجانبه ، وان يرى اشتداد الخصومات فى الموصل وحاجة ذلك الى الردع ، والهياجات فى ماردين وضرورة تهدئتها • وقد كانت الحوادث فى سنجار أو بني كعب ، وفي العمادية أو العبات المقدسة ، كلها تشغل الحاكم الشيخ ومشاوريه وتتعبهم حتى فى وقت كانت فيه حالة الاعداء الحديثين فى بلاد العرب تنذر بالخطر • كما قدر له أن يرى رجال حاشيته يصيرون ثواراً وان يشهد سفك الدماء بأمر رأسه • وعلى هذا كانت الجهود المتواصلة شيئاً ضرورياً للاحتفاظ بأقل احترام للباشا أو للخليفة • على ان الامن كان مستتباً فى كثير من أصقاع العراق • كما كانت التجارة برواج اعتيادي ، وكانت الحياة فى داخل المدينة مؤسسة هادئة لا غبار عليها • وكانت فى حامية بغداد قوة كبيرة مخصصة • ولذلك كانت الواردات المستوفاة من غير عنف ، كافية لاحتياجات البلاد وللارسال بالمبالغ الكثيرة الى استانبول لتعزيز جيوش السلطان فى مصر • والحقيقة ان هذا الدور الذى نحن بصددده قامت به باشوية عظيمة بطول أمدها وبشروتها واعتدالها فى الحكم ، غير انها ، لو نظر اليها عن كتب ، لوجد انها كانت تعيبها الامراض المتوطنة ، المعروفة فى هذا العصر وهذه البلاد •

وقد رحب الممالك وسائر السكان على سواء بالعهد الجديد الذى كان يدعو الى التفاؤل • الا ان التباعد بقى موجوداً بين الطبقتين • فلم يكن مرضياً عند وجهاء بغداد القدماء ان يشاهدوا ان الاغوات الكرج يستأثرون بالمناصب الكبيرة والمزارع المغلة • وما كان يدعوهم للسكوت والقناعة والرضا بالحال الا تفضيلهم وجود حاكم حازم على حاكم متحيف جائر يبعث من استانبول • ولذلك تلاشت الفوضوية من الشوارع بفضل الحزم والشدة ، فعاد التجار من ايران أو خرجوا

من مخابئهم • ثم انتعشت بغداد وسرت فيها روح جديدة • على ان الريف المحيط بالمدينة لم تتسرب فيه الحياة بسرعة • وكان للفوز الذي أحرزه الباشا في منتصف صيف ١٧٨٠ في استحواده على الموقف وقع كبير تلاشت امامه كل مقاومة قوية • بيد ان الجرائم لم تستأصل مرة واحدة ، بل قضى عليها بالتدريج • وكانت مشكلة الباشا الآلية عدم وجود ما يكفي من القوة المخلصة • فان الانكشاريين المتفككي السيرة الذين لا يعرف ولاؤهم كان خطرهم أكثر من نفعهم ، كما كانت سريرات الممالك قليلة ومبعثرة • ومع ذلك كان لابد له من أن يجعل جل اعتماده عليهم • فبادر بكل سرعة لجمع أول رعييل منهم ، فجمع - من الداخل ومن الخارج - الف مملوك وأخذ يدرهم تدريجاً متعباً • ثم عين للانكشاريين ضباطاً اختارهم بنفسه • وخاطر من بعد ذلك بتوزيعهم على مراكز الفرات الاوسط والخالص بدلاً من أبقائهم متجمعين في بغداد في وقت بقي فيه مركزه مهدداً لعدم اتمام تدريب الممالك بعد • وأعدم عدداً من رؤساء الانكشاريين بقسوة علنية لارتكابهم جرائم صغيرة ، كما كافأ المخلصين المفيدين بكل بذله وسخائه • وأقصى قسماً منهم الى خارج العراق فالتحقوا بوحدات دمشق والحجاز •

وقد حضر أكبر رؤساء القبائل في العراق الاوسط لتقديم الطاعة بنفسهم في خريف ١٧٨٠ م فاعتيق قسم منهم بتعيينهم في وظائف شرفية ، وكان الوسيط بينهم وبين الباشا الحاج سليمان - شيخ العبيد رئيس الاسرة الشاوية - المعروف بكونه مشاوراً وديبلوماسياً • ولم يدون من تاريخ قبائل الفرات الاعلى وديالى ودجلة الوسطى مما يختص بهذه السنين الا النزر اليسير • فقد ظلت هذه القبائل هادئة من غير ان تحتاج الحكومة لتجريد الحملات عليها مدة طويلة من الزمن ، مما اضطر تجار البصرة ان يستريحوا (كما يذكر الوكيل) الى اتخاذ طريق دجلة على ما كان يطوقهم من التأخر والكلف ، لانه كان أكثر أماناً • ولم تضطر الحكومة لتأديب قبيلة زبيد الا في ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) ، وذلك حين دعت الحاجة لارسال قسم من الجيش بقيادة الكهية لتأديبهم جزاء قطعهم الطريق البرية والنهرية وتأخيرهم في دفع الضرائب • ثم سار الجيش لتأديب قبيلة ربيعة في السنة نفسها • وفي سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) عزل شيخ بني لام فكان لعزله تأثير سيء من دجلة الى لرستان ، أدى لاشتعال نار الفتنة • وقد كتب الوكيل البريطاني عن هذا الحادث

ان « الشيخ المعزول هاجم الشيخ الحديث الذي عينه الباشا وزجت البلاد في أحضان اضطراب شامل من الكوت الى جصان فما حول الحويزة وفي عدة مناسبات عاملت الحكومة عرب شمر بكل قسوة . . . » • ويدل ذكر شمر على أن حادثاً قُبلياً ذا بال كان يجري اوانئذ ، وهو هجرة شمر من غرب الفرات الى شرقيه بتأثير ضغط عنزة عليها • فقد انتشرت نواقل هؤلاء في انحاء السهل الواسع الواقع الى شمالي المنطقة التي بين الدجيل والديلم فسنجار وما وراءها ، وعبر فرع منهم وهم شمر طوقه نهر دجلة فأحتل ضفته اليسرى من ديارى الى ما يقرب من الكوت • وكان لهذه الحركة تأثير عظيم سرى فعله الى ديرات مئات من القبائل التي استبدل قسم منها بمكانه مكان غيره • ومن جملة ما حدث بتأثير ذلك انتقال العيد وعبورهم دجلة من الجزيرة الى الحويجة متخطين بذلك جبل حميرين •

أما الفرات الاوسط فقد كانت تبعث اليه أرتال الجيش واحد بعد آخر ، في كل سنة تقريباً ، لتأديب الخزاعل • وكانت عدة شهور تقضى في التأديب تدل على ان محاولة توطيد دعائم الامن في هذه المنطقة كانت بلا فائدة • لان شسيخ الخزاعل حمد الحمود أبى الخضوع اباءاً باتاً وامتنع من الانقياد لكل نظام أو تحديد • ولم يعبأ بما كان يراه من الاستعدادات الحربية ولا بوصول الانذار النهائي اليه الملزم بالخضوع • فاضطر سليمان الى أن يقود جيشه بنفسه ، والتقى بالخزاعل فانتصر عليهم انتصاراً باهراً • فالتجأ الشيخ حمد الى كسر السدود والسكرور وغمر الاراضي بالمياه ، فكان تأثير ذلك في العدو غير قليل • الا ان الباشا قابل هذا العمل ببراعة • فقد سارع في سد الكسرات الشمالية وقطع بذلك تدفق الماء الفائض ، فنزل مستواه ومن ثم أمكن تقدم الجيش • وعندئذ هرب حمد الى غربي الفرات • فأمكن جمع الضرائب المتبقية من تلك القبائل واستيفاء الغرامة المفروضة عليهم جزاءاً للعصيان الاخير • ثم أعلن العفو ورجع السلم الى نصابه في تلك الديرة • وتكرر مثل هذا الحادث العصياني التأديبي في منطقة شبيهة بتلك هي منطقة الشامية ، وكان ذلك في ١٧٨٢م (١١٩٧هـ) و ١٧٨٤ • فترك بسبب فقدان الامن طريق الفرات النهري هذا • وكذلك تورط الخزاعل في اضطرابات المتفك الحادثة في عام ١٧٨٧م (١٢٠٢هـ) • وبعد خمس سنوات بدأت من جديد سلسلة الحركات التأديبية المتعبة ، واستمرت الى ما بعد ابتداء القرن الجديد •

وكان هؤلاء أسوأ المكدرين لصفو العراق الاوسط ، لكنهم لم يكونوا
الوحيدين من نوعهم . فان العداوات التي امتدت حرركاتها مدة طويلة مع العبيد ،
وكانت بسببها حتى ضواحي بغداد مهددة غير آمنة مدة سنوات خمس ، كانت تدل
على كون سلطة الباشا محدودة . وكان منشأ هذه العداوات في هذه المرة تصادم
الشخصيات لا الاسباب الاعتيادية التي كانت تسبب اضطراب القبائل . فقد ذكرنا
سابقاً أحمد آغا خادم سليمان الخاص . وقد تطورت سيرة هذا الخادم فارتقى من
موضع القيام بأحقر الواجبات الى أن أصبح معتمد سيده وخله الوفي ، وغدت
وظيفته وظيفة المهردار (حامل الاحتام) المهمة . ولذلك أصبح بطل الممالك
(الذي وقف يذود عنهم في السنين المقبلة) والشخصية البارزة التي كتب لها
أن تكون الشخصية الثانية بعد الباشا خلال مدة تناهز اثنتي عشرة سنة . وقد نال
في ١٧٨٥ م (١٢٠٠ هـ) شرف تعيينه برتبة ميرمران في منصب الكهية ، وهو
ذو الوجه الجذاب للقلوب والقامة المشوقة ، المهيب ، الاديب ، المترف ، المؤثر
في جميع الناس بحنوه واعتداله . فكان لتعيين هذا الحقيير المترقي وقع سيء في
نفوس المرشحين من الاشراف وذوي الايام المشهودة ، وخاصة الحاج سليمان
الشاوي . وقد كان بين هذا العبد المعتق والعربي الارستقراطي من الحقد المر
ما نشأ من قبل وتأصل . فكان كل منهما يسمع الباشا ما يريد ، الا ان الحاج كان
أكثر متعة وقوة وكان أحمد أكثر تحبباً . فملاً أحمد عند ترفيعه اذني سيده
بقصص عن خيانة الشاوي ومخابراته ومخاطراته في هذا الباب وعن أطماعه
الخطيرة . ولما اقتنع سليمان باشا بكل هذا أمر بمصادرته على كل املاكه ، وأمره
بمغادرة بغداد . ففر الى قبيلته وأعلنت لأجله الثورة في الحال ، فأرسل أحمد في أوائل
١٧٨٦ م قوة لقمع الثوار . فتراجعوا أمامه من منازل العبيد الى تكريت ، ومن
تكريت الى الخابور . وما رجع الكهية حتى عاد الحاج سليمان . ثم زاد في الطين
بله حدوث بعض العواض الطبيعية المؤلمة . فقد كانت زيادة ماء الانهر في ربيع
١٧٨٦ م (١٢٠١ هـ) قليلة جداً ، كما لم تهطل الامطار فخاب الزرع والحصاد
في كل مكان . فارتفعت الاسعار وبلغت حد أحداث المجاعة ، فبادر الباشا بتوزيع
حبوبه المدخرة . ثم التجأ الكثير من الناس الى الارياف ، ومات ناس أكثر منهم
جوعاً ومرضاً ، فخيم البؤس وأصبح خطراً على الحكومة . وتجمهر الناس في

بغداد وأخذوا يشتمون الباشا لكونه سبب المجاعة • وانتشر العنف في جو انيأس ،
والخرافة الهيا ، حتى اضطر الباشا في الاخير التوقيف رؤساء الجموع وتفريق
المتجهرين بقوة الجيش • فأعيد النظام الى نصابه على هذه الشاكلة حتى أزالته
الطبيعة سبب الكارثة •

وظل الشاوي يعيث فيما بين الخابور وضواحي بغداد فساداً • وقد انضم
الى جيشه القبيلي كل متشرد أو هارب كانت تلفظه القرى والمدن • فأصبحت
الطرق والبساتين حول بغداد غير آمنة • وأرسل الكهية من جديد للقضاء على
خصمه غير انه باء بالخسران المبين • ثم ضغط العبيد ومن يتبعهم بالتضييق على بغداد
بعد أن سكروا بخمرة الظفر ، حتى استدعت الحال تنظيم أمو التحصن • وكان
التجار والموظفون في الموصل والبصرة يترقبون أخبار الثورة بكل اهتمام • وفي
هذا الظرف الزماني العصب اذهل الجميع خبر شاع عن تعيين الحاج النائر في
منصب البكربكي للولايات الثلاث • فصدق الاشاعة الحاج سليمان نفسه ، وطلب
تدخل وكيل الشركة في الامر • إلا ان الحكاية كانت غير حقيقية ، وبقيت
الفوضوية مستفحلة والامن مفقوداً لحد لم تتمكن الحكومة من المحافظة على
الكاظمية والكرخ معه الا بواسطة عقيل وآل بشق الانفس • وأخيراً انفرط عقد
الاتباع عن الشاوي الذي بات يخشى التصادم مع جيوش الباشا ، ففر هارباً الى الشيخ
نويني في سوق الشيوخ •

وكان شيخ المنتفك العظيم هذا قد تمكن من ابقاء عشيرته موالية هادئة مدة
أعوام ستة ، كما انه ساعد متسلم البصرة مساعدة جملة في الحركات التي دبرتها
الحكومة على بني كعب في ١٧٨٤ م • على انه كان قد اختبر في تلك الحملة مقدار
ضعف الانراك ومقدار اخلاص اتباعه له • فحان للشاقول أن ينحرف ، وبانت
البصرة في الازهان ملوثة بخيراتها للقبائل العظمى الى المال وقد عيل صبرها •
وأخذ الشاوي النائر يشارك في مجالس القبائل المتداولة لهذه الشؤون • فكان
أول المنضمين للمنتفكين حمد شيخ الخزاعل • وعلى هذا تقدمت قواته الى الزبير
وفيها قبض على ابراهيم بك ، وقد كان متسلماً فيها منذ ١٧٨٥ ، مع حاشيته دون
انذار ولا مراسيم وبقي معتقلاً اعتقالاً ضيق عليه فيه • وارسل نويني في اليوم
التالي قسماً من خيالة المنتفك ، فدخلت البصرة واستولت على السراي ثم فرقت

الحامية وشتت شملها • ومع ذلك كله بقي البلد سالماً من الاضطراب الى أن دخل
ثويني مع خمسة آلاف من رجاله في اليوم الثالث • فعادت حكومة البصرة عربية
قبيلية • ثم اعتقل رؤساء الدوائر الحكومية وضباط الاسطول وصودرت أملاكهم
وأموالهم ، كما فرضت على سكان البصرة غرامة قدرها ستة آلاف تومان •

وبينا كان الشيخ معداً سيفه للكفاح كان قلمه مشغولاً أيضاً • فقد سهل
عليه أن يحصل من سكان البصرة وهم مذعورون عريضة ممضاة بالامضاءات
الكثيرة ، يطلبون فيها اعتراف السلطان بحاكمية ثويني عليهم فأرسل بها الى استانبول
بعد أن قدمها تقديماً قوياً ومتواضعاً فيه معاً • وفي الوقت عينه غادر بقواته المدينة وخيم
على الفرات منتظراً الجيش المنتقم الذي كان يتوقع قدومه من بغداد • وبقي أخوه
نائباً عنه في البصرة •

أما سليمان فقد بعث على حسب العادة الى أكراده في درنه وبجستان
ومنطقة البابانيين • ثم استعار جماعات الانكشاريين من الجليلي ، وكتب الى
شيخ بني كعب يناشده المعونة • وانحاز اليه حمود الثامر خصم ثويني •
فدخل الجيش ديرة الخزاغل ، ونزل في أواخر تشرين الاول ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ)
الى ام العباس في بلاد المنتفك وفيها وقعت موقعة حامية دامية انكسر فيها ثويني
وقواته ورجعوا هاربين من مراكزهم متفرقين ، فاسترجعت البصرة من غير
معارضة • وقد عين حمود الثامر شيخاً للمنتفك ومصطفى آغا متسلماً في البصرة •
وجمع الباشا من المدينة غرامة جسيمة ، ثم ضاعف الرسوم السكرية للمدة
الباقية من السنة • وبعد ان ترك في البصرة حامية من اللاوند غير النظاميين عاد
الى أواسط العراق^{٢٣} • وبعد مرور عدة أشهر بعث الحاج سليمان الشاوي

(٢٣) قال ياسين العمري في حوادث سنة ١٢٠٢ : « سار بالعساكر والي
بغداد الوزير سليمان باشا الى جهة البصرة وحاصر عرب المنتفك وفيهم الحاج سليمان
بك (الشاوي) وعملوا مصافاً فقتل من العرب نحو الف نفس وقتل من العسكر
نحو خمسمائة نفس وهرب الحاج سليمان والامير ثويني وتبعهم الامير خالد آغا
ونهب الخيام والاموال ، وجعل في البصرة والياً نعمان افندي الدفتردار وعاد
الى بغداد واستولى على أملاك الحاج سليمان بك ثم أرسل الحاج سليمان بك يعتذر
الى الوزير من تقصيره فعفا عنه وأعاد اليه أملاكه ثم قدم الامير ثويني وطلب الامان
فعفا عنه وأمنه وتركة في بغداد مكرماً ثم قدم الامير خالد آغا فعفا عنه وقبل عذره
واستخدمه وقربه » • (م . ج)

يطلب الصلح بالعفو على شرط عدم اقامته في بغداد .

على ان اضطرابات البصرة لم تكن لتنتهي اذ ذاك . فبعد ان هدأت الحال فيها مدة سنة واحدة اكتشفت فيها مؤامرة خطيرة دخل فيها أكبر الضباط في العراق الجنوبي وحكام شهرزور . فان المتسلم الكردي الحديث في البصرة ، المساق على وجه الاحتمال ببعض الشعور العنصري زيادة على الطمع ، خدع حاميته المؤلفة من جنود اللاوند وكتب الى عثمان باشا بابان التدبير ثورة تضرم ناراها في وقت واحد ويستهدف بها استقلالهما كليهما ، وكذلك اجتذب صباط البصرة الى جانبه بالرشوة والهدايا . ثم بعث على الثائر ثويني وكتب في الوقت نفسه الى بغداد بأن لا قبل لحمود الثامر بالمشيخة ومن الواجب اعادة الشيخ السابق الى مشيخته . غير ان سليمان باشا كان قد اطلع على كل شيء . فصادقه حقيقة على اعادة ثويني ، الا انه نقل في نفس الوقت قائد خيالة البصرة الى بغداد وبعث محمداً الشاوي الى البصرة يحمل تحذيراً عاماً للمتسلم ورجاء خاصاً الى القبطان باشا . وكان مفاد الرجاء ان يخلع المتسلم بضربة فجائية . على ان القبطان مصطفى الحجازي أساء تدبير الامر ، فكلفه ذلك عقوبة قطع رأسه . فتطايرت الانباء الى بغداد ، وبات الكل ينتظرون حملة تأديبية .

وبقي ديوان بغداد جاهلاً بمكيدة شهرزور حتى أماطت أوراق مصادرة اللثام عن طمع الباشا الباباني في ولاية بغداد نفسها . فما كان أسهل على الكردي ان يزحف نازلاً على بغداد العزلاء لو سار سليمان مع جيشه الى البصرة ! عندئذ سارع سليمان في توجيه كتاب فيه وعود مغرية الى العاصمة البابانية : فقد دعي عثمان باشا الى بغداد حيث زوجت ابنته ، مع المجاملات الكثيرة ، الى أخي الكهية . وبهذه الوسيلة عزل الباباني عن قواته وعن تأثير حليفه في البصرة . ثم تحركت في شباط ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) قوات بغداد ، فكانت الحملة غير دامية . فما وصل الجيش الى البصرة حتى انتهزت المعارضة . وفر مصطفى بسفينة الى الكويت^{٢٤} وقصد ثويني البادية^{٢٥} . فأعيد حمود الى مشيخة المنتفك ، وعين أغا

(٢٤) اما عاقبة مصطفى الفار الى الكويت فقد ذكرها ياسين العمري في حوادث سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ م) قال : « وفيها قدم الموصل مصطفى أغا متسلم البصرة سابقاً وكان قد عصى في البصرة فأرسل والي بغداد يأمر قبودان باشا

مملوك آخر - عيسى المارديني - لحكومة البصرة • ولم يذكر عنه ولا عمن جاء بعده شيء مهم • وبقيت الاحوال بحالة اعتيادية في البصرة لما تبقى من عهده الضويل • وأدى ضعف العلائق في ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) مع قبيلة كعب الى تشييد قلاع نهرية ، وازدياد القرصنة ، واصطدام غير حاسم بين الاسطول التركي والاسطول القبائلي • وبعد مرور سبع سنوات كادت مطالب السيد سلطان ، حاكم مسقط ، المهملة بتسوية بعض الادعاءات القديمة ، أن تؤدي الى هجوم القوات العمانية على البصرة • فطلب الى الوكيل البريطاني التوسط ، الا ان الفريقين توصلا من غير مساعدته الى حل ما فانفجرت الازمة • وحافظ حمود الثامر - بطل الاساطير القبلية لشذوذ شخصيته - على راسة المنتفك ست سنوات • اما عهد ثويني (المعاد في ١٧٩٦ م (١٢١٢ هـ)) الاخير فيعود البحث عنه لصفحات متأخرة •

مصطفى بقتل العاصي « مصطفى آغا » فبلغه ذلك ، فاستدعى مصطفى باشا وقتله صبرا وهرب الى مسكت « مسقط » ثم الى الروم واتصل بخدمة ابراهيم باشا والي اورفه ولما قدم والي بغداد الى نواحي اورفه لمحاربة تمر باشا هرب مصطفى آغا واتصل بوالي المعدن يوسف باشا فتشفع فيه عند مخدومه فعفا عنه فقدم الى الموصل فأرسل كتخداه والي بغداد خفية يأمر بقتله فقتلوه فبلغ ذلك الوزير سليمان باشا فشتم كتخداه على ما فعل « - « م • ج • »

(٢٥) التجأ ثويني الى الكويت ولم يكن بوسع سليمان باشا تعقيبهِ الى هناك ، ورحل بعد ذلك الى الدرعية عاصمة الوهابيين • وأعفى من بعد ذلك في ١٧٩٢ م (١٢١٧ هـ) « سنة المراحم » فعاش خمس سنوات في بغداد • (المؤلف)

ومن اخبار ثويني ما ورد في حوادث سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) من الدر المكنون ونصه « وفيها انعم والي بغداد الوزير سليمان باشا على امير المنتفك ثويني واطلقه وولاه اماره عشيرته واعطاه خمسين الف قرش ومائة ناقه ومائة فرس ومائة خلعة وكان مقيما ببغداد مكرما فما خرج من بغداد حتى انفق الجميع لكرمه وسخائه » •

وقال : « وفيها سار بالعرب الامير ثويني بأمر والي بغداد الى حرب الوهابي فانتصر وغنم من عرب الوهابي نحو مائة الف رأس غنم وارسل الى بغداد يستمد عسكراً فبعث له عرب العقيل وعساكر العراق مع أحد اتباعه احمد آغا ابن العراقي فसार بهم واجتمع بالامير ثويني » • « م • ج • »

وعلى مسيرة أسابيع كثيرة من شط العرب تقع البلاد الجبلية التي للبابانيين الذين كانوا قد انفقوا مع حاكم البصرة على الثورة • وفيما عدا هذه الحادثة لم يكن بين البصرة وشهرزور شيء من العلاقات الوثيقة • على ان علاقة شهرزور ببغداد كانت على أوثق ما يكون في هذا العهد • فقد كان الشبان من نبلاء الاكراد يعيشون في بغداد كالعادة ، وكانوا يجدون فيها ما يوسع شقة الخلافات بينهم ويزيد في اشتدادها • وكانت ثروتهم وكثرة اتباعهم مما يجعل الوالي ووزراء ينظرون اليهم على الدوام • فكان هؤلاء يشتركون بالدس مع رجال الحكومة في بغداد وكان يسعى كل واحد منهم بهذه الوساطة الى الحصول على حظوة له أو لاحد أقربائه في النجل • وعلى هذا كان الباباني في ديرته لا يشعر بالأطمئنان ما لم يكن له في بغداد أو في كرمشاه ولد ذو حظوة عظيمة • وكانت قوات شهرزور ذات أهمية كبيرة بالنسبة لحاكم العراق الذي كان لا يأتمن الانكشاريين ، ولما يتم تدريب مماليكه الحديثين بعد • ولا غرو في ذلك فقد كانوا أقوياء يعدون بالآلاف ، كما كانوا رهن اشارته في الطاعة يدعوهم متى شاء لقمع ثورة أو لمطاردة تائر • ولما كانوا يطعمون على أحسن وجه ويركبون بأحسن حال ، ويقودهم رئيس من بيت مالك ، فقد كان مستوى تجهيزهم وخبرتهم بأمور الحملات أعلى بكثير مما كان عليه الامر لدى القوات العراقية ، أما في المدينة ذاتها فقد كان لباس البكات الاكراد الحريري وزينته المزركشة وعدتهم الباذخة مما يزين قصر الباشا فيها ويسبغ عليه رونقاً جذاباً • على ان نزاعاتهم الداخلية وتدخل القوات الاجنبية في شؤونهم ، من جهة أخرى ، كان مما يجعل تابعيتهم مخطرة ومذبذبة •

وقد وصلنا من قبل بتاريخ امبراطوريتهم (البابانية) الى البحث عن حكم محمود باشا غير الثابت وكونه قد ورث أخاه محمداً في ١٧٧٨ م (١١٩٢ هـ) وجاء بالقوات لمساعدة حسن باشا خارج بغداد • وفي العهد الجديد هذا كانت حظوة ابن أخيه ابراهيم تفوق حظوته هو ، وقد عرف بطرده عن الحكم بسبب الدسائس التي كان يحوكمها فُعجلت بانتهاء حكمه • وكان حاكم كركوك يومذاك عثمان بك كهية حسن باشا الاسبق وصديق البابانيين القديم ، وكان سميهِ عثمان بك بابان (ابن محمود) قد اتصل به ليقوما معاً بعصيان وثورة ، فوافقه على ذلك وصادقه على الخطة محمود نفسه • فأعلنوا العصيان ومشى اليهما بيوك سليمان « الكبير »

فوصل كركوك وفيها انضم اليه جيش من الموصل • ثم انحاز الى جانبه الخصوم والطامحون ، فأختار حسن بك بن سليمان باشا من بينهم ليخلف عمه • فتولى حسن العرش أياماً قلائل حتى أعرب محمود عن خضوعه وقبل الشروط المفروضة عليه فأعيد الى مكانه • ومع ان كوي كانت قد انعم بها على محمود بك سوران فانها كانت على هذا العهد من توابع الامبراطورية البابائية التي لم تعرقل توسعها ، على حساب جارتها رواندوز ، الفتن الداخلية •

الا ان الشروط التي كان قد اتقاد اليها محمود سرعان ما رُميت عرض الحائط ، وهوجمت كوي • فجردت حملة ثانية من بغداد انتهت بتجديد الخضوع والتفاهم • وفي ١٧٨٣م (١١٩٨ هـ) عاد الكردي المذبذب وحث باتفاقه فاكاً عن عنقه نير الولا ، ثم نهب جيرانه • فمضى اليه سليمان باشا بنفسه من بغداد وجمع جيشه في طريقه ، والتحق به من كوي ابراهيم باشا • فتخلى عن محمود كثير من أتباعه ، ثم طرد من مراكز دفاعه فلقي حتفاً غير ممجد في ايران • غير ان ابنه عثمان حظي بالعمو في بغداد ، وتولى ابن أخيه ابراهيم حكومة البابين •

واحسن ما يذكر به ابراهيم باشا اتمامه انشاء بلدة السليمانية التي كان قد بدأ بها من قبل محمود باشا في ١٧٨١م (١١٩٦ هـ) ، وسميت بهذا الاسم تمجيذاً وتخليداً لاسم الباشا الكبير في بغداد • وقد عزز ادارة مملكته واضاف الى امبراطورية السليمانية اراض واسعة تابعة لمناطق زهاو وقصر شيرين وخانقين • وقبل ان يطول به الامل خسر تأييد الرأي العام له بتفضيله سكنى المدن ، وظهر له - كالعتاد - خصم حديث • وقد طلبت معونته في جنوبي العراق سنة ١٧٨٧م (١٢٠٢ هـ) فكان بطيئاً في تلبية الطلب ، فعزل وحل في مكانه عثمان فأبلى بلاء حسناً في موقعة ام العباس • الا ان هذا لم ينشب ان اصبح من المغضوب عليهم لمشاركته في ثورة البصرة في ١٧٨٨ م ، ولم يعيش طويلاً بل مات في السجن • على ان الارجوحة في السليمانية مضت على عاداتها • فقد عاد ابراهيم وحفظ مركزه الجديد سنة واحدة ، وتلاه لسنة أخرى عبدالرحمن باشا أخو عثمان • ثم فر عبدالرحمن الى ايران عندما علم بموت أخيه ، الا ان علاقته الوثيقة المتصلة بالكهية القوي قد ضمنت له الامان والترفع • ولو لم يشب عبدالرحمن صلابته وتفوقه على أطماع خصومه الثابتة لكانت خطورة حاله تزداد حرجاً ولكانت مهمته في الحكم اصبحت شاقة تماماً • فقد كان متحلياً بجميع

سجايًا الحاكم القوي الناجح • ومع ذلك كله فقد انقطع عن الحكم ثلاث مرات في
 المدة التي بين ١٧٨٩م (١٢٠٤ هـ) و ١٨١١م (١٢٢٦ هـ) بتدخل من أحد أقربائه •
 وزرئت مدة حكمه الثانية بنفسه الطاعون وروعت بحدوث الزلزال • وفي ١٧٩٢م
 (١٢٠٧ هـ) استخدم الباشا قواته في تعقيب الشاوي الثائر • وفي ١٧٩٤م غزت
 هذه القوات جبل سنجار ووصلت الى ما يقرب من أورقه • وفي ١٧٩٩م (١٢١٤ هـ)
 شارك ثلاثمائة من الخيالة البابانيين في غزو اليزيديين • وبعد هذا كله لقيت
 توسلات ابراهيم اذنًا صاغية في بغداد • فوجد عبدالرحمن نفسه مخلوعاً وفي
 مكانه ابن عمه ، وقد عوض عن ذلك بكوي وحرير^{٢٦} • وفي اوائل ١٨٠٢م
 (١٢١٧ هـ) استدعته حكومته الاخيرة ونفي مع أخيه سليم الى الحلة •

ولا نرى بنا حاجة لان نذكر الا الشئ القليل عن الولايات الكردية الجنوبية
 والوسطى غير هذه • فقد وقعت أخيراً كوي سنجق في حوزة البابانيين ، ولو ظل
 حكامها السورانيون يحكمون فيها أحياناً بفضل الباشا في بغداد • وكثيراً ما كان
 الحكم في هذه الولايات يعتبر خطوة تمهيدية يتخذها الباباني المسيطر للاستيلاء
 على حكومة السليمانية الكبيرة • وقد حافظت رواندوز على منزلتها ، ولكن بتقلص
 ممتلكاتها ، فيما وراء الفتحة التي تعد خط دفاعها وحاجزها الكركي • وانتهت
 في العمدية مدة حكم بهرام باشا الطويلة بموته في ١٧٦٧م (١١٨١ هـ) • الا ان
 ابنه اسماعيل الذي ورثه حكم في مكانه مدة عهد كامل ، ولم يتهدد مركزه
 الا مرتين أولاهما عند أول تسنمه الحكم وأخرى عام ١٧٨٧م (١٢٠٢ هـ) • وقد
 أثار موته أطماع الخصوم العديدين وجلهم من أسرة الباحدينان ، وهم اولاده وأبناء
 أخيه • فانتهت الحرب الاهلية المستعرة بين الاقارب بارسال مراد بك الذي بعثه
 الحاكم الباباني تنفيذاً لأوامر بغداد • اما دويلات العمدية - عقرة ودهوك وزاخو -

(٢٦) ان سرعة تبدل الحكام والامراء البابانيين كان شيئاً طبعياً بالنسبة
 للاحوال التي كانت تحيط بالموقف • لان التعيين كان يصيب كل من يظهر ببأسه
 وشجاعته وشهرته ، ولو في مدة يسيرة • وكانت تؤثر أيضاً الدسائس الايرانية ،
 زيادة على وجود كهية قوي في بغداد تضارع قوته الباشا نفسه • لكن الذي كان
 ظاهراً للعيان هو سياسة بغداد القاضية بأطماع الامائل من البابانيين لضبطهم
 واتقاء شرهم •

فقد قسمت بين رؤساء الاسرة البحدانية الذين اعترفوا بسلطة البك الاكبر عليهم • وكانت في هذا الحين جزيرة ابن عمر تتمتع بأيام عز ورخاء أقلقها في عام ١٧٨٢ م (١١٩٧ هـ) نشوب خصام عنيف على السلطة • وقد تمكنت قبل هذا بسنة من الاحتفاظ بكيانها أزاء تعديات حاكم بتليس ٢٧ •

ولم يحدث في كركوك والبلدان المتعلقة بها في التابعة ما يصح أن يسمى تاريخاً • ولم تعد أياالة شهرزور ، الند الاكبر لبغداد في يوم من الايام ، أغنى توابعها وأكثرها تقديراً • فقد وقعت كفري في حكم بغداد مباشرة ، وغدت دويلات الاكراد الجبلية من دياالى الى الزاب الاكبر تتعاطى في أمورها مع المسلم في كركوك أقل مما كانت تتعاطاه مع سيده المملوك • فلم تفقد هذه المدينة منزلتها الأيالية مطلقاً ، وهي التي كان ينعم بها السلطان نفسه أبداً ودوماً على مرشحين لا تقل رتبهم عن رتبة مير ميران ، وتحفظ بديوان لا يقل عن ديوان الباشا الكبير في بغداد • تلك كسل ذلك فان المناطق المحيطة بالموصل من كل جهة أصبحت تنظر في أمور التأديب أو المكافأة الحسنة الى بغداد أكثر مما تنظر الى الموصل • على ان قسماً من هؤلاء ربما كان يتخذ موقف غير المهتم بالجهتين ، الا ان الجميع ، ومنهم الجليلي نفسه ، كانوا يعتبرون بغداد مرجعاً أعلى لهم •

ولقد حافظت أسرة عبدالجليل على منزلتها الخاصة بها مدة طويلة • فلم يجروا الا باشوات قليلون ، من غير هذه الاسرة ، على تولى حكومة الموصل • وقد بلغ عدد الحكام الذين حكموا الموصل في المدة التي بين وفاة الحاج حسين وأيام بيوك سليمان « الكبير » عشرين حاكماً ، كان منهم ثلاثة عشر حاكماً من الجليليين • ولا تبحث الحوادث المتكدة عن هذه الاسرة في تاريخ العراق العام وانما تبحث كلها في التاريخ المحلي • فلم تبعاً الا قليلاً بما كان يجري خارج سور الموصل كحصول هذا الابن أو ابن الاخ ذلك من أبناء الحاج حسين علي فرمان قصير الامد أو ما أشبه ذلك • على ان الجليليين قد قاموا ، أكثر من ممالك بغداد ، بدور مهم في شؤون تركية العامة • فكثيراً ما كانوا يترددون الى استانبول • وقد قضى أمين باشا ، الذي تولى حاكمية الموصل سبع مرات ، عدة أعوام أسيراً في

روسية ، كما توفي ابن عمه فتاح أثناء قيامه بواجب خاص في سورية ، وتولى سليمان كثيراً من المناصب العالية في الامبراطورية . وعلى هذا فليس من المستغرب أن يتكرر تعيينهم للباشوات في الموصل وغيرها لان ذلك كان تقديراً لاعمالهم الباهرة في الخارج ، ولخدمتهم الجليلة في العاصمة ، أو لمجرد حظوتهم عند الملوك في بغداد . ومن أكثر ما يذكر من المنازعات التي ولدتها الاحقاد الاخوية فسي مدينتهم كانت تلك التي اعقبت وفاة فتاح في ١٧٧١م (١١٨٥ هـ) ، ثم العراك العنيف في الشوارع بين أتباع عبد الباقي وأتباع سليمان (الذي كان محافظاً في بغداد مرة) في ١٧٨٤م (١١٩٩ هـ) . ولقد حسم النزاع الاخير في ديوان بغداد ، فكان ذلك في مصلحة عبد الباقي الذي برأ مدحه حكمه ، وما يزال قصيراً ، بعد سنة من توليه ، وذلك بوفاة في أثناء قيامه بحركات على اليزيديين في سنجار . ومن بعد ذلك أدت سنوات أربع هادئة الى حلول العهد السلمي الطويل الذي حكم خلاله محمد باشا الجليلي ، ذلك العهد الذي كان يشي عليه فيه رعاياه ثناءً حسناً ويشيد بذكره الناس حتى المسافرون الاوربيون ^{٢٨} . فكانت مدة حكمه ثماني عشرة سنة .

وكان ادخال ماردين في ضمن باشوية بغداد منذ قرون ثلاثة قد جاء معه اليها بمشاكل الجزيرة الشمالية . فقد كان هذا الصقع يجمع بين الاكراد الجبليين والبدو العرب ، بينما كان التركمان النازلون هناك يفلحون الارض بين العنصرين المذكورين . وكان الاكراد في مثل هذه الاصقاع التي تختلط فيها العناصر هم المسيطرين . وكان هؤلاء - مع عدم وجود الدم الكردي الخالص في عروقهم وعدم انضوائهم الى وحدة سياسية واحدة - يعرفون أنفسهم انهم هم فرع المليون من العنصر الكردي ، وكان بوسع جميعهم أن يلتفوا حول زعيم من الطراز اللائق بهم . والحق انهم كانوا محتاجين لهذا وحده ليؤلف من النصوص جيشاً خطيراً ويقلب الاضطرابات الى خطر مهدد . وقد ظهر مثل هذا الزعيم في أوائل العشرة التاسعة من القرن الثامن عشر ، وهو تيمور باشا الكردي الشريف المولد الذي

(٢٨) اوليفييه (ج ٤ ص ٢٦٦) وميرزا أبو طالب (ص ٢٨٩) (المؤلف) . ان الذي ذكره أبو طالب هو ان الناس كانوا يحترمون محمد باشا الجليلي كثيراً . وكان متكبراً جداً بحيث لا يكلم أحداً من نواب باشويته مشافهة . « راجع رحلة مرزا أبي طالب ، الترجمة الفرنسية ص ٣٧٤ - ٥ ، طبعة باريس » . « م . ج »

كان يشغل منصباً كبيراً في استانبول ، ثم هرب من العاصمة الى الاصقاع الوسيعة -
لاقاربه المليون على أثر سقوطه من المنصب بصورة فجائية •

« وقد دعا الى خيمته هناك العصاة وقطاع الطرق من كل جهة • حتى كوّن
من حوله قوة كثيرة العدد متكونة من مادة تناسب أغراضه • ولم يكن غيره أكثر
ليقاً بالحياة التي كتب له أن يحيها عاصياً مستقلاً ، وقد نجح في الحال فسي أن
يعترف به سيداً لهذه الاصقاع وان يخيف حتى باشوات ديار بكر وحلب -
الثابتين » ٢٩ •

فأصبح وجوده خطراً مخصوصاً على مواصلات الموصل ، وفشلت جهود
الجيش في القضاء عليه • وعلى هذا طلب السلطان الى سليمان الكبير نفسه أن يزيل
هذا الأزعاج ، فسار شمالاً الى الموصل في أوائل ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) • وجمع
هناك ثلاثين ألف فارس ثم توجه الى ماردين • فلم يكن بوسع تيمور ان يقف امام
جيش مثل هذا • فاتحلت قواته ، وفر هو نفسه ، ثم أدب سليمان المليون بشدة • ولم
يتملص وبووضه ماردين نفسه عما كان يحوم حوله من الريب ، فغرم وعزل •
وقد شق اثنان من أجل اتباع تيمور في ماردين ، ثم عين أخوه ابراهيم رئيساً أعلى
للمليون •

ولا تشجع هذه المراجع التاريخية العقيمة ، ولا تساعد العناية بهذا المجال ،
على البحث بالتفصيل في شؤون ماردين • فقد كان الويوزة أي المتسلم يأتي في
الدرجة الثالثة ضمن باشوية بغداد التي كانت تحكم هذه الولاية الثانوية مباشرة ٣٠ •
وكان غنف المنازعات الحزبية والشخصية يفوق ما كان موجوداً منها في الموصل
نفسها • فقد عزل المتسلم في ١٧٩٤ م (١٢٠٩ هـ) قسراً ، ولم يسلم خلفه من مثله
هذا أيضاً • وأدى الشعب الحاصل في ١٧٩٦ م الى فراز رئيس حملة البنادق ثم
الى الارسال برأسه الى بغداد • وطرده بعد ذلك الويوزة نفسه ، فعين في مكانه
أحد مرشحي الجمهور الصاحب •

اما التأييدات والاختلافات القبلية ، والهدايا التي كانت تقدم الى الموصل

(٢٩) بكنيغهام « بين النهرين » (ج ١ ص ٢٩٣) •

(٣٠) وهذا ما كان يسبب استغراب المسافرين الذين كانوا يجدونها قريية
كثيراً من ديار بكر •

أو بغداد ، وموازنة التركي والمملوك بالملي ، والقتال الذي كان يجري في شوارع
ماردين ، والخصومات والدسائس والتكتلات والرشاوى وحوادث القتل التي كان
يقوم كل منها بدوره في السياسة الغامضة العنيفة المعقدة لهذه الزاوية المتطرفة من
الباشوية ، فمن الاحسن ان يقتصر على تصورها في المخيلة بدلاً من سردها على
الورق • وقد سور المدينة سليمان باشا ٣١ • وأعاد تيمور باشا الى بلاده وجعله
والياً على أورفة في ١٤٠٠ م (١٢١٥ هـ) •

الوهايون

واذا انتهى مؤرخ العراق من بحثه في الاضطرابات والفتن غير المنقطعة في
الفرات والجزيرة وكردستان ، والفتن لناعية أخرى يجد عدواً جديداً للباشوية ،
ذلك العدو الثابت في مبدئه على كل ما عنده من تنقل ، المهدد مع كل ما يستحوذ
عليه من فقر ، والمخطر الذي لا يقل خطره على الاراضي المسكونة في غربي
العراق في هذا اليوم عن خطره عند اول ساعة من ظهوره • فقد حدث في
الجزيرة العربية ، التي كانت قد انجبت النبي (ص) وبعثت مئة من الهجرات البعيدة
المدى ، اندفاع ديني آخر تفجرت ينابيعه من واحات نجد •

ففي السنوات الاولى من عهد أحمد باشا كانت مدارس بغداد الدينية تضم
بين جدرانها طالبا من طلاب العلم ، يدعى محمد بن عبدالوهاب ، وقد تدرجت به

(٣١) قال ياسين الغمري في حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) ما صورته :
« وفيها ارسل والي بغداد الوزير سليمان باشا الى الدولة يطلب الوزارة
الى تمر باشا الملي • فأجابوه بالقبول وقدم البشير الى بغداد في رمضان ثم قدم
القابجي (البواب) بالفرمان والخلعة في شوال ولبس تمر باشا الخلعة وصار
وزيراً وولي مدينة أورفه • ثم ان الوزير سليمان باشا أعطى تمر باشا خيلا
وبغالا وجمالا وخياما وأموالا فاستخدم العساكر وخرج من بغداد وقدم الموصل
منتصف ذي القعدة ، وخرج الى استقباله الوزير محمد باشا وأرسل معه أربع مئة
تفكجي بأمر والي بغداد ، فأقام تمر باشا سبعة أيام ورحل ونزل على جبل
سنجار (موئل اليزيدية) وحاصره وطلب منهم « أموال القافلة » فأعطوه
ثمانين بغلا وفرسا وحمرا وبعض المال •

اما القافلة المذكورة فيقال في ذكرها : « وفيها قدمت قافلة من ديار بكر
ونزلوا بالجربارات (كذا) وخرج عليهم قطاع الطريق ونهبوا القافلة وراح لهم
ستون حمل كتان سوى القماش » « م • ج » •

الامور بعد ذلك حتى قدر له ان يجلب اخطاراً عظيمة على البلاد التي أقام فيها هذه • وكان قبل ان نجده في دور الكتب وخزائنها الباردة المطلة على دجلة قد درس في مكة ودمشق والبصرة • وكان خلال جولاته التجارية قد شاهد مدن كثير من البشر وتأمل الاسلام من عدة نواح • فكان واجبه في الحياة « الاحياء » أي الرجوع في صفاء التعاليم الاسلامية الى منبعها ومحاربة الترف والدجل ، والذنوب الشائنة • وعندما غادر بغداد ذهب للحج فأقام في المدينة مدة من الزمن • ولما توفي أبوه عبد الوهاب من بعد ذلك اوقف سني حياته الاخيرة للدعوة الى عقيدته المنطوية على اليسر والعود الى جوهر الدين ، وذلك في قريته « عوينة » بنجد • وعندما اضطر الى الفرار منها التجأ الى أمير مجاور له في الدرعية ، وهو محمد بن سعود • فاستقام عنده واستولى على لبه سنة بعد أخرى ، فكان من ذلك ان اتحدت قواهما الدينية والدنيوية ، فولد ذلك وحدة وروحاً في هذه الدويبة الصغيرة التي نشرت عقيدتها بالفتح • ومات الامير في ١٧٦٥م (١١٧٩ هـ) تاركاً مملكته الناهضة لابنه (من بنت المصلح الديني نفسه) عبدالعزيز بن سعود • وما حلت سنة ١٧٧٥م (١١٨٩ هـ) حتى كان ابن سعود هذا ذا قوة عظيمة في الجزيرة •

فأصبحت منذ ذلك الحين تعرف امبراطورية ابن سعود النجدية بالعقيدة الوهابية • وقد وسع معتقو هذا المذهب الأيقوني الضيق ، الغلاظ المرتدون ، دويلتهم بمحاربة من جاورهم من المسلمين الذين فسدت عقائدهم • وكانت كل غزوة لها فتوى دينية • وكان ازدرأؤهم الفائر للمرتدين المترفين المحيطين بنجد من كل جهة قد حداهم لا الى استعمال العنف الشديد بل الى ارتكاب أفعال خيَل معها للكثيرين من الناس انهم يقصدون بها مهاجمة الدين الاسلامي نفسه • والحقيقة ان أحسن رعاياهم ، أو أوحشهم ، من القبائل والمقاتلين كانت لا تعرف من القرآن وائسنة الا النذر اليسير • كما كان انفعالهم من تعاليم الدين المحرفة يزيد كثيراً على ما يضمرونه من حق على اليهود أو النصارى • وكانوا يضمرون للخليفة وكل شيء تركي استهانة لا تحتمل •

وكانت أول حروب الوهابيين الخارجية مع بني خالد في الاحساء • فلم يصادفهم كثير من النجاح هناك • الا ان غزواتهم الدينية توسعت في جميع الجهات •

وقد أصبح العراق قبل ١٧٩٠ م (١٢٠٥ هـ) يحس بوجود جارٍ حديث غير مستقر ، لان جماعات متعصبة وسمت أبلها بشارات بارزة وهي تحمل رقاعاً دينية غريبة . غزت غزوها المألوف واحتلت مراعي الضفير والمنفك والشامية • ثم صارت تعرف ماهية هذا الخطر ببطء • فقد أضاف هذا العدو الجديد الذي ظهر في حدود العراق الى خداع قوات البادية المألوف ما يستفز السلطات الحاكمة فيه • ولا غرو في ذلك فان الملاي الوهابيين قد ينتشرون في خيم الضيوف عند العشائر الفراتية فيخطبون فيها ، مشعلين نار السخط الكامن على الباشا والسلطان ومستعمائين الخرافة والمال - وبذلك قد يكونوا سبباً مهماً لنزع قبيلة بعد أخرى من آخر بقايا النفوذ العثماني عليها • وبقي مدى انتشار هذه الحمى في العراق أمراً مشكوكاً فيه مدة طويلة من الزمن • فقد كانت الحدود التي نهكتها الغزوات والحروب من قبل ، عرضة للاذعان الى الخوف أو الحجة بقدر ما كان يؤمل منها ان تقف مناضلة بجانب الولاية التي تكون هي نفسها قسماً مهماً منها • فازداد خضوع الجزيرة لسلاح الوهابيين واستمالتهم • غير ان العقيدة الجديدة لم تلق الا رواجاً قليلاً في العراق • فقد قوبلت الجيوش الوهابية ، المزعومة للنور والانقاذ ، كما يقابل المرتدون والمصوص • لان قبائل العراق ، السنية والشيعية ، ما كان يمكنها ان تستسيع تبديل العقيدة بفعل التهديد بالنار وغزو الماشية •

وكان الشيخ ثويني أول عراقي صد العدوان وصمد له حينما اعيد في الايام الاخيرة الى موطنه ومنصبه^{٣٢} في ١٧٩٧ م (١٢١٢ هـ) • فقد كانت القبائل التي تتجعجج الكلا ، والقرى غير المحصنة في جنوبي غربي العراق ، معرضة منذ عشر سنوات للغزوات السريعة القاسية • وكان هؤلاء يدافعون العدو عن أنفسهم .

(٣٢) وفي تعليق لبريجز (الص ٢٧) على الهدنة التي أعقبت حملة علي باشا التي جردت سنة ١٧٩٨ - ٩ ، يضيف قوله « ٠٠ » وقد القى الاتراك اللوم في مخالفة الوهابيين لهذه الهدنة على ثويني » ، أي أنه يعتبر ثويني قد عاش الى ما بعد هذه الحملة • لكن المراجع المحلية تؤكد على ان حملة ثويني قد سبقت حملة علي باشا • راجع « رحلة جاكسون » الص ٥١ التي يقول فيها ان ثويني أرسل لصد الوهابيين في حزيران ١٧٩٧ - المؤلف

ذكرنا في حاشية سابقة التعليق ان ذلك كان سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) •

بشتى الطرق من الهزيمة أو السلاح أو تبديل العقيدة من غير أن تظهر امارات النجدة من الحكومة • وقد ساءت الاحوال في ١٧٩٢ - ٩٥ م لان الوهابيين تمكنوا من اخضاع بني خالد • وسمع العالم الاسلامي بأجمعه بالخطر الجديد الذى بات يهدد الحجاج في طريقهم الى الحج • وبادر شريف مكة بشرح التهلكة للسلطان • وكان أولو الشأن في الباب العالي يطلبون بصورة متكررة من تابعهم المملوك في بغداد ، ففى ١٧٩٥ - ٩٧ م ، ان يحمي الامبراطورية ويعاقب الوهابيين • غير ان الباشا كان قد بلغ من الكبر عتياً وغدا فاتراً فى همته بحيث أودعت أكثر شؤونه في أيدي موظفيه ، فارتبكت أحواله وكثرت نفقاته من غير أن يهتم بحدوده في البادية ٣٣ •

وبعد ان وصل تويني الى موطنه قضى ثلاثة أشهر في جمع القطعات القبائلية في جهرة ، وفي جمع الرصاص والبارود ، وارسل اسطولاً يحمل الذخائر الى القطيف • وقد رافق الاسطول ناس من عرب عقيل بغداد ، وما يزيد على كتيبة واحدة من الجنود الاجيرة اذ ذاك • ثم تقاطرت الارتال من الكويت والبحرين والزيير • وفى خلال هذا كان عبدالعزيز بن سعود قد خيم مع جيوشه في الطرف بالاحساء • فجرت الحركات بين الفريقين بتوءدة • ولم يعارض تقدم تويني الى الاحساء أي معارض ، على صعوبة المسير فى ارض لا ماء فيها • وكان وصوله الى أسوار الدرك في بلاد بني خالد شيئاً ينذر بالسوء للقواد النجديين

(٣٣) يذكر برخارت ان أسباب خمول سليمان باشا فى هذا الشأن هي « انه كان لا يملك المال الكافي للحملات ، كما أن سلطته كانت ضعيفة فى مملكته » • الا ان القسم الاول من هذه الجملة يفنده بريجز (ص ١٧) ، والقسم الثانى صحيح عدا الحملات التأديبية التي جردت فى كل جهة • أما الاسباب الحقيقية فهي ان الخطر لم يتجسم فى ذهن اولي الامر ببغداد كما كان متجسماً فى النجف والسماوة الا مؤخراً • هذا عدا ان الباشا كان فى دور شيخوخته (المؤلف) • قال مصطفى جواد : ومما يؤيد قول المؤلف فى شيخوخة الوزير سليمان الكبير وعجزه عن مباشرة الامور ويؤكد ، أنه أرسل فى سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م) الى الدولة فى اسطنبول يستعفى من الحكم لضعفه عنه ولكبره ، ورجا أن يكون مكانه كتنخذه أحمد باشا ، فلم يقبل منه ذلك ولا اجيب اليه ، ذكر ذلك ياسين العمري فى الدر المكنون وسوف يشير اليه مؤلف هذا التاريخ الجليل فى بحث « نهاية الباشا الكبير » •

الذين خيل اليهم ان امبراطوريتهم في الاحساء قد تنقلب عليهم • وكان التقديم
الآخر الى الشبيك ، فوصل اليها الجيش في مساء اليوم الاول من تموز ١٧٩٧ م
(١٢١٢ هـ) • وهناك قتل ثويني ، وكان قتله عبداً زنجياً • ولما كان الجيش
لا رابط له ولا نظام سوى شخصية الشيخ ثويني نفسه فقد تفرق في الحال
شذر مذر ، وانقسم الى خمسين قطعة من القطعات التي كانت كل قطعة منها توافقة
للرجوع الى الوطن سالمة • فانتهى على هذا المنوال آخر عمل قام به شيخ المنتفك
العظيم^{٣٤} • وأحسنه ، بالخيانة والهزيمة المروعة ، وأول ضربة مقابلة حاول العراق
انزالها بالوهابين •

ومرت سنة وأسابيع قلائل أكثر منها قبل أن يهب باشا العراق وقد استفزه
اندحار قبائله هذا واستحثه سلطانه للاستعداد لضربة مقابلة^{٣٥} • فكان الكهية
الجديد علي باشا طوال صيف سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) منشغلاً بجمع الحملة
جمعاً خارقاً • فكانت تشتمل على خمسة آلاف انكشاري ، وعدد من الجنود
الاجيرة غير النظامية ، ومدفعية وأفرّة ولكن غير مؤثرة ، وقطعات من قبائل عقيل
والعبيد وشمر وغيرهم • ورافق الكهية محمد بك الشاوي مشاوراً في شؤون
البادية • فوصلت هذه الجيوش الى البصرة^{٣٦} في اليوم الثاني من كانون الاول •

(٣٤) ان ما يذكره مؤلف « مرآة الزوراء » هو ان الشيخ ثويني توغل في
حملته هذه في نجد حتى حاصر الدرعية ، ألا ان هذه الرواية لا يمكن قبولها •

(٣٥) يمكن الاهتمام لتفصيلات اخبار هذه الحملة فيما كتبه بورخارت
وبريجز وفي كتابي « دوحه الوزراء » و « عنوان المجد » •

(٣٦) قال ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١٣ هـ المذكورة ما نصه :

« فيها أرسل والي بغداد الوزير سليمان باشا كتخداه الكبير والشهم الخطير
علي باشا بالعساكر فكانوا نحو عشرين ألف فارس ، وسار بهم الى البصرة وجمع
العشائر والقبائل فكانوا ألوفا وسار بهم الى مدينة الاحساء وحاصروهم وملكها •
وحاربه عبدالعزيز المعروف بالوهابي فانصر علي باشا وانكسر عسكر الوهابي
وقتل منهم خلق كثير وعاد علي باشا منصوراً ، ثم بعد عودة علي باشا قدم الوهابي
وملك الاحساء وقتل من أهلها جماعة وبث فيها اعتقاداته الفاسدة » انتهى كلام
العمري - « م • ج » •

وهناك أضيفت الى الجيش قطعات من قبائل الضفير والمتفك وبني خالد ، وبذا بلغ عدد القوات العشائرية ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل • وبعد أن ترك الزبير وجه علي باشا سيره نحو جهرة • وقد نقلت الذخائر بواسطة « المهيلات » البحرية • وكانت عشرة آلاف بعير روايا تحمل الماء مع سائر الحاجات ، الا ان هذا العدد كان يتناقص بسرعة • وكانت مشقات السير تستدعي وقفات كثيرة مدة أيام عديدة • وأخيراً وصل الجيش للهدف^{٣٧} الاول وهو قلعة الهفوف وقلعة المبرز • وكانت المدفعية التي جاء بها الباشا مما يصلح لمراكز الدفاع المبنية من الرهص ، الا ان الهجوم الذي شنه لم يكن محكماً ولا جدياً • وعلى هذا كان كل يوم يقضيه الجيش في المعسكر يتضمن نصباً ومشاق مضاعفة • وكان ضياع الابل بمشابة أنذار للجيش بفقدانها أجمع • وقد نفذت قوة الحملة قبل أن تتوصل للغاية التي كانت تقصدها ، فضج الجيش جميعه ونادى الكثيرون منهم بالرجوع • وأصبح ذلك شيئاً ضرورياً حقاً عندما وردت أنباء تؤذن ان ابناً لابن سعود كان قد قطع طريق المسير من شمال الهفوف ، وكان يرمي الملح في الآبار هناك • واذ ذاك بدأ علي باشا بالرجوع من حيث أتى ، وقد اتلف كثيراً من متاعه الثقيل • فتراجعت امامه قوات ابن سعود وكانت تخشى مدفعيته • فأضافت الى خسران الجيش وتعاسته عاصفة هبت في الشيك وكان قتل فيها ثويني من قبل • وفي وتيج كان معسكرا الفريقين يقابل بعضهما بعضا واستمر ذلك مدة ايام ثلاثة كان يتطلع خلالها الفريق نحو الثاني • فأرسلت الرسل بينهم وتكررت حركتهم ذهاباً وأياباً ، فكانت مطالب علي باشا اخلاء الاحساء ، ومعاملة الحجاج العراقيين بالحسنى ، وارجاع المدافع التي استولى عليها الوهابيون ، ثم الغرامة • فلم يُطلع سعود ، سيد دبلوماسية البادية المتصل سراً بعشائر الجيش العراقي ، أباه على هذه الشروط الا بصورة غامضة • وعادت القوات التركية الى البصرة موفورة ، وبذلك انتهت الحملة من غير أن تنجز شيئاً • ثم وصلت الى بغداد في تموز ١٧٩٩م (١٢١٤هـ) • ولم يبق سوى اقامة المراسيم لتصديق الشروط المذكورة للصالح قرين من أجلها سراي بغداد وزخرفت جدرانها • ولأجل التأثير في وكيل ابن سعود ، وكان قدم

(٣٧) يلوم يورخارت ومؤلف دوحة الوزراء علي باشا لعدم جعله هدف الجيش الاول الدرقية •

بغداد لامضاء عقد الصلح ، بذلت جهود كبيرة لالباس القصر وشخص الباشا جميع ما يدل على الجلال والثروة • وبينما كان جميع الحرس والجند مصطفىين لاستقبال السفير العربي ، وهم سكوت عليهم التحلل المزركشة واللبسة المزينة ، ظهر العربي بمظهر بدوي ذي أسمال يمشي بخطا سريعة • وما وصل الى حيث كان يجلس الباشا حتى ترك الباشوات ، الذين حضروا للاحتفاء به ، جانبا وجلس القرفصاء بين يدي سليمان • ثم قدم له ورقة وسخة ، وأخذ يخطب بلهجته النجدية العربية بخطاب^{٣٨} جاف مهين •

على أن صلحا كهذا يكتشفه التعصب العدائي من جهة والتحدي لعرف البادية من الجهتين لا يمكن أن يؤمل دوامه • فقد هاجم الوهابيون بعد سنة حجاج الخزاعل بالقرب من نجد ، وفي فرصة للوهابيين أخرى هوجم الحجاج الايرانيون ونهبوا في الموضع بعينه • وفي صيف سنة ١٨٠١م (١٢١٦هـ) أرسل عبدالعزيز الشاوي بمهمة سياسية الى نجد ، الا انه رجع مخبرا بعدم وجود رغبة في الصلح في نفوس النجديين • وما كاد يخبر بظهور القوات الوهابية قرب شفاة حتى سارع الكهية وخيم بالقرب من كربلا • فاشتبك محمد الشاوي ورئيس شمر فارس تجربا مع العدو بمعركة توقفت أخيرا بعطش الفريقين •

على أن الفاجعة الكبرى كانت على قاب قوسين أو أدنى ، تلك الفاجعة التي دلت على منتهى القسوة والهمجية والطمع الاشعبي ، واستعملت باسم الدين • فقد حدث في أوائل ١٨٠١م أن تفشى الطاعون في بغداد ، فأضطر الباشا وحاشيته للالتجاء الى الخالص حيث ابتعد عن منطقة المرض • وما استتب حاله هناك حتى فوجيء بنبا من المتفك علم به ان الجيوش الوهابية تحركت للغزو المختص بالربيع • فأرسل الكهية الى الهندية ، الا انه ما كاد يغادر بغداد حتى وافت أخبار هجوم الوهابيين على كربلا ونهبهم أياها ، وهي أقدم^{٣٩} المدن الشيعية وأغناها •

اذ انتشر خبر اقتراب الوهابيين من كربلا في عشية اليوم الثاني من نيسان عندما كان معظم سكان البلدة في النجف يقومون بالزيارة • فسارع من بقي في

(٣٨) بريجز « الوهابيون » (ص ٢٣ - ٢٧)

(٣٩) قول المؤلف « أقدم المدن الشيعية » فيه نظر لأن البلد الاقدس هو

النجف الاشرف كما هو معلوم - « م . ج » •

المدينة لاغلاق الابواب • غير أن الوهابيين وقد قدروا بستمائة هجان وأربعمائة فارس نزلوا فنصبوا خيامهم ، وقسموا قوتهم الى ثلاثة أقسام • ومن ظل أحد الخانات هاجموا أقرب باب من أبواب البلد ، فتمكنوا من فتحه عسفاً ودخلوا • فدهس السكان^٤ وأصبحوا يفرون على غير هدى بل كيفما شاء خوفهم • اما الوهابيون الخشن فقد شقوا طريقهم الى الاضرحة المقدسة وأخذوا يخربونها • فاقتلعت القصب المعدنية والسياج ثم المرايا الجسيمة • ونهبت النفائس والحاجات الثمينة من هدايا الباشوات والامراء وملوك الفرس ، وكذلك سلبت زخارف الجدران وقلع ذهب السقوف وأخذت الشمعدانات والسجاد الفاخر والمعلقات الثمينة والابواب المرصعة وجُمع ما وجد من هذا الضرب ، وقد سحبت جميعها ونقلت الى الخارج • وقتل زيادة على هذه الافاعيل قراب خمسين شخصاً بالقرب من الضريح ، وخمسائة أيضاً خارج الضريح في الصحن • اما البلدة نفسها فقد عاث الغزاة المتوحشون فيها فساداً وتخريباً ، وقتلوا من دون رحمة جميع من صادفوه كما سرقوا كل دار • ولم يرحموا الشيخ ولا الطفل ، ولم يحترموا النساء ولا الرجال فلم يسلم الكل من وحشيتهم ولا من أسرهم^٤ • ولقد قدر بعضهم عدد القتلى بألف نسمة ، وقدر الآخرون خمسة أضعاف ذلك •

ولم يجد وصول الكهية الى كربلا نفعاً • فقد جمع جيشه في كربلا والحلة والكفل ونقل خزائن النجف الاشرف الى بغداد ، ثم حصن كربلا نفسها بسور

(٤٠) ان مرزا أبو طالب (ص ٣٦٢) يلوم في هذا الحادث عمر آغا حاكم البلدة ، وهو سني متعصب لم يعمل شيئاً لحمايتها ، وقد قتله أخيراً سليمان باشا (المؤلف) • وقد قال المرزا المذكور أن الناس يتهمون عمر آغا وكان من الخرافيين بمكاتبة الوهابيين ومواطأتهم على فعلهم ، ولكن الثابت هو انه هرب الى قرية قريبة من كربلا أول ما علم بالخطر ، فلم يدافع قط • (ص ٤٠١ - ٢) من الرحلة - « م • ج » •

(٤١) ذكر الميرزا ابو طالب في رحلته (ص ٣٩٩ من الترجمة الفرنسية) « انه لقي بكربلا عمته المسماة « كربلاي بگم » ونسوة من حاشيتها وكان الوهابيون قد سلبوه من كل ما كن يملكن فأعانهن أبو طالب بكل ما استطاع من المعونة » ثم ذكر انهم قتلوا خمسة آلاف انسان وجرحوا عشرة آلاف •

« م • ج »

خاص • وعلى هذا لم يقيم بأي انتقام للفعلة الشنيعة الاخيرة التي قام بها العدو الذي لا يدرك • وقد كان ذلك الحادث الاليم للباشا الشيخ في عمره هذا صدمة مميّة • وانتشر الرعب والفرع في جميع أتحاء تركية وايران • وبذلك رجع وحوش نجد الكواسر الى موطنهم ثقلاً على أبلهم التي حملت تحميلاً ثقيلاً نفّاس لا تثنى •

نهاية الباشا الكبير

لم يبق من أخبار باشوية سليمان الطويلة ما يستحق الذكر الا حادث طريف واحد • فقد ذكر من قبل ما كان من أمر أحمد خادم الباشا الخاص وناموسه « موضع أسرار » مدة ثلاثين عاماً • كما ذكر ان تفضيله وتقدمه قد أديا لثورة سليمان الشاوي ، وأن نشاطه في منصب الكهية قد استعمل في قيادة الحملات مدة سنوات عشر ، وان تديره الاقتصادى واخلاصه الشديد كانا يحملان جميع أعباء الدولة في وقت كان سيده قد طعن في السن وكثر عجزه • وقد كان يؤثر الخدمة في بغداد حتى تنقاد الباشوية في يوم من الايام له بفضل الصبر ، ولذلك السبب رفض منصباً كبيراً في استانبول • وقد ظل ، وهو الجذاب للالباب المعروف عند الجميع ، الرجل الثاني في العراق رتبةً لمدة سنين عدة ، والرجل الاول تقريباً من حيث القوة والسطوة • على أن ذلك قد ولد له الاعداء • فان أصله الحقير ، والتقريع المؤذي في كلامه ، وحقه الذي يغلي ، وثروته^{٤٢} العظيمة ، قد أدت كلها لتجمع قوى الحسد والسخط عليه • والحقيقة ان هذه كلها لم تكن لتؤثر في سلامته الدائمة وتقدمه المستمر • الا أن أطماعه التي لا تعرف الصبر قد أودت بالاهداف التي كانت ترمي اليها •

ففي ١٧٩٣م (١٢٠٨هـ) كان الباشا قد قدم استقالته الى الباب العالي في مصلحة أحمد^{٤٣} ، فرفض ذلك • غير أن الكهية لم ينقطع عن تبيان محاسن الانزال والتقاعد ، وعن أخذ السلطة بيده • وما حل عام ١٧٩٥م حتى كانت الاحزاب تتخذ تدابير عملية عليه • على أن الشائعات عما كان يطمع به لم يكن

(٤٢) أوليقييه (ج ٤ ص ٢٦٢) ، جاكسون (ص ٩٧)

(٤٣) غاية المرام (سنة ١٢٥٨) ، ويقول أوليقييه (ص ٣٥٥) ان احمد

ضغط على الباشا الشيخ بالاستقالة فرفض •

ليصدقها الباشا لو أوصلت اليه ، وكان سليمان على عكس ذلك ينوي أن يفعل له فعلاً مشرفاً آخر وهو أن يزوجه بأبنته خديجة خانم . فأجل أحمد قبول هذا الطلب لأسباب شخصية^{٤٤} ، فأنبرت الخانم لأن تستعمل كل ما عندها من التأثير للإيقاع به منتخبةً لنفسها خاطباً جديداً وهو علي آغا الذي كان أميناً للصندوق حينئذ وصار قائداً لحملة الاحساء غير الناجحة فيما بعد . وفي هذه البرهة أصيب الباشا ، وقد بلغ الى الثمانين من عمره ، بمرض خطير . فانهكته الحمى وأخارت قواه وقادته الى شفا الموت مع سعي الاطباء الايرانيين والمنجمين . ولم يجدد هواء كردستا البارد نفعا كذلك . فتداركه حذق طبيب افرنسي (كان مقيماً في بغداد مدة طويلة) وأعاد له شيئاً من اعتدال المزاج . ولم يحدث ما يدل على قرب حدوث كارثة تصيب علاقة الكهية بالباشا ، وعلى ذلك انقضى نيسان ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) .

غير ان خطط علي آغا ، وقد أصبح زعيم الراغبين في تنحية احمد عن منصبه ، قد نضجت . فقد تمكن المتآمرون من جلب مرافقي سليمان باشا الخاضعين به الى جانبهم . وانتقيت فرصة للقيام بقتله ، وهي صبيحة أحد الايام التي كان يجلس فيها الباشا في مجلسه العام . وما حان صباح اليوم الموعد حتى خرج الباشا على جاري عادته من منزله الى ديوانه ، فدخله وجلس في محله المعتاد . وما كاد الكهية وقد جاء بعده يعتلي السلم حتى أعمد فيه عشرون خنجرأ مرة واحدة . فرميت جثته المتخنة بالجراح المميتة الى أسفل ، وبقيت ساعات عديدة معروضة للمتفرجين من الناس . اما سليمان فقد ذُعر من الحادث ونهض من مكانه وهرب مسرعاً الى غرفته الخاصة . وهناك استدعى في الحال مشاوريه محمد الشاوي وعبدالله الصراف اليهودي . فصدر بعد ذلك أمر لآغا الانكشاريين في بغداد بأن يركب في الشوارع معلناً القتل المحق للكهية الخائن . ولا نعلم أكان الفعل هذا مقترناً من الاصل برضا الباشا ، فربما كان قد تحقق بخيانة خادمه وأطماعه ، أم كان أمره بمثل هذا البيان ناشئاً عن خوفه وفزعه مما رآه^{٤٥} . وما

(٤٤) كان سلوكه ذلك مبنياً على أن زوجته الحالية كانت جميلة ، وربما كانت هي قد استنكرت ذلك ايضاً .
(٤٥) يظهر لنا ان سليمان باشا كان على علم بالامر فقد ذكر ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) ما هذه صورته :

حل مساء ذلك اليوم حتى اقيمت حفلة زفاف علي آغا الى خديجة خانم ، وتلا ذلك ترفيعه الى رتبة ميرميران ونصب في وظيفة الكهية بسرعة • اما ثروة أحمد المكتنزة فقد اضيفت الى ثروة سيده الباشا ، الا انها لم تؤاسه ولم تعوضه عن فقد وزيره المحبوب المقدر^{٤٦} •

وتدل الحملات الاعتيادية التي سبقت في السنين الاخيرة من عهد الباشا على قبائل الزبيد والخزاغل وعفك على أحوال غريبة غير آمنة • كما تدل الواردات والهدايا الثمينة المرسل بها الى استانبول على ان الباشا كان ما يزال موالياً ولو قلت قيمته بنظر البادشاه • وقد أثارت الضربات المهيئة التي أنزلها الوهابيون سخط العالم الاسلامي على الباشا •

ولم يبق من حياة الباشا غير المرحلة الاخيرة • فقد شفي من مرضه المنذر بالموت في ١٧٩٦ م بعد ان ابتهل له اليهود والنصارى والمسلمون الى ربهم على سواء • غير ان حيويته المعجبة التي أستفرغت كلها مدة ثمانين حولاً لا بد من ان تأخذ بالوهن والتضاؤل بمرور الزمن • وفي أوائل ١٨٠٢ م (١٢١٧ هـ) أصبح عليلاً لا قوة له أبداً • ولم يتداول أرباب الدولة في تعيين من سيخلفه لا في

» وفيها أواخر شعبان خرج الى الصيد والي بغداد الوزير سليمان باشا وأقام في البر بين بغداد وكركوك الى أواخر شوال ثم عاد الى بغداد وغضب على كتخداه احمد باشا بن الخربندة فقتله أواخر شوال ، قيل انه أراد الغدر في مولاه ، فلما حضر بين يديه نظر اليه وهما كما قيل :

وللغدر عين لا تزال عبوسة وعين الرضا مكحولة تتبسّم

فأشار الى أحد أمرائه - وقد اعتمد على شجاعته وفروسيته - الامير المكرم علي باشا : فضربه بالسيف على رأسه ، جرحه جرحاً بالغاً ثم ضربه اخرى ، فرق بينه وبين جثته ، ثم ضربه ثالثاً على خاصرته ، فده نصفين ، ثم اجتمعت باقي الامراء وضربوه وقد مات من أول ضربة والقوه في حوش السراي واستولى الوزير على أمواله ومماليكه ثم جعل الوزير سليمان باشا كتخداه الامير المذكور والشهم المنصور آصف زمانه علي باشا ، ثم صادر الوزير سليمان باشا عبدالله بك أخو (كذا) كهية أحمد باشا وأخذ منه أموالاً وأهمله •

(٤٦) بريدجز (ص ١٨٢)

استأنبول ولا في بغداد • فقد كان أولاد الباشا اذ ذاك صبية صغاراً ، وكانت خديجة
احدى بناته : زوجة علي باشا الكهية ، وكانت قد زوجت ابنة أخرى سليم آغا
الذي صار متسلم البصرة فيما بعد • وكانت البنتان الاخريان قد خطبتا لداود أفندي
ولناصيف آغا رئيس الحجاب • وهؤلاء جميعاً هم الذين يجب أن يعدوا مرشحين
لأن يخلفوه • كما ان رؤساء الاسرة الشاوية ، ومتسلم البصرة ومتسلم ماردین ،
والدفتر دار و آغا الانكشاريين ، ربما كانوا جميعاً يفكرون تفكيراً خطيراً في هذه
الشأن • وعلى مثل هذا كان الجميع يتربقون بعاطفة وطمع حياة الباشا العظيم الأخذة
بالانطفاء • وكان جميع هؤلاء من صنف الممالك عدا الشاوية العرب والآغا
الانكشاري • وما حل شهر آب حتى كان سليمان في الموتى • وكانت آخر
الضربات ، التي ركس بعدها ، انزعاجه من الطاعون الذي كان قد أخرجه من
بغداد والرعب الذي أصابه من فاجعة كربلا • وكانت وفاته قبل ظهر اليوم
السابع من شهر آب لسنة ١٨٠٢ م ٤٧ •

(٤٧) يلخص كتاب دوحة الوزراء أعمال سليمان باشا بما يلي : كان قد
أصلح سليمان باشا سور بغداد وحسن جانب الكرخ ، فبنى له السور وحفر له
الخنديق • وأضاف قسماً من الابنية الى السراي • وكذلك بنى المدرسة
السليمانية « بجميع مرافقها » وأصلح بناء جامع القبلاية والفضل والخلفاء
وعين فيها المدرسين • وطلّى قبة أبي حنيفة بالذهب ، وبنى سوق وخان
السراجين • ثم انه أعاد بناء دلي عباس وشرمان (ربما كانت شهربان) ، وبنى
أو أصلح سور مندلي والحلة والبصرة ، وشاد جسر النارين ودار الاسلحة في
الكوت (؟) والبصرة وجصان • وكذلك حصن الزبير وماردین وأسكي موصل •
ثم انه بنى الخانات في الاسكندرية وكربلا • ومن الاعمال الاخرى التي أشرف
عليها حفر الهندية من جنوبي المسيب وذلك لسقي النجف •

الفصل التاسع

الممالك الاواخر

ثلاثة عهود قصيرة

ما كاد بيوك سليمان يلفظ نفسه الاخير حتى انفجر^١ شغب عنيف تفكر فيه المدبرون له طويلاً • وقد انسحب أضعف المرشحين لتولي الحكم وسايروا أحوالهم عند اقتراب الازمة ، ولم يبق من المتنازعين الا علي باشا الكهية وأحمد آغا رئيس الانكشاريين^٢ وسليم آغا وحدهم • فكان أحمد قد دعا قبل وفاة الباشا بأيام قلائل المقيم البريطاني الى مجلسه وطلب منه كتاباً الى السفير في استانبول • وبادر الآن (وربما كان ذلك قبل الوفاة بساعة) بجمع من استطاع جمعهم من الرعايا والسوقة واستولى على القلعة ، فتحصن بها وأخذ يضرب السراي • وتحققت في هذه الاثناء وفاة الباشا ، فتولى المنصب علي^٣ باشا قائماً مقامه • وقد لعب ناصيف

-
- (١) اتبعت في هذا رواية بريجز (ص ٢٠٤) لانه كان شاهد عيان محايداً وفضلت على دوحة الوزراء ، ويتفق الاثنان بشيء من الرواية •
- (٢) بريجز (ص ٢٠٥) كان الباب العالي يأمل في الحصول على كنوز الباشا الشيخ عن طريق أحمد آغا •
- (٣) ان لياسين العمري - وهو متعصب لعلي باشا - خبراً منفرداً في جنسه ، خاصاً بتولي علي باشا فقد قال في حوادث سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ، ما هذا نصه :

« وفيها سابع ربيع الآخر يوم الجمعة وقيل يوم السبت توفي الوزير الكبير والشهم الخطير سليمان باشا ، ملك بغداد نحو خمس وعشرين سنة ، وكان له سعادة واقبال فلم تكسر له راية • وكان قبل مماته أحضر جميع الامراء وأشار عليهم بأن يتولى بغداد كتبخده علي باشا ، فحلفوا له ثم توفي ودفن في المعظم وتسلم البلد بأشارة الوزير والرحوم القاضي والمفتي والامراء آصف زمانه خاتم اوانه رشيد أقرانه علي باشا كتبخده الوزير المرحوم وصهره الضيغم المعلوم ••• » - « م • ج » •

دوراً ثنائياً ، حيث كان يتصل سراً بالقلعة والسراي معاً • أما المدينة فقد كان فيها لدوي المدفعية واطلاقها من القلعة تأثير كبير • فأغلقت الحوانيت والمخازن وامتلأت الشوارع بالاهالي المسلحين الخائف أكثرهم ، ثم تألفت الجماعات والاحزاب فأنحاز القسم الاغلب منها الى علي باشا المرشح المشروع والحاكم الفعلي الحقيقي للمدينة • غير ان آغا الانكشاريين في القلعة لم يكن بوسع أحد اخراجه ولا اقناعه ، وبقيت الحال متقلقلة يوماً بعد يوم كما ظلت النتيجة معلقة •

ولاجل حل العقدة الحاصلة انسحب في الاخير علي باشا من قائممقاميته متنازلاً للآغا الانكشاري وقب في بيته • الا ان أحمد آغا بقي غير مقتنع بحسن النية في هذا الانسحاب ، وكان محققاً في ذلك • فقد عبر علي باشا في ظلام الليل الى جانب الكرخ وحث الاهلين وعشائر العقيل وجماعات من الانكشاريين المنشقين وقادهم ، فهاجم بهم الرصافة في الزوارق والسفن بعد ان قطع الجسر • وبعد مقاومة قليلة ازداد عددهم بمئات فتمكنوا من الاستيلاء على السراي والميدان • غير ان الآغا الانكشاري ما فتىء حافطاً للقلعة ، لكن مسعاه في هذه المرة قد احبط • فقد دبر له علي باشا ، الذي كان يبيده الاصفر الرنان ، المكائد فانفض أتباعه عنه خلال ساعات معدودة • ثم لاذ أحمد آغا بالفرار واختبأ في احدى دور بغداد • فخلفه سعدالله في قيادة الانكشاريين الذين عادوا الى السكينة ، وأعيد الامن والنظام الى كل مكان • وبعد ذلك جيء بأحمد فقتله الحرس المماليك ، وشنق أربعة عشر من أتباعه من بعده • ثم عهدت حكومة تكريت الى سليم آغا • وقد لخص شاهد عيان^٤ هذه الحوادث بما يلي :

« دام العراك وانتشرت الفوضى في المدينة مدة تتراوح بين الاسبوعين والثلاثة أسابيع وكان استهلاك البارود والقذائف (الكرات) والقوان فاحشاً • غير ان جميع القتلى والجرحى من الطرفين لم يتجاوز عددهم خمسة أشخاص • على ان هذا العدد قد ازداد كثيراً بعد أن استتب الامر لعلي باشا ونصب المشنقة فكانت ضحاياه كثيرة » •

ونظمت بعد هذا عريضة وقعها البغداديون قاطبة فبعثوا بها الى السلطان.

طالبين بها مصادقته على تعيين علي باشا • ثم أرسل الى استانبول بمبلغ يساوي ستين الف باون للغرض نفسه مع شيء قليل من لوازم سليمان باشا الثمينة • واستولى علي باشا والمماليك على بقية ما خلفه سليمان باشا • وبعد مضي أربعة أشهر صدرت ارادة ملكية بترفع الباشا الى رتبة وزير ، وعهدت اليه حكومة الباشا العظيم بأجمعها •

وتتكون مدة الجيل ° الكامل المتقضية بين تبوء علي باشا الحكم ونهاية حكم المماليك في العراق من باشويات علي باشا نفسه وأربعة آخرين من بعده • على أن نهاية هؤلاء جميعها لم تكن نهاية هادئة • وكانت المدة التي حكم فيها علي باشا ، البالغة خمس سنوات ، أطول مدة حكم بها مملوك من المماليك الاواخر عدا مدة داود باشا الذي كان آخر مملوك حكم العراق • وكان العراق خلال المدة المذكورة يشابه سائر ولايات الامبراطورية باستقلاله الذاتي وسوء استعماله ، وبحكم المستبددين المحليين الذين لم يوحّدوا حتى حكومة الولاية • وكانت مقدرات العراق ، طوال هذه المدة ، تلعب بها في استانبول القوى المختلفة ، والشخصيات المتعددة ، التي كانت تتزاحم من أجل الحصول عليه • على ان ما تمتاز به هذه المدة من الوجهة التاريخية أمور عديدة أهمها شخصيات بغداد ودسائسها ، وعصيان القبائل المستمر كالعادة ، وتهديدات نجد الاخيرة ، وسياسة الاكراد التي كانت آخذة بالتورط شيئاً فشيئاً مع الجيران الايرانيين • وسوف يبحث عن هذه الالوجه التاريخية بالتعاقب •

فأول عمل قام به علي باشا كان سيره لتأديب أكراد البلباس الذين سار

(٥) المراجع حتى ١٨٣٠ : دوحة الوزراء (الى ١٨٢٥ فقط) ثم كتابا سليمان بك مع كتاب ياسين العمري ومطالع السعود • ويقف غاية المرام ببحثه في ١٨٠٣ م ويقف غرائب الاثر في ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) • وأهم السياح هم دوپري (١٨٠٧) وبكينغهام (١٨١٦) وهود (١٨١٧) وبورتر (١٨١٨) وريج (١٨١١ - ٢٠) وويلستد (١٨٣٠ - ٣١) • ويذكر كتاب شانيزاده التركي شيئاً من المصادر أيضاً •

(٦) ان اول الاعمال التي قام بها علي باشا هو ما ذكره ياسين العمري بعد ذكره وفاة سليمان باشا من سنة ١٢١٧ قال : « ثم ظهر فساد بعض عرب

لئاديهم حسن باشا قبل قرن • فأجرى في هذه الحملة ابراهيم باشا بابان الهجوم بحسب خططه ، ولحق علي باشا بقواته التابعة في أربيل • فأذعن البلباسيون من غير مقاومة منهم كثيرة ودفعوا غرامة كبيرة من حيواناتهم • ثم عبر علي باشا من هناك الى الموصل فوجد ان مدة حكم محمد باشا الجليلي الطويلة كانت توشك أن تنتهي • وعزز هناك قواته بجيوش الباشوية هذه فسار للقضاء على لصوص جبل سنجار فأدت أساليب الحصار ، والضغط المتوالي ، الى طرد اليزيديين من كهوفهم ولاضطرارهم الى الاستسلام بشروط قاسية • وكذلك ضربت قبائل الجزيرة التي كان من السهل الوصول اليها وادبت • ومات في هذه الحملة ابراهيم باشا بابان فخلفه عبدالرحمن ، وكان فضل تسريحه من الحلة والعفو عنه بعدئذ راجعاً للقوضوية التي سبقت تسلم علي باشا كرسي الحاكمية في بغداد • وزحف الجيش من سنجار الى تلعفر ، وفيها حكم على محمد بك الشاوي وعلى أخيه بالاعدام وعلى ابن عمها الاصغر بالسجن • وكان سبب اعدام محمد بك ، وهو أعظم عربي بين رعابا الباشوية ، الحسد والخوف ، ثم ذكرى الخيانة التي اتهم بها في الحملة التي سبقت على نجد عام ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) واسندت اليه فيها تهمة مخابرة العدو ومخامرته لهم • ففر ابنه جاسم الى العبيد ، وتلا ذلك قتال بين العبيد والاكرد المليون ، أتباع تيمور باشا ، الذين ربما قاموا بعملهم هذا سعياً وراء ارضاء حكومة بغداد وذلك ليقبضوا على المنهزم • فخاب تيمور في مسعاه هذا كما خاب بعده رتل من جيش علي باشا جهز للغرض نفسه • وفي غضون هذا العهد حدثت فتنة في

العراق فأمر ولي النعم رب الشميم صاحب السيف والقلم علي باشا بالمسير الى تلك الفرقة الباغية فساروا اليهم ونزلوا عليهم وأذلوا كبيرهم ونهبوا شريرهم وعادوا الى بغداد منصورين » ولكن هذا الاتهام من ياسين العمري لم يترك للخبر قيمة تاريخية •

ثم قال : « وفيها أرسل والي بغداد الوزير علي باشا الى الموصل يأمر محمد باشا ليأمر سليم بك واخوته ومن معهم بأن يحاربوا أولاد حسن بن محمد الدياب (رئيس عرب الشاماك من طي) فركب سليم وأخوته وساروا الى حمام علي فوجدوا الأرض بلقعا وقد هربوا في البر ثم استولوا على أغنامهم سليم بك وهي أربعة آلاف رأس غنم وعاد منصوراً » - « م • ج » •

بغداد اضطرت علي باشا الى الرجوع • وقيل وصوله اليها كانت وطأة الطاعون فيها قد خفت بعد فتك الوباء بالناس فتكا ذريعا •

اما حوادث الباشوية الاخرى فقد كانت تتعلق اما بالوهابين واما بالاكراد الذين خصصت للبحث عن كل منهم جملة من الصفحات المستقلة • ومما يذكر هنا ان عدداً من الاغوات الامائل (ومنهم داود أفندي) لم يكن بوسعهم ان يجدوا مكاناً مريحاً في ديوان علي باشا الويل ، فتركوه الى البصرة وغيرها • وأدى الارتباب بتأمر خالد آغا الكهية مع البانين الى عزله واعدامه ، فخلفه في المنصب سليمان بك ابن اخت علي باشا • اما الحملات العشائرية فأهميتها قليلة • وقد حالت دون القيام بمحاولة أخرى للقبض على جاسم الشاوي في ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) حادثة خطيرة فجائية حدثت في كردستان • الا ان قبيلة هيجت على أخرى ، فطارد فارس الجربا مع رجاله من شمر العبيد والغرير وحمدان وأدبهم بشدة عند عبورهم الفرات • وحاولت الحكومة في ١٨٠٥ م اخضاع العبيد من جديد • وفي أوائل ربيع سنة ١٨٠٦ م قاد الكهية الشاب قوة وسار بها الى بني لام ثم الى ديار ربعة والمقاصيص • وفيما عدا هذه كانت سائر بلاد العراق هادئة بحسب مقاييس الهدوء لذلك الزمن • غير ان هذه الحال لم تبق الا قليلا ، فقد كان موت الباشا الفجائي القاسي ناشئاً عن أحقاد ذاتية • اذ كان مداد بك ، الاباطي الاصل مثل علي باشا (وكان ابن رجل قوقاسي خدمه علي في صباه) ، قد وصل الى بغداد قبل ثلاث سنوات • وقد سنحت الفرصة التي كان يترقبها منذ مجيئه ، وهي انه ظفر بعلي وهو يصلي فانقض عليه مع خدامه بالخناجر وقتلوه في الحال • وبعد ان فروا الى الخارج أخذوا يلتجئون من مكان لآخر طلباً للموازة أو التخفي • وقد خدعوا جند الكهية وهربوا تحت جنح الظلام الى الجانب الايمن من المدينة • ولم يحاول استغلال الحادث لنفسه ولا لمصلحة القتل الا ناصيف آغا • غير انه لم يرد عليه أحد ، وبعد ساعات قليلة جيء بجثتهم وجثته وعرضت

(٧) قال ياسين العمري : « وقبض علي باشا على اولاد صبغة الله أفندي الحيدري (العلامة الماوراني البغدادي الشافعي المتوفى سنة ١١٨٧) ونفاهم الى البصرة ، وكان علي ما قيل ان الوزير (كذا) يعرف الغدر ظاهرا من عيونهم (كذا بهذا السخف من التعليل العليل) » - « م ج » •

ولم يكن أمر تعيين خلف للبasha في هذه المرة شيئاً عسيراً • فكانت ، بعد علي الجريء المتعصب الشديد غير المحبوب ، شخصية ابن أخته سليمان باشا الجذابة مما يرحب بها الجميع • وكان سليمان باشا ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، مندفعاً غير متساهل ولا خال من الطمع ولكنه كان ذا صفحة بيضاء وفكر مستير ونيات حسنة وتفكير في الامور العامة^٨ • وكان له الحق في تولي الباشوية لكونه كهية الباشا وسليل بيته زيادة على كونه سيد بغداد الحقيقي • فبقي وكيلاً عن الحاكم مدة مديدة حتى عين الباب العالي ، بكل عقم ، يوسف باشا (وهو صدر أعظم سابق) للوظيفة الشاقة التي لم يكن بوسعها القيام بأعبائها • وبعد تأخر طويل وصل الفرمان بتعيين سليمان - المعروف بالصغير - وذلك في أواخر ربيع سنة ١٨٠٨م (١٢٢٣هـ) •

وفي خلال عهده الممتد ثلاث سنوات كانت سوية الامن فوق المعدل بوجه عام • ومع ان البصرة والموصل كانتا ممزقتين بأنواع الشغب ، فان الحملات العشائرية كانت قليلة ولم يقلق بغداد أي عنف وقتة • وقد خصص صيف ١٨٠٨م بحملة كردية وأخرى وهابية • وفي ١٨٠٩م (١٢٢٤هـ) استدعت الحال تجريد حملة أكثر مشقة ، فسارت يقودها الباشا الشاب الى أقصى حدود ولايته وذلك لقتال القبائل في أيلة أورفة • فكان نجاحه فيها أمراً يكتنفه الشك ، وقبل انتهاء الحركات الحربية اضطر الباشا للذهاب من رأس العين الى ماردين على أثر حادث مستعجل دعاه لذلك • فأعادت مساعدات تيمور باشا والشيخ فارس وغيرهما من الاتباع ، التي جاءت في الوقت المناسب ، المياه الى مجاريها ، ولكن مع تعدد وخيم العاقبة في داخل أيلة ديار بكر^٩ • وعندما عاد سليمان من ماردين الى الموصل وجد فيها حرباً أهلية قد تعاضم اوارها •

فقد ترك محمد باشا الجليلي حكومته لابنه محمود بعد ان حكم مدة ثمانية

(٨) ربيع (ص ٢٥) •

(٩) كان هذا التجاوز للحدود يعد سبباً من أسباب سقوط سليمان الصغير بصورة عاجلة •

عشرة سنة توفي في نهايتها • غير أن معارضة عفيفة قد بدأت بزعامة أسعد بك بن الحاج حسين باشا القديم • ومن نزاعات هذين الشخصين وقع الحكم لقربيهما نعمان باشا ، الرجل الضعيف في صحته الجائر في حكمه • فكان هذا ممكناً احتمالاً ، إلا أن تعيين أحمد أفندي فيما بعد وهو مجرد كاتب « سكرتير » لنعمان لا غير قد أثار عاصفة من احتجاجات الجليليين • وقد حاول سليمان بلا جدوى أن يقف الى جنب مرشحه • وكانت مقاومة الجليليين العنيفة بزعامة أسعد قد تعدت حدود مدينة الموصل ، فزجت الموصل وما حولها من البلدان في اتون من الفوضى التي كانت تلائم الكثيرين من أبناء الاسرة • فكان لا بد من ارسال نجدة من بغداد الى أحمد الهارب - وكان ما يزال الوالي الاسمي - وقد دبر قوة لا يستهان بها فضرب بها بشدة لاسترجاع حقوقه • لكنه ما قارب الظفر حتى قتل ، فأمسك الجليليون من جديد زمام الامر وانفجرت الازمة بالانقياد للضرورة • وأصبح محمود باشا والياً ، وتلاه في الولاية ثمانية حكام آخرون من نفس الاسرة •

أما البصرة فقد كان فيها سليم آغا (صهر سليمان الكبير) مسلماً في ربيع سنة ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) • وكثيراً ما كان يخالج نفسه الطمع في الباشوية فاستغزته من أجل ذلك أنباء وصول وفد سلطاني الى بغداد للتفكير في استغلال الفرصة وتحقيق الاماني • وقد وصلته في هذه الاثناء أوامر بغداد وهي تقضي بالتخلي عن المنصب • ولما كان معتمداً على قوة المتفكرين معتداً بنفسه أبى الاذعان لهذه الاوامر • وكان سيده في بغداد قد أوعز للمتفكرين أنفسهم بالسير اليه لاختضاعه وتنفيذ أوامر عزله ، فما كان منهم الا ان لبوا نداء الباشا فساروا لما أمرهم به • وبينما كان هؤلاء يسرون سيراً بطيئاً من الشمال ، والانراك يتقدمون عن طريق دجلة الى البصرة أغلق سليم أبواب البلد وجمع أمتعته وأشياءه في سفينة صغيرة • ولما أيقن ان حلفاءه الذين كان جل اعتماده عليهم هم أعداء له في الحقيقة ترك البصرة مبحراً الى بوشهر • وبذلك انتهى أمر العصيان ، ودخل البصرة أحمد بك ، أخو سليمان الصغير بالرضاعة ، وصار مسلماً فيها •

وعلى هذا عم نوع " من السلم في طرفي الباشوية • غير انه لم يُقدر للحاكم الحالي ان يتمتع طويلاً بهذا السلم • فقد تسلم عرش آل عثمان سلطان قوي

حديث • وكان هذا قد سمع من قبل بالاستيلاء المشؤوم على ديار بكر ، كما كان بوسعه أن يطلع بكلمة واحدة على مقدار ما كان يقدمه العراق من واردات • ولم يكن في الحقيقة من الممكن له انزال ضربة قاضية حينذاك ، وانما ارسل ممثلاً ذا رتبة عالية وهو « رئيس أفندي » حالت محمد سعيد^{١١} الى بغداد • فقابل البابا الصغير وطلب اليه أحد أمرين : أما دفع الواردات بصورة منتظمة واما التحلي عن المنصب • ثم رجع صفر الدين الى الموصل وفيها انهمك بجمع قوة كبيرة لا تغلب • فخف الى ممثل السلطان وتلبية ندائه محمود باشا الجليلي وعبدالرحمن ، رئيس البابانيين المعاصر ، وكثير من كبار الشيوخ مع قسم من المماليك المعزولين والمغضوب عليهم • فأعلن لهم خلع سليمان الصغير • ثم سارت نحو الجنوب قوة قوامها خمسة عشر الف مقاتل ، فكان اشتباك واحد كافياً للحصول على الامر المروم • فقد وقعت المعركة بعد ظهر اليوم الخامس من تشرين الاول ١٨١٠ م وانتهت بغروبه • وكانت النتيجة ان تخلت عن سليمان معظم قوته فاندحار تاماً ، ثم فر وحده فعبر ديال الى الجنوب وهناك قتله قبائل شمر طوقة^{١٢} •

ونشأت في الحال قضية تعيين خلف له • فوجب أن تكون الكلمة الاخيرة في هذا الشأن عند حالت أفندي الذي كان حاملاً معه فرماناً خلواً من الاسم ، ومخولاً كتابة أسم من يريد تعيينه فيه • بيد ان أعظم قوة مباشرة كانت بيد الباباني الذي جاءت به الى بغداد أطماعه وولائؤه كمنصب للملوك^{١٣} • فقد كان هو الذي قتل الاغوات الذين كانت تحوم حولهم الريب ، وهو الذي سعى بترقيع عبدالله آغا التوتونجي^{١٤} الى الهاشوية بعد اقناع حالت أفندي • فصودق على تعيين التوتونجي باشا للولايات الثلاث ، وقرىء الفرمان وتسلم البابا وظيفته ، فرجع

(١١) وزير الخارجية ، راجع عن سيرته تاريخ جودة (ج ١٠ ص ٥) •

(١٢) ان ما كتبه ريج يكاد يطابق المراجع الشرقية •

(١٣) ان المدونات التي تراعي جانب البابانيين تنص على أن حالت افندي عرض على عبدالرحمن الحاكمة فرفضها • وتقول مراجع أخرى انه طلبها فرفض طلبه • والمرجح ان الرواية الثانية هي الصحيحة لان تعيين الباباني لو كان قد تم لكان يعد خيبة تامة وعملاً خطراً ، ولكان قابله السلطان محمود نفسه بالرفض •

(١٤) لا تعرف أسباب تسميته بهذا الاسم

حالت أفندي مملوء الدين الى استانبول •

وكان عبدالله آغا ذا شخصية شاذة • فقد كان مملوكاً^١ اشتراه سليمان الكبير في البصرة ، وكان على عهد سيده قد اتفق مع علي آغا على قتل احمد • ثم تقلد وظائف عديدة ما عدا حاكمية البصرة وحاكمية ماردين • وكان المقيم البريطاني يساعد في ان يخلف سيده الباشا الكبير • وقد أقصاه علي باشا الى البصرة وفيها بقي حتى أمر باعدامه سليمان الصغير • إلا أن سليم آغا ، أحد أقاربه وزميله ، ساعده على الفرار الى كردستان وهناك بقي حتى مجيء حالت أفندي الى الموصل • اما طاهر آغا ، رفيقه في جميع هذه الاخطار ، فقد أصبح الصديق الثقة للباشا والكهية فيما بعد • وقد كان لعبدالله جلد في العمل وفكر متوقد وثقافة تؤهله للتحدث مع الاوربيين • وكذلك كان حراً في الديانة ، وجذاباً للقلوب ، وكثير السؤال في حديثه ، ومقتدراً في الادب كإقداره في شؤون الدولة • وقد حصل على سمعة حسنة نادرة في وظائفه التي تولاها سابقا • فكثر الواردات في أيامه من غير عسف وعسم الضبط بغير عنف • وكان أيضاً سخيّاً من دون تبذير ، وعادلاً في الحكم ، وسهلاً وصول الجميع اليه • غير ان مزاياه هذه لم تفده الا قليل فوائد في الحكم • فقد كان حزب سعيد - بن سليمان البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً - وغيره من الفئات الصغيرة التي يؤازر كل منها أحسد الاغوات المتنفذين ، دؤوباً في المعارضة مصرأ عليها ، كما كانت التبدلات العديدة التي أجريت ما بين الموظفين الكبار تدل على وجود تبرم مشوب بالحسد بين جدران السراي •

اما علاقته بعبد الرحمن باشا ، الذي صيرته الثورة قوياً ومخطراً ، فقد ركت وساءت • والحقيقة هي ان الحملة التي سبقت على البابائي في أوائل ١٨١٢ م (١٢٢٧ هـ) كانت أهم حملاته • فبرزت انتصاراته في كفري موقفه كثيراً • وكانت هذه في نفس الوقت ظفراً للدفتردار داود أفندي الذي سيذكر عنه الشيء الكثير • وبعد موقعة كفري تقدم التوتونجي الى كركوك والموصل لتأديب سكان البلدان غير الموالين ممن عاضد البابائين ، ولتطهير الدولة من أسوأ الموظفين ،

(١٥) ان قول هارفورد جونزبان عبدالله آغا من الاسر الكبيرة المحترمة في

بغداد غير صحيح •

ولعقاب العشائر في طريقه • وقد تمكن سعد الله باشا الجليلي في الموصل أن يقلب غضب زميله القديم عليه رضاء ، بمأدبة ملكية فاخرة • ورجع عبدالله الى بغداد في خريف ١٨١٢ م •

وقد قضى الشتاء في الاستعداد لحملة كردية أخرى • ثم صرف عنايته الباشا عن ذلك خبر سيء يفيد ان سعيد باشا ظهر في المنتفك فاستقبله استقبالا حسنا حمود الثامر الذي حاول عبدالله باشا عزله دون أن ينجح • فاشتغل الدبلوماسيون بين بغداد وسوق الشيوخ • وكان تصريح حمود في هذا الشأن بأنه لا يقصد أي سوء وغاية ما عمل هو ايواء « ابن أفندينا القديم » • وقد اشار الكثيرون على الباشا بعدم الاقدام على عمل تكون عاقبته حمل الممالك على ان يختاروا بين ابن سيدهم القديم وخادمه من قبل • غير ان الكمية طاهر آغا أصر على الحرب التي كانت في الحقيقة أمراً لا يمكن تأجيله • وفي كانون الثاني ١٨١٣م سارت قوات بغداد الى بلاد المنتفك • أما حمود والقسم الاعظم من قبيلته ، وأتباع سعيد الخاصون به ، وجمهرة المخاطرين ، والعصاة المتمردون الذين كانوا قد لجأوا في أوقات مختلفة الى الاهوار ، فقد تجمعوا في مكان على عدة اميال من البصرة • فكان عددهم قليلا بالنسبة للقوة التي سارت اليهم • الا ان عدداً كبيراً من جند العدو خامروا وانضموا اليه فتوسعت قوته توسعاً كبيراً • وفي التعرضات الاولى جرح برغش بن حمود جرحاً بليغاً • وربما كان الحظ قد ساعد الباشا فيما قصده ، الا ان فرار الجند من جيشه زرافات قد حال دون ذلك • فقد تخلى عن الباشا حرسه من الممالك وحلفاؤه من القبائل على سواء ، وانضموا الى سعيد وحاميه العظيم الخشن •

وقد ترك عبدالله وطاهر وبعض الاتباع وحدهم فباتوا في حال المنتجنين • فارسل حمود ، وهو المنتصر بغير دماء ، أخاه ليعرض عليهم سلامتهم ، فلم يجدوا بداً من الاذعان • فسلموا وارسلوا أسرى الى السوق وفيه كانت حياتهم معلقة على حياة برغش الذي كان يكافح لحياته ويقاسي آلام جروحه • وأخيراً مات فاتهي بذلك أجل الباشا وحاشيته • فقد شنقوا جميعا ودفنوا ، ثم نبشت قبورهم وأخرجت جثثهم من جديد فقطعت ارباً ارباً • وبذلك مات حاكم كانت صفاته نادرة المثال ، وكان مستقبله زاهر المال ، ميتة حقارة وذلة بعد ان أصابه فشل

مروع وخيبة ممضة • وما كان ذلك الا ليفسح في المجال لآخر بعده يقل عنه •
قدراً مئة مرة •

الوهابيون ١٨٠٢م (١٢١٧هـ) - ١٨١٠م (١٢٢٥هـ)

ان غضبنا الطرف برهة عن شواغل السياسة وعنفها في العاصمة فيجب علينا أن ننظر نظرة الى الالوجه الاخيرة من الخطر الوهابي • فقد بقيت الغزوات تشن كل سنة على القرى والمسيمين^{١٦} في غرب الفرات ، وتعدت فسي بعض الاحيان فبشرت الفرات الى الشامية فبلاد الزبيد • غير أن اسوار الرهص أخذت تحمي القرى ، كما أخذت الحاميات المعززة تحمي البلدان الكبيرة • وتعود المسيمون سوق قطعاتهم بخفة والابتعاد بها عن مواطن الخطر عند دنوه • والالتجاء الى أقرب آغا ومن يتبعه من اللاوند • فذلك لم يزد عدد المستقلين الى الوهابية من العراقيين •

وقد اعتقد ناس ان قتل عبدالعزيز بن السعود الشيخ الهرم في ١٨٠٣ م (١٢١٨ هـ) كان بتحريض من باشا بغداد • على ان القاتل كان « ملا » أفغانياً كان يقيم ببغداد ، وقد قتله انتقاماً لابنائهم المذبوحين في غزوة كربلا • وكان الغزو الوهابي لتنجف في الايام الاخيرة من تلك السنة بقوة أشد من القوى الاعتيادية ، غير ان قبة علي بن أبي طالب بقيت ثابتة داخل سورها المنيع • فخف علي باشا بتعبته جيوشه - الراجعة حديثاً من سنجار - واستعان بالقبائل التي كانت مستعدة أكثر منه لمقاومة القوة • وكان فارس ، شيخ شمر ، حليفاً ومشاوراً • فتقدمت القوة التركية الى الحلة ثم اجتازتها ، الا أن الغزاة هربوا فاختفوا عن الانظار • وفي ربيع ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) - الذي اجتذب فيه موسم الرعي قبائل الشامية الى البادية كالمعتاد - دهم الوهابيون القبائل هذه وعاثوا في المراعي فساداً من غير ان يردعهم رادع حتى أشرفوا على سور البصرة ، ثم قضاوا على مقاومة المتفكيين الذين وقفوا في طريقهم وقبضوا على أفراد الاسرة السعدونية • على انهم لم يكونوا كفأة لتغلب على دفاع المدينة حتى في الزبير التي استطاعوا عزلها وتجويع أهلها ، ولم يتقدموا أكثر من ذلك الى ان وقع حادث استوجب تسليم البلدة اليهم • فقد كان

(١٦) المسيمون جمع « المسيم » اسم فاعل من اسام الماشية يسيماها ، أى -

أخرجها الى المرعى ، قال تعالى « فيه تسيمون » •

حصن من حصون السور ، الذي احتشد فيه سكان البلدة اوائله ، يستعمل اذ ذاك مخزناً للبارود أيضاً ، فحدث انفجار فيه أدى ليس لتدمير الحصن وحده بل الحامية بأجمعها تقريباً . وتلا انسحاب التجديين العام ظهور حمود الثامر مع النجيدات المتفكية التي جاء بها ، فانضمت الى قوات المسلم ابراهيم آغا . وتلقى علي باشا في هذه الاثناء أمراً من السلطان بتدبير هجوم مقابل ، فجمع في أواخر ١٨٠٤ م (١٢١٩ هـ) قواته في الحلة . ثم تقدم جيشه الرئيس فقارب قاعدة العدو . وتوغل رتل صغير منه في داخل منطقة العدو ، غير ان العطش اضطره الى الرجوع^{١٧} فرجع ومعه من الغنائم أربعمئة جمل . وبقيت قوات ابن سعود بالقرب من حدود العراق . وقد عززت حامية البصرة .

وفي ربيع سنة ١٨٠٦ م شن الوهابيون غارتهم السنوية مما يقابل نجداً الشمالي . كما ظلت جماعاتهم الغازية متمادية في غزو قرى الحدود من الطف ولكن من غير ان تنال نجاحاً في ذلك . وكان سكان البلدان من الزبير الى السماوة مع حلفائهم من القبائل يصدون هجراتهم بكل سهولة . وقد اوشكوا ينجحون في غارتهم المفاجئة على النجف لولا ان عاجلهم النجفيون من السور فكسروهم شر كسرة . ثم هددت الزبير مرة ثانية ، وانتشر الهلع في البصرة نفسها . غير ان السهول المغمورة بالمياه عرقلت سير الابل ، ولما كان الوهابيون قد انهكهم الركوب خلال عدة أسابيع ، كانوا يحملون فيها جرحاهم معهم ، فقد تغلوا عن الضغط في الهجوم . ولما علم بنو كعب والمتفكيون خورهم وضعفهم هب الفرسان منهم لطردهم بعد أن أنزلوا فيهم خسراً ، ثم استنقذو القرى التي كانوا قد احتلوها .

وفي آخر سنة من عهد علي باشا وافت أنباء الهجوم السنوي الوهابي المعتاد . فسار البابا وعسكر في الحلة ، الا ان الغزاة لم يصلوا في هذه المرة . وتعاظم خطر التهديد في السنة التالية على عهد سليمان الصغير (كوجوك سليمان) . فقد وردت أخبار تنبئ بظهور قوة عظيمة من الوهابيين حوالي كربلا . فسببت هذه الاخبار ، المبالغ بها ، هلعاً ورعباً في بغداد نفسها وتسليح أصحاب الدكاكين والتجار بأجمعهم . الا ان الوهابيين لم يعبروا الفرات ، وكانت الحقيقة ان قسماً منهم استولوا على شفاعة وغزوا القرى والمرزات « حقول الرز » الى الحلة في عبر قناة

(١٧) كان قائدهم أحمد أفندي سكرتيرا (وباشا المستقبل) بالموصل .

الهندية الصغيرة ورجعوا بمجرد وصول الباشا الى الحلة • على ان هذا لم يكن آخر التعديات الوهابية ، وانما أخذت جهودهم في هذه الناحية تتضاءل بالتدريج فقل الخوف منهم • وبقي رعاة الفرات وغنمته لا يشعرون بالأمن والطمأنينة الى ان هجم المصريون^{١٨} على الوهابيين فخضدوا شوكتهم • وفي ١٨١٠م (١٢٢٥هـ) وصلت عصابة وهابية سالبة ، يقودها عبدالله بن سعود ، الى ما يقرب من بغداد • وكان الوكلاء الوهابيون يجبون « الخوة » من الرعايا العراقيين في مستنقعات كربلاء عدة سنين خلت من هذا العهد • وقد تطورت الحال فأصبحت تكتنفها العداوات غير المستقرة ، والغزوات غير المشروعة ، والفزع المتكرر ، والمخالفات وتبدلات العقيدة على حدود يستحيل الاتفاق عليها • وأصبحت نجد جاراً صعب المراس لا يرتاح اليه العراق ، كما كان خوفه من هذا الجار يختلف باختلاف الحاكم عليه • ومن سنة ١٨١٠م أخذ الامراء الوهابيون يسمحون بالتدريج بمرور القوافل الواردة من المناطق التركية الى واحات نجد ، كما سمحوا باستعمال العملة التركية • ولما كانت شراسة الوهابيين في البادية وعدم تساهلهم لم تقل وطأتها (ولم تقل حتى الآن) بقي ينبوع الخوف والخطر على الفرات هذا شيئاً ثابتاً ، وان الحوادث التي وقعت من هذا القليل في القرن العشرين لتؤيد ، ومصدقها منير ، ما وقع على عهد المماليك •

شهرزور في ١٨٠٢م - ١٨١٣م

لقد وصف من قبل الدور الذي كان قام به عبدالرحمن بابان بكونه ناصباً للولاية في بغداد • وقد كتب لابنه من بعده ان يعيد الدور نفسه بعد بضع سنوات • وتعد هذه القدرة على نصب الحكام وعزلهم في ولاية تركية عظيمة من ميزات الحكومة البابانية التي تسترعي انتباهنا • على ان اموراً أخرى من هذا الضرب يجب ان تسترعي انتباهنا أيضاً وهي تأثير دسائسهم المستمرة ونزاعهم الدائم في العلاقات بين ايران والعراق ، وفي طمس الحدود التي لم تكن مدة القرن الواحد

(١٨) أسترجم الحجاز من الوهابيين محمد علي باشا في ١٨١٢ - ١٣م وفي أوائل ١٨١٥م كسرهم محمد علي في واقعة « بيسة » المشهورة • واستولى في السنة نفسها طوسون على القصيم ، وانتهت حركات جيش محمد علي في نجد بعد حملة شاقة باستسلام عبدالله بن سعود •

بعد هذا كافيّة لتعيينها بالضبط .

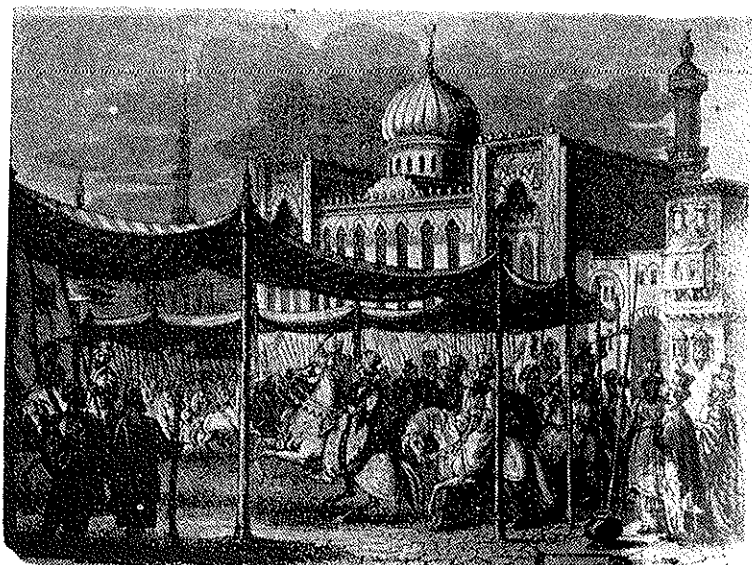
فقد بقي الباباني الموالي - الذي رجع لحكومته ثانية في ١٨٠٢ - يساعد سيده في بغداد باخلاص مدة من الزمن . فقضت قواته على الاضطرابات في العمادية ، وخدمت مع الحاميات التركية في الفرات . غير ان طاعته هذه لم تستمر . فقتل في ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) بكل شراسة زميله وخصمه في كوي محمود باشا - الذي كان شاركه في تأديب الشاوي الثائر - وأثبت من بعد ذلك بعدد من حوادث قطع الطرق والمظالم ان ولاءه لبغداد قد انتهى امره . فعهدت مهمة خلعه الى علي باشا الجليلي فكسر الكردي الثائر في آلتون كوبري قواته الموصلية والمساعدة شر كسرة . وقد نهب عبدالرحمن البلدة ، وبعد أن تأمل جثث عشرين من القواد الاتراك انسحب لتحصين موقع له في الدربند استعداداً لمقابلة الجيش الذي كان لا بد من أن يسير اليه من بغداد . وقد وصل الجيش حقاً ، لكنه خاب في الصمود له ولم ينقذ حياته الا الفرار العاجل وحيداً الى سنة . ثم تفرق أتباعه واعطي عرشه الى خالد أحد أقربائه .

ولم يكن الايرانيون قد تركوا ادعاءهم بشهرزور كما لم يكونوا صادقين عن العطف على البابانيين . ولما أخبر الشاه من سنة بالامر أقطع عبدالرحمن مقاطعة ما ، وكتب الى البابا في بغداد يرجو منه اعادته الى منصبه . فلم يكن الجواب عن هذا وعن طلب ثانٍ ذا فائدة . وانتشرت اشاعة في بغداد تؤذن بأن جيوشاً ايرانية كانت اذ ذاك محتشدة على الحدود وهي مستعدة لاحتلال الولاية وفرض ارادتها على العراق بصورة عامة . فغزم علي باشا أن يكون السابق الى الميدان . وقد ترك بغداد في أواسط صيف ١٨٠٦ م (١٢٢١ هـ) والتقى بحفائله الاكراد في شهربان . ثم عبر الحدود وتقدم نحو كرمشاه بالرغم من تحذير ضباطه الذين أبانوا له ان الاستيلاء على ايران يجب ان يكون بمصادقة من السلطان . ولم تصل أوامر السلطان الجازمة بالكف عن هذه الحملة الا بعد ان نهبت عدة قرى . اما الشاه فقد أمر ابنه الاكبر محمدعلي مرزا حاكم كرمشاه بحراسة الحدود ، وطلب الى والي أردلان مؤازرة الباباني الملتجئ . فترك علي باشا الحملة بعد أن أبقى الكهية (سليمان الصغير) لمساعدة خالد . ألا أن الكهية دخل أردلان بجنة هائلة فاشتبك جيشه التعب مع الجيش الايراني واسر هو .

بينما اخترق محمد علي مرزا الحدود فيما فوق خانقين ، وتوغل مسافة بضعة أميال في داخل أياالة بغداد ، ثم دخل في الوقت نفسه عبدالرحمن الى السليمانية مع الجيش الايراني .

وكان اسناد باشوية بغداد الى سليمان علامة لشمادي الباباني المتمرد في ارتكاب الشناعات الاخرى . فقد هاجم كوي ، وقاد غزوة الى الخالص عن طريق كفري ، فأعلن عزله من جديد . وقاد سليمان الصغير في أوائل صيف ١٨٠٨م جيشه من جديد لتأديب عبدالرحمن ففشل في الثبات مرة ثانية في الدربند ، وفر هارباً فالتجأ الى ايران ثانية . وقد نصب سليمان باشا في السليمانية ، في حين ان حرد خالد في كركوك أول الامر ثم عبر الحدود الى ايران مع ستمائة من اتباعه وهناك انضم الى عبدالرحمن . فلم يفسح ارتداد مثل هذا في المجال لباشا بغداد بشيء سوى التسليم بالواقع ، فسمح بعودة عبدالرحمن وعوَّض سليمان مقاطعات في مكان آخر . وفي هذه المرحلة ، التي كان فيها لعبدالرحمن السلطة العليا في شهرزور ، وقعت وفادة حالت أفندي وما كان من أمر المساعدات التي لا تتمن التي قدمها له الباباني . ونحن على يقين من ان امارات الاخلاص والولاء التي ظهرت على الامير الكردي الذي كان قبل عدة سنين خلت تارة متمرداً وتارة مستقلاً وطوراً محالفاً صريحاً للجيوش الايرانية على السلطان ، كانت صريحة وصحيحة .

وقد كلفه الغرور ، وثقته المفرطة بصداقته لرجال تركية ، حلفه مع الايرانيين . اما سياسة الحدود - والنزاع في سوج بولاق والخصومة في زهاو - فأُن والي أردلان وجد ان التوتونجي في بغداد أكثر فائدة له فيها من الباباني في السليمانية . وكان عناد الباباني سبباً في اشتداد البغضاء بينه وبين سنة في الوقت الذي كانت فيه علاقته الحسنة ببغداد وشبكة الانبثات . وبذلك أضاع معونة الفريقين ، وكانا كلاهما راغبين في نصب خالد واحلاله محله . وأخيراً انتهت الحركات والدسائس بنصب خالد في السليمانية وعبدالرحمن في كوي . وما رجعت القوات الايرانية حتى أزيل ما قامت به ، فدخل عبدالرحمن الى السليمانية من جديد ، وأخذ يزدري حكومة العراق فيغزو قرى أربيل وكركوك . وفي شتاء ١٨١١م أعلن في بغداد عزله من جديد ، ثم التقى في حزيران ١٨١٢م بجيش قوي كان يقوده عبدالله باشا في كفري . فكان الظفر في بداية اليوم حليف



موكب الپاشا عند خروجه



سوق في الموصل (سنة ١٨١٦)

ذلك الكردي الذي هاجمت خياله المدافع وتمكنت من ازالة العدو عن الخط الامامي • غير ان الممالك الذين كان يقودهم داود أفندي الدفتردار بكل بسالة كروا بهجوم مقابل فاكسحوا كل ما كان في طريقهم • ففر عبدالرحمن على فرسه من حومة الوغى وبنى المنتصرون منارة من رؤوس الاكراد • فكان لهذا الفوز وقع عظيم وفرح في بغداد • وأخيراً ، استبان ان الباشوية فرضت حقوقها على الاكراد العنيدون غير النافعين ، وصار بإمكانها ان تتمتع بثروة أوديتهم الباردة •

وبينما كان خالد يحاول مرة ثالثة تنظيم ولايته أخذ عبدالرحمن يتوسل من جديد الى الايرانيين • ومع أنهم لم يكن له في أنفسهم أي عطف كان ، فقد رحبوا بفرصة جديدة يؤيدون بواسطتها مطالباتهم بشهرزور • فطلب محمد علي مرزا الى بغداد ان ترجع الهارب الى مقره والا تكن الحرب جزءاً للسكوت عن اجابة الطلب • وكان معنى عودته خسران الثمار التي جنتها الحكومة العراقية في موقعة كفري الشهيرة • ولم يبق بد من مقاومة اعادته قسراً • وكان الميرزا قد اخترق الحدود بقوة مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل ، وبينما كان الباشا متهماً لسلوك الطريق اعرض عن ترك بغداد بسبب فرار سعيد بك الى المنتفك • وبذلك اعيد عبدالرحمن بسهولة لحكم السلطانية وكوي وحرير • وبعد سنة قضاه بالسلم مات سنة ١٨١٣ م (١٢٢٨ - ٩ هـ) فخلفه ابنه محمود •

سعيد باشا

سمع قاضي بغداد بنتيجة الحملة على المنتفك فأعلن الباشوية لسعيد ، وكتب الى استانبول لتصادق على ذلك بحسب العادة • ودخل سعيد باشا الى بغداد دخولاً رسمياً ، يصحبه حمود الثامر ، في السادس عشر من أيار ١٨١٣ م ، ووصل فرمانه في أواخر حزيران • وكان سعيد حينئذ في الثانية والعشرين من عمره ، ولم يك قد اضطلع بالمهام العامة بعد • غير ان ما كان يأمله الجميع هو ان شخصيته المحبوبة وأخلاقه الدمة ربما كانت تنم عن قابليات تليق بسمعة أبيه • وأعلى منصب الكهية الدفتردار الاديب داود أفندي • فكانت علاقته بابن سيدم القديم علاقة زوج الاخت وعلاقة المعتمد ، والمرشد ، والوزير الاكبر • ومع انه لم يشغل وظيفة الكهية الا زمناً قصيراً ، فانه حفظ رتبة الدفتردارية لنفسه ، وأدار في ١٨١٣ و ١٨١٤

امور سلسلة من الحملات العشائية في دجلة والفرات • فأعاد لرأسه الزبيد شفلح الشلال ، ومر بالخزاعل ، ثم أزال الحصار القبائلي عن كربلا في موسم الزيارات وفي حملته على قبائل عفاك في ١٨١٤ م (١٢٣٠ هـ) حصلت له سطوته و ضبطه للجيش النادر المشال على الغاية التي سار من أجلها من دون أن يضرب ضربة ما • وفي ١٨١٥ م أدب الخزاعل بصرامة • وبعد سنة قضى على التحالفات القبائية الكبيرة في العراق الغربي • وقد استنجد شيخ الخزاعل المعزول بشمر والزبيد طالباً اليهم المعونة ، فرد الباشا على ذلك بطلب المساعدة من المنتفك والضفير والعييد • ومع ان جانب الحكومة كان هو المنتصر في هذه الحملة وغيرها فقد كانت القلاقل وحوادث التمرد آخذة في الازدياد • فتطور النزاع العريق في القدم بين حزبي مدينة النجف - الزغرت والشمريت - وانقلب الى عراق علسي • وأخذ سكان البلدان يطردون الحكام الذين كان يرسلهم سعيد • وحدثت اضطرابات خطيرة في كركوك فاستقامت عدة شهور •

وكانت الحال في بغداد تتطور آخذة شكل ثورة من الطراز المعروف في التاريخ الشرقي • فلم يكن مشاورو الباشا ، في غياب داود أفندي وبعد سقوطه ، غير أم مجنونة ، وصديق لا قيمة له ، ورجل مضحك • وكان قد سبب له توزيعه للوظائف في أول الامر استياء من كثير من الذين كانوا يميلون اليه ، وزاد في الطين بلة اسرافه المفرط • على ان حب الناس له لم يتبدد فوراً • فقد ازدهرت التجارة وكانت الاختلاسات نادرة ، وكانت أهواؤه للشهوات غير مصحوبة بطبع العائني المستبد • وعلى هذا كان اعتداله بالذات السبب الرئيس في سقوطه • وقد حوفظ على الحالة الملكية المترفة في الديوان • ولأجل المحافظة عليها ، ولدفع نفقات الحرس من الممالك كانت تؤخذ القروض من أناس من الشعب ففسد ديونهم بكل التدقيق بحوالات على واردات الكمارك • غير ان الاختلال الآخذ بالنقشي في ثروة البلاد وقوتها وأمنها الداخلي كان ظاهراً للعيان • وقد انحطت ادارة الامن والنظام في بغداد الى حالة مؤسفة • فكثر الشجار العنيف بين العقيل ، وتفشت سرقات العصابات من اللصوص من غير ان يقتص لها • وكان الوجوه من الناس بين محرضين على هذه الارتكابات ومستفيدين الفوائد من الاسلاب •

وكان داود أفندي يومئذ الرجل الثاني في الباشوية • فقد بدأ بالخدمة وزيراً مخلصاً فعلاً ، غير ان أسباب تغير الباشا عليه كانت تعمل عملها • فكان حسد الخصوم يثير في الحاكم المخنث المخاوف بوضع قصص المؤامرات لقتله • ووضعت فكرة مقابلة الشر بالشر على بساط البحث ، وسرعان ما وصل حديث ذلك الى سمع داود • فتوسعت شقة الخلاف بالحماسة الممزوجة بالخرف التي كانت تتصف بها نبي خانم أم الباشا ، وكان منضماً اليها خليل الباشا وصفيه حمادي آغا • على ان داود من جهته لم يقصر في الاتصال بصديق له في استانبول وهو حالت أفندي • فنقلت اليه أوفى التفاصيل من أخبار انحطاط الحالة في العراق ، ورويت له الحوادث - وكان قسم منها من نسج الخيال - التي كانت تظهر سعيداً بأكثر الألوان كدرة • فعزمت الدوائر العليا ، ان لم نقل أعلاها ، في العاصمة على جعل داود مكان سعيد •

وكانت الحال المؤدية لذلك سوء تدبير الباشا الشاب في قضية البابانيين • إذ كان سلفه في الباشوية قد ترك محموداً في السليمانية ، وسليمان باشا (الابن الأكبر لابراهيم) في كوي • وقد بقيا على هذه الحال مدة سنتين هادئين • على ان مدعين عظيمين بالعرش الباباني كانا يترددان الى بغداد • فحصل أحدهما ، وهو خالد المحارب القديم ، على حكومة أربيل أولاً ، وعلى حكومة كوي بعدها • ففر سليمان باشا حسب المعتاد الى المرزا في كرمنشاه • وفي ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ) عين سعيد من دون روية المقرب الآخر له عبدالله باشا أخا عبدالرحمن حاكماً للسليمانية • فاستجار محمود بآبران ، واستعد سعيد لتأييد مرشحه وتمكينه بالسلاح • ووصل في هذا الوقت مندوب من استانبول ندب لكشف حالة الحدود وتقديم تقريره بمشاكلتها من حيث وجهها العام • فأقام مدة ما ادرك خلالها ضعف سعيد ، ومقدار تدخل الإيرانيين ، وسوء الادارة الشائن في العراق • وبعد أسابيع قليلة تبين ان سعيداً قد عزل •

وبقي عبدالله باشا بابان في كركوك • ومن بغداد ترك جماعة من الاغوات المتقدمين سفينة الباشوية المشرفة على الغرق وتجمعوا في كرمنشاه • ثم انحاز عدد من الرجال الامثال الى جانب داود أفندي (الذي كان خارج وظيفة الدفتردارية) وبينوا ارجحيته للمنصب الاعلى لمن كان مستعداً لسماع ذلك • ولما غادر بغداد

وفي أيلول ١٨١٦ م^{١٩} تبعه كثيرون من الموظفين الكبار السابقين والحاليين الى السليمانية على طريق زنگباد ، وهناك لقي من محمود باشا بابان ترحيبا تملق وهتف به حاكماً مقلداً للعراق . وكان محمود باشا مستعداً لإعلان انشقاقه النهائي على ايران اذا تأكد بأنه سيخدم باشا في بغداد مستأهلاً للإخلاص . ولذلك حدث تجمهر عام للمنفين والناقمين . وقد صحب هذه الجماعة المهاجرة من كرمشاه سليمان باشا (الذي كان أخيراً في كوي) . وأرسل من السليمانية بعريضة داود الرسمية الى استانبول لتعيينه لپاشوية العراق . وبعد أربعين يوماً تحرك الى كركوك وخيّم في قرية على مسافة ميلين منها . وكان قد أصدر أمر التعينات للوظائف المختلفة ، فأعطى كل آغا حصته من الغنمة .

وقد تلا عزل السلطان لسعيد ترشيح لم يكن يتوقعه الا القليل من الناس . فقد أنعم بالايالات الثلاث علي أحمد بك - أخي سليمان الصغير بالرضاعة ومتسلم البصرة أخيراً - وكان داود قد رفعه لمنصب الكمية . ألا ان الامر هذا قد الغي بعد أيام قلائل ، لكن هذا الالغاء لم ينفذ حتى وصلت منه نسخة اعتماده فقبلته أكثرية السكان والحامية ممن هتفوا لداود من قبل . فطلب اليهم داود ، قلقاً مستربياً ، الوفاء بوعدهم الاول والثبات على موالاتهم له . فكان جواب ذلك هجوم أحمد على مخيمه . وتمایل اشراف كركوك بينهما لا يعلمون الى أي الفريقين ينحازون ، فلم ينحازوا الى أي جهة كانت . وظل داود على حال أحر من الجمر متوقفاً مصيره ومتربحاً وصول الـ « قوچي » من استانبول في كل لحظة . وبعد أن قاسى كرب وضعه المقلق وصل الحجاب السلطانيون يحملون رق تعينه بيك البيكات « بگلربگي » لبغداد والبصرة وشه رزور ، ودخلوا المخيم في قرية طوقماقلو في تشرين الثاني . وبعد اسبوعين تقدم الپاشا الحديث نحو بغداد بطريق طسوز وكفري .

وكان سعيد ، السيء الطالع ، قد بقي يتخبط في لجج الحيرة بعد فرار زوج أخته من بغداد . فقد بدل الموظفين في كل وظيفة ثم استبدلهم ثانية محاولاً إرضاء

(١٩) الموافق ١٢ شوال ١٢٣١ للهجرة (دوحة الوزراء) « المؤلف » وقد تقدم ان سنة ١٨١٦ الميلادية توافق سنة ١٢٣٢ هـ ، وأولها ٢١ تشرين الثاني يوم الخميس - « م . ج » .

الجميع وقاصداً الحكم براحة ولو مدة قصيرة • وبعث الرسل المستعجلين الى حمود الثامر • فأسرع في تلبية الطلب وجاء بقوة منتفكية ، وكذلك قدم عبدالله باشا من كركوك ، وبعده خالد باشا من كوي ، وبعض القطعات • فكونت هذه مع جموع اللاوند في المقر العام ، والحامية الانكشارية ، والعقيل ، والمشاة من التفنكجيين والبرطلين والقلباقلين جيشاً يستطع الوقوف في وجه داود وأكراذه الذين أشرقت جموعهم على سور بغداد • على ان ما كان يفرح سعيداً أكثر من كل شيء أشد الأعداء : المجاعة والفقر • فقد ارتفعت أسعار الطعام والمأكولات بسرعة • وكان من الضروري اطعام القوات العربية والكردية التي خفت للانجاد • غير ان الخزائنة كانت قد أصبحت فارغة منذ مدة • وتمادت الجيوش النظامية والاجيرة في المطالبة بالرواتب الحالية والسالفة المتأخر دفعها • وكان قلق القبائل يزيد في كل يوم يمتضي على غيتهم عن مواطنهم •

غير ان النجاح الاول كان لهم^{٢٠} • فوقع الاشتباك الاول في اليوم السابع من كانون الثاني لسنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ) • وكانت مقدمة جيش داود مجتمعة من غير خيام في مدى رمي مدافع القلعة • ففاجأهم خمسمائة فارس منتفكي وأدهشهم قاطبة ففرقوهم • وكاد ان يهلك داود نفسه ، فتراجعت قوته الى مكان أبعد من ذاك بغية الانتعاش والاستراحة وجمع الشمل • وقد تسرب الغرور الى نفس سعيد فوجد فيها مسوغاً لصرف القوات التي لا قبل له بأبقائها ، ثم رخص لقوته المنتفكية بالانصراف • ولذلك رجع حمود منتشياً نشوة الظافر • اما بغداد ، ففي أيام الفرج هذه^{٢١}

« سادت فيها الطمأنينة بصورة غير اعتيادية حقاً » • ثم فتحت أبواب المدينة بعد ان بنيت فتحاتها • « وكان الشيوخ عامة غير عارفين للطريق التي يسلكونها • • • • • فأنسوا في أنفسهم قناعة كافية يميلون بها الى تشدان الآمال المعسولة المعلقة على سعيد الشاب • ولم ينتهز الباشا نفسه فرصة النجاح الحاصل لشيء • • • وفي الحقيقة لم يبق ما يذكره بتلك المعارك الدموية التي وقعت قبل

(٢٠) هود (١٧٤) ، لكن كتاب « دوحة الوزراء » الذي يطنب في مدح داود دائماً يتجاهل هذه الواقعة •
(٢١) لدينا عن هذه الواقعة رواية هود وهو شاهد عيان

أسبوع تحت السور سوى الاشاعات غير الاكيدة بالخطر المهدد ، وعزل جماعة من الموظفين ثم تعيين غيرهم ، والهمسات التحذيرية بين حين وآخر من تعاظم بقوة داود واقتراب رجوعه » •

وقد عظم صوت هذه الهمسات وكثر وضوحها • فأخذ عدد من الرجال الكبار يتسللون بهدوء من المدينة ، ولاقت دعوة سعيد في جمع الجنود الاجيرة مقاومة • ولم يكن وكلاء داود خاملين ، فان كتائب الممالك سبق لها ان فسدت نياتهم بعض الفساد ، وأخذ كثيرون منهم يفرون جماعة فجماعة • وبدأت ثورة علنية في محلة باب الشيخ الذائعة الصيت • وبقي سعيد في ضعف حال لا يستطيع معه التصميم على شيء • فلم تكن جهوده منظمة ، ولا ثابتة ولا جدية في التغلب على العصيان والجرائم • وقد ملأ الازقة الضيقة المظلمة في بغداد النزاع غير المجدي ، وغير المنظم ، الذي استمر خمسة أيام كانت مفعمة بدوي المدافع وقرقة البنادق ، وبأهازيج الحرب العنيفة ، وأنشيد الانكشاريين : (گلبنات)^{٢٢} ، وأنين الشهداء المجندين في هذا النضال الذي لا أمل فيه • وفاتته تلك الفترة باقتراب جيش داود المتكاثر الرصين وشوهد من أعالي السور • وعندئذ انسحب سعيد مع بضع مئات من العقيل الى القلعة •

فدخل داود دخولاً رسمياً في العشرين من شباط بعد أن دعاه لذلك بوجوه المدينة وأشرافها • فردد اسمه في الاسواق ، وتلي فرمانه في السراي • وأخذ يدعو من في القلعة الى الاستسلام في كل يوم ويقوي مركزه في المدينة ، فأعيد نظام مشبوه وملئت الوظائف كلها ، ثم دخل جيشه الرئيس الى المدينة • ولملاقات سعيد الرحمة بزواج أخته ، ولموقفه السلمي فقد هدأ شيء من روعه •

(٢٢) قال ياسين العمري في حصار طهماز نادر شاه للموصل سنة ١١٥٦هـ (١٧٤٣م) : « ذكر لي كثير ممن كان في حصار الموصل ان أهل الموصل كانوا يقرأون في الليل على السور شيئاً باللسان التركي ويسمى گلبند كما هو عادة الينكجيرية فاذا تم ، صاح كل من حضر بأجمعهم « الله الله » • وحكى من كان في عسكر طهماز ان العساكر اذا سمعوا ذلك وقع في قلوبهم الرعب « والشيء بالشئ يذكر - م • ج »

وأمر أتباعه من العقيل^{٢٣} بترك القلعة •

« وفى ليلة الانسحاب نفسها ... أبرز آغا الانكشاريين الحديث بسكوت ختم توليه السلطة فى أبواب القلعة ... فعرف مقصد ذلك ، وانسحب الحرس ... وعندما طلب الدخول من باب القيطون « المخدع الخاص » ، الذى كان الشاب السبيء الطالع قد انسحب اليه ، كانت الام القلعة (المتشائمة بالسوء) واقفة تمنع الداخلين وهي وجلة • على أن الساعة المقتربة وحضور السيد^{٢٤} المنتقم قد سبق انذارهما لها بالصدق الميث • وبينما كانت الام تعانق ابنها وتفديه بنزع مضطرب وهي تصرخ متضرعة طالبة للرحمة ... انزلت ضربة قدوم حرب « بلطة » بالفريسة ، فبقي بيد الام الثكلى الجسد وحده مجرداً عن الرأس^{٢٥} •

الملوك الاخير

ليس بين الشخصيات التي ورد ذكرها فى هذه الصفحات شخصية يصعب الحكم عليها مثل شخصية داود • فقد ولد فى تفليس سنة ١٧٦٧ م (١١٨١ هـ) ، وجيء به الى بغداد عام ١٧٨٠ م ، فبيع أول مرة ثم بيع ثانية واعتنق الاسلام ، حتى انتهى به الامر الى دار سليمان الكبير • وسرعان ما بات مواهبه الادبية الى جانب مهارته فى استعمال السلاح التي كانت عنده من قبل ، وأظهر اقتداراً فى ممارسة أمور الدولة الرسمية • فقد صار فى بادئ الامر كاتباً خاصاً - لأنه كان يجيد الكتابة بالعربية والايرانية والتركية جميعاً - ثم جعل أميناً للمفاتيح ، وحامل الاختام من بعد ذلك • وقد أثار زواجه بأبنة سليمان الجسد والريبة فى نفس علي باشا ، الذي كان داود فى ايامه ملاً مجداً يسكن عند عتبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ثم صار دفترداراً فى عهد عبدالله التوتونجي ، وكهية ثم دفترداراً فى عهد سعيد ، وقد ذكر شيء من سيرته بعد ذلك المنصب قبل هذا •

وكان عند توليه الحكم قد بلغ الخمسين من عمره • وكان بشوشاً فسي سلوكه غير متصنع فى معاملاته ، كما كانت ظرافته تستعبد أشد مناوئيه وتجذبهم

(٢٣) ان تحيز صاحب « دوحة الوزراء » الحزبى حداه على ان اتهم سعيداً بالتحريض على ثورة مقابلة فى هذه المرحلة •
(٢٤) السيد عليوي (٢٥) هود (ص ١٦٩ - ١٧٠)

اليه • اما مظهره فقد كان مظهر الرجل الجميل الملتحي ذي الطول المعتدل الذي تجلله الحشمة والوقار ، وتبين على وجهه امارات الدعة والذكاء • وكان ديوانه - أعرق الدواوين التي عرفتها بغداد وأكثرها سمواً وازدهاراً • غير انه كان يظهر الجبن والتردد في مناسبات خطيرة ، وفي مناسبات أخرى كانت تستفحل فيه البسالة • ومن الغريب انه كان يؤيد التقدم العلمي والثقافة العقلية ويشي عنهما أيدٍ أخرى • وكان كرمه مصحوباً بجشع مسنون • ولم ينجه ذكاؤه ، الذي لا ريب فيه ، من أذى أنواع الحماقات وأكثر الاحكام خطأ • ولم يكن وفياً في معاملته للأشخاص ولا مستقراً على حال • وكان فيه مس من السجاياء العالية وشرر من الشخصية الفردية ، وهو الامر الذي رفعه من دركة المملوكية الحقيرة الى درجة الباشوية ، مع انه بقي أقرانه (الذين يشبهونه في الطراز) يتسكعون في عالم الملالي المتقشفين • ومع تقدمه عليهم فقد بقي فيه الشيء الكثير من أحوالهم • غير أنه ، وان لم يكن عظيماً بالمعنى الحقيقي ، كان ذا شخصية بارزة بأكثر مما يحتويه الحكم من مظهر فخم وسلطان متسع • ولو قدر لحكام أقوى منه وأعدل أن يلاقوا شتى الاحوال التي مرت عليه ، بعد ابقائه خمسة عشر عاماً في عز وثروة ، وقذفه خارج بغداد وهو حقير لا يملك شروى نقيز ، لتقهقروا عنها خائبين •

وكان توليه الباشوية معروفاً بالاعتدال العظيم وبأطيب الآمال التي عقلت عليه • فقد عفا عن ثوار كركوك والاسرة البابانية ، واستطاع أتباع سعيد أن ينقذوا أنفسهم منه بدفع غرامات باهظة له • غير ان خطة الاعتدال المستدام ، لم تكن لتألف مع الزمن وما يتطلبه في شتى الحالات • فان « القبوجي » الذي جاء بالفرمان لم يكن من المناسب أن يرجع صفر اليدين ، وكانت الخزانة فارغة ، وجميع الضرائب موقوفة ، والجنود بمختلف صنوفهم لم تدفع لهم رواتبهم منذ مدة • وكان أنزال العقاب على جماعة من موظفي الباشوية السابقين من مقتضيات توطيد الامن ، كما كان تأديب آخرين غيرهم مما تسوغه روح الانتقام ، وكان الضغط على فريق آخر منهم يعد من قبيل الاكراه^{٢٦} • ولم يكن بوسعهم أن يعدد نفسه

(٢٦) كان يعتقد في بغداد على هذا العهد ان السجن والتعذيب كانا من الامور الشائعة في أول ادوار هذا الحكم • وقد سمع كييل في سنة ١٨٢٤م

لمهام الحكومة ما لم تنطهر العاصمة من الناس المخطرين ، وما لم يدخل الخزينة شيء من المال ، فيدفع للجنود رواتبهم ، ويعترف بالباشا في كل أرض وصقع .

وتعرف مدة نصف الجيل التي امتدت خلالها باشوية داود بخلوها من الحوادث المهمة . فالاضطرابات الداخلية لم تخرج عن الطراز المألوف . والعلاقات بايران كانت شيئاً ذمياً الا انها لم تكن في وضع حاسم . وكانت ادارته - التي ينتقدها الاوربيون المطلعون بتسديد - تتمتع بنفوذ كاف لضمان الطاعة التي لم يتوصل لضمانها من كان أحسن منه من الحكام ، وبطمأنينة ظلت تذكر بعده مدة طويلة . وقد خصص خريف عام ١٨١٧م (١٢٣٣هـ) وشتاؤه لحملات على القبائل قصيرة فعالة ، وكانت هذه اولى الحملات الكبيرة التي اضطلع بها الكهية المقسدر غير الهباب محمد آغا . وسواء كانت هذه الحملات على بني تميم أو شمر أو ابو موسى أو بني عمير أو الغرير ، وسواء كان الكهية نفسه يقودها أو أي ضابط أقل منه رتبة ، فانها كانت تكلل نتيجتها بالظفر من دون أن تراق فيها الدماء . وكان يتلو نهب مواشي القبيلة حسب العادة في كل من هذه الحملات تبديل الشيخ واخلاق القبيلة الى السكينة بضعة أشهر . وفي حملات ١٨١٨م الاولى غُرم الدليم بمقدار البقايا التي استحققت عليهم من قبل ، واخضعت عشائر شمر الجربا بالكلية ، ثم جردت قبيلة اليسار ، قرب الحلة ، عن حيواناتها . وقضت على شمر طوقه ضربة سريعة من بغداد . وفي أواخر السنة نفسها نشأ وضع حرج بفرار صادق - أكبر أبناء بويوگ سليمان الاخياء - الى قبائل زبيد ، بينما كان جاسم الشاوي ملتجئاً الى الخزاعل من قبل . فانضمت قوات الاثنتين بعضها الى بعض كما انضم اليهم ناس من الناقمين الساخطين . وكان من الطبيعي أن يخشى داود ، الذي كان مشغولاً بشؤون البابانيين ، تكرر حوادث ١٨١٣م في عهده هذا فتؤدي لدخول ابن من ابناء الباشا الكبير الى بغداد على اكتاف القبائل فمزل شفلح ، شيخ زبيد ، وعرض على صادق معروضات ودية . وبعد أسابيع قليلة أرسل رتلًا

(١٢٤٠ هـ) ان ١٥٠٠ شخص كانوا قد اعدموا . ويذكر غروفر ان صالح بك « كان الرجل الوحيد من الاقارب الذي ابقى داود على حياته » ، وهذه مبالغاة عظيمة . غير ان « دوحة الوزراء » يجعل ضحايا هذا العهد البشرية اثنين فقط .

لمطاردة العصاة فنشئت قواتهم والتجأوا طالبين النجاة الى قبائل^{٣٧} أبعد • وفي حملات أخرى لسنة ١٨١٨م كسر الصقور ، فرع من غزوة فى غرب المسيب ، الآغا المرسل لقتالهم شر كسرة • واحرزت حملة ثانية سيقت على شيخ ثائر من شمر انتصاراً سهلاً وظفرت بغنائم وافرة • ونجحت حملة ثالثة سيقت لقتال قبائل البادية فيما يجاور النجف • وحدث عكس هذا فى مكان آخر فى تشرين الاول ١٨١٨م ، اذ تفوقت على ارتال منتخبة من المالك الحرس قوة قبيلية أقل منهم شأنًا ، فقتل كثير منهم واسر ثلاثمائة • فاقضى ذلك حشد قوة كبيرة بقيادة الكهية فى الحال •

ولا تعرف أهداف الحملة التي سيقت بعد ذلك التحشيد معرفة واضحة ، الا أن الحركات (التي يصفها بايضاح كاتب^{٣٨} انكليزي زار محمد آغا فى معسكره) تقدم لنا نماذج منتقاة من « سوء التدبير الغريب ، والاضطهاد الوحشي ، الذي كان يمارسه الاتراك تجاه فلاحهم^{٣٩} » • فإن الكهية لم يبلغ مقصوده بقوة السلاح ولا بالتسوية الصلحية الحكمية ، وانما نجح فى اقتناص عشرة من الشيوخ الثائرين بأشع خيانة فبعثهم فى أسر حقير الى بغداد • ولم تجد نفعا حتى هذه الضربة ، فى تهدئة الفرات الاوسط ، فإن رجال البادية الذين هاجهم انتهك حرمة الشرف والعفة أخذوا يشنون غاراتهم على طول منطقة الفرات الاوسط وفى عبره • لكن غزوات الكهية المقابلة التي كانت تشنها العشائر الموالية كانت ناجحة وقد انتقلت ساحة الحرب من حسكة الى عك ، ومن هناك فى اتجاه دجلة الى البغلة ثم رجعت الى أهوار الشامية • وأخيراً كُسرت المقاومة ، وجمعت الغرامات الجسيمة ، فعاد محمد آغا الى ترحيب واستحسان فى بغداد •

وكانت أهم حملات ١٨١٩ على الدليم الذين فرق قسم كبير منهم عند عبورهم الفرات فارين من الجيش الذي جفلهم قدومه على حين غرة • وقد نوقشت الحساب قبائل أخرى مثل زوبع والجميلة والبو عيسى • وفى النهاية اقتضى الامر سير الجيش الى شقانة • فجمعت بقايا الضرائب من كل مكان ، وانعم

(٣٧) وقد عفى عن صادق بك فيما بعد •

(٣٨) پورتر

(٣٩) ريج

بالخلع على المستحقين • على انه بقي ، من جهة أخرى ، شيء كثير من عملية التهدة بين القبائل والمدن ما لم توفق له الحسنة • وقد افزع سكان الحدود في منطقة مندلي ثائر^٤ شهير يدعى السيد صالح • اما الشمال فان النصوص المزمين المتأصلين في سنجار منه قد انتشرت جماعاتهم في الطرق المؤدية الى الموصل وماردين ، وكانت كل جماعة منهم متألفة من عدة مئات ، فكان من بين المسلوبين فوارس التتر^٥ الذين ينقلون البريد ، واضطر المسافرون الاوريون للعدول عن سلوك هذه الطريق • ولم يكن بوسع باشا الموصل ، الذي كان غير آمن^٦ هو نفسه ، أن يعيد النظام الى نصابه • وكانت الجرائم وحوادث الارهاب مستفحلة في البصرة • فدخلت المدينة في حزيران ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ) ثلة قوية من النجديين ، وهاجمت السراي فكادت أن تستولي عليه ، ثم انزلت الرعب في القلوب وارتكبت جريمة القتل في الاسواق •

الغزوات من كرمنشاه

تعد حادثة استيلاء امير كرمنشاه على العراق محور الحوادث الواقعة في أيام باشوية داود • وقد أعقب هذه الحادثة استيلاء ثان مثله شدة ، ووقوع حرب أهلية خطيرة • وهذا ما يدعو الى القاء نظرة على العلاقات الايرانية العراقية العامة لبضع سنين خلت ، وعلى السياسة التي انتهجها البابايون منذ تولى داود الحكم •

فلم تلك ايران ، خلال العشرين سنة المضطربة من النضال ، التي ابدلت فيها السلالة القاجارية من سلالة الزند المالكة ، متفرغة للاهتمام بشؤون العسراف • والحققة ان آغا محمد ، الخصمي الشيطان الذي أسس السلالة القاجارية ، كان يرمق العراق بعيون مستطلعة نحو العتبات المقدسة ، لكنه لم يكن بوسعه أن يحرك ساكناً للاستيلاء عليها • كما أن فتح علي شاه ، الذي خلفه في ١٧٩١م (١٢٠٦هـ) واستقام مدة تولي حكم العراق فيها عدة باشوات ، كان معروفاً بميله أكثر من سلفه للاستفادة من أسباب الحرب الكامنة التي تتولد كل سنة في كردستان •

(٤٠) الططر أي الغرائق والفيج

(٤١) تولى أحمد باشا الجليلي في ١٨١٣م بعد سعد الله باشا فأعاد بناء السور • وقد نقل في ١٧١٧م ثم أعيد في ١٨١٩ ، وكان حسن باشا هو الحاكم في غيبته •

فكانت الاعصاب تزداد توتراً في العراق كلما كان الناس يسمعون بعظمة البلاط
الايرواني واستقبال الدبلوماسيين الاوريين فيه . وكان الاعتداء الوهابي يلاحظ
بكل اهتمام من طهران ومن استانبول على سواء . وقد رددت ايران بأجمعها
صدى نهب كربلا وضريح الامام الحسين . فلم يك تأثير هذا الاعتداء الديني
أشد في غير ايران ، كما لم تكن فرصة أخرى للتدخل في شؤون العراق سانحة
مثل هذه الفرصة . وأحسن ما كان يدل على مقدار تعفف الشاه قبوله أكياس
الدراهم الثقيلة ، المرسل بها اليه من بغداد ، لأن الطمع وجمع المال كانا من
طباعه .

وانفجرت هذه الازمة ، الا أن الحادث الذي كان أكثر أهمية بنتائجه
للعراق هو تعيين محمد علي مرزا لكرمنشاه في ١٨٠٥م (١٢٢٠هـ) . فسرعان
ما أصبحت ولايته تضم قسماً عظيماً من ايران بالنظر لمقدرته وطموحه وشراسته ،
وكانت قطعاته تدرب على الطريقة الاوربية . وقد استقصت صفحات متقدمة من
الكتاب جهوده المتواصلة بالسيف والقلم في جعل الولاية البابانية من الممتلكات
الايروانية . وفي أيام سعيد الضعيف كان أمر الاستيلاء الايرواني على العراق
بأجمعه موضع البحث الصريح . ومن المحتمل أن المرزا كان قد أمسك عن ذلك
حرصاً على امتناع أبيه من تعزيز صفو السلم ، وانقياداً لضغط الدبلوماسيين
الاجانب^{٤٢} في طهران ، وطمعاً بالمبالغ الجسيمة التي كان يرسل بها الى كرمشاه
لاسكانه^{٤٣} . الا ان كل واحد من هذه الموانع لم يبق طويلاً ، لأن الاسرة
البابانية فتحت الباب على مصراعيه من جديد للامير الايرواني .

فقد ركت العلاقات السياسية التي كانت تربط بين داود باشا ومحمود
بابان ، وانقلبت من صداقة مقسم عليها الى انشقاق علني . وأخذ حديث حسد
داود ودسائسه على الوحدة البابانية يدور على اللسان في السليمانية ، كما كان
الجميع في بغداد يلومون محموداً على انقلابه ومخامرته بالمراسلة لكرمنشاه

(٤٢) كان السفير البريطاني في ايران هو الذي اقنع الشاه باحترام
حدود ١٦٣٩م (١٠٤٩هـ) .
(٤٣) راجع پورتر (ج ٢ ص ٢٠٢) . ان تأكيده على ان الباشا كان
يدفع أتاوة خاصة لكرمنشاه لا يمكن أن يصدق .

وسخريته بمشورة داود الابوية • وحلت سنة ١٨١٨م (١٢٣٤هـ) فلم يظهر أي مخرج من النزاع سوى شهر السلاح • فدفع محموداً تقدم القوات من بغداد نحوه وخيانة أقرابه أنفسهم له لمراسلة المرزا • فبهر الحدود عشرة آلاف إيراني للعضده ، ثم غزا غيرهم من الايرانيين مندلي وبدره وجصان • فبعث داود في الحال الكهية لصد الغازين في مندلي وغيرها فصدتهم ، كما بعث لمقاتلة معظم الجيش عبد الله باشا ، عم محمود ، فوصل الى كركوك ووجد جميع الاودية الشرقية قد أصبحت في حوزة الايرانيين • الا ان القتال الجدي العنيف قد تأجل من جديد ، لأن المرزا طلب اعادة محمود فلم يرَ داود ، وقد طلب النجدة من استانبول ، بدا من قبول ذلك • فرجعت القوات الايرانية الى بلادها •

غير أن هذا التدبير قد أزال سبباً واحداً من مائة من أسباب الحرب • فقد تنازع آخرون من المدعين بالزعامة البابانية – الذين كانوا في شبه انتمزال في كركوك يومئذ – مع الاغوات المحليين وهربوا حسب المعتاد الى كرمشاه • وقد وجد أن موظفين كباراً في بغداد كانت لهم اليد الطولى في الامر وأطماع يبغون تحقيقها ، ومن جعلتهم الكهية نفسه • ثم اجتمع في ديوان محمد علي بكرمشاه الناقمون واللاجئون • وفيما عدا ذلك كانت تركية وأيران قد أشرفتا على الحرب يومذاك لاسباب غير هذه • فقد آوى باشا أرضروم قبيلتين رحالتين تدعي ايران برعويتها لهما • وكان حاكم أذربايجان ، الذي كانت القبيلتان في حكمه ، عباس مرزا ، وارث الشاه ، الذي حرصه زيادة على ذلك رسول روسي على السير الى الفتح • فوجد محمد علي مرزا في التجاء الامراء البابانيين اليه سبباً من أسباب الحرب يشابه ما سبق من الاسباب • وكان عنده علاوة على ذلك من الاسباب سوء معاملة الاتراك للزوار الايرانيين في العراق • فقال في هذه المرة من والده ، بعد أن زاره مستشيراً ، سماحاً مطلقاً بما يعمل • فبعث اولاً المتجئتين البابانيين ليقوموا بمهمة التعرض فعبروا من زهاو ، ونهبوا خانقين صارخين « الى بغداد » ، غير انهم عيقوا عن تقدمهم بزحف الجيش للقائهم •

وقد خف داود فأعلم سيده بالخطر المصدق به ، فوصل رسوله بعد أن وصلت أنباء ظفر عباس ميرزا في الشمال مباشرة • فأجاب السلطان باعسلان الحرب • وأصبح من الضروري أن تُعزز بغداد ، وأن يُهيأ الجيش ، وأن

تُحتل إيران بأسرع ما يمكن وإلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه الجيش • وأمر على الفور بإرسال نجدة تتألف من خمسة آلاف الباني « هايتة » فوصل قسم منهم إلى بغداد • وفي غضون ذلك صودق على بقاء محمود في الحكومة البابانية بينما أنعم المرزا بنفس الجائزة على عم محمود عبدالله باشا • وبعد أن أضاف داود « الهايتة » إلى قواته بعث بالقوة كلها مع أربعين مدفعاً بقيادة الكهية محمد آغا إلى زنگباد فوصل في ايلول ١٨٢١م (١٢٣٧هـ) • وبعد انتظار مدة أربعين يوماً تحرك الكهية على طريق كركوك إلى مضيق بازيان ، لأنه علم أن عبد الله سبق له أن دخل شهرزور مع خمسة آلاف إيراني • فتحرك الجيشان ، كل في وجهته ، إلى السليمانية • وقد حلت العقدة الحاصلة من الحال هذا بطريقة يشك فيها الناس وحتى المطلعون المعاصرون • فقد ضعفت القوة المعنوية للجيش بحلول شتاء كردستان القاسي وبتفشي المرض • وكانت التجهيزات قليلة ، كما كان تماديها في القلة يهدد وضع الجيش يوماً بعد يوم • وعندما هجم محمد آغا كسره العدو كسراً كلياً ، وترك هو نفسه جيشه مشتتاً فأنضم إلى صفوف العدو • وكان هجومه في نظر الكثيرين من بابة المكر والخدعة ، فخيانته كانت شيئاً واضحاً • إلا أن كثيرين من غير هؤلاء كانوا يرون فيه قائداً بأسلاً ساقه خوفه بعد الكارثة إلى اللجوء إلى صفوف العدو • أما قواته الممزقة فقد رجعت إلى كركوك فعقبهم - بعد نصب عبدالله في السليمانية - إليها الجيش الإيراني • غير أن فلاح كركوك التركمان لم يرقهم أن يخضعوا لحاكم إيراني ، فأعدم عدد منهم لرفضهم الطاعة • ولم تشأ القلعة أن تستسلم ، كما لم يكن بوسع الأمير أن يبقى منتظراً نتيجة الحصار^{٤٤} • وبعد أن مر بطاووق إلى كفري احتل خط البلدان إلى هناك ، عاداً محمد آغا ، الكهية الهارب ، أمام الجميع باشا المستقبل • ثم وقف الجيش في الخالص •

وكان داود باشا قد حصن العاصمة وملاً مخازنها استعداداً للدفاع بالتحصن ثم جيشين جماعات المتطوعين ، وتهيأ الحرس الخاص لأمر أشق من واجباتهم في القصر • كما طلبت المعونة من استانبول • وبقيت المدينة هادئة حتى وافت الأنباء مفيدة بوصول الإيرانيين إلى ههلب ، وهي على مسيرة يوم واحد تقريباً من بغداد •

وعندئذ هرب مئات الناس من بغداد الى الحلة^{٤٥} ، وارتفعت الاسعار ، وأصبح التحصن والامتناع ضربة لازم . وعلى هذا كانت نتيجة الحال مشكوكاً في حقيقتها . فقد كانت خزينة داود ملأى بالمال ، ومخازنه ممتلئة بالذخائر والطعام ، ورجاله كافين للدفاع ، كما لم يكن يخشى هو الخيانة من الداخل . ولكن القوات المهاجمة كانت مستعدة لضرب حصارٍ طويل متواصل ، على أن كفايتها لم تكن قيمة بحصار مدينة ذات سورٍ عظيم . غير ان الوضع الحرج لم يوضع على المحك . فقد تفشت الهیضة الحادة (الكوليرا) في الجيش الإيراني وأخذت تفكك به ، ومن المحتمل انها كانت قد تفشت في بغداد أيضاً . ووقع الأمير نفسه فريسة للمرض الويل . وظل جيشه عدة أسابيع مستريحاً بالقرب من بعقوبة وواضعاً مفرزة من الجيش في خان بني سعد وهي من بغداد على مسافة خمسة عشر ميلاً . وكانت جماعات الجيش التي ترعى الحيوانات تجول في كل مكان من تلك الاصقاع ، وقد اشتبكت واحدة منها مع صفوك الفارس ، شيخ شمر المعين في المشيخة حديثاً ، فعولت بشدة وقسوة . ولم يحصل أي هجوم من بغداد الى الخارج .

ولذلك فقد حمل المرزا مرضه ، ورغبته في تجنب حملة طويلة لا تعرف نهايتها ، على مفاتحة العدو بعقد الصلح . فأرسل عالماً شيعياً للمفاوضة . فرد عليه داود باشا بارسال اثنين لا يقلان وقاراً عن العالم الشيعي . وسرعان ما اتفق الفريقان على تسوية المشاكل . وكان الاتفاق على أن تعطى السليمانية عبد الله باشا ، وأن يعوض عما نهب في الخالص ، وان تخلي الاراضي التركية على الفور . فعاد الجيش الإيراني ، وعبر الحدود ، ثم سار راجعاً الى كرمشاه . وقد مات محمد علي مرزا في كرت . فكان رجوع الجيش هذا قُرْباً لبغداد ما فوّه من فرج ، وكانت وفاة المرزا فرجاً أعظم . ثم عاد سكان المدينة الذين التجأوا الى الحلة والفلوجة قبل حصار الإيرانيين . وتوجهت مفرزات من الجيش لتأديب القبائل التي كانت قد ساعدت الإيرانيين بالادلاء أو الذخائر ، ولإعادة النظام الى نصابه . وسارت حملة الى القبائل المحيطة بالدجيل . ثم أُنفيت الحامية الإيرانية التي تركت في خاتقين عن آخرها . وأذيع منشور أعفاء القرى ، التي أفقرها

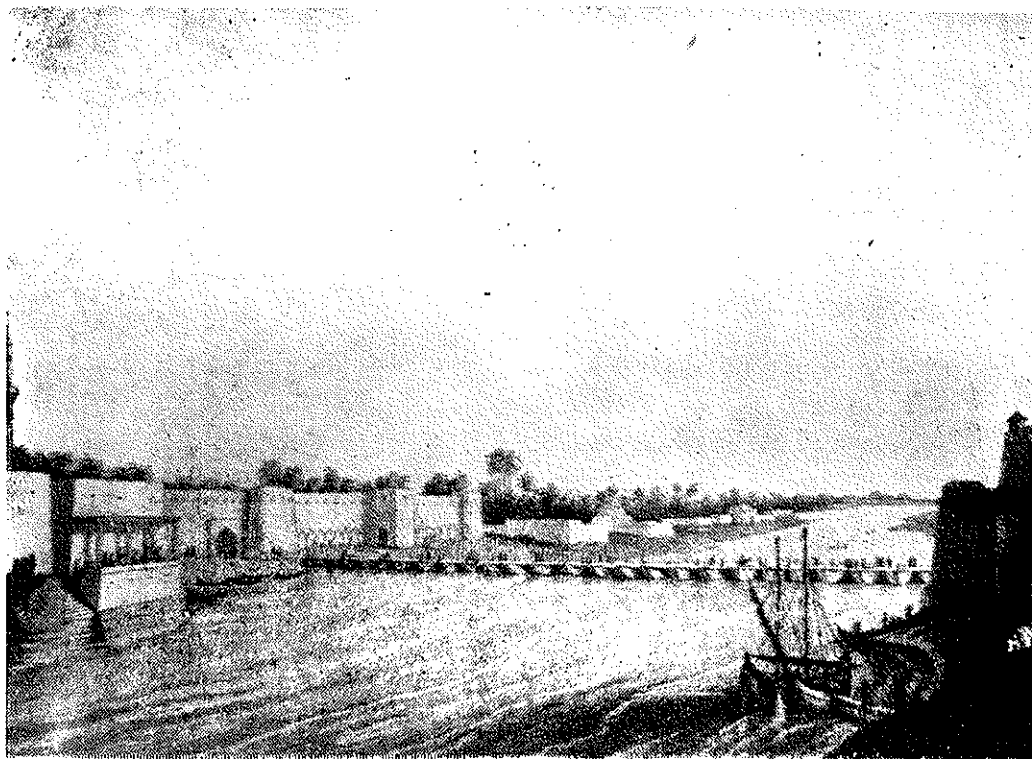
العدو ، من خراج سنة واحدة •

بيد أن حالة الحرب بقيت بين السلطان والشاه • فكان عباس مرزا مقيماً على استيلائه على الاراضي العثمانية في شمالي كردستان ، واخبر بوصول الشاه نفسه الى همدان يقود جيشاً جراراً • اما الجانب التركي ، فان ولاية ديار بكر والموصل وبغداد فيه قد اخبروا بالقيام بهجوم مقابل • وكان من بين أوامر السلطان أمر خاص بالقبض على محمد آغا وقتله وطءً بالأقدام • وامثالاً لذلك نظم جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل في بغداد بقيادة الكهية الحاج طالب^{٤٦} ، وسار ذلك الجيش مع خيله ومدافعه بطريق خراسان الى الحدود •

وكان قد خلف محمد علي مرزا ابنه حسين الذي كان يحفزه الانتقام والطمع الى أمل الاستيلاء على العراق بحركات واسعة • ولم يكن الحاج طالب يصل زهاو حتى كان القائد الايراني ، وكان قد جمع جيشاً مؤلفاً من أربعين ألف مقاتل ، قد اخترق الحدود من عدة نقاط • وقتلت قواته خمسمائة تركي ، وعندما تحرك الى قزلباط أجبر الكهية على التناحي عن طريقه • ثم قرر مؤتمر للضباط الانراك ، الاسحاب ، الا أن القبائل في الوقت نفسه أخذت تضايق الايرانيين المتقدمين في منطقة الخالص ومنطقة شهربان • فقد قطعت القبائل دوريتهم ونفائضهم المستطلعة وأحرقت كل الحاصلات الزراعية التي في طريقهم • وحدث أن وقعت قوة من شمر مؤلفة من ثمانمائة مقاتل بقيادة صفوك في شرك القوات الايرانية ، فاشتبكت معهم بالقتال وتمكنت من دحر قوة ايرانية كبيرة • فكانت تلك براعة حذت حذوها القطعات العشائرية الاخرى • وتفشت في هذه المرة أيضاً الهیضة الحادة (الكوليرا) بين الجند الايراني • فقفلوا راجعين ، ونهبوا ما وجدوه في طريقهم ثم اخترقوا الحدود الى بلادهم ، وهكذا انصرم أمر الاستيلاء الثاني وخاب الفأل فيه •

وفي غضون ذلك كانت وفاة محمد علي مرزا قد أعادت الخصومة المتعبة

(٤٦) والد سليمان بك المؤرخ • وقد كان من مماليك بويوك سليمان المعتقین - (المؤلف) • وسليمان بك هو والد حكمة بك وخالد بك والمرحومين محمود شوكة باشا ومراد بك المعروفين في بغداد • والحاج طالب مدفون في جامع يقع خلف بناية متصرفية بغداد الحالية - المترجم •



البحر في ١٨١٨

بين أفراد الأسرة البابانية • فقد استعاد محمود باشا السليمانية لنفسه بحملة باسلة وموقعة باهظة ، ثم طرده عنها الجنود الإيرانية والأردنية • وحافظ عبدالله ، وقد كان مرضياً عنه في بغداد وكرمشاه معاً يومذاك ، على العرش حتى رجع اليه محمود بعد ان نبذ التابعة التركية وتمسك بالتابعة الإيرانية وكان رجوعه بموافقة الفريقين • وقد سبب ارسال أحمد بك ، اخي داود ، لتولي دويلة السليمانية بنفسه التجاء محمود بسرعة الى ايران ، وسير جيش يغداد الى كركوك • ولا يعجب من متبع هذه الدسائس المعروفة بانعدام الولاء الثابت ، والمبدأ القويم ، وبفقدان الغاية الشريفة التي لا تعرف الا مصلحة الذات ، اذا عرف ان عبدالله باشا كان بصحبة هذا الجيش الواصل الى كركوك ، وهو المرشح الإيراني للعرش مرة بعد أخرى • ولم يسد السلم الا عندما اتفقت القوتان على نصب محمود في السليمانية وعبدالله في كوي • وكانت معاهدة أرضروم الأولى ، الموقعة في الثامن عشر من تموز ١٨٢٣ م (١٢٣٩ هـ) ، من الوثائق المهمة ، الا انها لم تكن تؤذن بالتسوية النهائية الا قليلاً • وقد صودق بها على حدود مراد الرابع القديمة (التي حاولت تكرار تحديدها القوات المسلحة لكلا الفريقين طوال قرنين) ولكن كل مجال وكل سبب للقلق من أجلها بقي كما كان من قبل •

ولم يبق الا النزر اليسير مما يجب ذكره عن أخبار باشوية داود • فقد حدثت ثورة خطيرة عقيمة فأعقبها اتخاذ التدابير الاعتيادية المتضمنة لتأديبات القبائل وسياستها ، وحلول بضع سنوات من الحكم المألوف في العراق خلال عهد طويل •

وأحدث ظهور محمد آغا - الكهية المتمرّد في حملة شهرزور - على رأس ثورة قوية في الفرات الأوسط قرعاً بيناً في بغداد • ولا غرو فقد كان عبدالله آغا في ١٧٧٨ م (١٩٢ هـ) قد حصل على الباشوية بثورة مقصودة وبعض المماليك له ، وها هو محمد يشور في ١٨٢٤ م وهو ذو شخصية أقوى وقائد أمثل بين المماليك ، فلذلك أصبح ثائراً أعظم • وقد تكاثر أتباعه بسرعة ، فخفف اليه المجازفون والعصاة والقبائل المستعدة على دوام لنزع النير الحالي عنها • وكانت القوة الروحية في البلاد يومذاك منحلة بسبب الغزوات

الايوائية ، وكانت بغداد مغناظة من الضرائب الؤءءءة الؤى أؤء يؤمءها ءاوؤ .
ثم اسؤبءل بالؤاؤ طالب فى منؤب الكهوء أؤمء الضعوف المؤون ، وهو أؤو
الباشا . وكان ءوش الثوار فى ءؤون ذلك الوؤؤ ىؤكائى فى الؤلة ، وأؤسمؤ
الائمان الؤلظة فى العؤبائ المقدسة على الؤؤالف ، وبائ الؤؤوم على بغداد على
قاب قوسين أو أءنى منه . وبء ذلك كسرى القواؤ من ءسفر صءوبة رؤلن
ضعففىن أرسلا من بغداد لؤئالها . ءفر ان هؤا الؤوفوق لم ىؤؤؤ فائءة ما ، لأن
ءزمأؤءءءا ظهر فى بغداد . فؤء عاء الؤاؤ طالب لمنؤب الكهوء وؤول السلؤة
المطلقة لىؤوم بؤءءللاؤ شاملة فى مؤظفى سىءه المرئاع . واسؤطاع ئؤشوء قوءة ما ،
بئما اسؤعمل الباشا مواهبه فى الءىبلوماسىة . فؤؤب الممالىك القءماء المعؤلزن
الى الؤءمة من ءءءء بءء ان عفى عن ذئبهم ووؤءوا بالمواعوء الؤلاؤة . ثم فؤ
فى عؤء القبائل العاصىة بؤءم القبائل المعاءىة لها لمساءءة الؤؤومة . وعءما
سار الؤاؤ طالب الى الؤلة الؤقى بؤوش مؤلف من ءمسة آلاف مؤاؤل . الا
انه اسؤعمل سلاح ءعاىءه فكان ذلك ماضىاً فى العءو لأن انفضاؤ الكئرفىن من
قواؤ مؤمء آغا عنه وؤراؤى القوء الؤى كانت ءؤم الباقفن منهم قء أوءىا به
فأصبح الآغا هارباً مقهوراً .

وقء أعقب انهيار هؤة الؤورة القىام ببعض الاصلؤاؤ فى ءالة القبائل .
وكانؤ قؤعاؤ زبء وشمر فى عون الباشا فطارءؤ أهل السوء ، كما كانؤ قواؤه
أنفسها يقوءها ضابط ماهر وهو سلئمان آغا المئرآؤور « رؤس الؤلئة » وقء سىؤؤ
أعظم الؤملاؤ الى العراق الؤنوبى ونؤمؤ ءرؤة مؤؤءة لاعاءة سلؤة الؤؤومة
فى المئفك ءىؤ كان ءموء الؤامر الشئؤ الاعمى ممؤعاً منذ سنفن من ءفع المسال
للؤؤومة ومن اؤؤرام سىءه الباشا . فرؤب بالؤؤوم من مرشؤى السءوؤفنن
فى ءىوان بغداد ، ثم رافقوا المئرآؤور المؤؤه الى ءىرة المئفكفن . فاسؤؤء ءموء
بئى كعب ، وارسل المؤكلاء لؤؤنء قوءة مساعءة من عربسؤان ، كما بعؤ رسولا
الى امام مسؤط السىء سعىء . فانؤمؤ الى قوءه عناصر كئيرة . وقاء قوءه ابناؤ ،
فىصل وماءء ، ءؤى أشرفا على سور البؤرة الؤى أؤؤؤ تقاسى أهوال الؤصار .
ولم فكن ضؤط اسؤول مسؤط من الماء أقل ءؤراً على البؤرة ، ءؤى رشا مئسلما
أصؤاب الاسؤول بالمال . وقء ءعمء المئر آؤور الؤباؤوء فى سىره الى البؤرة ، لان
المئاء كان بوسعه ان فءافع عن نفسه عءواً لفس عءه مءافع ، والوؤؤ ءفر كفىل

بحل جيش حمود وتشيتيه • فكان حذسه بذلك من الصواب • فقد أدرك الاتباع ، ثم القبائل المحالفة ، ثم ابننا حمود نفسه ، ان الهجوم على البصرة عديم الفائدة والجدوى ، برغم الجدية التي أبدوها خلال بضعة الايام التي ضغطوا فيها عليها من قبل • وأخذ قسم بعد آخر من القبائل يلتف حول عجيل الشاب السعدوني اللامع الذي كان قد اُنعِم عليه بحكم استنفك • وبعد ان وزع عجيل العطايا وعقد الوعود امتلك ناصية الحال ، فهرب حمود وعاد الميرآخور الى بغداد • وعادت المياه الى مجاريها في البصرة وقبائلها ، ولم يعكر صفوها الا النزاعات العنيفة الواقعة في الزبير • وكانت دويلة الحويزة آخذة في الانحطاط ، غير انها كانت ما تزال على قوتها • وبقيت علاقة بني كعب بالبصرة غير محددة ، وظلت الحدود بين البصرة وشستر مشكوكاً فيها في مدى مسافة واسعة • فلم تكن معاهدة أرضروم تحل مشاكل هذه الحدود التي زاد النزاع عليها من بعد تمصير المحمرة على مصب كارون في ١٨١٢م (١٢٢٧ هـ) • وقد كان مؤسسها ، وهو من قبيلة المحيسن ، تابعاً لبني كعب • الا ان ابنه الحاج جابراً ذهب الى أمر أبعد من التخلص من هذه التابعية ، فغدت المحمرة في ١٨٣٠م (١٢٤٦ هـ) خصماً لبني كعب بدل أن تكون عوناً لهم •

ولم تعرف أخريات سني داود باشا (عدا ظواهر للتقدم العلمي التي سيبحث فيها في صفحات متأخرة) بشيء ذي أهمية في جميع أنحاء الباشوية • فقد كان الآغا يتلو الآخر في البصرة وماردين وكركوك ، وبقي شيوخ القبائل البارزون محافظين على مناصبهم - عجيل في المتفك وذرب في الخزاعل ووادي الشفلح في زبيد • اما عند المليين فإن أيوب بك كان قد خلف تيموراً والده • كما جاء صفوك بعد فارس في شمر الجربا • ثم أضاع صفوك منزلته ، وكان ذا حظوة عالية عند الباشا لاعماله الباهرة في قتال الايرانيين ، وأصبح أشد أعداء الباشا • ولم تدم تسوية الامور التي اجريت في المملكة البابانية سنة ١٨٢٣م (١٢٣٩ هـ) • فقد تلاها أول وجه من أوجه النضاك الطويل بين الاخوين محمود باشا وسليمان باشا • وظلت حامية ايرانية في السليمانية حتى توفي فتح علي شاه في ١٨٣٤م (١٢٥٠ هـ) • وكانت المملكة البابانية في الحقيقة آخذة في الانحطاط منذ مدة • فكانت على هذا العهد تهيم عليها ايران هيمنة لم تفقها فيها تركية بأي زمان كان •

وقد سببت حالة النزاع بين الاخوين الاضطراب والفوضى والفقر ، فأكمل
الطاعون من بعد ذلك خراب المملكة • وكانت جارتها رواندوز في تقدم مستمر
على عهد البابا الاعور • وفي الموصل ، كان الجليلي يتبعه جليلي آخر ، ولا يحدث
أكثر من ذلك سوى حوادث العنف والتمرد التي اعتادت عليها المدينة منذ القدم ،
مع مجاعة مهلكة وقعت في ١٨٢٧ (١٢٤٣ هـ) •

الفصل العاشر

نهاية عهد

نظرة اخيرة الى عراق الممالك

ظل العراق يتذكر داود باشا بعد قرن واحد بثقافته وتدينه الاسلامي ، وبحرسه الممالك وجيشه الأهلي ، وبكرمه وسخائه ، ثم باستقلاله الصريح عن استانبول • وليس بوسعنا ان نحكم في ثقافته بشيء الا ان الروايات تنقل الشيء الكثير عن صمت الملالي والاساتذة في حضرته • واما ديانتهم فيمكننا ان نستعير وصف المؤرخين له بأنه كان « متديناً بدون تكلف » ومن دون ان يؤثر ذلك في أخلاقه تقريباً • وكان هذا الملك - الفيلسوف الشرقي - يتصف بجميع الصفات الخلابة مع شيء من الرأفة • واذا ما انتقلنا الى حاشيته نجد في ساحة السراي الحرس الانكشاريين واقفين في مراكزهم وعشرات المباشرين من الممالك بدلانهم اللامعة • وتظهر في باب البهو ثلاثة من اذنان الخيل الدالة على الوزارة مع الهلال والنجمة الامبراطوريين • ولم يكن يعوز الديوان في الداخل شيء من الجلال الزاهي • فان اثاث الغرف المرفقية ، وقاعة الاستقبال الملكية ، وتفصيلات المراسيم والتشريفات ، وما يحمله كل من رجال الحاشية وكل مباشر ، كلها كانت تبهر الزوار الاوربيين بكون « المقام ... مقام أمير ملكي تماماً » • وكان الزائرون من أصحاب الرأي والمشاهدون النقاد يعجبون مما يرونه من امارات الثروة الطائلة ، والثقافة المتناسبة ، والترف المتناهي الذي قيل انه يفوق ما كان منه في بلاط السلطان •

وكان أمثل موظفي الباشوية - عدا مناصب حكام البصرة وكركوك ومازدين - الكهية ، الذي يوازي الصدر الاعظم في استانبول ، وعدة من « المصاحيين »

(مشاورون أو من رجال الحاشية) الذين كان بينهم « باب العرب »^٢ ، وأعضاء الديوان الاعتياديين وهم : الدفتردار ، وسكرتير الديوان ، ورئيس الحجاب ، ورئيس التشريفات ، ورئيس الاصطبل الملكي ، ورئيس القواسين ، وأمين القسم الخاص . وكان بين أغوات (المايين) الذين كانوا يعدون مجد البلاط بعددهم وتجهيزاتهم ، خدام الباشا الخاصون ولكل منهم عنوان العمل الذي يقوم به . فهم لللبسة ، والقهوة ، والحلويات ، وعدة الخيل ، والسجاد ، وماء الغسل ، وماء الشرب ، والشطب (جبوق) ، والعلم . وكان اذا ركب الباشا للخروج يصحبه العشرات من هؤلاء الاغوات يقودهم أمين الصندوق وحامل السيف ورئيس المراقبين . وكان من السهل عليهم الانتقال الى قوات الباشوية العسكرية ، لان رجال الحاشية الممالك أصبحوا ، منذ أيام أبي ليلة ، من صفوة الجنود^٣ . فقد أكثر منهم سليمان الكبير ودر بهم فكون منهم قوة عسكرية . وجاء داود فيها لهم المعلمين الاجانب والاسلحة الحديثة . وما تزال الاحاديث المنقولة تذكر أخبار كتاب ثلاث من الممالك سميت كل منها باسم أحد أبناء الباشا ، وكانت عدة كل منها الف مقاتل . وتشير تلك الروايات في مناسبات عدة الى القوات العسكرية الاخرى وهي : الجنود المستأجرة من اللاوند والعقيل ، ومشاة الفنكجية الاخرى والبرطليون النظاميون ، والانكشاريون والمدفعيون « الطوبجية » الذين ما زالت عليهم المسحة الامبراطورية ، والرعاع العشائريون ، وقطعات الامراء الاكراد ، والقليل ممن بقي من فرسان الاقطاع .

وكانت واردات الباشوية تجبى بوسائل تختلف في أصلها وقدمها ، فقسم منها بقي مطبقاً بحسب نظام الاقطاع وقسم آخر ابتدعه حديثاً آخر الباشوات . وكانت وارداته الكمركية ، المتبدلة بحسب أهوائه ، منبعاً للكسب يقل بمضايقته

(٢) هود (ص ١٧٢) ، أوشية - ايلوي (ص ٢٣٥) .

(٣) قابل بين ماكتبه نيبور (ص ٢٥٦) عند بحثه في ١٧٦٥م بما كتبه ثابت عند البحث في الدور الاخير : يذكر الاول وجود ٨٠٠ أيج اغاري ، ويذكر الثاني ١٨٠٠ منهم . وكان عدد الاغوات الخارجيين (الكمية والموظفون وملحقهم) في ١٧٦٥م ٢٠٠ ، وفي ١٨٣٠م ألفاً وسبعمائة .

للتجارة وحركة السفر عن الاتاوى التي يفرضها كل شيخ أو كل مختار قرية على قارعة الطريق • وكانت مزارع السنجق أو القناة أو الجداول العشائرية تأتي الى الخزينة بكسر من المال الذي كان يعصر من الدافعين الحقيقيين الذين كانوا يكابدون الشدة أكثر من غيرهم لضعفهم وسهولة استغلالهم • وكانت ضريبة الجزية على « الرأس » المضروبة على اليهود والنصارى يجمعها ، بكثير من سوء الاستعمال ، أكثر المتزايد من الملتزمين • وكان للمباشوية مبالغ أخرى تجمع بتزايد من ضرائب المرور (ترانسييت) على البضائع ، ومن الانحصارات الحكومية لبعض الحرف وأنواع التجارة الشائعة ، ومن تصريف النقود الخاطيء والعملة المزيفة • وقد عرف ان النهب العلني البصريح كان يسوق الوجود من السكان الى استانبول نفسها طلباً للتعويض او الترضية ، ولم يخل ذلك من فائدة لهم • وكانت تقوم بواجبات الشرطة في أمهات البلدان مراكز الانكشاريين وحجابه الباشا وموظفوه • وكان القاضي المبعوث كل سنة الى بغداد ، مع زملائه الذين هم أقل منه درجة في الاماكن الاخرى ، يقومون ببسط العدل بين الناس • فكانت الحياة رخيصة ، والشرع صارماً وكل شيء للبيع •

اما الحكومة بوجه عام فأن أبرز ما يظهر في الصورة المصادقة عنها في الحقيقة عصيان القبائل المزمّن الذي كان من واجب الحكومة معالجته كل سنة - وعصابات اللصوص التي لما تقهر ، وسلب المسافرين المستدام ، وضرب الضرائب على الأقلية الذين كان من الممكن تحصيل الضريبة منهم ، والضعف البارز في التحرش بالبقية من السكان • وقد ظلت القرى والاراضي تباع ليحكمها هذا المملوك المقرب أو ذاك أو أي من رجال الحاشية الذين يستفاد منهم فوائد • وبقي الاغوات يشاغبون ويعربدون ، وظل الجنود متمادين في الاغتصاب والنهب • وكان الديوان العالي ، المتلى بأكثر مما تستطيع البلاد أن تصرف عليه بحق ، يؤوي كثيراً من المشاورين المجانين ، الجهلة ، المتعصين • وقد اضيف الى الاخطار ، الناشئة عن قلة ادراك معنى الحكومة والنظام الحكومي المرئى له ، نقاط الضعف المخزنة التي كانت متجمعة في الحاكم الحالي نفسه • لكن الصورة تلك يجب أن تدل على أكثر من هذا • فقد كانت الحرب الاهلية غاية بذاتها • وكانت القوات الكافية تجسد لتأديب البدوي الذي لا يعبأ بشيء ولتستعرض في العاصمة • وكان في تشجيع

الباشا المستعمر على الاختلاف بين كل قبيلة مضمون السياسة الرامية الى تثبيت
 شمل القبائل وتفكيكها • كما كان في استمرار الباشا على منح الاراضي أو الانعام
 بها شعور بالحاجة لامتلاك أثبت للاراضي ممزوج بالسخاء المحض الذي كان
 مشتهراً به • وان كان كثيرون من الناس قد كابدوا ما كابدوا باسمه ، فان قسما
 غير قليل منهم قد اغتبط بالعطايا والهبات التي كان يتسلمها من يده هو نفسه • وقد
 أسست على عهده عدة مدارس ومطبعة ، وزينت بغداد بجوامع جديدة وسوق ثلاثي
 الطوق يحمي في الوقت الحاضر أكثر أسواق بغداد مشغولية وأزدحاما • وبني
 بعض الناس كثيراً من دور السكنى الجميلة على طراز ذلك العصر ، فكان هذا
 أزهى وأثبت ما بني في ذلك العهد •

هكذا كان عراق العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بوجه عام ، وهكذا
 كان حاكمه ، وبذخ ديوانه ، وسوء الحكم فيه خارج العاصمة • ولم يبق ممن
 مصايرد في أثناء حكم المماليك الطويل ما يستحق التدوين سوى الكارثة التي
 أزالته من الوجود حتى الابد • ويظهر ان تبدلات عديدة كثيرة ، مما ذكرته هذه
 الصفحات ، لم تتبع في وقوعها قاعدة ما أو لم تحدث بموجب سبب سوى الهوى والصدفة ،
 كما لم يكن ذلك بحسب تطور معلوم أو مبدأ معروف • أما ما يختص بسقوط دولة
 المماليك فان الامر فيه على عكس ذلك • فالحقيقة هي ان الكوارث الطبيعية النازلة
 ساعدت على انهيار تلك الدولة فقطعت أنفاسها وخلصتها من نزع الموت • وفيما
 عدا ذلك فان الاحوال والاسباب والوسائط التي قطعت عليها استمرارها في الحكم
 الى خلال القرن التاسع عشر كانت كلها تعمل عملها منذ مدة • وقد جاء سقوط
 داود باشا وجميع سلالاته ونظام حكمه بفجأة روائية ، ولكن هذا السقوط كان
 شيئاً مأمولاً طول جيل كامل يمتد الى ما قبل ١٨٣٠م • فقد غدا مجرى التاريخ
 العام يتطلب زوال الوضع الشاذ ، وجعلت التبدلات العظيمة التي طرأت على
 الحكومة التركية نفسها ذلك الطلب واضحاً ملجأ فيه • وبات حكم المماليك ، من
 حيث تعامله مع القوات الاوربية ، وليس فيه من الحداثة العصرية الا اليسير • فكان
 لزماً على هذا الحكم ان ينتهي بشخص حاكمه ، وتم ذلك بالفعل •

تبدل الزمان

كانت علاقات العراق بدول أوربة الغربية قد ازدادت تقرباً واتساعاً منذ

أواخر القرن الثامن عشر • وبين يدينا الآن مذكرات ثلاثين من السياح ، وما هذه الا قسم قليل من مذكرات السياح الكثيرين الذين زاروا العراق من أوربة والهند • فقد كان في سنة ١٨٠٠م (١٢١٥ هـ) عدة من الكرملين الافرنسيين ، وصيرفي يوناني ، وتاجر بندقي أحياناً ، يضيّفون وكلاء شركة الهند الشرقية الصغار الذين كانوا يمرون من هناك بين حين وآخر • وكان فرسان التاتار «الططر» يحملون الى استانبول بريد الاوربيين وبريد الباشا • وكان بريد الجمال الذي للشركة يتردد بين بغداد وحلب على طريق الصحراء بصورة منتظمة • وكسّات وسائل النقل النهرية المنشغلة تنقل أقمشة الاطلس والقטיפه الواردة من فرنسة ، والاقمشة الانكليزية ، والبضائع المعدنية الالمانية • وكانت هذه تنقل كذلك الزجاج الوارد من فينة وبوهيمية ، والسكر الوارد من أميركا • وقد أصبحت للمؤسسات الدينية الفرنسية والطليانية منازل دائمة ، وكان أسقف بابل أحياناً يشغل كرسيه الاسقفي ووظيفة القنصل الافرنسي معاً • وكان الموظفون القنصليون الافرنسيون في بغداد والبصرة أول القناصل ظهوراً ، لكنهم لم يلاقوا العاقبة التي تليق بأمتهم في المدينتين • فكان انتقاء الوكلاء في بعض الاحيان انتقاء سيئاً ، ولذلك لم يكن بوسع هؤلاء ان يحافظوا على المصالح الافرنسية كثيراً • فكانوا ، الى تقلل مركزهم وعدم حصولهم على النفقات الكافية ، ليس لهم المهارة اللازمة للتعامل مع الحكومة المحلية • وقد مرت من العراق في ١٧٩٦ م (١٢١١ هـ) بعثة سياسية افرنسية^٤ • وبعد عامين اعتقل ممثلوهم في العراق وصودرت أوراقهم واحتلت منازلهم • وبعد الافراج عنهم بقيت أعمالهم تافهة ان لم نقل لا شأن لها • ولم يهتم الباشا نفسه بادعاء وكيلهم بأرجحيته الرسمية على الدبلوماسيين البريطانيين • غير ان مدرب جيش داود المنتخب كان فرنسياً ، وكذلك كان طبيب سليمان الكبير • وكان لتقنصلهم في البصرة بعض الاتصال بوجوه المدينة والقبائل • ومع ذلك كله كان نفوذ وكلاء الشركة البريطانية ونجاحهم مبعث حقن الافرنسيين المزوج بالحسد •

اما منزلة الشركة البريطانية فقد عظمت عما كانت عليه في ١٧٨٠ م (١١٩٤ - ٥ هـ) • فقد ظفرت بعطف سليمان باشا نفسه وعرفانه للجميل لانها

(٤) وبهذه المناسبة كتب أوليفييه كتابه « الرحلة » الذي رجعنا اليه •

(٥) فونتانييه (ج ١ ص ١٧١) ، سوف بوف (ص ٨٨) •

ساعدته في الارتقاء لمنصبه • ورد لها الدين بعشرين سنة من العطف الشامل وباستعمال خدماته لها بصراحة • وفي ١٧٨٢ م طلب بواسطتها من بومبي « طلبية » من السلاح والعتاد ، وفي سنتي ١٧٩٨ م و ١٧٩٩ م طلب كمية أخرى من العتاد مع مدربين أوربيين من الهند • وفي ١٨٠٢ م وقفت شحنة مشابهة لذلك في أيوان كسرى في الوقت الذي كان النزاع للباشوية قد بلغ أقصى حده • وكان تدبير المقيم البريطاني وترويه قد نفع الباشا غير مرة • فقد استرحم الباشا ، عندما شاع تعيين التساوي للباشوية في ١٧٨٧ م (١٢٠٢ هـ) ، منه ان يسرع بمراسلة السفير البريطاني في استانبول ليتوسط في الامر • وكان توسط المستر مانستي في « وكالة البصرة » في ١٧٩٨ م هو الذي صفى الحساب مع سلطان مسقط • ولم تبد حكومة الممالك رأياً ما حول ازدياد نفوذ المقيم المستمر العلني بين القبائل وسكان المدن حتى في أشد أيام الاختلاف الذي كان يحصل بين المقيم والسلطة المحلية • وقد حدث في ١٧٩٣ م (١٢٠٨ هـ) نزاع مع يهود البصرة المحليين ومع المسلم فادى اشتداد ذلك لانتقال المقيمة البريطانية الى الكويت وبقائها هناك مدة سنتين •

وكانت بغداد قد أصبحت مركزاً دائماً لوكيل محلي للشركة في ١٧٨٣ م ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً كان يزورها بصورة مستمرة المقيم الموجود في البصرة • وفي ١٧٩٨ م - وكان ذلك شيئاً منتظراً من جهة واستعداداً للدسائس النابوليونية في الشرق الاوسط من جهة أخرى - عين مقيم بريطاني دائم فيها أيضاً ، وقد أعطى جميع السلطات القنصلية في ١٨٠٢ م • وأصبحت بغداد منذ ذلك الحين فصاعداً أهم مركز للنفوذ البريطاني ، الذي كان لابد من ان يتحول تدريجياً في ماهيته ومقدار تأثيره • اما بالنسبة للتملك أو تسرب النفوذ فلم يكن لهما أي أثر ولم تحدث بشأنهما مشكلة • فان الخدمات العظيمة التي يمكن ان تؤديها حكومة عاقلة تقدمية الى العراق لابد من أن تصيب خيراتها المسافرين البريطاني والمواطن العراقي على سواء • غير ان هذه التخيلات كانت بعيدة عن الواقع وغير مضمونة أو ملموسة • ومع ذلك كله فان ازدياد النفوذ البريطاني حتى زمن داود باشا وبعده كان شيئاً بارزاً تماماً • فقد أصبح الباشوات يحسبون الحساب للهند ويمدون بها جارة عظيمة يبادلونها الرسائل البلاطية والاحتجاجات أحياناً ، واستمر طلب الذخائر الحربية

منها • وكانت زيارات الجنرال مالكولم (وكان يتردد بين ايران وبومبي) الرسمية الى العراق تظهر للجميع أبهة « ايلچی » انكليزي وثروته • وكانت مؤسسات المقيمة في بغداد والبصرة - ومنها الابنية الواسعة ، وفيها الحاشية اللامعة ، والخدم المزرکشون ، والاسطبلات ، وآلات النقل النهرية ، والحرس الخاص (سيوي) - من مؤسسات الامم ذات الحظوة الخاصة • وعند اعلان الحرب بين تركية وانكلترة في أوربة من ١٨٠٧ م الى ١٨٠٩ م بقي الممثلون البريطانيون في العراق مكرمين دون أن يمسوا بسوء ، وظل الباشا يرسل كلكتا بود واحترام • وكان يزدد شأن « الباليوز » وتعظم أهميته شيئاً فشيئاً منذ أول اتصال صميم حصل بين هارفورد جونز وبيوك سليمان • كما كان تعيين كلوديوس جيمس ريج مقيماً بريطانياً في ١٨٠٨ من أهم الاحجار الاساسية السياسية • فقد استطاع في مدة ثلاث عشرة سنة ، وهو الموهوب له جميع مواهب الوراثة والمزاج والمزايا الفاضلة ، ان يضيف الشيء الكثير الى كرامة مقيمته • تلك المقيمة التي أصبحت أحسن مجلس اجتماعي محلي ، وملتقى أكبر الموظفين والاشراف ، وبيتاً مفتوحاً للضيوف ، وداراً للبحث التثقيفي الاثري • وقد استطاع ريج أن يحافظ على منزلته ونفسه خلال الايام الاخيرة العاصفة من أيام سليمان الصغير ، وان يتمتع بالحظوة العالية عند عبدالله باشا ، وان يهنئ داود بتوليته الحاكمية •

وكانت علاقته بداود باشا ، بعد فترة أولية من الود الصميم ، علاقة متوترة لا بد من أن تنشأ بين شخصية انكليزية عنيفة نزيهة ، كثيرة الشك والريبة ، وطاغية سرقي أحاط به مشاورون جهال متعصبون • فقد كان داود ووزراؤه لا يمكنهم اخفاء غيظهم عندما كان يوجه لهم الانتقاد بصورة مستمرة لغمطهم الحقوق الاوربية ، وتلاعبهم بأسعار العملة ، وعرقلتهم الظاهرة للتجارة الأوربية • حتى ان الباشا لم يتورع في ١٨٢٠م (١٢٣٦هـ) عن التصريح بأن « لا توجد حقوق أوربية في بغداد » وأردف هذا الحكم الذي لا يقبله العقل - المخالف للمنطق والتاريخ ،

(٦) كانت هناك مقيمتان في البصرة وبغداد ما بين ١٧٩٨ و ١٨١٠ • وفي ١٨١٠ أصبحت بغداد مركزاً للوكالة السياسية في بلاد العرب التركية كلها وغدت البصرة تابعة لها • ثم انزلت البصرة في ١٨٢٢ مرة أخرى الى « وكالة محلية » يدير شؤونها رجل أرمني •

ولاوامر السلطان - بمضاعفة الرسوم الكمركية على البضائع البريطانية ، وبكل بيان سمح معرقل • فعزم ريج على ترك بغداد الى بومبي ، فمنع الپاشا ذلك • وكانت الحركات التالية فريدة في تاريخ الديبلوماسية • فقد قاوم ريج الاعتقال بحرسه الهنود وبخدام المقيمة وجماعة من زواره ومعارفه • فأحاطت بالبنية المشاة والهجاة والمدفعية فجابهتهم أفواه البنادق وتدابير التحصن ، غير ان الجبن أُنقذ الپاشا من موقفه السخيف الذي سيق اليه بدافع الطمع والطيش • وقد توقف ضباطه وموظفوه عن عمل شيء بالنظر للاحترام الذي يكونه للبالوز ولحراجة الموقف ، حينما كان عدد من المحلات في بغداد مستعدة للقيام بوجه الحاكم المكروه • فأعاد الجند ، غير ان ريج بقي أسيراً • ولم يسمح له داود بالسفر الى الهند (ميس ١٨٢١) الا بعد أن وجه حاكم بومبي خطابات شديدة اللهجة الى بغداد واستانبول • فأعيدت المياه الى مجاريها وتحسنت العلاقات بين الپاشا والمقيم الحديث ، ولم تترد الى تلك الدركة بعد هذا •

وهكذا توضح لنا وقائع الديبلوماسية البريطانية في عراق الممالك ، بوجهة نظر حديثة ، قناعة هذه الصفحات بأن حكومة السلالة التي أسسها حسن پاشا في ١٧٠٤ (١١١٦ هـ) ، فأنحطت معنوياً لا مادياً في عهد داود ، كانت خطأً تاريخياً مزعجاً ، وهي تدان على هذا الاساس • ولم يكن بوسع أمّة من أمم أوربة ، استطاعت طوال قرنين من الزمن أن تشيد صرح تجارتها ، وتنبوأ مركزاً اجتماعياً وديبلوماسياً شرعياً بصبر وأناة ، أن ترى هذه المصالح والامتيازات تقوض على مرأى منها بمجرد كلمة هوائية تصدر من حكومة بغداد الرجعية المرتشية • هذا زيادة على أن شخصية المقيم في بغداد كانت نسبياً أبرز من شخصية السفير في استانبول • فاذا ما أهين أو مس بسوء فلا بد من أن يصل خبر ذلك الى السفير في استانبول ، وعندئذ تعلم به حكومة استانبول نفسها • ولا غرو فان الپاشوات الممالك عندما سمحوا للمقيم البريطاني أن يصبح الرجل الثاني في العراق قد أظهروا شيئاً من الاعتراف بوسائل التقدم ، وبعض الرغبة في الانقياد للارشاد ، وشيئاً من قلة التعصب ، وقليلاً من الصداقة والمجاملة • لكنهم أدخلوا بهذا بين ظهرائهم نظاماً لا يمكنهم أن يستسيغوها ، ووجها من التجدد لا يأتلف البتة مع أساليبهم • كما سمحوا في الوقت نفسه لمتقديهم الذين كانوا يرقبونهم عن كئيب

ان يعثوا بتقاريرهم عن الوضع الى العاصمة • وعلى هذا لم يسمع السلطان سوى ان الحكومة في بغداد التي خابت في حماية المملكة من الوهابيين ، وفشلت في توطيد دعائم السلم مع ايران ، قد أصبحت واسطة لسوء التفاهم مع الدول الاوربية أيضاً •

فعلى مثل هذا المنوال ينطوي سبب من الأسباب التي دعت الحكومة المركزية الى أن تقدم وهي مبتهجة على تبديل السلالة العراقية الحاكمة بحكمها هي بالذات ، لانها ظلت طوال قرن من الزمان عاجزة عن تحقيقه • ولم تكن تركية التي اضطلعت بهذا الواجب في النهاية تركية التي كانت قد عينت القيصريه لي ، وحولت عمر ، وتوخت السلم بتعيين بيوك سليمان • بل كانت امبراطورية دبت فيها الحياة من جديد فغدت لا تحتمل انشقاق ممالك العراق عنها فضلاً عن مساوئهم الاخرى •

ولقد كان الكثيرون يعتبرون معاهدة قينارجي ضربة قاضية على العظمة العثمانية • غير انه حتى في ذلك العصر لم تكن روح التفاؤل بالاصلاح ميتة في الامبراطورية الكسيرة المتأخرة ، الفاقدة للشعور الى حد كبير • والحق ان الاصلاحات العسكرية والبحرية التي قام بها الاميرال غازي حسن باشا لم يظهر من حسناتها الا التزر اليسير ، الا انها كانت تدل على اتجاه الاصلاحات المقبلة وعلى احجام الرأي العام التركي من قبولها معاً • وفي ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) تسلم السلطان سليم الثالث العرش فكان بمزاجه وتدريبه وميسوله من المصلحين • فقطع في مدة عشرين عاماً من عهده مرحلة طويلة من طريقه المؤدي الى تحطيم الوضع التاريخي الشاذ الذي كانت بموجبه البلاد مضطربة ، خائرة القوى ، ومتقهقرة عن المحافظة على مركزها • فأمر بايقاف سوء الاستعمال في أمور الاقطاع ، بشرط ان تدخل الاراضي الاقطاعية بالتدريج في ضمن الاملاك الاميرية • وحددت مدة الحكم لحكام الولايات بثلاث سنوات فقط • ثم تقدم^٧ بالغاء جباية الضرائب بالضمان « الالتزام » واستئصال سوء الاستعمال الجائر الذي كان يجري بواسطته • ثم أسست المدارس ، وشجعت الطباعة ، وترجمت الكتب من اللغات الاجنبية الى التركية ، وارسلت البعثات الى العواصم الاوربية • على ان هذا البرنامج الاصلاحى الطموح طبق قسم منه في بعض مناطق الامبراطورية

(٧) تقدم السلطان بكذا أي أمر به

فقط ، وليس عندنا ما يدعو الى التردد في الاعتقاد بأن هذه الاصلاحات لم يفكر أحد في تطبيقها في العراق . وقد مشى السلطان سليم في الاصلاح العسكري مشياً بطيئاً ، الا ان بطأه ذلك كان يعد سرعة كبيرة بالنسبة لمقاييس ذلك الزمان . فسمح بتشكيل كتيبة نموذجية واحدة على الاصول الحديثة ، غير ان اشارة واحدة لمح بها الى الديوان بتطبيق الاساليب الحديثة على الانكشاريين أيضاً ولدت الفتنة في الحال . فقد بذرت حماسة السلطان الشخصية بذرة الجيش الحديث في تربة غنية بالمزاياء العسكرية الفاتكة التي يعرف بها العنصر التركي ، لكنها اختنقت بما كان في تلك التربة من جذور عميقة وأدغال سامة يغذيها الانكشاريون العريدون المبتذلون الوقحون ، والعلماء الرجعيون المعادون للتجدد ، الذين كان التدريب والمدفعية الأوربيين في نظرهم من أحابيل الكفار ، والذين كانوا يعدون الحاج بكتاش خيراً من سوارو او نابليون في رسم الخطط العسكرية وقيادة الجيوش . وكانت القصة المستمرة لشغب الانكشاريين وجورهم في كل جزء من أجزاء الامبراطورية تعرب عن جسامه سوء الاستعمال الذي كان يومذاك ، وعن صعوبة اجراء الاصلاح . وفي ١٨٠٧ م (١٢٢٢ هـ) خلع سليماً الاوباش الذين خاب في استئصال شأفتهم وادخال التجدد عليهم . ثم انتعش الاصلاح ودبت فيه حياة جديدة بتسليم الامير الشاب ، ذي الصلابة والمبدأ ، محمود الثاني . غير ان الرجعية عادت فانتصرت ثانية ، فاضطر السلطان الشاب ان يعلن بعجز ومراة ايقاف الاصلاحات التي كانت أقرب ما يكون الى قلبه ، بينما كانت خيانات الانكشاريين المفضوحة قد صودقت وبوركت . وظلت سرايا الانكشاريين القديمة ، التي كان يؤازرها رجال الدين والرأي العام الرجعي ، لنصف جيل آخر ضعيفة عاجزة . وقد ظهر عجزها الشائن وعدم كفايتها في عشر مواقع جرت مع اليونانيين والمصريين ، وفي قراب عشرين حادثة من حوادث العصيان والتمرد ، فضحى هؤلاء في ذلك بكل شيء من أجل منافعهم الخاصة من دون خجل .

ولم يتجرأ السلطان محمود على اصدار أمر من ديوانه يجزم فيه ان تخضع نسبة معينة من كل سرية للتدريب الحديث الا في عام ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) ، وقد تلا ذلك هياج بحسب العادة ، الا ان النتيجة كانت شيئاً جديداً . فقد أعدم الانكشاريون عن آخرهم في استانبول ، واعدم آلاف كثيرة منهم أيضاً في مختلف

المدن التركية الاخرى • فتشت بذلك سراياهم التي كان لها الذكر الذائع مدى
دهر طويل واضمححل القاصي والداني منها ، ثم شطب اسمها واندثرت نظمها •
وبعد ذلك أمر بتأليف جيش حديث على الطراز الجديد •

وكان ليوم خلاص الامبراطورية العظيم هذا الذي يعزى النجاح فيه لمزايا
رجل واحد ، نتائج مباشرة في العراق سنأتي على ذكرها • وليس من اختصاص
هذا التاريخ البحث في الفشل الجزئي الذي منيت به الامبراطورية في حصد
فوائد هذا اليوم المستحصدة - بنتيجة التعدي الروسي المتزايد قبل ان يصل
الجيش التركي الحديث الى أوج قوته - ولا في الصعوبات التي لم يثبت تجاهها
(النظام الجديد) الكفاية اللازمة في أوربة وآسية وأفريقية • الا ان الاصلاحات
الاساسية الاخرى التي قام بها محمود الثاني كانت تدل على روحية تركية الجديدة
التي أصبح مماليك العراق نقمةً عليها • فبينما كان داود باشا في بغداد ينعم
بمعظم الاراضي العراقية على مقربه وذوي الحظوة عندهم ، ويوقفها عليهم ، كان
السلطان يشتغل في وضع القسم الأكبر من الاوقاف الدينية تحت الاشراف
الحكومي • فقد رجعت ارادة سلطانية واحدة الى نفوذ الحكومة جميع الهبات
الاقطاعية (المساء استعمالها منذ مدة طويلة) التي اعطيت خلال قرون عدة • أما
حاكم العراق فكان يهب كل يوم امتيازات جديدة على غير قاعدة • وكانت سياسته
الاستغلالية الضعيفة تجاه شيوخ القبائل والامراء الاكراد بعيدة كل البعد عن
عزم سيده الاسمي في اخضاع كل واحد من ، لا بل جميع ، « بيكات الوديان »
العاسفين الذين ربما كان من الممكن أن يكون الباشا المملوك نفسه في الحقيقة
شيئاً لهم ولكن بمقياس أوسع • وكانت في استانبول تبدل الجهود - وهي
جهود لم تثمر تماماً حتى في القرن التالي - للقضاء على سوء استعمال الجباية
والاستيفاء والجور الحكومي ، اما في العراق فقد كان الهوى ، الذي يسيطر عليه
التعصب والجنشع ، الحكم الوحيد في جمع الضرائب وتسييرها •

والحقيقة ان حكام العراق لم يستخبروا بشيء عن هذه التبدلات العظيمة
المحدثة في الامبراطورية • فلم يزر استانبول الا قليل من الاغوات ، ولم يكن
يعرف منهم جغرافية الامبراطورية الا قسم قليل • لكن ما كانوا يعرفونه حق
المعرفة هو بعد العاصمة وعجز السلطان ، المبرهن عليه ، في تنفيذ رغباته في

العراق . وكان الباشا ، لقصر نظره ، وثقافته القديمة ، ومشاوريه الجهال غير الحكيمين ، على غير علم ، أو لم يتمكن من العلم ، بمدى الاصلاحات التي ادخلت في تركية ولا بشخصية سيدها الحديدية^٨ . ومع هذا كان الباشوات المماليك ، كما مر بنا ، يبدون ترحيباً جزئياً بدعاة التقدم في بلادهم من الاوربيين ، ولم يرفض آخرهم بالكلية قسماً من الاصلاحات التي اشير عليه بادخالها . وقد تبدلت نوعية الانكشاريين في العراق كثيراً خلال القرن الماضي ، فقد كان ضباطهم الذين يردون من استانبول يقلون شيئاً فشيئاً حتى انقطعوا تماماً . فنوقف ورود قوائم المجندين من الخارج ، وعوض النقص الحاصل من ذلك بالتجنيد محلياً . وربما كان آخر مظهر ظهره في كقوة تتسم بشيء من الصبغة الامبراطورية اشتراكهم في النزاعات على الحاكمية الحادثة في ١٨٠٢ م . ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكن الانكشاريون الا جنوداً يجندون محلياً ، وتدفع لهم أرزاقهم من الخزينة المحلية ، وبذلك كانوا يشابهون البرطية والتفكجية في جميع الامور الاساسية ، برغم بقاء جمل واصطلاحات متأصلة بينهم ، مع شيء من الاختلافات في اللباس والواجب الذي يقومون به . اما في الجهات الاخرى من تركية فقد كان جورهم وشغبهم آخذاً في الازدياد كلما كانوا يقتربون من نهايتهم ، لكن ذلك أخذ يتناقص في العراق بتعاظم شأن القوات المحلية وطيغانيا عنيهم . ومما هو جدير بالذكر ان الباشا نفسه كان في منتصف القرن الثامن عشر لا يجروء على البقاء من دون أن يثبت اسمه في سرية الانكشاريين ، لان الانخراط في سلوكهم كان ضرورة اجتماعية لا تنطوي على القيام ببعض الواجبات وانما تعد من قبيل المحافظة على النفس . اما في عهد الباشوات الاواخر من المماليك فقد توقفت تلك الضرورة وتوقف معها احتكار الامتيازات الناشئة عن الانخراط في ذلك السلوك برغم بقاء العضوية التي لا تستدعي القيام بالاعمال الحربية .

(٨) ان المقايسة واضحة بين شخصية الباشا وشخصية الپادشاه : فقد كان الباشا دمثاً متعلماً بشوشاً جذاباً ، الا انه كان ضعيفاً جباناً ومستولى عليه . وكان الپادشاه من جهة أخرى بعيد النظر متيناً ذا عزم مضحياً بالراحة والهدوء في سبيل الاصلاح . ولم يساعده الا قليل من الناس بل لم يساعده أحد مطلقاً في مساورة مساويء الامبراطورية الجسيمة .

وقد طلب السلطان محمود بعد قضائه على انكشاريي استانبول تواتر اتخاذ الاجراءات نفسها من حكام الولايات أجمع . فوصل الامر بذلك الى بغداد ففى آخر صيف ١٨٢٦م (١٢٣٢ هـ) . فأخفاء الباشا مؤملاً حلول فرصة يجدد فيها ولاءه وطاعته للسلطان ويحسن علاقته به ، ثم يقضي على القوة الوحيدة الموجودة فى الباشوية من دون أن تكون تابعة له بالكلية . وقد جلبت القوات من المراكز الخارجية الى بغداد فى يوم معين كان السراي فيه مكتظاً بخيرة جند المماليك . وكانت بطاريتان من المدفعية مسلطتين على ساحته . وقد اصطف وسطه المماليك الذين كانت ثمانى عشرة سرية منهم فى بغداد حينذاك . فكان ذلك اجتماعاً فريداً فى بابه اشرأبت فيه الاعناق وخمدت النفوس انتظاراً لاعلان النبأ الجديد . وقوبلت الارادة الملكية ، بعدما قرئت بصوت عال ، بتعجب لا يصدق به . فطلب الباشا والدموع ملء عينيه حزناً على مصير الانكشاريين - حصن الاسلام الحصين منذ القدم - من الجميع أن ينخرطوا فى صفوف القسوات التي كان يراد تأليفها حديثاً . وبادر كل جندي فى السريات من غير عنف ولا ضغينة ، ولا تغيير القواد الى نزع « الثقاليق » واستبداله بلباس الرأس الجديد ، والى اثبات اسمه فى كتيبة « النظامية » ، وسمع بعد ذلك دوي الاطلاق من المدافع ، المعدة لغرض آخر اذا استدعته الحال ، أيداناً بالفرح . وقد عرضت المشاهد نفسها ، الشبيهة بخلوها من سفك الدماء وبعدها عن الطريقة التي جرت عليها فى استانبول ، فى الحلة والبصرة وفى سائر الاماكن . فانهى كل شئ ولم يبق غير تجهيز الجيش الحديث بالمعدات . وعهد امر تدريبه الى المسيو ديقو ، وهو ضابط افرنسي^٩ كان بخدمة محمدعلي مرزا فى كرمشاه . وقدمت المشورة من جانب المقيم البريطانى الميجر تايلور الذي كان بعهدة ابنه تأليف كتيبة من الخيالة على الطراز^{١٠} نفسه فى سنة ١٨٣٠م (١٢٤٦ هـ) . وكان الباشا قد طلب من بومبي منذ ١٨٢٤م طيبياً بريطانيا وتجهيزات لائف جندي . لكن طلبه هذا قد رفض لانه كان يقصد تجهيز الحرس المماليك به . وبعد المباشرة بتشكيلات « النظام الجديد » طلب المساعدة بمقياس

(٩) هوار (ص ١٧٥ ، الحاشية) .

(١٠) يقول فونتانييه (ص ١٩٢) ان تايلور حاول بكل سخافة احباط مسعى ديقو ليأتي بكتيبة نموذجية من الهنود .

أوسع ، فقد طلب ضباطاً ومدرسين وصناعاً وثلاث سفن مسلحة كبيرة وكميات كبيرة من الذخائر الحربية • فرفض طلبه ثانية ، وربما كان الرفض ناشئاً عن الاعتقاد بأن مثل هذه الأشياء قد تساعد لاغراض الثورة والعصيان • غير ان النظام الجديد قد نمى وتوسع ، فكانت عدة آلاف من الجند في التدريب والسلاح في ١٨٣٠ م وكانوا يقبضون رواتبهم بانتظام ، وقويت عزائمهم بنجاحهم في الحرب الثبائية • وكان يمشي الى جنب هذا التجنيد تأسيس المعامل المقضية لصنع البستهم واللوازم العسكرية الاخرى •

ويقول مبشر انكليزي^{١١} كان في بغداد في الشهر الذي حدث فيه هذا التبدل ان « كل شيء كان يدل على تغلغل النفوذ الاوربي ••• ولم يكن هذا الاتجاه في استعمال الاساليب الاوربية وادخال التحسينات بارزاً في الشؤون العسكرية حسب بل في امور اخرى اكثر أهمية منها • فقد كانت رغبة الباشا عظيمة في ادخال الملاحة البخارية في هذين النهرين الجميلين •• واني أشعر في الحقيقة بأن الباري سبحانه وتعالى قد ادخل انقلابات عظيمة في قلب هذه الأمة » •

ويدل هذا الرأي على كثير من الحقيقة • فقد فتحت المعامل ، وجيء بميكانيكي من جنيف ، وبستاني من اليونان • وكثر التحدث عن مواصلات أسرع من القديمة بين اوربة والهند على طريق الفرات ، وبدأ جماعة من الموظفين البريطانيين - أورمزي وايلوت - يمسحون الانهر • وبات في حيز الامكان نقض الاتقادات الموجهة على عهد الممالك الاخير الواسفة له بالجمود والرجعية • فقد شاهد الكل علامات التقدم المادي والاسلحة الحديثة والامل بتحسين المواصلات وتزايد السياسيين الاوربيين • فلم يكن باب التقدم موصداً بالكلية ، كما لم يكن مفتوحاً على مصراعيه أيضاً بل كان يفتح ويسد تبعاً للاهواء • وكانت الرغبة في المفاخر لا في روح التقدم • ولم تخط كل هذه الاصلاحات خطوة في الطريق المؤدية لتكوين حكومة صالحة^{١٢} •

(١١) المستر أون غروفر • وقد كتب مذكرات يومية واضحة جداً ، يعتمد عليها في حدود الامور التي يبحث عنها •

(١٢) ان ما وصف به ستوكلر داود باشا بانه « مجدد ناجح على الطريقة التركية » وما ذكره في « مقاومته الطويلة للباب العالي » قد يكون مسوغاً لمخاوف حكومة بومبي عندما رفضت أن تبيعه السلاح •

حل عام ١٨٣٠م فكان داود باشا بشخصه وبيته وسلالته وجميع نظامه قد كتب عليه الزوال ، لاسباب كنا قد وفيناها حقها من البحث بشيء من الاسهاب .

فقد أصبح استقلال بغداد الطويل لا يطاق ولا يأتلف مع الاحترام الذاتي للامبراطورية الام . فكان داود باشا يومئذ منفصلاً عن سيده في استانبول ، ولم ينفذ له أمراً غير احوال الجيش النظامي في محل الانكشاريين في الاخير . وبقي محتفظاً بحرسه الممالك الذين كانوا طوع اشارته في الطاعة ، وهم أشد خطراً على سيده السلطان من الانكشاريين . على أن جميع مساوىء الحكم وكثيراً من سوء الاستعمال ، مما كان السلطان مشغولاً في القضاء عليه من دون هوادة ، كان يرى مزدهراً في العراق ومتعظماً في الشأن يوماً بعد يوم . وكانت اوهام الباشا غالباً ما تضايق دبلوماسي الدول القوية . فبات عهد الممالك سخيفاً أحياناً ، ومهيناً بعضاً ، وخطراً في بعض الاحايين . وقد امتنع باشا بغداد - وهي أغنى الولايات بعد مصر - عن مساعدة سيده السلطان مساعدةً كان به أمس الحاجة اليها ، وذلك عندما كان في حرب ميؤوس فيها مع الروس ، فراد ذلك في الطين بلة ولم يعد السلطان يحتمل ذلك الوضع . وعند ذاك عزم على ارجاع العراق الى حظيرة الامبراطورية التي كانت داخلة في دور الاصلاح . فكانت أول خطوة خطاها لتنفيذ عزمه ارسال رسول ماهر يطلب من الباشا المملوك في بغداد التخلي عن الحكم . وقد انتدب لهذه المهمة السياسي المعروف صادق افندي . فأرسل بهذه المهمة في الحقيقة ، لكن مهمته الظاهرية كانت جمع التبرعات من بغداد وغيرها للجيش الحديث . وبذلك رفع سفر صادق أفندي من استانبول الستار عن آخر دور قام بتمثيله الممالك في العراق .

فقد كانت مواكب القبوجيين الواردة كل سنة من استانبول وهي تحمل الفرمان والخلعة شيئاً مألوفاً . لكن الغريزة في هذه المرة قد اندرت داود بأن هذا الموكب الجديد اكثر خطورةً من المواكب المألوفة فأعد عدته وحضر مبالغ جسيمة من المال ، كان قد جمعها على مدى السنين بجشعه ، ليتاع بها سلامته عند اقضاء الحال لها . وارسل الى طوزخرماتو في استقبال صادق افندي عربية ذات أفراس أربعة مع موظف كبير يحصل هدايا الترحيب . لكن الرسول كان قد وضع خطته التي سير بموجبها في هذا الشأن . ولما كانت أخبار سفك داود للدماء ،

التي رواها له الجليلي في الموصل ، ما تزال طرية في مسمعه قابل المبعوث مستقبله بجفاء وخشونة . وعندما وصل الى ضواحي الاعظمية أبى التوقف لزيارة الامام الاعظم « خلافاً للعادة » قبل ان يدخل المدينة . فدخل بغداد ومشى بين صفوف حرس الباشا متجهاً نحو المحل المعد لنزوله من دون أن يعاً بمظاهر الاستقبال ولا بزيارة داود ، الذي كان ينتظره في السراي بكل أبهة . فازدادت الوجوه الفزع في بغداد خوفاً ووجلًا .

وكانت زيارته الاولى للقصر في صباح اليوم الثاني . غير ان داود تعمّد ان يتأخر في النهوض له الى آخر لحظة مجازاة للخشونة التي بدت منه . فتبدلت التحيات الرسمية وقدمت القهوة والحلويات ، ولم تصدر أية كلمة في الحديث عن غايات الرسول ووفادته . وحدثت في اليوم التالي زيارة أخرى ، الا انها كانت رسمية وجافة كالاولى . وفي الزيارة الثالثة أبان صادق جلية الامر وفاه بما جاء من أجله . فأعلن عزل الباشا وطلب منه تسليم الحكومة في الحال رافضاً أي تأخير وطلب للتفاهم . واذ ذاك حل محل احتجاج الباشا واعتراضه التهديد والوعيد . وأصبح لا بد من حدوث حادث جلل قبل سفر صادق . فرجع القپوچي مذعوراً حذراً الى مخدعه ، وبعث في طلب سليمان آغا الميرآخور وطلب اليه ان يطيع أمر البادشاه . ويذبح الباشا العاصي الوقح بعد ان وعده بالباشوية على سبيل المكافأة . لكن الميرآخور استمهله الى حين ، وخف راجعاً لسيده في السراي . فانزعج داود للامر واهتم ، وبعث في طلب محمد مصرف^{١٣} . واسحق الصراف اليهودي لاستشارتهما . فاتفق الجميع بعد ساعة ، وزنت خلالها المخاوف واحدة باخرى وقويست المحاذير ، على قتل رسول السلطان الرسمي من غير عجلة ولا ارتباك . وفي مساء اليوم التاسع عشر من تشرين الاول ١٨٣٠م (١٢٣٦هـ) احتشدت بعد الصلوة سرايات النظاميين بكل سككون حول مخدع الرسول . ثم ملئت بكل هدوء جميع الغرف بمن يعتمد عليهم من الممالك ، وانتخب الخدم المسرعون ، ثم عهد بمهمة

(١٣) قال أحد الآلوسيين في المخطوط المرقوم ب ٢٥٩٦ من خزانة الاوقاف ببغداد : « سنة ١٢٤٦ جاء صادق افندي من امراء الدولة الى بغداد فقتله مصرف محمد افندي بأمر داود باشا » - « م . ج » .

القتل الى خالد آغا ورمضان آغا حاجب الباشا • فدخلوا من غير مراسيم على الرسول المحكوم عليه فقابلهما بذعر شديد • وبعد ان نطق بسؤال غير مفهوم قضيا معه مهمتهما ونطقا بأوامرهما قصيرة يسيرة • ولم تجده نفعاً توسلاته في مفاوضة أخرى لداود ولا وعوده الخلافة ولا استعطافاته • فقد ضغطت على حنجرته يدا خالد الضخمتان فخلق بعقدة حمالة السيف •

وفي هذه الاثناء كان الباشا قد تنكر وخرج يحوطه حرسه الخاص لينتظر بالقرب من باب المعظم الاخبار السارة بنجاح الخطة • وعند علمه بما تم دخل غرفة الموت بنفسه فتحقق خروج الحياة من جثة الرسول ، ثم أمر بدفنها • وكانت تبدو عليه أمارات التأثير التي لم تكن تخلو من اخلاص • وقد أظهرت هذه الجريمة الشنعاء من شخصيته الضعيفة عزماً غير مألوف ، لأنه أيقن بأن المستقبل أصبح رهيباً لا محالة • كيف لا وقد كان هناك قوحي آخر ينتظر نتيجة وصول صادق ، فسي الموصل ، وكان آخر ينتظر في ديار بكر أيضاً • وفي غضون ذلك انتشر النبأ في بغداد بسرعة • فخشي قسم من الناس ان يستسلم الباشا الى الشاه حفظاً لسلامته • وظن آخرون ان قواته حسب الظاهر كافية للوقوف في وجه ما سيرسله السلطان البعيد المشغول من قوة • وفكر قسم آخر في ان استانبول ، بعد قرن مفعم بأمثال هذه الحوادث ، سوف تتغاضى عن هفوات الممالك هذه • اما الباشا فقد كتب الى استانبول بوفاة القوحي على أثر اصابته بالهزيمة محاولاً بذلك في الوقت عينه تمويه الامر على الرأي العام في بغداد^{١٤} • غير ان الحقيقة كانت واضحة للعيان • فاخذت الاسعار ترتفع لان الجميع صاروا يكتالون ويخترنون حيلة لما قد يحدث من الاضطرابات التي اذا وقعت فلن تكون هينة ولا بطيئة •

وقد أضافت هذه الحادثة الخسيسة الى الاسباب العامة ، الداعية للقضاء على انشقاق الممالك عن امبرطورية السلطان ، أسباباً داعية أخرى • فلم يعد بوسع

(١٤) ان أووشيه أيلوي المشار اليه من قبل يرى أن المقيم كان مجبراً على التسامح في قضية الجريمة لرغبته في أبقاء نظام الحكم الحالي • اما ستوكلر (ص ١٥) فيورد الخبر بشكل يحاول فيه داود تبرير عمله لدى تايلر - بأن صادقاً كان هو المعتدي ٠٠٠ الخ لكن فريزر (ج ١ ، ص ٢٦٠) يؤيد ما ذهب اليه أووشيه أيلوي •

السلطان، وقد قبلت سلطته، في أفرقية بنجاح محمد علي غير المحتمل، أن يبقى ثائراً ثانياً مثله في الوجود، وكان يعرف جيداً كيف يعتبر كلب داود الرقيقة ويستتج الوضع منها • ولم يبق امامه غير اختيار خلف له • فعرضت ولاية بغداد في بادىء الامر على يوسف باشا، وهو رجل مجازف من الروم ايلي كانت بعهدته ايالة حلب • لكن طلباته من المال والجند من أجل أن يقوم بالمهمة حالت دون تعيينه • وكان المرشح الثاني الحاج محمد علي رضا باشا^{١٥}، الذي شاور من عرف العراق من أصحابه في العاصمة، فقدم نفسه للخدمة مشروطاً أن يعطى ستة آلاف كيس فقط مع لواء من الجند • وكان هذا من الوزراء الحديثين ذوي التاريخ المجيد • وعندئذ رفع لدرجة صار يحكم فيها مجموع أيلات العراق وحلب عدا الموصل • وبعد أن حشد قواته في حلب في كانون الثاني من سنة ١٨٣١م (١٢٤٧هـ) تركها في أوائل شباط مع تسعة مدافع وقطعة صغيرة من الجيش النظامي الحديث في حلب، وكتبتين من خيالة الاقطاعيين، وعدد كبير من غير النظاميين الذين كثروا بعد ذلك بانضمام الثمريين من أتباع صفوك اليهم • وكان خلال سيره يرسل بالكتب بصورة مستمرة من معسكره الى القنات المتبرمة في العراق بأيدي الكثيرين ممن ترك جيش الممالك • وتوفق في الموصل ببذله الاموال وكرمه ان يجتذب قلوب الجميع اليه • فعين حاكمها قاسم باشا العمري قائداً ثانياً بعده • وبينما كان الجميع متأهين للتقدم نحو الجنوب وافتهم أنباء من العراق الجنوبي فأوقفت سير هذا المنتقم، الذي بات واجبه منوطاً بيد أقوى من أيدي البشر •

فقد كانت تصل الى بغداد منذ تموز ١٨٣٠م اشاعات عن تفنني الطاعون في تبريز • وبعد شهرين تحقق تأثيره المروع وسرى شره الى كركوك، وقد حدث فيها عدة اصابات طاعونية • وفي الحين الذي كانت فيه بغداد مذعورة لقتل القويجي تواردت اليها شتى الانباء عن تقدم الطاعون نحوها • فقد جاوز كركوك وأخذ يبعث فتكاً بالسليمانية • وعلى هذا أحضر طبيب المقيمة الانكليزية في بغداد تعليمات لتنفيذ الحجر الصحي، بعد ان طلب اليه ذلك الوالي بنفسه • غير ان التأسيرات الرجعية التي أفتت بأن كل عمل يتخذ للحيلة يعد ضرباً من الزندقة حالت دون

(١٥) نجح مرة في قمع اضطرابات في عينتاب عندما كان متسلماً في تلك الجهات • وهو من اللاط الذين يمتنون للجراكسة بصلة ويقطنون في الساحل الجنوبي الشرقي من البحر الاسود •

اتخاذ معظم الاحتياطات ، وأذن للقوافل الواردة من الاصقاع التي حل فيها الطاعون من ايران وكرديستان في ان تدخل بغداد بكل حرية • وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط علم الجميع بأن السلطان أعلن اعتبار داود باشا نائراً^{١٦} • ووافى نبأ في اليوم الرابع والعشرين يفيد أن علي باشا غادر حلب قاصداً الى بغداد ، وبعد مضي شهر وقعت أول اصابة طاعونية • وكان أول^{١٧} حدوث الاصابات في البيوت القذرة من محلات اليهود • وفي أوائل نيسان حاول الكثيرون الفرار من المدينة ، ولكن الى أين ؟ فقد استولت القبائل على الطرق كافة ، وكانت السفن النهرية قليلة ومكتظة وقد تسرب الطاعون اليها • وقد بلغت الاصابات أشدها منذ اليوم الرابع من نيسان ، فبات الناس يموتون بمعدل مائة وخمسين في اليوم الواحد • وبادر النصارى^{١٨} والاوربيون القليلون اذ ذاك في بغداد لتحسين مساكنهم والحجر عليها منعاً للاختلاط بكل ما لهم من شدة • أما الباشا وأهل بيته فقد حاولوا الفرار من وجه الطاعون ، غير انهم لم يستطيعوا ترك ثروتهم المكدسة ولا حملها معهم • ثم اختل النظام بأجمعه وانتشر اللصوص فلم يردعهم رادع • وبعد ذلك وافت أنباء تقدم العدو واقراره من المدينة يوماً بعد يوم • واضطر المقيم الى الانتقال الى البصرة على النهر •

(١٦) يذكر كتاب « مرآة الزوراء » ان مؤامرة لم تنفذ كانت قد دبرت بين مماليك بغداد لقتل داود وطلب العفو من السلطان •

(١٧) قال مصطفى جواد : ورد في تعليقات لأحد الآلوسيين على المخطوط المرقوم « ٢٥٩٦ » من خزانة الاوقاف ببغداد ما نصه : « سنة ١٢٤٦ جاء الطاعون الى بغداد ووقع الطعن في العشرة الاخيرة من رمضان ثم كثر في خمس من شوال والناس بين مصدق ومكذب ، وأول ما وقع في روافض الصدرية ثم اليهود ، وفر الناس وزادت دجلة زيادة لم يسمح بمثلها وكسرت السداد وأحاط الماء والبلاء بالناس وهدم من الجانبين نحو خمسة آلاف دار بل أكثر ، ومات في اليوم عشرة آلاف نفس وأكثر ، وعجزوا عن الدفن فجافت الطرق والبيوت ، والناس كيوم القيامة وبعد أن هان الامر في الجملة القيت الموتى في دجلة ، يجرون من أرجلهم • وكثير منهم تنفصل رجله ، وذهبت الاموال هدماً وسرقاً فان الله وانا اليه راجعون » •

(١٨) يؤكد ذلك ويلستيد وسليمان بك • كما أن المستر غروفر اتخذ التدابير نفسها ، ومع ذلك أفقده الطاعون زوجته (ص ١٤٠) •

وتجتمع أخبار هذه الكارثة كلها على التفصيلات الواردة عن تشفيه وسيره المفزع . فقد تبدت الحال بين الناس من عدم المبالاة الى الذهول والذعر ، ومن الكتابة الصاخبة الى صمت الموت والقنوط ومات على هذا المنوال حتى اليوم العاشر من نيسان سبعة آلاف من الناس خلال خمسة عشر يوماً . ثم هلك في اليوم الحادي عشر الف ومائتان ، ومنذ هذا اليوم الى اليوم السابع والعشرين كان عدد المائتين في كل يوم بين ألف وخمسمائة الى ثلاثة آلاف . ولم يشف مريض واحد من كل عشرين مصاباً . وكان الطعام لا يوجد الا في الندرة ، ولم يشتغل السقاؤون ، فركدت حياة المدينة بأسرها ولم يفكر أحد في غير الموت والموتى . وعلى هذا توقفت أعمال الحكومة جمعاء ، لان الموت هاجم الموظفين وأفراد الجيش وخدم الديوان ف قضى عليهم كقضائه على سائر الناس . فأصبح الباشا الحائر وليس من أحد يأخذ بأوامره . وكان قد طلب ان يأتوا اليه بالسفن فلم تحضر سفينة واحدة . وخابت مساعي الاحياء في دفن الموتى امام سيل الموت الجارف حتى ظل الاموات متكدة أشلاؤهم في الشوارع والازقة ، وهام الاطفال والعجزة على وجوههم من غير هدى وهم جائعون لا قبل لهم بشيء . وقد كثرت الجرائم والسرقات في هذا العهد الرهيب حتى قضى الموت على الجاني والبريء معاً .

واذ ذاك ظهر للعيان خطر جديد ومنع فزع حديث في الحادي والعشرين من نيسان . فقد أخذت دجلة في الزيادة ، فتعالى مستوى مائها كثيراً عن المعتاد . وأحاطت المياه ببغداد ، فمنعت ألوف الناس من الفرار وحالت دون ورود الطعام الى المدينة من الخارج . وبقي فيضان الماء يزداد بوصة فبوصة فبلغ الى أعلى السداد وكانت مهلة وامتألت السراييب ولم يبق بين بغداد والغرق سوى قدم واحد من السدة المتداعية . وفي ليلة اليوم السادس والعشرين انهار قسم من المسناة الواقعة في الجهة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ، ففاض الماء وتساقط على أثر ذلك من الدور الفان في ظرف بضع ساعات . فاستحال السراي وسبعة آلاف من الدور ، في ضمن أربع وعشرين ساعة ، أنقاضاً متراكمة دفن فيها في رمس مشترك المرضى والاموات والقليل من الاحياء الباقين . وشوهدت خيل الباشا الاصائل هائمة في الازقة ، وأصبحت اهراؤه الوسيعة الملائى بالطعام مفتوحة على مصاريعها . وبعد يومين أخذ الماء بالانخفاض وقل مقياسه في اليوم الثلاثين من الشهر بمقدار ياردة .

واحدة • وفي نهاية الاسبوع الاول من مائس زال خطر الطاعون والماء معاً • ومع احتشاد من بقي من سكان المدينة في عدة من المحلات اليابسة ، وما فى ذلك من تسهيل لفتك الطاعون بهم ، قلت وطأة الطاعون نفسه فتجدد بذلك أمل ان بغداد لن تضمحل عن آخرها كيفما كان الامر • على ان الكثيرين من السكان بقوا في عداد المرضى ولم يزل ثقيلاً عليهم عبء الجثث ، الملقاة فى الأزقة تلعب بها الكلاب في أوحال ماء الفيضان • ولم ينته أجل المآسي المحزنة ، التى لم يكن مثيل لها فى هذه المدينة ، الا بعد ان انقضى ثلثا الشهر الجديد •

ثم رفعت جثث الموتى شيئاً فشيئاً ، فدفن قسم منها والقي القسم الآخر في النهر ، وجمعت الحيوانات الشاردة ، وأبيع شيء من الطعام ، ثم تعالت أصوات المؤذنين من الجوامع الباقية • وقد خرب قسم كبير من المدينة بهذه الكارثة العظيمة بحيث لم يعد في الامكان اصلاحه • وبقي القسم الآخر واقفاً آوى اليه بقايا السكان المرعوبين وبضع مئات غيرهم ممن رجع الى المدينة من الخارج • ودب ديب المواصلات قليلاً في الاسواق المهدم أكثرها المسروقة كلها • الا ان كثيراً من المهن انقرض مع من مات من القليلين البارعين فيها •

سقوط بغداد

أجال الباشا بصره في بغداد الغريقة فأرسل عليها نظرة تعة يا لها من نظرة • فلم يك أحد أشقى منه يومئذ ، فقد توالى عليه المصائب من كل حذب وصوب • وبقي في خدمته أربعة من الصعاليك البشعين الشاحبي اللون بدلاً من عشرات الانوات الزهر من الممالك الكرج ، ولم يبق من كتائب الشهيرة الا بضعة عشرات من أفرادها ، وأصبح القصر المنيف وقد خرب نصفه وتهدم • اما الخزانة فكانت لا تزال ملاءى ولكن لغير غرض • وانقصمت عرا الولاء والطاعة أو وهنت لحد كبير • وعلى هذا فقد غدا داود في أواخر أيام الطاعون ضعيفاً من المرض ، وحيداً في غرف قصره وحجره المطلية بالذهب وفى خدمته امرأة عجوز وهو ينوء من ضعفه بحمل مسؤوليات المستقبل الذي كان يترأى له شبحه • وكيف لا يكون كذلك وقد خاب أمله وجبطلت مساعيه في الدفاع عن بغداد ، فضلاً عن الاهوال التي توالى عليها • وكان عند أول تخوفه من نزول العقاب به قبل تفشي الطاعون قد بعث بقوة قبائلية لتحتل خط الفرات في دبر الزور ، وأرسل قسماً من جيشه النظامي الى ماردين • ولما أيقن أخيراً بأن ذلك لم يعد بكثير نفع عليه لاعتماده

الباطل عدل عن ترتيباته السابقة وبعث يوسف آغا مع كتائب الجيش النظامي لتعزيز كركوك . فدمر الطاعون القسم الاغلب منها وأخرج سكان المدينة من بقي منها . وفي أوائل أيام مرضه بعث الميرآخور لجمع الجنود الاجيرة من الخالص ، الا أن الموت عاجل ضابطه المحارب هذا وتفرق شمل الجنود الاجيرة . وبعد ذلك ترك بغداد كل " من محمد مصرف ومحمد باشا بابان في الوقت الذي كانت فيه تحاصرها من جهتين لها قوات صفوك الخفيفة ومقدمة جيش علي رضا التي توجهت من الموصل بقيادة قاسم باشا . وكان غرضهما من ذلك جمع فنول كتائب يوسف باشا وتجنيد جنود أجيرة غيرها ببذل المال لهم . بيد انهما ما وصلا الخالص حتى علما باضمحلال يوسف وقرب وصول صفوك ، وعندئذ اتجها جنوباً وشرقاً الى بلاد شمر طوقة فوقها فريستين لاطماع القبائل هناك وشراستها . وبذلك انزلت ضربة قاضية أخرى على الپاشا المملوك الذي لم يبق منه الا هيكله الهزيل يحمل يومياً بضع ساعات من قراشه الى الديوان فيقصده فيه جماعة من الزائرين ممن تدفعهم عادتهم أو رغبتهم الى الاستطلاع للحضور لديه .

وكانت الاخبار التالية التي جيء بها تفيد وصول قاسم باشا الى الكاظمية مع سليمان غنام العقيلي (الذي رافق علي رضا من استانبول) والشيخ صفوك . وهناك قرىء الفرمان بعزل داود بصوت عالٍ ، وركع الجميع لاوامر الپادشاه ، ثم ارسل عشرون وكيلا الى بغداد . فحدثت نتيجة ذلك أول هياج قام به رعا ع محلة باب الشيخ ، فانهم ساروا الى السراي وأحرقوا باباً من أبوابه ثم فروا عندما تارت أول طلقة من بندقية عبدالپاشا الرابض . اما الپاشا فلم يظهر بجنبه أحد من الاتباع ولا صديق من الاصدقاء . ولما أناخ الليل بكلكله ركب الپاشا وبجانبه عبده الحبشي الوحيد ، الذي استعان به عند الركوب ، وترك قصره فالتجأ الى بيت صديق له . على ان جميع الجهات في البلد كانت قد عزمّت على الاستسلام للقوة الجديدة . فقام وفد من الاشراف والعلماء ممن يعلم بمكان اختبائه وقصادوه الى دار^{١٩} صالح بك ، ثم أخذوا عليه عهداً وثيقاً بتسليم الپاشا الى علي رضا عند اللزوم . وبعد ذلك دخل المدينة قاسم باشا ، فاستقبله اولئك الوفد الذين وضعوا

داود في الاسر انفسهم وشيعوه الى السراي • فبان للجميع ان كل شيء قد انتهى من غير عناء • وبذلك أمسك القائد الموفد زمام الحكم ، ولم يبق لسيدته الذي بعث به الا ان يتقدم من الموصل نحو الجنوب ، ليجد باستقباله الجميع •

غير ان العنف الخالي من الحكمة الذي أبداه قاسم (المقبل على السكر كما قيل) وسوء سلوك أحلافه الشمريين والعقيل سرعان ما استفز همم البغداديين ، ولم يكن فيهم شيء ثابت سوى ترددهم ، فقاموا بوجه الجائرين • وقد أشيع يومئذ ان قاسم باشا كان ينوي الاحتيال على رئيسه ليحكم بغداد هو بنفسه ، ولاجل ان يوفق للقيام بذلك كان عليه ان يزيل الاتراك والمماليك عن طريقه ويعتمد على العرب وحدهم • وعندما قرى فرمان عزل داود باشا على الجميع طلب قاسم تنفيذ ذلك في الحال • غير ان مجلسه الشوري - المؤلف من الضباط وأشراف البلد - أصروا على تأجيل تنفيذ ذلك • وأصبح الوضع يتطلب من القليل من الضباط والجيش ممن سلم من الطاعون ان يجازفوا بحياتهم في تنحية قاسم • فحفوا للاجتماع في دار صالح بك وجرى نقاش بينهم فكان نقاش محافظة على النفس لا نقاش سياسة ، وتقرر وجوب إزالة قاسم •

وفي صباح اليوم الثالث عشر من حزيران ذهب قاسم لمجلسه وانتظر إحضار داود • فعاد من بعثوا لاحتضاره خائبين ، وكذلك سمعت جلسة وضوءاء في الخارج • فكان ذلك ان قوة من المماليك والعقيل والاهالي قد أحاطت بالبناية وأصبح الحاكم الجديد أسيراً في حوزتها • وعندما حاول أتباعه في الداخل ومريدوه في الخارج الدفاع عنه والهجوم على المتجمهرين توسعت أعمال الفوضىّة وكثر اطلاق النار • فسحبت المدافع من القلعة وسطا المتجمهرون على القنابل والذخيرة الموجودة في مخزن الاسلحة • اما في الداخل فقد ارتدع الكثيرون عن حركتهم وتركوا ما كانوا يسعون اليه على دون هدى • وبعد ظهر اليوم استسلم قاسم^{٢٠} وويوضة ماردين • اما سليمان غلام الذي بقي مسيطراً على جناح من

(٢٠) لم يذكر سليمان بك مصير قاسم باشا بعد الاستسلام • وقد سمع غروفر بأنه قتل ، وسمع فريزر (١٦١) بأنه القي في البئر • أما تقويم الموصل فيذكر ان داود باشا اعدامه « المؤلف » قلت قال أحد الألوسيين في أحد المخطوطات المذكورة سابقاً « ٢٥٩٦ من الاوقاف » ما نصه : « ١٢٤٧ قتل قاسم باشا والي الموصل قتله أهل بغداد أيام الفساد » - « م.ج » •

السراي حتى مغيب الشمس فقد سرق عند حلول الظلام جميع ما تمكن من حمله ، ثم أضرمت النار في القاعة الكبرى وفر هارباً والسيف بيده ماراً بالازقة والسوارع الخالية • فتسربت النار التي أضرمتها من غرفة الى أخرى ومن حجرة الى غيرها حتى تهدم القسم الاعظم مما بقي عامراً من السراي • وقد احترقت بهذه النار خزائن اللباس التي لم تكن لتسمن وأدوات بيته وفي ضمنها الاحجار الكريمة والاعلاق النفيسة والجواهر والذهب والسجاد النادر وأنواع الحرير والاقمشة المجلوبة من مختلف البلاد • وقد تلفت بهذا اللهب ، الذي أضرمه اليأس في التعاسة المؤلمة ، عشرات النفائس المتجلي فيها الفن الشرقي ووقع ما بقي منها بيد أول المهاجمين على الغنائم من العقيل ورعاع بغداد •

على أن هذه القلاقل قد وحدت جميع الاحزاب • وأصبح الرأي العام بأجمعه في جانب داود ، لا سيما وان نهب السراي وحرقه كان جريمة سوف يحاسب علي رضا من أجلها الجميع على سواء • وكان من المصاحبة لهم يومئذ أن يقفوا بجانب حاكم بوسعه ان يحفظهم ، فأجبر صالح على قبول منصب قائم مقام بغداد ، فتقدمه وهو ألعوبة بيد داود وكان ترشيحه فضلاً عن تعيينه يعد تحدياً للسلطان • ثم بعث^{٢١} بالرسائل الى استانبول ، وقد طاب وجوه بغداد فيها انهم مستعدون لزيادة الضرائب وجمعها كل سنة من غير تمهل ، كما انهم مستعدون لتلافي نفقات حملة علي رضا باشا على شرط ان يوافق السلطان على تعيين صالح أو داود للعراق موحداً بأجمعه • ثم كتبوا الى علي رضا انه سوف يلاقي في تقدمه أبواباً موصدة ومقاومة شديدة واقترحوا عليه ان ينتظر مثلهم أوامر سيده وسيد الجميع •

أما علي باشا فكان قد غادر الموصل مذ وافته أنباء قاسم وما كان من أمر دخوله بغداد • وقد وجده رسول البغداديين معسكراً على الزاب الكبير ، ومن هناك أمر بالتقدم في الحال • فوصل الى بغداد في بداية شهر تموز بعد ان جد في السير ، وخيم في الاعظمية ثم اعد مدافعه لحصار المدينة • فرد عليه الاهالي ببضع جولات مما دل على رغبتهم في المقاومة • وفي خلال الاسابيع العشرة الاولى كان كل يوم منها مفعماً بالشائعات عن الدسائس المحبوكة داخلاً وخارجاً •

(٢١) يقول ثابت ان ذلك كان « بواسطة تايلور القنصل البريطاني » .

وبقصاص الجرائم العنيفة الحادثة في كل محلة من محلات بغداد ، وبما كان يحدث من سفك الدماء على أبواب السور وما وراءه . وقد فضل علي باشا ، بدافع أخلاقه وخططه ، الصبر الاكيد غير المجدد على الهجوم الذي لا بد من ان يكلفه ذهاب الارواح وتحمل المرارة . وكان جميع ما في حوزة المدافعين من القوة خمسمائة من الجند النظامي الحديث ، أي الحرس المماليك ، ويقدر ذلك من عرب العقيل . وكان عند علي باشا في الخارج كتيبتان من الخيالة ، واثنان من المشاة ، واثنا عشر ألفاً من غير النظاميين . فسخر بحرية تامة سلاح أساليبه الرحيمة ووعوده الخلافة مع أي منقلب يلتجئ الى جيشه . ثم تزلف للقبائل وأغناها ، وكذلك أنعم بالاراضي بتبذير واسراف ، ولم يبق من ريب في النتيجة الاخيرة . واذ ذاك كانت آمال المدافعين متعلقة بقدوم الحلفاء من العرب ، أو بورود جواب سار من استانبول ، أو بوصول شائعات تنبئ بضعف العدو . وقد ظهرت انقساماتهم واضمحلت قوتهم الروحية في الصدمات العنيفة في الشوارع ، وبانشاء الاستحكامات الحربية والتاريس بين محلة وأخرى ، وبأليف عصبات الرعاع والاباش . وكان الضبط في الخارج أحسن بقليل . فقد هاجم العرب المنضمون الى قوة علي باشا ضاحية الكرخ من غير ايعاز رسمي فصدوا ، وانقلبت سرية من الالبانيين عليه طمعاً في رواتب أعظم من التي لهم ، ثم فرقت عرب سليمان غنام ، الذين كانوا مسيطرين على طريق الحلة ، قوة ما فأزاحتهم عن هذا المدخل واستولت على خيام العقيليين وأمتعته^{٢٢} . وبعد ان تشجع المدافعون بهذا النجاح حاولوا شن هجوم للخارج الا ان الارض الوعرة المغمورة بالمياه حالت دون ذلك . وكانت نتيجة هجوم غير منتظم شن على معسكر علي باشا في الاعظمية ضياع طابعتين من طوابي المعسكر حتى التجأت الهاجمين على الفرار قوة صغيرة من الخيالة . ثم قبولت بالاستحسان في أول الامر خطة^{٢٣} أوسع وأكثر طموحاً ، الا انها تركت

(٢٢) من الواضح ان العقيليين - وهم المذبذبون في أخلاقهم والاجيرون بمهنتهم - كانوا منقسمين على الدوام . فكان قسم منهم يتبع سليمان غنام ، وقسم آخر ينتصر لداود ، وكثيرون غير هؤلاء اضاعوا أنفسهم بين العصابات التي كانت تفرز المدينة .

(٢٣) رسمها المسيو ديفو الذي بقي حياً بعد الطاعون

لأنها كانت غير حكيمة ولا ناضجة وواصل الفريقان القصف بالمدفعية البعيدة المدى
من دون جدوى •

ومع ان هذه الهجمات التي شنت الى الخارج قد صادفت شيئاً من النفع
الآنني العاجل في توحيد الصفوف وتقوية القوة الروحية فقد كان لازماً في الوضع
ان يرجع الى أصله في ضعف الامل • اذ لم يتمكن صالح الشهواني الضعيف
الارادة ، حتى في زمن الشدة هذا ، ان يترك ملذاته فيمسك بيده عنان القيادة •
وكان داود باشا مريضاً لا يزوره أحد ، وقاربت الاموال النفاد ، واستحالت قلّة
الطعام الى مجاعة مميتة • ولم يكن علي باشا أحسن حظاً ، فقد كان حائراً لفقد
المال عنده ، ذلك المال الذي كان عليه ان يدفع منه لقواته التي اوشك الصيف ان
ينصرم عنها فيدهمها الشتاء ببرده وأمطاره • وفي الوقت الذي كان يتجاهل فيه
مظاهر النعمة والسخط لم يتأخر عن الاستيلاء على سائر أقسام الباشوية عدا
العاصمة • فاستقبل ممثله في البصرة ، وكانت مجمع الملتجئين من بغداد ، وكان
انتشار الطاعون وهجمات عرب الزبير وما جاورها قد جعل من الضروري انسحاب
المتسلم منها وعودته بعد أسابيع قضاها في التحصن^{٢٤} على أكتاف بني كعب • ثم احتل
الحلة مملوك منقلب ، كما سبق ان استولى على الخالص وبقاع ديالى من قبل •
ولم يدخر المماليك المنقلبون الموجودون في معسكر علي رضا وسعا في اقناع من
كان في داخل السور بقبول الباشا الجديد : وقد اجبر حتى حجاب داود الخاصون
على الاعتقاد بأن مهمة علي باشا كانت تستهدف اعادة المماليك الى عظمتهم السالفة
بأشرافٍ ثانٍ • وعلى هذا أخذ الجيش المهاجم يزداد كل يوم بهرب الكثيرين من
رجال القوة المحصورة في الداخل اليه ، بدافع الخوف والأمل والجوع ، والحسد
والتهديد والوعيد •

وما حل أيلول حتى كانت النتيجة في اليد ، فقد أصبحت الحالة في بغداد
لا تطاق • إذ كانت المنهوبات تعرض علناً للبيع من دون خوف ولا خجل • وقل

(٢٤) غروثز (ص ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٣٢) ستوككر (ص ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٧-٦٨) :

كان متسلم داود باشا على البصرة عزيز آغا الذي استعاد مكائنه أخيراً بشق
النفس • وقد اقنع باعلان الولاء لعلی رضا • (مرآة الزوراء) (المؤلف) • ان
المقصود هو عزيز آغا - المترجم

الطعام ، ولم يصبح في تناول اليد ، كما لم ير احد المرحم بعينه بتاتا • ونضبت الخزائن ، فنزلت جواهر الباشا نفسه للبيع بـ « المزداد » • وقد ساق الجوع والدسائس وكل تعاسة أخرى الاهالى الى حيث ينفد الصبر • وفي اليوم الثاني عشر عزم كثيرون منهم على الانتظار لمدة خمسة أيام أخرى حين يصل الشيخ عجيل (وكان قارب بغداد حقيقة فُصد عنها) فيصانع العدو برأس داود وصالح ويصالحه • اما علي رضا فقد وصلته ، واليأس يساوره لنفاذ ماله ، رسالة من استانبول في هذه اللحظة تأمره بالعدول عن حملته (ان كانت لم تنته بعد) والرجوع الى استانبول بأحسن ما يمكن^{٢٥} • فعزم حينئذ ، وهو غير مقتنع باطاعة هذا الامر ، (لان سمعة بغداد وحدها ووقع ذلك في نفس الجند هي التي كانت تحفظ الوحدة بينهم) على أن يصل الى نتيجة ما قهراً •

وبعد ساعات معدودة من ذلك كان رسوله يطرق باب المعظم معلناً وصوله لمن كان في الداخل • فطلب منهم ارسال ممثلين عنهم ليلتقوا بممثليه خارج السور • وفي المؤتمر المنعقد في بستان قريب من الموضع ألح ممثله على وفد بغداد بأن يتتخبوا في الحال أحد أمرين : العفو العام أو القصاص الشديد • فرجع ممثلو صالح بك وعقدوا معه اجتماعاً سرياً حضر فيه داود ، وقضى الجميع بذلك ليلة مفعمة بالتردد المؤلم وعدم التصميم على شيء ولم يتوصلوا لحل ما للمشكلة • وعلى هذا لم يبق للانقاذ من الموقف الا الخيانة لتعمل في ما خابت فيه الفطنة وفشل الحذر • وقد سبق ان سميت مكاييد الخونة والمنقلبين في داخل السور انشقاق الكيدين على جانب الضيقة القديمة • وعندما علم هؤلاء ان الوضع بات لا يتحمل أي تأخير تجمعوا في ظرف عدة ساعات فكونوا حزباً مستعداً للقيام بكل ما من شأنه انقاذ أنفسهم • وفي ليلة الرابع عشر من أيلول ، المفعمة بالقلق ، دهموا مزالح باب الظلمات فامتلكوا ما يسمح للجند الامبراطوري بالدخول • ثم تبودلت الرسائل قبل الفجر ، وبعد ذلك في الحال دخلت سرايا جيش علي الى بغداد من غير مقاومة • فانتقلت المدينة بذلك من يدٍ لاخرى بدون عناء •

وبقي علي باشا في معسكره خارج المدينة • اما داود فقد نهض من هجوعه

(٢٥) هذا ما ذكره « ثابت » ، الا ان مثل هذه التعليمات تظهر بعيدة عن خطة السلطان المعروفة وعن حقيقة الوضع ، غير ان سليمان يعتمد عليه كثيراً •

المضطرب ، فأخبره قبل بزوغ الفجر رئيس العقيل بسقوط المدينة مناشداً اياه النجاة بالفرار الى المنتفك • ففكر داود طويلاً ، ثم أجابه بأن ضعفه يحول دون الفرار ، ولا بد من تنفيذ مشيئة الله • وبعد ان صلى صلاة الصبح ركب ، وهو خائف وجل ، الى القلعة بعد ان مر بأقصر الطرق وكان يقصد الالتجاء الى الغرف التي سيق منها سعيد الى حنقه قبل أربع عشرة سنة • وعندما منع الدخول اليها دخل بيتاً^{٢٦} قريباً وجلس بصمت ووقار وحيداً ينتظر ما سيحل به خلال ساعة واحدة • وفي وضح الصباح اهتدى ضباط علي باشا الى مقره فدخلوا عليه بتواضع واحترام ، وأخذوه معهم لخارج المدينة حيث نصبت خيمة خلفه • فنهض علي باشا من مكانه ، عندما كان الراكب بعيداً ، ثم قابل داود وهو أسير حقير باحترام لم يقابل بمثله مملوك من قبل ولو كان في أوج ابهته وعظمته • فجلس الباشيان احدهما الى الآخر يحسبان أكواب القهوة ، كما مألوف في اجتماع تتجلى فيه امارات الاحترام والصداقة ، وهما يتساءلان اسئلة اعتيادية • ثم ارسل الامان الى صالح بك وعين درويش آغا الملقب بـ « قائم المقام » مكانه في المدينة ، ثم نادى المنادون في جهات المدينة بالامان العام • واطلقت من بعد ذلك الحرية الكافية لمن أراد زيارة داود باشا في المعسكر ، حيث كانت حريته غير مقيدة^{٢٧} •

وبينما كانت الطمأنينة والتجارة تعود ساعة بعد ساعة في الشوارع ، ويأمل الجميع حدوث تبدلات عظيمة ، كانت تتخذ الترتيبات اللازمة لارسال داود الى اوربة • وكان كتاب علي باشا الذي أخبر فيه بنجاحه في الفتح يتضمن استرحاماً بالعفو عن المملوك بحسب ما كان يسير عليه من خطة • وأعطيت الاوامر لمن ذهب لايصاله بقتله في الحال ان حاول نجاة أو فراراً • وما تزال تروى القصص عن وقائع السفارة وعن الاستقبال المشكوك فيه في استانبول • والحق ان داود كان قد عادى ملكاً شديداً العقاب عداء مرأ • وربما كان سبق العفو عنه

(٢٦) يقول « ثابت » ان البيت كان بيت جواد بك أحد خدامه القدماء ، ويقول مؤلف « مرآة الزوراء » انه كان بيت ابنه نوح •

(٢٧) يذكر صاحب « مرآة الزوراء » ان المماليك المرتدين الذين كانوا بصحبة علي رضا « وهم رستم وسعدون وأبو بكر » حثوه على قتل أسيره ، الا ان علياً فضل ان يتركه حياً ليرى فيه سلطانه رأيه •

توصيات علي رضا به ، او امكان الاستفادة منه فى المفاوضات مع حكومة مصر^{٢٨} .
ويغلب على الظن ان خلاصه كان من أجل مزاياه العجيبة ، وشخصيته الزهراء ،
وتضلعه من القانون والشريعة^{٢٩} . ولم تكن كل هذه المؤهلات لتغنيه فيلاً في
تركية قبل خمسين سنة . واذ ذلك أرسل منفياً نفيّاً شريفاً في بروسة مصحباً عائلته
ومعتاشاً ببقايا ملكه الخاص . وبعد انتصار المصريين المفجع في قونية في تشرين
الاول من عام ١٨٣٢ م عزم أولو الامر على الانتفاع به عوداً على بدء . ثم صار
والياً على بلاد البوسنة ، ومن بعد ذلك صار رئيساً لمجلس الدولة في اسطنبول .
وفي ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) عين لولاية انقره لكنه استدعي منها الى منفاه القديم
في بروسة لما كان يحوم حوله من الريب . وفي ١٨٤٥ م (١٢٦١ - ٢) تمكن
من ان ينال لنفسه العطف الخاص من السلطان عبد المجيد ، ففاز بمنصب يناسب
مؤهلاته وهو منصب « حامي العتبة المقدسة » في المدينة . وهنا جلبت له مواهبه
الكلامية والسيماية ، وماضيه الروماتيكى ، اعتباراً لم يكن أقل من الاعتبار
الذى كان يتمتع به في عرشه القديم في العراق الا قليلاً . ومات في ١٨٥١ م
(١٢٦٨ هـ) . وهكذا قضى نجه بعد ان عاش محترماً شارحاً للإسلام بلسانه
وتدينه ، وبعد أن كان نصرايا فى صباه عندما غادر تفليس الى بغداد قبل سبعين
سنة ، وقد فاز في وطنه الجديد وديانته الجديدة بحريته أولاً ثم بالوظيفة ،
ومن بعد ذلك بعرش الولاية مدة نصف قرن . وقد استبدل في بضعة أسابيع
بالقوة وبالأبهة المرض والاستجداء والخوف من الموت . ثم عُفي عنه فرفع
محلّه ، بخلاف جميع ما كان يتوقع ، وتقلد المناصب العالية في الامبراطورية
عشرين سنة زيادة على ما مضى ، ومات مذكوراً بكل حسنة ومحمدة في المكان
الذى توفي فيه النبي (ص) .

علي رضا

كتب شاهد عيان^{٣٠} حضر في يوم سقوط بغداد فقال ان « الخوف بأجمعه

(٢٨) وهذا ما يؤكده سليمان فى « مرآة الزوراء » .

(٢٩) يذكر ستوكلر (ص ٥١) كثيراً من أخبار « توزيع الذهب بكثرة » ،
الا اننا نرجح انه لم يكن يملك هذا المقدار منه ولو ملك ذلك المقدار لما تمكن من
شراء السلطان محمود .
(٣٠) غروفرز .

قد أزيل عن جمهور الاهالي ، فاصبح الجميع من أناس وحيوانات مسرورين .
 برجوع الخير » • وقد هبطت الاسعار مائة ضعف وفتحت المخازن والمناير
 والحيوانيت للبيع بعد ان كانت مغلقة عدة أسابيع ، ثم وقفت الجرائم عند حدها
 في الحال • فنظفت الشوارع وامتألت من جديد ودخلت القوافل وبسطت
 الاسواق •

وبقي علي رضا في المعسكر خارج السور حتى تحرك للسفر داود باشا
 بسلام ، فزاره هناك جميع وجوه بغداد فبش لكل منهم بأدبه المعهود • وقد وعد
 المماليك بعشرات التعيينات والوظائف والأراضي • ثم دخل بغداد فكان دخوله
 لا يعوزه شيء من المهابة والوقار على ما كان يعوزه من زهو وجلال • وفي اليوم
 الثالث ، بحسب العادة ، دعي الجميع لسماع قراءة فرمان بصورة رسمية •
 وكانت الدار التي جرت فيها الحفلة - لان السراي كان خربة محترقة - مكتظة
 بخيرة الجند • وقد وقف في الساحة من بقي حياً من المماليك الذين لم يفر منهم
 خارج المدينة الا نفر قليل ممن أوجسوا خيفة على أنفسهم • وكان صالح بك
 منحرف المزاج فلم يتمكن من الحضور • فقرأ فرمان وعاد الباشا الى حجرة
 في الداخل ، فكان ذلك بمثابة اشارة انقضى بموجها جماعة من الابانيين على
 الاغوات المماليك وقتلوا القسم الاعظم منهم بتنادقهم الخفيفة^{٣١} ، ثم ذبحوا البقية
 عن آخرهم • واما الذين اعتقلوا منهم فقتلوا في مكان آخر من المدينة • ووقع
 صالح من ظهر حصانه فقتل امام الدار^{٣٢} التي كان قد حكم فيها بغداد عدة
 أسابيع مضطربة • ومن بعد ذلك قرئت الاوامر الرسمية الصادرة من استانبول
 التي تسوغ هذه الافعال الوحشية مع ما كان فيها من حكمة ، وطُلب كل مملوك
 داخل المدينة وخارجها • حتى ان المماليك المتقنين الذين كانوا قد رافقوا الباشا
 الى بغداد - كالجواسيس ، والوكلاء الذين ساعدوه في الحصار ، وكانوا يتمتعون
 بكثير من عطفه - قضى عليهم أجمعين فوسدوا التراب • ووجد نفر قليل منهم ،

(٣١) قال المحشي على المخطوط المذكور «١٢٤٧ قتل الكولات الكرج وقام
 المفتي عبدالغني افندي جميل زادة على الوزير في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٤٧هـ» -
 م • ج •

(٣٢) ان ما ذكره فريزر (ج ١ ، ص ٢٦٦) في هذا الشأن يختلف عن
 هذه في التفاصيل •

يعد على الاصابع ، ملجأً آمناً مدة طويلة في البقاع النائية من الباشوية أملاً منهم لأن يفوزوا بعفو متأخر . ثم وزعت أمتعة الاغوات المقتولين ، وبيع قسم منها فدخلت قيمتها وارداً للخزانة الحكومية .

وكان فرمان علي رضا ينص على حكم « بغداد وحلب وديار بكر والموصل » وهي مجموعة من الولايات لم يسبق ان انعم بحكومتها معاً على حاكم واحد في وقت واحد . على ان الحقيقة كانت في انه لم يحكم أكثر من العراق نفسه ، وبذلك استعيد لقب الخليفة^{٣٣} القديم : وفي خلال عدة أيام من دخوله بغداد قرىء فرمان تعيينه في كل مدينة من مدن العراق . فقبل النظام الجديد وأخذت ماكنته في الاشتغال . وكان العفو عن سلفه في الحكم ، والبسة الباشا الجديدة مع رجال حاشيته ، ووجود الاوربيين محيطين به ، وعدم التشدد في العادات الاجتماعية الاسلامية المنتظر ، كل هذه كانت تؤذن بحلول عهد جديد . وجددت بعناية خاصة امتيازات شركة الهند الشرقية القديمة .

وهكذا انتهى أمد الانشقاق الطويل . ورجعت ولايات العراق التي انفصلت لمدة طويلة الى حضن امها الامبراطورية العثمانية بعد ما أدركها الاصلاح والتقدم بوجه عام . فتلاشت سلالة المماليك الى الابد . وفي الساعة التي حمل بها داود باشا الى الخارج ، ودفن فيها خدامه وحرسه ، أصبح العراق ولاية من ولايات تركية الحديثة .

(٣٣) كان حكام بغداد يلقبون بهذا اللقب ، بصورة غير رسمية وواحية ، وكان يطلق عليهم محلياً فقط ، ومن دون تأثير في منزلة السلطان . وكذلك كان في عهد علي رضا ، لكن المؤرخين دونوا اللقب له بصورة خاصة .

الفصل الحادي عشر

من الممالك الى مدحت باشا

العلاقات الامبراطورية والاجنبية

ان البحث في التاريخ الذي وصلنا به حتى الآن الى ١٨٣١ (١٢٤٧ هـ) لا يمكن أن نوفيه حقه بنفس المقياس المتبع فى الفصول السابقة ، اذا ما أردنا اكماله والوصول به الى نهاية القرن التاسع عشر . فليس من الممكن ان يخصص للسبعين السنة هذه سوى فصلين بسيطين^١ . وقد اضطرت المؤلف لهذا اعتبارات قهارة . فقد نضبت عنده المراجع الشرقية المدونة ، ولأجل أن يجد شيئاً منها يجب عليه أن ينقب فى السجلات والجرائد التركية التي لا سبيل له للوصول اليها البتة . ولا تزال المدونات الدبلوماسية غير منشورة . اما مذكرات السليح فمتيسرة ، لكنها ان وصفت شيئاً فلا تدل به على ما يوجهه التاريخ . وان كان مؤرخ هذا الدور نفسه ضيق الحدود بمراجعته وأسانيده بسبب ما بينا فانه لابد من أن يشعر بشيء من الارتياح متى علم بان هذا الدور شهد استبدال العمامة بالطربوش ، وتبديل اللحية المسرحة باللحية المحددة نصف المحلوقة ، وحكم القرون الوسطى المتواني بالسفسطائية الفاسدة ، واختفاء أشياء كثيرة كان عدم اعتيادها يجعلها جذابة خلافة ، وظهور الشيء الكثير من البشاعة الرثة .

وسيدون هذا الفصل الميزات الرئيسية التي تميز هذا الدور المنحصر بين تولي علي رضا باشا الحكم فى ١٨٣١م وتعيين مدحت باشا فى ١٨٦٩م (١٢٨٦ هـ) .

(١) لقد امتنع المؤلف عن الاقتباس من المراجع فى هذا الشأن لانه لم ير من المراجع المهمة له الا النزر اليسير ، وان القسم الاعظم من مادته هذه غير مدون .

اذ سيبحث أولاً في حال الولايات العراقية في الامبراطورية التركية وفي علاقاتها الخارجية ، وسيلي ذلك بحث في الانقلابات الدستورية والادارية الحاصلة في داخلها . ومن بعد ذلك سينحصر البحث في المجهودات المبذولة لقمع الدسائس العدائية ، وفي معالجة الوضع القبائلي . وسيقتصر البحث في الاخير على تطور طرق المواصلات الحديثة (بواسطة الاجانب) .

فقد ظلت أيلات العراق بعد ١٨٣١م جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية التركية . لكن طلاوة البحث في حوادث الارتداد بنطاق واسع ، والحروب الخارجية ، وأطماع أبناء الاسر المالكة ، لا تثير لنا هذه الحقبة من الزمن . اذ ظل باشوات العراق يبعثون الى استانبول مساهمةً المبالغ الطائلة دون ان تكون لهم رغبة في ذلك . وكان جميع الموظفين العسكريين والملكيين على المستوى الامبراطوري ، ولم يكن منهم من يتجرأ على مقاومة رغبات رؤسائهم . كما كان لا يزال من الممكن الحصول على جميع المناصب بالطرق القديمة المألوفة وهي طرق الشراء بالمال او المحسوبية ، وكثير منها لم يكن يختلف عن حاكميات الاقطاع القديمة ، غير انه ولا واحدة منها كان يمكن الاحتفاظ بها بضد رغبات السلطان . بل كان الامر بالعكس ، فان «المركزية» التي فرضها محمود الثاني ، وبقيت نافذة من ١٨٣٤م الى ١٨٦٩م ، اضطرت الجهات المختصة الى تطويرها فيما بعد لانها كانت على جانب عظيم من التطرف . ولما كانت هذه المركزية اسمية في الولايات النائية غالباً فقد كانت شيئاً مثالياً غير عملي عند التطبيق .

واذا نظرنا الى العراق من حيث السياسة العالمية نجد انه كان له نصيب من الالتفات الذي كان يوليه سياسيو أوربية لتركية بوجه عام . فقد كان واقعاً على طريق من الطرق المقترحة الى الهند ، كما كان يعمل فيه وكيل دبلوماسي بريطاني مهم . وكانت من العوامل الخارجية التي تدفع بالعراق الى حظيرة العالم الحديث اللجان الدولية التي ألقت لحسم قضايا الحدود العراقية - الايرانية ، وهياة التفيتش المتألفة من كبار الموظفين المرسلة من العاصمة ، وتوسع التجارة الخارجية ، والتفكير في الملاحة النهرية ، وشيوع المواصلات التلغرافية ، والتقيب الاثري . ولو درست علاقاته الخارجية عن كتب لتبين انها كانت ضئيلة مع الخليج ، بينما كانت مع الجزيرة العربية لا تخرج عن الاقلاق الناشئ من القبائل على الحدود واضطرابها المألوف .

لكن علاقاته مع ايران كانت تنطوي على مراحل متعاقبة من الريبة والمشاكسة •

اذ كانت الخصومات البابائية في الحدود الكردية مثارة للاصطدام الدائم مع الشاه حتى حان سقوط ذلك البيت في ١٨٥٠م (١٢٦٧هـ) • كما كانت غارات السلب والنهب التي تشنها القبائل البدوية التي تخترق الحدود مراراً وتكراراً ، وخيانتها للعهود والمواثيق المعقودة معها ، كلها منبعاً مستداماً للاحتجاجات والانكارات • فكانت قبائل الجاف والبشدر تجوّل في مراعي الجهتين من الحدود ، كما كان الهماوند يغزون ويسلبون من كركوك الى همدان • اما في جنوبي العراق فان تعلق الايرانيين الوثيق بالعتبات المقدسة التي تغلي بالشغب والعنف كان يورطهم في العقوبات التي كانت توجه على الثوار والعصاة الواجدين مأوى عندهم ، كما كانت معاملة زوارهم موضوع التذمرات المرة من باشوات ذلك اليوم الجائرين • ولم يحظ التجار الايرانيون الا بالنزر اليسير من عطف الحكام الذين كانوا في نظرهم رافضة منبذين • وكان الشاه بدوره يرتاب من التجاء الامراء الايرانيين الى بغداد واحتمائهم فيها • وفي مثل هذه الاحوال كان من المنتظر ان لايتفق الطرفان على نقاط الاختلاف الا بمقاساة كثير من الصعوبة • ففي ١٨٣٧ (١٢٥٣ هـ) هاجم علي رضا المحمرة ، التي كان قد أسسها من قبل تابع مشكوك في أمره ينتمي الى قبيلة تطالب بتابعيتها الدولتان • وأعقب ذلك مطالبات ايرانية جسيمة بالتعويض ، وسرعان ما أعاد احتلال البلدة شيخ من شيوخ المحسن معتمداً على معاضدة الايرانيين في الوقت الذي لم يكن خاضعاً فيه لقبيلة كعب ولا البصرة • وتماذى الشاه والسلطان في ادعائهما ، كل من جانبه ، بالمحمرة وببقيا غير متفقين على أي خط من خطوط الحدود • وقد أبقت الوضع دقيقاً حوادث التعديت المستدامة ، وحماية المتجشئين ، وخدمة القبائل للوقت • وكانت نتيجة ذلك كنه معاهدة أرضروم الثانية المعقودة في ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) • فنصت شروطها على تخصيص المحمرة للايرانيين ، وبحثت بوجه عام في شؤون قبائل الحدود ،

(٢) ان دويلة الحويزة التي بقيت وهي ضعيفة في هذا العهد انزلت بها الضربة القاضية عندما بدل نهر الكرخا مجراه في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) فأدى ذلك لبقاء البلدة من دون نهر في يوم واحد •

والزوار وأمور الملاحة • وقد بدأت بالعمل في ١٨٥٠م « لجنة حدود » مؤلفة من أربعة أعضاء : بريطاني وروسي وتركوي وإيراني ، وكان بدء عملهم من المحمرة • غير أن أعمالها انتقضت بادعاءات درويش محمد وتهكماته ونتج عن ذلك « بقاء الأمر على حاله » بصورة غامضة • على أن الموظفين البريطانيين استمروا في القيام بأعمال المسح وتدقيق النظر على طول الحدود ، وبقي أعداد الخرائط سائراً على هوداته بتباطؤ في موسكو • وبقيت الحال على هذا المنوال حتى نشبت حرب القرم فزادت تركية على الريبة المتقابلة بين الفريقين ضعفاً على ابالة بالنظر لتخوفها من محالفة الايرانيين للروس • وعندما أُنجز عمل الخرائط الروسية أقر اتفاق "عقد « بقاء القديم على قدمه » ثانية • على أن هذا التعبير الملائم كان يضم بين طياته أحوالاً مائعة الى حدٍ ينعدم فيه الأمل بالنسبة لوجود البدو المتجولين وراء الكلاّ وقطاع الطرق الذين ينشدون المأوى واللجوء • وبذلك كان الوصول الى تسوية مبنية على أسس ثابتة متفق عليها شيئاً بعيد المنال على ما يبدو •

أما في داخل العراق فقد زاد انتقال البلاد من حالة القرون الوسطى الى المستوى الدولي الحديث في اتصاله بالممثلين الأجانب وتعاونهم معهم • إذ كان المنسعى البريطاني من جهة يقوم بخدمات جلييلة للعراق من دون أن يطلب شيئاً في مقابل ذلك سوى تأمين توسع التجارة البريطانية • وكان حكام العراق المتعصبون من جهة أخرى يستاءون من وجود هؤلاء الأجانب وامتيازاتهم ، وصداقتهم للقبائل ، لكنهم لم يقووا على منع كل ذلك • فقد كان بوسع كبيرهم « المقيم » أن يحطم كل شخص بكلمة واحدة تصدر منه الى استانبول ، وهو على حق ولو تأثر منه الباشوات ، ونزيهه بحيث يخجلهم ، ومتيقظ في غير مصلحتهم • وبينما كان القنصل - التاجر في القرن الثامن عشر غير قادر على طلب شيء سوى دوام « الامتيازات » وتركه حراً من دون تعرض له أصبح « مقيم »^٣ القرن التاسع عشر وهو المتكلم نيابة عن شركات البواخر، وهيئات انشاء التلغراف ، والاثريين، ومؤسسات الهبات الخيرية^٤ • ولم تفتأ بعض استجدادات القبائل بالحماية

(٣) وكان من بين المقيمين رجال ندار مثل راولنسون (١٨٣٤ - ٥٥) والسر أ • ب • كيمبول (١٨٥٥ - ٦٨) والكولونيل هربرت (١٨٦٨ - ٧٤) •
(٤) وخاصة « أرث أوده » وهو مبالغ جسيمة خلفها ملك أوده الشيعي ،

البريطانية تزج الباشا أشد الأزعاج • ولم يكن ليغيب عن بال الجميع في العراق من الشيوخ والافندية وقسم من الموظفين البريطانيين ان مستقبل بريطانيا العظمى في العراق سائر الى الاهمية لا محالة ، وربما ليصبح شيئاً أعظم •

ظواهر الإصلاح

لم تتطرق العلاقات الخارجية هذه بشيء الى التجديد الانتقالي الذي يكون أهم ميزة من ميزات هذه الحقبة ، برغم سريانه في داخل العراق بصورة متقابلة ، نصف جديدة ، خالية من الحكمة والتعلل •

اذ تدل التغيرات الحاصلة في الوحدات الادارية الكبيرة ، في هذه السنين ، على ميل عام غير دائم نحو التوصل الى « نظام الولاية » الذي قدر لمحدث باشا ان يطبقه بعد هذا • فان مجموعة الولايات واسعة النطاق التي كانت بعهدة علي رضا سرعان ما تقلصت واصبحت تشمل العراق وحده • لكن كركوك ، التي ربما كان السلطان راغباً في فصلها عن بغداد ، قد بقيت متصلة بها • وفي عام ١٨٣٥ م (١٢٥١ هـ) فصلت ماردين عن العراق وضمت الى ديار بكر • ثم ألحقت الدويلات الكردية بالموصل وكركوك كلما كانت تقع في حوزة النفوذ التركي بالتدريج • وغدت الموصل في ١٨٥٠ م (١٢٦٧ هـ) سنجقاً تابعاً لبغداد في الوقت الذي أصبحت فيه البصرة (السنة نفسها) أياًلة مستقلة • وبعد اثنتي عشرة سنة قل شأن البصرة فجأة فاصبحت متصرفية ، ثم عادت فارفع شأنها ثانية في ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ) •

ويعد تاريخ الادارة نفسها سجلاً للتطبيق الجزئي الذي طبقت به الحكومة المعاصرة يومذاك قوانينها المتحررة نسبياً • فقد بقيت الاصلاحات المتطرفة (الاسمية في كثير من الاحايين) التي جاء بها السلطان محمود الثاني نافذة الفعل حتى وفاته في ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) • وفي تلك السنة أعلن السلطان الحديث ، عبد المجيد ، في « خط - ي - شريف گولخانه » الشهير التنظيمات الاساسية للحكومة المدنية وعاهد نفسه على اتباعها • فكانت هذه - المعروفة في تركية بال « تنظيمات » - دستوراً للحكام في الولايات ، وقد أكدها ثانية فيما بعد ، مع شيء

وكانه توزيع المبالغ هذه بين مجتهدى كربلا والنجف من اكثر واجبات المقيم دقة • واستمرت على تلك الحال حتى الحرب العامة •
(٥) هذا ما يري تأييه صاحب « مرآة الزوراء » •

من الاضافات ، في ال " خط - ي - همايون " لسنة ١٨٥٦م (١٢٧٣هـ) • الا ان هذه الاصلاحات ، التي أحلت في الحقيقة الرأي الغربي في الحكومة محل الرأي التركي ، لم تسرب الى العراق الا ببطء ولم تنتج هناك نتائجاً يتفق وعظم شأن المبادئ التي دعت لاجرائها • وكان تنظيم الجيش قد بدأ بدايةً حسنة من قبل ، لكنه بقي ناقصاً غير كامل ردهاً طويلاً من الزمن : فبقيت تجهيزات الجند المضحكة على اختلافها موضع تسلية السياح وتندرهم لعدة سنين ، بينما مسخ أصول تدريبهم الى حد التلاشي تقريباً خلال عملية نقله من باريس الى العراق • اما التجنيد الانزامي الذي طبق في الموصل سنة ١٨٣٥ م بصرامة خطيرة خالية من الرحمة فلم يحاول تطبيقه أحد في جنوبي العراق قبل سنة ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) • وظل جيش " الهاينة " البائد غير النظامي ، المستمر في ظل النظام الجديد ، مصدرراً للنقمة التي حاول الجميع من غير جدوى التخلص منها بال « تنظيمات » • ولم تشهد في بغداد ، ولا في الموصل ، أية علامة من العلامات الدالة على مجموعة الاصلاحات التي أدخلت في أجزاء الامبراطورية الاخرى حتى حل عهد نجيب پاشا في ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) • فأصبح واضحاً منذ ذلك الحين بأن كل سوء استعمال يتأتى عن الفوضوية وفقدان الامن ، بوجود قوات غير كافية بالمرة لقمع كل ما يحدث (مثل ما فعله العشائر حينما تساء معاملتها بالوهن المفعم بالعجرفة والتعطرس ، أو ما يقوم به السكان بوجه عام عندما تدمرهم أساليب الحياة المطبقة بطرق غير مستندة الى أسس اقتصادية سليمة) كان يمكن أن يكون متماشياً بسهولة مع الحكومة التي دخل عليها الاصلاح •

وفي الحين الذي نجد فيه ان بعض الارتكابات المالية وسوء التصرف قد تلاشت ، وان المناصب التاريخية - ومنها منصب الكهية نفسه - قد أصبحت غير ملائمة لروح العصر ، نجد أن العهد الجديد لم يأت بما يعد تقدماً كبيراً بالنسبة للعهد السابق اذا كنا نعد ان التقدم أو النجاح الحكومي يقاس بمقدار حرية الرعايا ورفاهيتهم • ذلك لأن مستوى الامن بقي منخفضاً ، كما بقي العدل نادراً ، والجبابة فظيعة ، والحكم خالياً من الفطنة • على أن بعض التقدم قد حصل حقيقةً في عدة من النواحي • فقد وضعت القواعد والمستويات مهما كانت بعيدة المنال ، فكثر تعيين الرجال للمناصب العالية ممن عندهم شيء من الثقافة العقلية الحديثة •

وزاد الاتجاه نحو العناية بالاختصاص في مختلف الوظائف • فظهر للوجود ، في الحقيقة ، هيكل حكومة منصفة تنتظر حاكماً يمكن أن ينفخ في هذا الهيكل الحياة بما عنده من قابلية ونيات حسنة • وقد حصل التقدم أيضاً في تحديد السلطات المحلية ، لكن هذا الاجراء حتى لو كانت الحاجة ماسة له ، في العراق نصف المتوحش ، فانه في كثير من الاحيان كان يحرم الحكومة من أسرع أسلحتها وأكثرها تهيوً •

وقد جعلت الحقبة نفسها مختلف مظاهر الحكومة في الولاية ، مما كانت قد تعودت عليها الولايات الاخرى ، شيئاً واضحاً في العراق • فقد توسعت فيه طبقة الموظفين الاعتياديين - الافندية - الذين حلوا محل القدامى من الباشوات الجائرين وكان الولايات قد وجدت من أجلهم • وكان اولئك الخدام العامون ، الذين سلمت الوظائف الحكومية بأيديهم وحدهم ، يقرأون ويكتبون من دون أن يتعلموا أشياء أخرى ، ويتصفون بالرجعية لكنهم متأدبون بالآداب الاجتماعية المقبولة ، ومتزيين بمجموعة مضحكة من الملابس الأوربية ، وكانوا حريصين دقيقين لكنهم يغرقون في المجاملات بالكتب الرسمية ، وبعيدون كل البعد عن روحية الخدمة العامة • أضف الى ذلك أنهم كانوا لا يقيسون الناس الا بمقاييس الطبقة التي ينتمون اليها ، ويحتقرون القبيلة والفلاح ، ويصرون على التكلم بالتركية بين العرب • وأخيراً فقد كان الفساد متفشياً بينهم جميعاً تقريباً والرشوة مستفحلة بين ظهرانيهم • وقد جاءوا بمزيد من الأسماء التي كان يهزأ بها غلادستون ، والقوانين الساذجة غير المشرعة على الوجه المطلوب ، التي قوبلت بالثناء الحسن في أوربة والاستبشار في بغداد ، وبمزيد من المجالس والاختام والسجلات ، والاساليب التي كان يمكن أن يستخدم بموجبها أي عدد من الموظفين الذين يساء دفع الرواتب لهم ، وتؤجل بحسبها أية معاملة الى أجل غير مسمى •

ومع جميع هذه الخيبة في الاصلاحات ، وهذه العيوب التي كان لها في هذا العصر مرتع خصب ، فانه قد عرف بالتقدم الحقيقي الذي حصل في جهات أخرى • فقد لاقت خطة السلطان محمود في القضاء على السبيلين المستقلين " دره بيگي " نجاحاً لا يستهان به • واقتطعت في الموصل وفي كردستان نتائج مهمة ، كما قضى في عدة من البلدان العراقية الاخرى على الاوضاع الشاذة •

غير انه قد ثبت ان القيام بهذا الواجب بين القبائل كان أمراً شاقاً ، ولم تحدث معالجة الوضع غير إعضال المرض واشتداده .

شخصيات هذه الحقبة

بقي علي رضا باشا رأساً للحكومة في بغداد وملحقيتها البصرة وكركوك مدة إحدى عشرة سنة . وقد أبدى خلال اشتغاله في هذه المدة شيئاً من حرية الفكر . وكان كرمه مضرب الامثال ، كما كانت سماجته مختلفياً قسم كبير منها وراء اعتداله . وكان يتلاءم مع دعاة التقدم من الاجانب ، لانه كان خلواً من التعصب والاندفاع بالكلية . يضاف الى ذلك انه كان ذا أخلاق سامية ، وله رغبة في عمل الخير الحقيقي ، زيادة على ميوله الادبية والعلمية . على انه كان حاكماً فاشلاً حقاً ، فقد كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل ان يحرك قبيلة على أخرى . وكان كسله وسمه المفرط يمنعانه عن إجهاد نفسه في العمل ، فأصبح بذلك مضطراً للخضوع الى أسوأ المشاورين . ولم يكن قادراً على ضبط المدن ولا القبائل ، ولا قواته الخاصة غير النظامية . وقد عرفت أول سنة حكم فيها بغداد بعصيان عبدالغني المفتي^٦ . وحدث في ١٨٣٣ م عصيان عبدالعزيز متسلم البصرة السابق فلم ينتج شيئاً . ويدلنا نقشي الطاعون مرات عديدة خلال مدة حكمه على ان حكومته لم تتعلم من هذه التجارب كيفية مكافحة هذا المرض الويل بالحجر الصحي . اما في الامور المالية فقد وجد على عهده العسف في الجباية وفراغ الخزانة في صعيد واحد . وعلى هذا يمكن القول ان علي رضا باشا لم يفرز بالذكر الحسن إلا بنجاحه في خلع داود باشا ، وبسخائه في منح الاراضي . وقد تزوج في بغداد ، ثم نقل الى سورية في سنة ١٨٤٢ م . (١٢٥٨ هـ) .

وأعظم منه شأنًا وشخصية محمود باشا الملقب « أينجه بيرقدار »^٧ ، انضبط

(٦) وهو جد أسرة آل جميل المعروفة اليوم في بغداد . وكان داود باشا قد عينه للافتاء بعد ان دعاه من الشام ، وقد اختلف مع علي رضا باشا (اللاز) هذا لما ظهر من رجاله من تعسف ومضايقة لبعض الأسر البغدادية بقصد ابتزاز المال . وكانت نتيجة ذلك ان أحرقت دار المفتي وضاعت خزانة كتبه الثمينة فاضطر الى النزوح الى الخارج - المترجم .

(٧) أي « حامل العلم » النحيف

المجازف الذي كان ينتمى الى القوة غير النظامية • وكان قد عينه في باشوية كركوك علي باشا نفسه • فلقد حكم هذا الرجل القاسي في الموصل منذ ١٨٣٥ م ، فكان همه الوحيد هناك تحطيم اندويلات الكردية الصغيرة ، وهو عمل خطير سنأتي على تفصيله في غير هذا المكان • وتمكن من توطيد الامن في الموصل وفي الطرق المحيطة بها ، ثم نفذ الخدمة العسكرية بالرغم من المعارضة الهائلة التي لقيها في ذلك • وقد فتح شوارع جديدة ، وشيد مخزناً للأسلحة وثكنة ومستشفى ، كما حقق السلم والعدالة ، بطرق قاسية ، بين اناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عن " التنظيمات " بعد • وقد توفي في ١٨٤٣ م فنفته موته عن الكثيرين ، وخسرته ولايته • اما أخلاقه في الحكم فيجد القارئ الشيء الكثير من أخبارها في ما كتبه ليارد •

ووقعت ولاية بغداد في ١٨٤٢ م الى نجيب باشا ، وهو من أسرة كبيرة في استانبول ومن المقربين الى السلطان • وكان لهذا الباشا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة • غير ان روحه القومية انقلبت الى كره راعب للاجانب عنه • ولأجل ان يحصل على المال لنفسه في الغالب ، عاد لاستعمال طرق الجباية الخالية من بعد النظر تماماً المبيدة للناس • وكانت غطرسته تغيط القبائل مع ان قواته كانت عاجزة عن تهدئة القلاقل التي كان يسببها هو بنفسه بين ظهرائها • ولم يحل عنفه دون أخذه الرشوة ، ولا تدبره دون تعصبه الذميم • وتستغرق أقسام أخرى من هذا الفصل البحث عن أهم الحوادث الواقعة على عهده • وقد تبعه ، بعد باشويتين^١ قصيرتي الامد لإشأن لهما ، أول تعيين جرى لثامق باشا في ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) •

وبعد سنة تولى الحكم رجل لا يزال ذكره مشرفاً وهو محمد رشيد باشا المنقلب بـ " گوزنگني " أي « صاحب النظارات » • وقد كتب لهذا ان يموت في بغداد بعد مضي خمس سنوات تقضت بالحكم التزيه الصارم الحر • ولم يشاركه أحد في المجهودات الحقيقية التي بذلها خلال مدة حكمه لحل المشاكل ، كما لم تكن المضلات التي لقيها فحلها لتحل بوقت قصير كوقته ولا بموارد شحيحة مثل موارد • واستبان في أيامه ان الحكومة الحديثة التي أدخلت عليها الاصلاحات كان من الممكن أن تطبق بصورة معقولة فتنتجح في العراق • فقد كان يلح على موظفيه

(٨) عبدالكريم نادر « عبدي » في ١٨٥٠ م ، ووجيهي في ١٨٥١ م

في أن يعملوا بنزاهة ، وحاول مكافحة الفساد العام المستحوز على كل شيء ، ثم كثرت في أيامه الواردات لانه حال دون الاكثار من النهب والاختلاس ، وحقق مورداً دائماً للتصدير بنقل الحبوب الى الحجاز . وكذلك شق الترع العديدة للاسقاء والتروية . غير انه ضيق كثيراً من استانبول لوجدان المال الكثير والارسال به للحكومة المركزية التي كانت مشغولة بحرب القرم . اما خلفه عمر باشا الملقب بـ « سردار أكرم » فقد خلف لنفسه ذكر الجندي الصالح الصارم في مصلحة الحكومة على الطراز القديم . وقد مصرت مدينة العمارة في زمانه . ولم يشتهر الباشيان^٩ التاليان لهما بشيء . ثم رجع نامق باشا ثانية في ١٨٦١م (١٢٧٨هـ) فحكم مدة سبع سنوات . وكان نامق ذا صرامة كصرامة نجيب ، وضيق التفكير مثله أيضاً . فقد أظهر ثباتاً فائقاً في خطة تفكيك القبائل بالرغم من فقدان الوسائط اللازمة للقيام بتنفيذ هذه الخطة الواسعة . وعلى هذا أدى الاضطراب المؤلم ، الواصل لحد الفوضى ، الذي ولدته حملاته ، الى خراب البلاد والاساءة الى القوي من بين القبائل . وكان ضابطه المشهور شبلي باشا رئيس عصاة قديماً . على ان نامقاً يذكر اليوم لا بأفعاله الدالة على الخرق ، ولا بخيائاته وفشله المتكرر ، بل بتشيدده الانية العديدة التي بدأ بها في بغداد ، فأكملها مدحت باشا من بعده . وكثيراً ما تروى القصص عن أموره المالية المضبوطة التي تمكن بها من تحويل المبالغ الجسيمة الى السلطان عبدالعزيز في استانبول ليدر بأنفاقها على قصوره المشيدة . وحكم بعده عدة شهور تقي الدين ، وهو حاكم كركوك السابق . ثم تبع هذا مدحت باشا فدخل بغداد في آخر يوم من شهر نيسان لسنة ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) .

توسيع الحكم المباشر

لقد اتخذ هذا التاريخ بوجه عام موقفاً تجاه الحكومة التركية امتنع فيه عن الثناء الحسن بأوسع معانيه . فان كان خلع الليكات الاكراد عن عروشهم التي كانوا فيها مدة طويلة ، وهم بين مستقل أو تابع ، يعد تقدماً يستبشر به فانما ذلك هو تقدم من وجهة النظر التركية فقط . ذلك لان حكم الافندية الحديين مع جيشهم « الهايته » و « ضابطيتهم » لا يمكن ان يعد تحسناً عن ذي قبل في نظر

(٩) مصطفى نوري ١٨٥٩ ، وأحمد توفيق ١٨٦٠

الفلاح أو الراعي ، أو من حيث نفوذ البجدينان والبدرخان • على انه لم يكن بوسع أية حكومة امبراطورية ان تتحمل ، بعد الدروس التلقينية التي القاها السلطان محمود ، وجود الامراء الوراثيين في ضمن حدودها وهم بوضع نصف عدائي ونصف مهين • وبالرغم من ان الحقيقة هي ان الاتراك كانوا غير قادرين على حكم السلالات الموصلية والكردية ، وانهم كانوا مشغولين بقضايا كثيرة أخرى غير قضاياهم ، فانهم لا يمكن أن يلاموا على ما فعلوه بهم • حيث ان السهولة التي انتهرت بها تلك السلالات تدل على اضمحلال حكمها الاقدمين •

وفي اللحظة التي كان السلطان المصلح ينظر نظرتة الى العراق في الجنوب والشرق كانت الاسرة الجليلية قد كتب عليها الزوال • فقد سبق ان وهن حكم هذه الاسرة للموصل بمعارضة العناصر الاخرى لها • وقد وجد علي رضا في ١٨٣١ باشا عمرياً يحكم الموصل أعقبه آخر من أهل حلب • فكان يحيى ، آخر الجليليين ' ، قد أخذ الباشوية قسراً في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) ، ثم أضاعها بالقوة في ١٨٣٤ م ، فكانت هذه النزاعات الدموية تدل بتأكيد على أن تبديلاً كائنة ما كانت صفته ظل ممكناً وهيناً • فعين الأيمنة بيرقدار في ١٨٣٥ م ، وأصبحت الموصل في يوم واحد ولاية اعتيادية • وانخرط بذلك الجليليون الانف^١ في عداد ملاكي الاراضي من الاشراف •

وكان ظهور رشيد باشا ، الصدر الاعظم ووالي سيواس السابق ، في ديار بكر وهو يقود جيشاً في ١٨٣٥ م منذراً بسقوط كثير من العروش الكردية • فقد قمع الاضطراب في ماردين المشاغبة ، وفصل تلك المنطقة فصلاً دائماً عن الموصل فالحقها بديار بكر ، ثم قبض على صفوك العظيم وبعث به الى استانبول • وبعد ان أدب تلغفر سار عبر دجلة متوجهاً الى هدف أعظم • وقد آزر حملته البيرقدار من الموصل وعلي رضا من بغداد فأرسلا له ارتالا من الجيش في وقت واحد •

وكانت دوبلة رواندوز الصغيرة قد انتقلت في حدود عام ١٨١٠ م (١٢٢٥ هـ) من يد أوغوز بك الى مصطفى بك وهذا ، بعد ان حارب البابانيين حرباً غير منقطعة ، تزوج منهم زواج حلف ثم انصرف الى توحيد مملكته فوجدها وحكمها بحكمة ،

(١٠) اعني آخر من حكم منهم ، لان كثيراً ممن ينتمون للاسرة لا يزالون في الموصل • (١١) الانف جمع «الانوف» •

وأخذ الحكومة محمد بك - أي مير محمد - من يدي والده الواهتين قبل وفاته • ومات مصطفى^{١٢} في ١٨٢٦ م ، وتبعه محمد (المعروف بـ " كور " أي الأعور لا صابته بعلة في إحدى عينيه) ، وقتل عميه في الحال • وقد ظهرت مزايا « ابنك الأعور » في سلسلة غير منقطعة من الفتوحات • فقد أخضع الشيروان الأقوياء وقبائل البرادوست في الشمال ، وقتل من نفوذ السورجي ، ثم طرد الحاكم الباباني من حرير ، وأخذ أربيل وآلتون كوپري ، ونصب أقاربه في هذه الأماكن • واقتطعت رانية وكوي من البابانيين ، وأصبح الزاب الأسفل هو الحد • وقد اضطر علي رضا إلى الاعتراف بهذه السلطة الجديدة ، فرفعه إلى مرتبة الباشا • وفي أوائل ١٨٣٣ م سار محمد إلى عقرة ، وأخذها بعد أن حاصرها ، ثم طرد حاكمها اسماعيل باشا • وبعد أن خلع من العمادية سعيد باشا^{١٣} بسهولة نصب في حكومة أصقاع البهديانية أخاه واسمه رسول • وأصبحت دھوك وزاخو من توابع امبراطوريته فأقام فيهما الضبط غير الخاطيء بقسوته العادلة ، ولم يكن مثل هذا الضبط معروفا قط في مثل هذه الأصقاع • وقد كان الكل يقياس هذه الحالة بالفوضوية والارتباك اللذين كانا سائدين في العراق • وبعد ذلك غزا في جبل سنجار ، وضرب قرى قريبة من الموصل ، واحتل جزيرة ابن عمر ، وأفسزع البدرخانين في حسنكيف ، وكذلك هددت نصيبين وماردين نفسها • غير أن هذا كان حده الذي وقف عنده • فإن ظهور رشيد ، الذي أنقذ لكبح جماحه أو القضاء عليه ، أوقف تهديداته في الحال ، وأرخص العري التي كانت تربط بين أجزاء امبراطوريته المشفية على الفناء ، وسر أعداءه وخصومه • فراجع الكردي الأعور إلى عاصمته ، وقد كان مخيفاً دائماً أكثر مما كان محبوباً • ثم خانه كثير من أتباعه بحيث لم يستطع الاستفادة من التنافس المبني على الحسد الذي نشأ بين رشيد وعلي رضا ، واستسلم في الأخير بعد أن أعطي أوثق العهود بأن يعامل بالحنى • فأرسل إلى استانبول وتوقع الكثيرون أنه سيمود تاباً تركياً ، إلا أنه اختفى بدلاً من ذلك بصورة سرية وذهب ضحية للحذر التركي والخيانة التركية معاً •

(١٢) هناك شك لا بد منه بأن الأمر فيه تلاعب مشين

(١٣) لقد زاره الدكتور روس الذي كان في مقيمة بغداد حينئذ (فريزر

وبذلك رجع الموظفون الاتراك ثانية الى أربيل وآلتون كوپري • وانتعشت برهة ما العمادية ، الا ان البابانيين لم يستعيدوا عزتهم • وبقيت رواندوز يحكم فيها أخو الباشا الأعور ، وحل في الجزيرة متسلم محل البك • وفي ١٨٣٧م (١٢٥٣هـ) سحق جند جاء من خارج العراق ، يقودهم حافظ باشا ، اليزيديين فسي سنجار ثانية ، وتولى في ١٨٣٨ م الأيـنـجـه بـيـر قـدار اـتـمـام العـمـل غـيـر الكـامـل فـي كـردـسـتـان • فألحقت ، في الاخير ، العمادية بعد ان حوصرت ، ثم تبعتها عقرة ودهوك • وعلى هذا أصبح الحكام الاكراد وأسرهم من المحالين على المعاش غير الضارين في الموصل وبغداد • فظهر الموظفون الاتراك والهائـتـه فـي القرى الكرديـة ، وكان ظهورهم في بادئ الامر في أيام آخر الحكام المحليين ، وأخيراً حلوا محلهم • وكان الوضع الجديد هذا متقللاً ، اسمياً ، ولم يكن فعالاً بين القبائل وفي الجبال الثانية الا بلأى وصعوبة • ففُـقـضـي على أغلب ما كان يلم شعث الامة الكردية على كل حال •

وظل الآخرون بضع سنوات أخرى • ففي امبراطورية المـلـيـن القـبـائـليـة المركبة (التي أورثها تيمور أيوب) صمد تيمايوي بك ، حفيد المؤسس ، للضربات التي أنزلها رشيد باشا في القضاء على أبيه في ١٨٣٤ ، ثم استعاد سطوته عندما ضعف الاتراك بانتصارات المصريين في سورية • وكذلك بقي ابنه محمود بالرغم من عداوات والي ديار بكر الموجهة عليه ، وترك لوارثه الشهير ابراهيم باشا اتحاداً قوياً في أوائل أيام السلطان عبدالحميد • وفي جنوب انراب الصغير قنوم البابانيون حتى سنة ١٨٥٠ م • وقد مر بنا في مكان غير هذا ما كان من أمر النزاع المـيـد الذي كان مستعراً بين أبناء عبدالرحمن باشا • فقد استعاد سليمان الحكم في الاسابيع الاخيرة من عهد داود باشا • وفي ١٨٢٣م طردته القوات الايرانية ، الا انه عاد فظهر ثانية وحكم سبع سنوات أخرى في أودية شهرزور التي اجتمع عليها الطاعون ، ثم الضعف والفوضىـة اللذان أعقبا النزاعات العائلية ، ونهوض رواندوز ثم سقوطها ، فأوهن فيها القوى وأخلها من السكان • وبقيت حامية ايرانية في السليمانية حتى سنة ١٨٣٤ م • ومن ثم فرض على المملكة البابانية عندما استعادت سطوتها (ولم تكن نافذة الفعل الا في عاصمتها) ان تجند عدة من السرايا على الطراز الحديث • وقد تمادى اولو الامر في هذه المحاولة المتأخرة المهمة في تكوين

جيش عصري حديث حتى في أيام أحمد باشا الذي انقطع أمد حكمه لسنة^{١٤} واحدة في ١٨٤٠م بعودة عمه محمود باشا . فأثار الجيش الإيراني ، الذي أعاد هذا المحارب القديم ، عاصفة دبلوماسية باستيلائه على أراض كانت تعد عثمانية . وقد قيل ان الشاه نفسه أوعز بذلك في الوقت الذي كان يطمع في أكثر من كردستان . وعند انسحاب الإيرانيين تولى الحكومة البابانية ثانية أحمد نفسه . وفي ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) أدت التباير ، المشكوك في أمرها ، التي اتخذها في نزاعات الحدود الى تنحيته وأخذه الى بغداد . وقد رتب ان يخلفه قادر باشا ، حفيد مؤسس السليمانية ، الا ان عبدالله أخا أحمد ، نازعة هذه التولية . وفشل استيلاء إيراني كان يقصد به إعادة محمود بمعارضة عبدالله أيضاً ، ولذلك بقي عبدالله هو الحاكم حتى عاد أخوه أحمد عندما استبدل بباشا بغداد باشا آخر . وكان نجيب باشا يأمل القضاء على هذه السلالة بتشجيع الاختلافات والنزاع بين أفرادها . فنجح في ذلك ، وفضل عبدالله ثانية على أخيه فأعطي السليمانية مع رتبة قائم مقام . وكان البابانيون يدفعون الاتاوة الى بغداد كما كانت الاجناد الاتراك في السليمانية قبل عدة سنوات ، وفي هذا الحين أيضاً أكثرت نسبتها وزيد عدد الجند في الحاميات الامبراطورية . فدنت النهاية بحلول عام ١٨٥٠ م عندما حل اسماعيل باشا ، القائد التركي ، محل آخر البابانيين . وبذلك غاب عن كردستان البيت الذي حكم بسطوة وشهرة ، مدة قرن ونصف ، اصقاعاً منها مترامية الاطراف . فخلي المجال للتعليمات المدونة في الورق ، وللموظفين الجبناء الذين يباعون ويشرون بالمال ، وللاستغلالية الواهنة ، واللغة التركية الغريبة .

اما في غير كردستان فقد كان الاتراك في الوقت نفسه يظهرون العزم في الحكم . فقد كافح علي رضا في بغداد نفسها لطرد العقيل من الضاحية الغربية التي تغفلوا فيها وصاروا سكاناً وسادة ، وذلك في ١٨٣٣ م (١٢٤٩ هـ) . وفي ١٨٤٧ م (١٢٦٣ هـ) طهر نجيب باشا محلة باب الشيخ من العناصر الخيئة التي طالما أبدت مقاومتها للحكومة . وفي ١٨٤٣ م وقعت حادثة العقاب الشديد الذي انزل في كربلا . ولو تطلعنا ببحتنا الى كربلا في هذا العهد لرأينا انها كانت منذ عدة سنوات ، وقد صار نصف سكانها من الإيرانيين ، ملجأً للهاربين الخيئة من

ماردين الى المحمرة ، وبذلك كانت بعيدة عن حكم الحكومة التركية تقريباً ، فلم يتسن لداود باشا ولا لعللي رضا الدخول اليها . وآلت في سنة ١٨٤٢ م حكومتها الداخلية الى رؤساء العصابات من « اليرماز »^{١٥} الذين كان يخضع لسوء تصرفهم العالم المجتهد والحاكم على حد سواء . وقد ألزم نجيب باشا في أواخر ١٨٤٢ م البلدة بقبول الحماية التركية وبقيائها فيها ، فرفضت وتبع ذلك الرفض الحركات العسكرية . فدوفع عن البلدة بكل حماسة ، وأعقب العراك في البساتين المجاورة حصار منتظم كانت تتيجه ان دخل الجند الاتراك البلدة ، فارتكبوا فيها شذاعات كثيرة سرعان ما بولغ فيها ، ففزع من ذلك الايرانيون والديبلوماسيون في استانبول . ولم تكن الحالة في النجف بأحسن منها . فان فريقها المتخاصمين ، وهما فريقا الزكرت والشمرت ، لم يعبأ بالبasha ولا بالسلطان ، وكان كل شيء في المدينة يجري بموجب فتاوى المجتهدين النافذة وبرغبات الرؤساء . وقد أدى نزاع اعتيادي في البلد ، في ١٨٥٢ م (١٢٦٩ هـ) ، الى ثورة . فخفت القوة التركية ، وبعد عراك شديد في الشوارع دام يوماً واحداً تمكن الاتراك من انزال العقاب بالبلدة وكان كالذي أنزل بكر بلا من قبل ، ولكنه أقل شراسة . وقد وقع مثل هذا الحادث في ١٨٥٤ م عندما بعث نامق باشا ضابطاً من قبله فدخل البلدة قسراً بالرغم من قوة الفريقين الموحدة .

سياسة القبائل ١٨٣٨م (١٢٥٤ هـ) - ١٨٦٩م (١٢٨٦ هـ)

سيعلم قارئ هذه الصفحات علماً يقيناً ، بدلا من ان يظن ، ان حل الدويلات الكردية والضربات القاسية التي ضربت لاصلاح حال العتبات المقدسة كانت شيئاً كانياً لادخال هذه الاماكن في جهاز الحكم التركي المنظم . على ان سطوة السلطان امتدت الى أبعد مما كانت عليه بنتيجة الحركات التي كانت جارية خلال الثلاثين السنة هذه ، وان كانت معارضتها قد بقيت موجودة بجميع عناصرها ، فانها قد أصبحت أقل فعالية وانتظاماً منذ ان زال اليلكات المستقلون وقضي على عصابات اليرماز .

(١٥) تعنى كلمة « ياره ماز » بالتركية السفهاء الذين لا يصلحون لشيء . وكان هؤلاء هم الهاربون والمجرمون والعصاة الذين وجدوا في كربلا ملجأ لهم . وكان عددهم عدة مئات يقودهم رؤساء بارعون .

وكانت سياسة القبائل في هذه الحقبة شبيهة بالسياسة التي اتخذت مع غيرهم من حيث الغاية • فان مشكلة القبائل كانت من أخص المشاكل التي يصادفها حكام هذه البلاد • وكانت ماهية هذه المشكلة العويصة معروفة بإيضاح منذ مدة ، وليس عندنا ما نضيف هنا الى ما بيناه حتى الآن في أحوال القبائل وحالتها • فما زالت هذه القبائل (في جنوب العراق عامة) تحت وتستفز من جانب المجتهدين على الاتراك ، وتعارض من حيث المصلحة أية حكومة منظمة تحكم في البلاد ، ولا تطلب شيئاً من الحكومة التي تضغط عليها في جمع الضرائب دوماً وأبداً ، وتفضل العرف العشائري على أية محكمة أو عدالة ، وهي سلفية بالكلية ، وجائئة بحيث لا تفوتها فرصة تسنح لها للحصول على مغنم ، ومتوحشة لا تقيم للمعنويات وزناً بحيث لا تحافظ على ما يعقد معها من معاهدات ، ولا تعبأ بالتوافق ولا الاتفاق على شيء ، وتظل أبداً ودوماً سيدة في الطرق والانهر والريف اجمع الا المناطق الضيقة ، لانها تعود الى وضعها من دون تبدل يذكر برغم المئات من حوادث التأديب التي تفرض عليها • وقد كان بقاؤها على مثل هذه الحال وهذا المقياس لا يناسب وجود أية حكومة تستحق ان يكون لها اسم تحت الشمس كما كان يراها بحق باشوات هذه السنين • وعلى هذا كانت المعضلة على جانب عظيم من الصعوبة ، وقد زادت ثلاثة قرون من الحكم السيء في استعصائها ، وأصبح حلها من أصعب الامور على الاتراك من بين جميع الامم الحاكمة •

ومن المحتمل ان عدة طرق لحل هذه المشكلة كانت قد تكونت في الازهان • الا ان العقلية التركية ما كانت تعد رجال القبائل الا وحوشاً كواسر يعارضون الحكومة قصداً للاذى والتشيعت • والحق ان منازل هذه القبائل كانت عبارة عن مجتمعات ساذجة ما يزالون يعيشون فيها عيشة (بعيدة عن كل ما تستوجه الحكومة من أمور) لا يمكنهم ان يتصوروا غيرها ، ولم يتقدم أحد لينير السبيل لهم نحو عيشة أخرى • ولذلك فقد كانوا يرتطمون ، وهم مدفوعون بدافع تفكيرهم القبلي ، الوف المرات بهذا الشيء الاجنبي عنهم الذي يقال له الحكومة • ومع هذا لم تصد لهم اية حكومة فتناشدهم بقولها : " كفوا عن عيشتكم هذه ، وعيشوا على الطريقة الحسنی التي سنجعلها موفورة لكم " • فالحل الحقيقي لمشكلة العشائر الازليسة الذي كان يجب أن يتبع في تفكيك القبائل هو ان تهيأ لهم حياة أخرى غير حياتهم •

حياة يكون في امكانهم قبولها وتفضيلها ، لا ان تنزل بهم ضربات موجعة — حين وآخر • وكان الجواب الحقيقي عن اللغز الذي كان يقف امامه نجيب باشا ونامق باشا بحيرة هو : « وطنوا قبائلكم في الارض ، وساعدوهم على اسقائها بشق النرع ، وأمنوهم على تملكها ، وأجمعوا منهم الضرائب الخفيفة بعـدالة ، ولا تسمحوها بوقوع تعدٍ على من توطن منهم ، ثم كافئوا بسخاء وعاقبوا بروح اصلاحية » •

على ان طريقة الحل هذه لم تتخذ • بل جاهد باشوات ذلك الزمن — وهم المتعصبون لقوميتهم ، غير المتساهلين — في سحق الحياة الموجودة في القبائل بنفل السلاح • فبنذوا الطرائق حتى الطريقة الاستغلالية القديمة ، وولوا شطـرهم نحو قلب الوحوش المتمردة الى « مواطنين » طائعين بكل عنف وشدة من غير ان يبينوا لهم كيف يعيشون عيشة أخرى غير عيشتهم ، ولا ان يعلموهم الطرق التي تقنعهم بوجوب الطاعة • فبقي رؤسائهم يرون بأمهات رؤوسهم غدر الحكام الاتسراك وضعفهم تارة ثم قسوتهم تارة أخرى • وظلوا يشاهدون المعاملة الجائرة التي يلقاها المتوطنون منهم الذين ينهبهم كل جاب من الجبـاة ويتغضب عليهم كل من يصل اليهم من « الضابطية » • كما ظلوا يرون الاستخفاف بهم مع غطرسة الاتسراك وازدرائهم المهيـن • وقد رأوا ذلك كله فتملصوا من الخطر الذي جاء يسلب حريتهم فيقدم لهم بدلاً منها أهوال الحكومة • وعلى هذا فان سياسة تفكيك القبائل والقضاء عليها بصورة هادمة كان لابد من فشلها على كل حال ، وقد فشلت في هذه الحقبة من الزمن لاسباب خاصة وأخرى عامة • لان محاولة تنفيذها كانت قد جرت باستخدام قوات أقل بكثير من القوات التي كان يستحقه هذا العمل الجسيم الخطير ، ومن دون أن توضع لها خطة ثابتة ، أو ان يكون لها تدبير منظم • وكانت النتيجة ان زجت الاصقاع العشائرية من العراق في أتون مشتعل من القلاقل ، وفي أحضان أسوأ ما يتذكره الناس من الفوضىوية ، ودفع الفلاحون المتوطنون الى البادية من جديد ، وأنزلت البلاد الى أسفل دركات الضعف والتعاسة في الوقت الذي ظهرت فيه أنواع المواصلات الحديثة •

وقد كان علي رضا باشا راضياً عن استمرار الطرق القديمة هذه في حكم القبائل • فكان يستبدل أحياناً بشيخ المنتفك شيخاً آخر ، أو يجد خصماً لصفوك ،

أو يستخدم الشيخ وادي معتمداً وجامعاً للضرائب • وكان سوء تدبيره لأمور القبائل قد عرّض بغداد لحالات حصار وتحصن أكثر من مرة • فهددت قبائل عنزة وشمر والزبيد تجول حوالي السور وتطيف به وهي مشمّزة من قلب الباشا ومتشوقة للحصول على كل ما يأتي به ضعفه اليهم • وقد رجع صفوك ، وكان قبض عليه رشيد باشا وأرسل به الى استانبول في ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ) ، فشر نفوذه على العراق من ماردن الى بغداد • وبقي كذلك حتى حل عام ١٨٤٧م (١٢٦٤هـ) فأمر نجيب باشا بقتله (بمكيّة) بعد قتل خصمه نجرس • وكان نجيب باشا أول داعية لسياسية تفكيك القبائل بصورة تدميرية وبالقوة • وقد اشتهرت باشويته بالحملات العشائرية^{١٦} المتوالية • ففي ١٨٤٣م كان هدفه في التأديب الخزاعل وشمر ، وفي ١٨٤٤م الخزاعل وعنزة • وفي ١٨٤٥م قصد كردستان ، وقمع اضطراباً في النجف ، وأدب العبيد • واضطرب في تلك السنة بدو الحدود الفراتية ، وكذلك كانت عفك والمتفك غير هادئة • ووقعت القلاقل في الجزيرة بعد قتل صفوك في ١٨٣٧م • وقام بنو لام في ١٨٤٩م مبكرين تعيين شيخ متفكي لجمع الضرائب من منطقتهم ، وهو تدبير على جانب عظيم من الجهل المطبق • وكانت شمر تغزو حول مدينة بغداد • ثم ثارت قبائل الهندية ، وكان وادي شيخ زبيد مسلطاً عليهم يومئذ ، بسبب جبايته الخالية من الرحمة وابتزازه للاموال • وقد سبب قمع معذه الثورة عداوة مرة بين نجيب وزميله العسكري الذي حل مكانه ، أخيراً ، فوفق بين جمهرة قبائل الهندية • وانهى عهد نجيب تجلله الكآبة وتستفحل فيه الفوضوية القبائلية الخالية من الامل في العراق من أوله الى آخره • فلم تنتج سياسته ، المطبقة بمنتهى الشدة ، شيئاً •

وقد استمرت هذه الاحوال وهذه العلاقات التي لا أمل فيها • وجسرت

(١٦) ومما حدث في عهد باشويته أيضاً مذابح التياريين المسيحيين، المشهورة في منطقة العمادية ، التي قام بها بكر خان (من أسرة جزيرة ابن عمر الحاكمة) ونور الله الشديد التعصب ، وكان ذلك في ١٨٤٣م • وقد تكرر وقوع مثل هذه الحوادث — التي احتج عليها السير ستراتفورد كانيغ. في استانبول — بشيء من الاعتدال في ١٨٩٦م • وكان ينافسهم في هذه ، اذ ذاك ، الشيخ عبدالقادر في السليمانية •

في عهد عهدي باشا حركات واسعة النطاق في الفرات حينما ذبحت القبائل ، في جملة تجاوزاتها ، حامية الكفل بأجمعها • ثم قبول نامق باشا ، في باشويته الاولى ، بثورة عامة بين قبائل الفرات بقيادة وادي • على ان هدوء نسبياً حل في عهد الكوزلگلي فدل على مدى المسؤولية ، التي تلقى على ما كان يديه نجيب ونامق من تشدد أعمى ، مفعم بالغطرسة والتجبر ، بالنسبة لما حصل في أيامهما من غلو في الاضطرابات والقتال • وربما كان في سياسة الكوزلگلي الملحة في تنظيف الاقنية والترع شيء من السياسة الحكيمة الرامية الى توسيع الاصقاع المستوطنة وتزويد الواردات بسبب توسع الاراضي المزروعة واصلاح حالة القبائل تدريجياً بتوجيهها الى عيشة جديدة يعيشونها بدلاً من معيشتهم البعيدة عن حماية القوانين الذميمة • وحدثت في عهد « سردار أكرم » ثورات أخرى بين قبائل الهندية والشامية ، وغزوات أخرى من جانب عنزة ، وتآديبات صارمة للهماوند^{١٧} •

وفي باشوية نامق باشا الثانية كانت الضرائب على القبائل تزداد^{١٨} باستمرار ، وينقم عليها نقمة دائمة ، وتجبى بعنف وعسف وقوة • واقتُص من بني لام لمقاومتهم المستكنة • وقد أدت ستان من الحرب في المنتفك - غايتها احلال قائم مقام^{١٩} محل شيخ المشايخ - بعد انتشار التعاسة والفوضى ، لتبديل سعدوني بآخر أي بتبديل فهد بمنصور • غير ان جميع مشايخ المنتفك اتفقوا ، بالرغم من تفرقهم وتناحرهم في سبيل المشيخة والوظائف الحكومية ، على مقاومة الايدي التركية التي كانت تعمل على ابتزاز امتيازاتهم القديمة ونقلها للاتراك • وقد أعقبت الحرب المنتفكية الطويلة حركات وجهت على الخزاعل فكانت عقيمة لا نتيجة لها • وتمادى الهماوند في غزوههم بأكثر من وقاحتهم المعتادة فلاقوا صفحاً غير مألوف •

المواصلات الجديدة

كانت ملاحاة الانهر العراقية في ١٨٣١ تقتصر على الوسائط التي تأصلت في

(١٧) وربما كان هؤلاء ، وهم اشهر قبائل اللصوص في كردستان الجنوبية ، من الجاف في الاصل • وقد ظهروا في منطقة بازيان (بعد ان كانوا مقيمين في ايران من قبل) في حدود ١٨٣٠ م •

(١٨) وخاصة في المنتفك

(١٩) وفي الوقت نفسه ضمت اراض سعدونية واسعة الى الحي والقرنة •

القدم قبل ان يشهدها هيرودوس • فالاكلاك المسيرة بالجلود المنفوخة فى الزابين واعالي دجلة ، والشخاير الخشبية المبسوطة المنتشرة ما بين يرهـجك والفلوجة ، والفقف المنزفة الموجودة فى كل شريعة وفرضة (مرسى) ، والمشاحيف القصيبة أو الخشبية المستعملة فى الاهوار ، والسفن الشراعية التي تجر بالبحال فى دجلة الجنوبية وشط العرب ، و « مهيلات » الفاو العظيمة ذات حمولة المائة الطن ، كانت تؤلف كلها جميع وسائط النقل النهرية الموجودة فى العراق يومذاك • وكادت هذه الوسائط تظل سائدة فيما اتخذت له لو لم تنهيا الفرص المناسبة والاختراعات الحديثة فتضافر جهودها على ادخال الوسائط الحديثة فى النقل • ولقد كانت السفن البخارية شيئاً جديداً ظهر فى العالم ، وكانت بريطانية العظمى تواقه الى وجدان طريق أسرع تصل به الى ممتلكاتها النائية فى الهند •

وقد بانت طلائع المواصلات الحديثة - المساحون - أول مرة فى العراق فى أيام داود باشا • فكان مساحان من مسّاحي الاسطول الهندي يعملان فى العراق فى سنة ١٨٣٠م • واستطاع الكابتن جيزني ، فى أواخر أيام هذه السنة ، أن ينزل فى الفرات من القائم الى الفلوجة • ومن بعد ذلك اشتغل المساحون الثلاثة معاً بمسح الانهر فكانوا معجبين بقابليتها للملاحة • وقد صرح الكابتن جيزني المذكور ، بتشجيع وليم الرابع ، امام « لجنة الملاحة البخارية » فى مجلس العموم سنة ١٨٣٤م بتصريحات مهمة ، فأدى ذلك لتجهيز حملة على رأسها الكابتن نفسه ، وانفقت عليها الحكومة وشركة الهند الشرقية معاً • وصادف فى الوقت ذاته ان زالت حكومة المالك من بغداد ، وأخذ علي رضا فى ١٨٣٣م يفكر فى أمكان اجراء السفن البخارية فى أنهره • لكنه تسلم فى أوائل ١٨٣٥ الفرمان الصادر - بأسلوب تأففي - بالسماح لبعثة جيزني بالعمل •

وبدأت رحلة الباخرتين « دجلة » و « الفرات » من يرهـجك فى نيسان ١٨٣٦م ، وبعد شهر من ذلك قضى على « دجلة » اعصار عاصف • وبقيت « الفرات » ، فقامت برحلة تستدعي العناية التامة فى التدقيق فى أحوالها مما كنبه الكتاب ^٢ عنها • فقد طلب فلاحو الحديثة الى الرواد فيها ان يبقوا فى بغداد مرة ثانية ويرفعوا علم ملاحظتهم هناك ، وقوبلوا فى الرحلة كما يقابل الكفار ، وقابلهم

الخزاعل المتوحشون في مستنقعات اللؤلؤ بشراسة وخيانة وحيل • ووقعت الباخرة في سوق الشيوخ بالفتح الذي نصبه القنصل الافرنسي لاحتياط مساعي الحملة ، وذلك باستعمال الحواجز المتخذة من جذوع النخل • ثم تبودلت في القرنة المراسيم الحكومية مع زورق تركي مسلح • اما في البصرة فقد فُتس الباخرة القبطان باشا • وبقيت « الفرات » بعد ذلك تمخر عباب المياه العراقية مدة خمس سنوات أخرى •

وفي ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) أُفرغت في البصرة ٢١ حمولة أربع بواخر جديدة تحتوي على آلات وأدوات مختلفة • وظل اسطول صغير يدور في المياه العراقية لمدة سنة أخرى من دون ان يعاق بالرغم من عدم وصول فرمان الترخيص ، ثم وصل ذلك أخيراً في سنة ١٨٤١م • وسمح من بعد ذلك للمستمر لنج بتشغيل باخرتين • وفي ١٨٤٢م أخذت ثلاث بواخر الى الهند وبقيت باخرة « نيتوكريس » وحدها راسية بالقرب من المقيمة البريطانية حتى أبدلت أخيراً باخرة اسمها « المذنب » (كوميث) • وكانت خلال الفترة هذه اعمال المسح ورسم الخرائط قائمة على قدم وساق حتى احضرت أدق الخرائط وأحسنها بهمة لنج ، وفيلكس جونز وسيلبي وكولينغود وبيوشر ، وظلت تستعمل هذه الخرائط حتى سنة ١٩١٤م • ولا يخفي ان هذه الخدمة للبلاد ليست بالشئ اليسير •

وقد ترك خط الفرات باعتباره طريقاً لبريد الهند عندما أظهر ما أصاب «دجلة» من كارثة ، وبعد وقوع حوادث أخرى ، ان النهر غير صالح للسفريات السريعة المنظمة • ولذلك كانت اعمال الحكومة البريطانية بعد ١٨٤٢م تنحصر في أمور المسح فقط ، وقد أخذت الحكومة التركية مكانها في الامور الاخرى • وأدرك رشيد باشا الغوزلگلي بسرعة أهمية السفن البخارية العظيمة ومنافعها • وفي ١٨٥٥م (١٢٧٢هـ) دعا جماعة من التجار لاجتماع عرض فيه عليهم تأليف شركة للملاحة يكون نصف رأس مالها من الحكومة والنصف الآخر يشترك فيه التجار •

(٢١) ان الغرض من مجيء هذه العمارة البحرية غير واضح • فقد كانت البواخر لا تصلح لشحن البضائع التجارية ، ولم تكن تستعمل لنقل البريد • على انه يبدو ان مجيئها كان الغرض منه ان يدل على تقبل البلاد للتعامل معها بوجه عام • وقد عيّن الملازم لنج لقيادتها •

وبعد ذلك أرسل ب « طلية » الى أتويرب لصنع باخرتين ، « بغداد » و « البصرة » .
 فوصلت الاولى وشدت في العراق قيل وفاة الكوزلگلي ، ثم وصلت الثانية بعد ذلك .
 وبالرغم من اهتمام الاهلين الجزئي بهاتين الباخرتين رفض الواليان التاليان استعمالهما
 لنقل بضائع التجار^{٢٢} ، وأسس في ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) نامق باشا هذه المصلحة
 باسم « إدارة عمان العثمانية » ، ووضعها بعهدة « مدير الامور الطلية الذي كان
 يشتغل في معيته » ثم شيد لها معملًا للتعمير والاصلاح . لكنه لم يؤسس لذلك
 انحصاراً خاصاً ، حيث ان « شركة لنج » التي أصبح لها اسم مشرف في المياه
 العراقية بمساعي اسرة لنج^{٢٣} المشكورة كانت قد تمكنت في ١٨٦١ من نيل فرمان
 يبيحها اجراء باخرة « مدينة لندن » « سيتي أوف لندن » ، وقد أصدر هذا فرمان
 برغم معارضة نامق باشا القوية لذلك . وحصلت المعارضة نفسها في سنة ١٨٦٤م
 عندما جيء بالباخرة الجديدة « دجلة » . غير ان الباشا لم يكن له من الحول والطول
 ما يمنع به هذا النوع من الاستيلاء على العراق بواسطة المراكب الحديثة ، خاصة
 وهي تفوق مراكبه بكثير وتؤدي لحرمان إدارة عمان العثمانية من جني الارباح .
 وقد استبدل بفشل مساعيه معارضته المحلية على قدر الامكان والاكتار من بواخره .
 ولذلك وصلت اليه في ١٨٦٧م البواخر « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » .
 على أن ادارة هذه البواخر قد اعترضتها مصاعب كثيرة منذ الايام الاوائل ، وذلك
 من حيث عدم اتقان امور الاصلاح والايقاد لوجود موظفين مستفسدين في ادارتها
 وبحارة لا يدفع لهم أولو الادارة الاجور بانتظام ، وبقيت تلك المشاكل من دون
 أن تتغلب عليها الجهود . هذا مع انه كانت باخرتا شركة لنج على أحسن حال وهما
 تدران الارباح على الشركة^{٢٤} .

(٢٢) من المحتمل ان مشغولية الباخرتين في أمور عسكرية تتعلق بتجهيز
 الحملات على بعض القبائل في ١٨٥٦ - ١٨٦١ قد حال دون الاستفادة منها في
 شحن البضائع .

(٢٣) خدم الملازم لنج في العراق مدة سنين عديدة ، فأضاع خلالها أختا
 في كارثة « دجلة » وآخر مات مريضاً .

(٢٤) ومن نتائج سير هذه البواخر النهرية تعاظم شأن العمارة والكوت ،
 والتأثير التهذيبي المحسوس في القبائل النهرية ، وتجريد السواحل النهرية من
 الصفصاف والطرفاء « الطرفة » اللذين يسبب تكاثرهما تأثيراً سيئاً في مجرى
 الانهر .

وإذا ما عدنا الى المواصلات البرية فالتنا سوف نعجب عندما نجد فقدان
 الوسائط الثقيلة ذات العجلات من العراق مدة طويلة من الزمن • فان انبساط
 الاراضي الممتدة والضرورة الاقتصادية كانتا تستدعيان شيوع هذه الوسائط كما
 هو الحال في البلاد المماثلة • الا ان درس أحوال العراق عن كتب يسوع عدم
 شيوع الوسائط المذكورة • فان الجمود الروحي العام ، والتخوف من
 العواقب الاجتماعية للتجديد ، ورؤوس الاموال القليلة المتوفرة لدى أصحاب
 الافكار المحدودة من الناس ، كلها كانت أسباباً قوية تميز تلك الحال • على انه
 توجد أسباب أخرى خاصة لها حصتها في تسويغ الوضع • فمن الطبيعي ان تنقل
 الاموال الى جهات معينة في البلدان المختلفة ، غير ان هذه البلدان نفسها بقيت
 حتى الزمن الاخير ليس فيها شارع واحد يجعل سير العجلات ممكناً فيه • وعلى هذا
 أصبح التاجر الذي تقف عربة الحمل على مسافة طويلة من باب خانه يفضل تسخير
 الحمير دوماً والجمال الكردي في نقل بضاعته • اما في الطرق العامة خارج المدينة
 فقد كانت موانع النقل تنطوي على أشياء أخرى • ففي القسم الشمالي من العراق ،
 وفي أطراف الاصقاع الكردية ، كان يمكن العجلات أن تسير على تربة ذات
 حصباء صلبة انى اتجهت • وينقطع وجود الحصى والحجر من جنوبي هيت
 وسامرا ، وهنا لا يمكن تمييز الطرق عن أراضي البادية ولا عن حقول الزرع الا
 بتكاثف الوحل والغبار فيها • ولذلك لا يمكن تهيئة الطرق الصالحة للسير الا بالعناية
 الدائمة • وان ما لا يحصى من السواقي والترع القاطعة للطرق دائماً ومن دون
 انتظام تمنع من سير العربات غير انها تسمح بسير حيوانات النقل • هذا زيادة على
 ندرة وجود المواد التي تشيد منها القناطر ، ولم يكن بوسع أحد غير الحكومة
 الصارمة ان يتمكن من اجبار الزراع على نصب القناطر ، ومنعهم من اغراق الطريق
 العامة بين حين وآخر ، وعن تجاهلهم أمر الطريق واقدامهم على حراثته مع الارض
 المعدة للزرع • وان حلت جميع مشاكل البلدة والريف في هذا الشأن ، فان
 المسافرين لم يبرحوا يشعرون بأن « العربانة » الواسعة الملائمة كانت ما تزال طعمة
 جيدة للعصاة وقطاع الطرق •

وقد جاء أول اقتراح للنظر في طرق أحسن ونقلات أسهل من الخارج ، فلم
 يثمر شيئاً • ففي سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) سافر رجل " افرنسي ، يدعى الكونت

دي بيرثري ، من الشام الى بغداد ، وكانت نيته منصرفة الى فتح هذا الطريق لتسيير العربات فيه . اما عن شيوخ البادية الذين يمكن أن يحولوا دون سلامة الطريق فقد ارتأى بادیء ذي بدء انه من السهل أن تشرى حماية الطريق منهم بالمال . ووجد في بغداد ان التجار مستعدون لتأسيس الشركة وتمويلها ، غير ان نامق باشا ، وكان لا يزال متأثراً متأثراً مرأى من وجود البواخر الاجنبية في دجلة ، لم ترقه الفكرة الجديدة التي ينتزع بها الاجانب من يده الطريق البرية أيضاً . وعلى هذا فقد منع المساهمة في المشروع ، وحذر الكونت من التعرض لشؤون القبائل .

وكانت في اوربة ، في غضون ذلك ، مشاريع أعظم وأغرب في قيد البحث والمداولة . فقد فكر في ١٧٤٢ (١١٥٥ هـ) صاحب معمل أيرلندي في أن يمسك سكة حديد من كاليه الى استانبول ثم الى كلكتا ويكين ، فكان ذلك مشروع « سكة حديد الاطلس » لويليام بين . وفي ١٨٤٣ م (١٢٥٩ هـ) عرض الكسندر كاميل مشروع سكة حديد « انكلتره - فالهند » على أن يمتد على طريق وادي الفرات ، وهو المشروع الذي عرض من بعد ذلك على شركة الهند الشرقية ، فأحضر ما يقتضي ورسمت الخراط . وفي ١٨٤٩ م عرض جون رايت مشروعاً آخر لانشاء خط يمر بوادي الفرات . ومات سنة ١٨٥١ م في استانبول الدكتور ج . ب . طومسن شهيد الحماسة في هذا الشأن . وبعد ثلاث سنوات جمع و . ب . أندرو ، الداعي لانشاء طريق مثل هذا الى الهند خلال سنين عديدة ، جماعة معروفة من العلماء والمغامرين - لنج وچيزني ومكنيل وغيرهم - وكونوا شركة لانشاء سكة حديد من البحر الابيض المتوسط الى الخليج . وكانوا يرون ان تمر السكة بسلوقية وانطاكية وحلب و « قلعة جعبر » وهيت وبغداد ، ومن هناك الى القرنة فالبصرة . وقد رضيت هذه الجماعة ان تمت أولاً خط سلوقية - فالفرات فقط (وطوله ثمانون ميلاً) ومن هناك يطرق نهر الفرات بالبواخر . وقد ضربوا في تحقيق مشروعهم هذا على وتر الخوف من تسرب النفوذ الروسي الى الشرق ، والشبهة العظيمة الكامنة في العراق ، واستفادة تركية والهند ، والتوسع المنتظر في التجارة مع الشرق الاقصى ، وسهولة انجاز المشروع من الوجهة الهندسية ، وتوفر المواد الانشائية في سورية . ففاز هذا المشروع بالتأييدات الرسمية ، وبضمنها تأييد بالمرستون والسر ستراتفورد كانيغ كما كانت الحكومة التركية مستعدة لقبوله .

وبعد جهود خمس عشرة سنة تبين عدم امكان جمع المال اللازم لذلك ، فترك المشروع كله • اما المشاريع المحلية فقد ظلت ميتة لا حراك لها • وقد فترت حركة المشاريع الاوربية في هذا الشأن ، لمدة ما ، بسبب افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ م . (١٢٨٦ هـ) •

ولم يكن وجود لمصالح البريد في العراق طوال هذه الحقبة ، غير ان الملاحظة البخارية أعقبتها في الحال ظهور التلغراف • وكان هذا اختراعاً حديثاً معرضاً للعطب ، ومفتقراً الى شيء كثير من الخطوط والنقلات لادامته بصورة اقتصادية • ومن أجل هذين السببين كان من المحتمل أن يظل العراق محروماً من التلغراف طوال القرن التاسع عشر ، لكن البلاد ، لما كانت جزءاً من كل أكبر وجسراً أرضياً علاوة على ذلك ، فقد قدر لها ان تستفيد من ميزات التي كان يندر الاستفادة منها • فكانت تركية قد خرجت من حرب القرم غانمة ، صائرة من القوى الاوربية التي يُعَبَأُ بها ، كما أصبحت دولة ذات سيادة مضمونة ، وقد علمتها تجارب الحرب انها تحتاج الى مواصلات أحسن في ضمن امبراطوريتها ، وكانت انكلترا بعد « العvisان » ترحب بكل مشروع يكون من ورائه اتصال لها اسرع بالشرق • وقد سبق ان رسمت الخطط لمذ الجبل السلكي « القابلو ٢٥ » في قعر البحر من الهند الى البصرة ، ومن هناك في قعر دجلة الى بغداد • وتقدمت شركة الهند الشرقية في ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) الى الحكومة التركية بمشروع مد خط أرضي من سورية الى الخليج • وقد رفضت استانبول التأمينات التي لم يكن بدونها بوسع الشركة (ومن ورائها شركة الاتصال التلغرافي الهندية الاوربية) ان تبدأ بالعمل ، هذا زيادة على ان منح امتياز أجنبي كان في حد ذاته شيئاً غير مستساغ • على ان الحكومة التركية والبريطانية اتفقتا في ١٨٥٧ م على قيام المهندسين البريطانيين بمد الخطوط على ان يكون المشروع تركياً صرفاً ، وفي صيف ١٨٦١ م تحقق الاتصال عن طريق البر بين اسانبول وبغداد •

وتبع ذلك البحث في ربط بغداد بالخليج ، فسمح نامق باشا بأن يسمح المقيم نفسه طريق الفرات مسحاً شخصياً • فعين طريق ما ، وبدأ العمل في

أواخر ١٨٦٣ م ، وبدىء ، في الوقت نفسه ، بمد خط بغداد - فخانقين • وما
 حل الخريف التالي حتى كان هذا الخط الاخير في قيد الاستعمال ، وبعد عدة
 شهور أخرى بدىء باستعمال خط الفرات • وأصبحت خطوط التلغراف العراقية
 متصلة بخطوط تركية وايران (في خانقين) والخليج والهند (بالفاو) • وتمدت
 الخطوط من بعد ذلك بالتعاقب الى كربلاء فالنجف ، والى الكوت والعمارة فبصرة
 ومنذلي على طريق دجلة ، ثم اتصلت على طريق كارون بالخطوط الايرانية في
 الاهواز • وما حلت نهاية القرن حتى فتحت الدوائر في جميع البلدان المهمة •
 وبالرغم من كثير من التقصير - كحدوث الخلل في الاجهزة ، وعدم تدريب
 مراقبي الخطوط ، والعرقلة المستمرة من جانب الجهال والعساكين ، ووجود
 الموظفين الذين لا يعرفون فائدة لكتم الاسرار - كان الجهاز التلغرافي يشتغل
 بانتظام • وبذا فقد أصبح ما كان يعد غريباً شيئاً لا بد من وجوده • وبات ضبط
 القبائل بالطريقة المثلّى ممكناً لان جمع القوات بسرعة أصبح سهلاً ، وذلك بالرغم
 من أن هذه الخطوط أصبحت أهدافاً سهلة الاصابة على نقمة القبائل وعشها •

الفصل الثاني عشر

أواخر القرن التاسع عشر

مدحت باشا

دخل مدحت باشا بغداد والياً فيها في اليوم الثلاثين من نيسان ١٨٦٩ م (١٢٨٦ هـ) • وقد دلت سيرته في السابق ، كما حققت أعماله فيما بعد ، على انه جيء به من أوربة الى هذه الولاية النائية للإصلاح والتجديد •

وقد ولد في استانبول سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ) ونشأ ، فكانت تربيته ودراسته التي تخللتها التنقلات ، التي كانت تصيب اباه وهو موظف صغير ، دراسة اعتيادية في المدارس المحلية • وكان قد انخرط في شبابه في سلك الكتبة الصغار ، وخدم في دمشق واستانبول وقونية • وتدرج من ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) الى ١٨٥١ م رتقياً في سلم الوظائف وحصل على أصدقائه من أصحاب السلطة • وقد ارسل سنة ١٨٥٢ للكشف عن سوء استعمال حصل في ولاية دمشق وولاية حلب العربيتين فنجح في المهمة خير نجاح • وكان نجاحه فيها بمقام تجربة وتدريب لعمله المقبل في بغداد • وقد تقلد منذ ١٨٥٣ الى ١٨٥٨ وظائف في البلقان وبورصة ثم في الولاياتين : ودين وسالسترية المضطربتين ، وسمح له في السنة الاخيرة من هذه المدة ان يتجول في عواصم أوربة فاستغرق التجول ستة أشهر • وقد قضى القسم الاعظم من السنوات العشر التالية في البلقان ، وكانت السنوات الاربع الاخيرة منها في المنصب المهم الشاق وهو منصب والي ولاية الدانوب المؤلفة أخيراً • فكانت ادارته بها ادارة نزيهة تقدمية متساهلة ، ولذلك أصبحت على عهده تلك تعد « ولاية نموذجية » • وكان تطبيقه لنظام « الولاية » وملحقاته ، وتأسيس البنوك الزراعية ، واجراء البواخر النهرية ، وتشيد المستشفيات ، وتشغيل الصناعات الحكومية ، تؤذن مبدئياً باصلاحات هذا الباشا

المائلة في العراق • وبعد ان قضى شهوراً قلائل في المركز باستانبول عين ، في ١٨٦٩ ، والياً في بغداد خلفاً لتقي الدين باشا • وكان اذ ذاك في أوج قوته ونشاطه ، حيث كانت لحيته السوداء الكبيرة لم يتطرق اليها الشيب بعد • ولم تخل أعماله العديدة التي اضطلع بها خلال سني حكمه في العراق ، و نه السلطة المطلقة ملكياً وعسكرياً ، من آثار العجلة والاغلاط الاقتصادية الناشئة عن جهل بعض الامور أو تناسيها • لانه كان في بعض الاحيان كثير الثقة ، حتى الافراط ، بكل ما يسمى تجديداً ، كما انه كان يفضل في أحيان أخرى الامور الخلابة على الامور المعقولة • فقد سمح في طريقة تسجيل الاراضي التي جاء بها بتحريك الماكنة الرسمية التي لا بد من أن تنتج ما لا يحصى من الاغلاط فضلاً عن الغموض والفساد • وكتب لمشاريعه في اصلاح الانهر أن تبوء بالفشل المروع لعدده اعتمادها على الدراسة التمهيدية الواجبة • وقد انجزت اساطيله النهرية أول مما كان يأمله منها بكثير ، ولم تشتغل كراءات « كراكات » شط العرب مطلقاً ، كما لم تستقم البواخر الذاهبة الى البحر طويلاً • ولم تظهر للوجود قط مشاريع سكك الحديد التي كان يفكر فيها ، ولم تصل المكنائن الصناعية التي طلبها من أوربة • ولم يكن قادراً على تحقيق مشروع كان عزيزاً عليه وهو بيع خزائن النجف وانفاق مبالغها على الاشغال العامة — فخاب تماماً في القضاء على الفساد • ولم تعش بعده اصلاحاته البلدية الا بصورة ضئيلة • وقد ترك تهديمه لسور بغداد أكواماً عظيمة من الانقاض ومدينة محرومة من الدفاع • وكان يأمل أن يدفع ثمن الآجر المستخرج من انقاض السور ما يستحقه جنده من الاجور ، ولم يسلم « طاق كسرى » ذي الجلال من عمل كهذا • فبمثل هذه البراهين يمكن أن تنتقد أعمال مدحت باشا •

على ان نظره للامور ، وفعاليته الوطنية ، واستقامته المطلقة ، كلها قد انجزت أعمالاً أعظم من الاعمال التي تمكنت ثقافته الناقصة من تشويهاها • فقد أكمل ما بدأ بتشيدته نامق باشا من الابنية العامة وأضاف اليها شيئاً كثيراً • فان اصدار جريدة ، وتأسيس المعامل العسكرية ، وبناء مستشفى ودار للعجزة وميمنة وعدة مدارس ، ومد خط « للترامواي » الى الكاظمية ، كانت كلها ، مع الروح التجديدية التي دلت عليها ، قد نورت بغداد وبعثت حياة التجدد فيها • ولقد طبقت الاصلاحات ، العسكرية والمدنية ، في بغداد لأول مرة على عهد مدحت باشا بعد ان

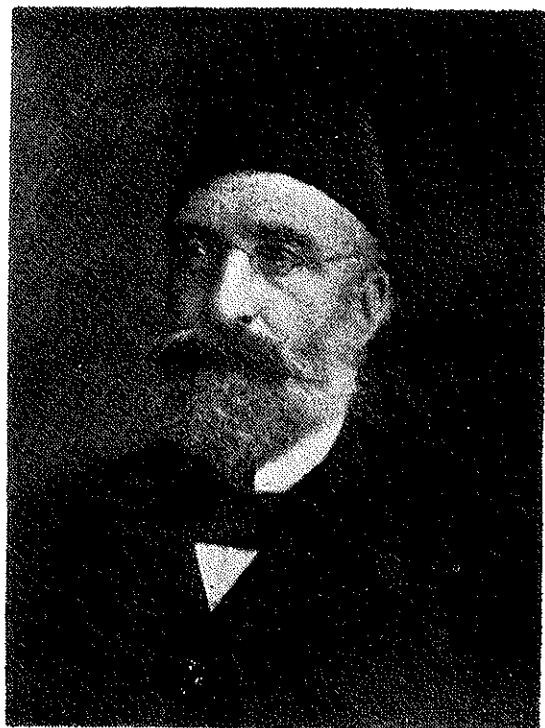
كانت مطبقة مدة طويلة من الزمن في ولايات أخرى • وفرض الخدمة العسكرية ،
ثم أسس البلديات والمجالس الادارية ، وطبق نظام « الولاية الجديد » بحذافيره •
وكان تمصير البلدين الناصرية والرمادي من صنع يديه •

وقد كان العراق التركي في سنيه الاخيرة بلاداً متأخرة سيئة الحكومة بحيث
ان ما يعزى لمدحت باشا من التأثير الحسن العظيم فيه يقيم ثناءً مشكوكاً فيه • على أن
ثناءً مثل هذا لا يعد في غير محله ، وعلى الذين يضمنون بهذا الثناء أن يتأملوا
الفرق في العلاقات بين الحكومة والقبائل قبل باشويته وبعدها ، والامن النسبي في
الطرق ، وانتشار التعليم الابتدائي ، وتوسيع الفكرة الاقليمية • وكان أعظم ما قام
به من الخدمات أنه وضع خطة حكيمة لتوزيع الاراضي على القبائل لاجل ان يعيد
الاراضي الواسعة في العراق الى الاستيطان مستفيداً ، في الوقت نفسه ، من الخطة
في تمدين القبائل مما سيأتي بحثه بعد هذا • ويرجع الفضل في هذه الخطوة
الاكيدة التي خطاها في مضمار التوطين ونشر الامن ، في الربع الاخير من القرن ،
لهذه الخطة وللروحية الرسمية التي صحبتها • وعلى هذا فإن كثيراً من العيوب
العديدة التي ظهرت في الحكومة بعد مدحت باشا لم يكن سببها تطبيق هذه الاساليب
بل نسيانها • ولم تكن حاكمية مدحت باشا في العراق الاشياء طارئاً على سيرته ^١ ،
غير أن اسمه الشهير باقترانه باسم العراق في القرن التاسع عشر ، ما يزال دائراً
على الافواه في المدن وبين القبائل ، فهم يذكرونه دائماً من حيث كونه مبتدعاً
مهذباً •

وترك مدحت باشا منصبه في بغداد في أوائل ١٨٧٢ بعدما باع ساعته - على
ما يروى - ليدفع نفقات سفره الى العاصمة •

ولا يسمح المجال في هذا الكتاب بأكثر من التويه بشخصيات هذا الزمن

(١) فقد أصبح صديراً أعظم في ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) على عهد السلطان
السلطان عبد العزيز ، وتقلد هذا المنصب ثانية في عهد عبد الحميد في ١٨٧٦ •
وقاد خلال هذه المدة حزب « الترقى والحرية » وكذلك كان مسؤولاً عن الدستور
العقيم • وقد قضى عليه تصادم نظرياته بنظريات عبد الحميد ، فقد أقصي الى
الطائف قرب مكة وقتل هناك في ١٨٨٣ م (١٣٠٠ هـ) بعد ان نقل الى حاكمية
سورية وحاكمية أزمير بحال يشبه النفي •



الآخري • فالموصل والبصرة ، يكون كل منهما سنجقاً أو ولاية ، لم يظهر فيهما أي حاكم بارز ، كما لم يكن موظفوهما الكبار يعدون من الطبقة العليا في تدريبهم ولا أصلهم ولا روحيتهم • وقد كان معظمهم من الأتراك ، ولم يعدم وجود العرب (وأكثرهم من سورية) بينهم ، وكان يوسع الأكراد أن يبلغوا المناصب العالية وخاصة في المناطق الشمالية • وكان من النادر للعراقي أن يصل إلى أعلى من منصب المتصرف ، ولو أن الدرجات المنخفضة من الطبقة البوروقراطية كانت تتألف منهم • وقد عرفت كركوك (ولسانها التركية) بكونها مشتلاً تهيأ فيه طبقة الموظفين • وفي خلال هذا العهد كانت الأسر المعروفة في كل بلدة لها المكانة الثابتة في المجتمع ، وهي تحمل عادة لقباً تركياً أو تتلقب باسم المكان الذي نشأت منه ، وكان أبناء هذه الأسر ، من غير استثناء لأحد منهم ، يسرون بالانخراط في سلك الموظفين وقبائليتهم ضعيفة في الغالب • ولم يكن أحد من خلفاء مدحت باشا ، ممن يشملهم تاريخنا هذا ، يمكنه أن يعد من الطبقة الأولى^٢ • فكان رديف باشا (١٨٧٤) نظامياً صارماً ، وعبدالرحمن باشا (١٨٧٥ - ٧٩) اصولياً شديداً متعصباً ، وكان عاكف باشا البانياً محبوباً لكنه في غاية من الفساد والتفسخ ، كما كان قادري باشا (١٨٧٨) عالمياً مشككاً • وقد جاء تقي الدين باشا ، سلف مدحت باشا ، إلى بغداد مرة ثانية فحكم ست سنوات (١٨٨٠ - ٨٦) • وقد خلف مصطفى عاصم باشا (١٨٨٧) أخباراً لجولاته الفعالة في الخارج ، ونزاعاته العنيفة للسيد سلمان أفندي النقيب • وكان سري باشا الكرتي الأديب شغوفاً بتزيين عاصمته وتزويقها • وكان الحاج حسن (١٨٩٢) ، وهو تركي من استانبول ، ذا قوة جسمية فائقة ومتديناً على الطراز القديم • أما عطاء أفندي (١٨٩٦) ، وهو قاض سابق ، فقد كان مدققاً في القانون طاعناً في السن • وانتهى القرن بنامق باشا الصغير المعروف بزهد المتطرف • ولم ينشأ من بين هؤلاء جميعاً ، على اختلاف طرزهم وعنصرياتهم ، من تعدى منصبه هذا بشهرته فخلد لنفسه اسماً في التاريخ • ولا مجال هنا لذكر الشخصيات الأخرى المماثلة شهرتها في عراق ذلك الوقت من الملاكين والعلماء والتجار والقادة ، ومازال كثير منهم في قيد الحياة ، وقد تعرف بقسم غير قليل منهم مؤلف هذا الكتاب •

التوسع في الجزيرة العربية

شهدت السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر محاولات تستحق الذكر قامت بها تركية للتوسع في الجزيرة العربية • ولم يوعز بهذا التوسع أحد ، وانما جد فيه مدحت باشا من العراق لأول مرة • وكان يرمي بذلك الى ضم جميع الامارات العربية المستقلة في نجد وسواحل الخليج الى الامبراطورية العثمانية • وكان هذا الاستقلال ، في الامارات الساحلية ، قد دام من دون معارض منذ القرن السادس عشر حينما كانت الاساطيل التركية تشن غزوات ساحلية فجائية في يوم واحد فتدعي بتابعة الكويت أو الاحساء^٣ أو البحرين لها ، وفي نجد^٤ بعدما كانت القوات المصرية ، لا التركية ، قد استولت عليها ثم انسحبت منها • وان كان الرجوع الى التاريخ يميظ اللثام عن قليل من العذر لهذا التوسع ففي التاريخ أسباب أخرى تسوغه أيضاً • فأن البعث الداخلي ، الذي كان مدحت يناضل في سبيله ، كان يصحبه في العادة جور واعتداء في الخارج • وكان سكان ولايات الخليج سنين ، ولذلك كانوا من رعايا الخليفة الأصليين • وكان لابد للدولة الوهابية من أن يقضى عليها في النهاية لأن انقساماً خطيراً قد وقع في داخلها • فقد كانت تصل الى الباشا في العراق معروضات عديدة من هذا الامير الملتجئ أو ذاك ، لأن المؤلف في سياسة العرب أن يلتجئ الشخص الى أي جهة كانت للحصول على مقصده • كما كان وضع البريطانيين في الخليج لابد من أن ينازعهم فيه أحد على الرغم مما كانت تنطوي عليه من نبل في المقصد أعمالهم التمدينية الخالية من الغرض ، التي استمرت مدة طويلة من الزمن في رسم الخرائط ومكافحة القرصنة • وأخيراً فقد كان السبب الجوهري الاصيل للتوسع جوع الاتراك الدائم غير المنقطع الى الارض والتملك ، الرامي على دوام فيه الى الاستيلاء على ممتلكات مورطة غير مفيدة ، والراغب أبداً في ضم الرعايا المعادين والرمال القاحلة • وكانت حقيقة الحال في العقد السابع من القرن نفسه أن بلاد البحرين ، الممزقة بالحرب الاهلية فيها ، كان يدعي الاتراك بكونها عثمانية وهي ما زالت تابعة حتى الايام الاخيرة لامير الوهابيين في الوقت الذي كانت فيه السفن البريطانية

(٣) كانت الاحساء (اسماً) تابعة للبصرة في أيام حسين باشا •

(٤) كان باشا مصر ، بطبيعة الحال تابعاً للسلطان نظرياً •

مجدة في أعمالها البذرقة^٥ « البوليسية » بأزاء سواحلها • وكانت بلاد الاحساء والقطر تكون كذلك جزءاً منحلاً مختلاً من ممتلكات الوهابيين • لكن واحات نجد بقيت موطن قوتهم ومركزها الاصلي • غير أن مطالبة الاتراك بجميع هذه الممتلكات بقيت غير منقطعة • وقد انتهى عهد فيصل بن تركي الهادي الطويل في نجد سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) ، ومن بعد ذلك بدأت منازعات ابنه عبدالله وسعود ، من أجل الامارة الوهابية • وكان الاول ينظر الى الترك في المساعدة ، فأرسل وكيلا عنه الى بغداد سنة ١٨٦٦م وسنة ١٨٧٠م ، مستنجداً بمدحت باشا بعد نجاح أخيه في الثورة وعارضاً التابعة ودفع الاتاوة بشرط أن يعاد الى منصبه • وقد مر وكيله بطريق الكويت حينما كان الشيخ عبدالله بن صباح فيها يرى ، حتى عدة سنين خلت ، من مصلحته أن يتصل اتصالاً وثيقاً بالبصرة •

وقليل من الاتراك من كان يستطيع أن يمسك نفسه عن قبول ولاية أو مقاطعة تقدم اليه ، وكان حرص مدحت باشا في هذا المضمار يفوق حد المخيلة والنشاط • وعلى هذا فقد عزم على قبول معروضات عبدالله بن فيصل ، حتى يلحق بولايته المملكة الوهابية ، أن أمكنه ذلك ، بحجة إعادة النظام الى نصابه في ممتلكات السلطان النائية • فبعث بواسطة نقالات شط العرب البالية ، قوة قوامها عدة آلاف رجل يقودها نافذ باشا • فنزلت في رأس التنورة في أيار سنة ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) ، واحتلت القطيف بسهولة • وقد ادعى نافذ بأن غايته هي أن يسبغ نعمة الحكم التركي على سكان الاحساء ، وأن يعيد عبدالله الى مكانه برتبة « قائم مقام نجد » • فعين الحكام في قرى الاحساء واحتلت القطر بحامية وضعت في دوله • وظل الحكم التركي أسابيع معدودة محموداً بالنسبة لقسوة الوهابيين وسدتهم من قبل ، وعندما حضر عبدالله بن فيصل المعسكر التركي تحقق ان عودته لمكانه كان أمراً بعيداً عما كانوا يضمرونه له ، فهرب ولم يخلف بعده الا شيئاً قليلاً من الندم في الاحساء •

على أن القوة العسكرية التي بقيت هناك سرعان ما زال انطباعها الحسن عن

(٥) البذرقة منسوبة الى « البذرقة » وهي حيطة القوافل البرية أو البحرية ونقض المسالك لها • يقال « بذرقة الامير القافلة يبذرقةا بذرقة » - (م • ج)

هذه المنطقة بالخبرة والمران ، فبدأ أفرادها يشعرون بأن احتلالها هذا يزداد مشقة وعناء كل يوم . وقد قل عددهم من جراء الحمى والأمراض ورداءة التجهيزات . ولذلك ترك مدحت باشا نفسه بغداد ، في أواخر ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) ، للتفتيش فكان بمعيته الامداد والذخيرة الكافية . فاستقبل بحفاوة في الكويت وعين شيخها قائم مقام ثم سحب جند حامية الاحساء بعد أن استولى على أفرادها المرض فاستبدل بهم رجالاً أقوياء ، وأعلن انضمام المنطقة الى ممتلكات السلطان من دون قيد ولا شرط (منكرأ بذلك ادعاء الوهابيين بها) ، كما عين نافذ باشا « متصرف نجد » . غير ان أي تقدم نحو الواحات الداخلية لم يحصل ، كما لم يتعرض لما يختص بالمصالح البريطانية في البحرين . لكن الانراك ، في هذا الوقت وفي اوقات أخرى حتى نهاية هذه الحقبة ، ظلوا يدعون بدخول الجزيرة هذه في نطاق تابعتهم ، فكان ذلك ادعاءً غير حقيقي ولم يسمح به .

وقد استقامت ترتيبات مدحت باشا حتى سنة ١٨٧٤م ، الا انه علم فيما بعد بأن حكم سنحج الاحساء حكماً مباشراً كانت إدامته باهظة التكاليف . ففوض ناصر باشا ، متصرف البصرة المتفكي ، بادخال نظام رخيص الكلف في الادارة . فزار الاحساء واستعاد أكثر الحامية التركية ، ثم عين الشيخ براكاً ، شيخ بني خالد ، متصرفاً فيها . فكان نصيب هذا العمل الرجعي الخيبة والفشل في عدة أسابيع . فقد قامت حركة وهابية مقابلة طردت الشيخ براكاً وصارت تهدد الجنود التركية القليلة التي كانت هناك . فاضطر ناصر باشا أن يعود الى دخول الاحساء في أواخر ١٨٧٤ ، فيعيد النظام الى نصابه بشدة ، ورجع تاركاً ابنه متصرفاً فيها . وقد حكم بعد هذا عدد من الموظفين الآخرين ، فاستقام الحكم التركي حتى سنة ١٩٠٠م^٧ فكان حكماً منحطاً شرهاً جامداً مكروهاً عند عدم تجاهله . على أن علاقات هذا السنحج بالعراق لم تتقدم في أي وقت من الاوقات ، مع كونه كان تابعاً له اسماً ، ولذلك ليس لنا شأن بالبحث عنه في هذا التاريخ . ولم يلفت نظر

(٦) ومما لا شك فيه ان هذه الوقائع أدت لتكوين ولاية مستقلة من البصرة (١٨٧٥) .
(٧) وبعد ذلك كان السيد طالب (البصرة) متصرفاً فيه لمدة سنتين اولاهما ١٩٠٢ م .

العالم الى شؤونه الا بالقرصنة المزمنة التي كانت شائعة آزاء سواحله حتى قضت عليها السفن البريطانية برغم احتجاج الامير التابع الذي لم يكن بوسعه أن يتحرك لعمل شيء ، ولم يقو عليه •

وبقيت اماره الكويت ميالة للاتراك بصورة جلية خلال عهد عبدالله بن صباح ، وتماذى خلفه فى السياسة نفسها حتى قتل فى ١٨٩٦م (١٣١٤هـ) وأصبح قاتله الشيخ مبارك قائم مقام فيها • على أن سيادة الاتراك على الكويت كانت تقدرها تقديراً مختلفاً السلطات العربية والتركية والاوربية والهندية • فلم يعترف البريطانيون فى أي وقت من الاوقات بالحقوق التركية التامة فيها ، مع انهم رفضوا هم أنفسهم غير مرة طلبات الشيخ لحمايتهم • على ان اشاعة سرت فى عام ١٨٩٨م مفادها ان الروس ينوون تحقيق مشروع سكة حديد ، فبدلت الوضع وتم فى الاشهر الاخيرة من القرن عقد اتفاق رسمي بين الشيخ والحكومة الهندية ألزم فيه الشيخ برفض جميع الامتيازات الاجنبية • وعندما جرت مباحثات أخرى بشأن انشاء سكة حديد أصبحت منزلة مدينة الكويت على جانب عظيم من الاهمية ، لكن هذه القضية والمباحثات يعود الخوض فيها للبحث عن القرن العشرين • اما نجد الكائنة في وسط الجزيرة فلم يكن لحكام العراق أية علاقة بها تقريباً خلال السنين المتبقية من هذه الحقبة • وقد بقيت حروب الاسرة السعودية الداخلية مستمرة ، كما ظل النضال بين امبراطوريتي حائل والرياض المتخاصمتين مشوب الأوار • ولم يخل الحال من تضرع هذا الجانب أو ذاك الى بغداد ، وكل يعدها بالخضوع والولاء للسلطان^٨ •

ومن المناسب هنا ان نذكر شيئاً عن العلاقات الايرانية ، وغيرها من العلاقات الاجنبية ، قبل أن نعود للبحث عن الشؤون الداخلية • فان زيارة ناصر الدين شاه لعنبات العراق المقدسة فى ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) لم تؤد الى تقليل مشاكل الحدود ، التي كانت معروفة حتى ذلك الحين بكثرة ما عقد بشأنها من مؤتمرات ومعااهدات منذ ١٨٢٣ ، وانما انتجت التصادم بدلا من الود والوئام • فأن « الخريطة الاصلية » التي احضرت بعناية الرسامين البريطانيين والروس الذين انجزوا رسمها بعد

(٨) لقد احتلت القوات التركية التي كان يقودها فيضي باشا القصيم فى ١٩٠٥ ، فقسمت البلاد الى وحدات اسمية على الطراز التركي ، ثم انسحبت •

اشتغال عشرين سنة لم يكن بوسعها تقديم علاج ما ، لأن اللجنة التركية كانت تدعي بخط يقع بأجمعه خارج المنطقة المنازع عليها بحسب ما ادرج في الخارطة . وعلى هذه الشاكلة استمر النزاع ، بشتى درجات الحدة أو الخسونة ، حتى حلت نهاية الحقبة التي نبحت عنها . وكان النزاع على أشده في بنجوين ومنطقة زهاو في جنوبي كردستان ، وفي أهوار عربستان النهرية . وقد عرف هذا النزاع ، في الجهة الشمالية ، بالتعديات المستمرة من كلا الجانبين على المنطقة المنازع عليها ، وبالتبرم الفوري الذي كان يقدمه الجانب المقابل . وكان النزاع على الجزر الطينية في شط العرب يحندم بالحماسة نفسها . ولقد ظهر ان القلعة المنشأة في الفاو (وقد بدى بناؤها في ١٨٨٦م ولم يتم قط) مما يخل بمعاودة اضروم الثانية التي حرم بموجبها تحصين الشط . وكانت أكثر لعبات الاتراك غيظاً تجري بواسطة مخافر الشرطة ، ومحطات الحجر الصحي ، والجباية المفيضة لرسم الكمرك التي كانت تضرب على السفن المتجهة الى كارون . هذا زيادة على نقاط التصادم التركي - الإيراني الاعتيادية التي كانت دائمة الوجود ولم تخرج عن الجور في العتبات الشيعية ، وسلب قوافل الزوار ، وحماية القبائل العاصية ، واقامة الامراء الإيرانيين المشكوك في ولائهم في بغداد .

وكان يمثل بريطانيا العظمى في العراق^٩ ممثل جليل المقام في بغداد ، و « مساعد وكيل سياسي » (صار قنصلاً منذ ١٨٩٨) في البصرة ، ونائب قنصل (ليس مستمراً) في الموصل . ولم يقل النفوذ الذي كان يتمتع به هؤلاء الموظفون ، كما لم يقل السخط عليهم من الموظفين المحليين الكثيري الشك والريبة . فان التلغراف ، وامتيازات « المقيمة » ، وحقوق الملاحة في دجلة ، ودوائر البريد الهندية ، كانت كلها أسباباً للمعاكسة ووضع العراقيين . غير أن الدلائل بأجمعها تدل على أن موقف الوكلاء البريطانيين في هذه الامور كان موقفاً صحيحاً بحسب الواقع ومعروفاً بالصبر وطول الاناة . ولم تكن منزلتهم الخاصة لتمس بسوء (المحصلة بثلاثة قرون) ، مهما بلغت من الوضوح عند القبائل وفي المدن . وكانت ترفض طلبات عديدة من الرعايا الاتراك للحماية البريطانية ، كما ان فرصاً كثيرة

(٩) كان يعرف باسم « وكيل سياسي » في ١٨٧٠ م ، وباسم « مقيم » أخيراً . ولم تشيد « المقيمة » الجديدة الا في عام ١٩٠٥ م .

للحصول على السلطة والنفوذ ولتشويش الادارة التركية كان يضرب عنها صفحاً •
وكان قنصل افرنسي يمثل حكومته الجمهورية في بغداد ، وفي البصرة
أحياناً • كما أبقت كل من روسية والولايات المتحدة والمانية وكيلها في بغداد ،
ولم يكن في سير هؤلاء خلال وجودهم ما يستحق ان تنوء به في هذا التاريخ •
وقد كانت أكثر الاتصالات حيوية مع سكان العراق اتصالات البعثات الانرية
الموجودة يومذاك • وكثيراً ما كانت وظيفة القنصل ووظيفة المنقب الانري لدولة
ما تتحدان في شخص واحد •

الخطة الجديدة في تسوية الاراضي

وافى هذا العصر بخطة جديدة في شؤون البلاد الداخلية وتطور سريع ،
فراى السائحون والمقيمون في هذه البلاد في سنة ١٩٠٠ م تحسناً ظاهراً في
التحضر والامن منذ العهد البادى سنة ١٨٦٥ م • واجمع كثيرون على ان الاساليب
التي اتخذت فنجحت في هذا العهد كانت من صنع مدحت باشا •

فقد أنتجت خيبة أسلافه في وضع خطة للحكم ، وسياسة الرعاية بالقوة
والرأفة ، خراب البلاد فأصبحت أرضها بلقاً وماؤها ضائعاً • وكان من الضروري
لإضعاف نفوذ القبائل العظيمة ونشر الامن في طرق المواصلات وتوسيع الزراعة
ان يحرم الشيوخ النفوذ المطلق على قبائلهم ، وان يكون ضلعهم مع الحكومة من
تلقاء أنفسهم • فاستهدف الحكام ذلك بمجيء مدحت باشا • على ان شيئاً من التطور
في هذه الناحية سبق ان حصل بالتدريج في عهد الكوزلگلي وسردار أكرم ونامق ،
فبدأ قسم من القبائل بالتوطن خيمة بعد خيمة • وجاء مدحت باشا فعجل هذه
الحركة بالوسائل الحديثة التي تتطلب عناية خاصة ، وكانت أعماله لا تخرج عن
كونها بداية العلاج لمعضلة التوطين بوجهة نظر جديدة : وهي وجهة نظر الارض
نفسها •

فقد كانت الاراضي في العراق تتعاورها ادعاءات بالملكية كثيرة • لان المقاطعات
كانت توهب هبة مطلقة من جانب داود باشا وعلي رضا ، فظل أحفاد أصحاب التيمار
الاقطاعيين متمسكين بالوثائق والعقود التي ورثوها بمقتضى منزلتهم الاقطاعية ،
وكان بيع الاراضي بالحكومة وشراؤها جاري العادة منذ أجيال من غير
علم الحكومة أو اعترافها • وكان مجرد تملك القرويين والشيوخ ، الذين تنتشر

عشائرتهم في أراض واسعة ، لهذه الاراضي مدة طويلة على هذه الطريقة مدعاة. للادعاء بالملكية الصرف « ملك » . وقد سبب انكار الحكومة لهذه الادعاءات. والنحقوق أحوالا غير طبيعية يعود وبالحا على مسألة الاسكان نفسها . فقد تأخر ادخال التحسينات الممكنة على الاراضي لان حقوق المتصرفين فيها لم تكن ثابتة ولا مقرر ، وادركت القبائل بهذا ان مجرد توطنهم مكاناً ثابتاً يعرضهم لعقوبات. الحكومة واستيفاء الضرائب منهم بسهولة . وبالجملة فان تلك الحياة الجديدة ، التي كان يجب أن تتوفر للقبائل لاجل أن يعيشوا بموجبها ويتركوا من أجلها حياة البداوة والرعي المعروفة ، لم يستطع أحد تهيتها لهم . وجل ما كان يمكن أن يقدم لهم من طريقة العيش هو ان يبدأوا بفلاحة الارض فقط من دون أي مشوق آخر . على ان توطنهم وفلاحتهم لم يكونا ميسرين لهم أيضاً ، لان نصيب القرويين من هذه الفلاحة ونفسية القبائل ونظمها كانت تكفي لتفجيرهم عن عيشة التوطن وابقائهم على البداوة .

وكانت طريقة مدحت باشا تتضمن بيع أراض صغيرة أو واسعة من أراضى الحكومة بأقساط قليلة سهلة الدفع على حاملي الفرمات المشكوك فيها ، ولأصحاب مثل هذه الاميازات القديما ، على أن تبقى لهم حرية التصرف التامة (لا الملكية الصرف) ، وكذلك للقرويين الذين كروا نهراً من الانهر أو غرسوا بستاناً ، ولشيوخ القبائل بمقدار يسع القبيلة كلها . وفتحت دوائر التملك (الطابو) فملئت السجلات واعطيت سندات التملك ثم دفعت الاقساط الأولى . ولذلك فمن الممكن أن يقال ان معظم الاراضي في العراق هي « ميري طابو » أي أراض حكومية مضمون اشغالها أو التصرف فيها (قبالة تعهدات مهمة) لأصحاب « اللزمة » .

فعمدت على هذا أعلى الآمال التي لم تكن في غير محلها بالكلية . لان الشيخ الذي كان بالامس محور القوات المعادية للحكومة أصبح فاقداً لما كان يملكه من وسائل الارهاب ، ولان النظام القبلي نفسه ضعف في محيطه الجديد : محيط التوطن والاقامة ، كما غدت المصالح العديدة وعلاقات هذه الحياة الجديدة طاغية على مظهر الحياة القبلية البائد . ولما كان الشيوخ قد أصبحوا رؤساء المجتمعات الزراعية بعد التوطن فقد سهل الاتصال بهم لانهم ظلوا مضطرين للاقامة في مكان ثابت ، وكذلك غدا عقابهم ممكناً لان الماء الذي يسقون زروعهم به هو بيد

الحكومة ، كما أمكن استيفاء الضرائب منهم لأن حاصلاتهم لم يعد من الممكن تهريبها أو التصرف بها بسهولة ويسر . هذا وقد أصبحوا معتمدين ، كملاكي الاراضي ، على الحكومة ليستمدوا منها سلطتهم ، وقوتهم على أخذ حصتهم من الزرع . ومن أجل ذلك كله غدا من المنتظر أن تزداد قوة الرجال وتكثر الواردات .

الا أن هذه الطريقة لم تنجح نجاحاً تاماً ، فقد كانت عرضة لصعوبتين عظيمتين : اولاهما جهل موظفي الطابو وقابليتهم للارتشاء مما يدل على أن ماكنة الطابو لم تكن قائمة بواجبها على الوجه المطلوب ، وثانيتهما عدم اهتمام الرأي العام بالاستفادة من الوضع الجديد . فقد أدرك كثير من الناس الغاية الواضحة من تفكيك القبائل واسكانها . وارتاب آخرون بالخير الذي يصدر عن « سراي » الحكومة . ووقع غيرهم بما كانوا عليه من العزلة وعدم اقتضاء ذلك قبول أي تبدل في الوضع . يضاف الى ذلك أن خوف العشائر الواضح من التجنيد قد أبعدهم عن قبول تبعات التوطن ، الذي كان ينطوي على مساوئ أخرى تدور حول سهولة وصول الحكومة اليهم ، واعتمادهم على الاسواق وجداول الري ، والكد والتعب في عمليات الزرع . وعلى كل فقد كان هذا كله يتطلب أموالاً للدفع . ولذلك خاف معظم رؤساء القبائل من الوضع الجديد فابتعدوا عنه . وكانت النتيجة ان استغل الوضع نفر من سكان المدن المقربين عند موظفي الطابو في بعض الاحوال ، وتقبل الآخرون شراء الارض فاكسبوا حقوقها ولكن في مكان يبعد عن العشيرة ، ودفع غيرهم القسط الاول ثم امتنعوا عن دفع الباقي . وعلى هذا فان كانت الغاية من أعمال الطابو تثبيت التملك القبلي للاراضي الزراعية الذي يجب أن يجعل من الشيوخ ملاكين للارض فان تلك الغاية قد أخطأ أغلبها بتردد الشيوخ أنفسهم وأحجامهم عنها .

ومع ذلك كله فقد أتت تلك المحاولة ثمرأً يانعاً في بعض الاماكن . فقد أصبح شيخ بني كعب أو المحسن ، الذي يملك البساتين الواسعة على ضفاف شط العرب ، وبساتينه رهائن ثمينة تستغلها الحكومة عند الحاجة . وكون السادة (انصاف العشائريين) في انحاء الشامية الموحشة نواة للسكنى والتوطن . وأصبح شيخ عنزة ، ابن هذال العظيم ، مالكاً للبساتين في سقي الفرات الاعلى . واستقر

فرحان رئيس قبائل شمر الجربا في أراضيها بالشرقاط • كما أُسجل لكثير من الاغوات على الحدود الكردية بقسم من الاراضي بأسمائهم • على ان أعظم أعمال نظام الطابو شأنًا ، والضربة القاضية عليه في الوقت نفسه ، كانت مسألة تملك آل السعدون في المنتفك • فقد بادروا - ورأسهم ناصر باشا الموظف العثماني يومئذ - الى شراء الحقوق في مقاطعات وأراض غامضة الحدود في منازل القبائل • فأصبح أفراد عشائر المنتفك ، الذين طال تحملهم لامرائهم ، فلاحين عندهم ، وقد رأوا ساداتهم مؤخرًا يحملون الالقب العثمانية ويتقلدون الوظائف في الوقت الذي كانوا هم فيه مدعين لا لدفع الضرائب حسب بل لدفع حصة من حاصلهم لساداتهم أصحاب الارض • ومهما يكن من شيء فان الحكم لا يدوم لأحد ، وربما كان نجم آل السعدون قد بدأ بالافول : فان تملكهم هذا ، بأشراف العثمانيين المصحوب بالجنشع ، والنزاع القائم بينهم هم أنفسهم ، قد أدى الى اضمحلالهم • وكان تبدل الوضع هذا شيئًا فجائيًا لسكان الاهوار • فعندما كانت أراضي المنتفك الوسيعة ينعم بها انعاماً رسمياً على هذا السعدوني أو ذاك أخذت تبدأ معها النزاعات بين المنتزم والمالك ، لأن أيام شيخ المشايخ المجيدة كانت قد انتهت • على ان السعدونيين استمروا على العيش في مقاطعاتهم متقاتلين يقودون قسماً من القبائل ويحارب بعضهم بعضاً • وبقيت منطقة المنتفك موصدة الابواب بوجه الحكومة ، ولم يدفع للحكومة فيها من الضرائب الا النزر اليسير • غير انه مع ذلك كله قد بذرت بذور الاسكان هناك ، وتفرق السعدونيون وأخرجوا من بعض الاماكن •

وتدل أحوال القبيلة نفسها على النواحي الاخرى من الخطة الجديدة وعلى المعابر التي آلت اليها • إذ كان ناصر باشا ، أخو منصور ، قد ساوم بمشيعته في ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) أعلى مساومة • فقد صار في عهد مدحت باشا الآلة ، المصطفاة الراضية ، المسخرة لتطبيع المنتفك^{١٠} • ثم اسس مدينة الناصرية ، وقبل منصباً حكومياً عالياً • الا ان هذا التفريط في عشيرته قد ترك أثراً سيئاً فيها كانت تتيجه وبالاً عليها ، وكان ناصر وابنه فالح مرشحي الحكومة لتنفيذ الروح

(١٠) كان في ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) المتصرف في لوائه ، وفي ١٨٧٤ أرسل الى الاحساء لاجماد الثورة • وفي ١٨٧٥ عين والياً على البصرة ، وأخذ من ذلك المنصب الى استانبول •

العثمانية (العثمنة) وسياستها هناك • فزحرت المدة التي بين ١٨٨٠ م و ١٩٠٠ م بالنزاع المستمر بين الجهتين ، ذلك النزاع الذي اندمج فيه الطمع الشخصي والبغضاء بنتائج الخطة الجديدة الواضحة • اما الحكومة فقد تمايلت بين المقاومة القليلة على « الطراز القديم » والخطة الحازمة في ابقاء رجلها المسخر في الحكم • وتصرمت السنون بعد السنين والحرب القبلية قائمة على قدم وساق ، وكانت قوات الدولة تتدخل أحياناً من حصونها في الخميسية أو خارجها • وكان الظاهر يومئذ ان الحكومة المدنية لا يسعها ان تسيطر البتة هناك ، على ان الاسكان وتشتت القبائل كان سائراً بحالة شبه ظاهرة برغم ان اليوم الذي يخلد فيه فلاحو المنتفك الى السكنية ودفع الضرائب كان ما يزال بعيداً • وبذلك تبددت المخاوف منذ مدة مديدة من وجود جيش متفكي متحد •

ونشأ مثل هذا الوضع في قبيلة شمر ، اذ حصل رد فعل مماثل على الشيخ الذي شرع في تنفيذ السياسة العثمانية في عشيرته • فقد أصبح فرحان بن صفوك ياشاً رفيعاً كناصر فوجب عليه أن يكون واسطة لاسكان البدو التابعين له ، وزار استانبول فغاض قبيلته بتخلقه بالعادات التركية وتزوجه بأزواج مدنيات ، وباقامته لاجل الزراعة والفلاحة على دجلة بكل خضوع • وكانت النتيجة ان انشق نصف القبيلة عنه برئاسة فارس الداعي للمحافظة على حياة البادية والحرية ، واستمرت العداوة من أجل أشياء خاصة : فلم يكن توطن فرحان واشتغاله بالفلاحة مهماً يحدد ذاته بقدر أهميته فيما صنع في تحطيم عادات البدو وتقربه من الحكومة بوثقيف أبنائه بالثقافة التركية ، وكان ذلك أهم بكثير من انتصاراته في الحروب القبلية • اما العشائر الاخرى فقد أصبحت عندها تربية الابل من بابة حفظ مظاهر الاحترام للشيوخ بدلا من أن تكون واسطة العيش للجميع كما كانت من قبل • فضربت الدليم خيامها بين عانة والفلوجة ، وأقامت قبائل زبيد على دجلة وحوالي النجيلة ، وضربت شمر طوقه خيامها من ديارى الى الكوت تقريباً • والحقيقة ان سخرطة القبائل أخذت شكلها الذي هي عليه الآن منذ ذلك الحين ، وبات رسم خطوط الحدود عليها يعمل بكل تدقيق ، وأصبح العراق في ١٩٠٠ م بلاد القبائل التي بدأت تضع ميزات القديمة بسرعة وغدا من الصعب عليها أن ترجع الى طراز المعيشة السابق • فباتت علاقاتها محلية أكثر منها قبلية ، ومعتمدة على الامن والنظام أكثر من اعتمادها على شيء آخر ، ومحتفظة برغم ذلك كله بعددها المادية ولغتها

وجعلها وسهولة تحريكها في غير مصلحتها ، وتدمرها من الحكومة وجميع أعمالها •

على ان ناحيتي السياسة القبلية الموصوفتين حتى الآن - اسكان العشائر في أرض واحدة ، وبث الروح العثمانية فيهم (العثمنة) - كانتا كلاهما مهدفين للروح القبلية • وقد بقيت هناك ناحية أخرى ، يرجع عهدا الى سنة ١٨٨٥ ، وتختلف في اتجاهها اختلافاً بيناً • ولم تكن هذه من سياسة باشوات العراق بل من سياسة السلطان نفسه • ولما كان المقصود من هذه ان تطبق على الأكراد فقط ، فقد كانت الغاية منها ضمان اتصالهم الوثيق بالخليفة أكثر من توطين القبائل والعمل على استقرارهم ، وذلك عن طريق الخدمة الاجيرة من دون ترك الحياة القبلية • فبقيت في الوجود أفواج « الحميدية » المتألفة من الخيالة الأكراد ، المقدمين من كل رئيس قبيلة ، حتى أزال ثورة ١٩٠٨ السلطان الذي أمر بتشكيلها • وقد استفادت الحكومة بعض الفوائد من هذه القوة المستأجرة المتألفة من الأكراد الاقوياء : غير أن انحلال الضبط في الحميدية المفعم بالشغب والعريضة ، والشك في ولاء رجالها واخلاصهم للدولة ، يجعل هذا الوجه من أوجه تلك السياسة معرضاً للادانة والتجريح بوجه عام • فلم يتعد تأثيرها حواشي الحدود الشمالية من العراق • وكان ابراهيم باشا الملى - من نسل تيمور باشا الذي عاش في أيام سليمان الكبير - من جملة من جندوا في ضمن هذه الفترة •

هذا وتلوح الحروب القبائلية في هذه السنين وهي ضئيلة بالقياس الى السنين السابقة التي بحثنا فيها حتى الآن • فقد ساق مدحت باشا حملة شهيرة على الدغارة ، وتمادت شمر في القلاقل كل سنة ، ولا سيما بعد شنق عبدالكريم وظهور فارس بعده لقيادة المعارضة المضادة لفرحان • وكان بنو لام يتقاتلون بينهم في سنة ١٨٧٩ م ، كما كان جيرانهم ابو محمد يقطعون طرق المواصلات في دجلة^{١١} سنة ١٨٨٠ م ، وحدث في السنة نفسها هياج على المسيحيين في بلاد الهكاري بتحريض الشيخ عبدالله ، وازدادت قوة الشيخ سعيد في السليمانية فاستفحل أمره وبقي يلعب على الطرفين • فكان يحالف الحكومة تارة ، وينقض تارة أخرى متفقاً

(١١) ومن تعدياتهم الاخرى انهم هاجموا باخرة شركة لنج السماحة

« خليفة » •

مع الهماوند • وتمادى في التخريب والفساد ، وثارت نائرة الهماوند فبقيت الضرق الواقعة شرقي كركوك في حكمهم ، ولم يجد نفعاً ترحيل قسم منهم الى مكان آخر ^{١٢} • فازداد فسادهم ازدياداً قضاوا به على الحكومة في السلمانية في بعض الاحيان • وفي سنة ١٨٨٦ حدثت معارك سالت فيها الدماء بغزارة بين شمر والدليم ، وبين قبيلتي الفتلة وبني حسن في الاوار سنة ١٨٩٣ م • وفي هذه السنة الاخيرة عاقب كاظم ^{١٣} باشا صهيوداً من مشايخ ابو محمد ، كما نفى أيضاً حسن الخيون شيخ بني أسد بعد ان اخرج من الهور عنوة • وفي امكاننا أن نضيف الى هذه الحوادث عشرات أخرى غيرها تتضمن تأدييات عديدة للقبائل • فقد كان من المعتاد في بعض الاماكن ان ترسل الحكومة في كل حفنة من السنين قوة خاصة لجمع بقايا الضرائب • وكان البعض من هذه القبائل لم تصل اليها سياسة الاسكان ، ومع ذلك كله فقد بدأت معارضة القبائل المنظمة للحكومة تقل كثيراً عما كانت عليه من قبل • وازداد تغلغل النفوذ التركي ، فاذا بالطربوش يشاهد في كل قرية • وصار في الامكان عقاب العصاة واحداً بعد واحد في غير خيبة ولا فشل تقريباً ، وحل محل الحرب القبائلية الموجهة ضد الباشا من قبل تمرّد جماعة من العصاة في مكان دون آخر • وبهذا أصبح الاضطراب والعبث بالامن ، الذي ما يزال يخيف اخافة ظاهرة ، لا يستند الى أساس متين •

لكن الوسائل اللازمة لمواجهة هذه الاوضاع قد تحسنت أيضاً • فقد ظهرت للوجود ، بعد عودة القوات العسكرية من الحرب الروسية سنة ١٨٧٨ ، مراكز عسكرية في الخميسية من بلاد المنتفك ، وفي الرمادي بين الدليم ، وفي العمارة بلاد بني لام ، وتحسنت الحاميات العسكرية بعض التحسن في ضبطها وعدد أفرادها • وقدم التلغراف (المعرض للعبث بصورة مخزنة) مكسباً جديداً للقوات الحكومية كذلك • كما ساعدت الزوارق البخارية في قمع حركات القبائل في دجلة الجنوبية • يضاف الى ذلك ان مراكز الشرطة التي أسست على طول الطرق

(١٢) رحلوا الى شبه جزيرة سينا في ١٨٨٢ م الا انهم رجعوا لوطنهم قسراً بالحرب والسلب •

(١٣) أخو زوجة السلطان عبد الحميد ، وقد ابعد الى بغداد لاسباب سياسية فكان فيها قائداً للخيلة •

ولا سيما بين الرمادي ودير الزور ، وبين الخالص وكركوك ، وجنوباً بين بغداد والحلة والعتبات المقدسة ، قد جعلت الاسفار فيها سالمة من الخطر للمتبصرين من الناس على شيوع السلاح وكونه ظاهراً للعيان في كل مكان ، فضلاً عن ان نفوذ الحكومة بين عدة من القبائل قد زاد بتأثير أعمال الري التي كان على الحكومة ان تعالج تنظيمها وتوزيعها بالعدل ل عمران البلاد . فقد كان كل عقد من عقود القرن التاسع عشر يشهد مزيداً من مياه الفرات تتدفق في فرع الهندية^{١٤} . وما حل عام ١٨٨٥ حتى أوشك فرع الحلة على الجفاف ، وأقلق العشائر الذين أقاموا على شطوطه من أمد قريب . فجيء بالمهندسين الفرنسيين^{١٥} لاصلاح الحالة ، وأنهوا عملهم في ١٨٩١ . وبذلك صار بوسع الجميع أن يروا في هذا المشروع شيئاً حيويّاً للقبائل ، لا يمكن ان ينجز الا على يد مؤسسة تفوق القبائل في قدرتها . الامر الذي يعد مثلاً من أمثلة اعتمادهم الجديد على الحكومة .

حكومة العراق في نهاية القرن التاسع عشر

لقد ساهم العراق لحد ما في المصائر الدولية التي كانت تركية منغمسة فيها . وأعد الاموال لبذخ عبدالعزيز المييد ، ثم قبّل فرمانات خلفه العبي مراد الخامس ، كما رحب بعبد الحميد الثاني الشديد البأس الذي كان في نصبه سنة ١٧٧٦ م^{١٦} . وقد سببت الحرب الروسية الناشبة في ١٨٧٧ م فراغ الحاميات العراقية وزادت في عبء الفقر المنتشر فيه . وكان للدعاية السنية الفعالة

(١٤) ان شط الهندية (المسمى باسم الهندي آصف الدولة الذي حفره لايصال الماء الى النجف) بدأ يجري الماء فيه بصورة منتظمة منذ ١٨٠٠م ، وفي ١٨٣٠م أصبح من الضروري توجيه قسم من ماء الفرات الى فرع الحلة الذي بدأ يقل ماؤه ، فحاول علي رضا باشا ونجيب باشا من أجل ذلك انشاء سدة له . وتمكن عبيدي باشا من سد الفرات وبناء ناظم قوي له من الآجر . وقد تهدم ذلك الناظم سنة ١٨٥٤م . ثم بنى عمر باشا سداً عظيماً من التراب والحطب فلم يبق الا قليلاً . وكان تعميره موضع عناية خلفائه باستمرار . وما حلت سنة ١٨٨٠م حتى أصبح فرع الهندية هو مجرى الفرات الاصلي تقريباً .

(١٥) كانت تلك محاولة شونديرفر في بناء سدة محكمة عرضها ياردين مع فتحة في وسطها . وقد تصدعت السدة المذكورة في ١٩٠٣م وبقيت الحالة سيئة في شط الحلة الى أن أكمل ولكوكس انشاء سدة الهندية في ١٩١٣م .

التي كان يشهها عبدالحميد في البلدان والعشائر الكردية تأثيرها البين في الولايات العراقية التي قدرت لعبه الحاذق بالامور الكثرى محافظة ورجعية^{١٦} . وفي السنين الاخيرة من القرن سرت اشاعات ضعيفة في دواوين بغداد بحركة جديدة ترمي الى « الاتحاد والترقي » ، كما تسربت أفكار ، تختلف عنها وتقل شدة ، غايتها استقلال العرب . وليست هناك حاجة لذكر أكثر من هذا عن مكانة العراق في الامبراطورية العثمانية . فقد كانت الولايات العراقية ، على كونها من أبعد الولايات وأكثرها تأخراً ، تحتوي على جميع معالم العهد الحميدي ، ولم تكن لتأسف على بعدها عن ضفاف البوسفور بالنسبة للشؤون الاخرى .

ويقع البحث المسهب فيه عن تشكيلات الدوائر الحكومية المختلفة خارج نطاق هذا التاريخ ، لان المعلومات الواقية عنها يمكن الحصول عليها من السجلات الرسمية . وأنما نحن معنيون هنا بالاشارة ، بصورة موجزة ، الى التبدلات المهمة فقط الحادثة خلال العهد الاخير هذا ، وبالحكم على كفاية الماكنة التركية بشكلها هذا من وجه عام .

فقد كان أول عمل من أعمال مدحت باشا ان اعلن تطبيق نظام « الولاية » في العراق ، الذي سبق ان وضعه هو وطبقه في الدانوب . وبهذه الوساطة أدخلت الترتيبات الادارية التي بقيت فلم يمسها الا قليل من التبدل ، حتى عام ١٩١٤ م . ففي كل بلدة او قرية ، مصنفة بحسب أهمية منطقتها ، كان يوجد المتصرف أو قائم المقام أو مدير السنجق أو القضاء أو الناحية . وفي كل من هذه التشكيلات كان ثمة ملاك للموظفين الذين يقومون بواجبات معينة ، وفي كل منها مجلس منتخب يساعد رئيس الوحدة الادارية بصلاحيات مبهمة . وما تزال الاسماء والمصطلحات الحكومية ، التي كانت معروفة في العهد الاخير من العراق التركي ، متداولة حتى الآن .

وبقيت البصرة سنجقاً ملحقاً ببغداد حتى كونت منها في ١٨٧٥ م ولاية من جديد . وقد سبق للاتراك ان كانوا يعدون نجداً قائممقامية ملحقة بالبصرة ،

(١٦) ان الاحترام الذي لا يزال يكنه سكان المدن في العراق لعبدالحميد شيء معروف تماما .

وصارت الاحساء سنجقاً في ١٨٧١ م ، وفي السنين التالية لذلك صار من المناسب للحكومة التركية ان تنعم بمناصبها الادارية على مختلف امراء الخليج • وعادت البصرة سنجقاً في ١٨٨٠ م ، ثم اعيد تشكيل الولاية فيها سنة ١٨٨٤ م • وقل شأن الموصل فأنزلت لدرجة المتصرفية عام ١٨٥٠ م ، ثم صارت في سنة ١٨٧٩ م ولاية من جديد لها سنجقان : كركوك والسليمانية^{١٧} •

وكان الامن العام مستتباً بقوات الجيش النظامية والاحتياطية ، وبالاسطول في البصرة وبقوة « الجاندرمة » • وكانت قوات الجاندرمة ، والضابطية منظمة أفواجاً وسرايا ، لكنها في الحقيقة كانت متوزعة في مراكز صغيرة منفصلة عديدة ، ولم تكن سوى قوات منحلة لا نظام لها يدير أموالها ضباط أميون^{١٨} فاسدو السيرة في العادة واناس حثالات غير مجهزين ولا تدفع اليهم رواتبهم بانتظام • ولم يكن هؤلاء ، في الحقيقة ، سوى مراسلين وجباة ضرائب وخدام

(١٧) وعلى هذا أصبح العراق التركي بشكله الاخير يومئذ يحده سنجق دير الزور الذي لا يتبع أية ولاية ، وولاية ديار بكر التي لها سنجق المركز وسنجقا ارغنة وماردين ، وايران • وكان يتألف من ولايات ثلاث هي : ولاية الموصل التي كانت تضم ثلاثة سناجق وهي سنجق المركز وتتبعه أقضية دهوك وزاخو والعمادية وسنجار وعقرة ، وسنجق كركوك وتتبعه أقضية أربيل ورائية ورواندوز وكوي سنجق وكفري ، وسنجق السليمانية وتتبعه أقضية بازيان وحليجة وشهرزور ومرگه • وولاية بغداد التي كانت تضم سنجق المركز وأقضيته عانة والرمادي وسامرا والكاطمين والعزيزية والكوت وخانقين وبعقوبة ومندلي وبدرة ، وسنجق نديوانية وتتبع له أقضية الحلة والسماعة والشامية ، وسنجق كربلا وأقضيته الهندية والنجف وقضاء الرزازة الصحراوي • وولاية البصرة التي كانت تضم سنجق العمارة وأقضيته دويريج والزبير وقلعة صالح ، وسنجق البصرة نفسها وأقضيته الفساو والقرنة والكوييت ، وسنجق المنتفك وأقضيته مركز الناصرية والشطارة وسوق الشيوخ والحلي • وكان سنجق الاحساء يضم ثلاثة أقضية وهي الهوف والقطر والقطيف • مع انه كان سنجق القصيم الخيالي في وسط الجزيرة العربية يضم ، على الورق فقط ، قضائي بريدة والرياض • وقد تشكل سنجق القصيم هذا بشكله المذكور منذ ١٩٠٥ م •

(١٨) وأصبحت الامية أكثر انتشاراً عند انتهاء القرن • غير ان قوة الجاندرمة الموصوفة آنفاً قد اصلح من شأنها كثيراً سنة ١٩٠٠ م • ولم تتألف قوة شرطة البادية الا بعد سنة ١٩٠٠ م بأشارة من فان دير غولتز (غوليچ باشا) •

للموظفين الكبار الاقربين • ولم يكن بوسع أفراد الجاندرمة ان يقوموا بواجبات الشرطة على الوجه المطلوب في الطرق العامة ولا في الاسواق • وجل ما كانوا يتفوقون به على الناس شيء من النظام والسلاح ، وشيء من القيادة والتدريب بغير اختصاص • وعلى هذا فقد كانوا ضعفاء لا قدرة لهم لمطاردة اللصوص العشائريين ، وسهلي الارثشاء في المدن • على انه كان بينهم كثير من الرجال المقتدرين الاجلاد •

ولا يحتاج اسطول شط العرب الى الوصف • فقد كان منذ أول عهده قبل عشرات خلت من السنين قوة حقيرة متفككة لا قيمة لها الا باطلاق المدافع للنحية وبنقل قوى الجيش بكل مجازفة • على ان الحقيقة هي ان الجيش التركي لا يمكن ان يوفى حقه بهذا الوصف ، بيد ان وصفه المسهب فيه لا يدخل في تاريخ العراق هذا • فقد عدل « النظام الجديد » الذي جاء به محمود الثاني بعد الحروب الروسية لسنة ١٨٥٤م ، ثم نفّح ثانية بموجب الجهاز القاري ذي المناطق في سنة ١٨٨٥ م • وأصبح العراق بموجب هذه التراتيب يكون منطقة « الجيش السادس » الذي يقدم وقت السلم فيلقاً واحداً ، وهو الفيلق السادس ، ويقدم وقت الحرب ثلاثة فيالق ، بصورة نظرية ، هي السادس والثاني عشر والثامن عشر • وكانت طريقة جمع الجند هي طريقة التجنيد الاجباري نفسها في المدن والقرى مع كثير من الاستثناءات ، ورمي « القرعة » بين اللاتقين لخدمة العلم • اما الاماكن العشائرية فكانت تدفع فيها « البدلات » لأن كل شخص مكلف الخدمة كان بوسعه ان يدفع بدلاً عن الخدمة فيعفى منها • وكانت تشكيلات الجيش المؤلف من « النظام » (الجيش النظامي) ، و « الرديف » أي الاحتياط الاول ، و « المستحفظ » أي الاحتياط الثاني ، متقنة وملائمة للحال بوجه عام • وكانت الاركان والتأسيسات والتعليمات التبوية بوجه عام على نمط الجيش الحديث • وقد كانت مقرات الوحدات وسائر التشكيلات توجد كل منها في المكان المعين لها • فهذه النقاط الحسنة ، مضافاً اليها السجاياء العسكرية العالية للجند الاكراد والتركمان ربما كان يستدل منها على وجود جيش كامل الكفاية • على ان الواقع كان يدل على غير ذلك • فان التدريبات المتقنة المتكررة لم تجد نفعاً ، ولم تحل دون هبوط مستوى الوحدات العسكرية الى الدرج الاسفل من

الكفاية ، وأحياناً الى دركة الاضمحلال • وكانت حتى الجيوش النظامية تكلف بواجبات غير عسكرية ، وكثيراً ما كان جنود الاحتياط يقاومون بالقوة « السوق العسكري » للحرب ، ففي حين أن أفواج الاحتياط كانت تعتبر حلم القيادة العليا وأملها المرتجى • اما التجهيزات فلم تكن متناسقة ولا موحدة ، اذ كانت الاسلحة من جميع الطروز^{١٩} ، وكانت الالبسة خلقاً ومختلفة ، كما كان التدريب غير كاف لجميع الرتب والدرجات • وكان تأخر دفع الاجور من الامور الاعتيادية ، فكان من يحصل عليها كمن يحصل على معروف نادر الحصول • هذا الى ان دفعها كان عرضة لانواع الانتقاص والاختلاس وللإغتصاب والمشاغبة على الدوام • وكان أبرز ما فيه في الاول والآخر الانحطاط الشائن في مستوى كل شئ فيه ، فلم يكن هناك أي جيش آخر يسمح بأن يكون المهندس التركي أو الطبيب أو المدفعي فيه بهذه الدرجة من الانحطاط^{٢٠} • على ان هذا الجيش الذي كانت خيوله دبرة الامطاء^{٢١} ، وحالته الصحية في حالة العدم ، والذي كان يستعمل البنادق الصدئة والمدافع من الطرز البائدة، ويشد عدد خيله بالخيوط والحبال ، نقول ان هذا الجيش بالرغم من ذلك كله لم يحرم القيام ببعض الحركات الموفقة • لكنها كانت تدل بايضاح ، على كل حال ، على معالم الخيبة المتأصلة في الحكم التركي كمثل : التذني فسى المستوى شيئاً فشيئاً في كل ميل يبعد عن استانبول - والفقر (المسبب عن الادارة العمياء الفاسدة) الذي كان يشدد في المساوىء التي تنتج عنه - والقناعة الشرقية بالاحوال الراهنة ، والجهل الذي يغطي على كل شئ • ولم يكن هناك شئ من الصداقة بين الضابط وجنوده سوى ما هو كعلاقة الخادم بمولاه • اما بين القبائل وسكان القرى فان الخوف من التجنيد كان مما يؤخر قضية الاسكان ويفزع الكثيرين من الالتفات للامور العامة •

(١٩) الطروز جمع طرز - م • ج •

(٢٠) ان هذه الملاحظات تنطبق على العراق في ١٨٧٠ - ١٩٠٠م ، لا على العراق حتى السنين الاخيرة قبل الحرب العامة ، ولا على جميع الجيوش التركية في العهود الاولى غير المذكورة • فقد كان الجيش السادس باعتراف الجميع أحط الجيوش نظاماً •

(٢١) الامطاء جمع مطا وهو الظهر

وليس هناك من الحاجة ما يدعو لذكر شيء عن النظام التشريعي في البلاد سوى القول بأنه كان توفيقاً بين السذاجة الإسلامية و « قانون نابوليون » * وكان ، وهو المشوه عند التطبيق (الألفه) ، المبرقش في مجراه ، البطيء لحد الأيأس ، يسير بقوانين هي سقيمة التقنين عندما تكون قديمة ، وسيئة الوضع اذا كانت حديثة ، وأحياناً غير ممكنة التطبيق بصورة ضمنية في هذه الولاية أو تلك * اما كون الفساد كان عاماً شاملاً ، وانتهاك حرمة العدالة غير بعيد عن تناول المال والمحسوبية مهما كان نوعه ، فكان في الواقع شيئاً يعترف به جميع الذين يشتركون في اقراره أو انذاك * فقد كان يؤخذ المجرم أو المديون من المحكمة الى سجنٍ يجلب له فيه أقاربه الطعام (فيشاركه فيه السجنان بكل مودة) ، وكانت الملابس المختصة بالمساجين والانظمة والاعمال التدريبية من الامور غير المعروفة ، كما كانت جميع الامور التي تحدد من الحرية المطلقة ينظر اليها بأسف الجمهور الذي نادراً ما كان يمتق الجريمة أو الدين * وليس هناك حاجة للتأكيد على ان كل موظف فى السجن من الحاكم الى الحارس كان يبيع الامتيازات والخدمات ، وحتى اطلاق الحرية بالمال .

وإذا ما تركنا العدل والامن جانباً نأتي الى البلديات والمصلحات العامة * ففقدنا لنا البلديات أشد ما يدعو الى الارتياح من أوجه الحياة في آسية التركيبة^{٢٢} * فانترئيس والمجلس المنتخب فى كل بلدة ، الذي يجتمع بانتظام لتسيير مهام الحراسة والحماية ، وتنظيف الشوارع ، وتجهيز الماء والضياء أحياناً ، واصلاحات الجسور ، والاشراف على الابنية ، وما أشبه ذلك - كان يتمتع بكبرياء بلدي غير يسير ونصف استقلال تجاه الحاكم المحلي * والحقيقة ان البلديات فى كثير من الاحايين كانت لا تقوم بشيء سوى دفع الرواتب والاجور للموظفين والمستخدمين ، والاحتفاء بالموظفين المقيمين أو الزائرين بين حين وآخر ، وعلى هذا فكانت

(٢٢) لا شك للباحث فى تأريخ الاسلام ان نظام البلديات مبني على نظام « الحسبة » فى الدول الاسلامية التي قوامها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان أمر الحسبة موكولا الى القضاة والى من يكلونها اليه من نوابهم واصحابهم ، فالمحتسب كان يقوم مقام رئيس البلدية اليوم ولكن نظام الحسبة أرقى وأبقى وأرعى لمصالح الشعب - م . ج .

مستوياتها من محطة وأعمالها لا تضم ما تتطلبه السلطات البلدية في أوربة ، ومع ذلك كله كان يوسع المرء أن يرى من النزاهة في الغاية والشعور بالخدمة عند البلديات أكثر مما كان يراه في الإدارة المركزية . وأكثر هذه الهيئات كانت من صنع مدحت باشا ، ثم ظهرت البقية للوجود واحدة بعد الأخرى . وعند حلول عام ١٩٠٠م كانت كل قرية مهمة لها مثل هذه الهيئة ، وكان في بغداد ثلاث بلديات . ومن المصالح العامة التي تكلف بها الحكومة كانت دائرة النافعة (الأشغال العامة) قليلة الفعالية في العراق ٢٣ . وكانت الخدمات الصحية من اختصاص البلديات في البلدان ، وكانت مفقودة في غيرها . وكانت محطات الحجر الصحي - الموضوعة في الفاو والبصرة وفي خانقين والعتبات المقدسة ، وفي بعض المراكز الأخرى في طريق الزوار - تجمع بين عدم الكفاية عدماً شائناً وخبث المقصد ، وكانت تستخدم بسهولة سلاحاً مزعجاً على الأجانب ، لأن كل فرد كان يوسع أن يشتري السماح التام بدراهم معدودة . وكان في بغداد مستشفى عامة ، ولم يكن في غيرها (خلال هذه المدة) أي مستشفى . ومما يجب أن يقال عن جميع الخدمات الطبية والصحية هذه ان أبرز ما يتضح للعيان من الخليط الشرقي المألوف المتكون من النظافة الوسواسية وأشد أنواع القذارة ازعاجاً كان الشق الأخير ٢٤ . ولم تكن مصلحة الليطرة . وكان من المعارف شيء قليل ، الا ان هذا القليل كان كثيراً جداً بالنسبة للعدم . وقد عظم شأن المعارف بسرعة بعد الدافع التقدمي العظيم الذي جاء به مدحت باشا . فمن المحتمل ان نسبة المتعلمين كانت في سنة ١٨٥٠م بمقدار نصف في المائة من سكان المدن ، ثم ارتفعت النسبة الى ٥ - ١٠ بالمائة في سنة ١٩٠٠م . (وكان التعليم في القبائل وما يزال منحصراً في أفراد من الناس) . وكانت في المدن الكبيرة مدارس للنصارى واليهود ، وكانت مدارس الاتحاد « الاليانس » الاسرائيلية ، من بين هذه ، تقدم أحسن أنواع التعليم . ونادراً ما كان يتفوق

(٢٢) ان الاشغال العامة القليلة جدا كان يقوم بها الجيش ودائرة الاراضي السنية والبلديات ، اما سدة الهندية (التي شيدها شونديرفر في ١٨٩١) فكان تشييدها شيئاً شاذاً .

(٢٤) تفشت الهيضة الحادة في عام ١٨٧١م ، و ١٨٨٩م ، و ١٨٩٤م ، و ١٨٩٩م . وتفشي الطاعون في ١٨٧٧م ، و ١٨٨١م ، و ١٨٨٢م .

معظم هذه المدارس على الكتابيب (مدارس الملاي) الموجودة في كل مسجد وجامع في ابتعادها عن الأساليب ومواضيع الدروس الحديثة • على ان نسبة المتعلمين كانت عالية جداً بين غير المسلمين من الرعايا • وكانت للحكومة مدرسة ابتدائية في مركز كل قضاء عدا المدارس العسكرية التي كانت موجودة • وقد أُسست مدرسة ثانوية للبنين في بغداد سنة ١٨٧٠م ، ثم أُسست مدرسة ابتدائية للبنات في ١٨٩٨م • وبوسعنا أن نتغاضى هنا عن جهل مديري المدارس المطبق وعن سوء خلقهم أحياناً • اما التدريس نفسه فقد كانت أبرز ظواهره استخدام اللغة التركية فيه ، فكانت لهذا تيجتان : اولاهما ان مادة الدرس كانت غير مفهومة في الغالب ، وثانيتهما ان العراقيين نشأوا وهم غير قادرين على الكتابة بأيسر العربية • ولا يمكن ان تنكسر الفائدة السياسية من أمر تحويل العرب بهذا تحويلاً نصفياً الى أتراك ، فقد أدى ذلك الى تأجيل الشعور بالقومية العربية وتأخير ردحاً طويلاً من الزمن ، وحصر المتعلمين بطبقة الموظفين ، فكان ذلك شيئاً قاصياً من الناحية التربوية • وبقي غنياً أن نذكر شيئاً عن دائرتين هما : دائرة الطابو (تسجيل الاراضي) التي أسسها مدحت باشا بأمال معسولة فكانت ضرورية له في تحقيق خطته الرامية الى اسكان العشائر ، ودائرة الاوقاف (الهبات الدينية) • فقد كانت دائرة الطابو يعوزها الكثير من الامور الجوهرية المؤدية الى نجاحها ، فلم تكن هذه الدائرة تملك الخرائط ، ولم يكن لها مسحون ، ولا موظفون مثقفون نزهاء • ومن أجل هذا فقد ضاعت ، بين الالتباس والارتشاء ، الدقة التي كان من الاحسن لتسجيل الأملاك وحقوقها ان لا يكون له وجود من دونها • فقد كانت تعطى ناساً سندات التملك لاراض يملكها الغير ، أو أراض يشك في موقعها الحقيقي ، أو ليس لها حدود معلومة ، فأدت هذه الحالة ، التي نصفها بوضع كلمات ، الى صعوبات جسيمة نشأت عنها • اما الاوقاف ، ذات التأثير العظيم بما لها من مصالح دينية - اجتماعية قوية ، فقد نجحت لحد ما في قيمومتها على الهبات الدينية فأنقذتها ، على الاقل ، من سوء الاستعمال الديني ، لكنها لم تتوفق في حالة محاولة المحافظة على واردات الوقف انزائدة دون الارسال بها في كل سنة الى استانبول ، في الوقت الذي كانت فيه أملاك الوقف منحطة بصورة عامة ، والجوامع مستهدمة مسترمة ، وموظفوها من رجال الدين يتضورون جوعاً • ولم تكن دائرة الاوقاف ، بكونها ملاكاً كبيراً للاراضي ، أحسن حالاً من أسوأ البخلاء الرسميين والمعرفين ، كما كانت عدواً

أُسند للتقدم الذي لا بد من ان يقف حجر عثرة في طريق سوء استعمالها نفسها ،
وأسامورها العاطلين •

اما عن المواصلات فقد ذكر شيء في الفصل السابق ، فلو حظ منه ان تشكيلات
البريد لم تكن موجودة^{٢٥} خلال الجيل الكامل الذي تلا عهد الممالك • وقد
فتحت في ١٨٦٨م دائرة بريد بريطانية - هندية في بغداد والبصرة بموافقة
تقي الدين باشا • وبقيت هذه الدوائر تستغل بانتظام من غير اعتراض رسمي عليها
عشر سنوات كان خلالها البريد ينقل بانتظام الى المدن الواقعة على الانهر ، وإلى
العتبات المقدسة مدةً ما • غير ان تركية شاركت في ١٨٧٨م في « مؤتمر باريس »
ودفعت قيمة مشاركتها في « الاتفاقية البريدية » • ومنذ هذا الحين فصاعداً كان
موقف تركية ازاء دوائر البريد البريطانية معروفاً بالوقائع الدبلوماسية في استانبول،
وبحملة محلية لايقاف أعمالها في العراق • وقد فتحت دوائر البريد التركية
بالتدريج ، فظهرت للموجود مصلحة غير كاملة فكانت بالرغم من عدم الاعتماد
عليها ومن سوء الاستعمال فيها كافية ، بوجه عام ، لحاجات العراق اليسيرة •
وكانت زوارق البريد ، وصناديقه في الشوارع ، وموزعو الدوائر البريدية الهندية ،
عرضة للعراقيل بين حين وآخر • ثم مدت خطوط التلغراف الى جميع البلدان
الكبيرة فاصبح العراق ، في هذه الناحية ، من المناطق المفتوحة في العالم • على ان
انعدام الاعتماد وضياع الاسرار لم يقلا •

اما في الانهار فقد قدر للملاحة البخارية أن تصيها مجهودات مدحت باشا
التي لا تعرف الراحة • فقد وجد ان اسطول ادارة عمان العثمانية منحط
فاقد للكفاية • وكانت أخريات بواخره وهي الباخرة « توفيق » والباخرة « رصافة »
(اللتان طلبهما نامق باشا) قد وصلتا في ١٨٦٩م • فادخل الباشا على الادارة
اصلاحات كثيرة ، وعين مديراً أكثر أهلية ، وأوعز بشق قناة كنعان القديمة
ووصلها بالصقلاوية لتكون موصلاً مائياً واحداً بين النهرين • وندبت باخرة

(٢٥) ويقصد بهذا البريد الحكومي لخدمة المجتمع • فبريد الجمال الذي
لشركة الهند الشرقية كان موجوداً منذ مدة ، ولم يتوقف حتى حوالي ١٨٥٥م •
كما كان الباشوات خلال قرون يتصلون باستانبول ويتصلون بعضهم ببعض
بواسطة الخيالة الططر •

لأعمال المسح في الفرات ، ثم طلبت كراة « كراكة » • وعندما حلت الشهور
الآخرة من عهده كان اسطوله المؤلف من زوارق بخارية صغيرة يصل الى البصرة
بالتدريج • غير ان نفاذ المخصصات المالية ، وتحويل دولته له ، وعدم لياقة الزوارق
نفسها ، كل أولئك أدت لتلف الارسالية بأجمعها • فقد بقيت الزوارق ولم تترك
مكانها فأتلفها الصدأ في معامل البصرة • ولذلك كان ما أنجز من هذه الاعمال
يرجع فضله الى مدحت باشا • فقد صعد في أواخر أيامه في العراق الى أعالي
الفرات حتى وصل الى مسكنة بعد ان مر بسلام من الصقلاوية • وهذا يشير الى
أوج ما وصلت اليه المشاريع النهرية في العراق التركي ، اذ لم يحاول أحد عمل
شيء من هذا الضرب بعد هذا • ومنعت شركة لنج من توسيع اسطولها ، وكان
الترك مشغولين بالكلية بجعل بواخرهم صالحة للسير في الماء • وقد غرقت في
١٨٧٦م « دجلة » فاستبدلت بها « بلوص لنج » ، وفي ١٨٨٣م منعت السلطات ببغداد
الشركة فجأة عن تسيير اية باخرة بسبب أضافة البخرة « مجيدة » الى اسطول
الشركة مؤخراً • فاحتجت الشركة منكرة ذلك أشد الاحتجاج لدى المقيم
البريطاني ، الا ان تقي الدين كان أشد من الحجر الصلد تجاه ذلك • لان العناد
الطبيعي ، المضافة اليه بعض المصالح الشخصية في بغداد ، وأمل الربح الوافر من
البواخر التركية ، كان سبباً في كل ذلك • فاتخذت الازمة في الآخير طسوراً
سياسياً مهماً بين العاصمتين واستؤنف سير بواخر الشركة • وكانت حالة البواخر
العثمانية ، بعد مرور عشرين سنة على عهد مدحت باشا ، بحالة يرثى لها • فلم
يجدد من السفن شيء ، واصبحت واحدة منها انقاضاً نخرة ثم غرقت الثانية
واحتقرت ثالثة ، وبقيت البواخر الاربع الآخرة مهملة حتى اشرفت على
التلف ٢٦ •

على ان المواصلات البرية كانت على جانب أكبر من التقدم • فقد أثمر
مشروع « الترامواي » الذي جاء به مدحت باشا لا مشروع سكة الحديد • وبدأت

(٢٦) وقد اشترت اسطول ادارة عمان العثمانية في ١٩٠٤ دائرة
« الستنية » وسميت « الحميدية » • وأخذت البواخر تسيير بالحسنى وبربح أكثر
حتى سقوط عبدالحميد ، ثم انتكست الى حالتها القديمة التي وجدت فيها
الحرب العامة •

عدة عربات تقطع بعض الطرق الرئيسية ، ثم انشئ خط ترامواى بين الكوفة والنجف فى نهاية القرن • وفيما عدا هذه كان البغل والحصان ، والحمار والجمال ، من وسائل النقل العامة • ولم يكن مشروع سكة الحديد (الاجنبى المنشأ) ميتاً ، ففي ١٨٧٨م ، أي بعد الخيبة فى محاولات أندرو بعدة سنوات ، ألقت جماعة أخرى مشروع « ودائ دجلة » • وكان يمر طريق هذا المشروع من ديار بكر الى الموصل فالكويت ، غير ان تدعيم الحكومة البريطانية لهذا المشروع لم يتحقق فترك أمره • وفي ١٨٩٨م دهشت السلطات البريطانية عندما تسربت اليها اشاعات امتيازات روسية نيلت في استانبول ، وهي تتضمن مد خط من آسية الصغرى الى الكويت • الا ان النتيجة المحلية الوحيدة لذلك كانت توثق العلاقات البريطانية المعقودة مع الشيخ مبارك فى الكويت وازدياد موقف السيادة التركية حرجا هناك • وقد تبين ان الالمان ، لا الروسين ، كانوا يفكرون في شن مثل الهجوم ٢٧ •

وبقي علينا أن نذكر شيئاً عن الدوائر الحكومية التي تنتج الواردات • فقد كان يمثل دوائر الكمرك ، فى جميع الاماكن التي على الحدود النهرية والبحرية ، أنحس الموظفين الموجودين فى دوائر الدولة وأكثرهم فساداً وتفسخاً • فكانت ضريبة الاستيراد الاعتيادية المقدرة بثمانية فى المائة ، وضريبة الاصدار المقدرة بواحد فى المائة ، يغض النظر عنها أو تخفف بحسب السخاء الذي يبدية الشاحن أو رئيس القافلة لموظف الكمرك • والا فتصيب البخل فى هذا الشأن متاعب

(٢٧) كانت المانية فى ١٨٨٥م قد اتمت مد سكك حديد البلقان ، فمهد ذلك لتحقيق اتصال مباشر باستانبول • وحصلت فى ١٨٨٨م من تركية امتياز خط حيدر باشا - ازميت ، وفى ١٨٨٩م تأسست شركة « سكة حديد الاناضول » برأس مال الماني ، فكمّل خط انقره فى ١٨٩٣م ثم كمل خط اسكيشهر وقونية فى ١٨٩٦م ، ثم أخذ امتياز (ولكن لم يشرع فيه) بخط انقره - قيصريه - سيواس - ديار بكر - فبغداد • وفى سنة ١٩٠٠م كانت منزلة المانية فى السكك الحديد التركية شيئاً ممتازاً وليس أمراً فنياً فقط • وفى ١٨٩٩م صودق على امتياز قونية - الخليج فزارت الكويت هيئة المانية • ولذلك كان حديث سكك الحديد فى العراق فى ١٩٠٣م موضوعاً حساساً ، ووصلت فى ١٩١٢م أول شحنة من مواد انشاء الخط ، وفى ١٩١٤ كان خط بغداد - سامرا كاملاً •

التأخير ، والحجر الصحي ، والتقدير المفرط • على ان هذا كان مصدراً رئيسياً من مصادر الواردات • اما المصدر الثاني فكان الضريبة على المواشى والحيوانات « الكودة » وهو مورد ثمر مناسب للحال فيما عدا المناطق المتوحشة • والمورد الثالث هو ضريبة الارض التي كان موظفوها - المشتغلون فى شتى الاحوال المحلية ، ومختلف المشاكل العملية ، الذين تقل عندهم الاستقامة - موجودين فى كل مقر أو مركز للحكومة صغر او كبير • وكانت طرق الاستيفاء كثيرة منها : تقدير الحاصلات ، وتعداد الاشجار ، وعد وسائل ضخ الماء ، وفلاحة مقاطعات بأكملها ، والمساومة على مبالغ مقطوعة • وفى الاصقاع الوسيعة غير المسوحة وغير المحكومة الا جزئياً كانت الحكومة مضطرة للاعتماد فيها على موظفين لا يؤتمنون بالكلية ، فتستوفى ما يمكن استيفاؤه من هناك وتعوض ما تفقده بهذه الطريقة بما تستوفيه من السكان ، الذين كان يمكنها الوصول اليهم ، بتقديرات مجحفة مبيدة • وقد كانت الحسابات دقيقة متقنة ، فكانت البقايا غير المدفوعة تنقل باتقان من سنة لآخرى حتى تشطب بالعمو او تستوفى بحملة عسكرية • وكان يرى فى مضمار استيفاء الواردات بأجمعه (وهو الشغل المهم لعدد لا يحصى من الموظفين) عناية الحكومة بالدريهمات المستوفاة عاجلاً وعدم عنايتها بجمع الدنانير آجلاً ، وفقدان الثقة المستفحل بين الحكام والمحكومين ، والجهل المطبق بأساليب الحكم الذي تفرض بموجبه الضرائب على كل شئ من غير ان تساعد جهة من الجهات • وكانت هذه الاخطاء الاساسية أقل وضوحاً فى المؤسسات ذات الادارة الخاصة ، كدائرة « السنية » ، وهي الدائرة التي تدير أمور أراضي السلطان الخاصة ، و« دائرة الديون العمومية » التي تستوفى واردات صيد الاسماك واستهلاك المشروبات الروحية وبيع الملح وبيع حصص « الدين العثماني العالمي » ودائرة الحصر^{٢٨} (الريجي) التي تتولى بيع التبغ • وقد انشئت دائرة السنية فى العراق فى السنين الاخيرة من القرن ، فكانت تدير أمور المقاطعات الوسيعة المنتخبة التي تملكها السلطان من الدولة بالتدريج بشرائها ، الحقيقي أو الاسمي ، أو بنقل ملكيتها له بطريقة استبدادية •

(٢٨) والاسم الكامل هو شركة « حصر المصالح المشتركة بتبغ الامبراطورية العثمانية » ، وهي شركة ذات حصص مشتركة تحتكر تهيئة التبغ وبيعه فى تركيا •

ومع ان هذه المقاطعات كانت تدار أمورها من غير منافسة ، وكونها تصرف اليها العناية الخاصة ، ويحافظ عليها (على حساب الدولة) فقد كانت ادارتها فى النتيجة متفوقة بكثير على ادارة الاراضي الحكومية . فان أبنيتها الحسنى ، ومجاريها المكراة ، وموظفيها المنتخبين الذين يعاملون بالحسنى ، ووارداتها الوفيرة ، كانت تدل بعض الدلالة على أي المتجهات كان يمكن أن يتجه اليها تحسين ادارة أمور الاراضي بكما لها ، وبأية سهولة كان يمكن اجراء ذلك .

تأمل وحكم

هكذا كانت قسما ت الوجه الاخير^١ من أوجه الحكم التركي فى العراق . فقد اقتفينا أثر هذا الحكم منذ أن فتح السلاطين العثمانيون العراق أول مرة وأخذوه من يد ايران القوية فى عهد الصفويين الاوائل ، وفى خلال قرن واحد من الحكم التركي الذي يحكم عليه من النتائج التي أنتجتها حوادثه غير المدونة ،

(١) يقع البحث فى القرن العشرين خارج بحثنا فى هذا الكتاب . وقد عرف هذا القرن فى العراق بوجه عام ببعض دوافع التقدم الناشئة عن اعلان دستور ١٩٠٨ م . فلم يكن بوسع عدد من الانظمة الجديدة التي ادخلت حينئذ ان تحسن من شخصيات طبقة الموظفين . فان زوال شخصية عبدالحميد وماكنة الدعاية التي كان يسيرها كان لها نتائج سيئة فى ارخاء عرى الولاء لعرشه . وكانت النتائج المباشرة لاعلان الدستور انتقال ملكية اراضي السلطان الى الدولة ، وتمادي الانحطاط فى بواخر الشركة الحميدية ، وتشنت شمل الكنائس الحميدية ، وانشاء قوات الجاندرمة المحسنة وشرطة البلدان . وقد أخذت اصلاحات ليمان فون ساندرز العسكرية تأتيا كلها . ثم بدى بخطط سكة حديد سامرا - بغداد فى ١٩١٢م فأنجز العمل فيه سنة ١٩١٤م . وكانت لجنة حدود ايرانية اخرى تسمح الحدود فى ١٩١٣ - ١٤ ، واحتلت نجد ثم أخليت . وتقدم أمر اسكان القبائل باطراد ، عدا ما حلت من جفاف نهر الحلة من ١٩٠٣م الى ١٩١٣م فأخر سير هذه الحركة ، وقد أصلحت الحال فيه بعدئذ سدة الهندية . وتمادى شأن السعدونيين فى الضعف والانحطاط ، كما تزايد انقسام الشمرين ، فكانت قضية اسكانهم شيئا فاشلا . وما برحت شؤون النقل والتحميل تهددها القبائل النازلة على الانهر والاهوار ، كما استمر الهاموند فى ضحكهم على الحكومة فى بازيان . وكانت أشهر شخصية فى هذه السنين شخصية ناظم باشا والي الولايات الثلاث فى ١٩١١م لعدة أشهر .

ومن تلك العهود التي تفتت فيها الخيانة واستفحل العنف وحلت سيطرة
الاييرانيين أمداً قصيراً ، الى اليوم التاريخي المشهود الذي استعيد فيه العراق
منهم ، ومن هناك خلال ستين سنة من الحكم الخامل الى حقبة طويلة نيفت على
القرن الواحد كان العراق خلالها منشقاً على الامبراطورية تحت حكم حكام
محلين صمدوا لصد الهجمات العظيمة وتمكنوا من انشاء بلاط مستقل لهم
تقريباً . وتلت سقوط هؤلاء مدة سبعين سنة أخرى كان العراق في أثنائها أيلة
اعتيادية من أيلات الامبراطورية التي تنتظر من الفوائد ما ينعم به عليها السلطان .

وليس عندنا من جديد نذكره عن الادارة التركية في العراق أو في غيره
من ممتلكات السلطان . فقد كانت نظرتنا التاريخية التي نظرناها الى العراق في
١٩٠٠ - بعد أربعة قرون تقريباً من أول فتح تركي قامت به تركية وهي في أوج
فوتها وسطوتها - ترينا بايضاح كاف ما كابته هذه البلاد الاسلامية الوسيعة الغنية
وما ربحته . وقد أبانت تلك النظرة في الحقيقة انعدام التقدم ، في هذه البلاد منذ
عهد سليمان القانوني ، في الفكر أو الروح ، وفي الثروة المالية والاساليب
الحديثة . فقد خرجت البلاد من القرن التاسع عشر من دون أن تكون أقل
وحشيةً وجهلاً الا بمقدار يسير ، وعلى نفس الدرجة من عدم اللياقة للحكم
الذاتي ، وليس أقل فساداً مما كانت عليه حينما دخلت في القرن السادس عشر
من قبل . ولم تكن مستوياتها في الحياة المادية لتفوق ما كان فيها من مستويات في
النواحي العقلية والخلقية . فقد بقيت مواردها أبكاراً لم تلامس بالرغم مما كان
يدل عليه تأريخها طول الاجيال الماضية ، وما كان يدل عليه وجه الارض فيها .
وفي الوقت الذي ينتهي فيه الدور ، المبحوث عن تأريخه ، نجد أن واجب الحكومة
الاساسي في توجيه القبائل والمدن الى التقدم قد بدى فيه بعد لأي . كما انها
حابت تماماً في أوضح واجباتها التي كانت تحتم عليها ضمان حرية الرعية والمحافظة
على حقوقها ، وكانت خبتها في هذه الناحية أكثر من خيبة أية حكومة من حكومات
العصر التي كانت تسعى متمدة . فقد حابت بالرغم من الاجيال الطويلة التي
حكمت فيها العراق ، فمرت الامبراطورية خلالها بأدوار الرخاء والضعف ، وبالرغم
من التقدم العظيم الذي كان يسرع خطاه في الوقت نفسه في أوربة والهند ،
وبالرغم من المكافأة المادية التي كان يؤمل الحصول عليها بعد النجاح .

على أن الحكم القاسي على ما كان يعد جريمة مؤدية للاهمال المروع ، وعلى الرجعية الجسوح الظاهرة يمكن أن يُلطف تلطيفاً ما ببعض الاعذار • فلم يتسن لأية أمة إسلامية أن تصل في التاريخ الحديث الى مصاف الأمم في الدرجة الاولى • وقد أثبت العقل السلفي الذي فسرت بموجبه عقائد الديانة العظيمة انه غير مؤتلف مع روح التقدم كما يعرف معرفة اعتيادية • ولا غرو فان الجو الشرقي يظهر انه مغم بالخمول ، وبفقدان الدافع الى التقدم ، مما يجب أن لا يغيب عن بال النقاد الذين يتصدون للبحث عن دولة من دول الشرق • فان تركيا والعراق هما من البلاد الشرقية الاسلامية - وليس ذلك ذنباً لهما - ، وان من يحكم عليهما بانصاف يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار ، الى أقصى حد ، الفرق العظيم في التقاليد والتفكير والغاية التي ترمي اليها هاتان الكلمتان • وسيجد من أراد الحكم على وضع البلاد ، عن كتب ، ان اللوم في الاختلاف الفكري المميت وفي النفور الشديد بين الانراك وراعياهم من الكرد والعرب لا يقع على الحكام وحدهم • لأن هؤلاء الرعايا لم يستعدوا عن الولاء والطاعة للاتراك لانهم اتراك ، وانما كان ذلك ابتعاداً عن أية حكومة كانت تصطدم نظمها ، ونظمهم الخاصة ، وحرية المطلقة ، التي كانوا يحيون بموجبها طوال القرون السابقة • فقد كانت كل حكومة شيعية مثلاً تلاقى حتماً بعداوت كردستان وشمالى العراق وكثير من أواسط العراق • كما كانت كل حكومة سنية لابد من أن تلاقى معارضة المجتهدين في كربلا والنجف ، علاوة على معارضة القبائل الشيعية • وكان في إمكان كل حكومة ، وان كانت عادلة وشريفة ، ان تجد ان بسط المعدلة لم يكن شيئاً مفيداً في كل مكان ، وانه كان يقاوم كلما كان خفيف الوطأة ومرشداً للطريق السوي ، كما كان يوسعها ان تجد أن الضغط على بعض الناس (وهو الضروري لحرية الجميع) كان من الواجبات التي كان لابد للحاكمين من أن يلتجئوا اليها بين حين وآخر ، وانه شيء مسخوط عليه أبداً ودوماً • والخلاصة فان مشاكل الحكم في العراق كانت لابد من أن تكون بعيدة الغوز لكل من يقع هذا الواجب على عاتقه كما وجدها غير الاتراك أيضاً ، وكما سيجدها كل الحكام كذلك في المستقبل •

ولقد جاء بعد هذه الولايات عن قلب تركية بعواقب خاصة لها • فقد عرض ذلك العراق للكوارث التي صبتها عليه امبراطورية الشاه ووقع فريسة لها مرة من

فبل، بعد ما قاومها مقاومةً نبيلة • وربما كان في الضغط الدائم، الذي كان يوجهه جبار خطر كهذا على بلاد بعيدة مثل هذا البعد عن المساعدة الامبراطورية ، بعض العذر للاتراك مما يسوغ العناية القليلة التي كانوا يولونها الاحوال الداخلية في هذه البلاد • ويعزى لهذا البعد ، بدرجة كبيرة ، استقلال الباشوات الممالك مدة طويلة من الزمن ، تلك المدة التي لم تكن الحكومة العثمانية تلام فيها الا قليلا على المجهود القليل الذي بذلته خلالها لمساندة الولاية المنفصلة ، وعلى تقصيرها في تعهداتها والحدب عليها • وعلى هذا فقد أصبح العراق ، من جديد ، لا تركيا ولا مغرباً للاتراك • ولم يجذب الى نفسه ، في القرون الاولى من الحكم ، الا القليل من الاتراك النازحين لينزلوا فيه ويستغلوا اراضيهم بالضمان « الالتزام » ، كما ظل في القرون المتأخرة يحكمه الموظفون الاتراك الذين يعدون في الدرجة الثانية لانه لم يرغب أحد في الخدمة عن طيب خاطر في بلاد تبعد هذا البعد عن وطنه • ولذلك لم يصل الى العراق من استانبول سوى الموظفين المنحطين ، الا من شذ ونسدر ، ولم يكن الموظفون الذين كانوا يتعينون محلياً ليتفوقوا على هؤلاء أيضاً • وبذلك تدنت الخدمات الحكومية ، بشتى فروعها ، عن خدمات الحكومة القريبة من العاصمة ولم تكن تضارعها في أعمالها •

وأخيراً فإنا لا يمكننا ان نحكم على أخطاء الحكم التركي في العراق من دون الإشارة الى أحداث الامبراطورية المركزية ومصائرها • فقد كان انشغال أولي الأمر في المقر الاعظم بالدفاع عن الامبراطورية يلهي العاصمة عن ان تصرف العناية الكافية للممتلكات النائية ، كما كانت حاجة الحكومة المركزية الدائمة للمال والرجال تستنزف هذه الممتلكات • ولذلك كانت الامبراطورية وهي في دور الانحطاط ، ومهددة من مسافة قريبة بالانقراض ، معذورة في كثير من تقصيرها • وبالرغم من ذلك كله ، فقد ظهرت في الجيل الأخير من الحكم العثماني في العراق علامات التحسن بالنسبة للقرون السابقة ، وبذلك كان يؤمل منه شيء من التقدم الذي يأتنف مع التخلق التركي •

على ان جميع هذه الاعذار المانعة لا يمكنها أن تحجب عن العين ان العثمانيين بعد أن فتحوا ممتلكات الدولة الكلدانية والآشورية التي اشتهرت خصوبتها في التاريخ ، مرة ثانية ، وبعد ن تمسكوا بها مدة قرون أربعة باسم السلطان ، قد

تركوها وهي ما تزال متأخرة جاهلة ، فقيرة غير مستثمرة ، تعملها الفوضوية ويخالجها السخط على حكامها ، ومن دون أن توجه الى أي طريق من طرق التقدم • ولم يكن بوسع السياح ان يجدوا في أي ولاية تركية قابليات كامنة أعظم مما وجدوه في الولايات العراقية ، ولا ثروات مهمة أكثر من هذا الاهمال ، كما لم يجدوا في غيرها مثل ما وجدوا فيها من سوء الحكم الأشد جموداً •

وقد كان الاتراك ، الذين وهب لهم المزايا العسكرية البارزة والسجيا الاجتماعية الجذابة ، يلغنون كحكام بالمفهومة الحكومية التي تركها سموهم وانحطاطهم غير متبدلة • فقد حجبت الجمل والاسماء المستعارة من أوروبا ، بدلا من أن تعدل ، مبادئهم الحكومي الدال على ان حكم الرعايا يجب أن يستهدف مجد الحاكم ومنفعته ليس الا • وبات يحكم بموجب هذا المبدأ السلطان ، أو الباشوات المستقلون ، أو طبقة الموظفين القليلة ، أو العسكريون المجازفون في بعض الاحيان ، وبذا ظل الملايين من الرعايا جائعين خائفين • وفوق جميع الاسباب الوقتية أو المحلية ، كان سوء الحكم الطويل الامد في العراق ، الذي درسناه حتى الآن ، مسبباً عن فقدان النية في الحكم الصالح • فلم يعترف الاتراك في أعمالهم – بالرغم من اعترافهم كتابياً – بأن العدل هو الذي يجب أن يستهدفه القضاء ، وان الواردات ما هي الا واسطة لاسعاد من يدفعها ، وان ضمان حقوق الضعفاء وأكثرية السكان هو الغاية التي يجب أن تستهدفها الحكومة •

الملاحق

- ١ - مراجع الكتاب
- ٢ - نسب بعض الأسر
- ٣ - قائمة بملوك تركية وإيران المتعاصرين
- ٤ - إيضاح المصطلحات والأسماء الأعجمية الواردة في الكتاب

الملحق الاول

مراجع الكتاب

استخرج هذا التاريخ من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة التي كتبها المؤلفون العرب والاثراك ، ومن مدونات الرحالة والسياح الاوربيين وغيرهم ، ومن مختلف التواريخ والرسالات التي تبحث عن العراق وحده أو عن جاراته العظيمتين ، ومن سجلات شركة الهند الشرقية ، ومن التحقيقات المحلية التي قام بها المؤلف • وليس في المراجع المذكورة مرجع تسيطر رواياته على الحوادث قط • فان كتابات السياح مقطعة ولا تدل الا على انطباعات عابرة ، وتغرق معظم المراجع الاخرى بتفصيل خاص بدلاً من ان تؤلف قاعدة صحيحة في التاريخ • وقد بحث المؤرخون وحتى المؤلفون الشرقيون منهم عن أدوار محدودة ، وهذه لا يمكن الاعتماد عليها الا بعد التوفيق بين مختلفها ، وهم لا يخرجون عن كونهم اما مؤرخين رسميين لتركية (لا يطرقون بحث العراق الا اذا كان يعاني حصاراً أو ثورة تهم الامبراطورية) واما كتاباً عراقيين ينحصر همهم في الكساب في تاريخ ولايتهم • والمراجع في كثير من الاحيان غير معروفة في اوربة ، وفي احيان أخرى تكون منسية أو لم يرجع لها من قبل بكونها مادة تاريخية ، وفي غيرها من الاحيان لا يمكن لأحد أن يحصل عليها الا المستشرقون •

وتقسم المراجع في هذا الملحق الى مجموعات مختلفة كالآتي :

١ - تواريخ قديمة (شرقية) تبحث عن العراق في هذه القرون

٢ - تقييدات السياح والرحالة

٣ - سجلات شركة الهند الشرقية

٤ - التواريخ العامة للبلاد المجاورة للعراق

٥ - رسالات مختلفة في العراق والبلاد المجاورة له أيضاً

٦ - تحقيقات محلية

التواريخ الباحثة عن العراق في هذه الحقبة أو في قسم منها

گلشن خلفا : وقد كتب بالتركية في سنة ١١٠٠ للهجرة ، كتبه مرتضى أفندي نظمي زاده . ويشمل البحث عن المدة التي تبدأ بتأسيس بغداد وتنتهي في سنة ١١٣٠ الهجرية (١٧١٧ - ١٨) . وقد طبع في استانبول في آب ١٧٣٠ . على ان النسخ المطبوعة اندر من النسخ المخطوطة ، فمنها أربع في دار كتب المتحف البريطاني . وهذا المرجع مفيد جداً للبحث عن المدة التي من ١٦٣٨ حتى ١٧١٧ .

حديقة الوزراء : وهو تاريخ مخطوط بالعربية في تاريخ حسن باشا وأحمد باشا كتبه الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ عبدالله السويدي . ولم ير المؤلف نسخة منه . وانما استعمل نسخة كتبها سليمان أفندي الدخيل على نسخة وجدها في خزانة كتب حكمة الله بن عصمة الله أفندي في استانبول (المؤلف) . لقد طبع الجزء الأول منه مؤخراً (مطبعة الزعيم بغداد ، ١٩٦٢) باسم (حديقة الوزراء في تاريخ الوزراء) ، وبتحقيق الدكتور صفاء خلوصي - المترجم .

دوحة الوزراء : وهذا مع كتاب « گلشن خلفا » أهم المصادر المذكورة على الاطلاق ، ومؤلفه هو رسول حاوي أفندي الكركوكي . ونسخه المخطوطة نادرة ، كما ان نسخه المطبوعة أندر . وهو مكتوب بتركية منمقة ، وقد طبعه بامر من داود باشا في بغداد سنة ١٢٤٦ الهجرية (١٨٣٠) مرزا محمد باقر النفليسي . والكاتب رزين (لكنه متحيز) بذكر الحوادث التي شهدا . ويبحث عن المدة التي بين ١٧١٨ و ١٨٢١ . وقد استعار المؤلف للمراجعة من حمدي بك بابان نسخة مطبوعة وأخرى خطية من شكري أفندي الفضلي (المؤلف) . ولقد نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ موسى كاظم نورس ، وطبعته في بيروت (دار الكاتب العربي) مكتبة النهضة في بغداد قبل سنوات معدودة من دون ان يذكر تاريخ السنة التي طبع فيها عليه . وقد ظهر الكتاب بعنوان (دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء) - المترجم .

مطالع السعود : كتبه بالعربية أمين بن حسن الحلواني المدني ، وقد طبع على الحجر في بومبي سنة ١٣٠٣ الهجرية (١٨٨٥) . وهو اختصار لكتاب غير مطبوع كتبه الشيخ عثمان بن سند البصري . ويبدأ الكتاب الاصيلي بسنة ١١٨٨

الهجرية (١٧٧٤) ، وهي سنة ولادة داود باشا ، ويقف في ١٢٤٢ الهجرية (١٨٢٦) ، ثم يتابع كتابته أمين بن حسن الى ١٨٣١ (المؤلف) . طبع هذا المختصر في القاهرة (المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ) بعنوان (خمسة وعشرون عاماً من تاريخ العراق) ، ووقف على طبعه محب الدين الخطيب - المترجم .

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر : وهو بحث مختصر بالعربية عن الحوادث الاخيرة في أيام حسين باشا في البصرة (١٦٤٥ - ٦٥) وقد كتبه الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي . كان يوجد مخطوطاً وقد استعمل المؤلف النسخة المخطوطة ، الا انه طبع في بغداد ١٩٢٤ (المؤلف) . طبع في مطبعة الفرات ، ووقف على طبعه المرحوم خلف شوقي الداودي صاحب جريدة شط العرب - المترجم .

حروب الايرانيين : كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهية ، ولا يوجد منه الا نسخة خطية بالتركية لا يعرف المؤلف غيرها ، وقد استعارها من حمدي بك بابان . وكتب حوالي ١٨٨٠ م في بغداد ، وهو يشمل ببخته المدة التي بين ١٧٢١ م و ١٧٤٦ م . وقد اعتمد الكاتب على الكتاب الرسميين الاتراك وعلى دوحة الوزراء وعلى جهانكشاي نادري ومؤلفه المرزا مهدي وعلى معلومات خاصة . وقيمة الكتاب قائمة بمعلومات المؤلف الخاصة ولو كانت لا تعد من الصنف الاول .

بغداد كوله من حكومتك تشكيليله انقراضه دائر رساله : وهو كتيب مطبوع بالتركية في استانبول سنة ١٨٧٥ م كتب عليه ان مؤلفه « ثابت » الا انه في الحقيقة قد كتبه سليمان بك بن الحاج طالب كهية وقد فضل ان يضع عليه اسما مستعاراً ، ويشمل المدة بين ١٧٤٩ و ١٨٣٦ . وتوجد منه ثلاث أو أربع نسخ في بغداد وتوجد أيضاً نسخة أو أكثر في مصر وربما يوجد منه في استانبول ، وقد حصل المسيو هوار على نسخة منه وسمح لنفسه أن ادخل معلومات الكتيب في ضمن كتابه^١ . وهذا مرجع يعتمد عليه بالرغم من احتوائه على التحيز الطبيعي لاسرة المؤلف ، فان الحاج طالب كان كهية داود باشا وهو من المماليك المعتنقين (المؤلف) . طبعت في بغداد في العام الماضي (مطبعة المعارف ١٩٦١ مئة

(١) هوار (المقدمة ص ٤) ، وينذهب هوار مذاهب شتى حول هوية المؤلف المعروف جيداً في أوساط المثقفين البغدادية .

صفحة بالقطع الصغير) الترجمة العربية لهذا الكتاب باسم (تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد) ، والترجمة بقلم محمد نجيب الارمنازي - المترجم .

مرآة الزوراء : للمؤلف السابق نفسه ولا توجد منه الا نسخة خطية غير كاملة . وهذا يشمل ، عدا المدة التي يشملها الكتاب السابق ، البحث عن السنين السبع الاولى من عهد علي رضا باشا . ويقال ان النسخة الكاملة فقدت عند نفي المؤلف . والنسخة التي وجدها مؤلف هذا الكتاب هي مفسخة غير كاملة ، وهي لحمدي بك بابان ويظهر انها نسخت بعدة أيد ، ويعتمد عليها كثيراً (المؤلف) .

لقد نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ موسى كاظم نورس وطبع في مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٦٢ بعنوان (تاريخ بغداد) - المترجم .

غاية المرام : وهذا كتاب مخطوط ألفه ياسين العمري^١ بن خيرالله العمري الخطيب الموصللي . وفي هذا الكتاب معلومات جغرافية ونسبية وسيرية كثيرة عدا ما فيه من تاريخ بغداد الذي يعد البحث عن مدة الخمسين السنة الاخيرة (المنتهية في ١٨٠٥ م) (١٢٢٠ هـ) منه مبتكراً ومهماً .

غرائب الاثر : كتاب مخطوط للمؤلف المذكور نفسه ، مكتوب بالعربية ، يكرر فيه البحث عما كتب في كتابه الاول بطريقة مختلفة ، لكنه يضيف اليها بحثاً مفصلاً شافياً عن ١٨٠٥ - ١٨١١ م (المؤلف) . طبع هذا الكتاب في الموصل ونشره الدكتور محمد صديق الجليلي (مطبعة ام الربيعين ، ١٣٥٩ ، و ١٩٤٠ م) ، وعنوانه المطبوع (غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) - المترجم .

وبهذا الكتاب تنتهي قائمة أهم المراجع . اما المراجع التالية فهي أول أهمية منه بكثير :

(١) قال مصطفى جواد : ولياسين العمري كتاب آخر في الموضوع اسمه « الدر المكنون في الآثار الماضية من القرون » ابتداء به التاريخ من السنة الاولى للهجرة المباركة وانها بسنة ١٢١٨ هـ . وقد نقلنا عنه أشياء ، ومنه نسخة بدار الكتب الوطنية بباريس رقمها « ٤٩٤٩ عربيات » قال في أولها : « وقد رفعته الى حضرة الوزير الكبير الشهم الخطير . . . حضرة افندينا العظم علي باشا . . . » وفيه الغث والسمين وفي تاريخ العصور الاولى كثير من الغثاة .

وله كتب تراجم أخرى لا محل لذكرها هنا .

رددة التواريخ : مؤلفه عبدالواحد بن الشيخ عبدالله باش أعيان • والكتاب لا يزال مخطوطا بست عشرة مجلدة عربية وهو في خزانة كتب الشيخ أحمد باش أعيان • ويشمل الكتاب البحث عن الخلافات جميعها وكذلك تاريخ البصرة الاخير • وفيه امعانات طويلة في التاريخ التركي العام وتاريخ الحجاز •

تقويم ولاية الموصل لسنة ١٣٢٥ الهجرية : وهو مكتوب بالتركية كتبه حسن توفيق أفندي « مكتوبيجي » الولاية • وأحسن ما دون فيه حصار نادر شاه للموصل في ١٧٤٣ م ، وكذلك عهد الاينجه بيرقدار (١٨٣٥ - ٤٣) وفيه قائمة تاملة بأسماء باشوات الموصل منذ سنة ١٠٠٠ الهجرية •

تاريخ الموصل : مؤلفه سليمان الصائغ وقد طبع في مصر في ١٩٢٤ م • ولم يضاف هذا شيئاً الى ما هو مدون في الكتاب قبله • والحققة ان الكتانين يستقيان بكل أمانة من كتاب عربي لم ير مؤلف هذا الكتاب نسخته الاصلية يسمى « منهل الاولياء » لمحمد أمين أفندي العمري (المؤلف) • يقع (تاريخ الموصل) للنفس سليمان الصائغ في ثلاثة أجزاء في الوقت الحاضر • وقد طبع الجزء الأول منه في القاهرة (المطبعة السلفية ١٩٢٣) ، وطبع الجزء الثاني في بيروت (المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٨) ، وطبع الجزء الثالث في جونية بلبنان (مطابع الكريم ١٩٥٦) • اما كتاب (منهل الأولياء) الذي يشير اليه المؤلف فقد نشر في الموصل (مطبعة الجمهورية ١٩٦٧) بتحقيق الاستاذ سعيد الديوهجي مدير متحف الموصل - المترجم •

تقويم ولاية البصرة لسنة ١٣٠٥ (١٨٨٧ م) : وفيه قائمة بولاة البصرة ومسلميها وفصل من المعلومات التاريخية ، وهذا الفصل مستمد كله حسبما يظهر من تاريخ باش أعيان •

تقويم ولاية بغداد لسنة ١٣٢٢ الهجرية (١٩٠٤) : كتب بالتركية وفيه (ص ٥٠ - ٥٥) قائمة لولاة بغداد مع مدد حكمهم بالضبط منذ ١٦٣٩ •

خلاصة تاريخ العراق : للاب انستاس (طبع البصرة ١٩١٩) يبحث عن المدة التي يبحث فيها هذا الكتاب بصفحات قليلة ، وهو مستمد بأجمعه من مختلف المراجع المذكورة أعلاه ، خاصة (غاية المرام) •

نذكر فيما يلي السياح الذين قصدوا العراق وما كتبوه مرتباً حسب السنين التي زاروا فيها البلاد :

- ١٥٥٣ م سيدي علي ريس - رحلات الاميرال التركي سيدي علي ريس ومغامراته (لندن ، لوزاك ، ١٨٩٩) • ترجمه من التركية الى الانكليزية قمبري • واسم الكتاب الاصلي « مرآة الممالك » وقد نشرته مكتبة الاقدام باستانبول في ١٣١٣ الهجرية • وكانت رحلته من حلب - فالموصل - فبغداد - فالفرات - فالبصرة - فهرمز • وكان المؤلف أميرالاً تركياً وأديباً •
- ١٥٥٣ - ٥٤ المؤلف مجهول - لا يعرف عنوان الكتاب - كتاب مخطوط في ١٥٥٣ • وهذا سائح پرتغالي كانت رحلته من سورية - فالعراق - فالبصرة •
- ١٥٥٥ انطونيو تينريرو - كتب بالبرتغالية في وصف هرمز - فالخليج - فايران وقد طبع في لشبونة سنة ١٨٢٩ م •
- ١٥٦٣ سيزار فردريجي - طبع فيما نشرته هاكلايت « رحلات » ، وهذا تاجر بندي كتب رحلاته بالايطالية في ذكر حلب - فالعراق - فالبصرة •
- ١٥٧٥ الدكتور ليونارد راوولف - مجموعة رحلات وسياحات مؤنسة (١٢ مجلداً) - جمعها بهذا العنوان جون ري (لندن ١٦٩٣ م) وهذا طبيب الماني وتاجر كتب بالالمانية في وصف حلب - فالفلوجة - فبغداد - ففكر كوك - فالموصل - فالاناضول •
- ١٥٧٩ غاصبارو يالبي - (پر كاس ٢ وپنكرتون ، رحلات وأسفار ، لندن ١٨١١) ، وهو جوهرى بندي كتب بالايطالية في وصف حلب - فالفلوجة - فبغداد - فالبصرة •
- ١٥٨١ جون نيوبري (پر كاس ٩) ، وهو تاجر لندي كتب في وصف سورية - فبغداد - فهرمز •
- ١٥٨٣ جون ايلدرد - (هاكلايت ٢ ، القسم ١ • وثلاث رسائل في پر كاس) •

- ١٥٨٣ رالف فيتش - (هاكلايت ٢ ، القسم ١ • وكذلك نشر من قبل هورتن رايلي ، لندن ١٨٩٧ على حساب جمعية هاكلايت) •
- ١٥٨٩ السر أنطوني شيرلي - نشر الكتاب بعنوان « الاخوة الثلاثة » وهم السر اتوني والسر روبرت والسر شيرلي • (لندن ١٨٢٥) ، وهو مغامر انكليزي عرف بعد ذلك في بلاط ايران • كان طريق سفرته : حلب - فالقرا - فبغداد - فقزوين •
- ١٦٠٤ بيدرو تيكسيرا (تيرا) - رحلاته ، نشرها و.ف. سنكلير ود • فيرغوسن لجمعية هاكلايت في لندن ١٩٠٢ ، وهو سائح برتغالي كانت رحلته وصفاً للخليج - فالبصرة - فالمدن المقدسة - فبغداد - فعانة •
- ١٦١٥ بيتر ديبلاقاله - مجموعة رحلاته المشهورة (باريس ، ١٦٦٣ ، ٤ أجزاء) وهو رجل ارستقراطي على الطراز الروماني • والجزء الاول والثاني فقط يبحثان عن العراق ، والكتاب طريف جداً •
- ١٦٢٥ الحاج خليفة - « جهانامة » (استانبول ١٢٤٥ للهجرة) وهو مؤلف وسائح تركي ، جاء للعراق مع خسرو باشا ، والكتاب طريف ملذ •
- ١٦٢٩ ر.ب. فيليب - « رحلة الشرق » (ليون ١٦٥٢) • من الكرملين الافرنسيين ، وطريقه من حلب - فالقرا - فبغداد - فايران •
- ١٦٣٨ م.د. ثيغو - « قصة رحلة في بلاد المشرق » (باريس ١٦٦٥) • ان الصفحة ٥٦٩ فيها وصف شاهد عيان قيم للاستيلاء على بغداد •
- ١٦٣٨ م.د. ثيغو - مجموعة رحلاته (امستردام ١٧٢٧) ، ج ٤ ، ٥٥٧ - ٩٢ : البصرة - فالاحساء - فالقطيف •
- ١٦٣٨ ج.ب. تاثيرنيه - « الرحلات الست في تركة وآسية » (نقله الى الانكليزية ج.ب. لندن ١٦٧٨) والمؤلف نبيل افرنسي • الكتاب الثاني في رحلاته سنة ١٦٣٨ ، ١٦٤٤ ، ١٦٦٣ • ضروري •
- ١٦٣٨ سيور دلوار - « رحلاته المتضمنة في عدة رسائل » (باريس ١٦٥٤) راجع الفون هامر (٩ ، ٣٣١) لم يطلع عليها المؤلف •
- ١٦٤٩ سيور دلابويي دي گوز - « رحلاته ومشاهداته » (باريس ١٦٥٧) •
- ١٦٥٥ رحلات اوليا چلبلي - (استانبول ١٣١٤) ، والمؤلف سائح تركي

من رجال الحاشية • وهو يكتب في وصف ايران فلدستان -
فبغداد - فالبصرة •

١٦٦٣ الأب مانويل غودينهو - الخلاصة في ما كتبه موري في « آسية »
أدنبه ١٨٢٠ ، وهو يسوعي « جزويتي » يرتغالي كتب في ذكر
البصرة - فبغداد - فعانة •

١٦٧١ م • كاريه - « رحلات جزر الهند الشرقية » (باريس ١٦٩٩) ، عن
البصرة - فبغداد ، وهو سائح افرنسي •

١٦٩٤ المؤلف مجهول « قصة مئات الشاه سليمان ملك ايران ... والخ »
(باريس ١٦٩٦) ، عن ايران - فکردستان ، وأهميته في معلوماته
عن أصول البابائين ، اطلع المؤلف على نبذة من مخطوطة تتعلق
بالموضوع •

١٦٩٥ سور سيور دوغال - « رحلتي الى جزر الهند الشرقية » (مخطوط
فقط) ، وهو رجل افرنسي كتب في صفة سورية - فعانة - فبغداد
فمندلي - فايران • (النسخة الخطية موجودة عند يعقوب افندي
سركيس ، بغداد) •

١٧٢٠ دوري افندي - « دوري أفندي سفارتيامه سي » وهو كتاب تركي
مطبوع على الحجر غير مؤرخ • وكذلك ترجمته التي ترجمها الى
الافرنسية المسيو پتي دلاكروا (باريس ١٨٢٠) • ودوري هو سفير
تركي استسفر الى ايران في ١٧٢٠ ، وقد مر بالعراق •

١٧٢١ الكابتن أ. هاملتون - « بحث جديد عن جزر الهند الشرقية » (لندن
١٧٣٩) ، والمؤلف كابتن بحري سكوتلاندي ، فيه بحث عن البصرة
فقط •

١٧٢٦ « كسط الرداء وغسل الران في زيارة العراق » كتبه مصطفى بن كمال
الدين بن علي الصديقي • لم يطلع عليه المؤلف • (وصف سفرات
في العراق وغيره) رقم ٩٣٠ من مجموعة كتب براون هاند ليست في
مكتبة جامعة كمبرج •

١٧٣٣ - نيكوديم - « رسالة القس الميسو دلامار كيز دفينوف » وهو

الطبيب الافرنسي لطوپال عثمان ، وفيه وصف مسهب فيه لواقعة
حزيران ١٩ ، ١٧٣٣ م . وهي موجودة في كتاب الفون هامر ، ١٤ ،
ص ٥١٤ .

١٨٣٦ عبدالكريم « رحلة من الهند الى مكة » ترجمه الى الافرنسية لانكلييه ،
پاريس ١٨٢٥ . والى الانكليزية ف . گلاډوين ، لندن ١٧٩٣ . كتب
بالفارسية ، والكتاب من أهالي كشمير ومن مقربي نادر شاه . وقد
كتب في وصف ايران - فبغداد - فالعبات المقدسة - فكر كوك -
فالموصل . ولم يطلع المؤلف على النسخة الفارسية الأصلية .

١٧٣٦ م . أوتر - « رحلة في تركية وايران » (باريس ١٧٤٣) . وهو
وكيل الحكومة الافرنسية ، سافر مع عبدالباقى خان وكتب عن الموصل
وبغداد وايران ، وكتب في ١٧٣٩ عن رحلته الى مندلي - فبغداد -
فالبصرة ، وفي ١٧٤١ عن البصرة ، وفي ١٧٤٣ عن البصرة - فبغداد -
فالموصل - فديار بكر . مهم .

١٧٣٩ ر . بوكوك - « وصف للشرق » (لندن ١٧٤٣) ، والمؤلف طبيب
ومختص بالآثار العاديات ، كتب في وصف سورية والجزيرة .

١٧٤٤ لياندور دي س . كاسيليا « رحلات في فلسطين وايران وبين النهرين »
(روما ١٧٥٣ - ٧) ، لم يطلع المؤلف الا على خلاصة الرحلة في
(موري ، « آسية ») ، والكتاب هو راهب ايطالي .

١٧٥٠ م . م . بليستد وأليو - « أبحاث عن البادية العربية » (باريس ،
السنة الخامسة) ، والكتابان هما من موظفي شركة الهند الشرقية ،
وهذه ترجمة افرنسية للاصل الانكليزي ، الرحلة من البصرة -
فالزبير - فالنجف - فكيسة - فحلب . موجودة في كتاب هاويل ،
ص ٣٢٧ - ٨٢ .

١٧٥٧ المؤلف مجهول - « من أوروبا الى الهند بطريق البر في ١٢٥٧ »
(اوترخت ، ١٨٦٠) . كتب باللغة الهولندية ، والسفرة بين البصرة
وحلب عن طريق البادية .

١٧٥٨ الدكتور أي . أيفز - « رحلة من إيران الى انكلترة » (لندن ١٧٧٣) ،

- وهو جراح شركة الهند الشرقية • كتب في وصف البصرة - فالفرات -
فبغداد - فكر كوك - فالموصل - فماردين ، وهو طريف جداً •
- ١٧٦٥ ك • نيور - « رحلة في بلاد العرب وما جاورها » (امستردام ١٧٧٦) ،
وهو عالم دانماركي • وهذه ترجمة افرنسية للكتاب عن وصف البصرة -
فالفرات - فبغداد - فكر كوك - فالموصل - فماردين • وهو كتاب
تاريخي أساسي •
- ١٧٦٨ جوزيف أمين - « حياته ومغامراته » (اعادت طبعه أيمي أبكار ، كلكتا
١٩١٨) ، طبع أولاً في لندن في ١٧٩٢ • والمؤلف ارمني مغامر ، ولد
في همدان سنة ١٧٢٦ وشهد الحروب الايرانية في ١٧٦٨ ، وكتب
في ذكر أرمينية - فبغداد - فالحلة - فالبصرة • كتب في ١٧٧٤ في
البصرة - فبغداد - فالبصرة •
- ١٧٧١ رفيق المسر أيري كوت - « ريبورتاج عن رحلة من الزبير قرب البصرة
الى حلب في ١٧٧١ » (مخطوطة) ، موجودة عند يعقوب أفندي سر كيس
في بغداد ، ومطبوعة في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، المجلد ٣٠
(١٨٩٠) ، ص ١٩٩ •
- ١٧٧١ المستر كارمايكل - « رحلة من حلب الى البصرة بطريق البادية » ، وهي
مطبوعة كملحق لطبعة ١٧٧٢ من كتاب غروز « رحلة الى جزر الهند
الشرقية » (لندن ١٧٧٢) ، والمؤلف من مستخدمي شركة الهند
الشرقية • مؤنس •
- ١٧٧٤ أ • پارسنز - « رحلات في آسية وأفريقية » (لندن ١٨٠٨) • وهو
قنصل (انكليزي) في الاسكندرونه ، كتب في حلب - فبغداد - فالحلة -
فحسكة - فالبصرة (حصار ١٧٧٥) • مهم وتاريخي •
- ١٧٧٨ ج • كير - « ملاحظات حول المرور الى الهند » (لندن ١٧٨٥) • وهو
يبحث عن رحلة من حلب الى البصرة بطريق البادية ، وفيه قصة احتلال
الايرانيين للبصرة •
- ١٧٧٩ المؤلف مجهول - « مذكرات حول رحلة من البصرة الى بغداد »
(هورشام ١٧٨٤) • كتبها أحد مستخدمي شركة الهند الشرقية عن

- سفرة من البصرة - فبغداد - فحلب • طريفة •
- ١٧٨١ سيسيني - « رحلة من القسطنطينية الى البصرة في ١٧٨١ » (باريس) • وهو عالم ايطالي كتب واصفاً ديار بكر - فالموصل - فالبصرة • وكتب في ١٧٨٢ في البصرة - فالفرات - فبغداد - ففكر كوك - فالموصل • طريفة •
- ١٧٨١ ايليس اروين - « سلسلة من المغامرات في أثناء رحلة » (لندن ١٧٨٧) • والمؤلف سائح ، وما له علاقة من الرحلة بالتاريخ هذا موجود في الجزء الثاني ص ٣١٢ فقط • والرحلة عن الفرات - فغانة - فحديثة - فالوس - فبغداد - فالبصرة • لا يعتمد عليه •
- ١٧٨١ د. كامبل - « موجز عن مغامرات غير اعتيادية ومكابدات » (لندن ١٧٩٧) ، وهو أحد مستخدمي شركة الهند الشرقية ، والرحلة تبدأ من الموصل - ففكر كوك - فبغداد - فالموصل •
- ١٧٨٢ آندريه ميشو - « رحلة سورية وايران » طبعه الدكتور هارفي (جنيف ١٩١١) • والسائح افرسي ، والرحلة من حلب - فبغداد - فالبصرة •
- ١٧٨٥ الكونت دي فيريير - سوفبوف - « مذكرات تاريخية » (باريس ١٧٩٠) •
- ١٧٨٦ ج . جريفنس - « رحلات في أوربة وآسية الصغرى وبلاد العرب » (لندن ١٨٠٥) ، وهو طبيب انكليزي ، حلب - فالبادية - فالبصرة •
- ١٧٨٧ و. فرانكلن - « ملاحظات حول رحلة من البنغال الى ايران في ١٧٨٥ - ٨٧ » (لندن ١٧٩٠) ، وهو من مستخدمي شركة الهند الشرقية ، كان في البصرة في ١٧٨٧ عندما احتلها ثويني •
- ١٧٨٨ ت. هاول - « رحلة العودة من الهند بطريق البر » (باريس ، العام الخامس) ، الكاتب من مستخدمي شركة الهند الشرقية ، كتبها بالانكليزية في الاصل ، البصرة - فالفرات - فبغداد - ففكر كوك - فالموصل (أيام احتلال ثويني للبصرة) •
- ١٧٩٠ الميجر تايلور - « رحلة الى الهند عبر البادية الكبرى » (باريس ١٨٠٧) ، من مستخدمي شركة الهند الشرقية ، كتب الاصل بالانكليزية عن

- سورية - فالبادية - فالبصرة •
- ج • أ • أوليئيه - « رحلات في الامبراطورية العثمانية ومصر وايران » ١٧٩٢
(باريس) - وهو وكيل رسمي افرنسي كتب في صفة ماردين -
فالموصل - فكر كوك - فبغداد - فالفرات - فالبصرة • أساسي •
- ج • جاكسون « رحلة من الهند الى انكلتره في ١٧٩٧ » ، (لندن ١٧٩٧)
١٧٩٩ (البصرة - فالفرات - فالموصل • طريف •
- مرزا أبو طالب خان - « رحلاته في آسية وأورپه وأفريقية » ، في ١٨٠٣ - ١٧٩٩ (لندن ١٨١٠) • وهو رجل هندي كتب النسخة
الاصلية باللغة الفارسية • وكتب في وصف ماردين - فالموصل -
فكر كوك - فبغداد - فالعقبات المقدسة - فالبصرة وفيه أغلاط سخيفة •
- محمد رافع - « سفارتيه » ، (وهو سجل سفارته الى ايران في سنة ١٢٢٢ للهجرة) استانبول ١٣٣٠ يستطرق الى البحث عن تاريخ
عبد الرحمن باشا بابان • ١٨٠٧
- ادريين دويريه - « رحلة في ايران في ١٨٠٧ - ٩ عبر الاناضول وبين
النهرين » (باريس ١٨١٩) ، وهو سائح افرنسي ، كتب عن ماردين -
فنجيين - فالجزيرة - فالموصل - فكر كوك - فبغداد - فايران •
أساسي •
- ج • ب • روسو - « رحلة من بغداد الى حلب » (باريس ١٨٩٩) ،
يراجع عن المؤلف ما جاء بهذا المحقق تحت عنوان « رسائل تختص
بتاريخ العراق والبلاد المجاورة له (العراق) » ، طبع هذا المؤلف
نقلًا عن مخطوطته بعد تسعين سنة ، فيه قائمة عشائرية مهمة •
- المؤلف مجهول - « مذكرات رحلة في تركية الاسيوية وايران » ١٨٠٨
(باريس ١٨٠٩) ، ايران - فبعقوبة - فبغداد - فالموصل ، طريف •
- ج مورير « رحلة في ايران وارمينية وآسية الصغرى الى القسطنطينية ، ١٨٠٨-١٦
١٨٠٨ - ٩ » (لندن ١٨١٢) • ثم « رحلة ثانية في ايران » (لندن

(١) لم يذكر المؤلف شيئاً من تلك الاغلاط ، ومع تلك الاغلاط نرى انه
من خيرة السياح الذين يؤثرون الحقائق على المداجاة والمحاباة والموافقة - م ج •

- ١٨١٨) • والمؤلف دبلوماسي الكليزي في إيران ، وهو يستطرق الى ذكر العراق في الفصل ٤٤ - ٤٦ من كتابه « الحاج بابا الاصفهاني » •
- ١٨١٠ ج • م • كينير - « رحلة في آسية الصغرى وأرمينية وكردستان » (لندن ١٨١٨) • ثم « مذكرة جيولوجية عن الامبراطورية الايرانية » (لندن ١٨١٣) ، والبحث فيهما عن ايران في الاصل الا انه يستطرق الى الكتابة عن شمالي العراق وشرقيه •
- ١٨١٦ ج • س • بكنينغهام - « رحلات في آثور وميدية وايران » (لندن ١٨٣٠) • الجزء الاول عن بغداد - فايران ، والثاني عن البصرة •
- ١٨١٦ ج • س • بكنينغهام - « رحلات في بلاد ما بين النهرين » (لندن ١٨٢٧) ، الجزء الاول في ديار بكر - فماردين ، الجزء الثاني في الموصل - فكر كوك - فبغداد - فبابل - فبغداد • طريف •
- ١٨١٧ و • هود - « رحلة في الخليج العربي » (لندن ١٨١٩) ، كتب في ذكر البصرة - فالفرات - فالغراف - فبغداد - فالموصل • ممتع ، تاريخي •
- ١٨١٨ السر ر • ك • پورتر - « سياحات في بلاد الكرج وايران وارمينية وبابل القديمة » (لندن ١٨٢٢) • والمؤلف من الآثاريين ، الجزء الثاني (ص ٢١٠) عن ايران - فخانقين - فبغداد - فكفري - فالسليمانية - فايران • ممتع •
- ١٨٢٠ ك • ج • ريج - « قصة مقيم في كردستان » (لندن ١٨٣٦) • وهو المقيم البريطاني في بغداد سنة ١٨٠٨ - ٢١ ، وهذه قصة نزوله ضيفاً علي محمود باشا بابان في السليمانية سنة ١٨٢٠ • ممتع ، ومهم عن تاريخ البابانيين •
- ١٨٢٤ الاونورايل ج • كييل - « سياحات في بابل وآشور وميدية وسكينية » في ١٨٢٤ » (لندن ١٨٢٧) ، وهو من المتصلين بشركة الهند الشرقية ، وسياحاته في الخليج - فالبصرة - فبغداد - فبابل - فبغداد - فبعقوبة - فايران • طريف •
- ١٨٢٥ R.C.M. « مذكرة عن جولة في ايران » (لندن ١٨٢٨) ، يبدأ من

- ص ٢٣٠ بذكر إيران - فيبغوبة - فيبغداد - فالبصرة •
- ١٨٢٧ • ر • مينيون - « سياحات في بلاد الكلدان » (لندن ١٨٢٩) ، وهو من المتصلين بشركة الهند الشرقية ، والكتابة عن البصرة - فيبغداد - فالحلة - فيبغداد ، وان الصحائف ٢٦٩ - ٨٦ فيها تلخيص لكتاب « زاد المسافر » المشار اليه في هذه المراجع •
- ١٨٣٠ - ٣١ ج • ر • ويلستيد - « رحلات في مدينة الخلفاء » (لندن ١٨٤٠) ، وهو من المتمين للاسطول الهندي ، وكتب في صفة البصرة - فالفرات - فيبغداد - فالفلوجة - فحلب ، وهذا مهم ولا سيما في أخبار طاعون ١٨٣١ •
- ١٨٣٠ - ٣١ القس أ • ن • گروفرز - « مذكرات اقامة في بغداد » (لندن ١٨٣٢) ، والكتاب من المبشرين ، ويبحث عن بغداد في ١٨٣٠ - ٣١ بحثاً دقيقاً واضحاً ، والكتاب تاريخي طريف •
- ١٨٣١ • ج • ه • ستوكلر - « خمسة عشر شهراً من زيارة لجهات غير مطروقة في خوزستان وايران » (لندن ١٨٣٢) • وهو صحفي وما كتبه (ج ١ الى ص ٨٠) مهم في موضوع البصرة فقط •
- ١٨٣١ - ٣٦ ف • ر • چيزني - « حملة مسح النهرين دجلة والفرات » (لندن ١٨٥٠) ، « قصة حملة الفرات » (لندن ١٨٦٨) • مهم من الوجهة الطبوغرافية ، ولا معلومات تاريخية فيه •
- ١٨٣٤ - ٣٧ الدكتور ج • روص - « رحلة من بغداد الى اطلال أوبيس والجدار الميدي في ١٨٣٤ » وهي مذكرات لرحلة من بغداد الى اطلال الحضرة (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، ج ١١ ، قسم ٢ ، ص ١٢١) ، والكتاب هو طبيب المقيمة ، وفي كتابته معلومات في أحوال القبائل •
- ١٨٣٤ • ج • ب • فريزر - « رحلات في كردستان وما بين النهرين » (لندن ١٨٤٠) • وهو رجل مهنته الكتابة ، وقد كتب بهذا يصف أردلان - فشهرزور - فكفري - فيبغداد - فالفرات - فايران من جديد • [وقد ترجم القسم الأول من هذه الرحلة مترجم هذه السطور وطبعه بعنوان (رحلة فريزر الى بغداد في سنة ١٨٣٤) • في مطبعة المعارف

بغداد سنة ١٩٦٣] ، وكتب أيضاً « مذكرة في الاحوال الحالية في
في باشوية بغداد » ، وكتب هذه المذكرة لتقديم للحكومة البريطانية
والكتابان مهمان •

١٨٣٥ اوشيه - ايلوي - « قصة رحلة في الشرق في ١٨٣٠ - ١٨٣٨ »
(باريس ١٨٤٣ ، طبعة جويير) • والكاتب عالم نباتي ، كتب في صفة
ماردين - فالوصل - بغداد - (والحلة) - فايران ، وفي ص ٩٩ •
يصف حملة الاينجة بيرقدار في ١٨٣٥ •

١٨٣٥ - ٣٦ ف • فوتانييه - « رحلة في الهند وفي الخليج العربي » (باريس
١٨٤٤) • والكاتب قنصل افرنسي في البصرة كتب يصف البصرة -
بغداد - فالحمرة • وفي هذا معلومات كثيرة لكنها غير منظمة متحامل
فيها على الانكليز بشدة • (ج ١ ، الفصل ٨ - ١٨) •

١٨٣٦ و.ف. • أيزنورث - « بحوث في بلاد الآشوريين والبابليين والكلدان »
(لندن ١٨٣٨) •

« سياحات وبحوث في آسية الصغرى وبين النهرين وبلاد الكلدان
وأرمينية » (لندن ١٨٤٢) •

« سياحات في طريق العشرة آلاف يوناني » (لندن ١٨٤٤) •
« قصة شخصية عن حملة الفرات » (لندن ١٨٨٨) • والمؤلف كان
جيولوجياً بصحبة جيزني ، وفي المؤلفات معلومات طوبوغرافية كثيرة
ومعلومات عن الاحوال العامة ، الا انها قليلة الاهمية تاريخياً • طريفة •

١٨٣٦ مدام هيلفر - « سياحات الدكتور والمدام هيلفر » ترجمها للانكليزية
ج. ستورج لندن ١٨٧٨ ، وهذان المانيان صحبا حملة جيزني •

١٨٣٦ الماجور راولينسن - « مذكرات سفرة » من زهاو في سفوح الزاگروز
وعلى طول جبال خوزستان • وهذه مهمة في وصف زهاو ولرستان
والبختاريين • (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية) ، المجلد ٩ ،
ص ٢٧ •

١٨٣٧ ه.ب. • لنج - « مذكرات في وصف قسم من دجلة بين بغداد وسامرا » •
وهي مذكرات مساحية • مجلة الجمعية الجغرافية الملكية ، المجلد ٩ ،

ص ٤٧١ ، وهناك معلومات أخرى عن الموضوع فى مذكرات جمعية

بومبي الجغرافية ، أيلول ١٨٤١ - مايس ١٨٤٤ (١٨٩١) •

١٨٣٨ القس هـ • ساوثگيت - « قصة جولة فى أرمينية وكردستان وايران

وبين النهرين » (لندن ١٨٤٠) ، الجزء الثانى فقط ، وفيه صفة

ايران - فخانقين - فبغداد - فكفري - فكر كوك - فالموصل -

فماردين • والمؤلف من المبشرين •

١٨٣٩ الدكتور أ. • گرات « النسطوريون » (لندن ١٨٤١) ، والكتاب طيب

مبشر ، يكتب فى صفة ماردين - فالموصل - فققرة - فالعمادية •

طريف •

١٨٤٠ - ٥١ هـ • لايارد - « المغامرات الأولى فى ايران وسوسيانا وبابل »

(لندن ١٨٩٤) • كان مع متفورد فى سفرته الى بغداد ، والكتابة عن

بلاد البختيارين وعربستان ، وعن البصرة الى بغداد ، وعن دجلة

شمالاً وجنوباً ولورستان والموصل ، والكتاب طريف الا ان أهميته

التاريخية قليلة •

ثم « نينوى وآثارها » (لندن ١٨٩١) •

و « نينوى وبابل » (لندن ١٨٥٣) •

١٨٤٠ ي. • ل. • متفورد - « سفرة برية من انكلترا الى سيلان قبل أربعين

سنة » (لندن ١٨٨٤) وفيه كتابة فى ذكر الجزيرة - فماردين -

فالموصل - فبغداد - فالحلة - فخانقين - فايران •

١٨٤٢ - ٤٣ القس ج. • ب. • فليشر - « خواطر عن نينوى » (لندن ١٨٥٠) ،

من المبشرين ، كتب عن ديار بكر - فالموصل والى ديار بكر ثانية •

١٨٤٨ - ٥٥ الكوماندر فيلكس جونز - تقيدات مختلفة فى مجلة جمعية بومبي

الجغرافية ، المجلد ٩ و ١٠ و ١١ (١٨٤٩ الى ١٨٥٦) • غير تاريخية •

١٨٤٩ - ٥٠ و. • لوفنس - « رحلات وتنقيبات فى بلاد الكلدان وسوسة »

(لندن ١٨٥٧) • وهذا عضو من أعضاء اللجنة لتحديد الحدود سنة

١٨٤٩ • والكتابة فى وصف الموصل - فبغداد - فالفرات الاوسط -

فالبصرة - فعربستان •

- ١٨٥٠ الملازم ف. والبول - « النصيرية أو (الحشاشون) مع سياحات الى الشرق البعيد » (لندن ١٨٥١) • الجزء الاول عن ديار بكر والموصل ،
- ١٨٧٨ الليدي آن بلنت « قبائل الفرات البدوية » (لندن ١٨٧٩) ، ثم « زيارة نجد » (لندن ١٨٨١) • وهذا بحث عن شؤون بادية الشام ، وملاحظات دقيقة •
- ١٨٧٨ ج. • گيري - « في ترقية الآسيوية » (لندن ١٨٧٨) ، والكاتب صحفي ، كتب في وصف البصرة - فالموصل - فأسية الضغرى • سطحي •
- ١٨٨٥ هـ • بينديه - « في كردستان وبين النهرين وايران » (باريس ١٨٨٧) ، عن كردستان والموصل وبغداد وايران • بارد غير ملذ •
- ١٨٩٢ هـ • س. • كاوير - « في بلا العرب الآسيوية » (لندن ١٨٩٤) ، والكاتب سائح ، كتب عن الفرات - فبغداد فالبصرة •
- ١٨٩٥ ج. • د. • پترز - « نيور ، أو اريادات ومغامرات في الفرات (نيويورك ١٨٩٧) •
- ١٨٩٩ - ١٩٠٦ السرم • سايكس « سفرة في ولايات خمس تركية » (لندن ١٩٠٠) وهو في الفرات الاعلى والموصل وكردستان الوسطى • ثم « ارث الخلفاء الاخير » (لندن ١٩١٥) وهو في الجزيرة الشمالية والموصل وكردستان • و « دار الاسلام » (لندن ١٩٠٤) عن الفرات والموصل وأواسط كردستان •
- ١٩٠٨ - ٩ • ي. • ب. • سون - « سفرة متكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان » (لندن ١٩١٢) •
- ١٩٠٩ المس بيل - من مراد الى مراد - « امورات الى امورات » (لندن ١٩١١) وهو كتاب آثاري ووصفي •
- ١٩١٠ د. • فريزر - « ايران وتركية في ثورة » (ادنبرغ ١٩١٠) • اسلوب صحفي •
- ١٩١٣ - ١٤ • ج. • ي. • هبرد - « من الخليج الى ارارات » (أدنبرغ ١٩١٦) •

سجلات شركة الهند الشرقية

ان مجموعات الاخبار التي رجعنا اليها في هذا الكتاب هي : « الخلاصة »

وفيه معلومات تختص بعلاقات شركة الهند الشرقية الاولى بالبلاد العربية الخاضعة للتركية . وهذه جمعت من دون أن يذكر عليها أي اسم وطبعت في ١٨٧٤ في « مطبعة دائرة الشؤون الخارجية » في كلكتا . وهي تحتوي على فهرست للاعلام وعلى الخلاصة نفسها (ص ١ - ١٣٧) وعلى ملاحق خمسة . والمعلومات الحقيقية المطابقة للواقع التي يمكن أن تستخرج من مراسلات المقيمين والوكلاء في البصرة (وأخيراً في بغداد) هي قليلة ، لكنها كثيرة التنوير والصحة .
ثم ان بعض الرسائل المدرجة في « خلاصة في الشؤون العربية والتركية » لكتابها الهندي ج ١٠ . سالدانها (سيملا ١٩٠٦) مهمة في هذا الشأن .

التواريخ العامة للبلاد المجاورة

وهذه تكون مصدراً من مصادر تاريخنا هذا على جانب كبير من الاهمية . فقد كان العراق منفصلاً عن ايران وتركية بحدود غير دقيقة ومرتبطةً بهما بالتعامل الدائم ، كما ان تركية التي نعدها هنا « بلاداً مجاورة » لم تكن جارةً فحسب بل كانت كلا كبيراً ليس العراق الا جزءاً منه .

تواريخ تركية - ليس في هذه التواريخ ما يمكن أن يستند اليه تاريخنا هذا ، بوجه عام ، الا شيئاً يسيراً ، نستثني من ذلك ما كتبه المؤرخون الرسميون الاتراك . ومن مثل هؤلاء ممن رجعنا اليهم نعيماً (١٥٩٢ - ١٦٢٩) ، وراشد (١٦٦٠ - ١٧٢١) وما كتبه چلبى زاده مصطفى عاصم أفندي تكملةً له (١٧٢٢ - ٢٨) ، وصبحي (١٧٣٠ - ٤٣) وعسزي (١٧٤٤ - ٥٠) ، وواصف (١٧٥٠ - ٧٤) ، وشانيزاده (١٨٠٥ - ٢٠) . والحوادث في هذه المراجع مسرودة بحسب ترتيب الوقائع وهي مفهومة بصورة جيدة . اما المؤرخون الاتراك الاصليون الآخرون الذين رجعنا اليهم عن السلطان سليمان نفسه فهم : فردي وپشاوي وجلال زاده ، وذلك لتاريخ المدة نفسها . وكذلك رجعنا الى نوري وقره چلبى وعبدالعزيز فيما يختص بحملات السلطان مراد .

ان هذه المراجع (ومراجع أخرى غيرها لم يتوصل اليها المؤلف) تؤلف مصدراً عظيم الفائدة لتاريخ المدد التي كان يزج فيها العراق في حالة تضطر المؤرخين الى تدوين وقائعه . اما عن الحقب الاعتيادية وما فيها من علاقات بين مختلف الولايات واستانبول فان هذه المراجع لا قيمة لها ، وهي نادراً ما تذكر

شيئاً عن العراق في مثل هذه الاحوال . ومن المؤرخين الانراك المتأخرين جودت باشا (استانبول ، ستة أجزاء ، ١٣٠٢ للهجرة) ، وهو مهم فيما يختص بتاريخ ١٧٥٠ - ١٨٢٥ لانه استند الى مراجع أصلية قديمة لا يمكن التوصل اليها ، كما كان عنده شيء من الروح التاريخية الحديثة أكثر من الرواة القديمين .

اما مؤرخو تركية من الأوربيين الذين هم كثيرون فان أغلب كتاباتهم عن العراق لا تحتوي الا على اتفه الاخبار وأكثرها تشويشاً . فدراسة كتب نولز وريكو وكاتامير وعدة من الآخرين غيرهم ، فيما يختص بشؤون العراق ، لا يمكن أن يستخرج منها الا صفحة أو بعضها . الا ان الملخصين المتأخرين لتاريخ الشؤون العثمانية مثل كريسي و خليل غانم ودلاجونكيير ولامارتين ولين بول وايبرسلي في إمكانهم أن يجعلوا القارئ الاعتيادي لمؤلفاتهم يضع الشؤون العراقية في صلب التاريخ التركي . كما ان كتاب الرسائل في السنين القلائل الاخيرة مثل جيونز وميلر وليبير يعطون من المعلومات عن المراجع ما يثير في المستطلع البحث والتنقيب . بيد انه يمكننا ان نقول بوجه عام ان دارس التاريخ العراقي يجب أن لا يرجع الى التواريخ الغربية التركية . وليرجع الى الفون هامر وحده - الى جوركا بدرجة أدنى - بصورة دائمة للحصول على مجمل يشتمل على مراجع عظيمة الاهمية ، عن أحوال العراق وشؤونه التاريخية ، من الصعب التوصل اليها من دون مراجعة هذا الجامع المدهش . وقد رجعنا أيضاً الى الطبعة الافرنسية لكتاب ج.ج. ايلير (باريس ١٨٤١ ١٨ جزء) .

تواريخ ايران - ان التواريخ التي رجعنا اليها في هذا الشأن هي كتاب « تاريخ ايران » لمؤلفه السر جون مالكولم (١٨٢٩) وكتاب ر. غواتسن (١٨٨٦) وكتاب السر بيرسي سايكس (الطبعة الثانية ١٩٢١) . وسوف تذكر اشارات الى رسائل هانوي وبريجز وكروسينسكي ودوراند في فصل المراجع التالية من هذا الملحق .

تواريخ بلاد العرب - ان التاريخ العام الوحيد الذي رجع اليه في هذا الكتاب من أجل بلاد العرب هو كتاب د. ك. هو غارث (اكسفورد ١٩٢٢) . وسوف يذكر عن أهم الرسائل في تاريخ العرب في المراجع التالية من الملحق هذا .

رسائل تختص بتاريخ العراق والبلاد المجاورة له

لا بد لنا هنا من ان نذكر المراجع التي رجعنا اليها في هذا التاريخ فقط ، لان المراجع التي تختص بالموضوع بوجه عام والتي لها علاقة به كثيرة بحيث لا يمكن سردها . وسوف نذكرها فيما يلي مرتبة بحسب البلاد التي تبحث عنها او الموضوع الذي لها علاقة به ، وبترتيب الزمن الذي كتبت فيه تقريباً .

العراق

« الحوادث السريانية المختصة بحصار الايرانيين للموصل » وهذه طبعة افرنسية وترجمة قام بها المسيو ه . يونيون لنسخة سريانية خطية وجدت في كنيسة تل قوش (ربما القوش) بالقرب من الموصل . وهي مكتوبة في سنة ١٧٤٦ .

« قصة حصار نادر شاه للموصل » وهي نسخة خطية تركية (ذات رقم ٧٨٦٧ ومدرجة في ص ٢٤٩ من الفهرس) من مجموعة المخطوطات التركية الموجودة في المتحف البريطاني ويظهر ان مؤلفها من رجال الحاج حسين الجليلي ، فقد اهديت اليه الرسالة .

« الفرات ودجلة » للمسيو دانفيل (الجغرافي الاول للملك) باريس ١٧٧٩ وهذه جغرافية صرف وليست مبنية على تدقيق نظر شخصي .

« وصف پاشوية بغداد » وهي رسالة خلو من اسم المؤلف (الا ان المفهوم من اشارات المؤلفين الآخرين انها منسوبة الى المسيو ج . ب . روسو) باريس ١٨٠٩ وهي وان كانت غير مرضية فانها تحتوي على عدة نقاط لم تبق محفوظة في غيرها . وكان كاتبها قنصلاً لفرنسة في البصرة في حدود ١٧٨٠ ، وفي بغداد في ١٧٩٦ - ٩٨ .

« بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان » لمؤلفه محمود بن عثمان الرحبي . وهذه الرسالة في أربعة أجزاء يبحث الجزء الرابع منها عن تاريخ سليمان باشا في البصرة . وهي مخطوطة مرقمة ٣٨٥ ومذكورة في (ص ١٤٧) من فهرس الكتب الشرقية المطبوع في (١٨٤٦) .

« الدرر^١ الفاخرة في أخبار العرب الاواخر » لكتبتها محمد بسام التميني
(قد تكون التميمي) ، وفيها بحث عن قبائل العراق الحديثة جمع للمستتر ربيع
في سنة ١٨١٨ • وهذه مخطوطة مرقمة برقم ٣٤٢ في المجموعة السابقة •

« تقييدات في ذكر المحمرة وعرب كعب » لكتبتها الكولونيل هـ • س •
راولينسن • وهي مطبوعة في مذكرات الجمعية الجغرافية الملكية في الهند
١٨٥٥ - ٥٧ •

« تقييدات في طريق وادي الفرات الى الهند » لندن ١٨٥٧ كتبها و • ب •
اندرو •

« عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد » مؤلفه السيد ابراهيم
فصيح (الحيدري) : وهي قصة وصفية جغرافية تاريخية احصائية نسبية في ذكر
البصرة وبغداد ونجد • وهي مخطوطة عربية اكملت كتابتها في سنة ١٢٥٦ للهجرة
(١٨٣٦) • وأهميتها ، غير العظيمة ، في ذكرها انساب العوائل العراقية الشهيرة
(المؤلف) • وقد طبعته (دار منشورات البصري) في بغداد قبل سنوات بطبعة
غير مؤرخة - المترجم •

« ولاية بغداد » للمسيو شيحا (القاهرة ١٩٠٠) وهو ما كتبه ايطالي اقام
طويلا في العراق ، وفيه فصل تاريخي • وأهم ما فيه ما يذكر عن منتصف القرن
التاسع عشر وأواخره (المؤلف) • ان هذا المؤلف هو حبيب شيحا الذي كان
سورياً عثمانياً لا ايطالياً • فقد درس الفرنسية مدة خمسة عشر عاماً في مدرسة
اللاتين ببغداد ثم تزوج وامتهن التجارة - المترجم •

« تاريخ بغداد في العصر الحديث » للمسيو كليمان هوار (باريس ، لورو ،
١٩٠١) • وهو تلخيص للكتب الثلاثة الشهيرة التي أشرنا اليها أعلاه وهي كتاب
كلشن خلفا ومطالع السعود وكتاب ثابت • ويستوعب بحثه المدة التي من ١٢٥٨ م
الى ١٨٣١ م •

« سيرة مدحت باشا » مؤلفه علي حيدر مدحت (لندن ١٩٠٣) •

(١) نظام السجع يقتضي ان يكون الاسم : « الدر الفاخر في أخبار العرب
«الأواخر» •

توجد في « قائمة المخطوطات العربية » للمستري • غ • براوني من جامعة كمبرج اشارة الى « رسائل مختلفة » (برقم ٥٠١ ص ٣٤٣) تبحث في « الاصطدام بين الانراك والوهايين بالقرب من بغداد في ايلول ١٨٠٩ » •
« تقييدات في أخبار الوهايين » للمسويج • ب • روسو ، وهو كتاب وصفي • مهم •

• « تاريخ الوهايين » للمسوي ل • أ • كورانسيز (باريس ١٨١٠) •
« مذكرات عن البدو والوهايين » للمستريج • ج • بورخارت (لندن ١٨٣١) •

• « تاريخ مختصر للوهايين » للسره • ج • بريجز ، وهو المجلد الثاني من كتابه « وقائع بعثة صاحب الجلالة الى البلاط الايراني » (لندن ١٨٣٤) •
« رحلات في الجزيرة العربية » للمستري س • م • دوتي وهذا كتاب خالد مشهور يبحث عن أحوال بلاد العرب (كمبرج ١٨٨٨) •
« عنوان المجد في تاريخ نجد » مؤلفه عثمان بن عبدالله ومنقحه محمد بن عبدالعزيز المانع النجدي وسليمان الدخيل ، وهو مطبوع في مطبعة الشايندر ببغداد سنة ١٣٢٧ للهجرة (١٩٠٩ م) •

ايران

« تاريخ عالم آراي عباسي » مؤلفه اسكندر بك تركمان (طبع طهران بالحجر سنة ١٣١٤ للهجرة) ، وهو مهم في بحثه عن تاريخ الشاه عباس وعلاقته ببغداد •
« تاريخ ثورة ايران » للأب كروسنسكي (ترجمة الاب دي سيركو ، لندن ، بجزيين ، ١٧٢٨) ، وهو من المراجع الجيدة في استيلاء الافغان ونتائج •
« جهان كشاي نادري » للمرزا مهدي خان سكرتير نادر شاه الاول • وهو وصف كامل لحملات هذا الفاتح على العراق • وقد لخصه وليم جوتز في كتابه « سيرة نادر شاه ملك ايران » (لندن ١٧٧٣) •

• « سلالة القاجاريين » للمستري ه • ج • بريجز (لندن ١٨٣٤) •
« نادر شاه » للمستري ه • م • دوراند (لندن ١٩٠٨) •

« الشرفنامه » ، وتوجد منها عدة طبعات شرقية ونسخ مخطوطة كثيرة - المؤلف . لقد ترجم الشرفنامه هذه الى العربية الملا جميل بندي روثرياني ، وطبعها في بغداد (مطبعة النجاشي ١٩٥٣) بمساعدة من المجمع العلمي العراقي - المترجم .

الخليج العربي :

ان المراجع التالية تبحث في شؤون الأوربيين في الخليج :
ترجمة ج . ستيفن (لندن ، ج ٣ ، ١٨٩٤) لما كتبه مانوئيل فارياكسي سوسا ، وهذا يصل بتاريخ البرتغاليين الى سنة ١٦٤٠ م .

« البرتغاليون في الهند » (لندن ، ج ٢ ، ١٨٩٤) للمستر دينفرد ، « تعاضم السطوة البرتغالية في الهند » للمستر وايتوي (لندن ١٨٩٩) ، « البرتغاليون في بلاد العرب الشرقية » ، للمستر س . ب . مايلز ، « البرتغاليون والترك في المحيط الهندي في القرن السادس عشر » (مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، كانون الثاني ١٩٢١) ، « شروح الفونسودي البوكرك » (جمعية هاكلايت في لندن ، ٤ أجزاء) للمستر و . غ . برج ، « رحلات تكسيرا » ، « بحث جديد عن الهند الشرقية بوأيران ١٦٧٢ - ١٦٨١ (لندن ١٦٨٨) للدكتور فراير ، « رحلات بعض السنين في آسية وأفريقية » (لندن ١٦٣٨) للسرت . هربرت ، « سفارة السرتوماس رو » (لندن ١٨٩٩) ، « تاريخ الاسطول الهندي » (لندن ، جزء ١ ، ١٨٧٧) للمستر س . ر . لو ، « المعامل الانكليزية » (لندن جزء ١ ، ١٩٠٦) ، « وقائع شركة الهند الشرقية » (لندن ٣ مجلدات ، ١٨٠) للمستر ج . بروس .

التحقيقات المحلية

من المستحيل ان يكون المرء مدققاً في هذا المصدر من مصادر التاريخ . وأن المؤلف ليشعر بنفسه بانه استفاد في معلوماته عن أحوال العراق وجغرافيته فوائده جمة خلال اشتغاله مدة تزيد على ثمانين سنوات في أشغال سياسية وأدارية في العراق . وهو مدين في محادثاته التي لا عد لها عن التاريخ القبائلي والاجتماعي والمالي لكثير من اصدقائه العراقيين . وفي كثير من المعلومات المذكورة في الكتاب تؤيد المؤلف شهادة أناس من نسل القبيلة أو الأسرة المقصودة بالبحث ، وذلك مرجع خال من الخطر والمجازفة تاريخياً ، الا انه فريد في بابيه ولا يمكن احلال شيء محله .

الملحق الثاني

أنساب الأسر التالية :

- ١ - أسرة حسن باشا
- ٢ - أسرة الجليليين
- ٣ - أسرة البانانيين
- ٤ - أسرة آل شبيب (السعلونيون)

أد-مرّة حسن باشا

مصطفى باشا

مصطفى بك

حسن باشا = عائشة خانم

علي بك

عبد الرحمن باشا = فاطمة خ

أحمد باشا

قره مصطفى باشا = صفية خانم

محمد باشا = خديجة خانم

سلطان باشا = عادلة خانم

(ابو ليلة)

عائشة خانم

||

(١) أحمد أغا

(٢) عمر باشا

حسن بك

علي بك

الملحق الثالث

ملوك تركية وأيران المتعاصرون

أيران		تركية	
التاريخ	أسم الشاه	اسم السلطان	التاريخ
١٥٠٠	اسماعيل الاول صفوي	سليم الاول	١٥١٢
—	—	سليمان الاول	١٥٢٠
١٥٢٤	طهماسب الاول كذا	سليم الثاني	١٥٦٦
—	—	مراد الثالث	١٥٧٤
١٥٧٦	اسماعيل الثاني كذا	—	—
١٥٧٨	محمد خدا بنده كذا	—	—
—	—	محمود الثالث	١٥٩٥
١٥٨٧	عباس الكبير كذا	أحمد الاول	١٦٠٣
—	—	مصطفى الاول	١٦١٧
—	—	عثمان الثاني *	١٦١٨
—	—	مصطفى الاول (للمرة الثانية)	١٦٢٢
١٦٢٩	صفي كذا	مراد الرابع	١٦٢٣
١٦٤٢	عباس الثاني كذا	ابراهيم	١٦٤٠
١٦٦٧	سليمان كذا	محمد الرابع	١٦٤٨
—	—	سليمان الثاني	١٦٨٧
—	—	أحمد الثاني	١٦٩١
٩٤ ١	حسين كذا	مصطفى الثاني *	١٦٩٥
—	—	أحمد الثالث	١٧٠٣
١٧٢٢	محمود خان أفغاني	—	—
١٧٢٣	أشرف خان من المدعين بالعرش	—	—

× تنازل عن العرش

• نخلع

* قتل

ايران	تركية
التاريخ اسم الشاه	التاريخ اسم السلطان
١٧٣٠ طهماسب الثاني صفوي	١٧٣٠ محمود الاول
١٧٣٦ نادر أفشار	— —
١٧٤٧ عادل أفشار	— —
١٧٤٩ شاه رخ وغيره : فوضى	١٧٥٤ عثمان الثالث
١٧٥٧ كريم خان الوصي الزندي	١٧٥٧ مصطفى الثالث
١٧٧٩ فوضى	١٧٧٣ عبد الحميد الاول
١٧٩ أغا محمد قاجاري	١٧٨٩ سليم الثالث
١٧٩٧ فتح علي قاجاري	١٨٠٧ مصطفى الرابع
— —	١٨٠٨ محمود الثاني
١٨٣٤ محمد قاجاري	١٨٣٩ عبد المجيد
١٨٤٨ ناصر الدين قاجاري	١٨٦١ عبد العزيز
— —	١٨٧٦ مراد الخامس
١٨٩٦ مظفر الدين قاجاري	١٨٧٦ عبد الحميد الثاني
١٩٠٧ محمد علي كذا	١٩٠٨ محمد الخامس

أيضاح المصطلحات

والأسماء الأعجمية

الواردة في الكتاب

بگلربیگی (تركية) بيك البيكات	أغا - (تركية) سيد او موظف من
وهو لقب پاشا من أعلى درجة ولقب حاكم	الدرجة الوسطى (العالية أحياناً) ، وقد
يكون عسكرياً او ملكياً او مستخدماً (في	بيت عظيم الشأن) •
بویوریلدی - (تركية) الوثيقة التي	آق - (تركية) ومعناها أبيض
يصدرها البابا في منح وظيفة أو امتياز •	آيالة - (عربية) أكبر وحدة ادارية
تنظيمات - (عربية) مجموعة	في الامبراطورية التركية •
الاصلاحات والمؤسسات الجديدة التي أدخلها	أيج آغالري - (تركية) أغوات
السلطان عبد الحميد •	الداخل ، وهم أفراد الحاشية في قصر البابا
تفنگچی - (تركية) جندي من حملة	الخاص •
البنادق التابعين لأفواج الجند النظامي	أيج دائرهمسي - (تركية) الدائرة
المحلي •	الداخلية ، أي القسم الخاص من القصر •
تيمار - (ايرانية) اقطاع او التزام	أيلچی - (تركية) رسول أو سفير •
ورائي لا تقل قيمته عن عشرين ألف	باب العرب - (عربية) الموظف
« آفچه » •	العربي في ديوان البابا الذي تراجع القبائل
تيماري - صاحب التيمار الملزم	العربية في البلاد في شؤونها مع الحاكم •
بالخدمة العسكرية في أمره السنجق بگي •	بالوز - (ايطالية) قنصل اوروبي
جيهجي - (تركية) جندي من	في تركية ، وخاصة المقيم البريطاني في
الجنود القديمة (الامبراطورية) المخصصة	يقداد •
بالاسلحة وبعدها المدفعية ومخازن	براطلي - (تركية) فوج الجيوش
الاسلحة •	المشاة النظامية التي تجند محلياً •
خلعة - (عربية) بزة الشرف	بستانجي - (صيغة تركية) جندي
دره بگي - (تركية) صفة للحكام	من جنود السلطان الاهلية التي اندمج
(العشائريين بعضاً) المستقلين في مناطق	أخيراً بالانكشاريين •
داخله اسماً في ولاية من الولايات التركية •	

دفتردار - (تركية) رئيس موظفي
الواردات والخزينة في الولاية •

ديرة - (عربية) منطقة مخصصة
برعي الحيوانات لقبيلة من القبائل •

رئيس افندي - (عربية تركية)
مختصرة من « رئيس الكتاب » ، وهو الوزير
العثماني المختص بالشؤون الخارجية (تحت
الصدر الاعظم) حتى القرن التاسع عشر •

زعامة - (عربية) وحدة اقطاعية
قيمتها من عشرين ألف « آقجة » فما فوق •
زعيم - صاحب الزعامة •

سباهي - (ايرانية) جندي خيال
(١) يقدمه الاقطاعيون لخدمة موقفة ، (٢)
جندي من الجيوش الخيالة النظامية
الامبراطورية •
سراگلیو - تحويل أو تحريف أوربي
لكلمة « سراي » •

سردار - (تركية) القائد العام
سقاء - (عربية) نوع من الجند
مختص بالماء •

سنجق - (تركية) بمعنى علم ،
وهي منطقة يحكمها سنجق بگي بمقام
وحدة اقطاعية ، واصبحت بعد ذلك تعني
وحدة ادارية تابعة للأیالة ويحكمها متصرف •

السنیور الكبير - لقب أوربي للسلطان
صبگان - (ايرانية) تعني أصلاً
مراقب كلاب صيد السلطان ، واصبحت بعد

ذلك تعني صنفاً من الجنود المندمجة
بالانكشارية ، وفي الأخير أصبحت تعني
جنداً نظامياً منحنطاً •

صوباشي - (تركية) كانت يعنى بها
في الأصل موظف لتوزيع الماء وجباية
الواردات ، واصبحت تعني أخيراً ملازم
الجند الذي يقوم بأعمال الشرطة في المدن •
طوبجي - (تركية) كانت تعني في
الاصل جندياً من الجنود غير المحاربة المرتبطة
بالجيهجية ، وأخيراً كانت تطلق على الجند
الخفيف المجدد محلياً •

فرمان - (ايرانية) أرادة ملكية
تصدر من السلطان بتعيين أو بأعطاء شيء •
قائمقام - (عربية) تعني الحاكم ،
(١) وبصورة عامة نائباً عن الموظف الاداري
في كل وظيفة ، (٢) لكن المعنى الخاص انه
حاكم قضاء •

قالباق - (تركية) لباس الرأس
المصنوع من جلد الحيوان الذي يلبسه
الانكشاريون وهو بحجم كبير ، كما يلبسه
سائر الجنود ولكن بحجم أصغر •

قالباقي - فوج الجنود النظامية المحلية
الذين يلبسون القالباق في رؤوسهم •
قبطان پاشا - (من الايطالية) أمير
البحر الأعلى •

قوچي - (تركية) « البواب » ومعنى
ذلك حاجب السلطان او رسوله في مهمة خاصة •

- قبو قولی - (ترکیة) « خادم الباب » ،
وهذه قوة إمبراطورية تعار للخدمة فی
الولايات .
- قزقر أغاسی - (ترکیة) أمين القسم
الخاص (النساء) فی قصر السلطان ، رئيس
الخصيان .
- قضاء - (عربية) وحدة إدارية بین
السنجق (أو اللواء) والناحية .
- كهیة - (ترکیة) تحریف كلمة
كتخذ الأيرانية . وتعني بوجه عام الأمين
والموظف الكبير ، ثم أصبحت تعني الوزير
الأول (لكل شيء) فی حكومة الولاية التي
يحكم فيها باشا من الباشوات .
- كوله - وجمعها « كوله من » (ترکیة)
مملوك ، عبد معتق (من أصل چركسي) .
- كونللی - (ترکیة) نوع خاص من
جند الخيالة الخفيفة .
- كيد يكلی - (ترکیة) صاحب الملك
أو الدرجة بطريقة أقطاعية خاصة ،
وبصورة عامة تعني تابعاً من أتباع السلطان
أو موظفاً من موظفيه .
- لاوند - (ترکیة) جند نصف نظامي
يجند محلياً ، وهو فی العراق مكون فی
الغالب من الأكراد والليرين .
- لواء - (عربية) وحدة إدارية يحكمها
متصرف ، أو وحدة من وحدات الجيش .
- متسلم - (عربية) نائب الحاكم فی
سنجق أو فی أیالة عندما تكون عدة أیالات
تابعة لباشا واحد .
- متصرف - (عربية) حاكم لواء أو سنجق .
- محافظ - (عربية) الضابط الذي
يقود الحامية فی القلعة .
- مصاحب - (عربية) من رجال الحاشية
مهردار - (ترکیة) حامل ختم الباشا
میر آخور - (أيرانية) رئيس الخنية
میر میران - (ايرانية) درجة من
درجات الباشوات تقع تحت درجة الوزير
وبيك السیكات .
- نظامية - أو نظام (عربية) الترتيبات
الجديدة التي أدخلها السلطان محمود
وخاصة فی الناحية العسكرية من الحكومة .
وأخيراً أصبحت تطلق على القوات النظامية
لتفريقها عن قوات الاحتياط .
- والي - (عربية) الحاكم العام فی الولاية .
- ولاية - (عربية) آخر شكل من
أشكال الأیالة .
- ويوضه - (سلاوية) بمعنى حاكم ،
اصطلاح شائع فی الولايات الأوربية وفي
ماردين ، وهو يوازي درجة متسلم .
- هايتة - (ترکیة) قوة الجاندرمة غير
النظامية أو جنود محلية يستخدمها عادة
الحاكم المحلي ويدفع لها الأجور ، وهم غالباً
من العرق الألباني .
- يرماز - (ترکیة) سفیه لا يصلح لشيء .

شعنا يا مولانا

وكان لا بد من ترجمة كتابنا النفيسة اللغة الفرنسية منه . كسنة ثم نترجم الى اللغة العربية
التجارة . ولما الف كتابنا صحفنا انا قبلين والاقول عندكم نسخة خطية
بالفرنسية . و . فحبيب شيئا ما كان يعرف كلمة واحدة من الازليانية فلا اترجم
أولها ، هذه الاوراق الفرنسية .

وحسن ان هذه الترجمة تنفذ بسرعة فتصلح فيشغلني الرديان فيقول
سركم وعباس الغراوية و . سببا الدشور مصطفى ص . او . لكن لا تذهب
المؤرخ لا يحبه فيها اوان نقل معاني الى الان المفضل الوسيط عائد الى بيتا اذ يجب
الكثير الاستاذ . ويعرف شيئا ط . الذي كان شيئا لا يصدق هذه الكتب الغيرة ومن لم
ه . حسن الشكر وادخلنا

الزبان س . ر .
و . ر .

صورة الكتاب الذي بعث به الى المترجم العلامة المرحوم الأب أنستاس
الكرمللي بعد اطلاعه على الطبعة الاولى من ترجمة الكتاب .

فهرست الاعلام

- ۱ -

أبو ريشة ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٩٣ ،

• ٩٥

أبو سمرة ٢٠٢

أبو سعيد ٢٧ ، ٣٠

أبو ليلة (سليمان پاشا) ١٩٧-٢٠٧ ، ٢١١ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ،

أبو يوسف ١١٨ •

أتابك ، الأتابكيون ١٧ ، ٦٤ •

الاتحاد والترقي ٣٧٥ •

الأجود ١٠٣ •

الأحساء ١٦ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،

٢٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ،

• ٣٧٦

أحمد (أبو ريشة) ٥٧

أحمد أغا الخليل ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ •

أحمد أغا (خادم سليمان الكبير) ٢٣٤ ،

٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ •

أحمد أغا (رئيس الانكشاريين) ٢٦٦ ،

• ٢٦٧

أحمد أفندي (الموصل) ٢٧٢

أحمد باشا اعيان ١١

أحمد پاشا بابان ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،

• ٢٢٣ ، ٣٤٥ •

أحمد پاشا (بن حسن پاشا) ٩٩ ، ١٥٩ ،

١٦٣ - ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،

أباطة (الثائر) ٧٠

الأباطة ١٩٨

أباطة حسن ، يراجع حسن أباطة

ابراهيم أغا (متسلم البصرة) ٢٠٥ ، ٢٧٧ •

ابراهيم بابان ١٦٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ •

• ٢٦٩

ابراهيم پاشا (الصدر الأعظم) ٣٦

ابراهيم پاشا (بغداد ١٦٤٦) ١٠٨ ، ١٠٩ •

ابراهيم پاشا الطويل ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤ •

• ١٤٥

ابراهيم پاشا (والي الموصل) ١٢٣

ابراهيم پاشا (بغداد ١٦٨١) ١١٩

ابراهيم پاشا الملي ٢٥٣ ، ٣٤٤ ، ٣٧٢

ابراهيم (بن صفى جد الصفويين) ٣٠

ابراهيم بك (الزبير) ٢٤٤

ابراهيم خان ٢٣

ابن سعود ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧

ابن عباس ١٥٢

ابن هذال ٥٧ ، ٣٦٩

أبو حنيفة ١٥ ، ٣٩ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٥ •

٩٤ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٦٣ ، ١٩٦ •

• ٢٦٥

أبو الخيرات (حسن پاشا) ١٥٨ ، ١٩٤

١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٥٤	١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٥٤
أحمد باشا الجزائر ٢٣٨ أحمد باشا الجليلي ٢٩١ أحمد باشا قيصريه لي ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ أحمد باشا (الملاك) ١٠٩ أحمد باشا (البصرة ١٦٩٤) ١٥٠ أحمد بزرگان ١١٩ أحمد بك (أخو داود باشا) ٢٩٧ ، ٢٩٨ أحمد بك (البصرة) ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٧٢ ٢٨٤ أحمد ، السلطان (جلایر) ٢٨ ، ٢٩ أحمد الثالث ١٦١ ، ١٦٨ أحمد باشا ، الحاج (بغداد ١٦٩٤) ١٢٠ أحمد باشا ، الحاج (بغداد ١٧٤٧) ٢٠٠ السيد أحمد (الجزيرة) ٤١ ، ٥٩ أحمد الصغير (كوچوك) ٨٠ ، ٨٣ أحمد الفقيه ١٠٥ أحمد كلوان ١٠٦ أخا نريك ٢٣٨ ادارة عمان العثمانية ٣٥٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ أدرنة ١٤٥ أدورد كونوك ١٣٠ أذربايجان ٢٨ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ١٨٧ ، ٢٩٣ أربيل ١٥ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٨٧ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ١٨٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٤٣ ، ٣٧٦	١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢٥٤ أحمد باشا الجزائر ٢٣٨ أحمد باشا الجليلي ٢٩١ أحمد باشا قيصريه لي ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ أحمد باشا (الملاك) ١٠٩ أحمد باشا (البصرة ١٦٩٤) ١٥٠ أحمد بزرگان ١١٩ أحمد بك (أخو داود باشا) ٢٩٧ ، ٢٩٨ أحمد بك (البصرة) ١٤٠ ، ١٤١ ، ٢٧٢ ٢٨٤ أحمد ، السلطان (جلایر) ٢٨ ، ٢٩ أحمد الثالث ١٦١ ، ١٦٨ أحمد باشا ، الحاج (بغداد ١٦٩٤) ١٢٠ أحمد باشا ، الحاج (بغداد ١٧٤٧) ٢٠٠ السيد أحمد (الجزيرة) ٤١ ، ٥٩ أحمد الصغير (كوچوك) ٨٠ ، ٨٣ أحمد الفقيه ١٠٥ أحمد كلوان ١٠٦ أخا نريك ٢٣٨ ادارة عمان العثمانية ٣٥٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ أدرنة ١٤٥ أدورد كونوك ١٣٠ أذربايجان ٢٨ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ١٨٧ ، ٢٩٣ أربيل ١٥ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٨٧ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ١٨٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٤٣ ، ٣٧٦
أردبيل ٣٠ ، ٤٩ ، ٨٩ أردلان ، الاردلاييون ١٨ ، ١٩ ، ٣٣ ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ١٩٣ ، ٢١٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ارزنجان ٣١ ارسلان باشا ١٠٩ ارضروم ١١٩ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢٩٣ أرمينية ٣٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ أرمية ٢٠ ، ٤٦ أريوان ٩٣ ، ١٦٩ ، ١٨١ أزمير ١٣٩ ، ٣٦٠ الأسبان ١٢٩ استانبول ٣٠-٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ١٦١-١٧١ ، ١٧٧ - ١٨٠ ، ١٨٧ ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤	أردبيل ٣٠ ، ٤٩ ، ٨٩ أردلان ، الاردلاييون ١٨ ، ١٩ ، ٣٣ ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ١٩٣ ، ٢١٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ارزنجان ٣١ ارسلان باشا ١٠٩ ارضروم ١١٩ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢٩٣ أرمينية ٣٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ أرمية ٢٠ ، ٤٦ أريوان ٩٣ ، ١٦٩ ، ١٨١ أزمير ١٣٩ ، ٣٦٠ الأسبان ١٢٩ استانبول ٣٠-٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ١٦١-١٧١ ، ١٧٧ - ١٨٠ ، ١٨٧ ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤

• ٢٠٦ ، ١٣٩ آشور	٣٠٥ ، ٣٠١ ، ٢٩٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨١
آصف الدولة ٣٧٤	٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١٠ ، ٣٠٨
أصفهان ٣٠ ، ٤٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١١٥	٣٤١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٤
١٦١ ، ١٥١ ، ١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣٢	٣٨٤ ، ٣٨٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٤٣
• ١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢	• ٣٨٩
• ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ أطنة	اسحق الصراف ٣١٦
الاعظمية ١٥ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ٣١٦	أسعد الجليلي ٢٧٢
• ٣٢٥ ، ٣٢٤	اسكندارى ٣٦ ، ٨٦ ، ٩٣
• ٢٩١ أغا محمد (مؤسس القاجارية)	اسكي موصل ٢٦٥
• ٩ أغريق	الاسكندرية ٢٦٥
• ١٣٤ - ١٢٧ أفراسياب (الكبير)	الأسلام ٥ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٩٣
• ١٤٧ - ١٢٦ أفراسياب (الأسرة)	• ٣٨٦ ، ٢٥٥ ، ٢٠٣
أفراسياب (بن حسين أفراسياب) ١٤٥	اسماعيل اغا (السفير) ١١٥
• ٣١٨ ، ٣١١ أفريقية	اسماعيل أغا (الكهية ١٧٧٧) ٢٢٢ ، ٢٢١
• ١٩٦ ، ١٦٧ ، ٩٩ ، ٧٥ أفشار	• ٢٣٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣
• ٨٧ آق شهر	اسماعيل باشا (عقرة) ٣٤٣
• ٣٣ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢٩ ، ١٩ آق قويونلي	اسماعيل باشا (سليمانية) ٣٤٥
• ١٨٩ ابو حمدان	اسماعيل باشا (حاكم مصر السابق) ١٢٠
• ٢٩٠ ابو عيسى	اسماعيل (بن بهرام باشا) ٢٥٠
• ٣٧٣ ، ٣٧٢ ، ٢٣١ ، ١٠٠ ابو محمد	اسماعيل الجليلي ١٩٣
• ٢٨٩ ابو موسى	اسماعيل : الشاه ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩
• ١٥٨ ، ١٠٦ ، ٤٩ ، ١٥ التون كوبري	• ١٦١ ، ٦١
• ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٢٧٩	اسماعيل الصفوي (الشاه الصغير) ٢١٤
• ٣٥٥ الكسندر كاميل	• ٣١١ ، ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٧٤ آسية
• ١٦٤ ، ٤٦ ، ١٦٤ الله ويردي خان	آسية الصفري ٣١ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ١٠٠
• ١٠٣ آل شيب	• ٣٨٤
• ١٦٦ ، ١٦٨	أشرف خان (الأفغاني) ١٦٤ ، ١٦٥
القوش ١٦	

• ۲۳۶ ، ۲۲۹ ، ۲۳۷	الياس پاشا ۸۴
• ۱۲۳ ، ۹۹ ، ۹۷ ، ۵۰ ، ۴۲ ، ۱۲	الأليانس ۳۸۰
• ۲۳۷ ، ۲۰۰ ، ۱۶۱ ، ۱۵۵ ، ۱۲۹	أم العباس ۲۴۹ ، ۲۴۵
• ۳۲۸ ، ۳۱۴ ، ۳۱۱ ، ۳۰۷ ، ۳۰۴	ألمانية ۳۶۷ ، ۳۸۴
• ۳۸۰ ، ۳۵۹ ، ۳۵۸ ، ۳۵۵ ، ۳۳۳	• ۱۰۷ (تركستان) أمام قلي خان
• ۳۹۰ ، ۳۸۷	• ۱۳۲ ، ۱۳۱ (شیراز) أمام قلي خان
• ۱۵	• ۱۳۳
• ۱۵۹ ، ۱۵۵ ، ۹۱ ، ۷۴ ، ۵۳ ، ۱۶	أمير البصرة ۱۲۶
• ۲۵۰ ، ۱۸۱ ، ۱۸۰ ، ۱۷۱ ، ۱۶۰	أمير جمال ۹۰
• ۲۵۴	أمير حسين ۵۴
• ۶۱ ، ۱۸	• ۹۷ ، ۹۴ ، ۹۰
• ۳۱۴	أمين پاشا الجليلي ۱۸۴ ، ۲۰۷ ، ۲۱۱
• ۳۰ ، ۲۹	• ۲۵۱ ، ۲۱۲
• ۳۴۲	• ۱۱۵ ، ۹۴ ، ۸۲ ، ۸۱ ، ۱۶
• ۳۷ ، ۳۶	• ۳۵۳
• ۱۱۱	• ۳۵۵
• ۲۸	• ۳۵۵
• ۳۵۷	• ۳۸۴
• ۴۸ ، ۴۷	• ۶۷ ، ۵۹ ، ۴۵ ، ۴۲ ، ۴۰
• ۱۹۸	• ۱۰۸ ، ۹۴ ، ۹۱ ، ۸۵ ، ۸۲ ، ۶۸
• ۲۰۰	• ۲۰۱ ، ۲۰۰ ، ۱۱۹ ، ۱۱۸ ، ۱۱۴
• ۲۶ ، ۲۳ ، ۱۹ ، ۱۸ ، ۱۰ ، ۹	• ۲۴۵ ، ۲۴۱ ، ۲۲۳ ، ۲۰۸ ، ۲۰۷
• ۵۸ ، ۵۱ ، ۴۵ ، ۳۷ ، ۲۹ ، ۲۷	• ۳۱۲ ، ۳۱۰ ، ۲۸۶ ، ۲۶۷ ، ۲۴۸
• ۷۵ ، ۷۴ ، ۷۰ ، ۶۶ ، ۶۴ ، ۶۳	• ۳۱۳
• ۹۷ ، ۸۵ ، ۸۴ ، ۸۰ ، ۷۹ ، ۷۸	• ۳۵۵ ، ۳۰۷ ، ۱۳۵ ، ۱۳۰ ، ۱۲۹
• ۱۲۴ ، ۱۲۰ ، ۱۱۲ ، ۱۰۶ ، ۹۸	• ۳۵۶
• ۱۳۵ ، ۱۳۱ ، ۱۳۰ ، ۱۲۹ ، ۱۲۸	• ۱۳۹ ، ۱۳۵ ، ۱۳۴ ، ۱۳۱ ، ۱۳۰

• ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٢٩٩ ، ٢٩٧	١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٤٨
• ٣٠٥ ، ١١١ ، ٢٣ ، ١٣ ، ١٢ بابل	١٨٠ ، ١٧٦ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٦٧
• ٩٥ ، ٩٤ الباب الأبيض	١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٧ ، ١٨٢
الباب الشرقي ٨٢	١٩٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ - ٢٢١ ، ٢٢٦
• ٣٤٥ ، ٣٢٢ ، ٢٨٦ (المحلة) باب الشيخ	٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٣٧
باب الطلسم ٩٤ ، ٩٨	٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
باب الظلمات ٩٤ ، ٩٧ ، ٣٢٧	٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٩
الباب العالي ٩٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠	• ٣٨٦ ، ٣٧٦ ، ٣٥٧ ، ٣٣٤
• ٢٢١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٦ ، ١٨١	الایرانیون ٥ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٥
• ٢٧١ ، ٢٦٢ ، ٢٥٧	٦٠ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤
باب العراق ٢١٣	٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦
باب العرب ٣٠٢	٩٩ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤
باب المعظم ٣١٧ ، ٣٢٧	١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩
باب الوسطاني ٩٤	١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦
بادية الشام ٢٠	١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢١٧
بارك ٣١	• ٢٢٧ ، ٢١٩
پاریس ٣٣٧	الأيلخان ، الایلخانیة ، الایلخانیون ٢٦ ،
• ٣٨٦ ، ٣٧٦ ، ٣٥٠ ، ٢٩٤ ، ٦٣ بازيان	• ٢٧
پاسارو قنر ١٦١	أیلدر ١٢٩
پاکو ٣٠	أیلیوت ٣١٤
پالاکوپاس ١٤	أيوان كسرى ١٣ ، ٣٠٦
پالمريستون ٣٥٥	أيوب بك (الملي) ٢٩٩ ، ٣٤٤
پانه ٢٢٠	- ب -
البابوية (القبيلة) ١٧	بابان ، بابانيون ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ،
بایزید الثاني ٢٨ ، ٣٢	١٢٥ ، ١٩٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
• ٢٥١ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٣٦ ، ٣٣ ، ٢٠ بتليس	١٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،
• ٢٤٥ ، ١٥٧ ، ١٤٨ بجلان	

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١١٠ ،
 ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٦ - ١٥٣ ،
 ١٥٦ - ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ،
 ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ - ٢٢٣ ،
 ٢٢٥ - ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ،
 ٣٥٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

البصرة (الباخرة) ٣٥٣

بصوان أوغلو ٢٣٨

بطرس الأكبر ١٦٢

بمقوبة ١٥ ، ٢٩٥ ، ٣٧٦

بغاوند ١٨١

بغداد ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ - ٢٣ ، ٢١ - ٢٣ ، ٤١ ،
 ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ،
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ -
 ٧٩ ، ٨١ - ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ،
 ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

البجديان ١٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٩٤ ، ٢٥٠ ،
 ٣٤٢ ،
 البحر الابيض المتوسط ١٢ ، ٢٣ ، ٣٥٥ ،
 البحرين ١٦ ، ٤٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٢٥٧ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٤ ،
 البختاريون ١٧ ، ٥١ ، ١٦٥ ،
 البدرخان ٣٤٢ ،
 بدرة ١٥١ ، ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٩٣ ، ٣٥٧ ،
 ٣٧٦ ،
 برادوست ٣٤٣ ،
 براك (شيخ بني خالد) ١٤٢ ، ٣٦٤ ،
 براك (حويزة) ١٠٥ ،
 البرتغال ، البرتغاليون ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٢٦ ،
 برغش (بن حمود الثامر) ٢٧٥ ،
 بروسة (بورصة) ٥٢ ، ٣٢٩ ،
 بريدة ٣٧٦ ،
 بريطانية العظمى ٣٣٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٦ ،
 البريطانيون ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،
 بستان پاشا ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 البستانجيون ٦٧ ،
 پشت كوه ١٧ ، ٢١ ،
 بشدر ١٩ ، ١٠٥ ، ٣٣٤ ،
 البصرة ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٠ - ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، بنجوين ١٩ ، ٣٦٦	١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ - ١٨٣ ، ١٨٦ ، بندر عباس (غومبرون) ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢١٥ ،	٢٠٠ - ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، البندقية ١٢ ، ٥٧
٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ - ٢٥٥ ، بنو أسد ١٤٦ ، ٣٧٣	٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، بنو جميل ١٨٩
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، بنو حسن ٣٧٣	٢٧٩ ، ٢٨٠ - ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، بنو خالد ٥٥ ، ١٤٢ ، ٢٣٠ ، ١٣١ ، ٢٥٥ ،
٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ - ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ،	٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، بنو سعيد ١٠٣
٣١٩ - ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، بنو عمير ٢٨٩	٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، بنو كعب ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٣٥٥ - ٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ١٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،	٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،
٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ،	٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩ ، ٣٢٦ ، ٣٦٩ ،
بغداد (الباخرة) ٣٥٣	بنو لام ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
البغيلة ١٤ ، ٢٩٠	١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
يكتاش أغا ٩٧	٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ،
يكتاش خان ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ،	٢٧٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
يكر بك بابان ١٠٦ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ،	بنو مالك ١٠٣ ،
يكر پاشا (الموصل) ٥٥ ، ٩١ ،	البوسفور ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ١٣٧ ،
يكر خان (جزيرة ابن عمر) ٣٤٩	١٦٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٣٧٥ ،
يكنين ٣٥٥	البوسنة ٣٢٩
البلباس ٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ٢٦٨ ،	بوشهر ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٧٢ ،
بلقراد ، معاهدة ٢٠٠	بولات پاشا ١٧٥ ، ١٧٨ ،
البلقان ١٩٦ ، ٣٥٨ ، ٣٨٤ ،	بومسبي ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،
بلوص لنج (باخرة) ٣٨٣	٣١٣ ،

٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٤٩
 ، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٠، ٦٥، ٦٤
 ، ٩٧، ٩٦، ٨٨، ٨٦، ٨٥، ٨٤
 ، ١٢٥، ١١٢، ١٠٦، ١٠١، ٩٩
 ، ١٣٩، ١٣٧، ١٣١، ١٢٧، ١٢٦
 ، ١٨٠، ١٧٦، ١٧٣، ١٦٦، ١٦٠
 ، ١٩٤، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٢، ١٨١
 ، ٢٥١، ٢٣٧، ٢٢٧، ٢١٥، ٢١٠
 ، ٣٠٩، ٣٠٧، ٢٩٩، ٢٩٣، ٢٦١
 ، ٣٣٢، ٣٣١، ٣٢٩، ٣٢٣، ٣١٢
 ، ٣٥٥، ٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٥، ٣٤٢
 ، ٣٦٣، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٥٧، ٣٥٦
 ، ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٨٢، ٣٧٤، ٣٦٤

• ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٧

تريياكي پاشا ٢٠٢، ٢٠١

تفليس ٣٢٩، ٢٨٧، ١٩٨، ١٨١

تقي الدين پاشا ٣٨٣، ٣٦١، ٣٥٩، ٣٤١

تكريت ٢٦٧، ٢٤٣، ١٥

• تلغز ٢٤٢، ٢٦٩، ٢١

التلغراف ٣٧٣، ٣٦٦، ٣٥٧، ٣٥٦، ٢٤

• ٣٨٢

• تميم ٢٨٩، ١٠٢

• «تنظيمات» ٣٤٠، ٣٣٧، ٣٣٦

توفيق (الباهرة) ٣٨٢

التياريون ٣٤٩

بهبهان ١٤١

بهرام پاشا ٢٥٠، ٢١٤، ١٩٤

بهرز ١٧١، ٨٢، ٧٥، ١٥

بيالة پاشا ٥٤

بير بك ٥٨

• بير بودق ٢٩

بيرم پاشا ٩٣

بيرم (العصادية) ٦٠

بيره جك ١٥٢، ٩٣، ٨٧، ٥٦، ٣٦

• ٣٥١

بيسه (نجد) ٢٧٨

بيوشر ٣٥٢

- ت -

التاتار (نقلة البريد) ٣٠٥، ٢٩١

تأثيرنيه ١٣٩، ٩٣

• تاييلور، الميجور ٣١٣

التتر ٩

تبريز ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٤٥

٦١، ٦٨، ٧٩، ٩٨، ١٣٥، ١٦٥

• ٣١٨، ١٦٩

تدمر ١٠٤

• الترامواي ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٥٩

الترکمان ٤٦، ٢٨، ٢١، ٩، ٦، ٥

• ٢٥٢، ٢١٤، ٢١٣، ١٨٣

تركية، ترك، أتراك ٢٣، ١٨، ٦، ٥

٢٥، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤٣، ٤٥، التياريون ٣٤٩

الچركس ٨١ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٧ .

چركس حسن ٨١ ، ٨٥ .

الجزائر (قرب القرنة) ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٧ .

١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٠ .

١٥٢ .

جزيرة ابن عمر ١٦ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ .

٤١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ١٢٤ ، ١٣٩ ، ٢١٣ .

٢١٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٣٤٣ ، ٢٥٤ .

جزيرة العرب ١٠ ، ٢٧ ، ٥٧ ، ١٠٤ .

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٣٣ .

٣٦٢ ، ٣٧٦ .

جشك ١٢٩ ، ١٣٠ .

جصان ١٥١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٣ .

جفلكة ١٥٩ .

الجلالريون ١٨ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٢٩ .

جلبي علي ٨٣ .

جليحه ٢١٧ .

الجميلة (القبيلة) ٢٩٠ .

جنقولة ٤٠ .

جنگوليلي ١١٢ .

جنگيز خان ١٨ ، ٢٦ .

جنوه ١٢ .

جنيد (بن صفى) ٣٠ .

جنيف ٣١٤ .

جواد بك ٣٢٨ .

جوا (گوا) ١٣٤ ، ١٣٥ .

جوا نرود ١٠٦ .

جوزيف أمين ٢٢٩ .

تيمار ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ١٥٢ ، ٣٦٧ .

تيماري بك (الملى) ٣٤٤ .

تيمور (الاردلاني) ٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٦ .

تيمور الأعرج (لك) ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٧٣ .

تيمور پاشا (الملى) ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٤٤ ، ٣٧٢ .

تيمور پاشا (وان) ١٦٨ .

- ث -

ثامر (شيخ المتفك) ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

ثويني العبدالله (المتفك) ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ .

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

- ج -

الحاج جابر (المحيسن) ٢٩٩ .

جاسم الشاوي ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ .

الجاف ١٨ ، ١٠٦ ، ١٥٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥٠ .

چالديران ٣٣ .

جامع قمرية ١٠٨ ، ١١٨ .

جامع النبي يونس ١٢٢ .

جامع الخلفاء ٢٦٥ .

جامع الفضل ٢٦٥ .

جامع القبلانية ٢٦٥ .

الجبارية (الطريقة) ١٨ .

الجيايش ١٤٦ .

الجيل الأسود ٢٣٨ .

جولمرك ٢٠

جون رايت ٣٥٥

جهان شاه ٢٩ ، ٣٠

جهره ٢٥٧ ، ٢٥٩

الجيهه ٦٧ ، ٩٨

چيزني ، الكابتن ٣٥١ ، ٣٥٥

الجيش السادس ٣٧٧

جيفالزاده (الكبير) جيفالا ، سيگالا ٤٤

٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣

جيمس (الباخرة) ١٢٩

- ج -

حائل ٣٦٥

حافظ (بنو لام) ١٠٥

حافظ أحمد ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦

٩٢ ، ١٣٨

حافظ پاشا (سنجار) ٣٤٤

حالت محمد سعيد (رئيس افندي) ٢٧٣

٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣

الحجاز ١٠٣ ، ٢٤١ ، ٣٤١

حديثه ٣٥١

حرير ١٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٥٧ ، ١٩٤

٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٣٤٣

حسكة ١٤ ، ٨٠ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٩٠

٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢٩٠

حسن آباد ٨٨ ، ٨٩

حسن أباطه ١١٥

حسن (أردلان) ١٨

حسن أغا (كهية البصرة) ١٥٠

حسن بابان ٢٤٩

حسن پاشا (الكبير) ١٢٠ ، ١٥٤ ، ١٦٣

١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٩

٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٣٠٨

حسن پاشا (كركوك ثم بغداد) ٢٢٢

٢٢٣ ، ٢٤٨

حسن پاشا (بغداد ١٥٩٥) ٥١

حسن پاشا الصغير ٩٧ ، ١٠٧

حسن پاشا (البصرة ١٦٩٥) ١٥١

حسن پاشا (البصرة ١٧٠٦) ١٥٧

حسن پاشا (بغداد ١٦٨٩) ١١٩ ، ١٢٠

حسن پاشا (العمادية ١٦٠٠) ٥٤ ، ٦٠

حسن پاشا (كهية ابي ليلة) ٢١٩ ، ٢٢٠

الحاج حسن پاشا (بغداد ١٨٩٢) ٣٦١

حسن بك (الحلة) ١١

حسن جلاير ٢٧ ، ٢٨

حسن الخيون (بنو اسد) ٣٧٣

حسن كويريلي (الصدر الاعظم) ١٢٠

حسنكيف ٣٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٤٣

الحسين (الامام) ٣٩ ، ٥٠ ، ١٦٩ ، ٢٩٢

حسين (جلاير) ٢٨

حسين أغا (سفير ١٦٥٥) ١١٥

حسين (بحدينان) ٦٠

حسين جمال (البصرة) ١٥٠

حسين پاشا (بغداد ١٦٧١) ١٤٩

حسين پاشا (افرا سياب) ١٣٩ - ١٤٧	١٥٣
١٥٢ ، ٢٠٢ ، ٣٦٢	حمام علي ١٥
حسين پاشا (البصرة ١٦٨٣) ١٤٩	حمدان (القبيلة) ٢٧٠
حسين پاشا (محافظ الموصل) ٥٤	حمد الحمود (الخزاعل) ٢٤٢ ، ٢٤٤
الحاج حسين پاشا الجليلي ١٧٠ ، ١٨٣ -	حمدى بك بابان ١١
٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٥١ ، ٢٧٢	حميرين (جبل) ١٤ ، ١٥ ، ٩٤ ، ٢٤٢
حسين پاشا (المجنون) ١٠٨	حمزة مرزة ٤٦
حسين خان (بزرگ) ٦٤	حمود (الخزاعل) ٢٠٩
حسين ، الشاه ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦١	حمود التامر (المنتفك) ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
حسين (بن محمد علي مرزا) ٢٩٦	٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
الحسينية (النهر) ٣٩	حمورابي ٩
حكمت سليمان ٢٩٦	حميد خان ١١
حلب ١٦ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧	الحميد (القبيلة) ١٥٦
٦٢ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣	الحويجة ٢٤٢
٩٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٢٢ ، ١٣٩	الحويزة ١٧ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩
١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢٥٣	١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣
٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٣١ ، ٣٥٥	١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢
٣٥٨	١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٦
حليجة ٣٧٦	٢٠٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢
الحلة ١٣ ، ١٤ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٥٣	الحي ١٤ ، ٣٧٦ ، ٣٥٠
٦٢ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩١	حيدر پاشا ٣٨٤
١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧١	- خ -
١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦١	الخابور ٢٤٣ ، ٢٤٤
٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨	خالد أغا (الكهية) ٢٤٥ ، ٢٧٠ ، ٣١٧
٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٦	خالد سليمان ٢٩٦
٣٥١ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٦	خالد بابسان ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
حمادي أغا ٢٨	٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥

٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٣٥٦ ،
٣٥٧ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ،

خليفة (الباهرة) ٣٧٢

خليل پاشا (الصدر الاعظم) ٨٦

خليل پاشا (ديار بكر) ٩٠ ، ٩١

خليل پاشا (البصرة) ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦

الخميسية ٣٧١ ، ٣٧٣

خوزستان ١٧

- ٥ -

دار السلام ٢٦ ، ٣٨

داغستان ٣٨ ، ١٦٢ ، ١٨١

الذانوب ٣٥٨ ، ٣٧٥

الداودة (القبيلة) ١٨

داود (أفندي) پاشا ٩٩ ، ١٥٥ ، ٢٦٥ ،

٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ -

٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٥ - ٣٣١ ، ٣٣٩ ،

٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،

داود بك الحيدري ١١

داود خان ١٥٢

دجلة ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٧ ،

٤٧ ، ٤٩ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ،

٩٣ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٩ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧١ ،

١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،

الخالص ١٥ ، ٢١ ، ٩٤ ، ١٨٠ ، ٢٤١ ،
٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٧٤ ،

خاقين ١٥ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٩٥ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ،

٢٤٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٥٧ ،

٣٧٦ ، ٣٨٠ ،

خان احمد الاردلاني ٦٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢٥ ،

خان آزاد ١١٨

خان بني سعد ٢٩٥

خان جغان ٥١

خانه پاشا بابان ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٣ ،

خان النقطة (الموصل) ١٥٥

خديجة خانم (ابنة سليمان الكبير) ١٥٩ ،

٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

خراسان ١٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٩٦ ،

خرق (جزيرة) ٢٢٦ ،

الخزاعل ١٥٢ ، ١٥٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ،

٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،

٣٥٢ ،

خسرو پاشا ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،

خسرو خان (بانه) ٢٢٠ ،

خطي شريف كولهخانه ٣٣٦

خطي همايون ٣٣٧

الخلفاء ، يراجع جامع الخلفاء

الخليج العربي ١٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٤٠ ،

دواس الليل ٢٠٢	٢٨٢ ، ٢٥٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢١٠
الدروق ١٢٨ ، ١٤٧	٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥١
دولاب ٩٣	٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
دولة (قطر) ٣٦٣	٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
الدغارة ٣٧٢	٣٨٣
دوغاما ١٢	١١٥ ، ٧١ ، ٢١١ ، ٢٤٢
دويريح ٣٧٦	٢٩٥
دهوك ١٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٤ ، ٢٥٠	دراج ، السيد ٧٩
٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦	الدريند ٢٧٩ ، ٢٨٠
ديار بكر ١٦ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١	الدرعية (نجد) ٢٥٩ ، ٢٥٥
٣٣ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٤	الدرك ٢٥٧
٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١	درگزین ٨٩
٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٧	درنة ١٩ ، ١٢٤ ، ١٧٠ ، ٢١٤ ، ٢١٩
١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤	٢٤٥
١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٥	الدروز ٢٣٨
١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٩	درويش أنغا (قائمقام) ٣٢٨
١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٣	درويش پاشا ٧٩ ، ٩٣
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣	درويش محمد ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٣٨
٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣٣٠	درويش محمد (عضو لجنة الحدود)
٣٣٦ ، ٢٤٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤	٣٣٥
دياز ١٢	دسقول ٥١
ديالى ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٦	دلتبان مصطفى پاشا ١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣
٨٩ ، ١٠٦ ، ١٧١ ، ٢١٦ ، ٢٣٥	دلي حسين ٥١ ، ٥٢
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٧١	دلي عباس (البلدة) ١٥ ، ٢١ ، ٢٦٥
دي البوكر ٥٨	الدليم ٢٤٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣
دي بيرثري ، الكونت ٣٥٤	دمشق ٥١ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٥
دير ١٩	٣٥٥ ، ٣٥٨

الدير ١٣ ، ١٢٨ ، ١٥٠ •

دير الزور ١٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ •

ديقو ، المسيو ٣١٣ ، ٣٢٥ •

ديلاوير ٥٣ ، ١٠٩ •

الديوانية ١٤ ، ٣٧٦ •

- ذ -

ذوب (شيخ الخزاغل) ٢٩٩ •

ذو الفقار باشا ٣٤ ، ٣٥ •

- ج -

رئيس افندي ٢٧٣

رأس التنورة ٣٦٣

رأس العين ٢٧١

راشد المغامس ٤٠ ، ٤٧

الرافع ١٥٦

وانية ٦١ ، ١٢٤ ، ٢١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٧٦ •

داولف ٥٠

رباد باشا ١٢٤

الرزازة ٣٧٦

ربيعة (القبيلة) ١٧ ، ٥٢ ، ١٠٥ ، ١٩٠ •

٢٤١ ، ٢٧٠ •

رجب باشا ٢٠٠

روخ ، الشاه ٨٩

الرديف ٣٧٧

رديف باشا ٣٦١

رستم خان ٨٩ ، ٩١

رسول (العمادية) ٣٤٣

الرشيد ٢٥

رشيد باشا ، ٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ •

رشوان زادة خليل باشا ١٢٣ •

الرصافة (باخرة) ٣٥٣ ، ٣٨٢ •

الرقصة ٣٤ ، ٧٦ ، ١٢٣ ، ١٤٣ ، ١٤٥ •

٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٨ •

الرماحية ١٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٦٣ ، ١٤٣ •

١٥١ ، ١٥٢ •

الرماري ١٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ •

رمضان أغا (حاجب الباشا) ١٤١ ، ٣١٧ •

رواندوز ١٨ ، ١٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٩٣ •

٢١٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٠٠ ، ٣٤٢ •

٣٤٤ ، ٣٧٦ •

الروز (نهر) ١٥

الروس ١٦٢ ، ٣١٥ ، ٣٦٥ ، ٣٨٤ •

روسية ، الروسية ١٨١ ، ٢٥٢ ، ٣٦٧ •

زوف السليمانية (كربلا) ٣٩ •

الرومان ٦ ، ٩ •

روم ايلي ٨٢ ، ٩٤ ، ١٧٤ •

الرياض ٣٦٥ ، ٣٧٦ •

الريجى ٣٨٥

- ز -

الزاب الصغير ١٥ ، ١٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٩٤ •

١٠٦ ، ١٥٥ ، ١٨٣ ، ٣٤٤ •

الزاب الكبير ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٨٧ •

٩٤ ، ٢٥١ ، ٢٢٤ •

ساقالتونان ٤١	زاخو ١٦ ، ١٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٤ ، ٢٥٠ ،
ساقز ١٢٤	• ٣٤٣
سالسترية ٣٥٨	الزاغروز ١٧ ، ١٦٥ ، ٣٧٦ •
سامراء ١٤ ، ١٥ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤	زاهد افندي ١١
• ٣٨٦	زبيد ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ،
السياهيون ٤٠ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٢ ، ٩٧	٢٤١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ،
• ٣٠٧	• ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤٩ ، ٣٧١ •
ستراتفورد كانيغ ، السر ٣٥٥ •	زبيدة ١٥٨
سرجون ٢٥	الزبير ١٣ ، ٥٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ،
• سرخاب ٦٢ ، ٦٣ •	٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ،
سردار أكرم - يراجع عمر پاشا •	• ٢٧٧ ، ٣٢٦ ، ٣٧٦ •
• سري پاشا (الكريتي) ٣٦١ •	الزگرت ٢٨٢ ، ٣٤٦ •
سعد بن فياض ٩١	زكي خان ٢٣٤
سعدة (قبيلة) ١٥٦	• زكية ، قلعة ١٣٨ •
سعد الله أغا ٢٦٧	زنجان ٣٦
• سعد الله پاشا الجليلي ٢٧٥ ، ٢٩١ •	الزند (قبيلة وسلاطة) ٢١٤ ، ٢٩١ •
• سعدون (أحد الممالك) ٣٢٨ •	زنگباد ١٥ ، ١٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ •
• سعدون ١٩٠ ، ١٩١ •	الزوكنة (القبيلة) ١٨ ، ١٠٦ •
• سعود ٢٥٩ ، ٣٦٣ •	زوبع (القبيلة) ٢٩٠
• سعيد پاشا (العمادية) ٣٤٣ •	زهاو ١٨ ، ١٢٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢١٦ ،
• سعيد پاشا (بن سليمان الكبير) ٢٧٤	• ٢٢٠ ، ٢٤٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ •
• ٢٨١ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٨ •	• ٣٦٦
• السيد سعيد (مسقط) ٢٩٨ •	زينب بك ٦٠
• الشيخ سعيد (السليمانية) ٣٧٢ •	زينل خان ٨٢ ، ٨٨ •
• السقائون ٦٧ •	زيني پاشا ١٢٣
• سكيس (سفينة بريطانية) ٢٢٩ •	- س -
السلجوقيون ١٩	الساسانيون ١٣

سليمان پاشا الصغير ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢-٢٧٥،

٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٤، ٣٠٧،

سليمان بابان (بن ابراهيم) ٢٨٠، ٣٨٣،

٢٨٤،

سليمان پاشا الجليلي ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٢،

سليمان پاشا (بن خالد بابان) ١٩٣، ٢١٦،

سليمان بك (بن ماوند) ١٠٥، ١٠٦،

١٥٧،

سليمان خان (اردلان) ١٢٥،

سليمان شاه ١٦٠،

الشيخ سليمان (كعب) ٢٠٥، ٢٠٨،

٢٠٩،

السلطان سليمان القانوني ١٠، ٢٦، ٣٥،

٣٨، ٣٩، ٤١، ٥٤، ٥٩، ٦٠،

٦١، ٦٢، ٧٠، ٨٨، ٩٦، ٩٩،

١٠٤، ٣٨٧،

سليمان غنام ٣٢٢،

الحاج سليمان الشاوي ٢١٠، ٢١١، ٢٢٢،

٢٣٥، ٢٤٣ - ٢٥٤، ٢٦٢،

السليمانية ٣٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٨٠، ٢٨١،

٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥،

٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٨، ٣٤٤، ٣٤٥،

٣٧٢، ٣٧٦،

السماعة ١٤، ٨٠، ١٠٣، ١٠٧، ١٥١،

١٥٢، ٢٥٧، ٢٧٧، ٣٧٦،

سنيكة ١٥،

سنان پاشا جيغالزادة ٥١، ٥٤،

السيد سلطان (مسقط) ٢٤٧،

سلطان الشاوي ٢١٠، ٢١١،

سلوقية ٣٥٥،

سلوقس ٢٥، ٢٥،

سلمان (ابن أخي أحمد الصغير) ٨٠،

سلمان، شيخ (الخزاعل) ١٥٦،

السيد سلمان النقيب ٣٦١،

سليم أغا ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٤،

سليم بابان ١٩٦، ٢٠٣، ٢١٥،

سليم الثاني ٥٠، ١٩٧،

سليم الثالث ٣٠٩، ٣١٠،

السلطان سليم ٣٢، ٣٣، ٣٨، ٤٢، ٥٨،

٦٠، ١٢٢، ٣١٠،

سليم سري ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،

سليمان أغا (الميرآخور) ٢٩٨، ٣١٦،

سليمان (البحدنيان ١٥٥٠) ٦٠،

الحاج سليمان (البصرة ١٧٦٩) ٢٢٥،

سليمان پاشا بابان ١٩٣، ٢١٥، ٢٥٠،

سليمان پاشا (أول وال في بغداد) ٤٠،

٤٧،

سليمان پاشا ابو ليلة ١٧٢، ١٨٩، ١٩١،

سليمان پاشا الكبير ١٥٤، ٢٠٩، ٢٢٥-٢٥٤،

٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٨٧،

٢٨٩، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٧،

٣٧٢،

سليمان پاشا (حارب الصوباشي) ٧٤،

- ش -

سنان پاشا (الموصل) ٥٤ ، ٥١ .

سنجار ٢١ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، شاطر حسين پاشا ١٠٩ .

١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، شامخاه ٣٠ .

٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، الشامية ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٦ .

٢٩١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ . ٢٩٠ ، ٣٥٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ .

سنة ٦٢ ، ٦٤ ، ١٠٥ ، ١٦٣ ، ١٨٦ ، شاه ويردي خان ٦٤ .

١٨٧ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٨٠ ، شبلي پاشا ٣٤١ .

« السنة » ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، شيب (شيخ قشعم) ١٥٦ .

٢٨٠ ، ٢١٩ ، سوج بولاق ١٩٠ .

١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، سورة ١٣٠ .

١٩٠ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، سوران ١٩٠ .

٢٢٣ ، ١٩٤ ، شركة لنج ٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ .

شركة الهند الشرقية ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، سورجي ٣٤٣ .

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٦ ، سورية ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ .

٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٣٠٥ ، ٣٥١ ، ١٠٠ ، ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ .

٣٨٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٣٩ ، سوق الشيوخ ٢٤٤ ، ٢٧٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ .

١٤٤ ، سولاق حسين ١٤٤ .

٢٩٩ ، ١٣١ ، شستر ٢٩٩ .

٣٨ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ١٧ ، ١٣ ، شط العرب ١٣ .

١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٠٣ ، ٥٩ ، ٥٨ ، سويب ٢٢٧ .

٢١٧ ، ٢٠٢ ، ١٤٩ ، ١٤٤ ، ١٣٦ ، سيتفاتورك ٥٢ .

٣٦٣ ، ٣٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، سهيل بك ٦٣ .

٣٧٧ ، ٣٦٩ ، سيدي علي ، الأيرال ٤٨ .

١٠٦ ، ١٧ ، سيروان ١٧ .

٣٧٦ ، الشطرة ٣٧٦ ، سيواس ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٤٢ .

٢٩٠ ، ٢٧٧ ، ٢٦٠ ، شفائة ٢٦٠ .

٢٨٩ ، ٢٨٢ ، الشلح الشلال ٢٨٩ ، سي هورس (سفينة) ٢٢٩ .

٣٥٢ ، سيلبي ٣٥٢ .

• الشيعة ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٨ ، ١٢٠ ، ٢١٤	• الحاج شكري بك ١١
- ص -	• ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٢٤٢
• انصاف ٢١ ، ١٣٢	• ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠
• صادق أفندي ٣١٥	• ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
• صادق (بن سليمان الكبير) ٢٨٩ ، ٢٩٠	• ٣٧٣ ، ٣٨٦
• صادق خان ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥	• شمر جريا ٢٨٩ ، ٢٩٩
• صاري خان ٧٩ ، ٨٢	• شمر طوقه ٢٤٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ، ٣٢٢
• السيد صالح (نائر) ٢٩١	• ٣٧١
• صالح پاشا (الصدر الأعظم) ١٠٨	• الشمرت ٢٨٢ ، ٣٤٦
• صالح بك ٢٨٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠	• شهربازار ٦١ ، ١٠٥
• الصدرية ٣١٩	• شهربان ١٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ٢٧٩
• صفوك الفارس ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٨	• ٢٩٦
• ٣٢٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩	• شهرزور ١٨ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
• الصفويون ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣	• ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠
• ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٦١ ، ١٠١ ، ١٦١	• ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤
• ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢١٤	• ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
• ٣٨٦	• ١٦٤ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢١٦
• الشاه صفي ٨٦ ، ٢٩١ ، ١٢٥ ، ١٦٠	• ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٤٠ ، ٢٤٦
• الشيخ صفي ٣٠	• ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
• صفي قلبي خان ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦	• ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٤٤
• ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢	• ٣٧٦
• صفية (بنت حسن پاشا) ١٥٩	• الشيك ٢٥٨ ، ٢٥٩
• الصقلاوية ٣٨٢ ، ٣٨٣	• الشيخانية ١٨
• الصقور ٢٩٠	• شيراز ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٦٨
• الصغبانيون ٦٧	• ١٦٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١
• الصوباشي ٧٠ - ٧٩ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٧	• ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
	• شيروان (قبائل) ٣٤٣

• ٢٠٨

• الصيرة ١٤

• صيهور ٣٧٣

- ض -

• الضفير ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢

• الضابطية ٣٤١ ، ٣٤٨

- ط -

• الطائف ٣٦٠

• الطاعون (بغداد والبصرة وغيرها) ١١٩ ،

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٩١ ،

٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ،

٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ،

٣١٩ - ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٨٠ ،

• طاق كسرى ٣٥٩

• الطالبانية ١٨

• الحاج طالب كهية ٢٩٦ ، ٢٩٨

• السيد طالب پاشا ٣٦٤

• طاهر آغا ٢٧٤ ، ٢٧٥

• طاووق ١٥ ، ١٧٨ ، ٢٩٤

• طرابزون ١٥٩ ، ١٦٤ ، ٢٣٨

• طرابلس ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥

• الطرف (الأحساء) ٢٥٧

• طويال عثمان ١٧١ ، ١٧٣ - ١٨١

• طويال محمد (بغداد) ٢٠١

• طويال يوسف پاشا ١٢٣

الطوبجية ٦٧

طوروس ٣٣

• طوزخرماتو ١٥ ، ٢٨٤ ، ٣١٥

• طوسون (بن محمد علي) ٢٧٨

• طوقماقلو (قرية) ٢٨٤

• طومسن ٣٥٥

• طويريج ١٤

• طهران ٢٩٢

• طهماسب (الشاه) ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٦ ،

• ٥٩ ، ٦٣

• طهماسب (بن حسين شاه) ١٦١ ، ١٦٢ ،

• ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

• طيار محمد ٨٢ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٦ ،

• طيبة ٥٧

• طي (القبيلة) ٢١٣

- ظ -

• ظلم ٦٢

- ع -

• عائشة خانم ١٥٨

• عادلّة خانم ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

• ٢١٥

• عارف احمد پاشا ١٦٥

• عاكف پاشا (بغداد) ٣٦١

• عامر بن صعصعه ١٠٣

• عانه ٢٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ١٠٤ ، ٣٧١ ،

• ٣٧٦

• عباس (الشاه) ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ،

- عبدالرحمن پاشا (بغداد) ١٤٩ ، ٣٦١ •
- عبدالرحمن پاشا (كركوك) ١٥٩ ، ١٦٣ •
- ١٦٤ •
- عبدالرحمن بابان ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦٩ •
- ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ •
- ٢٨١ ، ٣٤٤ •
- عبدالعزيز (متسلم البصرة) ٣٣٩ •
- عبدالعزيز بن سعود ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧٦ •
- عبدالعزيز السلطان ٣٤١ ، ٣٦٠ ، ٣٧٤ •
- عبدالعزيز الشاوي ٢٦٠ •
- الشيخ عبدعلي الرحمة (شاعر) ١٣٣ •
- عبدالغني جميل (المفتي) ٣٣٩ •
- عبدالقادر الكيلاني ٣٩ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٧٩ •
- ٩٨ ، ١١٠ ، ٢٨٧ •
- عبدالكريم (شمر) ٣٧٢ •
- عبدالكريم نادر (عدي) ٣٤٠ •
- عبدالمجيد السلطان ٣٢٩ ، ٣٣٦ •
- عبدالمجيد اليعقوبي ١١ •
- عدي پاشا ٢١٩ ، ٣٥٠ •
- العبيد (القبيلة) ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ •
- ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ •
- ٢٨٢ ، ٣٤٩ •
- عثمان ، السلطان ١٢٥ •
- عثمان پاشا ١٦٨ •
- عثمان پاشا (حلب) ٦٢ ، ٦٣ •
- عثمان بابان ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ •
- عثمان بك (كركوك) •
- ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٢٥ ، ١٣٣ •
- عباس مرزا ١٧٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ •
- عباس الثاني ١١٥ ، ١٦٠ •
- عباس بني عمير ١٥٢ •
- العباسيون ٩ ، ١٥ ، ٢٥ ، ١٣٣ •
- عبدالله أغا (الكهية) ٢١٩ ، ٢٩٧ •
- عبدالله پاشا ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ •
- عبدالله (المتفك) ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ •
- عبدالله بك الشاوي ٢١٠ •
- عبدالله بن فيصل (نجد) ٣٦٣ •
- عبدالله كوبريلي ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ •
- عبدالله بن صباح ٣٣ ، ٣٦٥ •
- عبدالله پاشا بابان ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ •
- ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٤٥ •
- عبدالله بن سعود ٢٧٨ •
- عبدالله پاشا توتونجي ٢٧٣-٢٨٠ ، ٢٨٧ •
- ٣٠٧ •
- عبدالله (الصراف اليهودي) ٢٦٣ •
- عبدالله پاشا الطويل (أوزون) ٢١٨ •
- عبدالله خان (الحويزة) ١٥٧ ، ١٥٨ •
- عبدالباقى الجليلي ٢٥٢ •
- عبدالباقى خان (كرمشاه) ١٦٣ •
- عبدالجليل (الموصل) ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٥١ •
- عبدالحليم قره يازجي ٥١ •
- عبدالحميد (السلطان) ٣٤٤ ، ٣٦٠ •
- ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ •
- عبدالرحمن پاشا ١١٨ •

• ٣٩٠ - ٣٨٠ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧

العرب ٥ ، ٦ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٤٣ ، ٤٤

٥٨ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٢٧

١٢٩ ، ١٣٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢

٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٧٥

• ٣٨٨ ، ٣٨١

عربستان ١٧ ، ٤٨ ، ١٠٢ ، ١٤١ ، ١٤٦

• ٣٦٦ ، ٢٩٨ ، ٢٠٢ ، ١٥١

عرجة ١٤ ، ٨٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢

• ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥

• عزاب ٧٢

• عزير أغا ٣٢٦

• العزير ١٤

• العزيزية ١٤ ، ٣٧٦

• العشار ١٣٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣

• عطا الله أفندي ٣٦١

• العظيم ١٧٤

• عفك ٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٣٤٩

• عقرة ١٩ ، ٦١ ، ١٢٤ ، ٢٥٠ ، ٣٤٣

• ٣٧٦ ، ٣٤٤

• عقيل (القبيلة) ٢٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧

• ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

• ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥

• عكا ٣٣٨

• علي ، الأما م ٣٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٦

• علي (جلایر) ٢٨

• علي (بن صفی جد الصفویین) ٣٠

عثمان العمري (دفتر دار) ١٦٤ ، ٢٠٧

• عثمان الكهية ٢٢٣ ، ٢٤٨

• عجیل السعدون ٢٩٩

• الشيخ عجیل ٣٢٧

• الحاج عذار ١١

العراق ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣

١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٤٢-٤٩ ، ٥٢

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٥

٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧

٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩

١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١

١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٥

١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٠

١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠

١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١

١٩٤ - ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦-٢٤٣

٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤

٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ - ٣٠٧

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٨

٣٣١ - ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥١

٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢

٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٥

- علي أغا (المتسلم) ٧٤ •
علي أغا (كهية درويش محمد) ١٠٧ •
علي أغا (پاشا بعد ذلك) ٢٠٦ ، ٢٠٧ •
علي أفندي العمري ١٩٢ •
علي قلي خان (اردلان) ١٦٣ •
علي مردان خان (كردستان) ١٦٣ ، ٢١٦ •
علي محمد خان ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ •
علي نقى ٢٣٠ •
عليان (نائر) ٤٨ •
السيد عليوي ٢٨٧ •
العمادية ١٩ ، ٣٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ •
٧٤ ، ١٢٤ ، ١٦٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ •
٢١٣ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٧٩ ، ٣٤٣ •
٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ •
العمارة ١٣ ، ١٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ •
٣٥٧ ، ٣٣٧ ، ٣٧٦ •
عُمان ١٧ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٢٢٩ •
عمر اغا (كربلا) ٢٦١ •
عمر أغا (پاشا) ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ •
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ •
٢١٦ ، ٢١٧ •
عمر پاشا ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ •
عمر پاشا (ضابط أعاشة) ٨٣ •
عمر (كهية الصوباشي) ٢٧ ، ٧٣ •
عمر پاشا (سردار أكرم) ٣٤١ ، ٣٥٠ •
٣٦٧ •
عتر (نهر) ١٣ •
عنزة (القبيلة) ٥٦ ، ١٠٤ ، ٢٤٢ ، ٢٩٠ •
٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٩ •
علي پاشا الجليلي ٢٧٩ •
علي پاشا (بغداد ١٦٩٦) ١٢٠ •
علي پاشا (البصرة) ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ •
علي پاشا (بغداد ١٧٠٣) ١٥٥ •
علي پاشا (أفراسياب) ١٣٢ - ١٤٠ •
علي پاشا (الموصل ١٦٩٧) ١٢٣ •
علي پاشا (كهية وخليفة سليمان الكبير) ٢١٦ •
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ •
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ •
٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ •
علي پاشا (بغداد ١٥٤٩) ٦٢ •
علي پاشا تمرد ٤٨ ، ٥٠ •
علي پاشا حكيم زادة ١٦٨ ، ١٩٥ •
الحاج علي رضا پاشا (لاط) ٩٩ •
٣١٨ - ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ •
١٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ •
٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٤ •
علي پاشا قاضي زادة ٥٣ •
علي پاشا الوند زادة ٥٠ •
علي بك (سنجق بكى الغراف) ٤٨ •
علي بك (أخو حسن پاشا) ١٥٩ ، ١٦٣ •
علي بك (بن حسين افراسياب) ١٤٧ •
علي چلبى ٥٨ •

• عوينة (نجد) ٢٥٥ •

• عيسى المارديني (البصرة) ٢٤٦ •

• عينكاوه ٢٤ •

- غ -

غازان خان ٢٦ ، ٢٧

غازي حسن پاشا (الاميرال) ٣٠٩

الغراف ١٣ ، ١٤ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ١٠٣ •

الغرفة ١٥

الغريز (قبيلة) ٢٧٠ ، ٢٨٩ •

الغلزاي ١٦١ ، ١٦٨

غني محمد ١٠٩

غوليتش پاشا ٣٧٦

غومبرون ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ •

- ف -

فارس ١٧ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ١٣٠ ، ١٨٠ ، فرح آباد ١٦٧

• ٢٧٦ ، ٢٧١ •

فارس الجريا ١٠٤ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٩ ، فرسة ٣٠٥

• ٣٧٢ ، ٣٧١ •

فاطمة (بنت حسن پاشا) ١٥٩ ، ١٨٩ •

فالح السعدون ٣٧٠

الفاء ١٥٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠ • الفلوجة ١٤ ، ٥٦ ، ٤٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١

• ٣٨١ ، ٣٥١ ، ٢٩٥ ، ١٥٦ ، ١٢٠ •

فهد السعدون ٣٥٠

فيتش ٢٣ ، ١٢٩

فيصل بن تركي (نجد) ٣٦٣

فيصل (بن حمود الثامر) ٢٩٨

فتح الله الكعبي ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٧

فتحي بك (البصرة) ١٤٠ ، ١٤١

الفتلة (القبيلة) ٣٧٣

فيضي پاشا ٣٦٥

فيلكس جونز ٣٥٢

فيه ٣٠٥

- ق -

القائم ٣٥١

القاجار ٢١٤ ، ٢٩١

قادر پاشا بابان ٣٤٥

قادري پاشا ٣٦١

قارص ١٢٣ ، ١٨١ ، ١٨٧

قاسم پاشا ٥٢

قاسم پاشا العمري ٣٢٥-٣١٨

قاسم خان ٨٠ ، ٨٣

القالقليون ٢٨٥

القاهرة ٤٣ ، ٦٨ ، ١٣٩

قبان ١٢٨ ، ١٣١

قبلان مصطفى پاشا ١١٨

القبطان پاشا ٥٩ ، ٩٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٤

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦

٣٥٢

قبو قولي ٦٧

قحطان ١٠٢

قرچني خان ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٣١

القرعة ٣٧٧

القرنة ١٣ ، ١٧ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٠ ، ٢١٠

٢٢٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٧٦

قره بكر ٨٥

قره تبه ١٥ ، ١٨٠

قره چولان ١٠٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢١٣

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣

قره داغ ١٨ ، ٤٠ ، ٦١

قره دير ١٦

قره قويونلي ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠

قره مصطفى (الصدر الاعظم) ١٠٧

١٦٠

قره مصطفى (پاشا طرايزون) ١٥٩

قره مصطفى پاشا ١١٠ ، ١١٧ ، ١٤٥

١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢

قره يوسف ٢٨ ، ٢٩

قزلرباط ٢٩٥

قزوين ٣٥ ، ٨٩ ، ١٦٠ ، ١٨٧

قشم ٥٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦

قشعم ٢٥ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ١٥٦ ، ١٩١

قصر شيرين ١٧٠ ، ٢٤٩

القصيم ٢٧٨ ، ٣٦٥ ، ٣٧٦

القطيف ٤٠ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢

٢٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧٦

قطر ٣٦٣ ، ٣٧٦

قلعة جعبر ٣٥٥

قلعة صالح ٣٧٦

قناة السويس ٣٥٦

قندهار ١٦١ ، ١٨٢

قوش تبه ١٥

قونية ٨٧ ، ١٤٥٥ ، ١٥٩ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ ،

• ٣٨٤

قهاد ٦٠

قینارجی (معاهدة) ٣٠٩ ، ٢١٨

- ك -

کارمان ١٩ ، ٨٢

کارون ٢٠ ، ٢٤٠ ، ٢٩٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٦

الکاظم ١٥ ، ٣٢ ، ٣٩

کاظم پاشا ٣٧٣

الکاظمية ٧١ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٤٤ ، ٣٢٢

• ٣٧٦ ، ٣٥٩

کالول ١٨

کاليه ٣٥٥

الکبوشيون ١١٣ ، ١٢٢

کربلا ١٤ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٨

• ٨٠ ، ٨١ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٨٧

• ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥

• ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢

• ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨

الگرج ٢٦١ ، ١٨١ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤

• ٢٣٣٨ ، ٢٤٠ ، ٣٢١

• ٢٦٧ ، ٢٦٥

الکرخ ٢٣ ، ٥٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٤٤

کردستان ، الاكراد ١٠ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩

• ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣

• ٤٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠

• ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١١٩

• ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٧

• ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١

• ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١

• ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨

• ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠

• ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

• ٢٩٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٤

• ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٦

• ٣٧٢ ، ٣٨٨

کركوك ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٤

• ٣٥ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٤

• ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨

• ٩٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢١

• ١٢٢ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤

• ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣

• ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢١١ ، ٢١٧

• ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

• ٢٥١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢

• ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

• ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٢٢

• ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٩

• ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦

کرمان ٦١

الکرمليون ١١٣ ، ١٤٠ ، ٢٢٨ ، ٣٠٥

کرمشاه ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣

• ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩

• ١٧٠ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨

كوركيل ٥٩	٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٨
الگوزلگلي (راجع محمد رشيد پاشا)	٣١٣
الكوفة ١٤ ، ٣٨٤	كرنت ٢٩٥
گولنباد ١٦١	كرت ١١٦
گولغبر ٨٨ ، ٩٠	كريم خان ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ - ٢٢٣
كولومبس ١٢	٢٢٦ - ٢٣٣
كولينگود ٣٥٢	كفري ١٥ ، ١٠٦ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٤
كوميت (باخرة) ٣٥٢	٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤
كونك ١٣٤ ، ١٣٥	الكفل ١٤ ، ٢٦١ ، ٣٥٠
كوي ١٩ ، ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٧٠ ، ١٩٤	كلب علي اللري ٢٢٠
٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠	گلبنادات ٢٨٦
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٣٤٣	الكلدانئون ١٨٣
كوي سنجق ١٠٥ ، ٢٥٠	كلكتا ٢٠٧ ، ٣٥٥
الكويت ٥٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦	كلوديوس ريج ٣٠٧ ، ٣٠٨
٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤	كلهور ١٧ ، ١٨ ، ٣٤ ، ١٢٣
كويرش ٩	الكميت ١٤٣
كيديكلي ٢٠٤	گنجه ١٨١
گیلان ٣٠	کنعان (قنّاء) ٣٨٢
- ج -	گوا ١٣٤ ، ١٣٥
لارين ١٤٠	الکوت ١٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٥ ، ٣٥٣
لاتوش ، المستر ٢٣٤	٣٥٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٦
اللاظ ١٩٨	کوت معمر ١٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ٣٧٦
لالا حسين ٣١	کوتاهية ٢١٩
لام ١٠٥	الکودة ١٣٩ ، ٣٨٥
لاوند ١١١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦	الکور ٢٠
٢٧٦ ، ٢٨٥	گوران ١٨
لايارد ٣٤٠	کوريجان ١٦٩

مبارك (الكويت) ٣٦٥ ، ٢٨٤ •

السر ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٠ ، مبارك بن مطلب ٥٩ •

٤٠ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١١٨ ، ١٦٥ ، المبرز (نجد) ٢٥٩ •

المتأولة ٢٣٨ •

١٩٠ •

مجيد پاشا (البصرة) ٥٥ •

لرستان الصفري ١٧ ، ٢٤١

لرستان الكبرى ١٧ ، ٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، مجيدية (باخرة) ٣٨٣ •

محمد (بن الصوباشي) ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ •

٢٢٣ ، ٢٣٥ •

٧٨ •

لطيف مرزا الصفوي ، ٦٤ ، ١٦٤

محمد أحمد الطويل ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠١ •

الموم ١٤ ، ٢٠٩ ، ٣٥٢

١٢٦ •

لنچ ٣٥٢ ، ٣٥٣

محمد أمين (بن بكر پاشا ، موصل) ١٢٣ •

ليلان ١٧٨

محمد آغا (الكهية) ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ •

ليمان فون ساندروز ٣٨٦

٢٩٦ ، ٢٩٧ •

- ٢ -

محمد بابان ٢١٦ ، ٣٢٢ •

ماجد السعدون ٢٩٨

ماردين ١٣ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٩١ ، ١٥٨ ، محمد پاشا الابيض ١١١ ، ١١٣ •

١٦٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، محمد پاشا خاصكي ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ •

٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، محمد پاشا (الأحساد) ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ •

٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ •

١٤٥ ، ١٨٩ •

٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٧٦ •

محمد بن خانه پاشا بابان ١٦٦ ، ٢١٦ •

مالك أحمد ١١٠ •

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ •

محمد پاشا الجليلي ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢١٧ •

مالكولم ، الجنرال ٣٠٧ •

محمد پاشا بلطجي ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٣ •

مأمون (أردلان) ١٨ ، ٦١ ، ٦٢ •

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، محمد بك الشاوي ٢٢١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ •

مانع ١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ •

٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ •

مانيسي ، المستر ٣٠٦ •

محمد بن بوداق (البصرة) ١٤٤ •

ماوند ١٠٥ •

محمد التريياكي ٢١١ •

ماهي دشت ١٧٠ •

محمود ياشا بابان (بن خاتنه) ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 • ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 محمود ياشا أبنجة بيرقدار ٣٣٩ ، ٣٤٢ ،
 • ٣٤٤ ،
 محمود ياشا الجليلي ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 محمود الأول ، السلطان ١٦٩ ،
 محمود الثاني ، السلطان ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
 ٢٧٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٣٣ ،
 • ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٧٧ ،
 محمود شوكت ياشا ٢٩٦ ،
 محمود جينالزادة ٥٣ ،
 محمود خان (أفغان) ١٦١ ، ١٦٢ ،
 محمود بك سوران ٢٤٩ ،
 محمود بك الشاوي ١١ ،
 المحمودية ٥٣ ،
 المحسن ٢٩٩ ، ٣٣٤ ، ٣٦٩ ،
 المحيط الهندي ١٣١ ،
 مداد بك ٢٧٠ ،
 مدحج ياشا ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٨ - ٣٦٥ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ،
 • ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
 المدينة (قرب البصرة) ٤٨ ،
 المدينة المنورة ١١٥ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩ ،
 « مدينة لندن » ٣٥٣ ،
 مراد (آق قويونلي) ٣١ ،
 مراد ياشا (الصدر الأعظم) ٥٢ ، ١٠٩ ،
 مراد ياشا (بغداد ١٥٧٠) ٥٠ ،

محمد التقي (الامام) ٣٩ ،
 محمد حسين خان ٢٣٢ ،
 محمد خان تكلي ٣٥ ، ٣٧ ،
 محمد رشيد ياشا الكوزلگلي ٣٤٠ ، ٣٤٩ ،
 • ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧ ،
 محمد بن سعود ٢٥٥ ،
 محمد المعجمي (عجم محمد) ٢١١ ، ٢١٩ ،
 • ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ،
 الشاه محمد (قره قويونلي) ٢٩ ،
 محمد علي ياشا (مصر) ٢٧٨ ، ٣١٨ ،
 محمد علي مرزا ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 • ٢٩٢ - ٢٩٧ ، ٣١٣ ،
 محمد بن عبدالوهاب ٢٥٤ ،
 محمد القدوري ١١٨ ،
 محمد قلي ١٠٩ ،
 محمد قنبر ٧٢ ، ٧٣ ،
 محمد كويريلي (الصدر الأعظم) ١١٦ ،
 محمد (كور) ٣٤٣ ،
 محمد المانع ١٩٠ ،
 محمد بن مبارك (الحويزة) ١٣٤ ،
 محمد المصرف ٣١٦ ، ٣٢٢ ،
 المحمرة ٢٩٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٦ ،
 محمود أغا (كهية) ٢١٠ ،
 محمود ياشا الأعرج ١٨٢ ،
 محمود ياشا بابان (بن عبدالرحمن) ٢٧٩ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 • ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٤٤ ،

المقاصيص (القبيلة) ٢٧٠ •

منصور السعدون ٣٥٠ ، ٣٧٠
مكة ٧١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٤٥ ، منصور بن مطلب (الحويضة) ١٢٨ ، ١٣٤

٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٦٠ •

المكري (قبائل) ١٩ ، ٦٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤ •

الموالي ٢٥ ، ٥٦ ، ١٠٤ ، ١٢٠ •

المللي (الأكراد) ٢١٣ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ •

مؤتمر باريس (للبريد) ٣٨٢ •

٢٥٣ •

المستر مور ٢٢٩

الممالك ١٩٧-٢٢٠ ، ٢٢٥-٢٥١ ، ٢٦٥ •

موسكو ١٦٢ ، ٣٣٥

٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ •

موسى پاشا (١٦٤٥) ١٠٨ ، ١٠٩ •

٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ •

موسى پاشا الصغير ١٣٩

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ •

الموصل ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ •

٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ •

٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٧ •

٣٣٠ ، ٣٥١ ، ٣٨٢ •

٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٤ •

المنافى ١٣٦ ، ٢٠٥ •

٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ •

المنتفك ، المتفكيون ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٤٦ •

٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥ •

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٩٠ •

١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ •

١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ •

١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ •

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ •

١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٧٠ •

٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ •

١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٤ •

٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ •

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ •

٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ •

٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ •

٣٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٠ •

٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ •

٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ •

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ •

مندلكن ١٥ •

٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣١٦ ، ٣١٧ •

مندلي ٣٥ ، ٤٦ ، ١٥١ ، ١٧٠ ، ١٨٣ •

٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ •

٢٢٠ ، ٢٦٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٥٧ •

٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ •

٣٧٦ •

٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤ •

الموصل (باخرة) ٣٥٣

المنصورية (ولاية البصرة) ١٣ ، ١٤٣

مدلداثا ٢٣٨

المهدي (الأمام) ١٦٩

مهربان قلعة ٨٨ ، ٨٩

مهنا (شيخ الخزاعل) ١٠٧

ميانة ٣٦

المير ابراهيم ٥٩

المير حسين (الصدر الاعظم) ٧٤

مير فتاح ٨٢ ، ٩٠

مير محمود ١٦١

المير ناصر ٥٦

ميكائيل ١١٢

- ن -

نابليون ٣١٠ ، ٣٧٩

نادر قلي شاه ٩٩ ، ١٦٢ - ١٨٧ ، ١٨٩

١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٤

٢٨٦ ، ٢٦٥

ناصر پاشا السعدون (متصرف البصرة)

٣٦٤ ، ٣٧٠

ناصر الدين شاه ٣٦٥

ناصر المهنا ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٩ ، ٩١

الناصرية ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦

ناصيف آغا ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠

ناظم پاشا ٣٦١ ، ٣٨٦

نافذ پاشا ٣٦٣ ، ٣٦٤

نامق پاشا ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨

٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩

٣٨٢ ، ٣٦٧

نامق پاشا الصغير ٣٦١

نبي خانم (أم سعيد پاشا) ٢٨٣

نجد ١٦ ، ٢٧ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٤ ، ١٠٤

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧

٢٧٨ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ ، ٣٨٦

نجرس (شمر) ٣٤٩

النحف ١١ ، ١٣ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٨١

٨٤ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١٤٦ ، ١٥٢

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢١٥

٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦

٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧

٣٥٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨

نجيب پاشا ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥

٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٤

نخچوان ٣١

النصارى ٢١ ، ٢٤ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ١١٣

١١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٣

٣١٩ ، ٣٨٠

نصوح پاشا ٥٣

نصيبين ١٦ ، ٢١٣ ، ٣٤٣

« النظام » ٣٧٧

نظام الملك ١٩٦

النعمانية ١٤

نعمان آغا ٢٢٣ ، ٢٣٤

نعمان افندي (الدفتر دار) ٢٤٥

نعمان پاشا التجلي ٢٧٢

نهر الشاه ٣٢

نوح (بن داود پاشا) ٣٢٨

الهايتة ٢٩٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ .

هايدو ٣٠

ههب ٢٩٤

الهرسك ٢٣٨

هرمز ، قلعة ١٢ ، ٢٣ ، ٤٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ .

الهفوف ٢٥٩ ، ٣٧٦

الهكاريون ١٩ ، ٢٠ ، ٦٠ ، ٣٧٢ .

الهماوند ١٨ ، ٣٣٤ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٦ .

همدان ٣٦ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٦٣ ،

١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٣٣٤ .

الهند ٢٣ ، ٥٨ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٣٥ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٨٢ ، ١٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٣١٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ،

٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٨٧ .

الهندية ١٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨ ، ٣٤٩ ،

٣٥٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ .

الهندية ، سدة ٣٨٦

الهنود ٢١ ، ١٣٩

هنغارية ٣٥

هولاكو ٩ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٧٣ .

الهنولانديون ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ٢٢٦ .

هيت ٥٦ ، ٨٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

هيرودوتس ٣٥١

تيتوكريس (باخرة) ٣٥٢

نيلسون ١٧٧ ، ٢٢٩

نينوى ١٢

نيوبري ١٢٩

- ٩ -

وادي الشفاح (شيخ زبيد) ٢٩٩ ، ٣٤٩ ،

٣٥٠ .

واسط ١٤

والي پاشا ٥٣

والي بك ٦٣

وان ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،

١٦٨ ، ١٨٧ .

وتج (نجد) ٢٥٩

وجيهي ٣٤٠

ودين ٢٣٨ ، ٣٥٨

وزير حسن پاشا ٥٢

ولاكيا ٢٣٨

الولايات المتحدة ٣٦٧

وليم الرابع ٣٥١

الوند ٣٠ ، ٣١

الوهايون ١٠ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤-٢٦٢ ، ٢٧٠ ،

٢٧٦-٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

ويس (الافغاني) ١٦١

ويلكوكس ، ويليام ٣٧٤

- ٥ -

هارفورد جونز ٣٠٧

هارون الرشيد ٩ ، ١٣٣ ، ١٥٨ .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٧	الممالك	٣٢٩	علي رضا
١٩٧	أبو ليلة		الفصل الحادي عشر
٢٠٦	علي وعمر	٣٣٢	من الممالك الى مدحت پاشا
٢١٤	باباني وأيراني	٣٣٢	العلاقات الامبراطورية والاجنبية
٢١٧	الأنسان ذئب يفترس أخاه الأنسان	٣٣٦	ظاهرات الاصلاح
		٣٣٩	شخصيات هذه الحقبة
		٣٤١	توسيع الحكم المباشر
٢٢٥	سليمان الكبير	٣٤٦	سياسة القبائل ١٨٣٨ - ١٨٦٩
٢٢٥	حصار البصرة واحتلالها	٣٥٠	المواصلات الجديدة
٢٣٣	تبوء الپاشا الكبير : الرجل والزمن		الفصل الثاني عشر
٢٣٩	القبائل والاتباع ١٧٨٠ - ١٨٠٢	٣٥٨	أواخر القرن التاسع عشر
٢٥٤	الوهابيون	٣٥٨	مدحت پاشا
٢٦٢	نهاية الپاشا الكبير	٣٦٢	التوسع في الجزيرة العربية
		٣٦٧	الخطة الجديدة في تسوية الاراضي
			حكومة العراق في نهاية القرن
		٣٧٤	التاسع عشر
		٣٨٦	تأمل وحكم
		٣٩١	الملاحق
		٣٩٢	الملحق الأول : مراجع الكتاب
		٤١٥	الملحق الثاني : نسب بعض الاسر
		٤٢١	الملحق الثالث : ملوك تركية وايران
			المتعاصرون
		٤٢٣	أيضاح المصطلحات والاسماء
			الاعجمية
		٤٢٦	صورة كتاب الأب انستاس الكرملی
		٤٢٨	فهرست الاعلام
			الفصل السابع
٣٠١	نهاية عهد		
٣٠١	نظرة أخيرة الى عراق الممالك		
٣١٥	عمل الله وعمل الأنسان		
٣٢١	سقوط بغداد		

